

د. أحمد بن الطالب النعدي
المطلوب

محمد بن العتيق

المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

د. / عبد الله العزيز
د. / س. العزيز

١١ / ١١ / ١٤٠٨ هـ

طالب: ياسر أحمد السليمان

دكتور
مستعد عبد المطلب الحفني النبوي

نور في لفه ختلاف والنساق في القرآن الكريم

رسالة مقترحة لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة

إعداد الطالب / ياسر أحمد حايي السليمان

إشراف الدكتور / عبد المطلب الحفني النبوي



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٣٥٢

١٠٠٤٤٦٤

١٤٠٨ هـ

المقدمة :

الحمد لله الذي أنزل إلينا قرآنا عربيا غير ذي عوج ، وأشهد أن لا إله إلا الله
ما ترى في خلقه من تفاوت ولا في آياته من اختلاف .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله بعثه الله بالحجة الدائمة والمعجزة الباقية الخالدة ،
أكرمه الله بأن جعل معجزته الدالة على صدقه عين رسالته ، آيات تتلى على مرّ الدهور
تحدى بها الأنس والجن في بلاغة اللفظ وإحكام المعنى وتناسق المبنى ، اللهم صل
وسلم وبارك على هذا النبي الأمي وآله وصحبه، وبعد :

فإنني منذ أن كنت في مرحلة الكلية ثم السنة المنهجية قد حُبب إليّ علم التفسير
وما يتصل به من علوم .

ولقد كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) وغير
ذلك مما ورد في الحضر على تعلم كتاب الله وتدبره والعناية به وتبليغه ، وكذلك ما ميّز
الله به القرآن من كونه معجزة خالدة ومنهجاً للحياة خليقاً بأن يُعنى به جل العناية ،

كل ذلك كان الدافع لي للاتجاه لدرس القرآن وخدمته ، ولما كان كتاب الله هو
السبب في بقاء الإسلام والمسلمين والدافع لهم لأن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ولأن
ينوبوا عن نبيهم في تعميم الدعوة والجهاد في أرجاء الأرض ليحققوا معنى الاستخلاف
الرباني وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى
عدل الإسلام .

لما كان كتاب الله هو السبب في ذلك :

أذكر هنا أعداء الإسلام منذ البداية فلا جرم أنهم حاولوا التصدي لهذا الكتاب
بإثارة الشبهات والأباطيل والتخرصات من أجل أن يحولوا بين المسلمين وبين هذا
الكتاب الذي هو مصدر عزتهم وصلاحهم وقوتهم .

ومن خلال قراءتي في كتب التفسير وعلوم القرآن وجدت أن من الشبهات والأباطيل
التي تناقلها أعداء الإسلام من زنادقة ويهود ونصارى ومناققين ، الادعاء بأن القرآن
اختلافاً وتناقضاً وكل ذلك بدافع الكيد والحسد أو الجهل وعدم التدبر .

وقد وجدت أنه منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - عصر نزول القرآن ، وحتى يومنا
هذا ما زالت تلك الادعاءات والأباطيل تُروّج بمختلف السبل والأساليب للنيل من عظمة
القرآن ولتشكيك المسلمين به إن استطاعوا وكذلك لتثبيت أهل أديانهم ومعتقداتهم على
ما هم عليه من الباطل ببيان أن ما عند المسلمين إنما هو كتاب متناقض .

وقد بينت في الفصل الأول من هذه الرسالة عرضاً إجمالياً لتاريخ موهم الاختلاف وبيان
أهم المصادر ، وبينت أن أعداء الإسلام في هذا العصر قد اتخذوا وسيلة جديدة للنيل
من القرآن ، وهو أنهم أكلوا هذه المهمة لبعض أبناء المسلمين ممن يتظاهر بالإسلام ،

وذلك من أجل أن يهدوا حصوننا من داخلها وتجذب لك واضحا في فصل موهبهم
الاختلاف في آيات القصص من الباب الثاني وذلك ضمن مخططاتهم للتأمر على الاسلام
وأهله والعمل على فقد الثقة بمصادر التشريع لدى المسلمين وقد تصدى لهم كل غيور
من العلماء لدحض افتراءاتهم ورد كيدهم الى نحورهم .

وقد وجدت أن ماكتب في الرد على افتراءات أعداء الاسلام وجدت أنها مباحث
متفرقة ومتناثرة لم تُكتب بشكل مُستوعب أو موضوعي .

من أجل ذلك عقدت العزم بعد استشارة الله تعالى ، ثم مشورة أهل العلم والاختصاص
على أفراد هذا الموضوع بالبحث والدراسة والجمع من أجل خدمة كتاب الله ، ثم لتحضير
رسالة الماجستير في قسم الكتاب والسنة .
وتنحصر أهم البواعث على اختياري لهذا الموضوع بالآتي :-

أولا : الرد على أعداء الاسلام برد شبهاتهم وافتراءاتهم وادعائهم حول تناقض بعض
آيات القرآن ، وبيان أنهم قد أتوا من جهة جهلهم ومكرهم وأحقادهم الدنيئة ،
وتؤكد الحاجة لمثل هذه المباحث في هذا العصر الذي اشتدت فيه المؤامرات
والمخططات ضد الاسلام وأهله .

ثانيا : خدمة كتاب الله تعالى الذي هو مصدر التشريع والمصدر لحياة البشر وذلك بدراسة
آياته وبيان توافقها وتعاضدها وأنها في غاية التناسق والانسجام وذلك بشكل
موضوعي ، مستوعبا في ذلك كل مايتوهم أنه مختلف أو متناقض .

ثالثا : الاستدلال بأن توافق آيات القرآن وعدم اختلافها إنما هو دليل من أدلة نبوة
سيد المرسلين وأن هذا القرآن إنما هو وحي يوحى لأنه لو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، كما سيأتي توضيحه ، ومعلوم أن الله تعالى قد تحدى
بالقرآن المعجز ببيانه فصاحة ونظما وتناسقا أدرك هذا من أدركه من أهل اللغة والفصاحة
وأهل البيان والبلاغة ، ولكننا اليوم لم نعد نملك في اذنا عقيرة اللغة العربية وأسرارها
وبلاغتها لنتمكن من أن نستنبط بلاغة القرآن وإعجازه .

لذلك أصبح مثل هذه الدراسات والأبحاث والتي تستخرج من القرآن أدلة على صدق
مبلغه وأنه تنزيل من عزيز حميد ، أصبحت مثل هذه الدراسات من واجبات طلبة العلم .
رابعا : ان ماكتب حول هذا الموضوع قد يما لا يعد وكونها مباحث ضمن مصنفات كتب علوم
القرآن كالبرهان والاعتقان ، أو متناوله المفسرون أثناء تفسير الآيات على تفاوت
بينهم في الاهتمام بهذا العلم ، أو مباحث تناولها من صنف في مشكل القرآن
كابن قتيبة والعزمين عبد السلام وزكريا الانصاري وغيرهم رحمهم الله تعالى .

لذلك فان هذا الموضوع لم ينل حظه من البحث والدراسة والجمع وإن أحسن من كتب حول هذا الموضوع في هذا العصر هو العلامة الجليل الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي في كتابه المسمى : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب " وهو مطبوع مع أضواء البيان / الجزء العاشر .

والشيخ رحمه الله قد أفاد وأجاد وأفرغ فيه من علمه الكثير إلا أنه لم يستوعب كما أنه رتب كتابه حسب ورود الآيات في سور القرآن ، وليس ترتيبا موضوعيا إضافة الى أنه لم يمهّد له بدراسة ، وفي كثير من مباحثه نحى نحو يصعب فهمه على كثير من طلبة العلم فضلا عن المثقف العادي ، انظر مثلا : ص ٦٠ - ٦٢ ، ١٨٣ - ١٨٤ ، ٢٦٣ - ٢٦٨ .

منهج البحث :

أولاً: استيعاب جميع الآيات القرآنية التي ادّعي الطاعنون والجاهلون أنها مختلفة أو متناقضة ، وكذلك الآيات التي قد تكون محل توهم^(١) وذلك ببيان وجه توهم الاختلاف بينها ، مع الرد العلمي المدعم بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، والاستشهاد بأقوال العلماء والمفسرين في كل مبحث ، واقتصر في المباحث اللغوية وفصل القرآت والتي جاءت في الفصل الثاني اقتصر على إيراد أمثلة شاملة تُغني عن غيرها وتوضح المراد لعدم إمكانية استيعابها

ثانياً : إذا كان التوفيق بين الآيتين له عدة أوجه أذكر أحدها وأهمها ، وإذا ذكرت معها وجهاً ضعيفاً فإنما هو لكونه له حظ من النظر والاعتبار ، وكذلك لبيان ضعفه ولتأكيد ما هو صحيح وترسيخه ما مع العناية ببيان أدلة ما هو صحيح وضعف ما هو ضعيف ، والاعراض عن الأوجه البعيدة والغريبة

ثالثاً : أحاول بقدر الإمكان التوفيق بين الآيات بأسلوب واضح مفهوم للجميع ، ومن أقرب طريق وأقصره لتسهيل فهم الآيات وتناسقها وعدم اختلافها ، وعدم الخوض في أمور جانبية إلا إذا كانت من تنمة الفائدة ولها صلة بالبحث وفهم المعنى من غير تعقيد أو تطويل بقدر الإمكان

رابعاً : من المعلوم أن ادعاء النسخ بين آيتين يعني وجود تعارض بين تلك الآيتين عند المدّعي من كل الوجوه ، وبما أن ادعاء النسخ قد حصل فيه تساهل كثير فلا ألتزم البحث في كل آيتين ادّعي فيهما النسخ لعدم الاعتداد بهذا الادعاء ولظهور بطلانه

خامساً : إذا كان الكلام المراد إثباته قد توارده العلماء بالفاظ مختلفة ومعانٍ متقاربة أوردته بأسلوبي وصياغتي مع الإشارة إلى المصادر والمراجع ، وإذا اختلف المعنى : اختار الراجح وأشير إلى المصادر ، وأنقل أحياناً عبارات بعض العلماء بنصها أو بتصرف أشير إليه

(١) قد تكون هناك أمثلة لم أذكرها إما لكونها ليست محل توهم أو

إني لم اتوصل إليها ، وفوق كل ذي علم عليم

سادسا : إذا كان دفع التوهم مستفادا من النص وهو ظاهر في ذلك فلا اعتبره من موهم الاختلاف ومثاله : قوله تعالى :

(يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ، وإنّ يكن منكم عشرون صابرون يغلّبوا مائتين ، وإنّ يكن منكم مائة يغلّبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفا فإنّ يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإنّ يكن منكم ألف يغلّبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) - الانفال / ٦٥ - ٦٦ -

فقله : "الآن خفف الله عنكم" ظاهر في أنه نسخ النص الاول (١)

ولذا فلا تعارض ولا إمكانية لتوهم ذلك ، ففي مثل هذه الامثلة لا اتعرض لها

سابعا : عند تفسير الايات التزم بالقول الظاهر والمعنى الراجح مع تجنب التأويلات البعيدة ، وخير ما يُفسر به القرآن هو القرآن ، وما صحّ من السنة النبوية ، ثم أقوال الصحابة وعلماء التفسير من السلف

ثامنا : ألّتم بعزو الآيات القرآنية الى مواضعها من السور ، وكذلك تخريج الاحاديث النبوية مع بيان حكمها من الصحة والضعف ما أمكن ذلك

وبعد : فإنني قد قدمت في هذا البحث جهدي وحاولت بقدر الامكان أن اخدم فيه كتاب الله ، إلّا أنني أعتقد اعتقادا جازما بأنّ هذا البحث لن يستوي علي سؤقه ، ولن تُجنى ثماره إلّا بعد التقويم والنقد والاستدراك ، ذلك بأن هذا البحث كأبي بحث آخر هو جهد بشري لا بُدّ أن يعتريه الخلل والاختلاف مصداقا لقوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) - النساء / ٨٢ -

(١) على ما هو قول الجمهور ، وقال مكّي : إنه تخفيف وليس نسخ
كإباحة الاقطار للمسافر (روح المعاني للالوسي ج ١٠ / ٣٢)

خطة البحث :

يشتمل البحث على :- مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة .
مقدمة : فيها كلمة ، ثم بيان البواعث على البحث ثم بيان منهج البحث وثلاثة أبواب .

الباب الاول : دراسة وتمهيد وهو من خمسة فصول :
أولا : عرض اجمالي لتاريخ موهم الاختلاف وبيان أهم المصادر .
ثانيا : معنى موهم الاختلاف والتناقض في القرآن .
ثالثا : تفسير قوله تعالى " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا - النساء / ٨٢ -
رابعا : أسباب وجود موهم الاختلاف وموقف الباحث عند ما ظاهره التعارض في النصوص .
خامسا : بيان أن سلامة القرآن من الاختلاف مع طوله من دلائل النبوة .

الباب الثاني : موهم الاختلاف في النص القرآني وهو من أربعة فصول .
أولا : موهم الاختلاف في القراءات .
ثانيا : موهم الاختلاف فيما يخص الكتاب مثل الشعر، النسخ ، المحكم والمتشابه ...
ثالثا : المباحث اللغوية التي هي مكان توهم الاختلاف .
رابعا : موهم الاختلاف في القصص القرآني وقد ألحقت به كل ما يتعلق بالقصص وإن كان مما يختص بالباب الثالث .

الباب الثالث : موهم الاختلاف في مضمون القرآن وهو من عشرة فصول .
أولا : موهم آيات العقيدة .
ثانيا : موهم آيات النبوة والرسالة .
ثالثا : موهم آيات المؤمنين .
رابعا : موهم آيات أهل الكتاب .
خامسا : موهم آيات المشركين .
سادسا : موهم آيات المنافقين .
سابعا : موهم آيات الأحكام .
ثامنا : موهم الآيات الكونية .
تاسعا : موهم آيات الجهاد .
عاشرا : موهم آيات القيامة والحساب .

ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصلت اليها والوصايا والمقترحات .
ثم المراجع والفهارس .

الباب الاول : دراسة وتمهيد
وهو من خمسة فصول

الفصل الاول : عرض اجمالي لتاريخ موهم الاختلاف وبيان اهم المصادر
الفصل الثاني : معنى موهم الاختلاف والتناقض في القرآن
الفصل الثالث : تفسير قوله تعالى :
(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)
- النساء / ٨٢ -

الفصل الرابع : اسباب وجود موهم الاختلاف في القرآن ، وموقف الباحث
عند ما ظاهره التعارض في النصوص الشرعية اجمالا
الفصل الخامس : بيان ان سلامة القرآن من الاختلاف مع
طوله من ادلة النبوة

الفصل الاول :

عرض إجمالي لتاريخ موهم الاختلاف ، وبيان أهم المصادر

عصر النبوة :-

يبدأ تاريخ توهم الاختلاف في القرآن منذ انطلاق الرسالة وانتشار الدعوة ، عندما بدأت آيات القرآن تقرر أسماع الناس مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم ، وقد كان هذا القرآن هو المعجزة التي تحدى الله تعالى بها الإنس والجن على أن يأتوا بمثله فصاحة وبلاغة وتناسقا ، وقد اشتمل هذا القرآن إضافة الى المعجزة البيانية على دلائل لنبوة خاتم المرسلين

وإن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله ، ومن ضمن هذه الدلائل ما أخبر به القرآن من خلوه من الاختلاف والتناقض ، ولذلك استنكر على المنافقين والمشركين عدم تدبرهم للقرآن ، لأنهم لو تدبروه لأيقنوا أنه من عند الحكيم الخبير ، قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) - النساء / ٨٢ - ولكن أعداء الله بسبب ما كان في قلوبهم من الحسد والبغي والجحود أخذوا يثيرون الشبهات حول القرآن للنيل منه ، وذلك لما رأوا عزة الاسلام وانتشاره وكثرة أنصاره ، وبقي هذا المسلك يدين أعداء الاسلام على مرّ العصور كما سيأتي ، وهدفهم هو توهين أمر القرآن والطعن في صحة مصدره كيذا وحسدا وعدوانا ، وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفسر القرآن للصحابة - رضي الله عنهم - ويبين لهم ما خفي عليهم منه ، ويجيب عن شبهات أعداء الاسلام كما سيأتي ، ثم تولى هذه المهمة من بعده علماء الإسلام وحماة حياضه الذين هم ورثة الأنبياء ومشاعل الضياء ، ولنبدأ بذكر ما وقع من توهم الاختلاف في عصر النبوة :-

أخرج الامام أحمد^(١) والامام مسلم^(٢) عن المنيرة بن شعبة - رضي الله عنه - قال (لما قدمت نجران سألتوني فقالوا : إنكم تقرأون : " يا أخت هارون " - مريم / ٢٨ - وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قدمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألته عن ذلك فقال : " إنهم كانوا يُسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم ")

(١) مسند الامام احمد : ج ٢ / ٥٢٢

(٢) صحيح مسلم : كتاب الاداب ، باب بيان ما يستحب من الاسماء (شرح النووي ١٤ / ١١٧) والترمذي في سننه ، كتاب التفسير ، باب ومن حورة مريم ٥ / ٣١٥ ، رقم ٣١٥٥

فهذا الحديث يدلنا أن نصارى نجران توهّموا وجود تناقض بين آيات القرآن ، وحاولوا إثارة الشبهة حول القرآن في عصر النبوة وقد أجاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن شبهتهم بأن بني إسرائيل كانوا يُسمّون أولادهم بأسماء الأنبياء ، ولهذا فإن مريم - عليها السلام - كان لها أخ اسمه هارون ، أو أن هارون كان اسم رجل صالح في زمانها فشهوها به في الصلاح ، وتشابه الاسم واللقب لا يدل على أن المُسمّى واحد كما أوهم نصارى نجران (١)

ومن ذلك ما كان المشركون يثيرونه من شبهات حول قضية النسخ في القرآن ، قال الواحدي (٢) : (قال المفسرون (٣) : إن المشركين قالوا : ألا ترون أن محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ؟ ! ما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً ، فأنزل الله تعالى : (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) - النحل / ١٠١ وأنزل أيضاً : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) - البقرة / ١٠٦ - وأخرج ابن اسحاق وابن جرير (٤) عن ابن عباس قال : (أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - سلام ابن مشكم في عامّة من يهود ساهم فقالوا : أخبرنا يا محمد بهذا الذي جئتنا به حق من عند الله؟ فانا لانراه متناسقاً كما تناسق التوراة ، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوباً عندهم ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) - الاسراء / ٨٨ -

فهؤلاء المشركون واليهود والنصارى أثاروا الشبهات حول القرآن بأنه متناقض وغير متناسق ، ولكنها كانت مجرد زوابع يثيرونها من غير سند أو حجة ، وإنما تدل على بغيتهم وجحودهم وتخطيهم

(١) راجع الباب الثاني ، فصل توهم الاختلاف في مضمون القصص ، حيث فصلت القول هناك
(٢) اسباب النزول للواحدي ، ص : ٣٢ تحقيق السيد احمد صقر ، ط ٢ ، دار القبلة والواحدي : هو علي بن احمد الواحدي النيسابوري ، من علماء القرن الخامس ، برع في التفسير والنحو واللغة والقراءات ، ت : ٤٦٨ انظر ترجمته في : طبقات المفسرين للسيوطي : ٦٦ ، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري : ٥٢٣/١ (٣) زاد المسير : ١٢٧/١ ، تفسير القرطبي : ٦١/٢ ، روح المعاني للالوسي : ٣٥١/١ (٤) تفسير ابن جرير ج ١٥ / ١٥٨ ، الطحطاوي ، وانظر لباب النقول للسيوطي : ١٤٠ ط ٢

وعدم تدبرهم للقرآن ، فهم يعلمون أنّ هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله ، ولكن الحسد والجحود يؤدى الى الكفر وغمط الحق (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) - الانعام / ٣٣ - هذا موقف أهل الكفر من القرآن ، أما موقف الصحابة رضي الله عنهم فكان موقف المؤمن من المتدبر الموقن بأن كتاب الله (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) - فصلت / ٤٢ - كيف لا وهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل ، وضحوا بالنفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة الله ،

ولنذكر هنا ما أخرجه ابن جرير^(١) عن جبير بن نفير قال : (كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإني لأصغر القوم ، فتذكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقالت أنا : أليس الله يقول في كتابه : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) - المائدة / ١٠٥ -

فأقبلوا علي بلسان واحد وقالوا : تنزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدري ما تأويلها ؟ فتمنيت أني لم أكن تكلمت ، ثم أقبلوا يتحدثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حديث السن ، وإنك نزع آية لا تدري ما هي ، وعسى أن تدرك ذلك الزمان ، اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك لا يضرك من ضل اذا اهتديت) اهـ

ونرى من هذا الأثر كيف أنّ الصحابة - رضي الله عنهم - قد دفعوا ما توهمه جبير بن نفير من أن آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تُعارض الآية التي ذكرها ، ويؤمنوا له أنه لم يدرك معناها ولا تأويلها^(٢)

عصر ما بعد النبوة

أشهر من تكلم في العصر الذي تلا عصر النبوة هو الصحابي الجليل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - المتوفى سنة : ٦٨ هـ ، وكان مرجع الصحابة والتابعين في تفسير القرآن ، وبسبب ما كان يتميز به من غزارة علم وسعة دراية كان يرتاده طلاب العلم ، وكل من أشكل

(١) تفسير ابن جرير الطبري : ج ١١ / ١٤٢ رقم : ١٢٨٥٨ ، تحقيق محمود شاكر

وانظر : تفسير ابن كثير ج ٢ / ١٧٨ - المائدة / ١٠٥ - ويؤيد هذا الخبر ما رواه الترمذي في كتاب التفسير وحسنه (ج ٥ / ٢٥٧) والحاكم في المستدرک وصححه وأبو داود في سننه ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ج ٤ / ١٢٥ عن أبي ثعلبة الخشني - رضي الله عنه - قال : سألت عنها - أي الآية - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ائتمروا بالمعروف وتناهاوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وأعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع

(العوام) (٢) راجع : الباب الثالث ، فصل آيات الجهاد ، حيث تفصيل المسألة

عليه شيء في تفسير القرآن ، وكذلك من يتوهم الاختلاف بين بعض الآيات ، وقد ^{روى} عنه في ذلك عدة روايات منها :-

ما رواه البخاري (١) رحمه الله عن سعيد بن جبير قال : (جاء رجل الى ابن عباس فقال : رأيت أشياء تختلف علي في القرآن ، فقال ابن عباس : ما هو أشك ؟ قال ليس بشك ولكنه اختلاف ، فقال : هات ما اختلف عليك من ذلك ، قال : أسمع الله يقول : (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّتْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) وقال : (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) فقد كتموا ، وأسمعه يقول : (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) ثم قال : (وَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) وقال : (.. أَتُنْكُمُ اللَّكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ..) حتى بلغ ، " طائعين " ، ثم قال في الآية الأخرى : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) (٢) وأسمعه يقول : (وَكَانَ اللَّهُ) ما شأنه يقول : وكان الله ، فقال ابن عباس : (أَمَّا قوله : " ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّتْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ " فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَلَا يَغْفِرُ شُرَكَاءَ ، وَلَا يَتَعَاطَاهُ ذَنْبَ أَنْ يَغْفِرَهُ ، جَحَدَهُ الْمُشْرِكُونَ رَجَاءُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ فَقَالُوا : " وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ " فَخَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتَكَلَّمْتُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ " يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا " ، وأما قوله : (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) فَإِنَّهُ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، وَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، وأما قوله : (خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) فَإِنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ وَكَانَتِ السَّمَاءُ دَخَانًا فَسَوَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ ، وأما قوله : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) يقول جعل فيها نهرا ، وجعل فيها شجرا وجعل فيها بحورا ، وأما قوله : (كَانَ اللَّهُ) وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزَلْ شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (٣) اهـ

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير ، سورة حم السجدة ج ٢ / ٣٥

وأخرج ابن جرير الطبري (١) عن الضحاك بن مزاحم أن نافع بن الأزرق (٢) أتى ابن عباس فقال : يا ابن عباس قول الله تعالى : (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً) وقوله : (والله ربنا ما كنا مشركين) ، فقال ابن عباس : إنني أحسبك قممت من عند أصحابك فقلت لهم أتى ابن عباس ألقى عليه متشابه القرآن ، فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة في بقيق واحد فيقولون : إن الله لا يقبل من أحد إلا ممن وحده ، فيقولون : تعالوا نقتل (٣) فيسألهم فيقولون : والله ربنا ما كنا مشركين ، قال : فيختم على أفواههم ويستنطق جوارحهم) وتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين ، فعند ذلك يتمنون لو أن الأرض سويت بهم ولا يكتُمون الله حديثاً) اهـ

قلت : هذا بعض ما ورد عن ابن عباس جبر الأمة في دفع التوهّمات والاشكالات حول كتاب الله ، ونلاحظ دقة فهمه وحسن أسلوبه وقوة معرفته ، كيف لا وهو الذي قال فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - (اللهم علّمه الكتاب) (٤) وفي رواية : (اللهم فقهه) (٥) ، فكان رضي الله عنه - خير من قام بدفع الشبهات عن كتاب الله في عصره

-
- (١) في تفسيره : ج ٨ / ٣٧٤ ، رقم : ٩٥٢٢ ، تحقيق محمود شاكر
(٢) هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الحروري ، أبو راشد رأس الأزارقة ، كان هو أمير قومه وفقههم ، من أهل البصرة ، صاحب ابن عباس في أول أمره ، وكان هو وأصحاب له من أنصار الثورة على عثمان ، ووالوا علياً الذي كانت قضية التحكيم فاجتمعوا في حروراء وناووا بالخروج على علي ، قاتله المهلب بن أبي صفرة ، وقتل قرب الأهواز عام : ٦٥ هـ ، لسان الميزان لابن حجر العسقلاني : ج ٦ / ١٤٤ الكامل لابن الأثير : ج ٤ / ١٩٤ طبعة دار صادر ، بيروت
(٣) " تعالوا نقتل " بمعنى تعالوا نجحد أو نكذب أو نحو ذلك وقد جاء نحو هذا في سيرة ابن هشام (ج ٣ / ٥٥) : (يا رسول الله لا بُدّ لنا من أن نقول ، فقال رسول الله : قولوا ما بدا لكم فأنتم في حلّ من ذلك) وكان هذا في حادثة قتل اليهودي كعب بن الأشرف الذي شُبّب بنساء المسلمين ، ومعلوم أن " الحرب خدعة " ، انظر : حاشية تفسير ابن جرير الطبري : ج ٨ / ٣٧٤ تحقيق محمود شاكر
(٤) البخاري في صحيحه : كتاب العلم ، باب ١٧ ، ج ١ / ٢٧
(٥) مسلم في صحيحه : كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل ابن عباس (شرح النووي : ج ١٦ / ٣٧)

وفي الإجابة لابن حجر (ج ٢ / ٣٢٢) : وفي معجم البخاري عن ابن عمر أنه كان يقرب ابن عباس ويقول : اني رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعاك فمسح على رأسك وتقل في فيك وقال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)

ثم جاء بعد ابن عباس ممن تصدوا لشبهات الزنادقة وأعداء الاسلام مُقاتل بن سليمان (١) المتوفى سنة : (١٥٠ هـ) وقد رُويت عنه آثار في التوفيق بين بعض الآيات التي قد يُتوهم من ظاهرها التعارض رواها عنه : أبو الحسين محمد بن أحمد المظلي المتوفى سنة : (٣٧٧ هـ) في كتابه : "التنبية والرد على أهل الأهواء والبدع" (٢) ، قال في كتابه (٣) : (وهذه جملة جاءت بها الرواية وأخذناها عن الثقات عن مقاتل بن سليمان ، إن تدبرت ذلك نفك إن شاء الله ، قال مقاتل : أمّا ما شكت فيه الزنادقة في مثل هذه الآية ونحوها ١٠٠٠ الخ) ثم ساق ما جاءت به الرواية عن مقاتل ومن ذلك (٤) -

(وأما قوله : (وأن الكافرين لا مولى لهم) - محمد/ ١١ - وقوله في آية أخرى : (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ) - الانعام/ ٦٢ فكان هذا عند من يجهل التفسير ينقض بعضه بعضا ، وليس بمنتقض ولكنهما من تفسير الوجوه المختلفة ، فأما تفسير : (وأن الكافرين لا مولى لهم) يعني لا يتولاهم إلا الله سبحانه في العون مثل قوله للنبي - صلى الله عليه وسلم - : (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ) في العون له ، وأما تفسير قوله للكافرين : (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ) يعني ثم ردوا إلى الله في الآخرة ، ربهم ومولاهم الحق لأنهم اتخذوا في الدنيا أربابا باطلا أولياء من دون الله ، فلذلك قال : (وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وذل عنهم ما كانوا يفترون) - يونس/ ٣٠ - وهذا تفسيرهما (٥) اهـ

وجاء بعد مقاتل ممن تصدى لهذا الأمر أبو علي محمد بن المستنير النحوي المعروف بقطرب (٥) المتوفى سنة : ٢٠٦ هـ قال أبو حيان الاندلسي في حاشية تفسيره البحر المحيط ج ٣/ ٢٠٤ (وقد ردّ محمد بن المستنير الملقب بقطرب على الملاحدة الذين طعنوا في القرآن وزعموا أن فيه تناقضا ، ردّ عليهم في كتاب كبير صنّفه بيّن فيه جهل الملاحدة بلسان العرب وبعد أفهامهم عن فصاحة الكلام وبلاغته ، وصحة معناه ، رحمه الله) اهـ

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني ، أبو الحسن البلخي ، صاحب التفسير ، روى عن الزهري والضحاك ومجاهد وابن سيرين وغيرهم وعنه بقية بن الوليد واسماعيل بن عياش وشاذ بن سوار ، وغيرهم روي عن الشافعي من وجوه : الناس عيال على مقاتل في التفسير وقال بقية : كنت كثيرا اسمع شعبة وهو يُسأل عن مقاتل فما سمعته ذكره إلا بخير ، وقال الخليلي : محطه عند أهل التفسير محل كبير ، وهو واسع لكن الحفاظ ضعفوه في الرواية ، هذا وقد نقل الحافظ ابن حجر روايات في تكذيبه وتضعيفه ورميه بالتجسيم انظر : تهذيب التهذيب : ٢٧٩/ ١٠ ، تاريخ بغداد : ١٦٠/ ١٣ ، وفيات الأعيان : ٣٤١/ ٤

(٢) الكتاب مطبوع سنة : ١٩٦٨ م بتحقيق الشيخ زاهد الكوثري ، مكتبة المثنى/ بغداد

(٣) ص : ٥٤ (٤) ص : ٦٣

(٥) أحد العلماء بالنحو واللغة ، كان من الموالى ، لازم سيويه وأخذ عنه وكان يرى رأي المعتزلة النظامية ، له مصنفات في النحو واللغة =

وقال الزركشي في كتابه : البهان في علوم القرآن : (١) وقد رأيت لقطرب فيه تصنيفا حسنا جمعه على السور .
قلت : وممنه هذا هو : " الرد على الملحدين في تشابه القرآن " وهو كتاب غير موجود الآن فيما أعلم (٢)

ثم جاء الامام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة المتوفى سنة : ٢٤١ هـ ، صنف في الرد على أهل الالحاد والبدع كتابا سماه : " الرد على الزنادقة والجهمية " (٣) ، وفي أول المصنف ما نصه :
(... أنبأنا عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى - قال : هذا ما أخرجه أبي رحمه الله في الرد على الزنادقة والجهمية ، فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ، قال أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى ورضي عنه - الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ... الى أن قال : (الرد على الزنادقة فيما ادعوه من تعارض آي القرآن) ، وذكر سبع عشرة مسألة في ذلك ، منها (٤) : (وأما قوله : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ...) - المائدة / ١٠٩ -

وقال في آية أخرى : (ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم - هود / ١٨ - فقالوا وكيف يكون هذا ، فيقولون لا علم لنا ، وأخبر عنهم أنهم يقولون : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، فزعموا أن القرآن ينقض بعضه بعضا ، أما قوله : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟) فإنه يسألهم عند زفرة جهنم فيقولون : لا علم لنا ، ثم رجع اليهم عقولهم من بعد فيقولون : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، فهذا ما شكت فيه الزنادقة ...) اهـ

وغريب القرآن ، وله أقوال في التفسير ، وبعض الاشعار ، والذي لقبه قطرب هو سيبويه لملازمته له ، والقطرب : نوبة تدب ولا تفتر ، انظر : انباه الرواة للقفطي ج ٢/٢١٩ ما بغية الوعاة للسيوطي : ج ١/٢٤٢
(١) ج ٢/ ٤٥ ، (٢) ذكره القفطي في انباه الرواة : ج ٢/ ٢١٩
(٣) الكتاب مطبوع في القاهرة سنة : ١٣٩٣ هـ المطبعة السلفية ، تحقيق : محمد راشد ، والكتاب مروي بالاسناد عن الامام احمد كما هو مثبت في مقدمته ، وذكره شيخ الاسلام ابن تيمية في الغتاي ج ١٧/ ٢٨١ فقال : وكذلك قال احمد في ترجمة كتابه الذي صنعه في الحبس وهو " الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن " ، وذكره ايضا في اقتضاء الصراط المستقيم : ٤٢١

وممّن كان في عصر الامام أحمد رحمه الله من الذين ادّعوا على كتاب الله بالتناقض : أحمد بن يحيى الراوندي^(١) المتوفى سنة : ٢٤٥ هـ ، قال فيه ابن الجوزي رحمه الله^(٢) : (من تأمل حال ابن الراوندي وجده من كبار الملاحدة ، صنّف كتابا سمّاه "الدامغ" ، زعم أنه يدمغ به هذه الشريعة ، فسبحان من دمه وهو في شرح الشباب ، وكان يعترض على القرآن ويدّعي عليه بالتناقض وعدم الفحاحة ، وهو يعلم أنّ فصحاء العرب تحيرت عند سماعه فكيف بالألكن .) ١٠ هـ

وقال فيه ابن كثير^(٣) رحمه الله : (كان أبوه يهوديا فأظهر الاسلام ويقال إنه حرف التوراة ، كما عادى ابنه القرآن بالقرآن وألحد فيه وصنّف كتابا في الرد على القرآن سماه الدامغ ، وكتابا في الرد على الشريعة والاعتراض عليها سماه الزمردة ٠٠٠٠ وقد انتصب للرد على كتبه هذه جماعة منهم الشيخ أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائي شيخ المعتزلة في زمانه ، وقد أجاد في ذلك) ١٠ هـ

هذا وقد أورد ابن الجوزي في المنتظم طرفا من كلامه وزندقته^(٤) وطعنه على الآيات والشريعة ورد عليه في ذلك ، ومن ضمن ما ساقه : (وقد ذكر في كتاب الدامغ من الكفر أشياء تقشعر منها الجلود غير أني آثرت أن أذكر منها طرفا ليعرف مكان هذا الملحّد من الكفر ، ويستعان بالله تعالى من الخذلان ٠٠٠٠ وقال : ووجدناه يزعم انه يعلم الغيب فيقول : وما يسقط من ورقة الا يعلمها ٠٠) ثم يقول : (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم ٠٠٠) ، وهذا جهل منه بالتفسير ولغة العرب وانما المعنى : ليظهر ما علمناه ، ومثله (ولنبلونكم حتى نعلم ٠٠) أي نعلم ذلك واقعا ، وقال بعض العلماء : حتى يعلم أنبياءنا والمؤمنون به ٠٠٠٠) ١٠ هـ

(١) أحد الملحدين كان أبوه يهوديا فأظهر الاسلام نفاقا ، وتابع الابن أباه على ذلك ، صنّف ابن الراوندي عدة كتب ضمنها إلحاده وزندقته وافتراءه على الشريعة ، طلبه سلطان زمانه لما علم بأمره فلجأ الى ابن لاوي اليهودي وصنّف له كتابه الذي سمّاه الدامغ للقرآن ، ومات بعد ذلك بيسير وهو في سن الشباب ، عاش قليلا وألحد كثيرا ، انظر ترجمته : البداية والنهاية لابن كثير ج ١١/ ١١٢ ، المنتظم لابن الجوزي : ج ١٠٢/ ٦ ط اولى وفيات الاعيان لابن خلكان : ج ١/ ٢٧

(٢) تلبيس إبليس : ١١١ ، طبعة : ادارة الطباعة المنيرية سنة : ١٣٦٨ هـ

(٣) البداية والنهاية : ج ١١/ ١١٣

(٤) المنتظم : ج ١٠٢/ ٦ ط اولى ، حيدرآباد الدكن ، سنة : ١٣٥٧ هـ

ثم جاء بعد الامام احمد : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة^(١)
- رحمه الله ، المتوفى سنة : ٢٧٦ هـ (٢)
حيث صنف كتاب : " تأويل مشكل القرآن " لرد كيد الطاعنين ونقض
شبه الملحدين ، ودفع ايهام المتوهمين ،
(٣)
يحدثنا المصنف - رحمه الله - عن الباعث له الى تأليف هذا الكتاب فيقول :
(وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا
واتبعوا : (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) بأفهام عليلة
وأبصار كليله ، ثم قضاوا عليه بالتناقض والاستحالة في اللحن وفساد
النظم والاختلاف ، وأدلووا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر
والحدث الخمر ، فأجبت أن أنضح عن كتاب الله وأرمي من ورائه
بالحجج النيرة والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون (١٠٠٠) اهـ
قلت : والمصنف رحمه قد أحسن في الرد وأجاد ، وقد بدأ
كتابه بذكر الشبه ، ثم عقد بابا للرد عليهم في وجوه القراءات ،
واللحن ، وما نحلوه من التناقض والاختلاف ، وما قالوه في المتشابه
وذكر فيه أبواب المجاز ، وتحدث عن الحروف المقطعة ، ثم تكلم على مشكل
سور القرآن سورة سورة ، ثم ذكر بعد ذلك باب تفسير حروف المعاني ،
كأين وأنى ولولا ولوما ونحو ذلك ،
والكتاب كما تقدم شامل لكل أنواع الاشكال ، ومن ضمن ذلك موهم الاختلاف
في مضمون الآيات ، وقد ذكر من ذلك عشرة أمثلة إضافة الى باب الاختلاف
في القراءات ، واستفدت من الكتاب كثيرا في بحثي هذا ، جزى الله مصنفه
خير الجزاء عن الاسلام والمسلمين

(١) ولد الامام ابن قتيبة في أواخر خلافة المأمون ، ونشأ ببغداد
مدينة العلم والعلماء فنهل من ضروب العلم بحظ وافز ، فبرع في عدة
علوم منها الحديث والتفسير والفقه والنحو واللغة والادب والتاريخ ،
تتلمذ ابن قتيبة على طائفة من أعلام عصره ، وله مصنفات عديدة منها :
الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، غريب الحديث ، تفسير غريب
القرآن ، تأويل مختلف الحديث ، عيون الأخبار ، أدب الكاتب وغيرها ، انظر :
تاريخ بغداد : ١٠ / ١٧٠ ، المنتظم لابن الجوزي : ١٠٢/٥

(٢) الكتاب مطبوع بتحقيق الاستاذ السيد أحمد صقر ، ط ٢ ١٩٧٣ ، دار التراث
القاهرة

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٢٢ بتحقيق سيد صقر

ثم جاء بعد ذلك أبو الحسين محمد بن أحمد الملطي^(١) المتوفى سنة : ٣٧٧ هـ ، حيث صنف كتاب : " التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع " ، وقد أفرد فيه باباً لما يُتوهم أنه من الامتلاف والتناقض مما يدل على أن زمانه لم يخل من وجود أهل الباطل والاحاد الذين يرومون الطعن في كتاب الله لأغراضهم الدنيئة ، قال رحمه الله^(٢) : (بابُ ذِكْرِ متشابه القرآن ، قال أبو الحسين : هلك الزنادقة وشكوا في القرآن ، حتى زعموا أن بعضه ينقض بعضاً في تفسير الآي المتشابه كذبا وافتراء على الله جل اسمه ، من جهلهم بالتفسير للآي المحكم ، الذي زاد الله المؤمنين به إيماناً وتصديقاً ، فقال المؤمنون : آمنا به ونحن به مؤمنون مقرّون أن بعضه يصدق بعضاً ، واعلم - أحسن الله توفيقنا وإياك - أن للقرآن وجوها كثيرة ومواطن ومواضع ، منه خاص وعام : (لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الاباب) - آل عمران ٧/ وأيضاً فمن طلب علم ما أشكل عليه من ذلك عند أهل العلم به من ثقات العلماء وجد مطلبه ، ولعمري إن أهل الأهواء في مثل ذلك اختلفوا وظلوا ، وهذه جملة جاءت بها الرواية وأخذناها عن الثقات عن مقاتل بن سليمان إن تدبرت ذلك نفعتك إن شاء الله .) ١٥ هـ

ثم ذكر رحمه الله ما جاء عن مقاتل من التوفيق بين بعض الآيات والتي ذكرنا منها مثالا عند ذكر مقاتل فيما سبق^(٣)

ثم جاء بعد أبي الحسين الملطي : القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني^(٤) المتوفى سنة : ٤١٥ هـ ، صنف رحمه الله كتاب : تنزيه القرآن عن المطاعن^(٥) ، عرض فيه للآيات التي يتعلق بها الطاعنون ، سواء كان ذلك من وجوه اللغة أو الاعراب أو النظم أو المعاني ، وأبان بأسلوب مبسط مختصر عن خطأهم في فهمها وتأويلها ، فكتابه رحمه الله ليس خاصاً بالآيات التي يقع الطعن فيها بسبب ما يبدو

(١) أبو الحسين الملطي : نزيل عقلان ، فقيه مقرئ متقن ثقة كثير العلم والتصنيف ، شافعي المذهب ، انظر : طبقات القراء ج ٢/ ٦٧ ، طبقات الشافعية ٣/ ٧٧

(٢) التنبيه والرد : ٥٤

(٣) صفحة :

(٤) من رؤوس المعتزلة اصولي متكلم شافعي المذهب ، تولى القضاء واشتغل بالتدريس ، وهو مفسر بارع له باع طويل في الدفاع عن الاسلام والقرآن على اصول مذهبه الاعتزالي ، من اهم كتبه : متشابه القرآن ، شرح الاصول الخمسة ، المغني ، وتثبت دلائل نبوة سيدنا محمد وهو مخطوط ، انظر : طبقات الشافعية : ج ٣/ ٢٢٠ ، طبقات المفسرين للسيوطي : ٤٨ تاريخ بغداد : ج ١١/ ١١٣

(٥) الكتاب مطبوع ، تحقيق د . عدنان زررور ، الناشر : دار النهضة بيروت

من التناقض في المعاني ، ولكنه أعم من ذلك ، يدل على ذلك
النظر في مسائل الكتاب ، شأنه في ذلك شأن من سبقه كابن قتيبة
والمطري وغيرهم . وإن اختلفت أساليبهم ومحتويات مصنفاتهم ،
والقاضي عبد الجبار داعية معتزلي ينتهج منهاجاً عقلياً في
تأويله وتفسيره للآيات بما يتناسب مع مذهبه الاعتزالي ومع ذلك فكتابه
مليء بالفوائد^(١) ، ومن أمثلة ما ساقه في كتابه^(٢) :

(قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته
ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) - آل عمران / ١٠٢ -
ظاهره قد يؤم أنه يدل على لزوم التقوى فوق استطاعته ، ولذلك
قيل بأنه منسوخ بقوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) - التغابن / ١٦ -
إن حق تقاته لا يكون إلا ما يستطيعون ، لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا
وسعها ، فلا اختلاف بين الآيتين ، ولذلك قال بعده : (واعتصموا بحبل
الله جميعاً ولا تفرقوا) فدعا إلى الاجتماع أيضاً وعلى التقوى وترك
الاختلاف فيه) ٠ اهـ

وجاء بعد ذلك : أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف
بالخطيب الاسكافي^(٣) المتوفى سنة : ٤٢٠ هـ
حيث صنف كتابه : درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات .
في كتاب الله العزيز^(٤) يقول في مقدمته بعد كلام :
(ففتقت من أكمال المعاني ما أوقع فرقانا ، وصار المبهم المتشابه
وتكرار المتكرر تبياناً ، ولطعن الجاحدين رداً ، ولمسلك الملحدين
سداً ، وسميته : دُرَّة التنزيل وغُرَّة التأويل) اهـ
اهتم المصنف رحمه الله ببيان تناسب الآيات وحكمة مجيء التكرار
ولماذا اختص كل موضع بما جاء به ، وتوجيه الاختلاف بين الآيات
المتشابهات بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير ، ومن ذلك آيات
القصص ، وتطرق لما يؤهم الاختلاف والتناقض في بعض الآيات ، ومن
أمثلة ما جاء به في كتابه :

(١) انظر : مقدمة " كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن " ومقدمة : " متشابه القرآن : ٣٦
كلاهما للقاضي عبد الجبار ، تحقيق عدنان زرزور

(٢) ص : ٧٣
(٣) عالم بالتفسير واللغة ولاد ، من أهل أصبهان ، كان اسكافاً وحب
إليه العلم حتى برع وصار من الأعلام المشهورين ، ولي الخطابة بالرب فعرف بالخطيب
من كتبه : مبادئ اللغة ، ونقد الشعر وطف التدبير في سياسة الملوك
(معجم الأدباء لياقوت الحموي : ج ١٨ / ٢١٤)
(٤) الكتاب مطبوع سنة ١٩٧٣ م ط ٢ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت

ما ذكره بشأن قوم شعيب عليه السلام ، حيث جاءت ثلاث آيات في بيان عذابهم لما كفروا وتمردوا ، وهي : -

(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) - الاعراف / ٩١ -
 (وأخذت الذين ظلموا الصيحة ٠٠٠) - هود / ٩٤ -
 (فأخذهم عذاب يوم الظلة أنه كان عذاب يوم عظيم) - الشعراء / ١٨٩ -
 فنلاحظ أن كل آية ذكرت نوعاً من العذاب ، وقد يُتوهم من ذلك أن هناك اختلافاً بينها ، وقد أجاب المصنف رحمه الله عن ذلك فقال (١) :
 (والجواب أن يقال : في التفسير عن محمد بن كعب قال : عذب قوم شعيب بثلاثة أصناف من العذاب ، أصابتهم الرجفة فخرجوا من ديارهم ثم أعابهم حرٌّ شديد ففرقوا من أن يدخلوا البيوت خوف الزلزلة فبعث الله عليهم الظلة وهي سحابة أنشئت لهم ، فصاح رجل منهم هل لكم في الظلة ٠٠٠ فلجأوا إليها هرباً من الحر الذي أصابهم فلما اجتمعوا تحتها أمطرتهم ناراً فأحرقتهم ، وقيل صيح بهم صيحة واحدة فماتوا منها ، فعلى هذا سلّط عليهم أنواع العذاب الثلاثة عذاب الاستئصال) اهـ

ثم جاء الامام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني المشهور بالرازي (٢) المتوفى سنة : ٦٠٦ هـ صاحب التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب (٣) اهتم في تفسيره بالتوفيق بين الآيات التي ظاهرها التعارض ، ورد فيه على الملحدين والطاعنين ، كما تولى الرد على أهل الأهواء والبدع الذين يؤولون كلام الله وفقاً لمذاهبهم ، والامام الرازي يميل الى النزعة العقلية أكثر من الناحية النقلية ، ومن أمثلة ما جاء في كتابه (٤) :
 قوله تعالى : (يوم يأتيك نفس لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد) - هود / ١٠٥ - ، قال الرازي : (فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التي تُوهم كونها مناقضة لهذه الآية ، منها : قوله تعالى : (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) - النحل / ١١١ -

-
- (١) درة التنزيل : ١٦٠
 (٢) هو المفسر المشهور والمتكلم الاصولي والفقهاء الشافعي المذهب كان من تلامذة محيي السنة الامام البغوي ، له تصانيف مشهورة في علم الكلام والمعقولات ، واصل الفقه وغيرها ، منها : اساس التقديس والمحصول ، وشرح الاسماء الحسنى ، اضافة الى تفسيره وغيرها من المصنفات انظر : طبقات الشافعية الكبرى للسبكي : ج٢ / ٢٩ ، وفيات الاعيان : ج٣ / ٣٨١
 (٣) كتابه مطبوع ، الناشر : دار الكتب العلمية ، طهران ، ط٢
 (٤) ج١٨ / ٦٠

ثم جاء أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (١)
المتوفى سنة : ٧٠٨ هـ

حيث صنف كتاب : " ملاك التأويل القاطع بذوي الاحاد والتعطيل في
توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل " (٢)
اهتم فيه رحمه الله ببيان الآيات التي يُتوهم منها الاختلاف بالزيادة
والنقص والتقديم والتأخير ونحو ذلك وطرق للآيات التي ظاهرها التناقض
في المعاني ، قال في مقدمة كتابه :

(... وان من مغفلات مضمضي أئمتنا - رضي الله عنهم - في خدمة علومه
وتدبر منظومه الجليل ومفهومه : توجيه ما تكرر من آياته لفظا ، أو اختلف
بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير ، فعرى الا على الماهر حفظا
وظن الغافل عن التدبر والمخلد الى الراحة عن التفكير أن تخصيص كل
آية من تلك الايات بالوارد فيها مما خالفت فيه نظيرتها ليس لسبب تقتضيه
وداع من المعنى يطلبه ويستدعيه ... وكأن لم يقرر سمعه قوله تعالى :

ومما جاء في كتابه : ما ذكره بشأن قصة موسى عليه السلام وما
ورد فيها من اختلاف الالفاظ مع أن المحكي واحد والقصة واحدة

فذكر قوله تعالى : (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله
امكثوا إنني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار
هـدى ٠٠٠) - طه ٩ - ١٢ -

وقوله تعالى في سورة النمل : (إذ قال موسى لأهله إنني آنست نارا
سأتيكم منها بخبراً أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) - ١٠ - ٧

وقوله في القصص : (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من
جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنني آنست نارا لعلي
آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) (٣) الايات ٢٩ - ٢١
قدم المصنف رحمه الله للإجابة بمقدمة وافية ثم قال : (ثم من
المعلوم بلإعلام الله سبحانه أنه تعالى لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه
فموسى عليه السلام إنما خاطب أهله في هذه المحاورة باللسان العبراني
الذي هو لسان قومه ... فالوارد في كتابنا إنما هو حكاية المعنى

(١) محدث مؤرخ من أبناء العرب الداخلين الى الاندلس ، انتهت اليه
الرئاسة في العربية ورواية الحديث والتفسير والاصول ، وكان معظما عند
العامة والخاصة ، توفي في غرناطة ، من مصنفاته : البرهان في ترتيب سور
القرآن ، ومعجم اسماء شيوخه ، وغيرها ، انظر : الدرر الكامنة لابن حجر : ج١ / ٨٤
البدر الطالع للشوكاني : ج١ / ٢٣

(٢) الكتاب مطبوع سنة ١٤٠٥ هـ في بيروت ، دار النهضة العربية ، تحقيق : الدكتور
محمود كامل احمد

(٣) ملاك التأويل : ج٢ / ٢٧٢

الذي خُوطب به موسى عليه السلام وخطب به ١٠٠٠ الى أن قال :
وأما القبس والجدوة والشباب من القبس ، فإنّ ذلك ممّا يُفصل في لغتنا
بمراعاة أدنى شيء يُسوِّغ افتراق التسمية ، وذلك كثير في لغتنا ،
كقولهم : سيف وصارم ومهند ، وقولهم في التمر : طلع وضحك وإغريض
وبلح وسياب ، التي تمام أحواله العشر له في كل حالة منها اسم
والمُسَمَّى واحد ، ٠٠٠ وأقرب شيء أنّ يكون التعبير في تلك اللغة
وقع بلفظ واحد لا يُعبر في لغتهم عن ذلك المراد المقصود بغيره ، وقد
أحرز وضع ذلك اللفظ العبراني ما يُعبر عنه في لغتنا بعدة أسماء (٠)
وقال في موضع آخر (١) : (فكيف يُنكر اختلاف التعبير عن
المعنى الواحد بالفاظ وعبارات مختلفة ، بل نقول : إنه لو كان المحكي
قولا عربيا وحكي بالمعنى لما استُنكر اختلاف العبارة ، فكيف مع
اختلاف اللسانين) (١٠) هـ

وقد فصل رحمه الله في بيان تناسق المعاني وانسجامها وتوافقها مع
اختلاف ألفاظها لأن الاختلاف إنما هو في الحكاية لا في المحكي ، وبين
أيضا وجه تخصيص كل موضع بما خُصّ به فليراجع ، وقد ضمنت بحثي
من الكتاب ما له علاقة بموهم الاختلاف ، وقد أشرت الى ذلك والله الموفق
ثم جاء بعد ذلك الامام محمد بن بهادر الزركشي (٢)

المتوفى سنة : ٧٩٤ هـ ، صنف رحمه الله كتابا حافلا في علوم
القرآن سماه البرهان ، عقد فيه فصلا لموهم الاختلاف حيث قال :
(النوع الخامس والثلاثون : معرفة موهم الاختلاف ، وهو ما يُوهم التعارض
بين آياته ، وكلام الله عز وجل مُنزه عن الاختلاف ، كما قال تعالى :
(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) - النساء / ٨٢ -
ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهّم اختلافا وليس به ، فاحتج لإزالته
كما صنف في مُختلف الحديث وبيان الجمع بينهما) (١٠) هـ
ثم نقل رحمه الله بعد ذلك نقولا عن العلماء في معنى الاختلاف ، وفي القول
عند تعارض الآي ، ومُرجحات ما ظاهره التعارض ، وفي الأسباب الموهمة للاختلاف
ونحو ذلك ، ثم أجاب رحمه الله عن بعض الإستشكالات

(١) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي
عالم أصولي فقيه شافعي ، مصري المولد والوفاة ، تركي الأصل ، من
تصانيفه : الإجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة ، واعلام الساجد
بأحكام المساجد وغيرها ، ترجمته في : الدرر الكامنة : ج٣ / ٣٩٧ شذرات الذهب :
ج٢ / ٢٣٥ ، الأعلام للزركلي : ج١ / ٦٠

ثم جاء الامام أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري (١) المتوفى سنة ٩٢٦ هـ
صنف رحمه الله كتاب : " فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن " (٢)

قال المصنف في مقدمة كتابه : بعد أن حمد الله وصى وسلم على خير الأنام
: (فهذا مختصر في ذكر آيات القرآن المتشابهات المختلفة بزيادة أو تقديم
أو إبدال حرف بآخر ، أو غير ذلك مع بيان سبب تكراره ، وفي ذكر
أنموذج من أسئلة الكتاب العزيز وأجوبتها صريحا أو إشارة ، جمعت من
كلام العلماء المحققين ، ما فتح الله به من فيض فضله المتين ، وسميته
بـ : " فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ") اهـ

قلت : وقد تعرض المصنف رحمه الله للآيات التي ظاهرها
التعارض في معانيها ووفق بينها بأسلوب نافع مختصر
ومن أمثلة ما جاء في كتابه (٣) : (قوله تعالى : (قل يتوفاكم
ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم) - السجدة / ٩ -

هو عزرائيل عليه السلام ، قال ذلك هنا وقال في الأنعام : (حتى إذا
جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا ٠٠) - الأنعام / ٦١ -
وفي الزمر : (الله يتوفى الأنفس حين موتها) - الزمر / ٤٢ -
ولا منافاة ، لأن الله هو المتوفى حقيقة بخلقه الموت ، وبأمر
الوسائط بنزع الروح - وهم غير ملك الموت أعوان له - ينزعونها من
الأطراف إلى الحقوم ، وملك الموت ينزعها من الحقوم ، فمحست
الإضافات كلها ٠) اهـ

وجاء بعده الامام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٤)
المتوفى سنة ٩١١ هـ
صنف رحمه الله كتابه المشهور : " الإتيان في علوم القرآن " (٥)
وجعل فيه فصلا خصصه لموهم الاختلاف والتناقض حيث قال (٦) :

(١) المصري الشافعي شيخ الاسلام قاضي مفسر من حفاظ الحديث ، نشأ فقيرا
ثم فتح الله عليه بعد ظهور فضله وعلمه ، له تصانيف كثيرة منها :
تحفة الباري على صحيح البخاري ، وشرح ألفية العراقي ، والدقائق المحكمة في
القراءات ، وغيرها ، انظر : الكواكب السائرة ج١ / ١٩٦ ، الاعلام للزركلي : ٨٠ / ٣
(٢) الكتاب مطبوع سنة : ١٤٠٣ هـ ، دار القرآن الكريم / بيروت ، بتحقيق الشيخ :

محمد علي الصابوني
(٣) فتح الرحمن : ٤٥٣
(٤) هو الحافظ الفقيه المفسر واللغوي عاحب المصنفات المشهورة ، من أهم
مصنفاته : الدر المنثور ، الاشباه والنظائر ، الجامع الصغير ، وغيرها
انظر : حسن المحاضرة للسيوطي نفسه : ١ / ٣٣٥ الكواكب السائرة :
(٥) الكتاب مطبوع ، وبها مشه اعجاز القرآن للباقلاني ، في القاهرة سنة : ١٣٧٠ هـ
(٦) الاتقان : ج٢ / ٢٧

(النوع الثامن والأربعون : في مُشكله وموهم الاختلاف والتناقض
أفرده بالتصنيف قُطرب ، والمواد به : ما يُوهم التعارض بين الآيات ،
وكلامه تعالى مُنزّه عن ذلك كما قال : (ولو كان مِنْ عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) - النساء / ٨٢ -
ولكن قد يقع للمبتدئ ما يُوهم اختلافا وليس به في الحقيقة ،
فاحتيج لإزالته كما صُنّف في مختلف الحديث وبيان الجمع بين الأحاديث
المتعارضة (٠) اهـ

ثم ذكر رحمه الله أثر ابن عباس في ذلك^(١) ، ونقل بعض كلام
الزركشي في أسباب توهم الاختلاف ، ونقل أقوال بعض العلماء الذين تكلموا
في هذا العلم وأن القرآن ليس فيه شيء من الاختلاف ،
قال رحمه الله^(٢) : (قال الصيرفي : جماع الاختلاف والتناقض أن كلّ
كلام صح أن يُضاف بعض ما وقع الاسم عليه الى وجه من
الوجوه فليس فيه تناقض ، وإنما التناقض في اللفظ ما ضاده
من كل جهة ، ولا يوجد في الكتاب والسنة شيء من ذلك
أبدا ، وإنما يوجد فيه النسخ في وقتين (٠) اهـ

قلت : ما تقدم هو عرض لأهم من تكلم في هذا العلم
من السلف والمتقدمين يتبين لنا من ذلك أن كتاب الله المجيد
لم يزل منذ عهد الرسالة فما بعده عرضة لشبهات أعداء
الاسلام واقتراءاتهم المنطوية على جهلهم بكتاب الله لغته
وبلاغته وإحكاماً وما فيه من تناسق وتوافق وانسجام مع طوله وكثرة
آياته كما سوف يأتي توضيحه مفصلاً بمشيئة الله
ونلاحظ أيضاً أن علماء الاسلام ورثة الأنبياء قد تصدوا لهؤلاء
وبيّنوا جهلهم وأحقاقهم ومقاصدهم الدنيئة ،
وجاء من الأئمة المتأخرين والمعاصرين من تكلم في هذا العلم ورد
على الشبهات واقتراءات التي ما يزال أعداء الاسلام يرددونها تبعاً
لأسلافهم ، والمقاصد واحدة وإن تنوعت الأساليب والمواضع

(١) تقدم ذكر هذا الاثر في بداية هذا الفصل

(٢) الانتقان : ج٢ / ٣٠

(٣) هو : علي بن عثمان بن عمر ، ابو الحسن علاء الدين بن الصيرفي ، فقيه
شافعي برع في الفقه والاصول والعربية والحديث ، من اهل دمشق زار القاهرة
سنة : ٨٠٣ هـ واخذ عن السراج البلقيني والحافظ الزين العراقي والعز بن جماعة
من كتبه : الوصول الى ما في الراعي من الاصول ، وزاد الشائرين في فقه الصالحين
ت : ٨٤٤ ، انظر : الضوء اللامع ج٥ / ٢٥٩ ، شذرات الذهب : ج٢ / ٢٥٢ الاعلام : ١٢٧/٥

ومن أهمّ مَنْ تكلم في هذا العلم من المتأخرين :

شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادى (١) المتوفى سنة :

١٢٧٠ هـ ، صنف رحمه الله كتاب التفسير المسمى : " روح المعاني

في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني "

وقد أكثر المصنف رحمه الله من الإهتمام بموهم الاختلاف ، وذكر في

مقدمة كتابه (٢) أن طول القرآن وامتداده وهو مع ذلك غير متناقض

وجهه من وجوه إعجازه ، ثم ذكر أن هذا الوجه اعترض عليه بوجهين

الأول : عدم التسليم بظو القرآن من الاختلاف والتناقض

والثاني : أننا لو سلمنا السلامة من جميع ذلك ، لكنه ليس بإعجاز

إنّ هو موجود في كثير من الخطب والشعر وخاصة ما كان على مقدار

قصار السور ،

ثم أجاب رحمه الله عن هذين الاعتراضين ببيان سلامة القرآن من

من الاختلاف ، وأنّ من ذهب إلّا وجه الإعجاز عدم التناقض والاختلاف

مع الطول والامتداد يقول : القرآن بجملة معجز ...

وقد أكثر الآلوسي رحمه الله من الإهتمام بالتوفيق بين الآيات التي

ظاهرها التعارض في تفسيره ، وقد أفدت منه كثيرا كما هو ملاحظ

في ثنايا البحث شأنه في ذلك شأن الفخر الرازي رحمه الله

وممن اعتنى بهذا العلم من المعاصرين أحد علماء الهند

البارزين وهو : الشيخ محمد أنور شاه الكشميري المتوفى

سنة : ١٣٥٢ هـ ، وقد عالج رحمه الله هذا الموضوع ضمن كتابه

" مشكلات القرآن " (٤)

(١) ترجم المصنف لنفسه في مقدمة كتابه : فذكر شغفه بالعلم منذ الصغر

وكثرة مطالعته واهتمامه خاصة بعلم التفسير ، وذكر انه بدأ في تصنيف

كتابيه وقد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان المصنف معاصرا لسلطان

الدولة العثمانية محمود خان العدلي ، انظر مقدمة تفسيره : ج١ / ٣-٤

والآلوسي من العلماء البارعين في عرض مفاهيم التوحيد وانتقاد الفلاسفة والمنحرفين

من الصوفية ، وكان له مجالس خاصة أدبية وعلمية ، كانت مجمعا لربا الفضل

والعلم وله عدة مصنفات ورسائل غير كتاب التفسير ، منها : الأجوبة العراقية على

الأسئلة الإيرانية ، انظر : كتاب تراجم الاعلام المعاصرين في العالم الاسلامي : ٤٧٥

تأليف الأستاذ أنور الجندي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة

(٣) نفس المصدر : ج١ / ٣٠

(٢) ج١ / ٢٨

(٤) الكتاب مطبوع بدهلي بعد وفاة المؤلف سنة : ١٣٥٦ مع مقدمة بقلم الشيخ محمد

يوسف البنوري ، (عن مقدمة كتاب فوائد في مشكل القرآن د . سيد رضوان علي : ١٥)

نُصِّحَ جاء العلامة الشيخ : محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي^(١)
المتوفى سنة : ١٣٩٣ هـ رحمه الله تعالى

صنف كتابه المشهور : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ،
وهو من عشرة أجزاء ، وقد أقرده رحمه الله لموهم الاختلاف كتاباً خاصاً
سمّاه : "دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب" ، وهو مطبوع ضمن الجزء العاشر
من أضواء البيان ، قال رحمه الله في مقدمة الجزء العاشر :^(٢) بعد أن
حمد الله وصلى وسلم على خاتم المرسلين : (أما بعد فان مُقَيِّد هذه
الحروف عفا الله عنه أراد أن يُبين في هذه الرسالة ما تيسر من أوجه
الجمع بين الآيات التي يُظن بها التعارض في القرآن العظيم مرتباً لها
بحسب ترتيب السور ، يُذكر الجمع بين الآيتين غالباً في محل الأولى
منهما ٠٠٠٠ وسميته : " دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب ") اهـ
والشيخ الشنقيطي رحمه الله واسع الاطلاع غزير العلم والفهم
قوي الشخصية طويل النفس في معالجة أبحاثه ، وكان له اجتهادات كثيرة
موفقة ، وقد اعتمد كثيراً كما هو ملاحظ على تفسيرى ابن كثير
والآلوسى ، والشيخ رحمه الله لم يستوعب في كتابه مادة البحث
كما أنه تناول كثيراً من المباحث بأسلوب يصعب فهمه على كثير من طلبة
العلم ، إضافة الى أنه تناول قضايا لا يظهر فيها أنها توهم الاختلاف
وعلى كل حال فقد استفدت كثيراً من كتابه وخاصة في تجميع مادة البحث
وتابعته في بعض اجتهاداته فجزاه الله خيراً عن الاسلام والمسلمين

(٣)

ومن أمثلة ما جاء في كتابه :

(قوله تعالى : (وصاحبهما في الدنيا معروفاً) - لقمان / ١٥ -

٢٢

هذه الآية الكريمة تدل على الأمر ببر الوالدين الكافرين ، وقد جاءت
آية أخرى يفهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون
بالله واليوم الآخر يواثون من حادّ الله ورسوله ٠٠٠) الآية - المجادلة / ٢٢
ثم نص على دخول الآباء في هذا بقوله : (ولو كانوا آباءهم) ،
والذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أنه لا معارضة بين الآيتين ، ووجه الجمع
بينهما : أن المصاحبة بالمعروف أعم من المودة ، لأن الانسان يمكنه اسداء
المعروف لمن يوده ومن لا يوده ، والنهي عن الأخس لا يستلزم النهي عن الأعم

(١) احد العلماء البارزين في هذا العصر ، امله من شنقيط ، حج سنة : ١٣٦٧ هـ
واستقر مدرسا في المدينة المنورة ثم الرياض ، واخيرا في الجامعة الاسلامية
بالمدينة وتوفي في مكة ، برع رحمه الله في علم التفسير والفقه والاصول
والعربية والمنطق ، وله عدة مصنفات منها : أضواء البيان ، آداب البحث والمناظرة
الفية في المنطق ، رحلة الحج ، وغير ذلك انظر : الأعلام للزركلي : ج٦ / ٤٥

(٢) أضواء البيان ج١٠ / ٣ (٣) نفس المصدر : ج١٠ / ٢٣٤

فكان الله حذر من المودة المُشعرة بالمحبة ، والمودة بالباطن لجميع الكفار ، يدخل في ذلك الآباء وغيرهم ، وأمر الإنسان بأن لا يفعل لوالديه إلا المعروف ، وفعل المعروف لا يستلزم المودة لأن المودة من أفعال القلوب لا من أفعال الجوارح ، ومما يدل لذلك إسنه - طس الله عليه وسلم - لأسماء بنت أبي بكر الصديق أن تمل أمها وهي كافرة^(١) وقال بعض العلماء : إن قصتها سبب لنزول قوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المُقسطين) - الممتحنة / ٨هـ

ومن الجدير بالذكر أن جميع المفسرين كان لهم نصيب في الدفاع عن كتاب الله فيما أشكل من الآيات سواء كان الإشكال من الناحية العقدية أو اللغوية أو التوفيقية بين ما ظاهره التعارض ، وإن تفاوتوا في الاهتمام بذلك ، وأخص بالذكر منهم الإمام القرطبي في تفسيره ، وابن كثير في تفسيره أيضا ، وكذلك علماء الأصول كان لهم نصيب في بيان هذا العلم من الناحية الأصولية وموقف الباحث عند ما ظاهره التعارض في الأدلة الشرعية عموما

وفي هذا العصر وبسبب استفحال أمر الغزو الفكري ، وتجرب كثير من أعداء الاسلام وخاصة المنافقين منهم على النيل من كتاب الله بهدف زعزعة الثقة في مصدر التشريع للمسلمين ، وكتاب الهداية والفلاح في الدارين ، ولأن أعداء الاسلام موقنون بأن انتصار المسلمين وقوة شوكتهم وصلاح أمرهم ووحدة حالهم مرهون بهذا الكتاب ، فلا جرم أنهم يحاولون إثارة الشبهات والاشكالات حول كتاب الله ، ولكن هذا الكتاب المحفوظ بحفظ الله (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) - فصل / ٤٤ -

وشبهاتهم وإشكالاتهم التي يثيرونها إنما هي محاولات يائسة يظهر منها رائحة الحسد والبغى والمكر ، وجميع شبهاتهم إنما سببها الجهل بأوليات اللغة والبلاغة ، أو الجهل بشروط حصول التناقض إضافة إلى ما يضمرونه من حقد وكراهية للاسلام واهله

(١) الحديث أخرجه البخاري : كتاب الهبة ، باب الهدية للمشركين ج ١٤٢٣ وأخرجه مسلم : في كتاب الزكاة ، باب فضل الصدقة على الأقربين ولو كانوا مشركين (شرح النووي : ج ٧ / ٨٩) ولغظه : (قلت : إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصل أمي ، قال : نعم ملي أمك .) وقد فصلت القول على هذه المسألة في فصل موهم آيات المشركين ، من الباب الثالث فليراجع

وقد تصدى العلماء الغيورون لدحض شبهاتهم وردّها الى نحورهم
فانقلبوا خاسئين مدحورين ،

وقد تولى كبر هذه الافتراءات والشبهات كل من المنصرين والشيوعيين
الملحدين والمنافقين اتباعا لأسلافهم السابقين من الزنادقة والملحدين
يردّون جهالاتهم وتوهماتهم ولكن بأسلوب جديد خاصّة من قبل المنافقين
أما المنصرين الذين يسمون أنفسهم بالمبشرين ، فقد هالهم تمسك
المسلمين بدينهم وكتاب ربهم وقوة وثوق المسلم بعقيدته ، وعكس ذلك عندهم
حيث تنصل النصارى من دينهم ولم تبقَ إلّا الرسوم ، فثارت نائرة رهبانهم
فحاولوا التصدي للقرآن والاسلام ، ويمدق عليهم قوله تعالى : (وممن
الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب
عليه أنّه من تولاه فأنه يظله ويهديه الى عذاب السعير) الحج / ٤ -

وهذه النصارى من ذلك هو تشويه القرآن والرسالة الاسلامية فبي
نظر بني ملتهم ليظلوا مطايا لهم يركبونها ، ومدرار منافع ومآرب يجنونها
كما وصفهم الله تعالى في مُحكم تنزيله : (إن كثيرا من الأتجار والرهبان
ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) التوبة / ٣٤ -

وممن تصدى لهؤلاء المنصرين في هذا العصر : الاستاذ محمد عزة
دروزة في كتابه : " القرآن والمبشرون " (١) ، حيث ذكر في كتابه المذكور
مفترياتهم وشبهاتهم ورد عليها ، إضافة الى قيامه بكشف أهدافهم وسوء
نياتهم ، وفصل القول في بيان تهافت معتقداتهم وتناقض أناجيلهم وأسفارهم
التي يعتقدونها (٢)

وممن تصدى لهؤلاء أيضا : الدكتور عبد الجليل شلبي (٣) في
كتابته : " رد مفتريات على الاسلام " (٤) حيث رد فيه على رسائل وكتب
من جهات تنصيرية (٥) وهذه الرسائل تحوي افتراءات وشبهات ومطامع
للنيل من القرآن والاسلام ، فانبرى لها الدكتور عبد الجليل برد شاف
كاف رد فيه كيدهم الى نحورهم ، ومن ضمن مفترياتهم التي دحضها ادعائهم
أن هناك آيات قرآنية متناقضة (٦)

(١) الكتاب مطبوع طبعة ثالثة - ١٣٩٩ هـ - المكتب الاسلامي بيروت - دمشق

(٢) وذكر الاستاذ محمد عزة أن كتابه فيه الرد على أربعة كتب لمبشر اسمه : يوسف
الحداد ، ص فيها حقه وتوهماتة وتخرجاته ، انظر : ص ٦ - ١٤ من مقدمة الكتاب

(٣) أمين عام مجمع البحوث الاسلامية سابقا

(٤) الكتاب مطبوع في دار القلم - الكويت - طبعة اولى ١٤٠٢ هـ
(٥) انظر : ٢٦ - ٣٠ من الكتاب المذكور ، (٦) انظر : من ٦٧ - ٧٧ ، ١٧٤ - ١٧٩

وكان لأهل الإلحاد نصيبهم من هذه الافتراءات حيث إنه من المعلوم أن الاسلام هو الحصن الشامخ والخطر الأكيد أمام الكيد الشيوعي الأحمر فهم لا يرهبون إلا من الاسلام ، فلا عجب إذن أن ينبروا لمحاربة الاسلام بالقلم واللسان إضافة إلى محاربته بالسيف والسنان ،

وقد صنف الاستاذ عبدالله كنون (١) كتابه المسمى " الرد القرآني على كُتَيْب : هل يمكن الاعتقاد بالقرآن " ، والكتيب المذكور لأحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في إحدى جمهوريات السوفييات سابقا ، ويعمل سفير للاتحاد السوفييتي في موريتانيا (٢) ،

ويتضمن كُتَيْب المذكور جهالات وتخرصات كثيرة منها قوله في وصف أسلوب القرآن ومحتواه (٣) : (إنشاء القرآن غير منسجم وتناقضاته كثيرة ٠٠٠) ويقول (٤) : (وفوق ما يحتوي عليه القرآن من التكرار فإن ما يقربه من ٣٠٠ آية قرآنية كلها يُناقض بعضها بعضا ٠٠٠) ثم جاء بثلاثة أمثلة تدل على جهله بالعربية وعدم فهمه لمعنى التناقض ثم يدّعي (٥) أيضا أن القرآن جاء بما يُناقض العلم الحديث ومنطق العقل الى غير ذلك من الافتراءات التي فنّدها الاستاذ عبد الله كنون ، وبَيَّنَ تهاافت الشيوعية وسخافة منطقها وتسلطها على شعوبها ، وسذاجة أفكارها ، وما تحمله من كيد لأهل الإسلام ؛

ومن سلسلة الافتراءات والشبهات : ما تجرأ عليه أحد زعماء الدول العربية في خطاب ألقاه " في مؤتمر للمربين والمدرسين " حيث زعم أن القرآن فيه تناقضا لم يعد يقبله العقل بين : قوله تعالى : (قل لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا) - التوبة / ٥١ - وقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) - الرعد / ١١ وقوله : إن الرسول كان انسانا بسيطا يُسافر كثيرا عبر الصحراء ، ويستمتع الى الخرافات البسيطة السائدة في ذلك الوقت ، ونقلها الى القرآن ، مثال ذلك عص موسى وقصة أهل الكهف ، الى غير ذلك من الافتراءات والجهالات

(١) احد علماء الاسلام المعاصرين ، عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي
(٢) انظر ص : ٩ من الكتاب (٣) انظر ص : ٢٣ (٤) انظر : ١٠٢ فما بعدها
(٥) ص : ٣٦ فما بعدها

(٦) وخلاصة ما اجاب له الشيخ عبد العزيز حفظه الله وغيره من علماء التفسير عن هذه المقولة التي لم تخطر على بال احد سوى ذلك الزعيم ان قوله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) معناها : انه سبحانه لا يغير ما بالعباد من عزٍّ ، ورغد وعيش واتحاد كلمة =

وقد انبرى للرد عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حيث أرسل برقية استنكار دعاه فيها للتوبة أو تكذيب ما نُسب إليه ، وكذلك أرسلت مجموعة من العلماء برقية مماثلة ، وقد أرفق الشيخ عبد العزيز بريقته ردّاً تضمن: حكم الاسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض أو يحوي بعض الخرافات ، وضمن ذلك كله في كُتيب ذكر فيه كلام ذلك المسؤول وبرقيات الاستنكار والرد على ادعاءاته ، والكتيب مطبوع بعنوان : " حكم الاسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض أو مشتمل على بعض الخرافات أو وصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما يتضمن تنقّصه أو الطعن في رسالته ، والرد على الرئيس أبو رقية فيما نُسب اليه من ذلك " (١)

— وغير ذلك من صنوف النعم وأسباب السعادة إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من طاعة الله والاستقامة على دينه والخذ بالاسباب النافعة ، واعداد المستطاع من القوة والقيان بالجهد ، فإذا فعلوا ذلك غير الله ما بهم فصاروا بعد العزة اذلة ، وبعد الاجتماع والاتحاد متفرقين ومختلجين ، وبعد رغد العيش والامن الى الفقر والحاجة واختلال الامن كما هو الواقع المشاهد في تاريخ الامة كلها وعندما ترجع الامة الى دينها وتأخذ بأسباب القوة التي امرت بها ، وتجاهد في الله حق جهاده تعطى العزة والكرامة والتمكين ورغد العيش ، والامة بذلك كله لم تخرج من مضمون قوله تعالى: (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) لأن ما يصيب الافراد والمجتمعات من خير او شر انما هو من الامور المقدرة ، بمعنى ان الله تعالى قد علم ما ستكون عليه حال الناس من طاعة أو فسق من عمل أو كسل ، وعلى حسب علمه سبحانه يقدر النصير والعزة أو الذلة ، الرغد أو الفقر ، وكل ما يقدره سبحانه انما هو مترتب على علمه في عباده الذين اعطاهم حرية الاختيار والفعل (انا هديناه السبيل اما شاكرًا واما كفورًا) - الدهر / ٣ - وقال : (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفوا عن كثير) - الشورى / ٣٠ ولما كان الباري يعلم ما سوف تكسب ايديهم لاجرم قدر عليها ما سوف يصيبهم كما قال تعالى: (ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير) - الحديد / ٢٢ -

(١) الكتاب مطبوع ، وهو من توزيع الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة سنة : ١٤٠١ هـ

وممن سقط في وحل الشبهات والافتراءات وكشف عن وجه النفاق وجاهربما خجل منه أعداء الاسلام في هذا العصر ، من هؤلاء كاتب يدعى الاسلام (١) قام بتأليف كتاب حول قصص القرآن ردد فيه أوهاما وتضليلات خلاصتها : أن القرآن قائم على أساس أدبي وفني ليس إلا وادعى أنه المخرج الوحيد لتفسير ما أوهمه أنه من الاختلاف أو التعارض في القصص القرآني ،

قال المذكور في كتابه : (٣٣ - ٣٤) بمدد حديثه عن تكرار القصص القرآني : (فلماذا كان هذا الاختلاف ؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة في موطن عنه في آخر ؟) ثم أورد بعض مظاهر الاختلاف في حكاية قصة موسى وأعقبه بقوله : (إن الموقف واحد وإن الحادثة واحدة ولكن الوصف مختلف والحوار غير الحوار ١٠٠٠ الى أن قال : لقد حاول العقل الاسلامي أن يجيب عن أمثال هذه الأسئلة التي تخص تكرار القصص القرآني واختلاف الوصف والتصوير ، ولكنه لم يهتد الى رأي قاطع ، وأضاف : ولو أن العقل الاسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس فني وأدبي لما وقف هذه الوقفة ، ولعرف منذ اللحظة الأولى الذي عدّه تكرارا ليس من التكرار في شيء لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن إنذار وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر ، ومن هنا كان الاختلاف لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك الى اختلاف الصور الأدبية (٢)

(١) هو: محمد احمد خلف الله مؤلف كتاب "الفن القصصي في القرآن"

وقد قدمه المذكور لنيل درجة الدكتوراة في كلية الاداب بجامعة فؤاد ، في مصر ، وكان المشرف على الرسالة والموجه للطالب فيما كتب هو : "امين الخولي" وقد رفضت الرسالة واستنكرت ، وبالرغم من ذلك فقد طبع الكتاب واعتمدت شخصا على طبعته الرابعة ، والمذكور نال بعد تأليفه للكتاب مناصب عالية كشأن من سبقه ممن افترجوا على الاسلام والقرآن ،

انظر : كتاب منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير تأليف : فهد بن عبد الرحمن الرومي ص : ٤٤٥ فما بعدها الطبعة الاولى

وكتاب : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين تأليف العلامة مصطفى صبري ج ١ / ٣٤٥ الطبعة الثانية

وتفسير الشيخ محمود شلتوت ص : ٢٧٣ الطبعة الثامنة ، دار الشروق

(٢) وانظر ص : ١٩٧ من الكتاب المذكور فما بعدها

وقد انبرى للرد عليه كل مسلم غيور ، ومن هؤلاء : عبد الكريم الخطيب في كتابه : الفن القصصي في مفهومه ومنطوقه ،
والتهامي نقرة في كتابه : سيكولوجية القصة في القرآن ، وغيرهم
وقد خصّمت في هذا البحث فصلا مستقلا لما يُتوهم من الاختلاف في
القسم وذلك في الباب الثاني فليراجع

وهكذا نرى كيف أن سلسلة أعداء الاسلام وشبهاتهم مترابطة
وهي وإن اختلفت أساليبها فهدفها واحد هو النيل من القرآن ، ولسلخ
المسلمين من دينهم ، وإفقادهم الثقة بكتاب ربهم الذي " لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد "

ومثال حالهم كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ

ومن المعلوم الواضح كما تقدم في بداية هذا الفصل أن المشركين
واليهود لم يجدوا غير قضية النسخ التي رأوا أن فيها تناقضا ، حيث
قالوا : أن محمدا يقول القول اليوم ويرجع عنه غدا ما هذا الاقول
محمد من تلقاء نفسه ، فرد الله عليهم بقوله : وإذا بدلنا آية مكان
آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون -
النحل/ ١٠١ - فلوا أنهم وهم العرب البلغاء الفطناء الحريصين على توهين
أمر الاسلام ، لو أنهم وجدوا في الشبهات التي أُثيرت في العصور اللاحقة
مغمزا أو مطعنا لتعلقوا بها ، ولكن القوم علموا أن هذا القرآن معجز
بلفظه ومعناه في غاية الفصاحة والتناسق والانسجام حتى أنهم لم يجدوا
في النهاية إلا أن يقولوا : (إن هذا إلا سحر يؤثر) - المدثر/ ٢٤ -
ثم لم يجدوا في آخر الأمر إلا الإدعان والانقياد للهداية والنور المبين
حيث استولت عليهم فصاحته وبلاغته وتناسقه وما يتضمنه من دلائل للنبوة ،

فإذا كان الأمر كذلك فإن كل الشبهات والافتراءات حول القرآن
والتي جاءت فيما بعد إنما سببها إما الجهل بالعربية أو بأصول
التناقض أو مجرد الحسد والبغى والعداوة الناشئة من العصبية
والظلود الى أسباب المنافع والشهوات ،

(١)

نقل صاحب البرهان الامام الزركشي - رحمه الله - عن الإمام الخطابي أنه قال : (سمعتُ ابنَ أبي هُريرة (٢) يحكي عن أبي العباس بن سُرِج (٣) قال : سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد) فأخبر أنه لا يقسم بهذا ، ثم أقسم به في قوله : (وهذا البلد الامين) فقال ابن سريج : أيُّ الأمرين أحب اليك أجيبك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبك ؟ فقال اقطعني ثم أجني فقال : اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحضرة رجال وبين ظهرائي قوم ، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغزاً وعليه مطعناً ، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ولكن القوم علموا وجهلت فلم يُنكروا منه ما أنكرت ، ثم قال له : إنَّ العربَ قد تُدخل " لا " في أثناء كلامها وتُلغي معناها ، وأنشد فيه أبياتا (٤)

وبعد : فإنِّي أرجو أن أكون قد وفقت في عرض هذا العلم على وجه الاجمال وبيان أهم مصادره ، وقد بذلت جهدي لتوضيح ذلك حتى يكون القارئ على علم بما يتصل بموهم الاختلاف في مختلف العصور وحتى يومنا هذا ، وما قدمته فيه الكفاية لتوضيح الفكرة ولا أتعني حصر تطورات هذا العلم ، وحسبي أنني قد بذلت جهدي والله من وراء القصد

(١) البرهان ج٢/ ٢٦

(٢) هو : الحسن بن الحسين ، المكنى بأبي علي المعروف بأبن مأيبي هُريرة

تتلمذ لأبي العباس بن سريج وأبي اسحق المروزي ، درس ببغداد وتخرج عليه خلق كثير ، وكان ذا هبة ووقار ، انتهت اليه رئاسة الشافعية ببغداد ألف كتاب المسائل في الفقه ، وشرح مختصر المزني توفي ببغداد : ٣٤٦ هـ انظر : وفيات الاعيان : ج١/ ١٦١ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي : ج٢/ ٢٠٦ طبقات الاصوليين ، عبد الله المراغي : ١٩٣

(٣) هو أحمد بن عمر بن سُرِج ، كُنيتُه أبو العباس ، كان شيخ الشافعية في وقته ، وقصده الناس من كل البلدان في طلب العلم ، تولى قضاء شيراز وكان محدثاً أصولياً فقيهاً تخرج عليه سليمان بن أحمد الطبراني المحدث الشهير صاحب المعاجم الثلاثة وغيره ، من تلاميذه : الرد علي داود في إبطال القياس ومختصر في الفقه ، توفي ببغداد سنة : ٣٠٦ هـ انظر ترجمته في : طبقات الشافعية : ٨٧/٢ ، طبقات الاصوليين : ١٦٥ الاعلام للزركلي : ج١/ ٥٦

(٤) انظر تفصيل الكلام في ذلك في الباب الثاني فصل المباحث اللغوية مبحث القسم

معنى مُوهم الاختلاف والتناقض :-

قبل الشروع في توضيح معنى هذا العنوان والمقصود منه لا بدّ من إيضاح معاني مفرداته في اللغة ثم في الاصطلاح وأبدأ بكلمة " موهم "

وهي من أوهم يوم إيهاما فهو موهم ، اسم فاعل من أوهم ، والأصل الثلاثي : " وهم " ومعناه في اللغة نستظمه من لسان العرب ، قال ابن منظور (١) : (الوهم من خِطرات القلب ، والجمع أوهام ، وتوهم الشيء تخيّل له كان في الوجود أو لم يكن ، قال زهير : فلأياً عرفت الدارَ بعد توهم... (٢) ، واللّه عز وجل لا تدركه أوهام العباد ، ويقال وَهَمْتُ في كذا وكذا أي غلطت ، وَوَهْم إليه يهْم وهما : ذهب وهمه إليه ، وَوَهْم في الصلاة وهما وَوَهْم : كلاهما سها ووهمت في الصلاة : سهوت ، ووهمت إلى الشيء : اذا ذهب قلبك إليه وأنت تريد غيره وتوهمت : أي ظننت ، وأوهمت غيري إيهاما والتوهم مثله .) اهـ

قلت : وما يوضح معنى الوهم ما روي في استدراك عائشة - رضي الله عنها - على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث قالت : (وَهَمَ عمر ، إنما نهى رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أَنْ يُتَحَرى طلوع الشمس وغروبها) اهـ

فالوهم : يدل على السهو والغلط وما يخطر في القلب على خلاف الواقع أو المراد ،

والموهم : ما يجعل القلب يذهب الى المعنى الذي لا يُقصد فيكون سببا للوهم

(١) لسان العرب ج٢ / ٦٤٣ ، مادة وهم ، طبعة دار صادر - دار بيروت وانظر : تاج العروس للزبيدي ج٩ / ٩٦ ، ومعجم مقاييس اللغة لآحمد بن فارس ج٦ / ١٤٩ ، تحقيق عبد السلام هارون ط٢

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى : ص ٧٥ ، والبيت من المعلقة وصدره : وقفت بها من بعد عشرين حجة ...

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : كتاب المسافرين ، باب الاوقات التي نهى عن الصلاة فيها ، (شرح النووي على صحيح مسلم : ج٦ / ١١٩)

كلمة "الاختلاف" لغة :
 من اختلف يختلف اختلافا ، والأصل الثلاثي : خلف قال ابن منظور : (١)
 اختلاف الليل والنهار ، وفي التنزيل : ((وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن
 أراد أن يذكر أو أراد شكورا)) (٢) أي هذا خلف من هذا ، يذهب هذا ويجي هذا
 والخوالف الذين لا يغزون ، وأحدهم خالفة كأنهم يخلفون من غزا ، والخالف المخالفة
 وفي التنزيل : (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) (٣) أي مخالفة رسول
 الله ، والخالف المضادة وقد خالفه مخالفة وخلافا ، ويقال : خلف فلان بعقبى
 إذا فارقه على أمر فصنع شيئا آخر ، وخالفه إلى الشيء : عصاه إليه أو قصده
 بعلمه نهاه عنه ، وفي التنزيل : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) (٤)
 وتخالف الأمران واختلفا : لم يتفقا
 والخلف ، والخلف : نقيض الوفاء بالوعد وهو في المستقبل ، كالكذب في الماضي . (٥)
 وقال الزبيدي : (والخلفة بالكسر : الاسم من الاختلاف أي خلاف الاتفاق أو
 مصدر الاختلاف أي التردد والخلفة : القوم المختلفون ،
 ، والخلفة : المخالفة والمضادة ، والمخلاف : الرجل كثير الخلاف لوعده
 وتختلف الرجل عن القوم إذا تأخر ، واختلف ضد اتفق ومنه الحديث : (سوا صفوفكم
 ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم) (٦) وخالف إلى القوم أتاهم من خلفهم ، أو أظهر
 لهم خلاف ما أضمر فأخذهم على غفلة ، والتخاليف الإخوان المختلفة)
 ونلاحظ أن هذه المعاني كلها تعود إلى المضادة والمخالفة والمنايرة وعدم الاتفاق

(١) لسان العرب : مادة نقض ج ٧ / ٢٤٢ وانظر : معجم مقاييس اللغة ج ٥ / ٤٧١
 (٢) سورة الفرقان / ٦٢ (٣) التوبة / ٨١
 (٤) هود / ٨٨ (٥) تاج العروس شرح القاموس ج ٦ / ٩٥
 (٦) أخرجه مسلم في صحيحه / كتاب الملة باب تسوية الصفوف عن ابن مسعود
 رضي الله عنه مرفوعا بلفظ : (استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم) وقوله :
 (سوا صفوفكم) قطعة من حديث بعده في نفس الموضع ، (شرح النووي على مسلم ج ٤ / ١٥٤)

التناقض لغة :

(١)

من تناقض يتناقض تناقضاً والأصل الثلاثي : نقض ، قال ابن منظور :

(النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء أو جمل أو عهد ، والنقض :

ضد الإبرام ، والنقض بالكسر اسم البناء المنقوض إذا هُدم ، وناقضه في الشيء مناقضة ونقاضاً : خالفه قال الشاعر :

وكان أبو العيوف أذا وجارا وذا رحم فقلت له نقاضاً

أي ناقضته في هجوه إياي ، والمناقضة في القول : أن يتكلم بما يتناقض معناه

والنقيضة في الشعر ما يُنتقض به ، وكذلك المناقضة في الشعر : ينقض الشاعر

الأخر ما قاله الأول ولذلك قالوا : نقاضت جرير والغزدق ، ونقيضك الذي يخالف

ويقال : انتقض الجرح بعد البرء (٠) اهـ

وقال الزبيدي (٣) : (وفي حديث هرقل : لقد انتقضت الغرفة (٤) ، أي تشققت

وجاء صوتها ، ومن المجاز (٥) : المناقضة في القول ، أن يتكلم بما يتناقض

معناه أي يتخالف ، والتناقض خلاف التوافق (٠) اهـ

ونلاحظ أن معاني النقض والتناقض تدور إجمالاً حول المخالفة وعدم التوافق وإفساد

ما أبرم ، وأن بعض العلماء اعتبر التناقض في القول من المجاز أي أن التناقض

في الكلام بمنزلة إفساد العقد وهدم البناء ونحو ذلك

وبعد الفراغ من القاء الضوء على أجزاء العنوان من الناحية اللغوية نأتي إلى

بيان معناها الاصطلاحي عند العلماء :

الاختلاف : ينقسم إلى قسمين ، اختلاف تنوع واختلاف تضاد ، واختلاف التنوع على وجوه : منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً ، كما في

(١) لسان العرب ، مادة نقض ، ج ٧ / ٢٤٢ ، وانظر : معجم مقاييس اللغة ج ٥ / ٤٧١

(٢) لم ينسبه في اللسان

(٣) تاج العروس ج ٥ / ٩٣ ، وانظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج ٥ / ٤٧١

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ج ١ / ٢٨٨ ط : أولى تحقيق : عبد الرحمن محمد

وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ج ١ / ٥٧ تحقيق : محمدرؤاس قلعة جي ، بلخ :

لنغمت الغرفة

(٥) كذلك قال الزمخشري في أساس البلاغة ص : ٦٥٠ طبعة دار مادر / بيروت

القراءات التي اختلف فيها الصحابة فقال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (كلاما محسن) ^(١) لأنها كلها متعلقة عن الرسول ، ومثل اختلاف الانواع في صفة الاذان والإقامة والاستفتاح والتشهدات وصلاة الخوف وتكبيرات العيد الى غير ذلك مما شرع جميعه

ومنه ما يكون كل من القولين هو في الواقع في معنى القول الآخر لكن العبارتين مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس في الفاظ الحدود والتعريفات وصيغ الأدلة ؛

ومنه ما يكون طريقتين مشروعتين ولكن قد سلك رجل او قوم هذه الطريقة وآخرون قد سلكوا أخرى ، وكلاهما حسن في الدين ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فبازن الله ٠٠٠) الحشر / ٥ - وقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - في حصار بني النضير اختلفوا في قطع الاشجار والنخيل فقطع قوم وترك آخرون وكل ذلك بإذن الله

ومن الاختلاف المذكور في كتائب الله ما حمد فيه احدى الطائفتين وهم المؤمنون وذم فيه الاخرى كما في قوله تعالى : (٠٠٠) ولكن اختلفوا فمنهم من امن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا) - البقرة / ٢٥٣ - فهذا حمد لاحدى الطائفتين وذم للآخرى ^(٢)

واما اختلاف التضاد : فهو القولان المتنافيان ، وهو ما نفاه الله عن كتابه فيقوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء / ٨٢ واختلاف التضاد هو ما اثبتته الله للكفار في منهجهم وكلامهم ومواقفهم كما قال تعالى : (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ٠٠٠) هود / ١١٨ وقال : (وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) / البقرة / ١٧٦ وقال : (والسماة ذات الحباك انكم لفي قول مختلف) - الذاريات / ٨ - اي متخالق متناقض في أمر الله عز وجل حيث تقولون إنه جل شأنه خالق السموات والارض ، وتقولون

(١) البخاري : ج ٣ / ٨٨ كتاب الخصومات / باب ١ : ما يُذكر في الأشخاص

واحمد في المسند : ج ١ / ١٩٣

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الاسلام ابن تيمية ص : ٤١-٣٧

تفسير التبيان للطوسي ج ٣ / ٢٧١ شرح المواقف ج ٤ / ٢٠

بمحة عبادة الاصنام معه سبحانه ، وفي أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم -
 فتقولون تارة إنه مجنون واخرى إنه ساحر ، ولا يكون الساحر إلا عاقلاً ، وفي
 أمر الحشر ، فتقولون تارة لا حشر ولا حياة به الموت أصلاً وتزعمون مرة أخرى
 أن أصنامكم شفعاءكم عند الله تعالى يوم القيامة الى غير ذلك من الأقوال .
 المتخالفة المتضادة (١) وعلى هذا فإن الاختلاف منه ما يكون محموداً ومنه
 ما يكون مذموماً والاختلاف المذموم هو اختلاف التضاد والتنافي وهو الذي نفيه
 الله عن كتابه وهو ما نريد في هذا البحث دفع ما يتوهم منه في كتاب الله
 وانتقل الآن الى بيان معنى التناقض في الاصطلاح :

قال قوم : هو قولك فلان قائم قاعد ، وقال بعضهم : ليس هذا هكذا لأن قاعدة
 اثبات كما أن قائماً اثبات ، والاثباتان لا يتناقضان وإن فسد أحدهما
 وإنما يقع التناقض والتنافي في قولك : فلان قائم لا قائم لان الثاني نفي لمعنى
 الاول (٢) قال ابن قدامة : (كل نقيضين : ينتج اثبات احدهما نفي الاخر ونفيه
 اثبات الاخر) (٣)

وعلى هذا فالنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان في شيء واحد وحال واحدة كالحياة
 وعدم الحياة مثلاً (٤)

والتناقض ايضاً عند الأصوليين : هو تقابل الدليلين المتساويين على وجه لا يمكن
 الجمع بينهما بوجه . وهو مرادف للتعارض في اطلاق كلامهم (٥)

وقد ذكروا للتعارض شروطاً وهي : اتحاد الموضوع والمحمول والزمان (٦)
 وبدون ذلك لا يكون هناك تناقض

(١) انظر : البحر المحيط لابي حيان الاندلسي ج٨ / ١٣٤

زاد المسير لابن الجوزي ج٨ / ٢١ وروح المعاني للالوسي ج٢٧ / ٤

(٢) مقالات الاسلاميين / لابي الحسن الاشعري ص : ٣٧٦

(٣) روضة الناظر : ٢٥

(٤) المعجم الوسيط : ج٢ / ١٥٣

(٥) نهاية السؤل للسؤل ج٤ / ٤٣٣ ، المستصفى للغزالي ٥٢٣

ارشاد الفحول للشوكاني / ٢٧٣ - ٢٧٤ ، التمهيد في اصول الفقه لابي

الخطاب الحنبلي ج٤ / ٣٤٩

(٦) غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص : ٥٠ ، شرح المواقف للايجي ج٤ / ٨٤

ارشاد الفحول للشوكاني : ٧٤ أدلة التشريع المعارضة د. بدره أبو العنين

وبعد الفراغ من بيان المعنى الاصطلاحي للاختلاف والتناقض أرى أهمية بيان معنى الضد كذلك لقرب معناه من معنى الاختلاف والتناقض وكذلك لاستعماله أحيانا مرادفاً

لهما ، تعريف الضد :

ضد كل شيء ما نأفاه نحو البياض والسواد ، والسخاء والبخل ، والجمع ،
اضدان ، وليس كل ما خالف الشيء ضداً له ، ألا ترى أن القوة والجهل
مختلفان وليسا ضدَّين ، وإنما ضد القوة الضعف وضد الجهل العلم^(١)
فالاختلاف أعم من التضاد إذ كل ضدَّين مختلفان ، وليس كل مختلفين ضدان

فالاضدان : هي اللفاظ التي يدل الواحد منها على معنيين متضادين والنضتان

لا اجتماعان^(٢) ، وقال البعض : الضدان هما المتنافيان اللذان ينقي

أحدهما الآخر ، وانكر أبو الهذيل^(٣) هذا القول لأن الحرفين يتناقضان ولا

يثقاداتان^(٤) فالضدان صفتان وجوديتان يتماقبان في موضع واحد يستحيل اجتماعهما

كالسواد والبياض^(٥) والمراد من اجتماعهما : أي في الموضع الواحد كان يكون

الشيء أسوداً أبيضاً في محل واحد ، وإلا فقد يجتمعان بمعنى أن يكون الشيء

بعضه أسوداً وبعضه أبيضاً ، وقد مثل بعضهم بالليل والنهار^(٥) وهو من باب

التوسع حيث إن الليل والنهار نقيضان وليسا ضدَّين لأنهما لا يجتمعان أبداً في

موضع واحد ، وهذا يدلنا أنه قد يُطلق على الضدين اسم النقيضين أو المختلفين

وبالعكس من باب التوسع ،

قال الأيجي^(٧) (واعلم أن التضاد لا يكون إلا بين أنواع جنس واحد كالسواد

والبياض المندرجين تحت اللون^(٨))

قلت : والأصوليون يعبرون بالتناقض حيناً وبالتضاد والتعارض حيناً ، وبالتعادل

والتقابل حيناً^(٨)

(١) أضاف أبو الطيب اللغوي - نقلاً عن كتاب : المشترك اللغوي ص : ١٣٤

(٢) مقالات الإسلاميين : ٣٣٦ ، اقتضاء الصراط المستقيم : ص ٣٥

(٣) هو : محمد بن الهذيل العبدى العلاف من الطبقة السادسة للمعتزلة ت ٢٣٥ هـ

أيام المتوكل (مقالات الإسلاميين للاشعرى : ج ٢ / ١٦٢)
(٤) مقالات الإسلاميين : ٣٣٦ ، (٥) غاية المرام في علم الكلام للامدي : ص ٥٠

(٦) معجم مقاييس اللغة : ٣٦٠ ، التعريفات للجرجاني : ١٤٢

(٨) شرح المواقف : ج ٤ / ٨٤ ، المستصفى للغزالي : ٥٢٤ ، غاية المرام : ٥٠

والتعادل : ما خوذ من عدل فلان بفلان إذا سوى بينهما ويقال : تعادل الأمران
إذا تساويا وتعارضا ، والعدل والعدل : النضير والمثيل ، اللسان مادة عدل ، ٤٢/١١

(٧) شرح المواقف : ج ٤ / ٨٥

والذي تبين لي بعد كل الذي تقدم ومن مطالعة أقوال العلماء ،
أن المختلفين : وصفان متغايران قد يجتمعان وقد يرتفعان عن المحل الواحد
مثل السواد والحلاوة (١) وأن النقيضين : صفتان متغايرتان لا تجتمعان في
محل واحد ولا ترتفعان عنه بل لابد من وجود أحدهما كالليل والنهار والحياة والموت
وأن الضدين : صفتان متغايرتان لا تجتمعان في المحل الواحد وقد ترتفعان ، ومثال
ذلك : اللونان المتغايران كالسواد والبياض وعلى هذا فكل متفاد مختلف وليس
كل مختلف متفادا (٢) ، والذي يظهر لي بعد كل الذي تقدم أن هذه الالفاظ قد تنوب
عن بعضها عند التعبير وذلك من باب التوسع وهذا الذي جرى عليه العلماء في
مؤلفاتهم كما تقدم .

(١) نص على ذلك أبو الهلال العسكري في كتابه : الفروق اللغوية ، ص ١٢٩

تحقيق : حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية ، ط ١٩٨١

(٢) انظر المرجع السابق نفس الصفحة

معنى (موهم الاختلاف والتناقض في القرآن)
بعد أن بيّنت معاني أجزاء هذا المركب من الناحيتين الغوية والاصطلاحية أُبين
الان معناه الإجمالي والتفصيلي كمصطلح مركب :
فمن مطالعة أقوال العلماء نجد أن المراد منه : (العلم الذي يبحث في
النصوص القرآنية التي يتوهم من ظواهرها التعارض والاختلاف سواء كان ذلك
في اللفظ أو المعنى ثم دفع ذلك التوهم ببيان المراد من النصوص والجمع بين
معانيها وذكر سبب الإيهام الواقع .)

وقد تناول العلماء قديما وحديثا هذا المصطلح وبينوا المراد منه لإظهار
استحالة التعارض والتدافع بين النصوص القرآنية وأن كل ما يقع في ذهن من
أنه تعارض أو اختلاف ما هو الا مجرد وهم وظن له أسبابه ، سنعرض لها فيما بعد
قال الزركشي (١) : (وكلام الله منزّه عن الاختلاف كما قال تعالى :

(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) - النساء / ٨٢ -
ولكن قد يقع للمبتدئ ما يوهّم اختلافا وليس به فاحتيج لازالته كما صُنّف في
مختلف الحديث (٢) وبيان الجمع بينهما ؛ وقال أبو بكر الصيرفي (٣) :
(جماع الاختلاف والتناقض أن كل كلام صح ان يناف بعض ما وقع الاسم عليه الى
وجه من الوجوه فليس فيه تناقض وانما التناقض في اللفظ ما ضاده من كل
جهة على حسب ما تقتضيه الاسماء . ولن يوجد في الكتاب ولا في السنة شيء من
ذلك أبدا ، وانما يوجد فيه النسخ في وقتين بأن يوجب حكما ثم يحله ، وهذا
لائناقض فيه ، وتناقض الكلام لا يكون إلا في إثبات ما نُفي أو نفي ما أُثبت
بحيث يشترك المثبت والمنفي في الاسم والحدث والزمان والاعمال والحقيقة ، فلو
كان الاسم حقيقة في أحدهما وفي الآخر مستعارا ونُفي أحدهما وأُثبت الآخر لسم
يُعدّ تناقضا .) اهـ

(١) البرهان في علوم القرآن ج٢/ ٥٣ ، وانظر : الاتقان // للسيوطي ج٢/ ٢٧
(٢) من أشهر من صنّف في ذلك الامام الشافعي وهو مطبوع بهامش الأم ، وصنّف فيه
الامام ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث وهو مطبوع ايضا ، والطحاوي في مشكل الآثار

(٣) هو محمد بن عبد الله الامام الجليل الاصولي الفقيه الشافعي ،
من تصانيفه : شرح الرسالة ، وكتاب الاجماع ، ترجمته في : تاريخ بغداد ج٥/ ٤٩١
وطبقات الشافعية الكبرى ج٣/ ١٨٦

وقال الإمام الشافعي (١) : (كل من تحقق بأصول الشريعة فأدلتها عنده لا تكاد تتعارض كما أن كل من حقق مناط المسائل فلا يكاد يقع في متنازعه ، لأن الشريعة لاتعارض فيها البتة ، فالمتحقق بها متحقق بما في نفس الأمر فيلزم ألا يكون عنده تعارض ، ولذلك لا تجد البتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما بحيث يجب عليهم الوقوف (٢) لكن لما كان أفراد المجتهدين غير معصومين من الخطأ أمكن التعارض عندهم (٣) ١٠هـ

قلت : وكلام الزركشي السابق وما نقله عن الصيرفي يوضح لنا المراد من موهم الاختلاف ولمن يقع ثم وضح لنا الشافعي رحمه الله عدم امكانية التعارض بين نصوص الشريعة إلا على سبيل عدم التحقق ودخول الخطأ على غير المعصومين فيحصل الوهم ويتطرق الى الذهن الاختلاف على سبيل ما ليس في حقيقة الامر فان التعارض مقطوع بنفيه ، والا كانت من عند غير الله تعالى ..

وقد نبه ابن تيمية رحمه الله أن توهم الاختلاف يؤدي الى ضرب كتاب الله بعضه ببعض وذلك ما نهى عنه الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - قال (٤) : (اخرج احمد في مسنده (٥) : (أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا وكذا ، وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا وكذا ، فسمع ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرج فكأنما فقع في وجهه حب الرمان (٥) فقال : (أبهذا أمرتم ؟ أو بهذا بُعثتم ؟ أن تفرسوا كتاب الله بعضه ببعض ، إنما قلت الأمم قبلكم يمثل هذا ، إنكم لستم مما ههنا في شيء ، انظروا الذي أمرتكم به فاعملوا به ، والذي نهيتكم عنه فانتهوا عنه) (٦) (إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا وإنما نزل يصدق بعضه بعضا فما عرضتم منه فاعملوا به و ما جهلتم منه فردوه الى عالمه)

وقد كتب احمد في رسالته الى المتوكل هذا الحديث وجعل يقول لهم في مناظرته

(١) الموافقات : ج٤ / ٢٠١ وانظر : اختلاف الفقهاء / علي الخفيف ، ص ٨٣ والشافعي هو : ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشافعي وهو اصولي حافظ من أئمة المالكية من كتبه : الموافقات ، والاعتماد وغيرها

(٢) الاعلام للزركلي ج١ ص ٧٤

(٣) اي بحيث يجب عليهم التوقف عن العمل بهما (٣) اقتضا الصراط المستقيم / ٤٢

(٤) المسند : ج١ / ١٠٥ ، ج٤ / ٢٠٤ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

(٥) اي من الغضب ، وهذا ما تدل عليه الروايات الاخرى وهو ظاهر السياق

وفي رواية احمد (ج١ / ١٧٨) وابن ماجه (ج١ / ٢٣) تحقيق عبد الباقي

(٦) (خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم والناس يتكلمون في القدر فكأنما يُفْتَأ في وجهه حب الرمان من الغضب ٠٠٠) (٦) المسند ج١ / ١٨١

يوم الدار (١) : (لنا قد نهينا أن نضرب كتاب الله بعنه ببعض) (٠) اه
قلت : وفي ذلك بيان لعلم الامام احمد ومزيد ورعه واعتقاده أن الذين يناظرونه
إنما يشبه عليهم بعض معاني القرآن فيتأولونها على غير تأويلها فيتوهمون
أنها تؤيد مذهبهم الفاسد ناسين أو جاهلين الآيات الاخرى التي تفسرها وتوضح
المراد منها حيث إن كلام الله مترابط المعاني منسجم الأفكار لا ينبغي توهم
الاختلاف فيه أو وجود ما يؤيد اصحاب الاهواء الذين يتبعون ما تشابه منه ، وما
يتشابه عليهم الالوجود الزيف في قلوبهم ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ؛

ثم إن نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الاختلاف إنما هو ما فيه جحد
كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق ويتضح ذلك من الحديث الاتي :

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : (سمعت رجلاً يقرأ حم السلاطين
- يعني الاحقاف - فقرأ حرفاً ، وقرأ رجل آخر حرفاً لم يقرأه صاحبه ، وقرأت أحرفاً

لم يقرأها صاحبي ، فانطلقنا الى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبرناه ،
فقال : (لا تختلفوا ، فأما هك من كان قبلكم باختلافهم) (٢)

وفي رواية : (كلاكما محسن ، وإن من قبلكم اختلفوا فيه فأهلكهم فلا تختلفوا) (٣)

ودلالة الحديث ظاهرة بأن المراد هو النهي عن تخطئة بعضهم بعضاً لأن كلا منهم
وإن اختلفت قراءته عن الآخر فكلهم . قد سمعها من النبي - صلى الله عليه وسلم -

فكل القراءات حق والنهي منصب على جحد ما مع الآخر من الحق ، حيث قال لهم :
(كلاكما محسن) وهم كلهم عدول متساوون فيما ينقلونه عن النبي فلا معنى
لتخطئة بعضهم بعضاً لأن الاختلاف في القراءة لا يعني التعارض بل كله حق منزل
وسأتي بيان هذا المعنى بتوسع في الباب الثاني فصل القراءات بمشيئة الله

(١) اي يوم امتحن الامام احمد وضرب بين يدي المعتمد من اجل ان يقول بكلام
المعتزلة : ان القرآن مخلوق ، وقد حضر المعتمد الفقهاء والقضاة ليناظروه
ثلاثة ايام بحضرته وهو يناظرهم ويقهرهم وكان ذلك سنة : ٢١٩ هـ
انظر : كتاب المنهج الاحمد / ج ٣ ص ٣٥

(٢) اخرجه : احمد في مسنده ج ١ / ٤٠١ طبع المكتب الاسلامي

(٣) ميند احمد ج ٥ / ٢٧٤ رقم : ٣٧٢٤ تحقيق احمد شاك

واخرجه البخاري بنحوه الى قوله : (كلاكما محسن) كتاب الخصومات / باب ١

ويدل على عدم الاختلاف في حقيقة الأمر بين أدلة الشرع ما يلي :
أولاً : قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) - النساء / ٨٢ -

فهذه الآية تدل على نفي الاختلاف بين الأدلة (١) لأنها من عند الله العليم الخبير وقوله تعالى : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) - النساء / ٥٩ -

فانه صريح في رفع التنازع والاختلاف بالرجوع إلى الشريعة فلو كان من بين أدلتها ما يُفضي إلى الاختلاف لم يكن في الرجوع إليها فائدة ترفع التنازع وأيضا قوله تعالى : (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) - الانعام / ١٥٣ -

فقد بين الله في هذه الآية أن طريق الحق واحد وأمر باتباعه والرجوع إلى

الشريعة يضمن عدم التفرق عن السبيل الحق

ثانياً : أنه لو كان في الشريعة مسأغ للخلاف بين الأدلة الشرعية لأدى ذلك إلى التكليف بما لا يطاق (٢)

فالمتعارض الظاهري بين ما دلت عليه بعض الآيات وآيات أخرى غير حقيقي، ذلك لأن الأدلة القطعية لا مدخل فيها للظن وتعارض القطعيات محال ، وما ظاهره التعارض فعلى ترتيب يمكن الجمع بينهما فيه كما سيأتي توفيقه بمشيئة الله ؛ وقد بان مما تقدم معنى موم الاختلاف في القرآن وقد قلنا من العلماء ما يوضح ذلك وأن التعارض الظاهري بين النصوص هو مجرد وهم له اسبابه ، وان كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وكتاب الله هو الصراط المستقيم وهو الحق المأمور باتباعه والرجوع إليه عند التنازع فلا مسأغ لوجود الاختلاف فيه وما ظاهره كذلك فهو على ترتيب وهيئة يمكن بهما الجمع بين النصوص التي يتوهم أنها متعارضة ، وذلك الظن أو التوهم ناتج عن عدم العلم بمحامل النصوص ومعانيها واسباب ورودها وظروف سياقها وتاريخ ورودها ، وكذلك بسبب عدم الإحاطة بآيات الله وعلاقتها ببعضها ، كما أن ضرب آيات الله بعضها ببعض مضمونه الايمان بلوحى الآيتين والكفر بالآخرى إذا اعتقد أن بينهما تضاداً ، وهذا هو المنهي عنه إذ الضدان لا يجتمعان (٣)

(١) سوف يأتي مبحث خاص لتفسير الآية على وجه التفصيل بمشيئة الله

(٢) الموافقات / للإمام الشاطبي : ج ٢ / ٢٠٩ ، أدلة التشريع المتعارضة

بدران أبو العينين : ٣٠ - ٣٢

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم / لابن تيمية : ٣٥ ، اختلاف الفقهاء /

علي الخفيف : ٨٣

ومن أجل ذلك فقد أجاب ابن عباس رضي الله عنهما الرجل الذي سأله عن بعض مسائل اختلفت عليه من القرآن بقوله (١) : (فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك وإن الله لم يُنزل شيئاً إلا وقد أصاب به الذي أراد ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وفي رواية (٢) : (فإن الله لم يُرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله) قلت : ومما تقدم يتضح معنى عنوان البحث وهو :

(موهم الاختلاف والتناقض في القرآن الكريم)

وهذا العنوان لهذا العلم ذكره : كل من الإمام الزركشي في كتاب البرهان في علوم القرآن / ج٢ : ٤٥ والإمام السيوطي في : الاتقان / ج٢ : ٢٧ ولا يخفى أن اسناد كلمة موهم للقرآن فيه تجوز حيث إن التوهم كما تقدم هو من البشر لعدم التدبر ، أو نقص العلم ، أو زيغ القلب ، لكن لما كان محل هذا التوهم هو آيات القرآن أُسند الإيهام إليها تجوزاً كما هو ظاهر إضافة إلى وجود أسباب التوهم كما سيأتي ، فالأسباب الموهمة للاختلاف عند من لا يعلمها ولا يدركها تكون سبباً للتوهم وهذا من ابتلاء الله - عز وجل - للعباد ليمتاز العالم من الجاهل ، والمؤمن من الشاك ، والمتدبر من غيره وللحضر على دراسة كتاب الله وتدبره لمعرفة أنه لا اختلاف فيه ولا تناقض كما هو حال ما كان من عند غير الله تعالى ؛

هذا وقد كانت الآيات التي يتوهم منها الاختلاف محل اهتمام العلماء والمفسرين حيث بينوا انتفاء التعارض الموهوم وردوا على اعداء الإسلام وبينوا جهلهم أو تحاملهم - وسوء مقاصدهم - وسوف اذكر لذلك أمثلة توضح للقارئ المقصود من : موهم الاختلاف والتناقض وكيفية دفع هذا التوهم : —

المثال الأول : قوله تعالى : (وإن تُصِيبهم حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبهم سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قل كل من عند الله (١٠٠٠) الآية مع قوله تعالى بعدها : (ما أَصَابَك من حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وما أَصَابَك من سَيِّئَةٍ

(١) اخرج ذلك عبد الرزاق في تفسيره ، انظر : الاتقان / للسيوطي : ج٢ / ٢٧

(٢) صحيح البخاري / كتاب التفسير ، سورة حم السجدة ، ج٦ / ٣٥

وانظر : فتح الباري للإمام ابن حجر العسقلاني / ج٨ : ٥٥٧ طبعة دار المعرفة
ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي

فمن نفسك ٠٠٠٠) الآية - النساء / ٧٨-٧٩ -

نقد يتوهم متوهم أن هناك تعارضاً بين دلالة كل من الآيتين لأن الآية الاولى قد نصبت كل الامور الى الله تعالى ، والآية الأخرى أضافت السيئة الى نفس الانسان ، ولكن عند التأمل في المراد من كلا الآيتين وفهم السياق الذي وردت فيه هاتين الآيتين نجد أنه لا تعارض ابدا ولا اختلاف ، فسياق الآية الاولى جاء للرد على المنافقين والتشجيع عليهم بثقلهم عن الجهاد ، وخوفهم من الموت ، وعدم رغبتهم في سعادة الآخرة ، قال تعالى : (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة واتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) ثم حكى الله عنهم خلة أخرى قبيحة ، حيث إنهم من عادتهم اذا جاهدوا وقتلوا فاصابوا راحة وغنيمة قالوا هذه من عند الله ، وإن أصابهم مكروه قالوا هذا من سوء محمد ، وقد كانت المدينة مملوءة بالنعيم وقت مقدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلما ظهر عناد اليهود ونفاق المنافقين أمسك الله عنهم بعض الإمساك كما جرت سنته تعالى في جميع الامم : قال تعالى : (وما ارسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) الاعراف / ٩٤ فعند هذا قال اليهود والمنافقون ما رأينا أعظم سوءاً من هذا الرجل نقصت ثمارنا وغلت اسعارنا منذ قدم ، فمعنى الحسنة في الآية : هو ما يصيبهم من خصب ورزق ونحو ذلك من ظفر وفتح وغنائم ، يقولون : (هذه من عند الله) يعني من قبل الله وتقديره والسيئة : ما يصيبهم من شدة عيش وقحط ونقص في الزروع والثمار أو موت أولاد ونتاج (يقولوا هذه من عندك) أي من قبلك وبسبب اتباعنا لدينك كما قال تعالى عن قوم فرعون : (فلما جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ولمن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) - الاعراف / ١٣١ - وكما قال الله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فلن أصابه خير اطمأن به ولن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) الحج / ١١

وهكذا قال هؤلاء المنافقون ، ولهذا إذا أصابهم شر انما يُسندونه الى اتباعهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - فأُنزل الله عز وجل : (قل كل من عند الله) ، أي الجميع بقضاء الله وقدره وهو ناخذ في البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فمن عنده الرخاء والشدة والنصر والهزيمة ،

ثم قال تعالى مخاطبا للرسول والمراد جنس الانسان ليحمل الجواب :
(ما اصابك من حسنة فمن الله) أي من فضله ومّنه ولفظه ورحمته ، (وما اصابك من سيئة فمن نفسك) يعني : وما اصابك من شدة ومثقة ومكروه فبذنب اكتسبته نفسك فاستوجبت به العقاب كما قال تعالى لأهل أحد :
(أو لما اصابكم مصيبة قد اصبتم مثلها قلتم أننى هذا قل هو من عند أنفسكم) - آل عمران / ١٦٥ - وكما قال تعالى : (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) - الشورى / ٣٠ -
وروى البخارى في صحيحه (١) عن عائشة - رض الله عنها - مرفوعا : (والذي نفسى بيده لا يصيب مؤمن هم ولا حزن ولا نصب حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياها)

وبهذا الذي تقدم نرى أن آيات الله يشهد بعضها لبعض ويؤيد بعضها بعضا فالحسنة والسيئة بمعنى الرخاء والشدة ونحو ذلك من عند الله خلقا وتقديرا وهذا معنى قوله : (قل كل من عند الله) وفي الوقت نفسه ما يصيب الانسان من خير ورخاء من الله فهو إما مشوبة وإما استدراج واختبار من الله ، وما يصيبه من بلاء وشدة ونحو ذلك فهو بسبب ما يقترفه هذا الانسان من معاصي وذنوب فتكون هذه الامور عقوبة له من الله (٢)

مما تقدم يتضح لنا أن التعارض بين الايتين منتفٍ تمام الانتفاء ، فأية (قل كل من عند الله) تتكلم عن الخلق والايجاد والتقدير وهو لله وحده وآية : (وما اصابك من سيئة فمن نفسك) تتكلم عما يُسببه الانسان لنفسه من الضرر بشؤم معصيته ، والكل يحصل بعلم الله وقضائه وخلقته وإيجاده

(١) البخاري في صحيحه : كتاب الطب / باب ما جاء في كفارة المرفز ، ج ٧ / ١٥٠

ومسلم : كتاب البر والملة ، ثواب المؤمن (شرح النووى ج ١ / ١٢٨)

(٢) انظر : تفسير : الطبرى ج ٨ / ٥٥٥ طبعة الطبى ، زاد المسير لابن الجوزي ج ٢ / ١٣٦

مفاتيح الغيب للرازي / ج ١٠ / ١٨٧ - ١٩٢ ، القرآن العظيم لابن كثير : ج ١ / ٧٦ - ٨٠٠

القرطبي : ج ٥ / ٢٨٤ ، روح المعاني ج ٥ / ٨٨ ، اسباب النزول للواحدي : ١٦٠

الموافقات للشاطبي : ج ٤ / ٢٠٧ فتح الرحمن لذكريا الانصاري : ١١٩

ومثال آخر : ما ذكره الله عزوجل من وصف الدنيا بما يقتضي ذمها مرة
وبما يقتضي مدحها مرة أخرى مما قد يُتوهم من ظاهره التعارض والتناقض
فالوصف الأول : أنها لاجدوى لها ولا نفع فيها بل هي مجرد زينة وزخارف ولهو
من ذلك قوله تعالى : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر
بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج
فتراه مضفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله
ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) - الحديد ٢٠ -
وقوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط
به نبات الأرض فاصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً)
الكهف / ٤٥

وغير ذلك من الآيات التي يُفهم من معناها أنه لا طائل تحتها ولا فائدة من
ورائها ، وأنها غرور ومتاع الى زوال ، ويستنبط ذلك من سياق الآيات
ومضمونها ، فمثلاً قوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا)
جاء بعد ذكر قصة صاحب الجنتين الذي كفر بأنعم الله فأحاط الله بشمره فأصبح
يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ، فأعقب الله ذلك بقوله
: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) الآية
فجاءت هذه الآيات لذكر دنيا الكفار والذين يجحدون نعمة الله ولا يسخرونها لنفع
العباد ؛

أما الوصف الثاني لها فهو كقوله تعالى : (أفلم ينظروا الى السماء
فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروع والأرض مددناها وألقينا فيها
رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) - ق/ ١٦-
وقوله تعالى : (أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا
به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تُنبِتوا شجرها إلاّ مع الله بل هم قوم
يعدلون ، أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل
بين البحرين حاجزاً أمّن مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) - النمل / ٦٠-٦١
وقوله : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الله لغفور رحيم) - النحل / ١٨
فهذه الآيات حسب سياقها ومضمونها دلائل على العقيدة وبراهين على التوحيد
ومنن ونعم امتن الله بها على عباده وسخرها لهم ، يتضح ذلك إذا نظرنا
في سياق الآيات ، فالآية الأولى : (أفلم ينظروا الى السماء) من سورة - ق
سيقت بعد ذكر تكذيب الكفار ، فلفت الله أنظارهم الى آثار قدرته في رفع
السماء وزينتها وبسط الأرض وتهيئتها لمعيشتهم بكل المنافع ؛
وأما الآية الأخرى من سورة النمل : (أمّن خلق السموات والأرض)

فقد جاءت بعد ذكر الأمم التي فعلت الفواحش وأشركت بالله عز وجل
فقم الله علينا من أمرهم وهلاكهم وأعقب ذلك بقوله : (آله خير مما
يشركون) - النمل/ ٥٩ - ثم ساق هذه الايات لبيان دلائل الوحدانية وآثار
القدرة ومظاهر النعمة والمِنَّة التي تسوق صاحب القلب السليم والعقل
المستنير الى اخلاص العبودية لرب هذه الكائنات الواحد المنعم المقتدر
ونبذ كل ما سوى الله من معبودات زائفة .

اذا تبين ذلك فإن الوصف الاول للدنيا : يوهى المخالفة والمفارقة للوصف
الثاني في الظاهر ، وكلام الله تعالى منزّه عن الاختلاف فلزم من ذلك
أن الوصفين قد تواردا على جهتين مختلفتين لكل جهة اعتبارها الخاص بها
فالحال الاول : هو لمن ينظر اليها نظرا مجردا عن الحكمة التي وضعت
لها الدنيا من كونها دار العمل والتعرف على الله ، ومستحقا لشكر الواضع
لها ، وإنما ينظر اليها على اعتبار أنها دار الشهوات انتظاما في سلك
البهائم ، فهي من هذه الجهة قشر بلا لب ولعب بلا جد وباطل بلا حق
فهذا نظر الكفار الذين زينت لهم الحياة الدنيا ورأوا أنها لعب ولهو
وزينة ، ولذلك صارت اعمالهم - كسراب بقية يحسبه الثمأن مائة ٠٠٠٠ -
ويتضح ذلك من مثال صاحب الجنتين السالف ذكره ،

والحال الثاني : هو نظر المؤمن الذي يرى أن الدنيا قد وضعت
لحكمة ومقصد ، وأنها بما فيها من آثار ونعم كلها دلائل على قدرة الباري
ونعمه التي لا تحصى والتي هي طالبة للعبد ان ينالها فيشكر الله
عليها ، وان ينظر فيها ليرى حكمة الله وابداعه وقدرته ،
(وما خلقنا السموات والارض وما بينهما باطلا ٠٠٠) ص/ ٢٧

فالدنيا من وجهة النظر الاولى مذمومة ومن وجهة النظر الثانية محمودة
وهكذا (١)

والذي يتبين من كل ما تقدم ان القرآن العظيم عند تدبره والتأمل
في معانيه كما أمر الله عز وجل يبدو في غاية الانسجام والتوافق
وأنه يفسر بعضه بعضا فلا تعارض ولا اختلاف ولا تتناقض ، وإنما اذا
توهم متوهم شيئا من ذلك فلعدم تدبره أو نقص علمه أو زيغ قلبه
ذلك أن القرآن قد أنزل رحمة للعالمين وشفاء للمؤمنين ومنهج السائرين
ومرجعا للمتنازعين فكان كما قال تعالى : (الر كتاب أحكمت آياته ثم
فصلت من لدن حكيم خبير ٠) - هود/ ١ -

(١) انظر : الموافقات للامام الشاطبي ج٤/ ٢٠٧ ، تفسير القرطبي ج١٧/ ٢٥٤

تفسير قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا *) - النساء / ٨٢ -

بعد أن أوضحت معنى موهم الاختلاف والمراد منه ولمن يحصل التوهم ، وضربت أمثلة من القرآن على آيات يُتوهم أن فيها اختلافا وتناقضا في المعنى ، ثم

بينت كيف يزال هذا التوهم وطريقة الجمع بين معاني الآيات ، بعد كل ذلك انتقل لتفسير الآية التي نقت وجود الاختلاف في القرآن ،

وأبدا ببيان السياق الذي ذُكرت فيه هذه الآية حتى نستطيع فهم المراد منها وتدبر معناها ، ومناسبتها لما قبلها

قال الله تعالى : (ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا ، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا *) - النساء / ٨١ - ٨٢ -

يحكي السياق عن حال طائفة من المنافقين (١) يذكر عنها فعلا جديدا من أفعالها الشائنة ، قال ابن جرير الطبري (٢) (يعني بذلك جل ثناؤه بقوله : (ويقولون طاعة) يعني الغريق الذين أخبر الله عنهم أنهم لما كتب عليهم القتال خشوا الناس كخشية الله أو أشد خشية ، يقولون لنبي الله - صلي الله عليه وسلم - إنا أمرهم بأمر : أُمرك طاعة ولك منا طاعة مهما تأمرنا به وتنهانا عنه ، (وإنا برزوا من عندك) يقول : فإذا خرجوا من عندك يا محمد (بيّت طائفة منهم غير الذي تقول) يعني بذلك - جل ثناؤه - : غير جماعة منهم ليلاً الذي تقول لهم ، والله يكتب ما يغيرون من قولك ليلاً في كتب أعمالهم التي تكتبها الخفظة ،

(فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا) فأعرض يا محمد عن هؤلاء المنافقين وخلصهم وما هم عليه من الضلالة وفوض أنت أمرك إلى الله وثق به في أمورك وولها إياه وحسبك الله فيما يأمرك ووليا لها ودافعا عنك وناصرا *) - ٨١ -

ونلاحظ أننا نستشعر مع حكاية فعلهم التنفير منها والتهديد ، بسبب ما يتأمرون

(١) انظر : أسباب النزول للواحدي / ١١٠ الدر المنثور للسيوطي ج ١ / ١٨٤

(٢) في تفسيره : جامع البيان ج ٨ / ٥٢٢ وانظر : ابن كثير ج ١ / ٨٠١

به ويسترونه خلاف ما يُظهرون ، فهذه الطائفة إذا كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم - تسمع منه القرآن وما فيه من التكاليف قالوا : طاعة ، يقولونها هكذا بإطلاقها وشمولها بدون اعتراض أو استغهام أو استيضاح أو غير ذلك ، ولكن ما إن يخرجوا من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى تبیت طائفة منهم غير الذي تقول وتروح فيما بينها تتآمر على عدم التنفيذ وعلى اتخاذ خطة للتخلص من التكليف (١)

والتعبير بقوله : (فلذا برزوا من عندك) يدلنا على سرعة مكرهم وتآمرهم ، فبمجرد بروزهم أي خروجهم من عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - يأخذون بالتآمر والمكر وتغيير الأوامر ؛

قال البقاعي (٢) : (ولما كان الانسان من عادته اثبات الأمور التي يريد تخليدها بالكتابة أجرى الله الأمر على ذلك فقال : (والله يكتب ما يُبیتون) أي يجددون تبیته كلما فعلوه وهو غني عنه ولكن ذلك ليقرئهم إياه يوم يقوم الأشهاد ويقيم به الحجة عليهم أو يوحي به اليك فيفضحهم بكتابته وتلاوته مدى الدهر فلا يثابروا أن تبیيتهم يغنيهم شيئاً) اهـ

قلت : نلاحظ من هذه الآية أن الله سبحانه يطمئن النبي - صلى الله عليه وسلم - واصحابه - رضي الله عنهم - بأن هؤلاء المنافقين تحت مراقبته وأنهم لن يضروا المسلمين شيئاً بتآمرهم وتبیيتهم ، ثم هي تهديد ووعيد للمتأمرين فلن يذهبوا مفلحين ، وكان أسلوب الرسول في معاملة المنافقين هو الاخذ بظاهرهم وعدم كشفهم للمسلمين أو مواخذتهم بحقيقة نواياهم ، وذلك لحكمة أرادها الله سبحانه ، فلذا قال الله هنا (فاعرف عنهم)

وبعد أن عرّضت سياق الآية وبيّنت معناها وفحواها اشعر الآن في تفسير الآية وأبداً بذكر مناسبتها لما قبلها :

قال البقاعي (٣) رحمه الله : (ولما كان سبب إبطانهم خلاف ما يظهرون اعتقاد أنه صلى الله عليه وسلم - رئيس لا يعلم إلا ما أظهره لارسل من الله الذي يعلم السر وأخفى ، سبب عن ذلك ارشادهم على وجه الإنكار إلى الاستدلال على رسالته بما يزيح الشك ويوضح الأمر ، وهو تدبر هذا القرآن المتناسب المعاني المعجز المباني ، الفائق لقوى المخاليق ، المظهر لخفاياهم ، على اجتهدهم في اخفائها فقال سبحانه وتعالى دالا على وجوب النظر في القرآن والاستخراج للمعاني منه : (أفلا يتدبرون القرآن ٠٠٠) ، فلذا علموا أنه من عند الله بهذا الدليل القطعي حفظوا سرائرهم كما يحفظون علانياتهم ، لأن الأمر بالطاعة مستوٍ عند السر والعلن) اهـ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٣ ص ٦٨٤ بتصرف

(٢) نظم الدرر في تناسبات الآيات والسور ج ٥ ص ٣٣٩

(٣) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٤٠

قلت : مما تقدم نرى أنه تعالى لما حكى عن المنافقين أنواع مكرهم وكيدهم وكان كل ذلك لاجل أنهم ما كانوا يعتقدون كونه محققا في الدعاء الرسالة ، بل كانوا يعتقدون أنه مفتر ، فلاجرم أمرهم الله تعالى بأن ينظروا ويتفكروا في الدلائل الدالة على صحة نبوته فقال :

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا

كثيرا) (٠) فاحتج تعالى بالقرآن على صحة نبوته ؛

(١)

قال الفخر الرازي : (اعلم أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى احتج

بالقرآن على صحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - إذ لو لم تحمل على

ذلك لم يبق لها تعلق بما قبلها البتة (٠) اهـ

واحتجاج الله تعالى بالقرآن على صدق النبي إنما هو دعوة لأهل النفاق

وغيرهم لمراجعة شكهم في مصدر هذا القرآن وما يأمرهم به الرسول .

ومعلوم أن سلطان الأمر والتكليف مستمد كله من الاعتقاد الجازم بأن

هذا القرآن كلام الله وبأنه - صلى الله عليه وسلم - مبلغ عن ربه ، ولذلك

حين يوجد مثل هذا الشك يخيب سلطان الأمر والتكليف جملة ، فاراد الله سبحانه

أن ينكر عليهم فعلتهم الشنعاء ويوبخهم على ما بدر منهم مع أن هذا

الذي يشكون فيه ويخالفون أوامره نزل بلسانهم ، أفلا يتدبرونه وينظرون

في بلاغته واتقانه وأعجازه الدال على أنه من عند الله ، وأنه لا اختلاف

فيه سواء (في لفظه) أو معناه) أو ما يرشد إليه من تكاليف) أو ما

يخبرهم فيه عما يجول في أنفسهم مما يمكرونه) أو غير ذلك من قمص

الأمم الماضية ، فلا اختلاف ولا تناقض مع أن الذي جاء به رجل أمي يعرفونه

جيدا ، فلو أنه من عند غير الله صاحب الأمر والنهي لكان مملووا

بالاختلاف والتضاد وغير ذلك من العوارض البشرية ، وإذا تبين ذلك فعليهم

الرجوع عن نفاقهم والكف عن تأمرهم وإعلان توبتهم بعد تيقنهم صدق هذا

النبي ، وأن ما جاء به إنما هو من عند الله لا ريب في ذلك إلا عند

من اظلم قلبه وانسد عقله وزاغت بصيرته

(والآية مخاطب بها كل احد وكل جيل وكل فرد عنده أدنى قدرة على التدبر

والفهم ويستطيع بعدها أن يدرك من ظاهرة عدم الاختلاف الذي نفاه الله

سبحانه أن هذا القرآن تنزيل من حكيم خبير) (٢)

يقول البيضاوي (٣) بشأن تناسب الآية لما قبلها : (ولعل ذكره هنا للتنبيه

على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحكم بل لاختلاف

الاحوال في الحكم والمصالح) اهـ

(٢) في ظلال القرآن : ج ٢ / ٢٢٣

(١) التفسير الكبير : ج ١٠ / ١٩٦

(٣) في تفسيره انوار التنزيل ص : ١٢٠

قلت : والظاهر أن ما يقصده هو ما تقدم من الأمر بالقتال في قوله :
(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل
في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ٧٤) النساء / -
وهذا الأمر جاء بعد الأمر الأول بالكف عن القتال وبالمصالحة في قوله :
(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة
.....) النساء / ٧٧

فهذان الحكمان المختلفان ليسا من التناقض في شيء بل لاختلاف الأحوال في
الحكم والمصالح ومراعاة المرحلة والتكيف مع الواقع والقدرات ، والله الموفق

التفسير التحليلي للآية :

(أفلا يتدبرون القرآن ٥٥٥٥)

الجملة : جاءت للاستفهام الإنكاري المتضمن التوجيه والإرشاد لما فيه مصلحة
المنافقين وبيان اللائق فعله واعتقاده بدلا من التصرفات الشنيعة الناتجة
عن الشك وعدم التصديق الناتج عن عدم استخدام ذوقهم وفطرتهم لتلمس
واستشعار آيات الله ، المتلوة الناطقة بصدق الرسول وأنه رسول رب العالمين
قال الألوسي (١) معللا سبب ورود الاستفهام :

(لعله جواب سؤال نشأ من جعل الله تعالى شهيدا ، كأنه قيل : شهادة الله
تعالى لا شبهة فيها ، ولكن من أين يُعلم أن ما ذكرته شهادة الله تعالى
محكية عنه ؟ فأجاب سبحانه بقوله : (أفلا يتدبرون القرآن) اه
قلت : شهادة الله تعالى التي يشير إليها الألوسي هي قوله تعالى قبل الآية

(٥٥٥٥) وارسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) النساء / ٧٩

والذي يظهر لي أن السؤال الناشئ تقديره : ما هو الداعي لطاعة هذا الذي
يدعي الرسالة ، وأنه واجب الطاعة في الظاهر والباطن ، ونحن إنما أطعناه
في الظاهر حفاظا على أنفسنا ، أو لمصلحة نبتغيها ، فإذا ثبت لدينا أنه
رسول رب العالمين أطعناه كما يريد ، فجاءت الآية للرد عليهم وبيان المطلوب

منهم وهو تدبر القرآن ليخلصوا النتيجة المطلوبة وهو أنه من عند الله
فالذي جابه لابد أن يكون رسول رب العالمين الواجب الطاعة في السر والعلن
والذي استظهرته سببه : أن الآية التي ذكرت قبل قوله : (أفلا يتدبرون القرآن)
تتكلم عن طاعة الرسول وكذلك الآية التي قبلها ، وهي قوله تعالى :

(١) في تفسيره : روح المعاني ج ٥ / ٩٢

(من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفیظاً)
النساء ٨٠

بينما جاءت الآية التي ذكر فيها شهادت الله وهي قوله : (وكفى بالله شهيداً)
جاءت بعد ذكر قولهم في الحسنة والسيئة ، فجاءت الشهادة من الله لرد
افتراءاتهم وتخريصهم ، ولا شك أن تعلق الآية بما قرب أولى من تعلقها
بما بعد ،

(١)

والفاء : جاءت في الآية للعطف على مقدر ، وتقديرها عند اللوسى حسب
فهمه السابق : (أيشكون في أن ما ذكر شهادة الله فلا يتدبرون القرآن
الذي جاء به هذا النبي - صلى الله عليه وسلم - المشهود له ، ليعلموا
كونه من عند الله فيكون حجة وأي حجة على المقصود) اهـ
وعلى التقدير الذي أراه : أيشكون في صدق هذا الرسول الواجب طاعته فلا
يتدبرون الذي جاء به من الآيات والتي تشهد له بالرسالة ، لأن ما جاء
به منزه عن الاختلاف الذي لا يسلم منه بشر ، فهل يعقل أن يكون هذا
الأمي قد أتى به من عند نفسه أو من عند غيره من البشر ، فلو كان
الأمير كذلك لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، فإذا انتفى ذلك بعد تدبركم القرآن
ثبت كونه رسول رب العالمين ، تجب طاعته في السر والعلن .

(٢)

(يتدبرون) : قال ابن منظور : (دبر كل شيء عقبه ومؤخره ، أدبر الرجل
إذا عرف دبره من قبيله ، والقبيل ما وليك ، والدبر ما خالفك ،
ودبر الأمر وتدبره : نظر في عاقبته ، والتدبير في الأمر : أن تنظر إلى
ما تؤول إليه عاقبته ، والتدبر : التفكير فيه ، وفلان لا يدري قبيل
الامر من دبره : أي أوله من آخره .) اهـ

وقال ابن الجوزي (٣) : (والدبر : النحل ، سمي دبراً لأنه يُعقب ما يُنتفع
به ، والدبر : المال الكثير سمي دبراً لكثرة لأنه يبقى للأعقاب .) اهـ
فكلمة يتدبرون : من الفعل المزيد : تدبر يتدبر تدبراً ، والاميل : دبر
والزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى ، فالتدبر هو مزيد
الخط والتعمق في عاقبة الشيء وما يؤول إليه ؛

اسند ابن جرير (٤) عن الضحاك : (أفلا يتدبرون القرآن ، قال : يتدبرون :

النظر فيه) ، ونقل ابن الجوزي (٤) عن ابن عباس : (أفلا يتدبرون القرآن

(١) روح المعاني : ج٥/٩٢ ، (٢) لسان العرب ج٤/٢٦٨ مادة دبر

(٣) زاد المسير في علم التفسير : ج٢/١٤٤ (٤) جامع البيان : ج٨/٥٦٨

(٥) زاد المسير : ج٢/١٤٤

فيتفكرون فيه فيرون تصديق بغضه لبعض ، وأنَّ أحدًا من الخلق لا يقدر عليه (٠) ، والذي أفاده العلماء أنَّ أصل التدبر هو :

التأمل والنظر في أدبار الأمر وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه

ثم استعمل في كلا تأمل وتفكر ، سواء كان نارا في حقيقة الشيء

وأجزائه أو سوابقه وأسبابه أو لواحقه وأعقابه (١)

وقد فرق الطوسي (٢) بين التدبر والتفكر ، بأن التدبر : تصرف القلب

بالنظر في العواقب ، والتفكر : تصرف القلب بالنظر في الدلائل (٠)

قلت : والمعني العام الذي تخلص اليه هذه اللغة : هو جهل

هؤلاء المنافقين حقيقة الرسالة ، وكنه هذه الهداية بسبب عدم

نظرهم وتفكيرهم وتدبرهم في القرآن الذي يدل على حقيقة الرسالة وعاقبة

المؤمنين بها والجاحدين لها ، فمالتدبر يعرفون أنه الحق من ربهم

وأن ما أنذر به الكافرون والمنافقون واقع بهم لانه كما صدق فيما

أخبر به عما يُبَيِّتُون في أنفسهم وما يشنون عليه مدورهم يصدق كذلك

فيما يخبر من سوء مصيرهم ، فلماذا كانوا لاستحواذ الببال والغبي

عليهم لا يدركون كنه هداية القرآن في ذاتها ، أعلم بأن لهم أن

يدركوا من خصائصه ومزاياه أنه لا يمكن ان يكون إلا من عند الله (٣)

قوله : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

(ولو كان من عند غير الله ٠٠) : أي لو كان من كلام البشر كما

تزعـم الكفار والمنافقين (٤)

وقوله : (٠٠ لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) : قال الشيخ زكريا الانصاري (٥)

: (يدل بمفهومه على أن في القرآن اختلافا قليلا وإلا لما كان للتقيد

بوصف الكثرة فائدة مع أنه لا اختلاف فيه أصلا ، ان المراد بالاختلاف

فيه التناقض في معانيه والتباين في نظامه ، واجيب : بان التقيد

بالكثرة للمبالغة في اثبات الملازمة ، أي لو كان من عند غير الله

لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فضلا عن القليل ، لكنه من عند الله فليس

فيه اختلاف كثير ولا قليل (٠) اهـ

(١) ارشاد العقل السليم للعلامة ابي السعود ج١/٢٤٤

روح المعاني للالوسي ج٥/٩٢ ،

(٢) في تفسيره : التبيان ج٣/٢٧٠ (٣) انار تفسير المنار : ج٣/٢٣٢

(٤) انوار التنزيل للبيضاوي : ص/ ١٢٠ ، تفسير ابن كثير ج١/٨٠٢

روح المعاني للالوسي ج٥/٩٣ (٥) فتح الرحمن / ١١٩ - ١٢٠

قلت : والواضح أنه يريد أن ما كان من عند غير الله ملازم لكثرة الاختلاف وما كان من عند الله منزّه عن الاختلاف قليله وكثيره

ولذلك أفاد الاوسى (١) : أن كلمة (وجدوا) في الآية متعددة التي

مفعولين ، أولهما : (كثيرا) وثانيهما : (اختلافا) بمعنى مختلفا

قلت : ومعنى ذلك أن قوله : (لوجدوا) منصب على قوله : (اختلافا كثيرا)

وهذا - يريد ما قاله الانصاري من أن المراد نفي الاختلاف في القرآن مطلقا

وأن ما كان من عند غير الله ملازم لكثرة الاختلاف وهي صفة دائمة لا

ينفك عنها كلام الادمي

ونظير هذا المعنى في كتاب الله قوله تعالى :

(ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ٠٠٠٠) - البقرة / ٤١ -

فمعناه : أن كل ثمن تأخذونه عن آيات الله فهو قليل ، ولم يُرد

التخصيص والمنع من الثمن القليل خاصة (٢) فقلة الثمن ملازمة لكل عوض

عن آيات الله لأنها لا تقدر بثمن ، ومثل ذلك قول الشاعر :

من أناس ليس في اخلاقهم

عاجلُ الفحش ولا سوء الجزع

قال المرتضى (٣) : (وانما أراد نفي الفحش كله عن أخلاقهم وإن وصفه

بأنه عاجل ، ونفي الجزع عنها وإن وصفه بالسوء ، وهذا من غريب

البلاغة ودقيقها ، ونظائره في الشعر والكلام الفصيح لا تحصى) ١٠ هـ

قلت : ما تقدم هو بيان المراد بوصف الاختلاف بالكثرة ، أمّا بالنسبة

للمعنى المراد بالاختلاف فقد قال الامام الغزالي (٤) (وليس المراد نفي

اختلاف الناس فيه بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن) ١٠ هـ

اي ان القرآن قد اختلف الناس فيه ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر

ولذا فقد قال تعالى : (يُضلّ به كثيرا ويهدي به كثيرا) - البقرة / ٢٦

وقال : (عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون) - النبأ / ٣

وقال : (وكذب به قومك وهو الحق) - الانعام / ٦٦ -

فالاختلاف بين الناس في القرآن موجود ولكن الاختلاف المنفي هو

الاختلاف الكائن في نفس القرآن اي بين آياته وسوره في لغته او معناه

والله ولي التوفيق .

(١) روح المعاني / ج ٥ / ٩٣

(٢) امالي المرتضى : ج ٢ / ٣٣٨ الشريف المرتضى علي بن الحسين ، ت ٤٣٦ هـ

(٣) المصدر السابق نفس الموضع

(٤) نقله عنه الزركشي في البرهان ج ٢ / ٤٦

المراد بالاختلاف المنفي :

بعد أن بينت أن المراد بالاختلاف المنفي نفي الاختلاف عن ذات القرآن
أبين هنا ماهية الاختلاف المنفي عن ذات القرآن :

بعد تتبع أقوال العلماء والمفسرين في بيان الاختلاف المنفي والمراد
منه في الآية ، نجدها منحصرة في أربعة أوجه هي كما يلي :

أولاً : الاختلاف في اللفظ

ثانياً : الاختلاف في المعنى

ثالثاً : الاختلاف في الأخبار عن المغيبات الحاضرة والماضية والمستقبلية

رابعاً : الاختلاف في المقولات العلمية التي لفت إليها القرآن

الوجه الأول : الاختلاف في اللفظ

تناول العلماء والمفسرين هذا الوجه بالشرح والبيان وأنه من أوجه
سلامة القرآن من الاختلاف ، نقل الزركشي^(١) عن الغزالي :

(يقال هذا كلام مختلف أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة ، أو هو

مختلف النظم فبعضه على وزن الشعر وبعضه منزه على أسلوب

مخصوص في الجزالة ، وبعضه على أسلوب يخالفه ، وكلام الله منزه عن

هذه الاختلافات ، فإنه على منهاج واحد في النظم ، مناسب أوله آخره

وعلى مرتبة واحدة في غاية الفصاحة فليس يشمل على الغث والسمين ،

ومسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى ،

وكلام الأديمين يتطرق إليه هذه الاختلافات بل كلام الشعراء والمترسلين

إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم ثم اختلاف في درجات

الفصاحة بل في امل الفصاحة حتى يشمل على الغث والسمين ، فلا

تساوى رسالتان ولا قصيدتان ، بل تشمل قصيدة على أبيات فصيحة

وأبيات سخيصة (٠) اهـ
(٢) :

وحول نفس المعنى يقول الامام الشاطبي رحمه الله :

(فأما جهة اللفظ فإن الفصاحة فيه متواترة مطردة بخلاف كلام المخلوق

فإنك تراه العجز الاختلاف ما هو ، فيأتي بالفعل من الكلام الجزل الفصيح

فلا يكاد يختتمه الا وقد عرض له في اثنا عشر ما نقص من منب فصاحته

وهكذا تجد القصيدة الواحدة منها ما يكون على نسق الفصاحة اللائقة

ومنها ما لا يكون كذلك (٠) اهـ

(١) البرهان في علوم القرآن : ج٢ / ٤٦ - ٤٧

(٢) في كتابه : الاعتماد ج٢ / ٣٠٧

ونقل الفخر الرازي^(١) عن أبي مسلم الاعمشاني قوله :

(المراد منه الاختلاف في رتبة الفصاحة حتى لا يكون في جملة ما يُعد في الكلام الركيك بل بقيت الفصاحة فيه من أوله الى آخره على نهج واحد ، ومن المعلوم أن الانسان وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة فاذا كتب كتابا طويلا مشتملا على المعاني الكثيرة فلا بد وأن يظهر التفاوت في كلامه بحيث يكون بعضه قويا متينا وبعضه سخيلا نازلا ، ولما لم يكن القرآن كذلك علمنا أنه المعجز من عند الله تعالى) اهـ
وقد اسهب الامام الباقلاني رحمه الله في بيان هذا الوجه وتجليته فقال^(٢) : (ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع في البلاغة ، والتشابه في البراعة على هذا الطول ، وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب الى حكيمهم كلمات معدودة والغناء قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال ويعتريها الاختلاف ويثملها التعمل والتجوز والتعسف ؛

وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله به : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) - الزمر / ٣ - وقوله : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء / ٨٢ -

كما أن عجب نظمه وبديع تاليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما فيه من قصص ومواعظ وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وغير ذلك ، وتجد كلام البليغ الكامل والشاعر المقلق يختلف حسب اختلاف هذه الامور ، فمن الشعراء من يجود في التابين دون التقريف ومنهم من يُجرب في وصف الابل او الخيل او حير الليل او وصف الحرب او وصف الروض ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابعة اذا رهب ، وبزهير اذا رغب ، ومتى تأملت شعرا لشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البزاعة في المعنى فإذا جاء الى غيره قصر عنه وبان الاختلاف في شعره ، ثم نجد من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلا ، ومنهم عكس ذلك ؛

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قد ذكرناها على حد واحد في حسن النظم وبديع التاليف والرمف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المرتبة العليا ، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس

(١) التفسير الكبير للرازي : ج ١ / ٢٦٠
(٢) اعجاز القرآن : (٣٦ - ٣٨) مع بعض التصرف

عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً ، ويختلف اختلافاً كبيراً ، ونظرنا في القرآن فيما يُعاد ذكره من القصة الواحدة نرى أنها غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر لأن الذي يقدر عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب^(١) اهـ قلت : مما تقدم نرى أن وجه الاختلاف اللغوي المنفي يشمل :

توالي الفصاحة والبلاغة بدون تفاوت ، وكذلك اطراد الاتساق والانسجام في نظمه واسلوبه مع اختلاف أغراضه وتنوع أساليبه وطوله وكثرة معانيه كل ذلك في المرتبة العليا والغاية القصوى في البراعة والابداع ، فسمة التغير والاختلاف المستمر من حال الى حال تبدو دائماً ظاهرة في كلام البشير وسمة الثبات والتناسق هو الظاهرة البارزة في القرآن ، فهناك مستوى واحد في هذا الكتاب المعجز تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التي يتناولها ، ولكن يتحد مستواه وكماله في الأداء بلا تغير ولا اختلاف^(٢) .

هذا ومن الجدير بالذكر أن العلامة أبا السعود قد خالف أن يكون هذا الوجه الذي شرحناه مراداً في الآية ، وعلى رأيه بأنه لا يساعد سياق الآية ، وذهب الى أن المراد : نفي تخلف أخباره عن مطابقة الواقع^(٣) قال عند تفسير الآية : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) : بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع ، إذ لا علم بالأمور الغيبية ماضية كانت أو مستقبلية لغيره سبحانه ، وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تعين كونه من عند الله تعالى . اهـ قلت : وإن كانت الآية سقت لما ذكره أبو السعود في الظاهر ، لكن العبرة بعموم اللفظ ، واللفظ الآية صالح لنفي جميع أنواع الاختلاف في القرآن والله تعالى اعلم

الوجه الثاني : الاختلاف في المعنى

قال ابن جرير الطبري^(١) : (يعني جل ثناؤه بقوله :) أفلا يتدبرون القرآن ...) أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد : كتاب الله فيعلمون حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم ، لاتساق معانيه وائتلاف أحكامه وتأييد بعضه ببعضاً بالتصديق ، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق ، فان ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه وتناقضت معانيه وأبان بعضه عن فساد بعض) اهـ

(١) انظر : في ظلال القرآن ج ٢ / ٧٢١ ، التصوير الفني في القرآن لسيد قطب / ٧٤

(٢) في تفسيره ج ١ / ٧٤٤ وسوف يأتي بيان الوجه الذي تبناه أبو السعود قريباً

(٣) في تفسيره جامع البيان ج ٨ / ٥٦٧

وأُسند ابن جرير (١) عن قتادة : (أَيُّ قول الله لا يختلف وهو حق

ليس فيه باطل وإن قول الناس يختلف)

وأُسند عن ابن زيد (٢) : (إن القرآن لا يكذب بعضه بعضاً ، ولا ينقض بعضه بعضاً ، ما جهل الناس من أمرٍ فإنما هو من تقصير عقولهم ، وجهالتهم وقرأ (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) قال فحق على المؤمن أن يقول (كل من عند الله) ويؤمن بالمشابهة ولا يضرب بعضه ببعض ، وإذا جهل أمراً ولم يعرفه أن يقول : الذي قال الله حق ، ويعرف أن الله تعالى لم يقل قولاً وينقضه ، ينبغي أن يؤمن بحقيقة ما جاء من الله .) اهـ (٣)

ونقل صاحب البرهان عن الغزالي قوله : (كلام الشعراء والمتنقلين إذا قيس على كلام الله وجد فيه اختلاف في الأغراض لأن الشعراء والفصحاء في كل واحد يهيمون ، فتارة يمدحون الدنيا وتارة يذمونها ، وتارة يمدحون الجبن فيسمونه حزماً ، وتارة يذمونهم ويسمونه ضعفاً ، وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونها صراحة ، وتارة يذمونها ويسمونها تهوراً ، ولا ينفك كلام الأديبي عن هذه الاختلافات ، اختلاف الأغراض واختلاف الأحوال ، والانعكاس تختلف أحواله فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه ، ويتعذر عليه عند الانقباض ، ولذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة ويميل عنه أخرى ، فيوجب اختلاف الأحوال والأغراض اختلافاً في كلامه بالضرورة ، ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشراً تختلف أحواله فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .) اهـ وحول نفس المعنى يقول الفخر الرازي (٤) :

الذي ذهب إليه أكثر المتكلمين : أن المراد منه أن القرآن كتاب كبير وهو مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم ، فلو كان ذلك من عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة ، لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك ، ولها لم يوجد ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله .) اهـ

قلت وأقوالهم متقاربة في بيان هذا الوجه من الاختلاف وهو الاختلاف في المعنى ، حيث إن معاني القرآن على كثرتها وعلى تكرارها بحسب مقتضيات الأحوال جاءت على غاية من التناسق والانسجام والتعاضد فلا تناقض ولا اختلاف وكلها تدعو إلى غاية واحدة وسبيل واحد ومنهج واحد ، على وجه لا سبيل إلى البشر أن يدانوه (٥)

(١) تفسير الطبري : ج٨ / ٥٦٧ (٢) نفس المرجع والصفحة

(٣) البرهان : ج٢ / ٤٦ - ٤٧ مع بعض التصرف

(٤) في تفسيره ج١٠ / ١٩٦ ، وانظر : زاد المسير ج٢ / ٣٠٧ ، تفسير القرطبي ٢٩٠/٥

مجمع البيان للطبرسي ١٧٢/٤ ، تفسير البيضاوي ص : ١٢٠

(٥) انظر : الاعتماد للامام الشاطبي ج٢ / ٣٠٧

ومن جوانب الانسجام والتناسق التام في معاني القرآن جانب التشريع والتنظيم ، يقول سيد قطب رحمه الله (١) :

(فما من نظرية بشرية وما من مذهب بشري إلا وهو يحمل الطابع البشري جزئية النظر والرؤية والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية وعدم رؤية المتناقضات في النظرية أو المذهب أو النخطة التي تؤدي إلى الانحدار بين مكوناتها - إن عاجلاً أو آجلاً - وعدم القيام بمصلحة البشرية وسعادتها ، ذلك أن المناهج البشرية ناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود ، ومن الجهل البشري بما وراء اللحظة الحاضرة ، فوق جبهه بكل مكونات اللحظة الحاضرة ، وعكس ذلك كله ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل والثابت الأصول ثبات النواميس الكونية ، وهو مع ثبات أصوله جعله الله مُمِلِحاً لكل تغيير أو تبديل في أوضاع المجتمعات أو هيئاتها أو حاجاتها في كل مكان وزمان .) اهـ

الوجه الثالث :

الإخبار عن المغيبات الحاضرة والماضية والمستقبلية

أولاً : «المغيبات الحاضرة» وهي الإخبار بما في ضمائر المنافقين واليهود وغيرهم والمقصود بذلك أن الآيات التي نزلت تُخبر بها في ضمائر المنافقين وغيرهم كان الواقع كما أنزل الله ، ولذا لم يأت أحد منهم ليقول لم اقل ذلك أو لم أُنبئته أو غير ذلك ، فلما لم يعترضوا دل ذلك على عدم الاختلاف بين ما ينزل وبين حقيقة الأمر ، وكذلك فإن الهدف هو دعوة الناس للإيمان ، فلو كان الرسول يأت بهذه الآيات من عنده لما استطاع أن يصرح بشيء مما في ضمائر الناس لحرمة على استجابتهم له وفي تصريحه بخلاف ما في الواقع هو اغراء لهم بعدم الإيمان به لوقوفهم على الاختلاف الذي لا يمكن ان يكون من عند الله ، ولذلك نجد سورة التوبة قد اطنبت في ذكر المنافقين وفضحهم وكشف سرائرهم **نَقْلُ الْوَاحِدِيِّ (٢) عَنْ السَّيِّدِ :** (قال بعض المنافقين : والله لو ددت أني قدِّمت فجلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا ، فأُنزل الله هذه الآية (يحذر المنافقون أنْ تنزل عليهم سورة تُنبئهم بما في قلوبهم) التوبة / ٦٤ -

(١) في ظلال القرآن / ج٢ / ٢٢١ - ٢٢٢

(٢) اسباب النزول ، تحقيق سيد مقرر ٢٤٩ وانظر تفسير الخازن ج٢ / ٩٥

(١)

والخرج الطبري عن مجاهد قوله : (كانوا يقولون القول بينهم ثم يقولون

عسى الله ان لا يغشي علينا اسرنا)

قال ابو حيان (٢) : (وذهب الزجاج الى ان الضمير في فيه (٣) عائد على

ما يخبره به الله تعالى مما يبيتون ويسرون ، والمعنى انك تخبرهم

به على حد ما يقع وذلك دليل على انه من عند الله غيب من الغيوب) اهـ

وقال الرازي (٤) : (ذكروا في تفسير سلامتته من الاختلاف ثلاثة اوجه :

الاول : قال ابو بكر الاصم : معناه ان هؤلاء المنافقين كانوا يتواطئون

في السر والعلن على انواع كثيرة من المكر والكيد ، والله تعالى كان

يطلع الرسول - عليه الصلاة والسلام - على تلك الاحوال حالا فحالا ويخبره

عنها على سبيل التفصيل ، وما كانوا يجدون في كل ذلك الا الصدق ،

فقليل لهم ان ذلك لو لم يحصل باخبار الله تعالى بلالا لما اطرده الصدق

فيه ولظهر في قول محمد انواع الاختلاف والتفاوت فلما لم يظهر ذلك علمنا

ان ذلك ليس الا باعلام الله تعالى) انتهى المراد

وقال ابو السعود (٥) : (لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) بان يكون بعضاخباره

غير مطابقة للواقع ، ان لاعلم بالامور الغيبية ماضية كانت او مستقبلية

لغيره سبحانه ، وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تمين كونه من عند الله

تعالى . اهـ

وانكر فيما يلي امثلة لما نزل مخبرا عن ضامر المنافقين :

اولا : قوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن

قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة الذين امنوا

منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم) - برالة / ٦٢ -

قال الواحدي (٦) : (وقال محمد بن اسحاق وغيره : نزلت في رجل من المنافقين

يقال له نبتل بن الحارث ، وكان ينم بحديث النبي - صلى الله عليه وسلم -

للمنافقين فقليل له لا تفعل ، فقال : انما محمد اذن من حديثه شيئا

صدقه ، نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا ، فأنزل الله تعالى

هذه الآية . اهـ

وقال ابن الجوزي (٧) : (فاما الذي فهو عيبه ونقل حديثه ، ومعنى اذن :

يقبل كل ما قيل له ، قال ابن قتيبة : الامل في هذا ان الاذن هي السامعة

فقليل لكل من صدق بكل خبر يسمعه : اذن :

ومعنى : اذن خير لكم اي اذن خير لا اذن شر يسمع الخير فيعمل به ولا

يعمل بالشر اذا سمعه . اهـ

(١) في تفسيره ج ٣١/١٤ ، وانظر الذر المنثور ٢٢٩/٤ اسباب النزول / ٢٤٩

(٢) البحر المحيط ج ٣٠٥/٣ (٣) اي في قوله : (لوجدوا فيه ...)

(٤) التفسير الكبير ج ١٠/١٩٦ ، وانظر : روح المعاني ج ٩٢/٥

(٥) ارشاد العقل السليم ج ١/٧٤٤ ، (٦) اسباب النزول / ٢٤٨

(٧) زاد المسير : ج ٤٦٠/٣ وانظر تفسير ابن كثير ج ٥٢٠/٢

ثانيا : قوله تعالى :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أْبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ ، لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبُ طَائِفَةً بَأْنَهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) - براءة ٦٦/٦٧ -
 اخرج ابن جرير^(١) عن قتادة : (بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك ، وبين يديه ناس من المنافقين إذ قالوا : أيرجوا هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم - : احبسوا علي الركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا قلتم كذا ، فقالوا يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأُنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون) ١٥
 قال الالوسي^(٢) : (وأرادوا : إنما نلعب ونتلهى لتقصر مسافة الطريق بالحديث والمداعبة كما يفعل الركب ذلك لقطع الطريق ، ولم يكن ذلك منا على طريق الجد ، والاستفهام للتوبيخ^{١٠٠٠} أي قل لهم غير ملتفت الى اعتذارهم ناعياً عليهم جنائياتهم : قد استهزأتم بمن لا يصح الاستهزاء به (قد كفرتم) أي أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام - والطعن فيه (بعد إيمانكم) أي لإظهاركم الايمان ، وهذا وما قبله لأن القوم منافقون فأصل الكفر في بواطنهم ولا إيمان في نفس الأمر) ١٥

ثالثا : قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْكُومٌ بِمَا أُمِرَ بِهَ الْيَاسِرَ يَقُولُونَ قُلْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَطْبُونَهَا فَبئس المصير) - المجادلة ٨ -

نقل السيوطي^(٣) عن ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال :

(كان بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين اليهود مودة ، فكانوا اذا مر بهم رجل من أصحابه جلسوا يتناجون بينهم حتى يثان المؤمن منهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه ، فنهاهم النبي - صلى الله عليه وسلم - عن النجوى فلم ينتهوا فأنزل الله : (ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى) الآية

(١) تفسير الطبري : ج ١٤ / ٣٣٤ ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر واسناده صحيح لغيره ، انظر : الصحيح المسند من اسباب النزول / تاليف :

الشيخ مقبل بن هادي الوادعي ، ص : ٧٨

(٢) روح المعاني ج ٤ / ١٣١ (٢) لباب النقول في اسباب النزول : ٢٠٦

وانظر : اسباب النزول للواحي : ٤٣٦

وأخرج ابن جريس^(١) عن ابن عباس ومجاهد : أنها نزلت في اليهود والمنافقين
وأخرج أحمد والطبراني والبخاري^(٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم
: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : سام عليكم
ثم يقولون في أنفسهم «لولا يعذبنا الله بما نقول» فنزلت هذه الآية :
ولإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيك به الله ... (الآية)

والنجوى في الآية : هي المناجاة ، وقوله : (ويقولون في أنفسهم
لولا يعذبنا الله بما نقول) أي هلا يعذبنا الله بسبب ذلك لو كان
محمد - صلى الله عليه وسلم - نبيا^(٣)

ونلاحظ من كل ما سبق أن القرآن الكريم قد هتك حجاب النفس
فذكر ما يخطر وما يجول في أنفس المنافقين وغيرهم ، يخبرنا القرآن
بما تحدثهم أنفسهم من الكيد للمسلمين والحقد والحسد فاضحا لهم وكاشفا
عن طوايا نفوسهم ومبرهنا لهم ان هذا القرآن من عند العظيم الخبير
الذي يعلم السر واخفى ، فكان الواقع كما قال القرآن بدون اختلاف
«ومن اصدق من الله قيلا»

ثانيا : الإخبار عن الماضي الذي لم يشاهده رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - ولم يقف على تاريخه^(٤)
قال الله تعالى : (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر
وما كنت من الشاهدين ، ولكننا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما
كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين ،
وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما
ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) - القصص / ٤٤ - ٤٦ -
قال ابن كثير رحمه الله^(٥) : (يقول تعالى منبها على برهان
نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن
سامعه شاهد وراء لما تقدم وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب ،
نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك كما أتى لما أخبره عن مريم
وما كان من أمرها قال تعالى : (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم
أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ...) الآية
..... وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف

(١) تفسير الطبري : ج ٢٨ / ١٠ ، وانظر الدر المنثور : ج ٨ / ٨٠
(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ١٢ / ١٢٢ : (رواه أحمد والبخاري والطبراني
واسناده جيد) ، وانظر : الصحيح المسند من أسباب النزول / ١٤٩
(٣) زاد المسير ج ٨ / ١٨٨ ، ابن كثير ٤ / ٥٠٤ ، روح المعاني ج ١٠ / ٢٦
(٤) انظر تفسير المنار / ج ٥ / ٢٣٣ (٥) في تفسيره ج ٢ / ٢٤٤

كان ابتداء إحياء الله اليه وتكليمه له : (وما كنت بجانب الغربي
إذ قفينا إلى موسى الأمر) يعني : ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي
الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ،
وما كنت من الشاهدين : لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى اليك
ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدا ونسوا حجج الله
عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين) اهـ

قلت والقران الكريم مملوء بالقصص وأنباء الغيب الماضية التي لا
سبيل للعلم بها إلا عن طريق الوحي ، كما أن اليهود وغيرهم من مشركين
ومنافقين لم يستطيعوا انكار هذا القصة أو الطعن فيه لموافقة الواقع
وعدم اختلافه وتناقضه ، بل هو في غاية الصدق والانسجام ، فجاء هذا القصة
عبرة للمعتبرين وحجة باهرة وتصديقا للكتب السابقة ، قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُخْتَرَى وَلَكِنْ

تصديق الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ - يوسف/ ١١١
وأذكر فيما يلي أقوال بعض العلماء الذين اعتبروا هذا الوجه من
أوجه سلامة القران من الاختلاف :

قال الباقلاني (١) : (والوجه الآخر ما انطوى عليه القران من قصص الاولين
وسير الماضين وأحاديث المتقدمين وذكر ما شجر بينهم وكان في أعمارهم) اهـ
وقال الزركشي (٢) : (ما تضمنه من اخباره عن قصص الاولين وسائر المتقدمين
حكاية من شاهدها وحضرها فقال : ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ

تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ۖ﴾ الآية

ونقل السيوطي (٣) عن القاضي عياض في اثبات هذا الوجه قوله :

(الرابع : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والامم البائدة والشرائع
الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلاّ الفخذ من أخبار أهل
الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده صلى الله عليه وسلم -
على وجهه ويأتي به على نمه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب) اهـ

وقال اللوسي (٤) : (ان المراد بالاختلاف احد امرين : الاول : الاختلاف

المناقض للبلاغة ، والثاني : الاختلاف فيما أخبر عنه من قصص الماضين وسير
الاولين مع أمية من جاء به وعدم دراسته للعلوم ومطالعة الكتب ، ولا
شك أنه لم يوجد في القران شيء من هذه الاختلافات) اهـ
وفي هذا القدر كفاية من أقوال العلماء وانما اردت الامثلة والايجاز
في تجلية هذا الوجه من اوجه سلامة القران من الاختلاف ،

(١) التمهيد : ص / ١٥٩ ، وانظر : اعجاز القران له ايضا : ص / ٣٤ ، ٤٩

(٢) البرهان في علوم القران : ج ٢ / ٩٦

(٣) روح المعاني : ج ١ / ٢٣٣

(٤) الاتقان / ج ٢ / ١٢٢

ثالثا : الاخبار عن المغيبات المستقبلية

اخبر القرآن عن وقوع اشياء وحوادث في المستقبل الغامض الذي انقطعت
دونه الاسباب ، وكل ذلك وقع كما حدث القرآن وما تخلف وجاء على
النحو الذي اخبر به في اجمال ما اجمل وتفصيل ما فحمل (١)
ولشدة ايمان الصحابة ورسوخ يقينهم بوعد الله وانه لا يتخلف وان
آيات الله لا تختلف عن الواقع الذي تخبر به كانوا مستبشرين بوعد
الله ونصره ، فهذا ابو بكر الصديق - رضي الله عنه - كان اذا اغزى
جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من الظاهر دينه ليثقوا بالنصر ويستبشروا
بافتح (٢) ، فكان الامر كما وعد الله تعالى ففتحت البلاد واسلمت العباد
وفرح المؤمنون بنصر الله ومكن الله لهم دينهم كما قال تعالى :
(وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض
كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم
من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك
فاولئك هم الفاسقون) - النور / ٥٥ -

ومما اخبر القرآن عنه انه سيقع قوله تعالى :
(الم ، غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع
سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله
ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) - الروم / ٤٠ -
ذكر اهل التفسير في سبب نزولها : انه كان بين فارس والروم
حرب فغلبت فارس الروم ، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
واصحابه فشق عليهم وفرح المشركون بذلك لان فارس لم يكن لهم كتاب والروم
اصحاب كتاب ، فنزلت هذه الآية فخرج بها ابو بكر - رضي الله عنه - الى
المشركين ، فقالوا : هذا كلام صاحبك ! فقال الله انزل هذا ، فراهنهم
ابو بكر الصديق علعان الروم تغلب فارس ومد في الاجل الى تسع سنين
فظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة من نزول الآية تحقيقا
لوعد الله (٣)

وقوله تعالى في الآية : (في ادنى الارض) : اي اقرب ارض الروم الى
فارس ، قال ابن عباس : وهي طرف الشام

(١) انظر مناهل العرفان للشيخ الزرقاني : ج/٢ : ٢٦٣ وما بعدها

(٢) راجع اعجاز القرآن للباقلائي ص : ٣٣ - ٣٥

(٣) تفسير الطبري ج٢١ / ١٥ - ٢٢ تفسير ابن كثير ج٣ / ٦٧٣ الروم / ١ - ٤

اسباب النزول للواحي : ٣٦٠ ، لباب النقول للسيوطي : ١٦٨

وانظر : زاد المسير ج٦ / ٢٨٧ روح المعاني للالوسي ج٢١ / ١٧ - ١٨

وقوله الله الامر من قبل ومن بعد) : اي من قبل ان تغلب الروم ومن بعد ما غلبت ، والمعنى ان غلبة الغالب وجذلان المغلوب بامر الله وقضائه ، وفرح المؤمنون بنصر الله حيث وافق ذلك يوم بدر وفيها نصر الله جنده ودحر جند الشيطان وايضا لان اهل الكتاب وهم الروم اقرب للمؤمنين من الفرس المجوس عبّاد النيران (١)
قال الاوسي (٢) : (وكان ذلك من الايات البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القران من عند الله عز وجل لما في ذلك من الاخبار عن الغيب الذي لا يعلمه الا الله تعالى للعليم الخبير ، وقد صح انه اسلم عند ذلك اناس كثير) اهـ

ومن الامثلة ايضا : قوله تعالى :

(سيهزم الجمع ويولون الدبر) القمر / ٤٥

جاءت هذه الاية بعد قوله تعالى : (ام يقولون نحن جميع منتصر) فجاءت الاية رداً على محض دعواهم ، وقد نزلت حيث لم يفرض جهاد ولا كان قتال ولذا قال عمر رضي الله عنه يوم نزلت (٣) : (قلت يا رسول الله اي جمع سيهزم ؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في اثارهم مضت بالسيف وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر)

فهذا مما أخبر الله به نبيه من علم الغيب ، فكانت الهزيمة لجموع الكفار يوم بدر تحقيقاً لوعده الله ، وتصديقاً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتبياناً لكل من عنده تأمل وتدبر أن كلام الله تعالى لا اختلاف فيه ولا تناقض ، بل هو آيات بينات وحق لا ريب فيه تنزيل من حكيم حميد

(١) تفسير الطبري : ج١ / ١٥ - ٢١ ، زاد المسير : ج٦ / ٢٨٧ - ٢٨٩

روح المعاني : ج١ / ١٧ - ١٨

(٢) روح المعاني : ج١ / ١٩

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني في الاوسط وابن مردويه عن أبي هريرة -

(الدر المنثور للسيوطي : ج٧ / ٦٨١) ،

الوجه الرابع من أوجه سلامة القرآن من الاختلاف :

ما تضمنه ولغت الأنظار إليه من الآيات الكونية والنفسية ، والمقولات العلمية التي لم تكن معروفة في وقت نزول القرآن

فعند تدبر آيات القرآن الكريم نجد أن كل ما أخبر الله عنه من مظاهر هذا الكون ومشاهده وتفصيلاته نجده كما أخبر الله عنه بدون الاختلاف أو تضاد (١) وقد تصدى كثير من العلماء لهذا الوجه وبيان موافقة معاني العلم

الحديث لما جاء به القرآن ، وأنه كلما تقدم العلم وتنوعت المعارف ازداد يقين أهل العلم بأنه لا اختلاف ولا تضاد بين الآيات القرآنية والآيات الكونية بل إنهما في غاية الانسجام والتوافق ، كيف لا وهما من عند الله ، الكون هو آيات الله المنظورة ، والقرآن هو آياته المسطورة

قال الله تعالى : (إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) آل عمران / ١٩١

وقال تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتَنَا فِي الْأَقْصَاءِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّه الْحَقُّ) - فصلت / ٥٢

وفعلاً فقد رأى المؤمن والكافر على حد سواء آيات الله في الآفاق والآنفس ، يقول وحيد الدين خان (٢) : (رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة ، لم يتمكن أحد من اثبات أية أخطاء علمية فيه ولو أنه كان كلاماً بشرياً لكان هذا ضرباً من المستحيل) اهـ

ويقول الطبيب الفرنسي المسلم مورييس بوكاي (٣) : (وتناولت القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظواهر الطبيعية ، لقد اذهلني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظواهر وهي تفصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي ، اذهلني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن هذه الظواهر

نفسها) اهـ (٤) وقال (٤) : (فالقرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد العلمي من وجهة نظر العلم في العصر الحديث ، وعلى حين أن هذا الاختلاف بين العلم ونصوص العهد الجديد موجود) اهـ

(١) من ضمن الحملات المحمومة ضد القرآن والاسلام ادعاء الملحدين والمنصرين ان القرآن فيه آيات تخالف ما اثبتته العلم الحديث وذلك بحملهم بعض الآيات على غير محلها من اجل الطعن في القرآن ، وارتدت في هذا المبحث دحض تلك الافتراءات وقد خصصت فصلاً في هذه الرسالة للآيات الكونية في الباب الثالث فليُنظر ، ولمعرفة مصدر هذه الافتراءات ودوافعها انظر : رد مفتريات على الاسلام د : عبد الجليل ثلبي ص : ١٢٩ ١٣٠ (٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ١٣ - ١٤ (فكرة اعجاز القرآن / ٢٤٧) (٣) نفس المرجع ٢٤٩ (٤)

وأكثر مَنْ جمع في هذا وأطال : الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره (١) حيث ذكر أن في القرآن من آيات العلوم ما يربو على خمسين وسبعمئة آية وهو يدلّ بذلك على مدى اهتمام القرآن بتنمية التفكير العلمي لدى المسلمين وبيان موافقة القرآن لكل معطيات العلم بدون اختلاف أو تضاد (٢) ومن العلماء الذين تصدوا لهذا الوجه الشيخ عبد الرزاق نوفل حيث يقول : (وكلما وصل العلم إلى الحقيقة مستقبلاً وجد أن القرآن قد سبقه إليها وسبق قوله بها) وقال (٣) : (وتتضمن هذه الآيات الكثير من الحقائق والقوانين العلمية الفلكية التي لم تعرف إلا في العصر الحاضر) ومنهم الدكتور عبد العليم خضر في كتبه : (سلسلة العلم والقرآن) يقول في مقدمة كتابه : (الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن) عند ذكر منهجه في البحث واهدافه منه يقول (٤) أنه يقوم على : (اثبات أن منهجية القرآن ترسم الطريق لمنهجية البحث العلمي الجغرافي ملخصة في قوله تعالى : (قل انظروا ما ذا في السموات والارض وما تُغني الآيات والنظر عن قوم لا يؤمنون) يونيو / ١٠١ - اثبات صدق الرسول الأمين محمد - صلى الله عليه وسلم - من خلال إبراز الإعجاز العلمي في مجال الظواهر الجغرافية التي نطق بها محمد النبي الأمي الذي لم يطلع على علوم الهيئة والبلدان وصورة الارض ، وإنما كان ما قاله وحياً يوحى إليه من السماء) اهـ وبعد فالذين تبناوا هذا المنهج وهذه الفكرة أكثر من أن يُحصى ، وهدفهم الوحيد اثبات وبيان أن القرآن لا يختلف ولا يتعارض مع معطيات العلم الحديث التي تقررت واصبحت من الحقائق ، وان القرآن قد أشار إلى بعضها والقرآن الكريم اهدافه من ذلك ويحتاج إلى بحث خاص (٥) والذكر فيما يلي أحد الامثلة التي ذكرها القرآن الكريم والتي لم يتجلى معناها على وجه الدقة الا في هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم واستطعننا بواسطتها ادراك بعض الحقائق التي أشار إليها القرآن ونبه عليها ، ذلك ان كتاب الله تعالى مخاطب به كل احد من الانس والجن مسلمهم وكافرهم ، فالمسلم يزداد ايماناً وبصيرة ، والكافر يصحو من جهل وعناد وجحوده وكفره لما يرى من آيات الله المسطورة التي توافق آياته المنظورة في هذا الكون الفسيح الذي يدل على باريه ومقتنه ومبدعه

(١) راجع تفسير الجواهر ص : ٣

(٢) معجزة الارقام والترقيم في القرآن الكريم ٣٩ (٣) نفس المرجع / ٤٣

(٤) ص : ١٠ - ١٢

(٥) انظر : فصل موهم الآيات الكونية في الباب الثالث من هذه الرسالة

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد
 وليس هناك مانع شرعي أو عقلي يمنع أي جيل من الاجيال ان يفهم بعض
 آيات القرآن على وجه غير الذي فهمه السابقون بناءا على أدلة ثابتة
 وصحيحة ، وعلى وجه لا ينتقص افهام علمائنا الاماض الذين فحسروا كتاب الله
 وبذلوا جهدهم في ذلك فنحن إنما نبنهي على جهودهم ، وهم قد أدوا واجبهم
 بناءا على ما لديهم من معلومات وحقائق ولهذا فقد ورد عن الصحابي الجليل
 علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ما يشير الى ما تقدم وهو قوله عندما
 سئل : (هل عندك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيء سوى القرآن ؟
 فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا أن يُعطى الله عبدا فهما في
 كتابه ، أو ما في الصحيفة ، قلت : وما في الصحيفة ؟ قال : العقل
 وفكاك الاسير وان لا يقتل مسلم بكافر) (١)
 كما ان الاشياء التي تصبح من الحقائق وتكون معلومة مسلمة في اي عصر
 ولم تكن معروفة في العصر الذي قبله ونجد مصداقها في كتاب الله هو ما
 يشير اليه قوله تعالى : (سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين
 لهم أنه الحق) - فطت / ٥٣ -

من أمثلة ذلك قوله تعالى :
 (خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار
 ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ، الا
 هو العزيز الغفار) - الزمر / ٥ -
 هذه الآية الكريمة من كتاب الله تناولها علماء التفسير في عصرنا هذا بالبحث
 والتدبر ، وذكروا انها تشير صراحة الى ما تقرر وثبت واصبح من الحقائق
 المسلمة من أن الارض التي نعيش عليها تاخذ الوضع الكروي اجمالا ، وهو أمر
 لم يكن معروفا زمن نزول القرآن وإنما هو وحي يوحى ،
 وسوف أبين دلالة هذه الآية على ما ذكرته من كروية الارض واته لا اختلاف
 بين الايات القرآنية ومعطيات العلم
 وأبدأ ببيان تفسير العلماء المتقدمين لمعنى التكوير في الآية :
 يقول الامام ابن جرير الطبري (٢) رحمه الله : عند تفسير قوله تعالى :
 (يكور الليل على النهار)

يقول : يغشي هذا على هذا ، كما قال : (يولج الليل في النهار ويولج
 النهار في الليل) ، واسند عن ابن عباس قوله : (يحمل الليل على النهار)
 واسند عن ابن زيد قوله : (حين يذهب بالليل ويكور النهار عليه ، ويذهب بالنهار
 ويكور الليل عليه)

(١) اخرجه البخاري / كتاب الديات ، باب لا يقتل مسلم بكافر ج ٨ / ٤٧
 واحمد في مشنده : ج ٣٥ / ٢٣ ، والحميدي في مشنده ج ٢٤ / ١ بالغاء متقاربة عن ابي جحيفة
 قال : سألت عليا رضي الله عنه ١٠٠٠٠ الحديث
 (٢) تفسير الطبري ج ٢٣ / ١٢٣ طبعة دار المعرفة ط ٢

(١) ويقول ابن كثير رحمه الله : (أي سخرهما يجريان متعاقبين لا يقران كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، كقوله : (يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا) الاعراف/٥٤ -

هذا معنى ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي (٠) اه
ويقول الرازي (٢) رحمه الله : (والمراد من هذا التكوير أنه يزيد في كل واحد منهما بقدر ما ينقص من الآخر ، والمراد من تكوير الليل والنهار ما ورد في الحديث : (نعوذ بالله من الحور بعد الكور) (٣)
أي : من الأدبار بعد الإقبال ، وأعلم أن الله سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله : (يكور الليل على النهار) ويقولوه : (يغشي الليل النهار) ويقولوه : (يولج الليل في النهار) اه

ويقول الأوسى (٤) رحمه الله : (وقوله تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ٠٠٠) بيان لكيفية تصرفه فيما ذكر بعد بيان الخلق ، فإن حدوث الليل والنهار منوط بتحريك أجرام سماوية ، والمراد على ما روي عن قتادة يغشي أحدهما الآخر ، فالمغشي حقيقة المكان ، ويجوز أن يكون المغشي الليل والنهار على الاستعارة ويكون المكان ظرفا ، والمقصود أنه لما كان أحدهما غاشيا للآخر أشبه اللباس الملفوف على لابسه في ستره بإياه واشتماله عليه وتغطيه به ، وتحقيقه : أن أحدهما لما كان محيطا على جميع ما أحاط به الآخر من غير أن يكون ثم شيء زائد غير الظهور والخفاء جعل لإحاطته على محاط الآخر إحاطة عليه مجازا لملاسته ، وعبر عنها بالغشيان والتكوير للشبه المذكور (٠٠٠) اه

قلت : هذه أقوال السابقين في هذه الآية الكريمة ، وانتقل الآن إلى

بيان أقوال المعاصرين من العلماء وما فهموه من المراد بالآية :
يقول الشيخ المراغي (٥) رحمه الله في تفسير الآية :

(أي يغشي كلا منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس، أو يجعلهما في تتابعهما أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض، ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهي مكورة فأخذ النهار الحاد من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب ويلف حولها طاويا الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاويا النهار ، فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة ويلتفان متتابعين حولها ، وفي

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٤ / ٧٠ الزمر/٥

(٢) التفسير الكبير : ج ٢٦ / ٢٤٣

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر يتعوز من وعشاء السفر وكأية المنقلب والحور بعد الكور (٠٠٠) الحديث (كتاب الحج / باب استحباب الذكر إذا ركب دابته شرح النووي / ٩ : (١١) وأخرجه الترمذي في الدعوات / باب ما يقول إذا خرج مسافرا ج ٥ / ٤٩٧

(٤) روح المعاني لالوسي ج ٢٤ / ٢٣٨

(٥) تفسير المراغي : ج ٢٢ / ١٤٥

وفي هذا إيماء الى كروية الأرض أولا ، والى دورانها حول نفسها ثانيا فتكوّن الارض ظاهر الاية ، ودورانها أثنى تابعا بالرمز والإشارة (١٠) اهـ ويجلي هذا المعنى سيد قطب - رحمه الله - في الظلال فيقول (١) :

(يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل)

وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات الى ما كشف حديثا عن كروية الارض ، ومع أني في هذه الظلال حريص على ألاّ أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الانسان لأنها نظريات تخطئ وتصيب ، وتثبت اليوم وتبطل غدا ، والقران حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ولا يستمدّها من موافقة أو مخالفة لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل ، مع هذا الحرص فان هذا التعبير يقسرنى قسرا على النظر في موضوع كروية الارض ، فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الارض ، فالارض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يخمره الضوء ويكون نهارا ولكن هذا الجزء لا يثبت لان الارض تدور وكلما تحركت بدأ الليل يخمر السطح الذي كان عليه النهار ، وهذا السطح مكور ، فالنهار كان عليه مكورا والليل يتبعه مكورا كذلك ، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الاخرى يتكور على الليل ، وهكذا في حركة دائبة : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) واللفظ يرسم الشكل ويحدد الوضع ويعين نوع طبيعة الارض وهكته ، وكروية الارض ودورانها يغسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية (١٠) اهـ

قلت : وقد أجاد رحمه الله في تفسيره لهذه الاية كعادته دائما مع الدقة في التعبير والحرص على عدم التكلف في التفسير ، وهو يشير الى أن المعلومات الحديثة والحقائق الجديدة المكتشفة تعين على تفسير بعض الايات وفهم المراد منها مصداقا لقوله تعالى : (سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ونلاحظ من خلال استعراض اقوال المفسرين قديما وحديثا حول الاية أنه لا تعارض بين اقوالهم ، حيث إن إعجاز القرآن يتجلى في هذه الاية ، فلفظ التكوير يحتمل جميع المعاني التي أوردّها المفسرون وكلها تؤدى الى مفهوم واحد مشترك بين جميع المعاني ، فاختلاف الليل والنهار والزيادة والنقص في كل منهما وإيلاج أحدهما في الآخر وتعاقبهما واتخاذهما الوضع الكروي على الارض بسبب أنها ظرف لهما ، كل ذلك يحتمله لفظ التكوير الوارد في الاية قال في اللسان (٢) : (الكور : لوث العمامة يعني ادارتها على الرأس

وقد كورتها تكويرا ، وكل دارة من العمامة كور)

فالتكوير هو اللف والاحاطة على جهة الاستدارة كما في تكوير العمامة وتكوير الليل على النهار بسبب استدارة الارض التي هي ظرف لهما

وبهذا الذي تقدم نرى كيف ان الاية صريحة في الإشارة الى كروية الارض

(١) في ظلال القرآن ج٥ / ٣٠٣٨

(٢) لسان العرب مادة كور ج٥ / ١٥٥ وانظر : تاج العروس ج٣ / ٥٣٠

وَأَنَّ لَفْظَ التَّكْوِيرِ فِي آيَةِ يَصِفُ انْزِلَاقَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَكَأَنَّهُمَا نَمَافَا كُرَةً
تَمَامًا ، وَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا : أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَحِيطَانِ
بِالْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ فَهُمَا مَكُورَانِ حَوْلَهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ (١)
وَهَذِهِ الْآيَةُ كَغَيْرِهَا مِنْ الْآيَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْزِلَ هَذَا الْقُرْآنِ هُوَ خَالِقُ هَذَا
الْكُونِ وَلِذَا لَا يَبْدُ مِنْ تَصْدِيقِ الْآيَاتِ الْمَسْطُورَةِ الْآيَاتِ الْمَنَافُورَةِ وَتَعَاذُهُمَا
فِي الدَّلَالَةِ عَلَى رَبِّ الْوُجُودِ وَخَالِقِ الْكَائِنَاتِ الَّذِي أَحْكَمَ وَأَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) - الْمَلِكُ / ١٤ -

وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا الْأَمِيَّ الَّذِي لَمْ يَطَالِعْ فِي الْكِتَابِ وَلَمْ
تَتَقَدَّمِ الْعُلُومُ فِي عَمْرِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ وَهَذِهِ
الْحَقَائِقُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ ، وَصَدَقَ اللَّهُ إِذْ يَقُولُ : (وَلَوْ أَنَّ لُتِّقَ الْقُرْآنَ
مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) - النَّمْلُ / ٦ -

وَلَا يَنَافِي كُرَوِيَّةُ الْأَرْضِ مَا جَاءَ مِنْ آيَاتٍ فِيهَا لَفْظُ الْبَسْطِ وَالْمَدِّ
وَالْفَرَشِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا)
- الرِّعْدُ / ٣ -

وَقَوْلِهِ : (وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنَنْعَمُ الْمَاهِدُونَ ٠٠٠) - الذَّارِيَاتُ / ٤٨ -
وَقَوْلِهِ : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) - نُوحٍ / ١٩ -
فَهَذَا كُلُّهُ لَا يَنَافِي الْكُرَوِيَّةَ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ مَعَانِي الْمَدِّ وَالْفَرَشِ وَالْبَسْطِ وَنَحْوِ
ذَلِكَ الْمُرَادُ مِنْهُ : مَا يَحْصُلُ بِهِ الْإِنْتِفَاعُ لِمَنْ حَلَّ فِي الْأَرْضِ حَيْثُ إِنَّ الْآيَاتِ
جَاءَتْ فِي مَعْرِضِ الْإِمْتِنَانِ وَتَهْيِئَةِ الْأَرْضِ لِلْمَعِيشَةِ كَمَا قَالَ الْبَارِي :
(لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

فَمَنْ فَضَّلَ اللَّهَ وَنَعِمَتَهُ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ مَبْسُوطَةً مَمْدُودَةً لِكُلِّ أَحَدٍ مَعَ أَنَّهَا مَكُورَةٌ
فِي جَمَلَتِهَا ، وَفِي هَذَا خَايَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْقُدْرَةِ وَالْمِنَّةِ مَعًا ،

وَجَاءَ ذَلِكَ مِنْ عَظَمِ حُجْمِ الْأَرْضِ ، فَالْكُرَةُ الْعَظِيمَةُ لِعَظَمَتِهَا تَرَى سَطْحَهَا مُسْتَوِيًا
وَكَأَنَّ كُلَّ قِطْعَةٍ مِنْهَا سَطْحٌ مَفْرُوشٌ يَصِحُّ الْقُعُودُ وَالنُّومُ عَلَيْهِ ، كَمَا أَنَّ الْكُرَةَ
كُلَّمَا عَظُمَتْ قَرِبَتْ أَقْوَاسُ سَطْحِهَا مِنَ الْخَطِّ الْمُسْتَقِيمِ (٢)

كَمَا أَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَتْ كُلُّهَا مَبْسُوطَةٌ بَلْ فِيهَا الْجِبَالُ وَالتَّعَارِيجُ
وَنَحْوُ ذَلِكَ فَيَكْفِي فِي النِّعْمَةِ عَلَيْنَا أَنَّ يَكُونُ فِيهَا بَسَائِطٌ وَمَوَاضِعٌ مَسْطُوحَةٌ يُمْكِنُ
التَّصَرُّفَ عَلَيْهَا وَلَيْسَ يَجِبُ أَنَّ يَكُونُ جَمِيعُهَا كَذَلِكَ ، فَقَوْلُهُ : (وَجَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ فَرَاشًا) وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ لَا يَقْتَضِي الْإِشَارَةَ إِلَى جَمِيعِ الْأَرْضِ وَجَمَلَتِهَا
بَلْ إِلَى مَوَاضِعٍ مِنْهَا يَصِحُّ بِهَا الْإِمْتِنَانُ حَيْثُ إِنَّا نَعْلَمُ بِالْمُشَاهَدَةِ أَنَّ فِي

(١) انظر : معجزة القرآن للشيخ محمد متولي شعراوي ، ص/

حوار مع صديقي الملقب : لمصطفى محمود ، ص/ ٤٨

وجوه من الإعجاز القرآني / لمصطفى الدباغ ، ص/ ١٣٢ - ١٣٣

(٢) انظر : المسلمون وعلم الفلك / الشيخ محمد الصواف ، ص/ ٤٤ - ٤٨

الزبد القرآني / عبد الله كنون ، ص/ ٢٨ حيث رد عليه على أحد الملحدين
الذي أوهم أن القرآن ينفي كُرَوِيَّةَ الْأَرْضِ فِي قَوْلِهِ : (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ) وَنَحْوَهَا

في الارض ما ليس ببساط ولا فراش^(١)

وحول هذا يقول الرازي^(٢) : (إنه ثبت بالدلائل أَنَّ الارض كرة فكيف يمكن

المكابرة فيه ؟ فإن قالوا : وقوله : (مدَّ الارض) يُنافي كونها كرة فكيف

يمكن مدّها ؟ قلنا : لا نسلم ، إِنَّ الارض جسم عظيم والكرة إذا كانت

في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح . اهـ

وقال الآلوسي^(٣) : (الحق الذي لا ينكره إلّا جاهل أو متجاهل أَنَّ ما ظهر

منها كَرِّي حَسَا ، ولذلك تختلف أوقات الصلاة في البلاد فقد يكون الزوال

ببلد ولا يكون ببلد آخر ، وهكذا الطلوع والغروب وغير ذلك ،

نعم إنَّها لعظم جرمها يُشاهد كل قطعة وقطر فيها كأنَّه مسطح ، وهكذا كل

دائرة عظيمة ، وبذلك يُعلم أنه لا تنافي بين المد وكونها كرية . اهـ

قلت : كما أَنَّ لفظ المد والغرش والبسط من الأدلة على كرية الارض

وذلك لانه لا يَصِحُّ أَنْ تكون الارض مبسوطة لكل أحد إلّا إذا كانت بشكل

الكرة بحيث يراها كل من عليها مبسوطة ، ولو كانت الارض مستوية بجملتها لكان

الذي بطرفها لا يراها مبسوطة عند آخرها ، فلما كانت مبسوطة لكل احد

بمراى العين دل ذلك على كريتها

فثبت بذلك أَنَّ هذه الاغاظ وهي البسط والمد والغرش تدل على الكرية مع

ما فيها من بيان المنة من الله لعباده بتهيئة الارض وعدادها للمعيشة)

كما قال الباري : (والارض فرشناها فنعم الماهدون) - الذاريات / ٤٨ -

وقال : (والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا) - نوح / ١٩

(١) انظر : آمالي المرتضي (للشريف علي بن الحسين المرتضي ت ٤٢٦)

حيث رد فيه على أبي علي الجبائي الذي استدل بقوله تعالى :

(والله جعل لكم الارض بساطا ..) على بطلان ما قيل من ان الارض

كرية الشكل

(٢) تفسير الرازي ج ١٩ / ٣ ، ج ٤ ١٩٢

(٣) روح المعاني للآلوسي ج ١٥ / ٩١ ، ج ٢٩ / ٩٤

الفوائد المستنبطة من الآية

بعد أن انتهيت من تفسير الآية لابد من بيان أهم الفوائد والإرشادات المستنبطة من الآية :-

أولاً : وجوب التدبر في القرآن ^(١) لمعرفة معناه ومرماه ، والوقوف على بلاغته ونظمه ، وتأثيره وحسنه ، وأمره ونهييه وبالتالي معرفة ما فيه من توافق وتعاضد والتشام ، فتدبر القرآن فرض على كل مكلف بحسب طاقته وقدرته ولذلك لا بد من معرفة لغة القرآن مغرداتها وأساليبها (فهي التي يجب على من دخل في الاسلام ومن نشأ فيه أن يتقنها بقدر استطاعته ، وليس تعلم هذه اللغة ولا غيرها من اللغات بالأمر العسير فقد كان الأعاجم في القرون الأولى يحذقونها في زمن يسير حتي يزاحموا الخلف من أهلها في بلاغتها ، وإنما يراه أهل هذه الاعمار عسيرا لانهم شغلوا عن اللغة نفسها) (٢)

ولذلك فلا عجب في ظهور دعوات خبيثة بين الحين والآخر لا استبدال الفصحى بالعامية ، ذلك أن أعداء الاسلام يكيّدون له من كل جهة وموبك ويستخدمون تلائمهم من أبناء جلدتنا ليث هذه الافكار المسمومة وذلك من أجل العمل على تقويض لغة القرآن ، وبالتالي عدم القدرة على تدبر كتاب الله والنظر فيه ، والنتيجة هي ابتعاد المسلمين عن احكام القرآن وتشريعهم ومن ثم انحطاطهم وتأخرهم وبقاء السيادة لأعداء الاسلام ، وهذا هو الهدف الذي يخططون له ليل نهار (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

وفي هذا المجال يقول السيد محمد رشيد رضا (٣) :

(وتدبر القرآن وتأمل ما يهدي اليه بأسلوبه الذي امتاز به هو طريق الهداية القويم ومراط الحق المستقيم ، فإنه يهدي صاحبه الى أنه من عند الله وإلى وجوب الاهتمام به لكونه ^{من} عند الله الرحيم بعباده العليم بما يصلح به امرهم مع كون ما يهدي اليه معقولا في نفسه لموانعته للفسادة ^{ولا} لئامته للمصلحة) اهـ

قلت : فالمسلمون لو استقاموا على تدبر القرآن والاهتمام بهديه لما فسدت أخلاقهم واحوالهم ولما ظالم واستبد حكامهم ولما زال ملكهم

(١) الجامع لاحكام القرآن / المقرئبي ج ٥ / ٢٩٠

(٢) تفسير المنار / محمد رشيد رضا ج ٥ / ٢٩٥ بتصريف

(٣) المرجع السابق/ نفس الموضع

وسلطانهم ، ولما عاروا حالة في معاشهم وأسبابها على سواهم من أعداء الاسلام ،، وكل ما اصابهم من ذلك هو عقوبة لهم من الله حتى يرجعوا لتدبر القرآن وفيهم معانيه والعمل به) قال تعالى :
(وانذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون)
- السجدة / ٢١ -

ثانيا : الآية فيها رد على فساد قول من قال : لا يؤخذ من التفسير الا ما ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ومنع من أن يُتأول على ما يسوغه لسان العرب (١)

قال اللوسي (٢) : (ويُستدل بالآية على فساد قول من زعم أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير النبي - صلى الله عليه وسلم - أو الامام المعصوم كما قال الشيعة ١٠) هـ

وقال الرازي (٣) : (دلت الآية على ان القرآن معلوم المعنى خلاف ما يقوله من يذهب الى انه لا يعلم معناه الا النبي - صلى الله عليه وسلم - والامام المعصوم ، لانه لو كان كذلك لما تهيأ للمنافقين معرفة ذلك بالتدبر ولما جاز أن يأمرهم الله تعالى به وأن يجعل القرآن حجة في صحة نبوته، ولا أن يجعل عجزهم عن مثله حجة عليهم ١٠) هـ

قلت : وكلامه في غاية النفاسة ، فكتاب الله تعالى مخاطب به كل احد ولا تنقضي عجائبه ولا تُحصى نوائده ، ويؤيد هذا الاستدلال :
ما رواه الامام البخاري (٤) واحمد في مسنده (٥) عن أبي جحيفة قال : قلت لعلي بن أبي طالب : هل عندك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيء سوى القرآن ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا أن يُعطي الله عبداً فهماً في كتابه ، أو ما في الصحيفة ، قلت : وما في الصحيفة ؟
قال العقل وفكاك الاسير وأن لا يُقتل مسلم بكافر ١٠)

(١) تفسير القرطبي ج ٥ / ٢٩٠ ، نظم الدرر المبقاع ج ٥ / ٣٤٠

(٢) روح المعاني للالوسي ج ٥ / ٩٣

(٣) مفاتيح الغيب ج ١٠ / ١٩٧

(٤) صحيح البخاري / كتاب الديات / باب : لا يقتل مسلم بكافر ج ٨ / ٤٧

(٥) مسند احمد ج ٢ / ٣٥ ومسند الحميدي ج ١ / ٢٣

ثالثا : - في الآية دليل على الأمر بالنظر والاستدلال ، والأخذ بالدليل ، والحجة وبطلان التقليد في حق من هو أهل التدبر والاستنباط وفهم النصوص (١) قال الرازي (٢) : (دلت الآية على وجوب النظر والاستدلال لأنه تعالى أمر المنافقين بالاستدلال بهذا الدليل على صحة نبوته .) اهـ

قلت : إن كثيرا من الذين تشبه عليهم نصوص القرآن ويتوهمون وجود تعارض بين بعض آياته إنما هو نتاج قلة النظر والتدبر وعدم فهم النصوص وقد أوضح هذا الأمر الامام الشاطبي رحمه الله فقال (٤) : (فلن قوما أغفلوا هذا الأمر ولم يُمعنوا النظر حتى اختلف عليهم القمهم في القرآن والسنة فأحالوا بالاختلاف عليها ، تحسينا للظن بالنظر الاول ، وهذا هو الذي عاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - من حال الخوارج حيث قال : (يقرأون القرآن لا يُجاوز حناجرهم) (٥) فوصفهم بعدم الفهم للقرآن ، وعند ذلك خرجوا على أهل الاسلام ، ثم لم يزل هذا الاشكال يعتري اقواما حتى اختلفت عليهم الايات والاحاديث وتدافعت على افهامهم فجمعوا به قبل إمعان النظر .) وقال (٦) : (فان الذي عليه كل موفق ان الشريعة لاتناقض فيها ولا اختلاف ، فمن توهم ذلك فيها فلم يمعن النظر فيها ولا أعطى وحي الله حقه ، ولذلك قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن) فحضمهم على التدبر أولا ثم أعقبه : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فبين أنه لا اختلاف فيه ، والتدبر يعين على تصديق ما أخبر به .) اهـ

(١) نظم الدرر البقاعي : ج ٥ / ٣٤٠

تفسير القرطبي ج ٥ / ١٩٠ ، روح المعاني للالوسي ج ٥ / ٩٢

(٢) في تفسيره مفاتيح الغيب ج ١٠ / ١٩٧

(٤) الاعتصام ج ٢ / ٣١١

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه / كتاب الانبياء ، باب قول الله تعالى : والى عاد اخاهم هودا .) ج ٤ / ١٠٨ عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه ومسلم في كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج عن علي رضي الله عنه

(٦) الاعتصام ج ٢ / ٣١٧ بتصرف قليل

رابعاً : - تُرشد الآية الى أنَّ تدبر القرآن ودوام الملة به يجعل العبد دائم المراقبة لله لدوام شعوره بأنَّ هذا الكلام من الله تعالى وأنَّ العبد مطالب بدوام الخشية لهذا الرب المعبود ، قال البقاعي^(١) : (فإذا علموا أنه من عند الله بهذا الدليل القطعي حفظوا سرائرهم كما يحفظوا علانياتهم لان الامر بالهاعة مستور في السر والعلن) اهـ

قلت : وقد أثنى الله عز وجل على عباده الذين يتلون كتابه آناء الليل وأطراف النهار ويتدبرونه ، قال تعالى :

(فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه) - الزمر / ١٧ -

وقال تعالى : (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها عما وعملنا) - الفرقان / ٧٣ -

وقال : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون) - الانفال / ٨ -

خامساً : - ان القرآن هو القول الغملي والحكم العدل بين جميع المتنازعين وهو مرجع المختلفين ، وفي هذا يقول الشاطبي^(٢) رحمه الله : (ولذا ثبت أن القرآن في نفسه لا اختلاف فيه مع أنَّ يكون حتماً بين جميع المختلفين ، لانه إنما يُقرر معنى هو الحق والحق لا يختلف في نفسه ، فكل اختلاف صدر من المكلفين فالقرآن هو المهيمن عليه ، قال تعالى : فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) - النساء / ٥٩ -

فهذا دليل على ان الحق فيه واضح وان البيان فيه شافئ ، لاشيء بعده يقوم مقامه ، وهكذا فعل المحابة رضي الله عنهم لأنهم كانوا اذا اختلفوا في مسألة ردوها الى الكتاب والسنة وقضاياهم شاهدة بهذا المعنى) اهـ والشاطبي رحمه الله . يستنبط من الآية دلالتها على وجوب تحكيم كتاب الله في كل شؤون الحياة وفي كل مسألة يتنازع فيها ، وهو في ذلك محقق لان كتاب الله انما انزل ليعمل به وليكون منهاجاً لسعادة البشر في الدارين ، فالاعراض عنه وهجر تحكيمه في شؤون الحياة يعوق حتماً الاختلاف والتنازع وبلوغ درك الشقاء ولذلك فإنه لا عزة ولا فلاح للمسلمين الا بالرجوع لكتاب الله وسنة نبيه ، روى الحاكم^(٣) ومالك في الموطأ^(٤) عن ابن عباس رضي الله عنه

(١) نظم الدرر في تناسب الاي والسور ج ٥ / ٢٤٠

(٢) الاعتصام ج ٢ / ٣٠٩

(٣) المستدرک ، کتاب العلم ج ١ / ٩٣ باسانيد صحيحة (٤) کتاب القدر ج ٢ / ٨٩٨

والحديث صححه الشيخ الالباني في سلسلة الاحاديث الصحيحة ج ٤ / ٣٦١

أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع :
(٠٠٠) إني قد تركت فيكم ما إن اعتمستم به فلن تضلوا أبداً ، كتاب الله
وسنة نبيه)

والتمسك بكتاب الله هو المصلح الوحيد لحياة البشر بسبب أنه لا يختلف مع
واقع كل مجتمع في كل زمان ، ذلك أنه تنزيل الحكيم الخبير
أما تشريعات العباد فانها تتناقض مع كل واقع وكل ظرف ذلك انها صدرت
من عقل ينقصه الكمال وعلم بالظاهر دون باطن الحال ، فلا ريب ان
يكون الاختلاف سمتها المميزة ذلك أنها من عند غير الله
قال الشاطبي بعد كلام (١) : (وإذا تقرر ذلك فعلى الناظر في نصوص الشريعة
أن يراعي أمرين ، الأول : النازح إليها بعين الكمال لا بعين النقصان وان
الخروج عنها تيه وظلال ، فالزائد والمنقص في جهتها هو المبتدع باطله
والمنحرف عن الجادة

الأمر الثاني : ان يوقن انه لاتحاد بين آيات القرآن ولا بين الأخبار النبوية
ولا بين أحدهما مع الآخر بل الجميع بطر على مهيح واحد ، ومنتهى الى معنى
واحد ، فإذا أداه بأبي الوائى الى ظاهر الاختلاف فواجب عليه ان يعتقد
انتفاء الاختلاف لأن الله قد شهد له أنه لا اختلاف فيه ، فليقف وقوف المضطر
السائل عن وجه الجمع ، أو المسلم من غير اعتراض) اهـ

سادساً : تكريم الإدراك البشري

وقد عبر عن هذه الغائدة الشهيد سيد قطب فقال (٢) :

(الأمر بالتدبر في الآية الكريمة فيه تكريم للإدراك البشري والعقل

الإنساني ، واحترام هذا الكائن البشري وإدراكه الذي وهبه له الخالق

المنان حيث عرض الله عليهم الاحتكام في أمر القرآن الى إدراكهم وتدبر

عقولهم ، فكل جيل له إدراكه وفهمه وقدراته ، لذا تنوعت الادلة التي

تضمنها هذا القرآن للدلالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم - وأن ما جاء

به هو من عند الله ، ولا بد من ملاحظة هذا التكريم الذي كرمه الله

للإنسان بهذا التحكيم لا ينبغي أن يكون سبيلا الى الغرور وتجاوز الحد

فيجب أن نحترم الإدراك البشري بالقدر الذي أراد الله له من التكريم

في مجاله الذي يحسنه ثم لا نتجاوز به هذا المجال كي لا نمضي في التيه بلا دليل) اهـ

(١) الاعتصام : ج٢ / ٣٠٩

(٢) في ظلال القرآن : ج٢ / ٧٢٣ مع بعض التصرف

قلت : وإن التيه والغرور قد يبلغ ببعض الناس الى أن يقدم رأيه وظنه على أحكام الشارع ونصوصه الثابتة ، محتجا بأن هذه النصوص لا تصلح لهذا الزمان أو هذا المجتمع ، أو أن فيها قسوة مثلا وذلك في أحكام العقوبات وإنما أتي هذا من ضعف إيمانه أو زيغ قلبه أو جهله بأحكام الشرع وأهدافه وغاياته والمنافع التي ترجى من تطبيقه ، وإنما ترسخت هذه الوسوس في قلبه من قلة تدبره في معاني النصوص ومراميها ، وغروره بعقله وإدراكه ولو تأمل قليلا ونظر بعين الحكمة والانصاف لتواضع لخالقه وأيقن بجهل نفسه وحيادها عن الصراط المستقيم

سابعاً : - استنبط بعض العلماء أن الإعجاز حاصل لكل مخلوق من إنس وجن وملائكة لشمول قوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله) قال البيضاوي (١) عند تفسير قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) - الاسراء : ٨٩ -

قال : (ولعله لم يذكر الملائكة لأن إتيانهم بمثله لا يخرجهم عن كونه معجزا ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه) اهـ وقد رد عليه العلامة ابن كمال باشا بقوله (٢) : (ان الملائكة عاجزون عنه ايضا لقوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ثم علل عدم ذكر الملائكة في الآية بأن الملائكة لا يخرجون عن أمر الله وطاعته لأنهم معصومون ، وكذا قال الشهاب الخفاجي ، وأضاف بأن التحدي ليس معهم والتصدي للمعارضة لا يليق بشأنهم لعصمتهم ، وأنه يكفي في الإعجاز عجز من تحداه به (٣) قلت : كون الملائكة معصومين عن الخروج عن أمر الله لا يمنع افتراض مآثرتهم للانس والجن لبيان عجز الجميع عن الاتيان بمثل القرآن وذلك ابلغ في الإعجاز ، ولكن الذي يظهر لي ان عدم ذكرهم في الآية سببه والله اعلم ان الملائكة غير مكلفين والمقصود في الآية تحدي المكلفين وبيان عجزهم (٤) للدلالة على صحة النبوة باثبات ان القرآن ليس من كلام بشر أو جن ، فلو اعترض معترض بأنه يمكن أن يكون من كلام الملائكة فذلك اعتراف منه بوجودهم وهم من المغيبات التي ذكرت في القرآن ، واعترافه بوجودهم هو المطلوب ، لان المفترض ان منكر كون القرآن من كلام الله جاحد للغيب مطلقا والملائكة من المغيبات وطريق معرفتها هو القرآن ، اضافة إلى ان الاجتماع على الاتيان بمثل القرآن اجتماع على محال ، والملائكة

(١) انوار التنزيل / ص : ٣٨٣

(٢) نقله عنه نعيم الحمصي في كتابه : فكرة اعجاز القرآن ص : ١٦٦

(٤) عدم تكليف الملائكة هو قول الجمهور من العلماء ، انظر : لوامع الانوار البهية للسفاريني ج ٢ / ٤٠٩

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ج ٦ / ٥٨

ليس من شأنها ذلك بعكس المكلفين الذين ينتابهم النقص فقد

يقومون بما هو محال في نفسه لعدم إحاطتهم بالأمور

وقيل : الملائكة داخلون في عموم لفظ الجن وذلك لاستتارهم (١)

قلت : وهذا غير صحيح لأنَّ لفظة الجن في عموم الشرع علمٌ على تلك

المخلوقات النارية قال تعالى :

(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مَنْ نَارِ السَّمُومِ) - الحجر / ٢٧ -

وروى الامام مسلم^(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم - (خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من نار

وخلق آدم ممّا وصف لكم)

فالشارع فرق بين الملائكة والجن في إطلاقه فدل ذلك على أنَّهما متغايران

إذا أطلق أحدهما لم يُرد به الآخر أو كلاهما حتما

(٣)

ثامنا : - قال القاسمي رحمه الله : (وفي بقية الآية العذر للمصنفين

فيما يقع لهم من الاختلاف والتناقض لان السلامة من ذلك من خصائص

القران ٠) اهـ

تاسعا : - الآية فيها أنَّ هؤلاء المنافقين لم يجدوا في القران اختلافا ،

ولا لأعلنوه ، ولذلك قلل تعالى (لوجدوا فيه ٠٠٠) أي أنهم لم يجدوا ،

فنعى الله تعالى عليهم نفاقهم وكفرهم مع وجود الحجة عليهم وهو هذا

الكتاب : (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم ٠٠)

وهذا الذي حصل منهم وهو النفاق والكفر أعظم دليل على أنَّ الجحود

والحسد من اعظم اسباب الكفر والاحاد ، وكذلك الغفلة ومرض القلب

بالشبهات والشهوات .

(١) والمقصود ان لفظة الجن في اللغة تعم كل ما خفي عن الانظار

لأنها مأخوذة من مادة جنن بمعنى استتر

انظر : لسان العرب ج١٢/ ١٢٢ مادة : جنن ، تفسير غريب القران لابن قتيبة / ٢١

روح المعاني ج١٥ / ١٦٦ ، فكرة اعجاز القران : ٢٠٤

(٢) صحيح مسلم : كتاب الزهد ، باب في احاديث متفرقة / (شرح النووي : ج١٨ / ١٢٣)

(٣) محاسن التأويل للقاسمي : ج٢ / ٣٢٢

الفصل الرابع : سلامة القرآن من الاختلاف من أدلة النبوة

بعد شرح الآية التي تُرشد الى تدبر القرآن والنظر فيه للاستدلال
بسلامة القرآن من الاختلاف على كونه من عند الله ، انتقل الان الى تقرير
مضمون الآية ، وتجليه ما تضمنته من الدلالة على نبوة خاتم المرسلين
مستدلاً بأقوال العلماء الذين أثبتوا هذا الوجه كدليل من أدلة النبوة
فاقول : تكلم العلماء في إعجاز القرآن ووجوه إعجازه ، وبيان القدر المعجز
منه ، ودلالة الإعجاز القرآني على نبوة الرسول - صلى الله عليه وسلم -
وكيف أنَّ الله سبحانه قد تحدى العرب أهل اللغة والانس والجن جميعاً على
أنْ يأتيوا بمثله أو بسورة من مثله ،
ثم ذكر العلماء الغاية التي من أجلها جعل الله سبحانه معجزة الرسول
الأساسية هي القرآن ، وليس كما كانت معجزات السابقين من الانبياء ،
قال الماوردي (١) : (مُعْجَزُ كُلِّ رَسُولٍ مُوَافِقٌ لِلْأَغْلَبِ مِنْ أَحْوَالِ
عَصْرِهِ وَالشَّائِعِ الْمُنْتَشِرِ فِي نَاحِي دَهْرِهِ ، لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ بُعِثَ
فِي عَصْرِ السَّحَرَةِ خُصَّ مِنْ فُلُقِ الْبَحْرِ يَبْسَا وَقَلْبِ الْعَمَاحَةِ مَا يَهْرُ كُلُّ
سَاحِرٍ وَأَذَلَّ كُلُّ كَافِرٍ ، وَبُعِثَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَصْرِ الطَّبِّ ، فَخُصَّ مِنْ إِبْرَاءِ
الزَّمَنِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى بِمَا أَدْهَشَ كُلَّ طَبِيبٍ وَأَذْهَلَ كُلَّ لَبِيبٍ ،
وَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عَصْرِ الْفَجَاحَةِ وَالْبَالِغَةِ خُصَّ بِالْقُرْآنِ
فِي إِجَازِهِ وَاعْجَازِهِ بِمَا عَجَزَ عَنْهُ الْغَمَّاءُ وَأَذْعَنَ لَهُ الْبَلَاءُ ، وَتَبَدَّدَ فِيهِ
الشُّعْرَاءُ ، لِيَكُونَ الْعَجْزُ عَنْهُ أَقْهَرُ وَالتَّقْصِيرُ فِيهِ أَظْهَرُ) (٢)
قلت : ولذلك أفاد العلماء أنَّ الغالب أنَّ تكون معجزة كل رسول مناسبة لما
انتشر في عصره وبرز فيه قومه وعرفوا بالمهارة فيه ليكون ذلك ادعى الى
فهمها واعظم لدلائلها على المطلوب وأمكن في الالتزام بمقتضاها (٣)
قال السيوطي (٤) : (معجزة هذه الامة عقلية لغزط ذكائهم وكمال افهامهم
ولان هذه الشريعة لما كانت باقية على صفات الدهر الى يوم القيامة ،
خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراهم ذوو البصائر كما قال صلى الله
عليه وسلم - : (ما من الانبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله
آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحى الله إليَّ ، فأرجو
أنْ أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) (٥)

(١) اعلام النبوة : ص ٥٧

(٢) المواقف في علم الكلام / ٣٥٤

مناهل العرفان للزرقاني / ج ٢ / ٢٣٢ مذكرة التوحيد / عبد الرزاق عفيفي / ٢٨

(٣) الاتقان في علوم القرآن / ج ٢ / ١١٦

(٤) اخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب كيف ينزل الوحي ج ٦٦ / ٩٦

ومسلم في كتاب الايمان ، باب وجوب الايمان برسالة النبي (شرح النووي على مسلم ١٦ / ٤

فالمعجزات الواضحة الماضية كانت حجة تُشاهد بالابصار ، كقائمة مالح ،
وعصا موسى ، ومعجزات القرآن تُشاهد بالبصيرة ، فيكون من يتبعها لأجلها
أكثر ، لأنَّ الذي يُشاهد بعين العقل باقٍ يشاهده كلُّ مَنْ جاء بعد الأول
مستمرًا ، بينما معجزات الانبياء انقضت بانقراض أعمارهم فلم يشاهدها إلا
من حضرها (١٠) اهـ

إنَّ رسالة النبي الأمي صلى الله عليه وسلم - قائمة على قواعد العلم والعقل
في ثبوتها وموضوعها ، ولذا لم تُجعل معجزته الأساسية المتحدى بها
قائمة على أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون ، بل جعل
الله سبحانه حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته ، وهو الكتاب المعجز
للشعر بإعجازه اللفظي والمعنوي وبما احتواه من أدلة على النبوة مثل
هدايته وعلومه وانبياء الغيب التي فيه (١)

وقد قصَّ الله تعالى علينا أنَّ المشركين قد اقترحوا الآيات الكونية على رسوله
صلى الله عليه وسلم - فاحتج الله عليهم بالقرآن في جملته ، قال تعالى :
(أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) - العنكبوت / ٥١ -
وقال تعالى بعد أن تحداهم بالقرآن :
(فلنَّ لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) - هود / ١٤ -
وقال تعالى : (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون
وكفى بالله شهيدا) - النساء / ١٦٦ -

فجعل الله سبحانه أنزال الكتاب وسماعه حجة كافية في اثبات صدق الرسول
وأنه نبي مرسل ، وأنَّ القرآن حقٌّ دلالة مدققة من ذاته ، وجعل عدم
استجابتهم للتحدي وعجزهم عن الاتيان بمثل أقصر سورة منه دليلا كافيا انه
أنزل بعلم الله ، قاله سبحانه يشهد بهذا القرآن أي بإعجازه وبما
احتواه من أدلة على النبوة وانه من عند الله الحكيم الحميد

ولا بدَّ من الإشارة الى انه مادام التحدي قد وقع بأقصر سورة من
القرآن كما قال تعالى : (ولنَّ كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا
فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إنَّ كنتم صادقين ،
فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة
أُعدت للكافرين) - البقرة / ٢٣ - ٢٤ -

ما دام الامر كذلك وعلمنا أنَّ كثيرا من قصار السور لا تحتوي على أخبار
عن المنجيات أو علوم كونية أو غير ذلك مما قيل في أوجه اعجاز القرآن
تأكد لدينا ان اعجاز القرآن المتحدى به منحصر في الناحية البانية
التي امتاز بها القرآن (٢) وما تضمنه من اموراخر إنما هي أدلة على النبوة

(١) انظر :الوحي المحمدي / لمحمد رشيد رضا ص ٦٢

(٢) انظر اعجاز القرآن / للرافعي ص ١٤٨ فما بعدها

مقدمة الفاضلة الشريفة / الشيخ محمد شاكر ص ٢٠ - ٢٦

رادفة للإعجاز البياني لها حكم وغايات كثيرة ،

وقد ذكر الامام الخطابي (١) رأي الطائفة التي زعمت أنَّ إعجاز القرآن

بما تضمنه من الإخبار عن الكواكن في مستقبل الزمان ثم نقده بقوله :

(ولا يُشكَّ أنَّ هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس

بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة

كل سورة أنَّ تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها فقال :

(ولن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ٥٠)

من غير تعيين ، فدل على أنَّ المعنى فيه غير ما ذهبوا اليه ٥) اهـ

وقال الفخر الرازي (٢) : (عندي وعند الاكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة

واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية (٣) لانه لو كان وجه الاعجاز هو

كثرة العلوم او الاخبار عن الغيوب او عدم التناقض لم يكن لقوله (مفريات)

معنى أما إذا كان وجه الاعجاز هو الفصاحة صح ذلك لان فصاحة الفصح

تظهر بالكلام سواء كان الكلام صدقا أو كذبا ٥) اهـ

قلت : والشاهد من كل ما تقدم أنَّ القرآن قد تحدى الله تعالى

باعجازه البياني ، فصاحته الغدة ونظامه الغريد واسلوبه العجيب الذي أعياى العرب

أنَّ يجاروه أو حتى أنَّ يفكروا في معارضته ،

أما ما اشتمل عليه القرآن من أمور أخرى كالإخبار عن المنيبات والعلوم الكونية

او السلامة من الاختلاف ونحو ذلك مما ذكر كأوجه لاعجاز القرآن ، إنما هي

دلائل على نبوة رسول الله وصدقته ، وأنَّ هذا القرآن إنما هو وحي يوحى ،

وجيء بهذه الدلائل عاضدة وشاهدة ومؤكدة لاعجاز القرآن البياني ، ولها مقام

وحكم ساذكر بعضها بمشيئة الله تعالى ،

وسلامة القرآن من الاختلاف مع طوليه ودلالة ذلك على نبوة رسول الله صلى الله

عليه وسلم - لا تجعلها وجها لاعجاز القرآن متحديا بها ، بل تجعلها دليلا من

أدلة النبوة التي احتواها القرآن ، وما أكثرها ، مساندة ومؤكدة لاعجازه

الذي أعجز العرب أهل البيان فمن بعدهم من باب أولى

أما اسباب وجود هذه الدلائل والحكمة منها فهي كما يلي :

اولا : ضعف ملكة اللغة لدى أهلها بعد القرون الاولى فكيف بغيرهم من أهل

الشعوب الاخرى التي دخلت في الاسلام ، فلا بد من وجود دلائل اثري غير البيان

الذي لا يفهمه غير أهلله ، فالامم غير الناطقة بالعربية او التي ضعفت

ملكة اللغة عندها لاتستطيع ادراك اعجاز القرآن من نظامه وبلاغته لذا فقد

اوجد الله تعالى لها في القرآن من الادلة ما يدفع الى التمديق والايمان بانه

(١) اعجاز القرآن للخطابي / ص : ٢١ - ٢٣

(٢) في تفسيره : ج ١٧ / ١٩٥ (٣) هي قوله تعالى (ا م يقولون اغترأه

قل فاتوا بعشر سور مثله مفريات) - هود / ١٣ -

من عند الله وأنه لأقدرة للبشر عليه ،
أما الإعجاز فهو حاصل لهم لأنَّ أهل اللغة الذين برعوا فيها وملكوا أزمتهما
لما عجزوا عن معارضة القرآن والأتیان بأقصر سورة منه بل خضعوا وخشعوا
لبيانه وروعته واتقانه ذلك أنَّ أغيرهم أعجز منهم حتماً ، وكذلك فإنَّ غير
أهل اللغة يستطيعون فهم معاني القرآن المترجمة ، فإذا تدبر احدهم معاني
آيات الله مفسرة ووجد التناسق والانسجام في المعاني والمباني فيعلم
بذلك أنه ليس بكتاب من وضع البشر بل هو تنزيل من رب العالمين

ثانياً : - كما أنَّ هناك مقصد آخر وهو أنَّ منكري النبوة الشاكين
في القرآن قد ينسبون هذا الكلام المعجز للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم -
نفسه وأنه قد فاق أهل عصره في البلاغة والخصاحة فلذا جاء بهذا القرآن المعجز
فجاءت هذه الأدلة ردّاً عليهم لأن هذه المعلومات التي احتواها القرآن جاءت على
يد رجل أمي فدل ذلك أنها من عند الله العليم الخبير
قال الشيخ الزرقاني (١) رحمه الله : (إضافة إلى الفرق الشاسع بين
القرآن والحديث النبوي ، وإضافة إلى أن النابغة في أي عصر من العصور
يستطيع إقرانه بيسر وسهولة أن يحاكيه مجتمعين ومنفردين بالشيء القليل
وإضافة إلى أنه ادعاء على أكرم شخصية عرفها التاريخ طهراً ونبلًا ، واسمى
مقاماً اشتهر أمانة وصدقاً حتى نفخ قومه لم يكذبوه قال تعالى :
(فأنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) - الأنعام / ٣٣ -

إضافة إلى كل ذلك جاءت هذه الأدلة التي تضمنها القرآن لتبين للناس
أنَّ محمداً النبي الأمي لم يكن ليأتي بالقرآن من عنده ، وهذه الدلائل
التي تضمنها القرآن والتي جاءت على يد نبي أمي في عصر لم تتقدم فيه
العلوم ، تكاد تكون بجملتها موجهة لغير أهل اللغة (أولاً لها الذين ضعف
سليقتهم ، إضافة إلى ما فيها من تقوية إيمان من استشعر الإعجاز
وتذوقه وایقن بالعجز أمام آيات الله الناطقة بأنَّ هذا الكتاب :
(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

(١) مناهل العرفان : ج ٢ / ٨٥ مع بعض التهرؤ

وبعد هذا التقديم انتقل لشرح وبيان وتقرير أنَّ سلامة القرآن من الاختلاف من أدلة النبوة

فأقول : تقدم في هذا المبحث أنَّ الله سبحانه وتعالى قد احتج بالقران على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم - فيما يخبر به - وأنه نبي من عند الله وأن القرآن قد احتوى أدلة كثيرة لتقرير ذلك ، منها الاعجاز البياني الذي تحدى الله تعالى به وادلة كثيرة جاءت ماثرة لوجه الاعجاز فيه ومن هذه الأدلة :

سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض مع طوله وكثرة سورته وإياته واختلاف أغراضه وأساليبه ، وتنوع معلوماته ، ونزوله منجماً في ثلاثة وعشرين عاماً في أماكن شتى ، وهو مع ذلك في غاية التوافق والانسجام والاحكام ، لا اختلاف فيه ولا تناقض ، لا نجد لوعفه أبْلُغ من قوله تعالى : (الرء كتاب أحكمت آياته ثُمَّ فَصَّلَتْ من لدن حكيم خبير) - هود / ١ - وقوله : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ٠٠٠) - الزمر / ٢٣ -

فمن المعروف أنَّ القرآن قد تطرق لموضوعات شتى كالأمر والنهي ، والوعد والوعيد والحكم والأمثال ، والوعظ والقصص ، وذكر المغيبات والعلوم الكونية ومظاهر الخلق ودلائل البعث والنشور وغير ذلك ، وحين نتدبر الآيات في كل هذه الأغراض نجد أنها في منتهى البلاغة والبراعة وغاية الانسجام والتوافق والانتظام أوله يُشبه آخره لا يمل قارئه ولا يسم مجوده ولا يشك متدبره ، يزيد المتقين هدى والمؤمنين إيماناً ، ذلك أنه في غاية الترابط والتلاحم أوله يصدق آخره ، ان نظم القرآن وترتيبه على الوجه المعهود الهياكل والمخالفات لانهما الكتب المؤلفة ، وهو مع ذلك متناسب الآي والسور في المعاني والمباني والموضوعات الشتى كأنه وحدة واحدة ، دليل مادي على أنه ليس بكتاب وضعي بشري يجلس اليه واضعه من الناس ، فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناسبة فصلاً ، ولكل مجموعة من فصوله المتتابعة باباً ، بل هو مجموعة هدايات من الوحي الالهي اقتضتها الحكمة ودعت اليها المصلحة ، لا تجد فيها خلا ولا تناقضا بل تاخذ برقاب بعضها كأنها موضوع واحد

(١) يقول الشيخ الزرقاني : (إنَّ هذا المزيج الطريف الذي نجده في كل سورة أو طائفة منه له أثر بالغ في التذات قارئه وتشويق سامعه واستفادة المستفيد بأنواع متنوعة منه ، فما أشبه كل مجموعة من القرآن بروضة يانعة يتنقل الانسان بين أفيائها متمتعاً بكل الثمرات ،

أو بمائدة حافلة بشتى الأطعمة يشبع الجائع حاجته بما فيها من جمع الألوان (١) اهـ

ويقول الدكتور محمد عبد الله دراز (١) : (إنك لتقرأ السورة الطويلة

المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حُشيت حشوا ، وأوزاعا من المباني جُمعت عفوا ، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بُنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول ، وأُقيم على كل أصل منها شُعب وفصول ، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وُضع رسمه مرة واحدة ، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق ، بل ترى بين الاجناس المختلفة تمام الألفة كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية النظام والإلتحام ،

ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين ، وتؤدي بمجموعها غرضا خاصا كما يأخذ الجسم قواما واحداً ، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية)

وقال (٢) : (أي تدبير محكم وأي تقدير مبرم ، أو أي علم محيط لا يضل ولا ينسى ولا يتردد ولا يتمكن كان قد أعدّ لهذه المواد المبعثرة نظامها وهداها في إبان تشييتها إلى ما قدره لها ، حتى صيغ منها ذلك العقد النظيم ، وسرى بينها هذا المزاج العجيب ، سبحان الله ! هل يمتري عاقل أن هذا العلم البشري وأنّ هذا الرأي الأنف البدائي الذي يقول في الشيء : (لواستقبلت من أمري ما استدبرت لقلت أو فعلت ولقدمت أو اخرت) لم يك أهلا لان يتقدم الزمان ويسبق الحوادث بعجيب هذا التدبير ؟ أليس ذلك وحده آية بينة على أنّ هذا النظم القراني ليس من وضع بشر وإنما هو وضع العليم الخبير) بلى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) اهـ

قلت : إنَّ من كان يؤمن بالله ربا وخالقا ومهيمننا على هذا الكون بعد تدبير القرآن وتأمّله وملاحظة آياته وسوره والتأمّل فيها ، وتعاقد معانيها وسلامتها من الاختلاف مما لا يمكن لاحد من البشر ان يأتي بمثلها ، لامندوحة له ولا مناص من الايمان بان هذا الكتاب منزل من لدن عليم خبير لهداية البشر ورسم طريق سعادتهم في الدارين ولتزكية نفوسهم وجوارحهم واملاح مجتمعهم من الانحراف واليه والظلال ، فيكون اتباع الرسول

(١) في كتابه : النبأ العظيم / ١٥٥

(٢) المصدر نفسه : ١٥٧

الذي جاء بهذا القرآن فرضا لازما عاما كما قال تعالى :

(قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا ، الذي له ملك السموات والارض لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) - الاعراف / ١٥٨ - ٦
أما الذي لا يؤمن بالله ربا وخالقا ومعبودا ، فإنّ هذا القرآن بما فيه من دلائل لا تُحصى ، ومن ضمنها سلامته من الاختلاف ، والذي لا يصدر مثله عن بشر ، فلا بُدّ أن يكون هذا القرآن حجة ناهضة على وجود الله الحق لأنّ مثل هذا القرآن لم يُعهد في الخلق بما اشتمل عليه من الآيات والدلائل ، هذا وإنّ الله تعالى لمّا كانت له الآيات الكونية التي أبدعها

وأَتقن صنعها كما قال : (الذي أحسن كلّ شيء خلقه ٠٠٠) - السجدة / ٧ -

وقال : (مُنِعَ الله الذي أَتقن كلّ شيء) - النمل / ٨٨ -

ولمّا لم يكن في خلقه تفاوت ولا فطور كما قال سبحانه :

(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) - الملك / ٣ -

وكان كلّ شيء من خلقه بنظام وتقدير : (إنا كلّ شيء خلقناه بقدر) - القمر / ٤٩ -

كانت كذلك آياته القرآنية المسطورة غاية في الإبداع والانسجام والتوافق ذلك أنها صادرة من عند الله المهيمن المبدع ، فكل ما صدر عن العظيم فهو عظيم ودال على عظمته ، وكل ما صدر عن المبدع فهو بديع ودال على إبداعه : (كتاب أوحى آياته ثم فُطت من لدن حكيم خبير) - هود / ١ -
فلذلك لا يمكن أن يكون هذا القرآن السالم من الاختلاف والتناقض والتفاوت صادرا عن البشر الذين هم مجبولون على الخطأ والنسيان والسهو ، حيث لا يخلو الواحد من الناس في يومه الواحد من التناقض والاختلاف والغفلة والنسيان ،

وإذا اعتبرنا نزول القرآن منجما بحسب الوقائع والاحوال ، وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - عند نزول الآية أو الطائفة من الآيات أن توضع في محلها من سورة كذا ، وهو لا يقرأ في الصحف ما كُتب أولا ولا ما كُتب آخرا وإنما يحفظه حفظا ، ومع ذلك يأتي الآخر موافقا للاول ومنسجما معه ،

إذا اعتبرنا ذلك تبين لكل منصف متدبر أنه لا يمكن أن يأتي به من عند نفسه ، حيث لم تجر العادة بأنّ الذي يأتي من عند نفسه بالكلام الكثير في المناسبات والوقائع المختلفة يتذكر عند كل قول جميع ما سبق له في

السنين الخالية ويستحضره ليجعل الآخر موافقا للأول ، ونحن نرى العالم النابغ

في علم معين يؤلف الكتاب فيه وينقحه ويطبعه فلا تمر سنوات قليلة إلاّ

ويظهر له الخطأ والاختلاف فيه ، فلا يعيد طبعه إلا بعد أن يُغيّر فيه ويصح

ما شاء ، فما بالك بالذي يظهر للانسان من التفاوت والاختلاف في الكتب

التي يؤلفها غيره من أول وهلة ،
وقد ظهر القرآن في أمة أمية ، لا مدارس فيها ولا كتاب على لسان أمي لم
يتعلم القراءة والكتابة ، فكيف يمر عليه أربعة عشر قرنا ولا يظهر فيه
اختلاف أو تفاوت ، أليس هذا برهانا ناصعا على كونه من عند الله أوحاه
الى عبده ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - (١)

فهذا القرآن مما لا يقدر عليه بشر لان الذي يقدرون عليه قد تبين
فيه التفاوت الكثير والتناقض عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الاسباب
واختلاف احوال الانسان ، فإنه لذلك تختلف أغراضه ، فيميل الى الشيء مرة
ويميل عنه اخرى ، فيوجب اختلاف الاحوال والافراض اختلافا في كلامه بالضرورة
فلا تصادف اللسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن ،
فيتكلم على غرض واحد وعلى منهج واحد ، ولقد كان رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - بشرا تختلف احواله ، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من
البشر لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٢)

وحول هذا المعنى يقول الشهيد سيد قطب (٣) رحمه الله :
(ظاهرة عدم الاختلاف والتناسق الكامل الشامل في ذات المنهج الذي تعمله
العبارات ويؤديه الاداء ذلك هو جانب التنظيم والتشريع ، فما من نظرية
بشرية وما من مذهب بشري الا وهو يحمل الطابع البشري ، جزئية النثر
والرؤية والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية ، وعدم رؤية المتناقضات في
النظرية أو المذهب أو الخطة التي تؤدي الى الاصطدام بين مكوناتها إن
عاجلا أو آجلا ، وعدم القيام بمصلحة البشرية وسعادتها ،
ذلك أن المناهج البشرية ناشئة من طبيعة الادراك البشري المحدود ، ومن
الجهل البشري بما وراء اللحظة الحاضرة ، فوق جهله بمكونات اللحظة القادمة ،
وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل الثابت
الاصول ثبات النواميس الكونية ، وهو مع ثبات اصوله جملة الله
٢٥ مصلحا لكل تغير أو تبديل في أوضاع المجتمعات او هيئاتها او حاجاتها
في كل زمان ومكان) اهـ

ولظهور هذا الدليل من أدلة النبوة وقوته فقد ذكره كثير من
العلماء وجها لاعجاز القرآن او دليلا من أدلة النبوة
انقل هنا بعضا من أقوالهم بعد أن قررت هذا الدليل وأوضحته بقدر المستطاع

(١) انظر : المنار ج٥ / ٢٣٤ لمحمد رشيد رضا

(٢) البرهان للمزركشي ج٢ / ٤٧

(٣) في ظلال القرآن ج٢ / ٧٢١

وأبدأ بشهادة الله تعالى وهو خير الشاهدين :

قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا) - النساء / ٨٢ -

وقال : (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيذا) - النساء / ١٦٦ -

أي يشهد بنبوتك وبحقية الذي أنزله إليك وهو القرآن لاخرائه على أدلة كثيرة ومنها سلامته من الاختلاف ، فالقرآن بما فيه من أدلة كاف في الشهادة كما قال تعالى :

(أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لآياتٍ لذكرى ورحمةً لقوم يوقنون) - العنكبوت / ٥١ -
وانذكر الان أقوال بعض العلماء في الباب :

يقول الرازي (١) : (اعلم أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى احتج بالقرآن على صحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - إذ لم لم تحمل على ذلك لم يبق لها تعلق بما قبلها البتة ، والعلماء قالوا : دلالة القرآن على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - من ثلاثة أوجه :
أحدها فماحتها ، وثانيها : اشتماله على الإخبار عن الغيوب ،
والثالث : سلامته من الاختلاف .

ثم قال : الذي ذهب اليه أكثر المتكلمين : أن المراد منه - أي الوجه الثالث - أن القرآن كتاب كبير وهو مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم فلو كان ذلك ممن عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة لان الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك ولما لم يوجد فيه ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله .) اهـ

ويقول ابن الحنبلي (٢) : (ذكر أدلة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - من الكتاب العزيز ، والكتاب العزيز كله دليل على صدق رسالته الى ان قال : دليل آخر قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها) - محمد / ٢٤ -

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا) قال : وإذا تقررت هذه الأدلة التي ذكرناها فكل دليل دل على رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى رسالة من سبقه من الانبياء - صلوات الله عليهم

(١) في تفسيره : ج ١٠ / ١٩٦ اية النساء / ٨٢ (ولو كان من عند غير الله

(٢) في كتابه : استخراج الجدل من القرآن ص / ٩٩ - ١٠٠
وابن الحنبلي هو : الإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم الدين ، المعروف بابن الحنبلي شيرازي الأصل ، برع في الحديث والفقه والتفسير والوعظ ولادب : ٣٣٤ هـ بدمشق انظر : ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١٩٣ / ٢ ، الاعلام للزركلي ١١٦ / ٤

(١) وسلامه - فهو دليل على وجود الصانع سبحانه .

ويقول ابن كثير (٢) : (يقول تعالى آمرا عباده بتدبر القرآن وناهيا لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة والغاظة البليغة ، ومخبراً لهم انه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ... ولا تعارض ، لانه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق ، ولهذا قال تعالى (أنحلاً يتدبرون القرآن) ثم قال : (ولو كان من عند غير الله) أي لو كان مختلفاً مختلفاً كما يقوله من يقوله من جهة المنافقين والمشركين في بواطنهم ، (لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً) أي اضطراباً وتضاداً كثيراً ، أي وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله ، كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا : (آمنا به كل من عند ربنا) أي محكمه ومتشابهه حق ، فلهذا ردوا المتشابه الى المحكم فاهتدوا ، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم الى المتشابه فغوا (٣) اهـ

ويقول القاضي عضد الدين الايجي (٣) في معرض ذكر وجوه إعجاز القرآن (وقيل عدم اختلافه وتناقضه مع ما فيه من الطول) وقال في موضع آخر (٤) بعد أن ردّ على منكري الاعجاز البلاغي ، قال : (سلمنا لكن لم لا يجوز أن يكون المعجز ما انتفى عنه الاختلاف) اهـ ويقول الالوسي (٥) : في معرض تعقيبه على الرازي حول الاعجاز : (ولا يمنع احتمال كونه الاسلوب الغريب وعدم إشتماله على التناقض كما قيل به) وقال في موضع آخر (٦) (والاعتراض على كون وجه الاعجاز عدم التناقض والاختلاف مع الطول والامتداد بوجهيه مدفوع) اهـ

ونقل نعيم الحمصي (٧) عن الشيخ اوليا زادة قوله : (ان وجوه الاعجاز الدالة على صدق النبي وثلاثة ٠٠٠٠ الثالث : سلامته من الاختلاف) اهـ ومن المعاصرين السيد محمد رشيد رضا حيث يقول (٨) : (الوجه الرابع : سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف خلافا لجميع كلام البشر وهو المراد بقوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً) ولاننا نجد كبار العلماء في كل عصر يُصنفون الكتاب فيُصودون ثم يُصحون ويُبيضون ثم يطبعون وينشرون ثم يظهر لهم ولنغيرهم

(١) في جواز اطلاق لفظ الصانع على ذات الله عز وجل خلاف ، والصحيح انه لا يجوز اطلاقه الا مقيدا او مضافا ، كما جاء في صحيح مسلم عن ابي هريرة مرفوعا : (ليعزم في الدعاء فان الله تعالى صانع ما شاء لا مكره له) كتاب الذكر والدعاء بسباب العزم في الدعاء (شرح النووي / ج ١٧ : ٧) وانظر الخلاف في ذلك : لوامع الانوار للسفاريني ج ١ / ٤٥ ، ١٢٤ روح المعاني للالوسي ج ٢٠ / ٣٦ (٢) تفسير القرآن العظيم ج ١ / ٨٠٤ النساء / ٨٢ (٣) المواقف في علم الكلام / ٣٥٠ ، طبعة : مكتبة المتنبي ، القاهرة (٤) المرجع السابق : ٣٥٤ ، (٥) روح المعاني ج ١٢ / ٢١ ، (٦) نفسه ج ١ / ٣١ (٧) فكرة اعجاز القرآن : ٢٠٥ ، والشيخ اوليا زاده له كتاب : مفتاح التفاسير ط / ١٢٨٦ هـ (٨) المطار ج ١ / ٢٠٣

كثير من التعارض والاختلاف والأغلاط اللغوية والمعنوية ، لاسيما إذا مال
الزمان ، ... ولكن هذا النوع من الإعجاز إنما يظهر في جملة القرآن
في السور الطويلة فيه لا في كل سورة ، فان سلامة السور القصيرة من
ذلك لا يُعد أمرا معجزا يتحدى به (٠) اهـ
ومن المعاصرين ايضا الاديب الرافعي (١) فقد قال في اثناء سرده لوجه
الإعجاز وأيده : (واخرون يقولون بل ذلك في خلو من التناقض واشتماله
على المعاني الدقيقة (٠) اهـ

وفي هذا القدر كفاية من أقوال العلماء الذين استدلوا بظاهرة سلامة
القران من الاختلاف على نبوة خاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم (٠)
أو اعتبروا سلامة القرآن من الاختلاف من وجوه إعجازه ،
وقد ثبت من خلال ما تقدم أن اعتماد هذا الدليل القوي الذي احتواه
القران للتدليل على نبوة خاتم المرسلين من أهم ما يُتمسك به ويحتج به
حيث إنه دليل واضح وظاهر ، خاصة وأن الله سبحانه قد نص عليه ، وقرع
المنافقين لغفلتهم عنه أو لعدم ادراكهم له بسبب عدم تدبرهم للقران ،
ونستطيع مقابل ذلك الاحتجاج بالتناقض والاضطراب في كتب اهل الكتاب على
أنها في جملتها لا يمكن ان تكون متك عند الله تعالى وانها لذلك محرقة
ومبدلة

تناقض العهد القديم والجديد عند اهل الكتاب

يدعي اهل الكتاب أن ما بأيديهم من العهد القديم والجديد يدعون انهما
< نصوص صحيحة وثابتة لم يعتريها أي تغيير أو تبديل ، بينما الواقع يدل
على أنهما يتضمنان الدليل القاطع على خلاف ذلك ، وذلك بسبب الاختلاف
والتناقض الموجود في العهد الواحد ، وكذلك بين العهدين مما يؤيد
وقوع التفسير في كتب الله السابقة ، وأنها لم تبقى كيوم نزلت ،
وقد تضمن ما يسمونه العهد الجديد من الحكايات والقصص في بعض نسخه
ورواياته ما اغفله البعض الآخر ، واشتمل على أمور قد اشتمل الآخر على
نقيضها أو ما يخالفها ، وفيها ما تحكم الضرورة بأنه ليس من كلام
الله تعالى أصلا (٢)

يقول ابن القيم رحمه الله : (فهذه التوراة التي بأيدي النصارى
تخالف التوراة التي بأيدي اليهود ، والتي بأيدي السامرة تخالف هذه وهذه)
وهذه نسخ الأنجيل يخالف بعضها بعضا ويناقضه (٠) اهـ

(١) اعجاز القرآن / ١٤٨

(٢) انظر هداية الحيارى في اجوبة اليهود والنصارى / لابن قيم الجوزية / ٤٨

(٣) المرجع السابق / ٤٨

وانكر هنا بعض الامثلة على هذه التناقضات ،
فقد اشتركت الاناجيل الاربعة في ذكر أحداث ذات أهمية كبيرة في تاريخ
المسيحية ، وتشكيل معتقداتها ، ولكن مع أهمية هذه الأحداث
اختلفت الاناجيل فيها اختلافا جوهريا ، وهذا الاختلاف يتبعه اضطراب العقيدة
وزعزعة أصولها ، فمن ذلك اختلاف الاناجيل في وصف قيام المسيح من قبره
وذكر الحرس الروماني ، ووجود ملكين في القبر مرة ، ومجيء ملاك من الخارج
مرة أخرى ، ووجود ملاك واحد في القبر مرة ثالثة ، أي أن الاناجيل
الاربعة اختلفت في أهم حدث تقوم المسيحية عليه ، ثم هناك اختلاف في
النساء اللاتي جئن الى قبره ، فمرة هي مريم المجدلية وحدها (١) ، ومرة
هي مريم المجدلية ومريم الأخرى (٢) ، ومرة كُنَّ المجدلية وأم يعقوب وسالومة ،
(٣) (٤)

قال الالوسي في تفسيره (٥) في معرض ذكره لتناقضات الاناجيل :
(فمن ذلك أن " متى " ذكر أن المسيح صُلب وصلب معه لسان ، أحدهما
عن يمينه والآخر عن شماله وأنهما جميعا كانا يهزأان بالمسيح مع اليهود
ويُعيَّرانه (٦) ، وذكر " لوقا " خلاف ذلك ، فقال : إن أحدهما كان يهزأ به
والآخر يقول له : أما تتقي الله تعالى ، أمّا نحن فقد جُوزينا وأمّا هذا
فلم يعمل قبيحا ، ثم قال للمسيح : يا سيدي اذكرني في ملكوتك ،
فقال : حقا انك تكون معي اليوم في الفردوس (٧) (٨) ،

قال الالوسي : ولا يخفى أن هذا يؤول الى التناقض ، فإن اللصين عند
متى كافرين وعند لوقا أحدهما مؤمن والآخر كافر (٩) اهـ
قلت : وهذه إنما هي مجرد أمثلة ، ولولا فتناقضات العهد القديم والجديد
وما فيها من تضارب وبعد عن كلام الانبياء بحاجة الى بحث مستقل (٩) ،
وهذا التناقض والاختلاف إنما سببه أنها روايات تاريخية شفوية لم
تكتب في عهد المسيح عليه السلام بل كُتبت في العصور التالية على أيدي
رجال لا يُعرف حالهم ، ولم تحظى هذه الروايات بالسند الصحيح فضلا عن
التواتر لا في اللفظ ولا في الكتابة ، بعكس القرآن الذي تواتر لفظه
وتواترت كتابته منذ عهد الرسول حتي يومنا هذا
(إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون) - الحجر / ٩ -

(١) انجيل يوحنا : اصحاح ٢٠ فقرة ١١

(٢) انجيل متى : اصحاح ٢٨ / ١ ، (٣) مرقس : اصحاح ١٦ / ١

(٤) انظر كتاب : رد مفتريات على الاسلام د عبد الجليل شلبي ص : ٢٤٦ ففيه تفاصيل

(٥) روح المعاني ج ٣ / ٢٠٦ ، (٦) متى : اصحاح ٢٧ / ٤٤

(٧) لوقا : اصحاح ٢٣ / ٣٩ - ٤٣ ، (٨) وانظر كتاب : شفاء الغليل في بيان ما

وقع في التوراة والانجيل من التبديل للامام عبد الملك الجويني ص : ٥١ - ٥٢ وغيرها

(٩) وقد اشبع الكلام فيها العلامة : رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق)

وهو كتاب مطبوع ، وانظر : الفصل لابن حزم الظاهري ج ١ / ٢١٠ ، ٢٥٢ ج ٢ / ٢٧

وهداية الحيارى لابن القيم / ١١٢ ، ومحاضرات في النصرانية للشيخ محمد ابو زهرة ٢٩٨

أدلة أخرى على النبوة من القرآن

بعد هذا العرض والبيان لدلالة " سلامة القرآن من الاختلاف على النبوة " أنذكر هنا بعض الآيات التي تضمنها القرآن ، والتي تحمل في ثناياها أدلة على صدق مُبلِّغ هذا القرآن وأنه رسول رب العالمين ، أنذكر ذلك تنميماً للفائدة ولبیان أن القرآن الكريم يتضمن أدلة كثيرة متظاهرة تدل على أنه وحي يوحى وأنه ليس بقول البشر وأن الذي جاء به هو رسول رب العالمين الواجب اتباعه ومن حاد عن طريقه خسر الدنيا والاخرة ، ومن هذه الأدلة ما يلي :-

أولاً : ما ذكره القرآن من قصة الإفك وهي الحادثة التاريخية التي حصص الحق فيها ، وتجلّى بسببها إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين ، وبالتالي نبوة خاتم المرسلين فقد روى الامام البخاري^(١) رحمه الله حديث الإفك عن جماعة من التابعين عن عائشة رضي الله عنها ، وبَيَّنَت فيه الصديقة بنت الصديق بداية القصة وخاتمتها ، وكيف أنَّ عدو الله عبد الله بن أبي رأس المنافقين استغل تأخر عائشة عن الركب بسبب حاجتها ، ومجيئها بعد ذلك مع الصحابي الجليل : صفوان بن المعطل يقود راحتها ، استغل عدو الله ذلك لاتهامها في عرضها وهي زوجة خاتم الانبياء والمرسلين ، وقد تناقل الخبر ضعاف الايمان والمنافقين وروجوها في المدينة امدة شهر وتلبث الوحي فلم ينزل لحسم الامر من بداية الامر لحكمة ارادها الله سبحانه ، والرسول في كل ذلك لا يدري حقيقة الامر ، وهو صلى الله عليه وسلم حين يُرمى في عائشة رضي الله عنها يرمى في كل شيء ، يُرمى في فراشه وعرضه وقلبه ورسالته ، ويتحدث الناس في المدينة شهراً كاملاً فلا يملك أن يضع لهذا كله حداً ، يعاني من ^{فريضة} العار ويعاني فتجيعة القلب ، فجمع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله لكنه لا يطمئن نهائياً لهذه القرائن والغريبة تفوح في المدينة ، وعندما ثقل العنباء عليه بعث الى أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما يستشيرهما في خاصّة أمره حين حز الأمر في نفسه وتلبّث الوحي الذي يُنْشِر له الطريق ، ثم ما لبث أن ذهب الى عائشة نفسها يُصارحها بما يقول الناس ويطلب منها البيان العفافي ، حيث قال لها :

(١) صحيح البخاري : كتاب الشهادات ، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً ج ٣ / ٢٢٧ وفي كتاب التوحيد. باب / ٣٤ ج ٨ / ١٩٨

واخرجه الامام مسلم في صحيحه : كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك (شرح النووي / ١٧ / ١٠٢)

(يا عائشة فإنه بلغني أنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وإن كنت أُلِّمْتَ بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه فإن العبد إذا تاب تاب الله عليه) ، وعندما تمل الآلام التي نزلت بها على هذا النحو يأتي الفرج الحاسم من السماء ، فينزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ،

(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) - النور / ١١ -

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله (١) :

(وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها) (ولقد كانت معركة خاضها رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاضتها الجماعة المسلمة والخطر على الإسلام من تلك الغيبة من أشد الأخطار التي تعرض لها الإسلام في تاريخه) اهـ

قلت : تدلنا القصة بوضوح تام أنها من آيات النبوة ، حيث

إن الرسول لو لم يكن نبيا لما انتظر كل هذا الوقت طابرا متاثرا ينتظر الفرج ، يستشير ويسأل ويفكر في الأمر ، فلو لم يكن نبيا لسارع وعجل في تكذيب التهمة عن زوجه وعرضه خاصة وأنه في بيئة تعتبر الشرف والعرض من أهم الأمور التي يُعتر بها ، فلما لم يكن الأمر كذلك دلنا أن الرسول إنما هو عبد الله ورسوله يأتمر بأمره ويبلغ عنه وليس له من الأمر شيء^(٢) ، وقد أراد الله سبحانه بهذه القصة والواقعة حكماً وفوائد كثيرة منها ما ذكرته ،

ولذا قال تعالى : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم)

فبعد أن ذكر الله سبحانه حكم قذف الأجنيات وحكم قذف الزوجات ذكر في هذه الآيات براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين وضعاف الإيمان صيانة لعرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقلوه : " بالإفك " أي ما أفككت به الصديقة أم المؤمنين رضي الله عنها - والإفك هو أبلغ ما يكون من الكذب والبهتان قال الشوكاني^(٣) : (وأجمع المسلمون على أن المراد في الآية ما وقع من الإفك على عائشة أم المؤمنين ، وإنما وصفه الله بأنه إفك لان المعروف من حالها رضي الله عنها - خلاف ذلك)

(٢) انظر: النبأ العظيم ص ٢٤

(١) في ظلال القرآن ج ٤ / ٢٥٠٠ - ٢٥٠١

د. محمد عبد الله دراز

(٣) فتح القدير ج ١٢ / ١٢

وقال الالوسي (١) : (وفي لفظ المجيء إشارة الى أنهم أظهروه من غير أن يكون له أصل وقوله " عصة منكم " للتسلية بأنّ الجائين بذلك الافك فرقة متعصبة متعاونة وذلك من امارات كونها إغكا لا اصل له) اهـ

وقوله : (لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم)
أي لنيلكم بالصبر عليه الثواب العظيم ، وانزال ما فيه تعظيم لشأنكم ، وصيرورة قمته شرا عاما ، وهو خير لكم لما فيه من الدلالة على صدق نبيكم وانه لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى

المثال الثاني من ادلة النبوة :-

سورة المسد : (بسم الله الرحمن الرحيم ، تبت يدا أبي لهب
وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيطى نارا ذات لهب ، وامراته
حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد)
روى البخاري (٢) وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :
(خرج النبي صلى الله عليه وسلم - الى البطحاء فصعد الجبل فنادى : يا صباحاه
فاجتمعت اليه قريش ، فقال : أرايتم إن حدثتكم أنّ العدو مُمبَحكم ومُمسّكم
أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ، قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)
فقال أبو لهب : ألهنا جمعنا تبا لك ، فأنزل الله :
(تبت يدا أبي لهب وتب)

ومع أنّ أبا لهب عمّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلّا أنّنا نلاحظ
الشدة في الخطاب ، والغاية في الدعاء بالهلاك ، ولا عجب في ذلك
فان فيها الدلالة على نبوة من جاء بها ، حيث انه - صلى الله عليه وسلم -
كان حليما لطيفا في الدعوة الى الله مع كل الناس والعم أولى الناس
بالحلم واللفظ ، ولكن لما كان أبو لهب عدوا لله تبرا منه الرسول
وهذه خصال الانبياء وقد كان له فيها اسوة ، فهذا نبي الله ابراهيم
عليه السلام كان يلاطف أباه فلما يئس منه وتبين له اصراره على الكفر
تبرا منه قال تعالى : (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إنّ
ابراهيم لأواه حليم) - التوبة / ١٤ -
والسورة كلها من آيات النبوة التي تضمنها القرآن الكريم حيث اخبر الله
فيها بجملة امور تدل على ذلك ،

(١) روح المعاني ج ١٨ / ١١١ ، ١١٥

(٢) صحيح البخاري : كتاب التفسير ، تفسير سورة تبت ج ١ / ٩٦

وفي كتاب الجنائز ، باب ذكر شرار الموتى ج ٢ / ١٠٨

واخرجه مسلم في كتاب الايمان ، باب بيان ان من مات على الكفر فهو في النار
(شرح النووي ج ٣ / ٨٣)

وقبل بيان دلالتها على ذلك أبين المعنى الإجمالي للسورة :
يقول تعالى : (تبت يدا أبي لهب وتب)

أي هلك وخابت وخسرت يداه ، وخصهما بالذكر لأن أكثر العمل يكون بهما ،
والجملة دعاء عليه بالخسران والهلاك ،

وقوله : " وتب " أي وهلك ، والمعنى أنه قد وقع ما دعا به عليه ،
نهي لإخبار بأن هذا الدعاء قد حصل (١)

ثم ذكر أن ما كان يعتز به في الدنيا من مال وجاه لم يُغن عنه من
الله شيئا في الدنيا ولا في الآخرة فقال :

" ما أغنى عنه ماله وما كسب " أي لم يُغده ماله حينئذ ، ولا عمله
الذي كان يأتيه في الدنيا من معاداته رسول الله صلى الله عليه وسلم -

طالبا للعلو والظهور ، وما حصل له من التباب في الدنيا مثل هلاكه
بمرض العدسة لم يدفعه عنه ما جمع من مال وما كسب من ربح وجاه

حيث نفر منه الناس حتى أولاده فاستأجروا له بعض السودان لينفونوه بعد
ثلاثة أيام من موته حيث أنتن (٢)

ثم أوعده الله سبحانه بالنار هو وامرأته فقال : (سيصلى نارا ذات لهب
وامرأته حمالة الحطب في جيدها جبل من مسد)

أي سيصلى أبو لهب وامرأته حمالة الحطب نارا ذات لهب ، كانت امرأته
تحمل الشوك والقذر فتطرحه بالليل على طريق النبي كما كانت تمشي

بالنميمة بين الناس

في جيدها جبل من مسد : أي في عنقها جبل من مسد وهو النار ،

والمعنى : أن تلك السلسلة قد فتلت فتلا محكما في عنقها تعذب بها في
النار وقد كان هذا في الدنيا أيضا ، حيث كانت تعير النبي صلى

الله عليه وسلم - بالفقر ، وهي تحتطب في جبل تجعله في عنقها فحقتها
الله به فاهلكها ، وهو في الآخرة جبل من نار (٣)

ونلاحظ من خلال ما تقدم من تفسير السورة كيف أنها جاءت بدلائل

واضحة على نبوة خاتم المرسلين ، وذلك بالإخبار عن هلاك أبي لهب في
الدنيا وخسارته ، وكذلك الإخبار عن تخلي أولاده عنه ، وعدم انتفاعه

بماله ، وأنه سيصلى نار جهنم ذات اللمب وهذا يعني الإخبار بأنه لن
يؤمن ويصير كافرا وتكون جهنم مصيره ، لذا فقد استدلل العلماء بهذه

السورة على أنها من دلائل النبوة ففتح القرآن ، حيث لم يستطع أبو لهب
أن يعلن إسلامه ولو كذبا ، وانقل الآن أقوال العلماء في ذلك :

(١) مفردات الراغب الاصفهاني : ٧٢ ، زاد المسير : ج٩ / ٢٥٩

تفسير القرآن العظيم ج٤ / ٩٠١ ، فتح القدير ج٥ / ٥١٢ ، روح المعاني ٣٠ / ٣٣٣

(٢) فتح القدير : ٥ / ٥١٢ ، روح المعاني / ٣ / ٣٢٦

(٣) تفسير القرآن العظيم ج٤ / ٩٠٢ ، زاد المسير ج٩ / ٢٦١ فتح القدير ج٥ / ٥١٢

قال الطوسي (١) : (وقوله (سيملى ناراً ذات لهب) في ذلك دلالة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه أخبر بأنه يموت على كفره ، وكان الأمر على ذلك) ١٠ هـ

وقال الماوردي (٢) : (وهذه الآية تشمل على أمرين : أحدهما وعيد من الله سبحانه حق عليه بكفره ، الثاني إخبار منه تعالى بأنه سيموت على كفره وكان خبره صدقاً ووعيداً حقاً) ١٠ هـ
وقال ابن الجوزي (٣) : (وفي هذا دلالة على صحة نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام ، لأنه أخبر بهذا المعنى : أنه وزوجته يموتان على الكفر فكان كذلك ، إذ لو قالاً بألسنتهما : قد أسلمنا ، لوجد الكفار متعلقاً في الرد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، غير أن الله علم أنهما لا يُسلمان باطناً ولا ظاهراً ، فأخبره بذلك) ١٠ هـ

وقال القرطبي (٤) : (والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروط ببقائهما على الكفر الى المواتة ، فلما ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما ففيه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم - فامرأته خنقها الله بحبلها وأبو لهب رماه الله بالعدسة بعد وقعة بدر بسبعة ليال) ١٠ هـ
وقال ابن كثير (٥) : (قال العلماء وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : (سيملى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد) فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يُقيِّض لهما أن يؤمنا ولا واحداً منهما لا باطناً ولا ظاهراً لا مُسراً ولا مُعلنين ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة) ١٠ هـ

وقال الخطيب الشربيني (٦) : (وقد تضمنت هذه الآيات الإخبار عن الغيب بثلاثة أوجه ، أحدها : الإخبار عن التباب والخسران وقد كان ذلك قائمياً : الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده وقد كان ذلك ثالثاً : الإخبار عنه بأنه من أهل النار وقد كان ذلك ، لأنه مات على الكفر وامرأته ، ففي ذلك معجزة للنبي - صلى الله عليه وسلم -) ١٠ هـ

قلت : فثبت مما تقدم دلالة الآيات على ما ذكرته من كونها دلائل على نبوة خاتم المرسلين وأن ما جاء به من القرآن ما هو الا وحي يوحى ، حيث لا يمكن لمُدعي الرسالة أن يُغامر بإثبات دوام كفر رجل مشهور في قومه مثل أبي لهب لاحتمال أن يتظاهر بالإيمان ، فيُضعف

(١) تفسير التبيان ، ج ١٠ / ٤٢٧ ، توفي محمد بن الحسن الطوسي سنة : ٤٦٠ هـ وهو عالم شيعي مفسر ، تفقه في البداية للشافعي ، ترجمته في طبقات الشافعية ج ٤ / ١٢٦ ، طبقات المفسرين للسيوطي : ص ٨٠

(٢) في تفسيره : النكت والعيون ج ٤ / ٥٤١ (٣) زاد المسير ج ٩ / ٢٦٢ (٤) في تفسيره ج ٢٠ / ٢٣٧ ، (٥) في تفسيره ج ٤ / ٩٠٢ ، (٦) السراج المنير ٤ / ٥١٤

موقفه وتنهار مبادؤه ، ولكن هذا الجزم لا يصدر إلا
عن نبيٍّ مبعوث من رب العالمين ، كما أن شدة الوعيد في
الآية تتناول عمه الذي هو أحقُّ الناس بالملاطفة لو لم يكن عدواً
للّهِ ، فلما ثبتت عداوته للّهِ تبرأ منه وهذا هو سبيل الأنبياء
حيث لا تربطهم بالناس سوى رابطة العقيدة ، واللّهِ تعالى أعلم

الفصل الخامس :

أسباب وجود "موهم الاختلاف والتناقض في القرآن"

وموقف الباحث عند التعارض الظاهري في نصوص القرآن

بعد العرض السابق لدلالة سلامة القرآن من الاختلاف على نبوة خاتم المرسلين ، أشعر الآن في بيان الأسباب التي يُتوهم منها وجود اختلاف أو تناقض بين آيات القرآن العظيم ، وأُبيّن أنّ هذه الأسباب مرتبطة ببعضها بعلاقة قوية ، وأنّ الوهم ناتج عن عدم ادراك العلاقة بين هذه الأسباب أو لعدم ادراك شروط حصول التناقض، أو لعدم تدبر القرآن أو للجهل بمبادئ اللغة ، فيحسب الواهم وجود تعارض بين بعض النصوص المرتبطة ببعضها أو المفسرة لبعضها لعدم فهم المراد من الآيات ولقلة الاطلاع على الآثار ودراستها ، ولذلك ينبغي على كل احد أن يدرك أسباب حصول الإيهام ، وان يدرك شروط حصول التناقض حتى لا يقع في الوهم والجهل وتحميل كتاب الله ما هو منه بريء ، فالواجب على كل مسلم وكل عاقل أن يدرك أنّ كتاب الله مؤلف غير مختلف (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) تنزيل من حكيم حميد (- فُهِمَّت / ٤٢ -

فالقرآن هو كتاب الله الخالد المنزل لرحمة العالمين وإخراجهم من الظلمات الى النور ولسعادة الدارين ، كما أنزل لجمع الشمل وتوحيد القلوب والصفوف ، والنحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، قال تعالى : (فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والى الرسول ٠٠٠٠) النساء / ٥٩ واستطيع أن أجمل الأسباب التي هي محل توهم الاختلاف في القرآن بتسعة أسباب وهي كالتالي :

اولا : النسخ

ثانيا : العموم والخصوص

ثالثا : الاطلاق والتقييد

رابعا : البيان والاجمال

خامسا : اختلاف الحكم

سادسا : اختلاف الوقت

سابعا : اختلاف المحل

ثامنا : اختلاف الموضوع

تاسعا : تعارض العموميين

أولا : النسخ

وابداً ببيان أهمية هذا العلم :

إنَّ معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه من أهم علوم القرآن التي بدونها لا يستطيع أحد أن يُفسّر كلام الله تعالى ، وهذا الفن العظيم من تتمات الاجتهاد ، إذ الركن الأعظم في باب الاجتهاد معرفة النقل ، والنقل بقسميه الكتاب والسنة قد حصل فيه النسخ لحكمة أرادها الله سبحانه مما فيه مصلحة العباد ، حيث إنَّ المطحاة تصير في الناسخ بعدما زالت عن المنسوخ ، قال الله تعالى :

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) - البقرة / ١٠٦ -

وفي معرفة الناسخ والمنسوخ معرفة أول الامرين وآخرهما ، ففيه الاهتداء الى صحيح الأحكام خصوصاً إذا ما وجدت أدلة ظاهرها التعارض فبمعرفة سابقها من لاحقها يندفع التعارض ، ولهذا كان السلف الصالح يُعنون بهذه الناحية ويلفتون أنظار الناس اليها ،

أخرج الهمداني (١) في كتابه الاعتبار ، والنحاس (٢) في الناسخ والمنسوخ عن علي رضي الله عنه (أنه مر على قاص فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت)

يريد أنه عرض نفسه وعرض الناس للإهلاك ، فالذي يريد أن يتمدى لتفسير كتاب الله لا بد من أن يتقن ناسخ القرآن ومنسوخه ، إضافة الى بقیة الشروط المطلوبة فيه حتى لا يخطئ في فهم مراد الله وحكمه ، فالقرآن كالكلام الواحد آخذ برقاب بعضه يفسر بعضه بعضاً ،

أخرج الدارمي في سننه (٣) والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٤) عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : (إنما يغني الناس أحد ثلاثة ، رجل قد علم ناسخ القرآن من منسوخه ، وأمير لا يجد من ذلك بداً ، أو أحق مُتَكَلِّمٌ) وأخرج ابن جرير في تفسيره (٥) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خيراً كثيراً) - البقرة / ٢٢٩ -

قال : المعرفة بالقرآن ناسخه من منسوخه ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره وحرامه وحلاله وأمثاله)

(١) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار ص : ٦
(٢) ص : ٥ ، (٣) ج ١/ ٦٢ باب الغتيا وما فيه من الشدة
(٤) ص : ٤ ، (٥) تفسير الطبري ج ٥/ ٥٧٦ تحفید محمد شاکر

فالناسخ والمنسوخ ضرب من ضرب التدرج في نزول الوحي الذي يتدرج مع تدرج الأحداث والوقائع مراعيًا مصلحة العباد في الدارين ، فمعرفة ما صح من وجوهه تُعين على عدم الوقوع في الوهم بأن هناك تعارضًا بين بعض الآيات ، وتُظهرنا على جانب من حكمة الله في تربية الخلق وتوقفنا على مصدر القرآن الحقيقي وهو الله عز وجل لأنه (يحو ما يشاء ويُثبت وعنده أمُّ الكتاب) فهو يرفع حكمًا ويُثبت آخر من غير أن يكون لأحدهما من خلقه عمل في ذلك ولا شأن (١)

تعريف النسخ :

وانتقل الآن الى تعريف النسخ في اللغة والاصطلاح حتى يكون القارئ على علم بالمراد من هذا المصطلح ، ثم أشرح التعريف بإيجاز مستعينا بكلام أهل الأصول ،

النسخ في اللغة :

قال ابن منثور (٢) : (والنسخ إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه ، وفي التنزيل (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) ، ونسخ الآية بالآية إزالة مثل حكمها ، والشيء ينسخ الشيء نسخًا : أي يزيله ويكون مكانه والأشياء تناسخ : تداول فيكون بعضها مكان بعض كالبدل والمُلك ، والعرب تقول : نسخت الشمس النال وانتسخته : أزالته ، والمعنى : أذهبت النال وحلت محله ، ونسخت الريح آثار الديار : غيرتها وهناك معنى آخر للنسخ ذكره في نفس الموضع وهو النسخ بمعنى النقل ، قال : النسخ اكتتابك كتابًا عن كتاب حرفًا بحرف ، والأصل نسخة ، والمكتوب عنه نسخة لأنه قام مقامه ، والكاتب ناسخ ، ومُنسخ ، وفي التنزيل : (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) - الجاثية / ٢٩ -

أي نستنسخ ما تكتب الحفظة فيثبت عند الله (٣) اهـ

قلت : والذي يهمنا في البحث النسخ بالمعنى الأول وهو : معنى التغيير وإقامة الشيء مقام الآخر ، فهو عبارة عن التبديل كما قال تعالى : وإذا بدلنا آية مكان آية ٠٠٠٠ (- النحل / ١٠١ -

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٢ / ٢٨ ،
الاعتبار للهمداني ص : ٦ ، مناهل العرفان للزرقاني ج٢ / ٦٩ - ٧٠

(٢) لسان العرب ، مادة : نسخ ج٣ / ٢٢٤

النسخ اصطلاحاً :

هناك عدة تعريفات للأصوليين متقاربة المعنى وبعضها أدق من بعض ، واخترت منها ما تبين لي أنه أدقها وأصحها ، وهو :

"رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر عنه " (١)

شرح التعريف (٢) : إنَّ رفع الحكم الشرعي معناه قطاع تعلقه بأفعال المكلفين ، حيث إنَّ الحكم الشرعي هو : خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين إما على سبيل الطلب أو الكف أو التخيير ، وإما على سبيل كون الشيء سبباً - كأن يربط بين الوراثة ووفاة شخص ، فتكون وفاته سبباً لوراثة آخر - أو شرطاً - كاشتراط الوضوء للصلاة والشهادة للنكاح - أو مانعاً - كالقتل والردة المانعين للميراث - أو صحيحاً أو فاسداً - وهما ومما يردان علن الأحكام الشرعية فتتوقف الصلاة مثلاً بأنها صحيحة عند تحقق سببها واستيفاء شروطها وتكون غير صحيحة إذا لم تستوف ذلك (٣)

والدليل الشرعي يشمل الكتاب والسنة ،

والرفع يخرج منه ما ليس برفع كالتخصيص فإنه لا يرفع الحكم وإنما يقصره على بعض أفرادها (٤) ، ورفع الحكم الشرعي خرج به : رفع براءة الذمة لأنها ^{عقلية} لا شرعية ، مثل إيجاب الصلاة فإنه رافع لبراءة ذمة الإنسان منها قبل ورود الشرع بها ، ومع ذلك لا يقال له نسخ وإن رفع هذه البراءة ،

وقوله في التعريف : "بدليل شرعي" : خرج به رفع حكم شرعي بدليل عقلي ، وذلك كسقوط التكليف عن الإنسان بموته أو جنونه أو غفلته ، لأن الله تعالى إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب ،

وقوله : "متأخر عنه" : لأنه لو كان متصلاً به كان بياناً واتماماً للمعنى الكلام ، وتقديراً له بمدة وشرط ،

ومثاله قوله تعالى : (حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً) فلما جاء قوله تعالى : (الزانية والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ٠٠٠٠٠٠) الخور/٢ -

كان ذلك بياناً للسبيل الوارد في الآية الأخرى ، فقوله "أو يجعل الله لهن سبيلاً" هو بيان وتقدير للحكم بمدة معينة وشرط معين ، فلما جاءت

(١) وهو تعريف ابن الحاجب والبرزدوي صاحب كشف الاسرار ، وقد استعمله البرزدوي سائر التعريفات ونقدها ورجح ما اخترته انظر :

كشف الاسرار : ج ٣ / ١٥٥ - ١٥٦ ، حاشية التفتازاني على مختصر ابن الحاجب ١٨٥/٢

(٢) انظر في ذلك : المستمقى للقرطبي ١٠٧/١ ، العدد ٢٢٨/٣

كشف الاسرار ١٥٥/٣ ، الاحكام للامدي ٢٣٦/١ ، مناهل العرفان للزرقاني ٢٢/٢ - ٢٨

(٣) تراجع كتب الامول لمعرفة السبب والشرط والمانع وغيرها

(٤) سوف يأتي ان شاء الله بيان الفرق بين النسخ والتخصيص بعد مبحث العموم والخصوص

الاية الثانية لم تكن نسخا لهذا الحكم وإنما بيان لما أُحمِلَ فيه
وَوُثِّرَ من مُدة أو شرط (١)

ثبوت النسخ :

والنسخ إنما يثبت بما يلي : أولا : إذا كان هناك نص من الشارع
على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ ، ومثاله قوله تعالى :
(يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ، وإن يكن منكم عشرون
مالبرون يظلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة مابرة يظلبوا ألفا
من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم
أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة مابرة يظلبوا مائتين ، وإن يكن
منكم ألف يظلبوا ألفين بل إن الله والله مع السابرين) - الأنفال / ٦٥
فقوله تعالى : الآن خفف الله عنكم ... الاية مريح في بيان
النسخ ، فمقابلة الواحد للعشرة كانت غرضاً ثم خفف عنهم بما ذكر
الله من مقابلة الواحد للاثنتين (٢)

ثانياً : إذا دلّ على ذلك الاجماع ، والاجماع لا ينسخ ولا يُنسخ

به وإنما يدل على النسخ

ثالثاً : أن يكون هناك تعارض بين النسخين بحيث لا يُستأج العمل
بكليهما ، أمّا إذا استطعنا الجمع والتوفيق بين مدلولي النسخين والعمل
بهما معا فهو المتقدم والأولى لأن أعمال التلخيص أولى من أعمال أحدهما
والأصل في الأحكام بقاءها وعدم نسخها ، وإن لم يمكن الجمع ننظر
أيهما المتقدم وأيها المتأخر في الزمان فيكون المتأخر ناسخاً لحكم
المتقدم (٣)

أمور مهمة تتعلق بالنسخ ينبغي للباحث أن يدركها

اولها : أن النسخ هو الشارع كما يدل عليه قوله تعالى :
ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) - البقرة / ١٠٦
وقد يُطلق النسخ على دليله كذلك ، فيقال : آية المواريث نسخت
آية الوصية للوالدين والأقربين

ثانيها : أن النسخ لا يقع إلا في الأحكام الشرعية التي هي

ليست من الكليات ، قال الإمام الشاطبي رحمه الله (٤) :

(القواعد الكلية من الضرورات والحاجيات والتحسينات لم يقع فيها
نسخ ، وإنما وقع في أمور جزئية بدليل الاستقراء ، فإن كل ما
يعود بالحفظ على الأمور الخمسة ثابت) ١٠هـ

(١) انظر تفصيل الكلام على هذه المسألة : أصول الشرحي ج٢ / ٧١

شرح الكوكب المنير ج٢ / ٧١

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ج٢ / ٨٧٧ (٣) انظر الاتفاق للسيوطي ج٢ / ٢٤

(٤) الموافقات ج٣ / ٧٩

والأمور الخمسة التي قصدها الشاطبي رحمه الله هي الضروريات التي جاءت الشريعة بحفظها لسعادة البشر في الدارين ، وهي حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال ، فما يعود على هذه الأمور بالحفظ والعناية لا يُنسخ لأنها من مصالح العباد ، فموضوع النسخ هو ما كان من فروع العبادات والمعاملات ، أما غير هذه الفروع من أمهات العقائد والأخلاق وأصول العبادات والمعاملات ، ومدلولات الأخبار المحضة فلا نسخ فيها ولذلك فإن الأديان الإلهية متحدة في العقائد وأمهات الأخلاق وأصول العبادات والمعاملات ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصىنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ١٠٠٠٠) الآية - الشورى / ١٣ -

ثالثها : هناك كثير من النصوص ذكرت في الناسخ والمنسوخ وهي ليست كذلك ، وقد نبّه على ذلك بعض المحققين ومنهم الامام الزركشي في البرهان ^(١) حيث قال :

(ما أمر به لسبب ثم زال ذلك السبب كالأمر حين الضعف والقلّة بالصبر وبالمغفرة للذين لا يرجون أيام الله ونحوه من عدم ايجاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها ثم الامر بايجاب ذلك : ليس بنسخ ففي الحقيقة وإنما هو نسيء ^(٢) كما قال تعالى (ننسأها) ^(٣) فالمُنسأ هو الأمر بالقتال الى ان يقوى المسلمون ، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الادى ، وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الايات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف ^(٤) وليست كذلك بل هي من المنسأ ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلّه توجب ذلك الحكم ثم ينتقل بانتقال تلك العلة الى حكم آخر ، وليس بنسخ إنما النسخ الازالة حتى لا يجوز امتثاله ابداً ، ومن هذا قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم ١٠٠) الآية - المائدة / ١٠٠ -

(١) البرهان في علوم القرآن ج ٢ / ٤٢ - ٤٣

(٢) اي مؤخر ، انظر مجموع الفتاوى ج ١٧ / ١٨٨

(٣) تمام الآية : (ما ننسخ من آية أو ننسأها نأثر بخير منها أو مثلها) وهي قراءة ابي عمرو وابن كثير

النشر في القراءات العشر

لابن الجزري ج ٢ / ٤٠٠

(٤) وهي قوله تعالى : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ١٠٠) - التوبة / ٤

كان ذلك في ابتداء الامر ، فلما قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمقاتلة عليه ، ثم لو فرض وقوع الضعف كما أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - (بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ) ^(١) عاد الحكم ، وهو سبحانه حكيم أنزل على نبيه - صلى الله عليه وسلم - حين الضعف ما يليق بتلك الحال رأفة بمن تبعه ورحمة ، اذ لو وجب لأُورث مشقة وحرجا ، فلما أعز الله الاسلام وأظهره ونصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافيء تلك الحالة من مطالبة الكفار بالاسلام أو بأداء الجزية إن كانوا أهل كتاب ، أو الاسلام أو القتل إن لم يكونوا أهل كتاب ، ويعود هذان الحكمان - أي المسالمة عند الضعف والمسايفة عند القوة - يعود سببهما ، وليس حكم المسايفة ناسخا لحكم المسالمة بل كل منهما يجب امتثاله في وقته (٠) اهـ

قلت : تبين مما مر كيف أن هناك احكاما تُدرج في تشريعها مما يلائم المطلة في كل ظرف ، وسوف اشرح هذه الاحكام بالتفصيل كلاً في باب به بمشيئة الله تعالى

الامر الرابع : ما قاله الامام الشافعي رحمه الله من أن الكتاب لا ينسخ الا الكتاب ، حيث قال في رسالته ^(٢) :

(وانزل عليهم الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة ، وفرض فينسخ فرائض أثبتها ، وأخرى نسخها رحمة بخلقه بالتخفيف عنهم وبالتوسعة عليهم ، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه وأبان الله لهم أنه إنما نسخ من الكتاب بالكتاب ، وان السنة لا ناسخة للكتاب وانما هي تبع للكتاب بمثل ما نزل نصا ومفسرة معنى ما أنزل الله منه مجملا ... وفي قوله (ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي) بيان ما وصفت من أنه لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه كما كان المبتدئ لفرضه ، فهو المزيل المثبت لما شاء منه جل ثناؤه ، ولا يكون ذلك لأحد من خلقه ، وفي كتاب الله دلالة عليه قال الله :

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) - البقرة / ١٠٦ -

فأخبر أن نسخ القران وتأخير انزاله لا يكون إلا بقران مثله (٠) اهـ

(١) أخرجه الامام مسلم في صحيحه عن ابي هريرة ، كتاب الايمان ، باب بيان

ان الاسلام بدأ غريبا (شرح انووى ج ٢ / ١٧٥)

(٢) الرسالة ج ١ / ١٠٦ ، وهو قول الامام احمد ايضا ، وجمهور الاصوليين

على ذلك ، وخالف في ذلك قوم من الظاهرية والقاضي ابو يعلى ،

انظر : روضة الناظر / ٧٩ ، العدة : ٧٨٨ / ٣ ، ارشاد الفحول : ١٨٦ /

نهاية السؤل : ١٧٩ / ٢ ، شرح الكوكب المنير : ٥٢٩ / ٣

الفتاوى : ٢٠ / ٣٩٨

وقال الشاطبي^(١) رحمه الله : (الأحكام اذا ثبتت على المكلف فادعاء

النسخ فيها لا يكون الا بامر محقق ، لان ثبوتها على المكلف أولاً محقق فرفعها بعد العلم بثبوتها لا يكون إلا بمعلوم محقق ولذلك أجمع المحققون على أن خبر الواحد لا ينسخ القرآن ولا الخبر المتواتر لأنه رفع للمقطوع بالمظنون (١٠) اهـ

قلت : ومن أثبت نسخ الكتاب بالسنة من الأصوليين ليس له دليل نقلي يعتمد عليه (٢) ولا يصح الاستدلال بحديث : (لاوصية لوارث) الذي سيأتي بيانه - على أنه ناسخ لآية الوصية ، لأنه قد ثبت أن الناسخ هو آية الموارث ، والحديث يدل على ذلك ويبيّنه وسوف يأتي توضيح ذلك قريباً إن شاء الله تعالى

الأمر الخامس :-

لابد من الإشارة الى أن إطلاق لفظ النسخ عند السلف أعم منه عند الخلف ، فلا بُد من فهم ذلك عند دراسة موضوع النسخ ، ولئلا نخلط النسخ بغيره مثل التخصيص ونحوه

قال الشاطبي (٣) : (والذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين ، فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخاً وعلى تخصيص العموم نسخاً ، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخاً ، لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد ، وهو أن النسخ في الإصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف ، وإنما المراد ما جيء به آخراً ، وهذا المعنى جارٍ في تقييد المطلق فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيدته ، فلا إعمال له في إطلاقه بل المعمل هو المقيد وكذلك العام مع الخاص ، فلما كان كذلك استسهل إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني لرجوعها الى شيء واحد ، ومن أمثلة ذلك :

قال ابن عباس في قوله تعالى (قل الأنفال لله والرسول) - الانفال/١ منسوخ بقوله : (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة ٥٠)

الانفال / ٤٣

وانما ذلك بيان المبهم^(٤) في قوله : (لله والرسول) اهـ

(١) الموافقات ج ٢ / ٧٢

(٢) واحتجاج البعض بقوله تعالى (نأت بخير منها) وان المقصود بالخيرية ما حصل به خير للمكلف ، وهو السهولة فني التكليف او كثرة الاجر ، اجاب عنه العلماء ، راجع مجموع الفتاوى ج ١٧ / ٤٧ - ٤٨ ففيه تفصيل حول الموضوع ٣٩٨ / ٢٠

(٣) الموافقات ج ٢ / ٧٣

(٤) انظر احكام القرآن لابن العربي ج ٢ / ٨٣٤ حيث قال بعض العلماء إنه نسخ حقيقي

الأمر السادس :-

أَنَّ النسخ لا يلزم منه أَنَّ الله قد انكشف له ما لم يكن عالما به ،
فإنَّ الله تعالى يعلم أَنَّهُ يأمرهم بأمر مطلق ويُديم عليهم التكليف
الى وقت معلوم يقطع فيه التكليف بالنسخ ،
قال ابن قدامة (١) : (العقل لا يمنع أَنَّ يكون الشيء مطّحة
في زمان دون زمان ، ولا بُعد ان الله يعلم مطّحة عباده في أَنَّ
يأمرهم بأمر مطلق حتى يستعدوا له فيثابوا ، ويمتنعوا بسبب العزم
عليه من معاص وشهوات ثم يخففه الله عنهم .) اهـ
قلت : أي أَنَّ المطّحة تصير في الناسخ بعدما زالت عن المنسوخ
حيث إنَّ مصالح العباد تتجدد بتجدد الأزمان وتختلف باختلاف الاشخاص
والاحوال ، فالله تعالى يُغيّر ما شاء من شرائعه واحكامه على وفق
علمه وارادته وحكمته ، وعلمه سبحانه لا يتغير ولا يتبدل انما التغير
ففي المعلوم لا في العلم ، كما أَنَّ هناك أمرا مهما وهو ان النبي
صلى الله عليه وسلم - بعثه الله تعالى في قوم لم يكونوا اصحاب دين
ولم يتقيدوا قبله بقانون ولا نظام ، فلو خطبوا بالاحكام الشرعية دفعة
واحدة لما أطاقوها ، ولذلك اخذهم الله سبحانه بالتدرج ، فنزل على
الرسول من الاحكام ما يطيقون ، حتى اذا ذاقوا بشاشة الايمان وراضوا
انفسهم على شكائم خلقية فاضلة ، خطبوا بأحكام الشريعة الخالدة ،
وسعد هذا العرض الموجز لموضوع النسخ انتقل الى ضرب مثال
ليبين انه ليس هناك تعارض بين الناسخ والمنسوخ بمعنى انه لا يمكن
العمل بكليهما وان الناسخ يأتي متأخرا في الزمان لبيان انتهاء
العمل بالمنسوخ لانتهاء الحكمة والمطّحة التي اقتضت ذلك زمان تشريع
المنسوخ ، حيث إنَّ النسخ هو انتقالٌ إلى الأحسن والاصلح للمكلف

نسخ الوصية للوالدين والاقربين بآليات الميراث

المعروف أَنَّ الميراث في الجاهلية لم يكن يسير على نظام محكم
ثابت ، فقد كان اكبر الابناء يأخذ التركة ، وأحيانا يوصي بها لمن
يشاء ، والمرأة في كل الاحوال ليس لها نصيب ، فأوجب الله تعالى
اولا ان تكون الوصية في الوالدين والاقربين من غير تعيين ، حتى اذا
الغوا ذلك جاءت اية الميراث المحكمة فوزعت التركة بأحكام الفرائض
ذلك التوزيع العادل (١)

(١) روضة الناظر / ٦٩

(٢) راجع مناهل العرفان للشيخ الزرقاني : ج٢ / ٧٩ ، اصول الفقه

لاسي زهرة / ١٤٩

والآن الى ضرب المثال :

قال الله تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) - البقرة / ١٨٠ -
تفيد هذه الآية أَنَّ الوصية للوالدين والاقربين فرض وحق واجب

على من حضرهم الموت من المسلمين ،
وهذا في الظاهر يعارض ما تضمنته آيات الموارث التي اعطت كل ذي حق حقه ومنهم الوالدين قال تعالى :

(يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كان نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلهما النصف ، ولأبويه للكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأممه الثلث ، فإن كان له اخوة فلأمه السدس ، من بعد وصية يوصي بها أو دين ٠٠٠٠٠) الايات من ١٠ - ١٤ من سورة النساء

فقد يتوهم متوهم أَنَّ هناك تعارضا ، حيث أفادت الآية الاولى أَنَّ المأمور به هو الوصية للوالدين والاقربين عند حضور الموت وان هذه الوصية موكولة الى العباد بشرط ان يراعوا الحدود ويبينوا حق كل قريب بحسب قرابته ، واليه الإشارة بقوله تعالى : (بالمعروف) اي بالعدل (١) وإلاية الثانية أفادت أَنَّ الله قد قسّم الميراث وأعطى كل ذي حق حقه ، فكيف التوفيق بين مدلول هذه الايات وآية الوصية السابقة ؟
والجواب : ان آية الوصية منسوخة بآيات الميراث (٢) بمعنى أَنَّ الوصية قد رُفِعَ حكمها حيث تولى الله سبحانه بيان ذلك الحق على وجهه يُتَيَقَّنُ أَنَّهُ الصواب ، وَأَنَّ فيه الحكمة البالغة ، فتحول الامر عن جهة الإلزام الى الميراث فقال تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم ٠٠٠) الايات قال اللوسي (٣) : (أي الذي فوض اليكم تولى شأنه بنفسه اذا عجزتم عن مقاديره لجهلكم ، ولما بين بنفسه ذلك الحق انتهى حكم تلك الوصية لحصول المقصود ٠٠) اهـ

قال الامام الشافعي في الرسالة (٤) : (فانزل الله ميراث الوالدين ومن ورث بعدهما ومعهما من الاقربين وميراث الزوج من زوجته والزوجة من زوجها

(١) روح المعاني لللوسي ج٢ / ٥٤

(٢) وهذا ما اطبق عليه جماهير العلماء والمفسرين ، والقول ان الناسخ هو حديث (لاوصية لوارث) غير صحيح لما سيأتي

(٣) روح المعاني ج٢ / ٥٤

(٤) ج١ / ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٥

فكانت الآيتان محتملتين لأن تثبتا الوصية للوالدين والاقربين والوصية للزوج والميراث مع الومايا فيأخذون الميراث والومايا ، ومحتملة بأن تكون المواريث ناسخة للومايا ٠٠٠٠ الى أن قال ما خلاصته : وقد طلب العلماء ما يرجح أحد الاحتمالين فوجدوا في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) (١) والخبر متواتر فأفاد أن المواريث ناسخة للوصية للوالدين والاقربين والزوج والزوجة ، ثم قال ما نصه : (وكذلك قال أكثر أهل العلم إن الوصية للاقربين منسوخة زائل فرضها ، إذا كانوا وارثين فبالميراث وإن كانوا غير وارثين فليس بفرض أن يوصي لهم ، ومن أوصى له الميت قرابة وغيرهم جازت الوصية إذا لم يكن وارثا ... وأحب إلي لو أوصى لقرابته) وقد اكد المفسرون كلام الشافعي رحمه الله

قال اللوسي (٢) : (النسخ في الحقيقة باية المواريث والاحاديث مبينة لجهة نسخها) ١٠هـ

قلت : فالحديث قد بين لنا مراد الشارع وهو أن آيات المواريث ناسخة لاية الوصية ، فيجب العمل بذلك ، وأنه لا تجوز الوصية للوارث ، ويبقى غير الوارث خارج نطاق النسخ فتشعر الوصية له

قال ابن الجوزي (٣) : (والعلماء متفقون على نسخ الوصية للوالدين والاقربين الذين يرثون ، وهم مختلفون في الاقربين الذين لا يرثون هل تجب الوصية لهم ؟ على قولين أحدهما أنها لا تجب لاحد) ١٠هـ قلت : والجمهور على استحبابها لغير الوارث لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (لا وصية لوارث) حيث إن مفهومه مشروعية الوصية لغير الوارث خاصة اذا كان فقيرا (٤)

- (١) هذا الحديث نص على تواتره الامام الشافعي في الرسالة ج١ / ١٤٢ وكذلك جمع من الائمة (انظر : نظم المتنائر من الحديث المتواتر للكتاني / ١٠٨ والحديث مروي عن جمع من الصحابة ، فقد أخرجه ابو داود في كتاب الومايا ج٢ / ٢٩٠ ، رقم : ٢٨٧٠ والترمذي في كتاب الومايا ، باب ما جاء لا وصية لوارث ، وقال : حسن صحيح ج٤ / ٤٣٣ وابن ماجة كتاب الومايا ، باب لا وصية لوارث ج٢ / ٩٠٥ رقم : ٢٧١٣ وأخرجه الامام احمد في مسنده ٥ / ٢٦٧ ، أخرجه عن : أبي أمامة الباهلي ، وعمر بن خارجة ، وانس بن مالك رضي الله عنهم ، وقد توسع في تخريجه الشيخ الالباني في كتابه : (إرواء الغليل) واستوفى طرقه ونص على تواتره ج١٥ / ٩٥
- (٢) روح المعاني : ج٢ / ٥٤
- (٣) زاد المسير : ج١ / ١٨٢
- (٤) انظر احكام القرآن لابن العربي ج١ / ٧٢

على أن لا تزيد على الثلث لقول الرسول - على الله عليه وسلم -
لسعد بن أبي وقاص : (الثلث والثلث كثير) (١)

والملاحظ هنا أننا نفينا حصول الاختلاف والتعارض بين النصين وهما
آية الوصية وآيات المواريث ، ذلك باثبات أن هناك اختلافاً في زمان نزول
كل منهما وأن أحدهما ناسخ لحكم الآخر وإذا ثبت ذلك فليس هناك مجال
للتوهم بحصول اختلاف أو تناقض بين هذه النصوص وذلك لحصول انفكاك في
الجهة الزمانية ،

وهذا المثال يوضح ويعين على فهم بقية الأمثلة التي هي من
شاكلته والتي ستمر في أبوابها - إن شاء الله تعالى - ، والتي يكون سبب
الوهم فيها حصول النسخ الذي بينت أهميته وحكمته فيما مضى ...
والله ولي التوفيق

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ج٢ / ١٨٦ ، كتاب الوصايا ،

باب : الوصية بالثلث

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الوصية (شرح النووي ج١١ / ٨٢)
والإمام أحمد في مسنده ج١ / ١٧٢ وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص
وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما

السبب الثاني من أسباب إيهام الاختلاف

العموم والتخصيص :

العام في اللغة (١) : هو الشامل المستغرق ، يقال : مطر عام

وخصب عام ، أي شمل الامكنة كلها

وقد عرف العلماء العام بعدة تعريفات متقاربة المعنى ، وبعضها أدق من

بعض ، واخترت منها ما تبين لي أنه الأقرب إلى الدقة :

فالعام : (هو لفظ يستغرق جميع ما يطح له دفعة بحسب وضع واحد

بلا حصر) (٢)

شرح التعريف :-

يخرج من هذا التعريف ما لا يطح للشمول والاستغراق مثل اللفظ المطلق

فانه لا يدل على شيء من الأفراد فضلا عن استغراقها ، ويخرج ما لا

يستغرق دفعة مثل النكرة في سياق الاثبات - كرجل ورجلين ورجال -

لان " رجل " مثلا يطح لكل ذكر من بني آدم ، لكنه ليس بمستغرق دفعة

وقس عليه رجلين ورجال ، ولكن المستغرق دفعة مثل قولك : " الرجال "

فانه لفظ عام لا يشذ عنه رجل ،

واحترز بقولهم : " بحسب وضع واحد " من اللفظ المشترك كالعين

فانه يطلق على العين الباصرة ، والماء الجارية ، فلا يسمى عاما لانه

لم يوضع لهما وضع واحد ، بينما العام يدل على جميع ما يشتمل

عليه بوضع واحد وفي حال واحدة "

وخرج بقولهم : بلا حصر ، نحو لفظ عشرة فان العدد محصور باللفظ فلا

يكون من صيغ العموم ؛

واما الخاص فانه لا يدل على الشمول والاستغراق وانما يدل على فرد واحد

او افراد محصورين

وللعموم صيغ ذكرها العلماء (٣) :

١ - المعرف بأل ، مثل قوله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما

٠٠٠٠) الآية - المائدة / ٣٨ -

٢ - المعرف بالإضافة ، مثل قوله تعالى : (يوصيكم الله في اولادكم ٠٠٠)

الاية - النساء / ١١ -

٣ - الفاظ الشرط ، مثل قوله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه ٠٠٠)

الاية - البقرة / ١٨٥ -

(١) لسان العرب ج٢/ ٨٨٩ مادة عمم

(٢) روضة الناظر : ١٩٤ ، كشف الاسرار : ج١/ ٣٣ ، نهاية السؤل : ج٢/ ٥٦

المعتمد في اصول الفقه : ج١/ ٢٠٣ ، مذكرة اصول الفقه للشنقيطي : ٢٠٣

اصول الفقه لابن زهرة : ١٢٣ ، وقارن بتعريف ابن الجاب : حاشية التفتازاني

ج٢/ ١٠١ ، والامدي في الاحكام : ج٢/ ٥٤ ، والغزالي في المستقصى : ج١/ ٣١٩

(٣) المصادر السابقة

- ٤- الأسماء الموصولة ، مثل قوله تعالى : (والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجاً) الآية - البقرة / ١٨٥ -
- ٥- النكرة في سياق النفي ، أو النهي ، أو الشرط ،
مثال: النفي : (ولم تكن له حاجة) - الانعام / ١٠١ -
ومثال: النهي : (لا يسخر قومٌ من قومٍ) - الحجرات / ١١ -
ومثال: الشرط : (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) - الحجرات / ٦ -
- ٦- النكرة الموصوفة بوصف عام ، كقوله تعالى : (ولعبدٌ مؤمنٌ خير من مشرك ولو أعجبكم) - البقرة / ٢٢١ -
- ٧- ما سبق بكل أو جميع ونحو ذلك ، مثل قوله تعالى : (كلُّ نفسٍ ذائقة الموت) - آل عمران / ١٨٥ - (الله خالق كلِّ شيء) - الزمر / ٦٢ -

(١)

تعريف التخصيص وشرح التعريف :

من المعلوم أنَّ العام قسمان ، عام لا يذله التخصيص ، وعام دخله التخصيص وهو أن يقوم دليل على أنه قد تخصَّص بمخصَّص ، لذا لا بدُّ من تعريف التخصيص

وهو : (قصر العام على بعض أفرادهِ بإرادة الأولى بدليل)

فالمُخصَّص مُبيِّن لإرادة الخاص ، إذ هو على الحقيقة بيان خروج المصفة عن وضعها من العموم إلى الخاص ، أي بيان لإرادة الشارع لبعض أفراد العام ابتداءً ، وأن الأفراد التي لا تشملها الأحكام المقترنة بلفظ العام لم تدخل في ضمن العام بالنسبة لهذه الأحكام ،

فاللفظ الذي كان يتناول الجميع في نفسه قد اقتضت دلالته على البعض خاصة ، ولذا فقد عرف أبو الحسين البصري التخصيص بقوله (٢)

(إخراج بعض ما تناوله الخطاب)

ومعنى قولنا : إنَّ العموم مخصص : أنَّ المتكلم به استعمله في بعض ما تناوله

قال الآمدي (٣) : (هو صرف اللفظ عن جهة العموم إلى جهة الخاص ،

ولا معنى لتخصيص العموم سوى صرف اللفظ عن جهة العموم الذي هو حقيقة

فيه إلى جهة الخاص بطريق المجاز) اهـ

ما تقدم هو معنى التخصيص ، أمَّا كلمة خاص وخصوص فيفترق عما

تقدم ، لان معنى " خاص " أنه وُضع لشيء واحد ، نحر قولنا : البصرة

(١) الأحكام للآمدي ج١/ ١١٦ ، المعتمد لأبي الحسين البصري : ج١/ ٢٥٧

حاشية التفثازاني : ج٢/ ١٢٩ ، الاتقان للسيوطي ج٢/ ١٦ - ١٨

امول الفقه لأبي زهرة / ١٣٠ ، مذكرة الشنقيطي / ٢١٨

(٢) المعتمد في امول الفقه : ج١/ ٢٥٧ ، (٣) الأحكام : ج٢/ ١١٦

وزيد ، ونحوه فهو موضوع لعين واحدة أو افراد محصورين ، فهناك فرق بين قولنا مخصص وخاص ، فالمخصص هو العام بعد تخصيصه ، أي قصره على بعض أفرادها ، والخاص موضوع في الأصل لعين واحدة وشيء واحد والعام يُخصّص بما يتصل به وبما ينفصل عنه ، والذي يعنينا من ذلك هو العام الذي يُخصّص بالمتفصل إذ هو الذي يُتوهم تعارضه مع المُخصّص المتفصل ،

أما المُخصّص المتمصل فليس فيه إيهام ولا بأس بضرب أمثلة له :
المخصص المتمصل يكون بالشرط والغاية والاستثناء وبدل البعض من الكل :
فمثال الشرط : (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد)
النساء / ١١ -

ومثال الاستثناء : (والعصر إن الإنسان لثغى خس إلا الذين آمنوا) (العصر / ٢٠)
= المنة : (فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) (النساء / ٢٥)
= الغاية : (ولا تقربوهن حتى يطهرن ٠٠٠) - البقرة / ٢٢٢
= بدل البعض من الكل : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) - آل عمران / ٩٧ -

أما المُخصّص المتفصل فيكون بعدة أدلة (١) :

والذي يعنينا منها التخصيص بالنص وبالذات النص القراني ، إذ أن التخصيص يكون بكتاب أو سنة ، ومثال تخصيص الكتاب بالسنة :
قوله تعالى : (وأحل لكم ما وراء ذلكم) - النساء / ٢٤ -
خصّص بقوله - طي الله عليه وسلم - : (لا تُنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها) (٢)

وتخصيص الكتاب بالكتاب وهو موضوع البحث متفق عليه بين العلماء يقول الامدي (٣) : (وقد اتفق العلماء على جواز تخصيص الكتاب بالكتاب ودليله المنقول والمعقول : أمّا المنقول : فهو أن قوله تعالى : (وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن) - الطلاق / ٤ - ورد مُخَصِّماً لقوله تعالى : (والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة اشهر وعشرا) - البقرة / ٢٣٤

(١) منها دليل العقل ، والحس ، والاجماع ، والقياس ، والمفهوم ، والعرف المقارن للخطاب ، انظر لذلك عامة كتب الاصول ، باب العموم والتخصيص
(٢) أخرجه البخاري ، كتاب النكاح ج١ / ١٢٨ ، ومسلم : كتاب النكاح واللفظ له (شرح النووي / ج١ / ١٩١) ، واحمد ج٢ / ٤٦٢ ، ٥٣٣ واصحاب السنن عن ابي هريرة رضي الله عنه ،
(٣) الاحكام : ج٢ / ١٤٦ - ١٥٠

وقوله : (والمحضات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ٠٠) - المائدة/٥ -
 ورد مُخصّما لقوله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يُؤْمِنَ ٠٠) - البقرة/٢٢١ -
 وأما المعقول : فإنه إذا اجتمع نمان من الكتاب أحدهما عام والآخر
 خاص ، وتغذر الجمع بينهما حكيمهما فإنه إما أن يُعمل بالعام فيلزم منه
 إبطال الدليل الخاص مطلقا فيما خرج عنه ، فكان العمل بالخاص أولى ،
 ولأن الخاص أقوى في دلالة ، والتخصيص ليس فيه سوى دلالة على عدم
 إرادة المتكلم لكل الصور المفروضة بلفظ عام ، وهو منع لإثبات الحكم لبعض
 أفراد ، والعمل بالخاص لا يلزم منه إبطال العام مطلقا لامكان العمل به
 فيما خرج عنه فكان العمل بالخاص أولى ٠) اهـ

أقسام العام في القرآن

قال العلماء : إنَّ العام على ثلاثة أقسام :
 الأول : " عام باق على عمومه " أي لم يأت دليل يخصه مطلقا ،
 ومثاله : قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ٠٠٠) الآية - النساء/٢٣ -
 وقوله : (- والله بكل شيء عليم) - البقرة/٢٨٢ -

الثاني : العام المراد به الخصوص ، وهو الذي لم يُرد شموله لجميع
 الأفراد لا من جهة اللفظ ولا من جهة الحكم ، بل هو ذو أفراد استعمل
 في فرد منها ، وهو مجاز لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلي وقرينته عقلية
 لا تنفك عنه ، ويصح أن يراد به واحد ، ومن أمثلته قوله تعالى :
 (الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ٠٠٠) - آل عمران/١٧٣ -
 والقائل واحد وهو أعرابي من خزاعة ، أو مجموعة من الأعراب (١) وعلى
 كل حال فهم ليسوا كل الناس ، ومنها قوله تعالى :
 (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ٠٠) - النساء/ ٥٤ -
 أي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لجمعه ما في الناس من خصال الخير
 ولما آتاه الله من النبوة (٢)

الثالث : العام المخصوص ، وهو الذي أُريد شموله وعمومه
 لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لها لا من جهة الحكم ،
 ويكون المخصص منفصلا ومتصلا وقد تقدم بين ذلك (٣)

(١) أسباب النزول للواحي : ١٢٦ ، لباب النقول للسيوطي : ٦١

وانظر الرسالة للامام الشافعي : ٥٨

(٢) تفسير الماوردي (النكت والعيون) ج ١ / ٣٩٨

(٣) الرسالة : ٥٣ ، الاتقان : ج ٢ / ١٦

ملاقة العام بالخاص

عند الجمهور الخاص يُخصّص العام سواء علم أن الخاص متأخر عن العام أم لم يعلم ، أم علم تأخر العام (١)

فإذا كان هناك نص عام وخاص وهما كالمتناهين فالواجب أن يكون الخاص مخصّصاً للعام ، لأنّ إجراء العام على عمومه يُلغي الخاص ، بينما استعمال الخاص وإخراج ما تناوله من العام لا يلغي واحداً منهما فكان هذا أولى (٢)

قال الآمدي (٣) (٤) : العمل بالخاص لا يلزم منه إبطال العام مطلقاً لما كان العمل به فيما وراء الخاص ، فكان العمل بالخاص أولى لأنه بيان للعام والبيان أولى من الإبطال . اهـ

ولتوضيح ذلك نستعرض مثالا من القرآن للعام الذي خصّص بنص منفصل لبيان أهمية هذا الباب ، وأنّ آيات القرآن مكملّة لبعضها البعض ، منسجمة في معانيها ليس فيها اختلاف أو تناقض يقول الله تعالى بشأن عدة المطلقات (٥) :

(والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) - البقرة / ٢٢٨ -

أي على المطلقة عدة لها أحكامها ومقدار هذه العدة ثلاثة قروء ، والقراء : هو فترة الطهر أو الحيض على خلاف بين العلماء ، نقوله : " والمطلقات " عام في جميع المطلقات ، ويشمل : غير الحامل ، والحامل والمدخول بها ، وغير المدخول بها ، والتي تحيض ، والصغيرة ، والكبيرة التي يئست من الحيض ، أي عموم النساء ، ولكن جاءت آيات أخرى خصّت بعض النساء بأحكام تختلف عن هذا الحكم الذي هو وجوب الاعتداد لثلاثة قروء ،

فقد خصّت الحامل بأن عدتها تنتهي بوضع حملها لقوله تعالى :

(وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) - الطلاق / ٤ -

وخصّت غير المدخول بها بأن ليس عليها عدة ، لقوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن

تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فتمتعوهن وسرحوهن سرا

جيباً) - الأحزاب / ٤٩ -

(١) شرح الاسنوي ج٢/ ١١٥ ، حاشية التفثازاني ج٢/ ١٤٧ ، المعتمد ج١/ ٢٧٦

الاحكام للامدي ج١/ ٣٠٢ - ٣٠٤ ، شرح الكوكب المنير ج٢/ ٣٨٢

(٢) المراجع السابقة (٣) الاحكام ج٢/ ٣٠٤

(٤) عند الحنفية وامام الحرمين الجويني : ان العام المتأخر ينسخ الخاص المتقدم

ويخص بالخاص المقارن له ، والمتأخر ، وإذا لم يعرف التاريخ توقفوا ، إذ

ليس الحكم باحد الامرين اولى من الاخر ، قلت : والراجع هو طريقة الجمهور لظهور جتيم

والله اعلم ، انظر : اصول السرخسي ج١/ ١٢٣ ، حاشية التفثازاني ج١/ ١٤٧

(٥) العدة : هي الفترة التي تقضيها المرأة بعد طلاقها او وفاة زوجها =

وُخِّصَتِ الصَّغِيرَةُ وَالْأَيُّمَةُ بِالْأَشْهَرِ دُونَ الْقُرُوءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى :

(وَاللَّاتِي يَثْنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّاتِي لَمْ يَحْضَنْ (٠٠٠٠٠) - الطَّلَاق / ٤ -

فَمِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْآيَاتِ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

(وَالْمَطْلُوقَاتُ يُتْرِكْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ (٠٠٠٠٠) الْآيَةُ

مِنَ الْعَامِ الْمَخْصُوصِ بِمَخْصَصٍ مُنْفَعِلٍ ، حَيْثُ تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يُرَدِّ بِهِ عَمُومِ

الْمَطْلُوقَاتِ ، بَلْ، ذَوَاتُ الْحَيْضِ مَتْنُهُنَّ الْمَدْخُولُ بِهِنَّ وَاللَّوَاتِي لِسُنِّ حَوَامِلِ (١)

فَعِنْدَ جَمْعِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالتَّمَعُّنِ فِيهَا وَالتَّدْبِيرِ فِي أَحْكَامِهَا نَجِدُهَا تَعْطِينَا

أَحْكَامًا تَفْصِيلِيَّةً مُتَنَوِّعَةً لِلْمَطْلُوقَاتِ حَيْثُ إِنْ أَحْوَالُهُنَّ تَخْتَلِفُ ، لَذَا اخْتَلَفَتْ

الْأَحْكَامُ بِحَقِّقِهَا ، فَالَّذِي يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلَّ مِنْهَا عَلَى حِدَةٍ يَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ

اِخْتِلَافًا فِي بَيَانِ عِدَّةِ الْمَطْلُوقَةِ ، وَلَكِنْ عِنْدَ دِرَاسَتِهَا وَمَعْرِفَةِ سَبَبِ نَزُولِهَا

وَتَدْبِيرِ مَعَانِيهَا وَفَهْمِ اِخْتِلَافِ أَحْوَالِ النِّسَاءِ وَمُرَاعَاةِ الشَّارِعِ لِهَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ

نَجِدُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ وَالْمُلَاطَعَةِ لَيْسَ فِيهَا اِخْتِلَافٌ أَوْ تَعَارُضٌ

بَلْ، هِيَ مُتِمَّةٌ لِبَعْضِهَا مُنْسَجِمَةٌ كُلُّهَا اِلْتِسَامٌ

وَهَذَا الْمَثَلُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَوْضَحَ لَنَا عِلَاقَةَ الْعَامِ بِالْخَاصِّ وَلِذَلِكَ نَظَائِرُ

كَثِيرَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَقَعَ فِيهَا تَوْهَمُ الْاِخْتِلَافِ وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ الْغَفْلَةِ

عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ ، وَلَعَدِمَ تَدْبِيرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، فَالْقُرْآنُ وَحْدَهُ مُتَكَامِلَةٌ

يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا كَمَا قَالَ الْبَارِي :

(كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) - هُودُ / ١ -

الفرق بين النسخ والتخصيص

بَعْدَ أَنْ تَطَرَّقْنَا لِكُلِّهِ مِنَ النِّسْخِ وَالتَّخْصِيسِ كَسَبَبِينَ مِنْ أَسْبَابِ إِيْهَامِ الْاِخْتِلَافِ

لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا ، حَيْثُ لَا غِنَى لِمَنْ يَرِيدُ مَعْرِفَةَ النِّسْخِ

وَالْتَّخْصِيسِ عَنْ مَعْرِفَةِ مُمِيزَاتِ كُلِّ مِنْهُمَا لِحُصُولِ اللَّبْسِ فِيهِمَا وَاشْتِرَاكُهُمَا فِي

فِي الْأَخْصِ بَيْنَهُمَا ، إِذَا التَّخْصِيسُ هُوَ قَصْرُ الْحُكْمِ عَلَى بَعْضِ أَفْرَادِ الْعَامِ

دُونَ الْبَعْضِ الْآخَرِ ، فَفِيهِ مَا يُشَبِّهُ النِّسْخَ مِنْ حَيْثُ رَفْعُ الْحُكْمِ عَنْ بَعْضِ

أَفْرَادِ الْعَامِ إِلَّا أَنَّ النِّسْخَ هُوَ رَفْعُ الْحُكْمِ السَّابِقِ بِالْكُلِّيَّةِ ، سَوَاءً كَانَ مَوْضُوعُهُ

عَامًا أَوْ خَاصًّا ، أَمَّا التَّخْصِيسُ فَلَا يُلْزَمُ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ لِأَفْرَادِ الْعَامِ

الْمَرْفُوعِ عَنْهَا الْحُكْمُ حُكْمٌ قَدْ رُفِعَ بِالتَّخْصِيسِ بَلْ، لَا يَكَادُ يَوْجَدُ ذَلِكَ وَلَوْ

وُجِدَ لَكَانَ تَسْمِيَتُهُ بِالنِّسْخِ أَوْجِبَ ،

وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ فِيهَا أَوْ تَخْطُبَ اسْتِبْرَاءً لِلرَّحْمِ ، وَلِلْعِدَّةِ

بِالنِّسْبَةِ لِلْمَطْلُوقَةِ أَحْكَامُ الزَّوْجِيَّةِ ، فَلِلرَّجُلِ أَنْ يَرَاغِبَهَا خِلَافًا إِنْ لَمْ

يَكُنِ الطَّلَاقُ بَائِنًا وَكَذَلِكَ يَتَوَارَثَانِ إِنْ مَاتَ أَحَدُهُمَا خِلَالِ الْعِدَّةِ

(١) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ج ٤ / ٥٩٥ الطَّلَاق / ٤ ، تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ج ٦ / ٨٥ - ٨٦

تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ ج ٣ / ١١٢ ، ج ١٨ / ١٦٥ ، رُوحُ الْمَهَانِيِّ ج ٢ / ١٣٧ ، ج ٢٨ / ١٣٦

والتمييز بين النسخ والتخصيص من وجوه ستة :

أحدها : أنَّ النسخ لا يكون إلَّا متأخرا عن المنسوخ ، والتخصيص
يصح اتصاله بالمخصوص ويصح تراخيه عنه وتقدمه عليه ؛

الثاني : أنَّ الدليل في النسخ لا يكون إلَّا خطابا ، والتخصيص قد
يقع بغير خطاب ، كالتخصيص بالقياس والعقل والعرف المقارن للخطاب ؛

الثالث : أنَّ نسخ الشيء لا يجوز إلَّا بما هو مثله في القوة أو
بما هو أقوى منه في الرتبة ، والتخصيص جائز بما هو دون المخصوص
في الرتبة ، لأنَّ النسخ رفع والتخصيص بيان ،

فقوله تعالى : (وأحلَّ لكم ما وراء ذلكم ۖ النساء / ٢٤ -
نص عام متواتر لأنه قرآن ، وقد خصَّص بخبر الآحاد : (لا تُنكح
المرأة على عمتها ۖ) (١) الحديث ؛

الرابع : أنَّ التخصيص لا يدخل في الأمر بمأثور واحد ،
والنسخ جائز في مثله ، كسخ استقبال بيت المقدس باستقبال بيت الله
الحرام ، فالمنسوخ شيء واحد ، بخلاف التخصيص فلا يدخل إلا في
عام له أفراد متعددة يخرج بعضها بالمخصص ويبقى بعضها الآخر ؛

الخامس : أنَّ التخصيص يُخرج من الخطاب ما لم يُرد به ،
والنسخ رافع ما كان قبل النسخ مقصودا دخوله في معنى اللفظ ، وفي
الحكم ، أي رافع لما أريد اثبات حكمه ؛

السادس : النسخ لا يدخل الأخبار ، وإنَّما هو في الإنشاء فقط ،
بخلاف التخصيص ، فإنه يكون في الإنشاء والخبر (٢)

(١) سبق تخريجه قريبا .

(٢) الاعتبار في النسخ والمنسوخ من الآثار ، للهمداني : ٢٣ - ٢٤
التمهيد في أصول الفقه ، لأبي الخطاب الحنبلي : ٧١ ، ١٠٣
روضة الناظر : ٦٨ ، مذكرة الشنقيطي : ٦٩

السبب الثالث من أسباب إيهام الاختلاف :-

الإطلاق والتقييد

يُعتبر الإطلاق والتقييد من أسباب الإيهام لمن لا يعرفه ، لذا لا بُدَّ من بيان هذا السبب مع الشرح وضرب المثال ، وأبدأ بالتعريف وشرحه :

(١) فالمطلق : (هو المتناول لواحد لا بعينه باعتبار حقيقة شاملة لجنسه) وهي النكرة في سياق الأمر أو ما يؤول اليه ،

ومثال الأول : قوله تعالى : (فتحرير رقبة) - المجادلة / ٣ -

ومثال الثاني : قوله صلى الله عليه وسلم : (لا نكاح إلا بولي) (٢) فالحديث خبر لفظاً إنشاء معنى ،

والمطلق يدل على الحقيقة بلا قيد (٣) ، فقوله : " فتحرير رقبة " يدل على حقيقة الرقبة ، ولكنه لم يُعَيَّن وصفها ولم يُقَيِّدها بقيد كقولك : رقبة مؤمنة ، " كما أن المطلق يدل على شائع في جنسه " (٤)

ومعنى ذلك كونه حصة محتملة لحصص كثيرة مما يندرج تحت أمر مشترك من غير تعيين ، فتخرج المعارف كلها لما فيها من التعيين ،

شخصاً : نحو زيد ، وهذا ، أو حقيقة نحو : الرجل ، أو استغراقاً نحو : الرجال ، وكذلك كل عام ولو نكرة نحو : كل رجل ، ولا رجل لأنه بما انضم اليه من كل والنفي صار للاستغراق ، والملاحظ أن المطلق : لفظ يتناول الذات دون الصفات

أما المقيّد فهو (٥) : (المتناول لمعيّن أو لغير معين موصوف بأمر زائد على الحقيقة الشاملة لجنسه)

كقوله تعالى : (فتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) - النساء / ٩٢ -

قيّد الرقبة بالإيمان والصوم بالتتابع ، فالمقيّد يدل على مدلول المطلق بصفة زائدة ، فهو يُخرج اللفظ من الشيوع بوجه من الوجوه

(١) روضة الناظر : ٢٣٠ ، شرح الكوكب المنير : ج ٣ / ٢٩٢ ، الاحكام : ج ٣ / ٣

ارشاد الفحول للشوكاني : ١٦٤

(٢) أخرجه : أبو داود في سننه ، كتاب النكاح ، باب في الولي ج ٢ / ٥٦٨ وابن ماجه ، باب لا نكاح الا بولي ج ١ / ٦٠٥ ، والترمذي : كتاب النكاح

باب ما جاء لا نكاح إلا بولي ، ج ٣ / ٤٠٧ ، واحمد في مسنده ج ٤ / ٤١٣ ، ج ١ / ٢٥٠

من رواية أبي موسى الأشعري وابن عباس وجابر رضي الله عنهم ، وهو حديث صحيح وفي بعض الروايات : (وشاهدين) وهي زيادة موقوفة على ابن عباس بسند

صحيح ، انظر : ارواء الغليل للشيخ الالباني ج ٦ / ٢٣٥

(٣) الاتقان : ج ٢ / ٣١ ، (٤) حاشية التفتازاني : ج ٢ / ١٥٥

(٥) انظر تعريفات المقيّد في : ارشاد الفحول : ١٦٤ ، الاحكام للامدي : ج ٣ / ٤ حاشية التفتازاني : ج ٢ / ١٥٥ ، روضة الناظر : ٢٢٩ ، شرح الكوكب المنير : ج ٣ / ٣٩٣

فقله : " رقبة مؤمنة " أخرج الرقبة عن الشيوع بوصفها بالإيمان ، حيث كانت الرقبة شائعة بين المؤمنين وغيرهم ، فأزيل ذلك الشيع عنها وقيدت بالمؤمنة ، فالتقيد يرجع إلى نوع من التخصيص يسمى تقيدا اصطلاحا فحكمه حكم التخصيص ، فكما يُقدم الخاص بيانا للعالم فكذلك يقدم المُقيد بيانا للمطلق ، فالمطلق مع المُقيد كالعالم مع الخاص ؛

قال العلماء : ومتى وُجد الدليل على تقيد المطلق صير إليه وإلا فلا بل يبقى المطلق على إطلاقه والمقيد على تقيده ، يقول الزركشي^(١) : (والضابط أن الله تعالى إذا حكم في شيء بصفة أو شرط ، ثم ورد حكم آخر مطلقا نظر ، فإن لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد وجب تقيده به ، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر) اهـ

فالأول مثل اشتراط العدالة في الشهود على الرجعة والفراق والوصية في قوله تعالى : (وأشهدوا ذوي عدل منكم) - الطلاق / ٢ -

وقد أطلق الشهادة في البيوع فقال : (وأشهدوا إذا تباعتم) - البقرة / ٢٨٢ وقال : (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) - النساء / ٦ - والعدالة شرط في الجميع ، قال السيوطي^(٢) : (هذا مذهب الشافعي والجمهور)^(٣) اهـ

والثاني : مثل تقيد الصوم بالتتابع في كفارة الظهار والقتل : (فصيام شهرين متتابعين) - النساء / ٩٢ -

وتقيده بالتفريق في صوم التمتع : (فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتن) - البقرة / ١٩٦

وأطلق كفارة اليمين وقضاء رمضان ، فيبقى على إطلاقه من جوازه مفرقا ومتابعا فلا يمكن حمله عليهما لتنافي القيد^(٤)

وللمطلق مع المقيد ثلاثة حالات ذكرها علماء الأصول ، واتفق العلماء

على أنه إذا اختلف الحكم والسبب فلا يُحمل المطلق على المقيد ، وفيما عدا ذلك فالجمهور على حمل المطلق على المقيد في حالة اتحاد الحكم ولو اختلف السبب ، أمّا إذا اتحد السبب واختلف الحكم ففيه خلاف بين العلماء^(٥) قال الشيخ محمد أبو زهرة^(٦) رحمه الله :

(١) البرهان في علوم القرآن : ج ٢ / ١٥ ، وانظر : المستصفى للغزالي : ٣٧٠

(٢) الاتقان : ج ٢ / ٣١

(٣) معلوم أن الحنفية خالفوا الجمهور في ذلك فقالوا : لا يُحمل المطلق على المقيد ، وحجتهم أن الزيادة على النص نسخ ، انظر : كشف الاسرار ج ٢ / ٢٨٩ ، حاشية التفਤازاني : ج ٢ / ١٥٧

(٤) البرهان للزركشي ج ٢ / ١٥

(٥) تقدم خلافاً أبي حنيفة رحمه الله ، ولمعرفة حالات المطلق مع المقيد راجع :

حاشية التفتازاني ج ٢ / ١٥٦ ، نهاية السؤل : ج ٢ / ١٤٠ ، روضة الناظر : ٢٣٠

شرح الكوكب المنير ج ٣ / ٣٩٠ ، (٦) في كتابه : اصول الفقه ص : ١٣٧

؛ (وحجة الجمهور في اعتبارهم المطلق محمولا على المقيد اذا اتحد الحكم ولو اختلف السبب هو وحدة القران الكريم ، ووحدة منزله وإعجازه في إيجازه فإذا وردت كلمة في القران مبينة حكما من أحكامه فلا بُدَّ أن يكون الحكم واحدا في كل موضع تُذكر فيه الكلمة ، فإذا وردت كلمة الرقبة على أن تحريرها مطلوب فلا بُدَّ أن تكون تلك الرقبة متحدة الجنس والوصف في كل نصوص القران ، فإذا كانت مقيدة في أحد الموضوعات فلا بد ان تكون مقيدة في غيره لوحدة العقاب والوحدة مُنزل الكتاب ، ولتأخي الأحكام ولتجانسها .^{أهـ} قلت : وبعد هذا الموجز في بيان المطلق والمقيد ، سأطبق بمثال يوضح المراد ممّا مرّ ، إن قد يقع الإيهام بسبب عدم العلم بالمطلق والمقيد :

يقول الله تعالى : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) - المائدة/٥ أطلق في الآية الإحباط على مَنْ يكفر بالإيمان ، أي الذي يرتد بعد أن كان مؤمنا ، فظاهر ذلك أنه قد خسر إيمانه وأعماله الماضيين ، سواء رجع الى الإيمان أو لم يرجع ؛ ولكن هناك آية أخرى قيدت هذا الإحباط بمن يرتد ويموت على الكفر، وهي قوله تعالى : (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) - البقرة/٢١٧ - فقيّد حبوط الأعمال بالموت على الردة وليس بمطلق الردة ، إذ أن المرتد قد يتوب ويرجع الى دينه ، فوجب ردّ الآية المطلقة الى الآية المقيدة ، وألا يُقضى بإحباط الاعمال إلا بشرط الموافاة على الكفر ، وهذا مذهب الشافعي رحمه الله ومن وافقه حيث استدل بالآية على أن الردة لا تُحبط الاعمال حتى يموت عليها ، وذلك بناء على أنها لو حبطت مطلقا لما كان للتقييد بقوله سبحانه : (فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ ...) فائدة (١)

(١)

أحكام القران لابن العربي ج١/١٤٧ ، تفسير الرازي ج١/٣٦ ، روح المعاني ١١٠/٢ وراجع أحكام المرتد في المغني لابن قدامة : ج٨/١٢٦ هذا وقد ذهب الحنفية والمالكية الى ان الردة تحبط الاعمال مطلقا ، لقوله تعالى : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) ، قال ابن العربي : وقال علمائنا : انما ذكر الموافاة هنا لانه علق عليها الخلود في النار جزاء له فمن وافى كافرا ظله الله في النار بهذه الآية ، ومن اشرك حبط عمله بالآية الاخرى : (لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبِطَ عَمَلُكَ) فهما ايتان مفيدتان لمعنيين مختلفين وحكمين متغايرين ، وما خوطب به النبي - صلى الله عليه وسلم - فهو لامته حتى يثبت اختصاصه به (٠) اهـ - أحكام القران ج١/١٤٨ - قلت : والراجع ما ذهب اليه الشافعي ومن وافقه حملا للمطلق على المقيد ولما يأتي من أدلة .

قلت : ومما يؤيد أن الذي يُحبط الاعمال هو الموت على الكفر ، لا مطلق الردة أمور عدة منها : قوله تعالى :

(ولقد أُوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين .) - الزمر / ٦٥ -

فقد بيّن الله سبحانه في هذه الآية أن من يحبط عمله يكون من الخاسرين مطلقا ، وهذا لا ينطبق على من أشرك بالله مرتدا ثم تاب توبة نصوحا ، لأنه والحال هذه يموت على الإيمان ، فلا يكون من الخاسرين ، فدل ذلك على أن الذي يحبط عمله هو من يموت كافرا ؛ ومنها : قوله تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . . .) - الكهف // ١٠٥ - ...

أخبر الله في هذه الآيات أن من تحبط أعماله لا يكون له يوم القيامة وزنا وأن جزاءه جهنم خالدا فيها ، وهذا الحكم لا ينطبق على من يرتد ثم يرجع إلى إيمانه ، فدل ذلك أن جوط العمل مقرون بدخول جهنم والخسارة الأبدية ، وهذا ينطبق على حال من يموت كافرا ، نسأل الله العافية كما أن في اعتقاد عدم جوط عمل المرتد دعوة له للرجوع إلى دينه طمعا في الثواب الذي حصله ؛

ومما يُشير إلى ذلك قوله تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) - العنكبوت / ٧ - فقد يكون ما عمله قبل الردة من الصالحات أحسن مما بعدها ، كأن يكون صاحب النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم ارتد ثم رجع إلى الإيمان

والمحبة فهذا على الصحيح يسمى صاحبيا (سواء رجع إلى الإيمان قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - أو بعدها كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (١) رحمه الله تعالى ، بناء على أن الردة لا تحبط العمل ؛

(ومعلوم أن الذين ارتدوا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كالحارث بن قيس ، وطائفة معه أنزل الله فيهم : (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق ووجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين) - آل عمران / ٨٦ -

وكعبد الله بن أبي سرح والذين خرجوا مع الكفار يوم بدر وأنزل فيهم :

(١) انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ / ١٠٠ - ١٢ حيث قال :

(ويدخل فيه - أي في الصحابي - من ارتد وعاد إلى الإسلام قبل أن يموت سواء اجتمع به - صلى الله عليه وسلم - مرة أخرى أو لا ، وهذا هو الصحيح المعتمد ثم ذكر أن الأشعث بن قيس أطبق أهل الحديث على عده من الصحابة وهو ممن ارتد ثم عاد إلى الإسلام في خلافة أبي بكر

؛ (ثُمَّ إِنْ رِبَكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا
إِنْ رِبَكَ مِنْ بَعْدِهَا غُفُورٌ رَحِيمٌ) - النحل / ١١٠ -
فهؤلاء عادوا الى الاسلام ، وعبد الله بن أبي سرح عاد الى الاسلام عام
الفتح ، وبايعه النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يأمر أحدا منهم
بإعادة ما ترك حال الكفر في الردة ، كما لم يكن يأمر سائر
الكفار إذا أسلموا ، وقد ارتد في حياته خلق كثير اتبعوا الأسود
العنسي الذي تنبأ بصنعاء اليمن ثم قتله ، وعاد أولئك الى الاسلام
ولم يؤمروا بالإعادة (١) مما يدل على عدم حبوط أعمالهم ولو كانت
مُحِبِّطَةً لَأُمُّرُوا بِإِعَادَةِ مَا عَمِلُوهُ قَبْلَ الرَّدَةِ كَالْحَجِّ وَغَيْرِهِ ، وكل ذلك
يدل على أَنَّ حبوط العمل مقيّد بالوفاة على الكفر ؛

فالذي يظهر ممّا تقدم يوضح ما سبق بيانه من تكامل آيات
القرآن ووحدتها ، فعلاقة الإطلاق والتقييد ليست من الاختلاف في
شيء ، وإنما هي أسلوب قرآني حيث إنَّ القرآن قد نزل بلغّة
العرب (ومن مذهبهم استحباب الإطلاق اكتفاء بالمقيّد وطلباً للإيجاز
والإختصار) (٢)

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ج ٢٢ / ٤٥ - ٤٦

(٢) البرهان في علوم القرآن للامام الزركشي : ج ٢ / ١٦

السبب الرابع من أسباب إيهام الاختلاف :

البيان والإجمال

وإبدأ بذكر المجلد تعريفًا وشرحًا ، فقد عرّف الأصوليين المجلد بأنه :
(أي لفظ أو فعل تردد بين محتملين على السواء ، أي لم تتضح دلالة فلم يُفهم منه عند الإطلاق معنى مُعيّن) (١)

ومثال المجلد : الألفاظ المشتركة ، مثل لفظة " العين " المشتركة بين الذهب والعين الناظرة ، والعين الجارية ؛
والقرء مشترك بين الحيض والطهر ، وقد يكون الإجمال في لفظ مركب كقوله تعالى : (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) - البقرة/٢٣٧ - فهذا اللفظ يحتمل الزوج ويحتمل الولي ،
وقد يكون الإجمال في حرف : كقوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) - آل عمران/٧ -

فالواو في قوله : " والراسخون " محتملة للعطف فيكون الراسخون يعلمون المتشابه ، ومحتملة للاستئناف فيستأثر الله بعلمه ؛
وحكم المجلد : التوقف على البيان الخارجي ، فلا يجوز العمل بأحد محتملاته إلاّ بدليل خارج عن لفظه لعدم دلالة لفظه على المراد به ،
وقد يقول قائل : بما أن المجلد متوقف على البيان الخارجي فما فائدة وجوده في القرآن والسنة ، والجواب عن ذلك :
(٢) أن المجلد له حكمة وله فوائد لا يخلو عنها ، قال ابن قدامة :
(فإن قوله تعالى : (وآتوا حقه يوم حسابه) - الأنعام/١٤١ - يُعرّف وجوب الإيتاء ، ووقته ، وأنه حق المال ، ويمكن العزم على الامتثال والاستعداد له ، ولو عزم على تركه عصى لكن الإجمال جاء في مقدار الحق الذي تكفلت السنة ببيانه) اهـ
فالمجلد لا يكفي وحده في العمل به ، فقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها ...) التوبة/١٠٣ -

ظاهرها ومعناها مفهوم ، ليس ممّا لا يُفهم المراد به ، بل نفس ما دلت عليه لا يكفي وحده في العمل به فإن الأمور به صدقة تكون مطهرة مزكّية لهم وهذا إنما يُعرف ببيان الرسول - صلى الله عليه وسلم - (٣)

(١) المستمفى : ج١/٢٤٥ ، كشف الاسرار ج١/٥٤ ، الإحكام ج٣/٨

أصول السرخسي ج١/١٦٨ ، شرح الكوكب المنير ج٣/٤١٤ ، حاشية التفازاني ١٥٨/٢

(٢) روضة الناظر / ١٦٦

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج٧/٣٩١

أَمَّا الْبَيَانُ (١) : فَهُوَ اسْمٌ مُصَدَّرٌ مِنْ بَيَّنَ ، وَهُوَ
فِعْلُ الْمُبَيِّنِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى مَا حَصَلَ بِهِ التَّبْيِينُ وَهُوَ الدَّلِيلُ ،
أَيُّ الْمُبَيِّنِ ، وَقَدْ عَرَّفَهُ الْعُلَمَاءُ بِأَنَّهُ :
(مَا نَصَّ عَلَى مَعْنَى مَعْيَّنٍ مِنْ غَيْرِ إِبْهَامٍ)
وَهُوَ مَا أَظْهَرَ الْمَعْنَى لِلْمُخَاطَبِ وَأَوْضَحَهُ ، وَيَأْتِي الْبَيَانُ ابْتِدَاءً
مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسَبِّقَ بِإِجْمَالٍ ، ظَاهِرُ الْمَعْنَى بَيِّنُ الْمَرَادِ ، فَالْبَيَانُ شَامِلٌ
لِكُلِّ إِضَاحٍ سَوَاءٌ تَقْدِمُهُ خَفَاءٌ أَوْ لَا ،
وَلَكِنْ الَّذِي يَهْمُنَا هُوَ الْبَيَانُ الَّذِي يَأْتِي فِي مُقَابِلِ الْمَجْمَلِ ، وَالَّذِي يَرِدُ
لِتَحْدِيدِ الْمَرَادِ بِالْمَجْمَلِ وَإِخْرَاجِهِ إِلَى حِيزِ التَّجْلِي وَالْوُضُوحِ ،
ذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَتْ آيَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ فِيهَا إِجْمَالٌ ، وَآيَاتٌ أُخْرَى بَيَّنَّتْهَا وَحَدَّدَتْ
الْمَرَادَ مِنْهَا ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ تَكُونُ مُحَلًّا لِلْوَهْمِ بِأَنْ بَيْنَهَا تَعَارُضٌ ، بَيْنَمَا
هِيَ فِي الْوَاقِعِ تَفْسِرُ بَعْضُهَا وَتُبَيِّنُ الْمَرَادَ مِنْهَا ،
قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَالْكَلَامُ إِذَا وَرَدَ مُجْمَلًا " ثُمَّ بُيِّنَ وَفُصِّلَ أَوْقَعَ عِنْدَ
النَّفْسِ مِنْ ذِكْرِهِ مَبِينًا ابْتِدَاءً ، وَلِذَا جَاءَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ نَزَلَ عَرَبِيًّا
بِأَسَالِيْبِ الْعَرَبِ لِيَكُونَ أَبْلَغُ فِي الْأَعْجَازِ ،
وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الْقُرْآنَ يَبَيِّنُ بَعْضَهُ بَعْضًا وَأَنَّ الْبَيَانَ
يَأْتِي بَعْدَ الْإِجْمَلِ ، كَمَا قَالَ :
(أَلَمْ نَكْتُبْ أَكْثَرَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَطَلْتُمْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) هُودُ / ١ -
وَمِنْ هُنَا لِلتَّرَاخِي ،

وَقَالَ تَعَالَى لَنُوحٍ : (احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ
سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) - هُودُ / ٤٠ -
فَظَنَّ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ ابْنَهُ مِنْ أَهْلِهِ حَتَّى بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ أَنَّهُ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ الْمَوْعُودِ بِنَجَاتِهِمْ ،
وَكَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ يُبَيِّنُ بَعْضَهُ فَإِنَّ السَّنَةَ كَذَلِكَ مَبِينَةٌ لِكِتَابَةِ اللَّهِ كَمَا
قَالَ تَعَالَى : (وَانزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) - النُّحْلُ / ٤٤ -
فَآيَاتُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ بَيَّنَّتْهَا السَّنَةُ الْمُطَهَّرَةُ
وَمِنْ بَيَانِ السَّنَةِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ : (وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) (٢)

(١) الْمُسْتَمْتَفَى : ج ١ / ٢٧٥ - ٢٨١ ، أَسْوَاحُ السَّرْحِيِّ : ج ٢ / ٢٧
حَاشِيَةُ التَّفْتَازَانِيِّ ج ٢ / ١٦٢ ، شَرْحُ الْكَوْكَبِ الْمُنِيرِ ج ٣ / ٤٣٧ التَّمْهِيدُ فِي أَصُولِ الْفَقْهِ ج ٢ / ٣٠٣
(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ ، كِتَابُ الْأَذَانِ ، بَابُ ١٨ ، ج ١ / ١٥٥ عَنْ
مَالِكِ بْنِ الْحَوِيثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وقوله عليه الصلاة والسلام ايضا : (لتأخذوا عنِّي مناسككم)^(١)
وليس ذلك إلّا لأنّه المُبَيَّن والمُبَلَّغ عن ربه عز وجل ؛

والبيان إجمالاً يحصل بأُمور : منها الكلام ، كبيان القرآن
لبعضه ، فقوله تعالى : (أُحِلَّت لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ
.....) - المائدة / ١ -

لفظ مجمل بيّنه قوله تعالى في آية أخرى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ
ولحم الخنزير) - المائدة / ٣ -
فميتة بهيمة الأنعام ودمها مُحَرَّم فهذا بيان للمجمل في قوله : " إلا ما
يُتْلَى عَلَيْكُمْ "

ومنه بيان السنة القولية للقرآن ، كحديث عبد الله بن عمر
- رضي الله عنه - مرفوعاً : (فيما سقت السماء والعيون أو كان عَثْرِيَا
العشر ، وما سُقِيَ بالنَّضْحِ نصفُ العشر)^(٢)
فهذا الحديث مُبَيَّن لقوله تعالى : (وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) - الأنعام / ١٤١ -
ويكون البيان بالفعل ، أي فعل النبي صلى الله عليه وسلم - فقد بين
بفعله ما أجمله الكتاب من كفيات بعض العبادات ، كالركوع والسجود ،
وأفعال الحج وغير ذلك ، فقد بين ذلك كله بالقول والفعل فكان مثلاً
يطلي بالكيفية المشروعة ويقول : (وطلّوا كما رأيتموني أُطلي)^(٣)

قال ابن النجار^(٤) : (فدل قوله ذلك على أن فعله بيان لا أن نفس
القول بيانا ، حيث إن الفعل مشاهد والمُشاهد أدل لأنّه أسرع إلى الغم
وأثبت في الذهن) اهـ

وإجمالاً فإنّ كل مفيد من كلام الشارع وفعله وسكوته وكتابته وإشارته
وتنبهه بفحوى الكلام على علّة الحكم كل ذلك بيان^(٥)

-
- (١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : كتاب الحج ، باب رمي جمرة العقبة
شرح مسلم للنووي ج٩/ ٤٢ ، وأخرجه أبو داود في المناسك رقم / ١٩٧٠
وأحمد في مسنده ج٢ / ٣٠١ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب / ٥٥ ج٢ / ١٣٢
والعثري : هو الزرع لا يسقيه إلا ماء المطر ، (لسان العرب / ج٤ : ٥٤١ ، عثر
(٣) تقدم تخريجه قريباً
(٤) شرح الكوكب المنير ج٣ / ٤٤٣ ، وابن النجار هو العلامة : محمد بن أحمد
بن عبد العزيز الفتوح الحنبلي ، عالم أصولي توفي سنة : ٩٧٢ هـ
(٥) المستمضى للغزالي ج١ / ٢٧٦ ، أصول السرخسي ج٢ / ٢٧
المعتمد في أصول الفقه : ج١ / ٣٣٩ ، حاشية التفتازاني
روضة الناظر لابن قدامة : ١٨٥

واضرب هنا مثلاً على البيان والاجمال في آهتين من كتاب الله
قد يقع فيهما توهم الاختلاف والتعارض بسبب عدم تدبر القرآن ونصوص
السنة ، قال الله تعالى :

(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) الانعام / ١٠٣
هذه الآية ظاهراً الاجمال حيث كان المعنى متردداً بين نفي الرؤية
اصلاً وبين نفي الاحاطة دون اصل الرؤية ،

وقد جاءت آية أخرى ترفع هذا الاجمال وتبين المراد ، وهي قوله
تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) - القيامة / ٢٢ -

فهذه الآية دلت على وقوع الرؤية لله تعالى في الآخرة اكراماً
للمؤمنين ، فتبين بها أن قوله تعالى (لا تدركه الابصار ٠٠٠٠)
لم تنف مطلق الرؤية وإنما نفت الادراك وهو الإحاطة والحصر ، وجئنا
تكون الآية دالة على اثبات الرؤية ، وهو أثبت سبحانه يرى ولا يدرك
فيُرى من غير احاطة ولا حصر تعالى وتقدس (١)

وايضاً قوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ المحجوبون)
- المطففين / ١٥ -

فإن هذه الآية لما دلت أنه تعالى حجب الفجار عن رؤيته خزيًا لهم
اثبت حصول الرؤية للأبصار اكراماً لهم ، وبذلك يرتفع الاجمال
في قوله تعالى : (لا تدركه الابصار ٠٠٠٠)

وللاجمال الذي في الآية الأولى وهي (لا تدركه الابصار ٠٠٠)
استدل بها المعتزلة على نفي الرؤية لله تعالى في الدنيا والآخرة

حيث إن حجتهم : أن الادراك المضاف الى الأبصار إنما هو الرؤية
فالآية نفت أن تراه الابصار ، وذلك يتناول جميع الابصار في جميع الاوقات
بواسطة اللام الجنسية في مقام المبالغة ، ولأنه تعالى تمدح بكونه
لا يرى حيث ذكره في اثناء المدائح ، وما كان من الصفات عدمه مدحاً
كان وجوده نقماً يجب تنزيه الله تعالى عنه ، ولذلك فإن المراد من
الآية نفي الرؤية المطلقة لا الرؤية على وجه الاحاطة ، لأن الآية
اطلقت وعمت النفسي (٢)

(١) البرهان للزركشي ج٢/ ٢١٦ ، كجموع الفتاوى لابن تيمية ج١٦/ ٨٧
روح المعاني للالوسي ج٧/ ٢٤٧ - ٢٤٨

(٢) تفسير الزمخشري ج٢/ ٤١ ، متشابه القرآن / للقاضي عبد الجبار ج١/ ٢٥٥
شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، ص : ٢٣٢ - ٢٤١
امالي المرتضي ج١/ ٢٢ ، ٣٦ ج٢/ ٢١٥ ، روح المعاني للالوسي ج٧/ ٢٤٥
حيث لخص استدلال المعتزلة بما سبق في الطلب

وقد أجاب العلماء من أهل السنة والجماعة على ذلك من وجهين

الوجه الاول :-

هو ما تقدم من أنّ الإدراك ليس هو الرؤية المطلقة ، وإنما هو الرؤية على وجه الإحاطة بجوانب المَرئي ، كما فسّره بذلك ابن عباس ترجمان القرآن رضي الله عنهما ، حيث أخرج ابن جرير^(١) بسنده عن ابن عباس : (لا تُدرّكه الأبصار ... لا يُحيط بصر أحدٍ بالملك ...) وروى عن قتادة مثل ذلك ، ثم قال^(٢) : (فان كان الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه ، ويدركه ولا يراه فكان معلوماً بذلك أنّ قوله : (لا تدركه الأبصار) بمعزل من معنى : لا تراه الأبصار ، وأنّ معنى ذلك : لا تُحيط به الأبصار ، لأنّ الإحاطة به غير جائزة فإنّ أهل الجنة ينظرون بأبصارهم يوم القيامة الى الله ولا يدركونه بها تصديقاً لله في كلا الخبرين وتسلّهما لما جاء به تنزيله على ما جاء به في السورتين) اهـ

(٣)

وقال ابن المنير في حاشيته على الكشاف :

(الإدراك عبارة عن الإحاطة ومنه : (فلما أدركه الغرق ...) - أي أحاط به ، و (إنا لمدركون) أي مُحاط بنا ، فالمنفى إذا عن الأبصار إحاطتها به عز وجل لا مُجرد الرؤية ... وتخصيص الإحاطة بالنفي يُشعر بطريق المفهوم ثبوت ما هو أدنى من ذلك ، وأقلّه مجرد الرؤية ، كما أنّنا نقول : لا تُحيط به الأفهام ، وإن كانت المعرفة بمجرد ما حاصله لكل مؤمن ...) اهـ

قلت : فعليّ هذا يتبين لنا أنّ انتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية ، لأن نفيّ الآخر لا يستلزم نفيّ الأعمّ ، فصح أنّ يقال : إنّنا نرى الله تعالى يوم القيامة ولا تُدرّكه أبصارنا ، لأنّه تعالى أكبر وأعظم من أن يُحاط به إنّ هو الظاهر والباطن وهو بكل شيء مُحيط ، ومعلوم أنّ الرجل قد يقول : (رأيت السماء وما أدركتها) ، وهو صادق لم يُحيط بصره بكل السماء ولم يدركها^(٤)

(١) تفسير ابن جرير الطبري ج١٢ / ١٣ ، تحقيق محمود شاكر

(٢) المصدر السابق : ج١٢ / ١٤ - ١٦

(٣) الكشاف للزمخشري بحاشية ابن المنير ج٢ / ٤١

(٤) تفسير الرازي ج١٣ / ١٢٥ ، روح المعاني للالوسي ج٧ / ٢٤٥

التمديق بالنظر الى الله تعالى في الآخرة ، للاجري : ١١٤

ابن حزم وموقفه من الالهيات / د. احمد الناصر : ٣٩٠ ،

شرح جوهرة التوحيد للشيخ ابراهيم الباجوري : ص ١١٦

الوجه الثاني :

على فرض التسليم بأن الإدراك المُضاف إلى الأبصار هو الرؤية ، وأن الكلام لعموم النفى ، فإنّ هذا العموم مخصوص بالدنيا لقوله تعالى : وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربّها ناظرة (- القيامة / ٢٢ -

والتخصيص من أوجه البيان ، فقوله تعالى : إلى ربّها ناظرة عُدّي فيه النظر بحرف الجر إلى ، وأضيف إلى الوجه الذي هو محل النظر وهذا لا يحتمل إلا الرؤية بالأعين ، فعلى هذا فالآية نص في الرؤية يوم القيامة ، ولا تحتمل غيرها من المعاني (١)

قال الامام أبو الحسن الأشعري رحمه الله بعد ذكر الآية : (٢)

(ولما قرن الله النظر بذكر الوجه أراد نظر العينين اللتين في الوجه ثم بين رحمه الله أنه لا يصح أن يكون المعنى هنا هو الانتظار كما يقوله المعتزلة ، وأنّ تقييد النظر بيوم القيامة واطلاق آية : (لا تدركه الأبصار) يدل أن الأبصار لا تراه في الدنيا وإنما في الآخرة حين يأذن الله سبحانه بكرامة أوليائه وتمتعهم بالنظر إلى وجهه الكريم وخزي أعدائه وحجبهم عنه تعالى (٣)

وعلى هذا فإنّ النصوص الشرعية من الكتاب والسنة (٤) بينت أنه ليس المراد من قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) عموم النفى ففي كل الاوقات والاحوال بل في الدنيا وعلى هذا فلا مجال لتوهم وجود اختلاف بين الآيات وكذلك لا مجال للاحتجاج بآية " لا تدركه الأبصار " على ان المراد بها أن الأبصار لا تراه مطلقا في الدنيا والآخرة ، لأنه يصدق أن تقول : لا تدركه الأبصار في الدنيا

قال الامام احمد رحمه الله (٥) :

(أما قوله : (وجوه يومئذٍ ناضرة) يعني في الحسن والبياض ، (إلى ربّها ناظرة) : تعالين ربّها في الجنة ، وأما قوله : (لا تدركه الأبصار) يعني في الدنيا دون الآخرة ، وذلك أن اليهود قالوا لموسى : (أرنا الله جهرة) فأخذتهم الماعقة وهم ينظرون (النساء / ١٥٣ -

(١) تفسير الطبري ج١٢ / ١٤ - ١٦ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة : ١٤٠

التمهيد للباقلائي : ٢٧٤ ، زاد المسير لابن الجوزي : ٩٨/٢

تفسير القرطبي : ج١٩ / ١٠٧ ، روح المعاني ٢٤٥/٢ ، الرازي : ١٢٥/١٣ ، ٢٢٨/٣٠

(٢) الابانة عن اصول الديانة / ٣٣

(٣) المصدر السابق : ٣٣ (٤) يأتي قريبا ذكر نصوص السنة وبيان تواترها

(٥) الرد على الزنادقة : ١٣ - ١٤

فماتوا وعوقبوا لقولهم : " أرنا الله جهرة " ، وقد سأل مشركوا قريش النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) - الاسراء / ٩٢ - فلما سألوا النبي . صلى الله عليه وسلم - هذه المسألة قال الله تعالى : (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) - البقرة / ١٠٨ -

حين قالوا : " أرنا الله جهرة ... الآية " فأنزل الله سبحانه يخبر أنه (لا تدركه الأبصار ..) يعني في الدنيا دون الآخرة فإنهم يرونه^{هـ} قلت : وعلى الوجهين كليهما فالاجمال في الآية مرتفع ولا تعارض بين الآيات لأنّ المبيّن لا يُعارض المُجمل بل هو موضح ومفسّر له ، فعلى الوجه الأول بيّن قوله تعالى : (وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة) أنّ المراد بقوله : (لا تدركه الأبصار ..) التمدح بكونه سبحانه لا يُحاط به أبداً ، إذ هو بكل شيء محيط ، وهو بقدرته يحجب الأبصار عن أن تحيط به في الآخرة عندما يأذن للمؤمنين بالتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم وعلى الوجه الثاني فالآية فيها تمدح بكونه سبحانه لا يُرى في الدنيا لعدم إذنه بذلك ، ولضعف البشر عن أن يروا ربهم وخالقهم بدون أن يُهيئهم لذلك ، ولهذا قال سبحانه لموسى عليه السلام عندما طلب رؤيته تعالى قال له : (لن تراني) يعني في الدنيا

وقد قال العلماء إنّ هذه الآية تدل على جواز الرؤية في الجملة ، وأنها واقعة يوم القيامة ، قال تعالى حكاية عما قاله موسى عليه السلام : (ربّ أرني انظر إليك ، قال لن تراني ٠٠٠) - الاعراف / ١٤٣ - قال ابن قتيبة رحمه الله (١) : (وفي قول موسى عليه السلام : (ربّ أرني انظر إليك) أثبت الدلالة على أنه يُرى يوم القيامة ، ولو كان الله تعالى لا يُرى في حال من الأحوال ولا يجوز عليه النظر لكان موسى عليه السلام قد خفي عليه من وصف الله تعالى ما علموه (٢) ولكن موسى عليه السلام علم أنّ الله تعالى يُرى يوم القيامة ، فسأل الله تعالى أن يجعل له في الدنيا ما أجله لانبياؤه وأوليائه يوم القيامة فقال له : " لن تراني " يعني في الدنيا .) هـ

(١) تأويل مختلف الحديث : ١٤٠

(٢) يقصد المعتزلة الذين قالوا انه تعالى لا يجوز عليه ان يرى

انظر : شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار : ٢٦٢

قال ابن تيمية : التزم المعتزلة القول بانكار رؤية الله في الآخرة بسبب اعتقادهم ان قيام الصفة في الموصوف يدل على الحدوث ، والدليل عندهم يجب طرده فالتزموا حدوث كل موصوف بصفة قائمة به ، ولهذا التزموا القول بخلق القرآن وانكار الرؤية وعلوه على عرشه ، الى امثال ذلك من اللوازم

انظر : موافقة صحيح المنقول لمرجع المعتزل ص : ٢١

فسؤال موسى عليه السلام دلّ على عدم امتناعها لكونه رسولا مصطفى ،
يُمْتَنَعُ عليه الجهل بمن أرسله واصطفاه ، كما أن الله تعالى لم ينهه
عن طلبه ولم يُنْكَرْ عليه ذلك ، ولو كانت الرؤية مُحَالَةً لُنْكَرَ عليه (١)

هَذَا وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ الْمُصْطَفَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

بأن المؤمنين يرون ربهم عز وجل يوم القيامة ، وهو بيان آخر للإجمال
الوارد في قوله تعالى : (لا تدركه الابصار ...) ، والتواتر يغيد العلم
القطعي كما أجمع على ذلك أهل الحق وسلف الأمة ؛

واحاديث الرؤية مروية عن ثمانية وعشرين صاحبيا كلها تثبت رؤية
المؤمنين لربهم عز وجل في جنات النعيم ،

فقد أخرج البخاري (٣) ومسلم (٤) وأصحاب السنن (٥) والمسانيد (٦)
عن جرير بن عبد الله البجلي وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وصُهِيبُ وَأُنْسُ
وبلال وغيرهم رضي الله عنهم أحاديث في رؤية الرب تبارك وتعالى :
منها حديث الصحيحين عن جرير البجلي قال : (كنا جلوسا عند النبي
- صلى الله عليه وسلم - إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، قال : إنكم
سترون ربكم كما ترون هذا لا تُتْضَامُونَ في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا
تُغْلِبُوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس ، وصلاةٍ قبل غروب الشمس فافعلوا .)

والتشبيه في الحديث للرؤية وهو فعل الرائي لا للمرأي ،

والمعنى : ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك وتنتفي معها الريبة

كروءيتكم القمر لا ترتابون ولا تمتثرون (٧)

(١) المواقيف للجرجاني ص : ٣٠٠ ، زاد المسير لابن الجوزي ج ٣ / ٢٥٦

تفسير الرازي ٢٣١ / ١٤ ، تفسير القرطبي ج ٧ / ٢٧٨ ، حادي الارواح لابن القيم : ٢٢٣

روح المعاني للالوسي ج ٩ / ٤٦ ، شرح جوهرة التوحيد : ١١٧

(٢) صرح بذلك جمع من العلماء ، وقالوا : انها مروية عن ثمانية وعشرين

صاحبيا ، اولم يشتهر عن غيرهم خلاف ذلك فكان اجماعا ، انظر :

تفسير ابن كثير ج ٤ / ٧٠٥ - القيامة / ٢٣ - ،

لوامع الانوار للفقاريني ج ٢ / ٢٤٠ - ٢٤٤ ، نظم المتناثر للكتاني : ١٥٣

(٣) في صحيحه : كتاب التوحيد ، باب ٢٤ / ٢٤٠ ، ج ٨ / ١٧٩ - ١٠ ، وفي مواقيت الصلاة باب ١٦ /

ج ١ / ١٣٨ ، وفي كتاب الاذان باب ١٢٩ / ١٢٩

(٤) في صحيحه : كتاب الايمان ، باب اثبات رؤية الله تعالى (شرح النووي : ١١٤ / ١١٤)

(٥) ابو داود في السنن : باب في الرؤية ، ج ٥ / ٩٧ ط : حصص

والترمذي : في صفة الجنة ، باب ما جاء في رؤية الرب ، رقم ٢٥٥١ ، ج ٤ / ٢٨٧

وابن ماجة في المقدمة ج ١ / ٦٣ ط : فوائد عبد الباقي

(٦) مسند الامام احمد : ج ٢ / ٢٧٥ ، ج ٣ / ١٦ ، ج ٤ / ١١ ، ج ٥ / ٣٣٢ ، ج ٦ / ١٥

(٧) جامع الاصول لابن الاثير ج ١٠ / ٥٥٨ تحقيق شعيب الارناؤوط

ومنها حديثُ صُهيب الذي رواه الامام مسلم (١) : (فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) - يونس / ٢٦ -
فهذا بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن رؤية الرب تبارك وتعالى في جنات النعيم التي أخبر عنها القرآن الكريم

وبهذا المثال المتقدم في آيتين من كتاب الله يتبين لنا أهمية معرفة البيان والاجمال لتفسير كتاب الله ، وأنّ الذي ينبغي هو حمل المُجْمَلِ عَلَى الْمُبَيَّنِّ ، وأنه لا تناقض ولا تعارض بينهما أبداً لأن كتاب الله يُفَسَّرُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ (حيث إنّ كلام الله كالكلام الواحد آخذ برقاب بعضه يُفَصِّلُ بَعْضُهُ بَعْضًا كما قال تعالى :
(الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) - هود / ١

هذا موقف القارئ المتدبر لكتاب الله المتبّع لسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وآثار الصحابة والسلف في منهجهم عند تفسير كلام الله تعالى ، بخلاف طريقة أهل البدع كالمعتزلة وغيرهم ممن يتمسكون بظواهر بعض الآيات المُجْمَلَةِ ، ويتركون ما بيّنها من الآيات المحكمة والسنة المُطَهَّرَةِ ، ويحكمون في ذلك عقولهم القاصرة وأهواءهم ، ويدل على ذلك أنهم قد غفلوا عمّا ثبت من الحديث الصحيح في بيان آيات النظر والرؤية لله تعالى ، والله ولي التوفيق

(١) في صحيحه : كتاب الايمان ، باب اثبات رؤية الله تعالى

(شرح النووي : ج ٢ / ١٧)

السبب الخامس من أسباب إيهام الاختلاف : اختلاف الحال

وهو أن يرد من الشارع نمان ظاهرهما التعارض بينما الواقع أن كلا منهما يدل على حكم يختلف عن الآخر لاختلاف الحال والظرف الواقع فيه المكلف يُعرف ذلك من السياق ودلالة النصوص ، ولا يخفى اختلاف الحكم بالنسبة للمسافر مثلاً ففي قصره للصلاة ، وجواز افطاره في رمضان ، ومسحه على الخف ثلاثة أيام بلياليها خلافاً للمقيم وغير ذلك من الأحكام التي جاءت بها الشريعة المطهرة رفعا للحرَج وتيسيراً على الأمة ، فاختلاف الحكم لاختلاف الحال في مثل هذه الظروف وغيرها لا يعني أن هناك اختلافاً أو تناقضاً في النصوص ، بل هي في حالتها هذه تصور لنا روعة التنزيل وانسجامه في أحكامه الملائمة لطبيعة البشر وتقلب أحوالهم واختلاف ظروفهم ، ولا عجب فإن هذه الشريعة لم تأت إلا لاسعاد البشر في الدارين ، فهي المُلح الوحيد لحياة الناس، وفي اتباعها الفلاح والنصر والغلبة، وفي مخالفتها ذل الدارين ، كما قال الباري :
(ومن أَعْرَضَ عن ذكري فإن له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى)
- طه / ١٢٤ -

ومن امثلة اختلاف الحال :

ما ذكره الله سبحانه في كتابه الحكيم من اختلاف أحوال القيامة وما فيه من الشدة وتنوع أشكال الحساب ، وقد صوّر لنا القرآن مناظر مختلفة لأهل القيامة يزجج اختلافها لاختلاف حالهم ، ومن ذلك ما ذكره الله تعالى في حق الكفار وأهل الضلال يصف أحوالهم في المحشر :
(مُهْطِعِينَ مَقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ) - إبراهيم ٤٣ -
ومرة قال : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم غُمياً وبُكماً وصماً) - الاسراء ٩٧ -
ومرة قال : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) مريم ٣٨ -
يعني ما أسمعهم وأبصرهم ، الى غير ذلك من الآيات التي تتكلم عن حال الكفار من ناحية النظر والسمع يوم القيامة
فمرة يصف بصرهم بأنه مرفوع ومرة هم خاشعون من الذل ، ومرة هم يسارقون النظر ينظرون من طرف خفي ، ومرة هم عُمي لا يرون ،
فمرد اختلاف هيئاتهم وصفة حشرهم هو نظراً لاختلاف حالهم وطبيعة حسابهم
وما يريد الله بهم ، فهم عندما يخرجون من قبورهم يكونون رافعي رؤوسهم

من الخوف وهول المفاجئة ، وفي عرصات القيامة أيضا يكونون في احوال مختلفة فمرة يقرأون كتبهم وهذا يقتضي أن يكونوا في غاية الإبطار حتى يروا بلأعينهم ما قدّموه لانفسهم ، وكذلك حتى يروا أهوال القيامة ، كما قال تعالى : (ورأى المجرمون النار فظنوا انهم واقعوها ٠٠٠٠) -الكهف / ٥٣ - فهناك ينظرون من طرف خفي يسارقون النظر أعاننا الله من ذلك وكونهم يحشرون عُميا كما نصت عليه آيات أخرى إنما هو في نهاية المطاف عندما يُلقون في جهنم لتجتمع عليهم ظلمة جهنم وظلمة العمى ولا مانع أن يحشروا في أول الأمر كذلك ثم يكشف الله عن أسماعهم وأبصارهم ليزدادوا حيرة بما يرونه من كرامة المؤمنين عند ربهم وخزي الكافرين ثم يعيدهم بعد ذلك عُميا وُصما وكما بعد دخولهم جهنم ليكون تخطيهم فيها أنكى لهم ، وابلغ في عذابهم (١)

وبهذا يتبين لنا جلياً كيف أن الصور المختلفة لأحوال أهل المحشر تبين لنا مجموعها حال الكفار في مواطن القيامة المختلفة في المحاسبة والمجازاة وصنوف العذاب اللاحق بهم فالآيات في غاية التوافق والانسجام ، وقد وُزعت في عدة مواطن من القرآن وفي كل موطن ذكر لنا موقفا ومشهدا يصور حالة معينة حتى يكون قارئ القرآن دائم التذكر لذلك اليوم العصيب ومستعدا له بالعمل الصالح والله تعالى أعلم وهو ولي التوفيق

(١) سوف يأتي مزيد ايضاح وشرح لاحوال القيامة في فصل موهم آيات الحشر والقيامة بأذن الله تعالى

السبب السادس من أسباب إيهام الاختلاف : اختلاف المحل والمراد من ذلك اختلاف المحل الوارد فيه النمان ، فيكون كل نص يتكلم عن محل غير الآخر ، لذلك فقد يتوهم متوهم أن بين النصين اختلافاً وتعارفاً ، بينما الواقع ان هناك اختلافاً في المحل ، ومن ذلك : ما يحل يوم القيامة من نفي النسب والتساؤل بين الناس قال الله تعالى : (فلماذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) - المؤمنون / ١٠١ -

فهذه الآية ظاهراً يدل على انقطاع الانساب يوم القيامة مطلقاً وكذلك انتفاء التساؤل بين الناس وقد جاءت آيات أخرى تدل على ثبوت الأنساب بينهم كقوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم) - الطور / ٢١ - وقوله : (يوم يفر المرء من أخيه وامه وأبيه) - عبس / ٣٤ - ٣٥ كما جاءت آيات أخرى تدل على أنهم يتساءلون كقوله تعالى : وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين (٠٠٠) - المافات / ٢٧ - ٢٩ فهذه الآيات تثبت التساؤل والتحاور بين الكفار ، وليس بين هذه الآيات تعارض أو تناقض ، لان المراد بنفي الانساب : انقطاع فوائدها وآثارها التي كانت مترتبة عليها في الدنيا ، من العواطف والنفع والملاط والتفاخر بالآباء ، فهذه الانساب لا تنفع بدون ان يكون هناك ايمان وتقوى كما قال تعالى : (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم) - الشعراء / ٨٩ -

وليس المراد بنفي الانساب في الآخرة نفي حقيقة النسب ، ان هو ثابت للانسان في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه وامه وأبيه وصاحبته وبنيه) - عبس / ٣٤ - فهذا في الحقيقة اثبات للنسب ونفي لغائده يوم القيامة ، ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ) (١)

وهذا الانقطاع لآثار النسب وفوائده ، انما هو في حق الكفار واهل الضلال ، أما المؤمنون فلهم من الله عز وجل المزيد من الكرامة

(١) أخرجه الامام مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه - ، كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (شرح النووي ج ١٧ / ٢٢)

ومن ذلك انتفاعهم بأنسابهم بمشيئة الله تعالى كما قال عز وجل :
(والذين آمنوا واتبعتم دُرِّيتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرِّيَّتهم وما أَلتَنَاهم

من عملهم من شيء ٠٠٠) - الطور / ٢١ -

فانتفاع المؤمنين بالأنساب إنما هو نتيجة إيمانهم وعملهم الصالح
يقول الله تعالى في سورة الرعد واصفا لعباده المؤمنين :

(الذين يُؤفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ٠٠٠٠٠) فوعدهم الله
ثم قال في آخره : (أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح

من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل

باب) - الرعد / ٢٢ - ٢٣ -

وبهذا يحصل عظيم السرور بالاجتماع بالاهل والاولاد والاخلاء (١)

هذا بالنسبة للأنساب

أما بالنسبة للتساؤل الذي نُفي مرة وأُثبت أخرى ، فإن الجواب
عنه راجع لاختلاف المحل ، فلذلك أُثبت في موقف ونُفي في آخر ،

ونفي السؤال والمحاورة هو عند اشتغالهم بالصعق والمحاسبة والجواز
على الصراط ، وإثباته إنما هو في مواقف أخرى من محلات القيامة (٢)

أخرج أبو داود (٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكرت النار فبكيت ،
فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما يُبكيك ؟ قلت : ذكرت النار

فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال أما في ثلاثة مواطن
فلا يذكر أحدٌ أحداً ، عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يشقل

وعند تطاير الصحف حتى يعلم أيقنع في يمينه أم في شماله أم

من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وُضع بين ظهري جهنم حتى يجوز (

ومن ذلك إجابة ابن عباس - رضي الله عنهما - للسائل عن ذلك (٤)

بأن نفي السؤال بعد النفخة الأولى وقبل الثانية ، وإثباته بعدهما

حيث اجاب السائل بقوله : (فلا أنساب بينهم : في النفخة

الأولى ، ثم يُنفخ في الصور " فصعق من في السموات ومن في

الارض إلّا مَنْ شاء الله " فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون

ثم في النفخة الأخرى : أقبل بعضهم على بعض يتساءلون)

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار / ٢٨٠

(٣) فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ج٧/ ٥٥٢ ، طبعة دار المعرفة

الاتقان للسيوطي ج٢ / ٢٧ ،

(٣) في سننه : كتاب السنة ، باب ذكر الميزان ، رقم : ٤٧٥٥ وهو حديث

حسن ، انظر : جامع الاصول لابن الاثير ج١٠ / ٤٧٥

(٤) أخرج ذلك عنه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير ج٣٥ / ٣٥ (حم السجدة)

وانظر فتح الباري : ج٥٧ / ٥٥٧ ، الدر المنثور للسيوطي : ج١٦ / ١١٦

قال ابن قتيبة^(١) رحمه الله : (فإنه إذا نُفخ في الصور نفخة واحدة ، تقطعت الأرحام وبطلت الأنساب. وشُغلوا بأنفسهم عن التساؤل وصعق مَنْ فِي السموات والارض إِلَّا مَنْ شاء الله ، فإِذَا نُفخ فيه أخرى قاموا ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وقالوا : من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، وهو معنى قول ابن عباس^(٢) هـ وهناك وجه ثالث :

وهو أَنَّ السؤال المنفي سؤال خاص ، وهو سؤال بعضهم العفو عن بعض فيما بينهم من الحقوق لقنوطهم من الإعطاء ولو كان المسؤول أباً أو ابناً أو زوجة^(٣)

قال النخاس^(٣) : (إنما هو لا يتساءلون بالأرحام ، فيقول أحدهم : أسألك بالرحم الذي بيني وبينك لما نفعني أو أسقطت لي حقاً لك علي ، أو وهبت لي حسنة ، وهذا بيّن لأن قبله : (فلا أنساب بينهم) أي ليس ينتفعون بالانساب بينهم ... ويتساءلون ها هنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضاً ويوبخه في أنه فعله ، أو فتح له باباً من المعصية ، يُبين ذلك أنه بعده : (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) فقليل هو من قول الاتباع للمتبوعين دليلاً قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول) - سبأ / ٣١ - هـ

قلت : وهذه الأوجه الثلاثة محتملة ويندفع بها توهم وجود اختلاف بين الآيات السالفة الذكر ، وخاصة الوجهين الأولين القائمين على وجود اختلاف في المحل ، فاثبات التساؤل والمحاورة في محل ، ونفيها في محل آخر من مواقف يوم القيامة الطويل ، والله ولي التوفيق

(١) تأويل مشكل القرآن : ٦٦

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ج ٥ / ٤٩٠ ، تفسير الرازي ج ٢٣ / ٢٢٣
تفسير القرطبي ج ١٢ / ١٥١ ج ١٥ / ٧٤ ، روح المعاني ج ١٨ / ١٤
الدر المثور : ج ١١٧ ، الاتقان : ج ٢ / ٢٧

(٣) نقله عنه القرطبي في تفسيره : ج ١٥ / ٧٤ وانظر : زاد المسير ج ٥ / ٤٩١

السبب السابع :

اجتلاف الموضوع ، فقد يأتي في القرآن الكريم أو السنة المطهرة نمان يوم ظاهرهما التعارض أو الاختلاف ، ولكن عند التدبر والتدقيق ومعرفة سياق النص وسبب نزوله والمعنى المراد نجد أن الموضوع الوارد فيه أحد النصين يختلف عن الآخر ، ولهذا أمثلة كثيرة في القرآن والسنة ، منها المثال التالي :

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ٠٠٠) - آل عمران / ١٠٢ -
هذه الآية يوم ظاهرهما الاختلاف مع آية أخرى تأمر بالتقوى أيضا لكن حسب القدرة والاستطاعة ولم تُقيد بحق التقوى ، وهي قوله تعالى :
(فاتقوا الله ما استطعتم ٠٠٠) - التغابن / ١٦ -
ولذلك ادعى بعضهم أن الثانية ناسخة للأولى (١) ، ولكن هذا غير صحيح ، فليس هناك نسخ لأنه لا يوجد تعارض أولا حيث يمكن الجمع بينهما ، ولأنه لا يوجد دليل على النسخ ثانيا ،
وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : (لم تُنسخ ولكن حق تقاته : أن يُجاهد في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله سبحانه بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم)
ومعلوم أن الله تعالى لم يجعل علينا في الدين من حرج ولم يكلفنا فوق طاقتنا أولا وأخرا ، وإذا كان الأمر كذلك فأن وجه الجمع بينهما هو ما نقله الإمام الزركشي (٢) عن أبي الحسن الشاذلي : من أن الآية الأولى وهي قوله تعالى : (فاتقوا الله حق تقاته ٠٠٠) محمولة على التوحيد ، والآية الثانية وهي : (فاتقوا الله ما استطعتم) محمولة على الاعمال ، حيث إن المقام يقتضي ذلك ، لأنه قال بعد الأولى : (.. ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون)

قلت : وهذا يوافق ما تقدم عن ابن عباس لأن معنى كلامه راجع لاخلال التوحيد وصحة النية وهو مطلوب في كل حال حتى في حالة الاكراه على الكفر ، لأن المطلوب في تلك الحالة هو أن يطمئن قلبه بالإيمان ولو أظهر الكفر تقية ، كما قال الباري :
(إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليه غضب من الله ولهم عذاب شديد) - النحل / ١٠٦ -

(١) قال بالنسخ : سعيد بن جبير والربيع بن انس وقتادة ، انظر : تفسير بن جرير ج٢/٦٧ ، تحقيق احمد شاكر ، تفسير بن كثير ج٢/٧٢ ط: دار الشعب تفسير الماوردي ج١/٢٣٧ ، الدر المنثور للسيوطي : ج٢/٢٨٣
(٢) تفسير بن جرير ج٢/٦٨ ، (٣) البرهان في علوم القرآن ج٢/ ٥٥

فانشرح الصدر بالإيمان والثبات عليه مهما كانت الظروف والمغريات هو حق التقوى ، وهو حق الله على العباد ، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لمعان بن جبل - رضي الله عنه - :

هل تدري ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فلمن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً (١) (١)

أما في مجال الأعمال والأحكام فلم يكلّفنا سبحانه إلا ما نُطيق ونستطيع ، كما قال تعالى حكاية على لسان المؤمنين :

(ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ٠٠٠) - البقرة / ٢٨٤ -

وثبت في صحيح مسلم^(٢) إجابة دعائهم : (قال : قد فعلت) ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى قد خفف عنا الصلاة في السفر ، وأباح لنا الجمع (والإفطار) والمسح على الخفين ثلاثة أيام ، وغير ذلك مما فيه التيسير ورفع الحرج وتكليف ما في الوسع) رحمة بهذه الأمة المباركة وكل ذلك إذا قام به المسلم على الوجه الشرعي فقد اتقى الله استطاعته ، وفي التقييد بالإستطاعة يتجلى لطف الله بعباده ، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) (٣)

والمريض إذا لم يقدر أن يطلي في المسجد جماعة ، أو لم يستطع الصلاة قائما فطلى في البيت أو قاعدا كل ذلك مشروع له لأن تقوى الله في تلك الحال هو أن يؤدي العبادة بقدر استطاعته ، وهذا ما تضمنه قوله تعالى :

(فاتقوا الله ما استطعتم)

التي لا تُعارض قوله تعالى : (اتقوا الله حق تقاته)

الواردة بشأن اخلاص التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ؛

وهناك وجه آخر^(٤) : - وهو أن تقوى الله حق تقاته فسرته الآية الأخرى : (فاتقوا الله ما استطعتم) ، إذ أن المرء المسلم متى بذل غاية جهده في تقوى الله ولم يأل جهدا في ذلك وقام بالعبادة على الوجه المطلوب بقدر ما يستطيع ويطيق من غير حرج ولا مشقة فقد اتقى الله حق تقاته ، وعلى ذلك فالآيتان متوافقتان ومفسرتان لبعضهما

(١) أخرجه الامام مسلم : كتاب الايمان (شرح النووي ج١ / ٢٣١ - ٢٣٢

(٢) سبق تخريجه

(٣) أخرجه الامام البخاري في كتاب الاعتصام ، باب / ٢. واللفظ له ج٨ / ١٤٢ ومسلم في الفضائل ، باب وجوب اتباعه - صلى الله عليه وسلم - (شرح النووي : ج ١٥ / ١٠٩) عن ابي هريرة رضي الله عنه

(٤) انظر : تفسير الرازي : ج٨ / ١٦١ ، تفسير الماوردي ج١ / ٢٣٧ تفسير ابي السعود ج٢ / ٦٥ ، تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ج٣ / ٧٣ تفسير القرطبي ج١٨ / ١٤٤ ، روح المعاني للالوسي ج٤ / ١٧

إذ القرآن مُبين لبعضه كما قال الباري :

(ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) - القيامة / ١٩ -

فمن ملّى في مرضه قاعداً أو أفطر في رمضان بنية القضاء عند الشفاء فقد اتقى الله حق تقاته ، إذ أن حق التقوى هو عمل المستطاع

قال القاضي عبد الجبار^(١) : (إن حق تقاته لا يكون إلا ما يستطيعون

لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فلا اختلاف بين الآيتين ، ولذلك قال :
ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ، فإن حق تقاته أن يتمنى المرء حتى يموت
مسلماً .) اهـ

قلت : والأمر بتقوى الله حق تقاته هو كقوله تعالى في شأن الجهاد
(وجاهدوا في الله حق جهاده ٠٠٠) - الحج / ٧٨ -

وطاقة الناس في الجهاد تختلف بحسب القدرة والعجز ، والعلم والجهل ،
فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر أو العالم شيء ، وبالنسبة
إلى العاجز أو الجاهل شيء ، ولذلك قال تعالى بعد آية الجهاد السالفة
: (٠٠٠ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ٠٠٠)

فحق الجهاد وحق التقوى هو ما يُطيقه كل عبد في نفسه (٢)

كما أن في قوله تعالى : (اتقوا الله حق تقاته) دافعا قويا
للمسلم للترقي في إيمانه وتقواه وزيادة الطاعات ، فجعل حق التقوى
هكذا بدون تحديد ليُجمل القلب مجتهدا في بلوغها كما يتصورها
وكما يُطيقها ، وكلما اقترب بتقواه من الله يتقسط شوقه إلى مقام
أرفع ممّا بلغ (٣) والمطلوب من المؤمن أن يبالغ في التقوى حتى
لا يترك من المستطاع شيئا (٤)

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن : ٧٣

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم ج ٣ / ٨ تحقيق الارناؤوط

(٣) في ظلال القرآن ، للشهيد سيد قطب ج ١ / ٤٢٢

(٤) تفسير الزمخشري : ج ١ / ٤٥٠

السبب الثامن : تعارض العموميين

قد مرّ بنا تعريف العام فيما تقدم ، وكيف أن العام لا يُعارض الخاص ، لأن العام يُحمل على الخاص لأنه بيان له كما تقدم ، ولكن قد يتعارض عمومَان في الظاهر ، فيزيد أحدهما على الآخر من وجه وينقص عنه من وجه آخر ، وقد يكون العموم مطلقاً أو من وجه دون وجه (١) فيجب الجمع بينهما أو ترجيح عموم أحدهما على الآخر، وجعل الآخر مُخصّصاً له لوجوب العمل بالراجح ، وهذه المرجحات تظهر عند التدبر والتأمل في كتاب الله ومعانيه ، وغير المتدبر أو الجاهل يظن أن هناك اختلافاً وليس به

ومثال تعارض العموميين في الظاهر :

قوله تعالى في سياق المُحرمات من النساء :

(..وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) - النساء / ٢٣ -

مدلول هذه الآية عام في كل الاخوات فيشمل جمع الأختين في ملك اليمين وهذا في الظاهر يعارض قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظِينَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ

غَيْرُ مُلُومِينَ ۚ) - المؤمنون / ٦ -

فإن قوله : " أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ " يعمّ كل ما تملك اليمين ، ومن

ذلك الأختين المملوكتين ، فإن ظاهر النص يُحل الجمع بينهما في الوطء

إذا كانتا ملك يمين

وكلا النصين يُمكن أن يخص الآخر ، فإن قوله : وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ

الاختين (يُمكن أن يُخص بالنص الآخر على أن المراد جمع الاختين في

النكاح دون ملك اليمين ،

وقوله : (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) يمكن أن يخص عموميه بالنص الآخر

على أن المراد منه اباحة ملك اليمين دون الجمع بين الاختين

واعلم انه قد ورد عن الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي

الله عنه - انه قال عندما سئل عن جمع الاختين في ملك اليمين ، فقال :

(احطتهما اية وحرمتها اية ، واما انا فما احب ان افعل ذلك)

وروي مثله ذلك عن الخليفة الراشد علي بن ابي طالب - رضي الله عنه -

(١) العام من وجه والخاص من وجه : هما اللذان يوجد كل واحد منهما مع الآخر احيانا

ويوجد كل منهما بدون الآخر احيانا اخرى ، فيجتمعان في صورة ، وينفرد كل واحد منهما

في صورة ، والامثلة توضح ذلك ، انظر : شرح الكوكب المنير ج ٣ / ٢٨٤ مع الهامش

ادلة التشريع المتعارضة ، د . بدران ابو العنين ص : ١٦٤

(٢) موطأ مالك : ج ٢ / ٥٣٨ ، تحقيق عبد الباقي ، مصنف عبد الرزاق ج ٧ / ١٨٩

سنن البيهقي ج ٧ / ١٦٣ ، موسوعة فقه عثمان : ١٠٢

وأنه نهى عن ذلك وبالح في النهي^(١) ، وهذا منه يدل على أنه قد ترجح لديه التحريم والله اعلم ،
هذا وقد ذكر العلماء أن عموم قوله تعالى : (٠٠ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْاِخْتَيْنِ)
يترجح على عموم الآية الأخرى : (٠٠ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) بمرجحات عدة
فَيُخَصِّصُ عموم إباحة وَطء ملك اليمين بغير الجمع بين الاختين ، فلا يجوز
للرجل إذا ملك اختين بملك اليمين فوطأ إحداهما لا يجوز له أن يوطأ الأخرى ،
وأما المرجحات فهي ما يلي^(٢) :

أولاً : إن حفظ عموم قوله : (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْاِخْتَيْنِ) أولى ، لأنه عموم
لم يتطرق إليه تخصيص متفق عليه ، فهو أقوى من عموم تطرق إليه تخصيص
بالاتفاق ، إذ قد استثنى من تحليل ملك اليمين المشتركة ، والمستبرأة ،
والنجسية ، والأخت من الرضاع والنسب وسائر المحرمات ،
أما الجمع بين الاختين فحرام على العموم

ثانياً : إن قوله تعالى : (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْاِخْتَيْنِ) سيق بعد
ذكر المحرمات وعدها على الاستقصاء ، إلحاقاً لمحرمات تعم الحرائر والإماء
أما قوله : " أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ " فلم يُسَقَّ لبيان المحللات قصداً بل
في معرض الثناء على أهل التقوى الحافظين فروجهم عن غير الزوجات والسراي
فلا يظهر منه قصد البيان ، وقد تقرر في الأصول : أن أخذ الأحكام من
مظانها أولى من أخذها من غير مظانها

ثالثاً : إن قوله تعالى " أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ " وارد في معرض
المدح للمتقين ، وما كان كذلك فإن اعتبار عموميه مختلف فيه ،
قال الشيخ الشنقيطي^(٣) رحمه الله : (والعام الوارد في معرض المدح أو
الذم اختلف العلماء في اعتبار عموميه ، فأكثر العلماء على أن عموميه معتبر
وخالف في ذلك بعض العلماء^(٤) ومنهم الشافعي رحمه الله ، حيث قال : (العام
الوارد في معرض المدح أو الذم لا عموم له ، لأن المقصود منه الحث في
المدح ، والزجر في الذم) إذا تقرر ذلك فإن المتفق على عموميه أولى
من المختلف في عموميه ١٠٠هـ

(١) موطأ مالك ج٢/٥٣٢ كتاب النكاح ، مصنف عبد الرزاق : ج١٨٩/٧

سنن البيهقي ج١٦٤/٧ ،
(٢) المستصفى للخرائ : ٣٥٩ ، حاشية التفازاني ج٢/٣١٢ ، روضة الناظر : ٢٢٢
شرح الكوكب المنير ج٢/٢٥٥ ، الأحكام للامدي ج٢/١١٥ ، الاتقان للسيوطي ج١٨/٢
روح المعاني للالوسي ج٤/٢٦٠ ، أضواء البيان للشيخ الشنقيطي ج١٠/٧٣

(٣) أضواء البيان : ج١٠/٧٤

(٤) وقال بعدم العموم أبو الحسن الكرخي ، وبعض الحنفية ، وبعض المالكية ،
ونقل ذلك عن الشافعية باطلاً (شرح الكوكب المنير مع الهامش : ٢٥٥)

رابعاً : إن آية (وأن تجمعوا بين الاختين) حاضرة والأخرى مبيحة ، والحاضر مُقدّم على المبيح احتياطاً ، والأخذ بإحتياط أصل في الشرع كما تقرر في علم الأصول (١) وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (دع ما يريبك الى ما لا يريبك) (٢)

خامساً : إن آية (وأن تجمعوا بين الاختين) مدنية والأخرى مكية ، ومن مسالك الترجيح ترجيح المدني على المكي إذا كان هناك تعارض ظاهري (٣) ومن الجدير بالذكر أن الجمع المحرم الذي ترجح هو جمع الاختين من الإمام المملوكتين في الوطاء ، وأما الجمع بين الاختين في الملك فهو جائز بلا خلاف بين العلماء كما قال العلامة ابن قدامة المقدسي في كتابه المغني (٤) وقال الامام مالك رحمه الله (٥) : فني الامة تكون عند الرجل فيصيبها ثم يريد ان يصيب اختها ، انها لا تحل له حتى يُحرّم عليه فرج أختها بنكاح أو عتاقة أو كتابة أو ما أشبه ذلك .

(١) القواعد في أصول الفقه ج ٣ / ١٤ ، امول السرخسي ج ٢ / ٢١ ، الإحكام ج ٢ / ٢٢٦ ، حاشية التفتازاني ج ٢ / ٣٠٢ ، كشف الاسرار ج ٣ / ٩٤ ، العدد ج ٢ / ٩١٧ ،
 (٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق باب ٦٠ / ٤٦٨ وقال : حسن صحيح والنسائي في كتاب الاشربة ، باب الحث على ترك الشبهات ، ج ٨ / ٣٢٧ ،
 واحمد في مسنده ج ١ / ٢٠٠ ، والحاكم في المستدرک كتاب البيوع ج ٢ / ١٣ وقال : صحيح الاسناد ، ووافقه الذهبي كلهم عن الحسن بن علي رضي الله عنهما
 (٣) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ٢ / ٤٨
 (٤) ج ٦ / ٥٦٤ حيث فصل في المسألة
 (٥) الموطأ ج ٢ / ٥٣٩ بتحقيق عبد الباقي

موقف الباحث عند التعارض والاختلاف الظاهري في النصوص

بعد أن بينت الأسباب التي توهم وجود الاختلاف والتناقض في النصوص القرآنية ، وضربت الأمثلة لكل ذلك مع بيان موقف الباحث والدارس من هذه الأسباب ، وكيفية حمل كل توهم للاختلاف في القرآن على سبب من هذه الأسباب ، والتي تدل على إعجاز هذا القرآن وتنوع أساليب بيانه وتفوق منهجه ، وإحكام آياته وتألفها وانسجامها وترابطها ، ولا عجب فإن القرآن قد أنزل رحمة للعالمين وهدى للناس ، فالمطلوب من كل احد هو تدبر آياته كما قال تعالى :

(كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب ٠) - ص ٢٩ -

الآن أنه قد يعرض للباحث أو القارئ في نصوص الكتاب أو السنة ما يُوهم الاختلاف ، والخروج من هذا التوهم وبيان علاقة النص بما يخالفه في الظاهر يتنازعه في بعض الاحيان عدة أسباب كأن يحتمل النمان النسخ أو الجمع بينهما ، لذا لابد من تفصيل القول في ذلك بما يناسب حاجة البحث وبيان موقف الباحث والقارئ من نصوص الكتاب اذا كان هناك ما ظاهره التعارض او الاختلاف ، وسوف اطبق هذه الدراسة على نصوص السنة أيضا بشيء من الاجاز للعلاقة الوثيقة التي تربط القرآن بالسنة إذ هي مُفسّرة ومُبيّنة للقرآن ، كما أنها مؤكدة للمعاني الواردة فيه وقد تأتي بحكم جديد كما هو معلوم ، وإذا كان الأمر كذلك فأقول :

إن الواجب على كل من يتطرق لدراسة النصوص والبحث فيها أن يعلم أن الشارع الحكيم لا يُمكن أن ينزل حكمين متناقضين في آن واحد في مسألة واحدة ثم يطلب من المكلف أن يأتي بهما معا في وقت واحد ، لذا فالواجب على كل باحث أن يسلك المنهج العلمي المرتضى في فهم النصوص والربط بينها وتقديم بعضها على بعض ، والمسلك المتفق عليه بين جمهور العلماء هو كالتالي :

أولا : الجمع بين مدلولات النصوص والتوفيق بينها ما أمكن ذلك ثانيا : فان تعذر ذلك فالنسخ إن أمكن ذلك وعلم المتقدم والمتأخر ثالثا : ان تعذر كل ذلك نلجأ للترجيح ، فيقدم الراجح للعمل (١)

(١) خالف الحنفية في هذا المنهج فقدموا الترجيح على الجمع

وسوف يأتي بيان منهجهم

وابداً ببيان مسلك الجمع والتوفيق بين النصوص فأقول :
إذا ظهر ما يُظن أنه تعارض بين نصين وأمكن العمل بكل واحد منهما ولو
من وجه دون وجه ، فلا يُصار الى غير ذلك لأن أعمال الدليلين أولى
من إهمال أحدهما ، ولأن الأصل في الأدلة هو الأعمال دون الإهمال.
هذا إذا لم يثبت النسخ ، فإذا ثبت أن النصين أحدهما ناسخ والآخر
منسوخ بأي طريقة ^(١) معتبرة) كان هو المقدم لأنه يكون حينئذ مراد الشارع
والواجب التعبد بما يريده الشارع ،

(١)
وحول أولوية الجمع والتوفيق بين النصوص يقول الامام الشافعي رحمه الله :
(ولزم أهل العلم أن يُمضوا الخبرين على وجوههما ما وجدوا لإمضاءهما
وجهاً ، ولا يعدونهما مختلفين وهما يحتملان أن يُمضيا ، وذلك إذا أمكن.
فيهما أن يُمضيا معا أو وجد السبيل الى إمضاءهما ، ولم يكن منهما
واحد بأوجب من الآخر .)

وقال في موضع آخر (٢) : (ولا يُنسب الحديثان الى الاختلاف ما كان
لهما وجه أن يُمضيا معا ، إنما المختلف ما لم يمتنع الا بسقوط غيره
مثل ان يكون الحديثان في الشيء الواحد هذا يحله وهذا يحرمه .) اهـ
وقال الامام الشاطبي (٣) رحمه الله :

(التعارض اذا ظهر فلا بد من أحد أمرين: إما الحكم على أحد الدليلين
بالإهمال ، فيبقي الآخر هو العمل لا غير، وذلك لا يصح إلا مع فرض ابطاله
بكونه منسوخاً، أو تطرق غلط أو وهم في السند أو في المتن إن كان خبر
آحاد ، أو كونه مضموناً يُعارض مقطوعاً به الى غير ذلك من الوجوه
القادرة في اعتبار ذلك الدليل ،

وإذا فرض أحد هذه الاشياء لم يمكن فترس اجتماع دليلين فيتعارضا ،
وقد سلموا أن أحدهما ناسخاً فلا يُعد معارضا فكذلك ما في معناه ، فالحكم
إذا للدليل الثابت عند المجتهد كما لو انفرد عن معارض من اصل ،
والامر الثاني : الحكم عليهما معا بالأعمال ويلزم من هذا أن لا يتوارد
الدليلان على محل التعارض من وجه واحد وانما يتواردان من وجهين ، وإذا
ذاك يرتفع التعارض البتة .) اهـ

(١) الرسالة : ٣٤١ ، تحقيق احمد شاكر

(٢) نفس المصدر : ٣٤٢

(٣) الموافقات : ج٤ / ٢٠٤ ، والشاطبي هو: ابراهيم بن محمد اللخمي الغرناطي
الشهير بالشاطبي ، اصولي حافظ كان من ائمة المالكية له عدة مصنفات منها
الموافقات ، والاعتماد ، وهو غير الشاطبي المقرئ صاحب القصيدة المعروفة بالشاطبية
في علم القراءات ، (الاعلام للزركلي : ج١ / ٧١)

وتعرض لذلك الإمام الحازمي فقال (١) :

(ادعاء النسخ مع امكان الجمع بين الحديثين على خلاف الأصل إن لا عبرة بمجرد التراخي ٠٠٠) وقال في موضع آخر (٢) :

(مهما أمكن الجمع بين الأحاديث تعذر النسخ ، ومهما أمكن حمل كلام الشارع على وجه يكون أعم للفائدة كان أولى صونا لكلامه على الله عليه وسلم - عن سمات النقص ، ولأن في ادعاء النسخ اخراج الحديث عن المعنى المفيد وهو على خلاف الأصل ٠) اهـ وحول هذا المعنى يقول العلامة اللكنوي (٣) رحمه الله :

(إن اخراج النص الشرعي عن العمل به مع امكان العمل غير لائق فالأولى أن يُطلب الجمع بين المتعارضين بأي وجه كان بشرط تعمق النظر وغوص الفكر ، وأما اذا وُجد ما يدل على ارتفاع الحكم الأول صريحا صير الى النسخ كما صرح بذلك أهل أصول الحديث ، وليس كل متأخر معارض لمتقدمه ناسخا له ، وإن التعارض في نظر الرجال لا يُخرج الدليلين عن العمل بهما معا فيعمل بكل واحد منهما إما عزيمة وإما رخصة ٠) اهـ

قلت : تبين مما مضى من أقوال الأئمة كيف أن الواجب عند

التعارض الظاهري بين النصوص هو الجمع بينها ، ولا نلجأ للنسخ ما أمكن الجمع ، اللهم الا اذا ورد دليل منفصل يُبين أن هذا ناسخ وهذا منسوخ ، وهنا يجب العمل بالنسخ ، وذلك لأنه تبين لنا أنه مراد الشارع ومثاله : آية الوصية مع آية الميراث الذي تقدم بيانه ، فالآيتان يمكن تفسيرهما على أن الميراث ناسخ لوجوب الوصية للوالدين والاقربين الوارثين ويمكن الجمع بينهما على أن الوصية جائزة للوارثين مع ما ثبت لهما من الميراث ، فلما جاءت السنة الصحيحة وبينت انه (لا وصية لوارث) (٤)

لنا ذلك على أن آية الميراث ناسخة للوصية للوالدين والاقربين الوارثين وأنه لا يجوز الوصية للوارث ، ويبقى غير الوارث خارج نطاق النسخ ، فتجوز له الوصية ، فهنا قدمنا النسخ على الجمع لدليل خارجي رجح النسخ

(١) الاعتبار في النسخ والمنسوخ من الآثار : ٦٩

(٢) نفس المصدر : ص ٩

(٣) الاجوبة الفاضلة : ١٨٣ - ١٨٤ ، واللكنوي هو : محمد عبيد الحي اللكنوي من علماء الهند البارزين ، له عدة مصنفات قيمة ، انظر : مقدمة الاجوبة : ١١

(٤) الحديث تقدم تخريجه في مبحث الناسخ والمنسوخ في فصل لمباب موهم الاختلاف

المسلك الثاني : النسخ

يُلجأ اليه عند عدم إمكانية الجمع وتعذره مع معرفة المتقدم زمانا والمتأخر عليه ، واللجوء للنسخ بعد الجمع هو طريقة الجمهور من العلماء ، وهو الطريق الصحيح ذلك أن اللجوء الى الترجيح قبل النسخ فيه إهمال أحد الدليلين بالكلية ورد للخبر المرجوح ، أما اللجوء الى النسخ فليس فيه هذا المحذور ، ذلك اننا نكون قد أعملنا النص المنسوخ في وقت من الاوقات ، وكذلك نكون قد أثبتنا الخبر المنسوخ ولم نرده كما الحال في الترجيح ، والمراد بالترجيح هنا الترجيح في أخبار الاحاد وسوف يأتي بيانه بمشيئة الله تعالى ،

ومن امثلة اللجوء للنسخ عند تعذر الجمع : قوله تعالى (والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) - البقرة / ٢٣٤ -

فهذه الآية الكريمة توجب على المتوفى عنها زوجها أن تعتد اربعة اشهر وعشرة أيام ، فاذا انقضت هذه المدة حل لها التزوج وجاءت اية أخرى بحكم آخر وهي قوله تعالى : (والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ اخْرَاجٍ ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) - البقرة / ٢٤٠ -

فهذه الآية أوجبت على الأزواج أن يوصوا لأزواجهن بالنفقة والسكنى لمدة عام ما لم يخرجن من بيوتهن ، فاذا خرجن فليس عليهن جناح في ذلك وليس عليكم جناح في منع النفقة والسكنى عنهن وترك منعهن من الخروج ، لانه لم يكن مقامها الحول واجبا عليها بل كانت مخيرة في ذلك لقوله تعالى : (فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) يعني من التشوف للزواج (١)

واذا كان الامر كذلك فإنه لا يمكن الجمع بين مدلولي الايتين لعدة امور منها : -

(١) احكام القرآن لابن العربي : ج١ / ١٠٧ ، زاد المسير : ج١ / ١٨٦
تفسير الرازي ج٦ / ١٥٨ ، تفسير القرطبي ج٣ / ٢٢٦
روح المعاني للالوسي ج٢ / ١٥٨

أن الآية الأولى توجب العدة مطلقا ، فلم تقيد بها بعدم خروجهن من البيوت كما أنها ربطت التشوف للزواج ببلوغ الأجل وهو انتهاء العدة ،
بينما الآية الأخرى ربطت انتهاء العدة بخروجهن من بيوتهن فإذا خرجن حلّ
لهن التشوف للزواج لكنها متى خرجت سقطت نفقتها من مال زوجها المتوفى
فهنّ على هذا مُخَيَّرة في الاعتداد وليس بواجب عليها كما هو الأمر في
الآية الأولى ،

كما أن الوصية بالنفقة والسكنى للمتوفى عنها زوجها قد ثبت نسخه بما
ثبت لها من الميراث ، والسنة دلت على أنه : (لاوصية لوارث) (١)
فإذا سقطت عنها النفقة والسكنى فهي لم تعد مخيرة في الاعتداد بل ثبت بحقها
حكم آخر وهو وجوب الاعتداد ، وهو ما صرح به الآية الكريمة :
(يترصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا)

هذا وهناك أدلة تثبت هذا النسخ سوى ما تقدم من عدم إمكانية الجمع
منها : ما رواه البخاري (٢) عن ابن الزبير قال : (قلت لعثمان بن
عفان : " والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجا ...) قد نسختها الآية
الأخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا ابن أخي لا أُغَيِّر شيئا من
مكانه .) اهـ

ويقصد رضي الله عنه أن ترتيب الآيات توقيفي ، وأن الآية قد يُنسخ حكمها
ولا يُنسخ رسمها ،

ومنها قول النبي - صلى الله عليه وسلم - للفرقة بنت مالك بن سنان حين
قتل زوجها : (امكثي فني بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله) (٣)

أي انتهاء الأربعة أشهر والعشرة أيام
ومنها ما نقله القرطبي (٤) عن القاضي عياض : من أن الإجماع منعقد على
أن الحول منسوخ ، وأن عدتها أربعة أشهر وعشرا

وقال القرطبي (٥) بعد أن نقل ذلك : (هذا مع وضوحه في السنة الثابتة
إجماع من علماء المسلمين لا خلاف فيه ، والرواية عن مجاهد شاذة لم
يتابع عليها .)

(١) تقدم تخريجه

(٢) في كتاب الطلاق باب ٤٢ / ١٨٣ ج١ ، كتاب التفسير باب ٤١ ج٥ / ١٦٠

(٣) أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الطلاق ، باب في المتوفى عنها ج٢ / ٧٢٣

والنسائي : كتاب الطلاق ، باب مقام المتوفى عنها زوجها ج٦ / ١٩٩

والترمذي في سننه : كتاب الطلاق ، باب أين تعتد المتوفى عنها رقم ١٢٠٤ ، وقال : حسن صحيح

(٤) تفسير القرطبي ج٢ / ٢٢٦ ونظر البحر المحيط لابي حيان ج٢ / ٢٤٥

(٥) نفس المصدر

من وفاة زوجها أربعة اشهر وعشرا ، مدخولا بها أو غير مدخول ، صغيرة لم تبلغ أو كبيرة قد بلغت (اهـ)

قلت فهذا المثال المتقدم يوضح لنا سلوك طريق النسخ عند تعذر الجمع وأن النصوص التي لا يظهر وجه الجمع بين مدلولاتها لا بد أن يرد في الشرع ما يبين الناسخ من المنسوخ .

وفيما يلي مثال آخر من السنة لاتمام الغائدة :

روى البخاري (١) ومسلم (٢) عن عائشة وأم سلمة - رضي الله عنهما - (أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يُصبح جنبا من جماع غير احتلام في رمضان ثم يصوم)

وروى البخاري (٣) ومسلم (٤) عن أبي هريرة عن الفضل بن عباس : أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : (من أدركه الفجر جنبا فلا يصم) فالواضح من الحديثين أنه لا يمكن الجمع بينهما ، حيث إن الحديث الاول يُثبت مشروعية أن يُصبح المرء جنبا من جماع في رمضان ثم يصوم ، لأنه فِعْلُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو القدوة ، ولا دليل على الخصوصية ويدل على عدم الخصوصية قول النبي - صلى الله عليه وسلم - لمن سأل : (يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم ؟ ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم) والحديث الآخر الذي رواه أبو هريرة عن الفضل مرفوعا يدل على أن من أصبح جنبا فلا صوم له

لذا فقد سلك العلماء طريق النسخ وقدموا حديث عائشة وأم سلمة وجزم الامام النووي (٦) بأنه استقر الاجماع على ذلك

قال الشوكاني (٧) : (وعن ابن المنذر وغيره سلوك النسخ ، وبالنسخ

قال الخطابي وقواه ابن دقيق العيد بأن قوله تعالى :

(أَلْحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ) - البقرة / ١٨٧ -

يقتضي إباحة الوطء في ليلة الصوم ومن جملتها الوقت المقارن لطلوع الفجر فيلزم إباحة الجماع فيه ومن ضرورته أن يُصبح فاعل ذلك جنبا ولا يفسر صومه (اهـ)

(١) صحيح البخاري : كتاب الصوم باب : ٣٢ الصائم يصبح جنبا ج٢ / ٢٣٢

(٢) في صحيحه : كتاب الصوم ، واللفظ له (شرح النووي ج٢ / ٢٢٢)

(٣) صحيح البخاري كتاب الصوم ، الصائم يصبح جنبا ، ج٢ / ٢٣٣

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الصوم ، واللفظ له (شرح النووي ج٢ / ٢٢٠)

(٥) صحيح مسلم : كتاب الصوم ، (شرح النووي ج٢ / ٢٢٣ - ٢٢٤)

(٦) انظر شرح النووي على صحيح مسلم ج٢ / ٢٢٢

(٧) نيل الاوطار : ج٤ / ٢٩٢

قلت : والرواية عن مجاهد أخرجه الإمام البخاري بسنده عن ابن أبي نجيع عن مجاهد قال : (جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية ، إن شاءت سكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت وهو قول الله تعالى : (غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم) فالعدة كما هي واجب عليها) اهـ

وهذا الجمع من مجاهد رحمه الله غير صحيح وذلك لعدة أمور :

منها أن الوصية للوارث منسوخة باتفاق العلماء بما ثبتت من الميراث وأنه لا وصية لوارث ، فكيف يجوز للزوجة وهي وارثة ان تتمتع بنفقة حول زيادة على نصيبها في الميراث (٢)

ومنها ان الآية الثانية لم توجب تربية سنة بل او جبت الوصية بما يتمتعن به سنة ، ذلك انها تجعل للمتوفى عنها حق الخروج في أي زمن ، وحق ترك الحداد ، والتشوف للزواج اذا هي خرجت ، فلا يحرم عليها شيء من ذلك قبل أربعة اشهر وعشرا اذا كان ذلك بالمعروف شرعا (٣)

يقول الامام الطبري (٤) في ذلك : (ثم أخبر تعالى ذكره أنه لا حرج على أولياء الميت في خروجهن وتركهن الحداد على أزواجهن لأنَّ المقام حولا في بيوت أزواجهن والحداد عليه تمام حول كامل لم يكن فرما عليهن وانما كان ذلك اباحة من الله تعالى ذكره لهن ، إن اقمتم تمام الحول محدات ، فأما إن خرجن فلا جناح على أولياء الميت ولا عليهن فيما فعلن في أنفسهن من معروف وذلك ترك الحداد) اهـ

هذا بالنسبة للآية الثانية أما الآية الاولى : فقد حرمت على المتوفى عنها زوجها حق الخروج وحق التشوف للنكاح ، وأوجب عليها الحداد والتربية حتى يبلغ الكتاب أجله ، وهذا يدفع إمكانية الجمع

ثم انه نقل عن مجاهد نفسه القول بالنسخ (٥) ولهذا فالظاهر أنه قد رجع عن قوله الأول وفاقا لاجماع الأئمة

قال ابن المنذر : (وأجمعوا أنَّ عِدَّةَ الحُرَّةِ المسلمة التي ليست بحامل من (٦) (٧)

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير / سورة البقرة : ج٥/١٦٠

(٢) هذا بالنسبة للنفقة ، أما السكنى في الاربعة اشهر وعشرا فهي محل خلاف بين العلماء وهما قولان للشافعي : ابن كثير ج١/٤٤٤ ، القرطبي ج٣/٢٢٦ البحر المحيط ج٢/٢٢٣

(٣) البحر المحيط ج٢/٢٤٦ ، حاشية الجمل على الجلالين ج١/١٩٦

مناهل العرفان للزرقاني ج٢/١٥٧ ط الحلبي ، الدر المنثور ج١/٧٣٩

(٤) تفسير الطبري ج٥/٢٩١ ، تحقيق احمد شاکر

(٥) القرطبي : ج٣/٢٢٦ ، (٦) في كتاب الاجماع : ١٠٨ ط دار طيبة - الرياض

واعظم : بداية المجتهد لابن رشد ج٢/٩٦ لمعرفة تفاصيل احكام العدة

(٧) وابن المنذر : هو ابو بكر محمد بن ابراهيم بن المنذر النيسابوري ، الحافظ المجتهد الفقيه ، كان يُعرف بفقيه مكة وشيخ الحرم ، ت : ٣١٨ تهذيب الاسماء واللغات للغوي : ج٢/٧٢٣ ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج٣/١٠٢

ومما يدل على النسخ أيضا رجوع أبي هريرة - رضي الله عنه -
عن الفتوى بما كان يرويه لبلوغه الخبر الناسخ حيث ثبت في مسلم^(١)
(قال : فرجع أبو هريرة عما كان يقول في ذلك)

قال الإمام النووي^(٢) : (جواب بن المنذر فيما رواه البيهقي : أن حديث
أبي هريرة منسوخ وأنه كان في أول الأمر حين كان الجماع محرما في الليل
بعد النوم ، كما كان الطعام والشراب محرما) ثم نسخ ذلك ولم يعلمه
أبو هريرة ، فكان يُفتي بما علمه حتى بلغه الناسخ فرجع إليه ، قال
ابن المنذر : هذا أحسن ما سمعت فيه) اهـ

قلت : ومما تقدم نرى كيف ان العلماء قد سلكوا طريق النسخ عند
وجود تعارض بين نصين توفر فيهما شروط النسخ ، وقدموا ذلك على الجمع
لما فيه من التكلف^(٣) ، إضافة الى رجوع أبي هريرة عما كان يُفتي به وذلك
لبلوغه آخر الامرين في حكم صوم من أصبح جنبا من جماع ، والله الموفق

(١) صحيح مسلم : كتاب الصوم ، (شرح النووي ج٧ / ٢٢٢)

(٢) شرح صحيح مسلم ج٧ / ٢٢١

(٣) جمع بعضهم بان المراد بحديث أبي هريرة : (من أدركه الفجر وهو جنب
فلا يصم) المراد بذلك الارشاد إلى الأفضل ، وهو أن يغتسل قبل الفجر
فلو خالف جاز ، وأن النبي فعله لبيان الجواز

وجواب آخر : لعله محمول على من أدركه الفجر مجامعا فاستدام بعد طلوع
الفجر عالما فانه يفطر ولا صوم له ، (شرح النووي على مسلم ج٧ / ٢٢٢)
قلت : وكل ذلك فيه نوع من التكلف والنسخ هو الطريق الصحيح كما تقدم

المسلك الثالث : الترجيح

ولا بد من الإشارة الى أن الترجيح عند التوفيق بين نصوص القرآن يختلف مدلوله عن الترجيح بين نصوص الاخبار الأحادية ، فالترجيح عند دراسة نصوص القرآن المقصود به : الترجيح بين مدلولات النصوص الظنية الدلالة ، والترجيح هنا لا يؤدي الى إهمال النص المرجوح بل يُعمل بهما كليهما ، فهو اعتبار أن هذا النص بيان لذاك او مخصص له أو مقيد له ، وغير ذلك مما لا يقتضي اطراح أحد النصين ، حيث لا يجوز الترجيح بين الأدلة القطعية بقوة السند كما هو الحال في أخبار الآحاد ، بل يُلجأ للترجيح بالحكم (١)

وقد تقدم مثال الجمع بين الأختين في ملك اليمين ، وكيف أن عموم قوله تعالى : (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ) - النساء / -

يُعارض في الظاهر عموم قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ فِيهَا حَرَامٌ) - المؤمنون - فلا بد ان يكون أحدهما مخصصاً للآخر ، فلجئنا الى الترجيح فوجدنا أن

عموم قوله تعالى : (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ) يترجح على عموم قوله تعالى (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) فيخصص عموم الثانية بالاولى ، وقد تقدمت مرجحات ذلك في الفصل السابق

ومن المعلوم أن القرآن كله قطعي الثبوت فنصوصه كلها في قوة واحدة ، والترجيح بينها لا يكون كما هو الحال في الترجيح بين الأدلة الظنية كما سيأتي بيانه

وقد ذكر الامام الزركشي في البرهان (٢) بعض مسالك الترجيح بين مدلولات النصوص القرآنية التي ظاهرها التعارض أو الاختلاف ، أجملها فيما يلي مع بعض التوضيح وضرب الأمثلة ما أمكن ذلك

أولها : تقديم المدني على المكي (٣) ، فيقدم الحكم بالآية المدنية على المكية في التخصيص والتقديم

فمن فوائد معرفة المكي والمدني تمييز الناسخ من المنسوخ فيما اذا وردت آيتان من القرآن في موضوع واحد ظاهرهما الاختلاف ، ومثاله قوله تعالى : (وَاَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) الحجر / ٩٤ - فانها من سورة الحجر وهي مكية ، يخالف مدلولها قوله تعالى :

(١) ارشاد الفحول للامام الشوكاني : ٢٧٤ (٢) البرهان في علوم القرآن ج٢/ ٤٨

(٣) المكي هو ما نزل من القرآن قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة

انظر : مناهل العرفان للشيخ الزرقاني ج١ / ١٩٤

(فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ٠٠٠٠) - التوبة / ٥ -

وهي من سورة التوبة المدنية ،

والجواب ظاهر وهو أن الآية الثانية ناسخة للأولى بحكم كونها آية مدنية والأولى مكّية

ثانيها : أن يكون أحد الحكمين على غالب أحوال أهل مكة ، والآخر على غالب أحوال أهل المدينة ، فيقدم الحكم بالخبر الذي فيه أحوال أهل المدينة

كقوله تعالى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ٠٠٠) - البقرة / ١٧٨ -

مع قوله : (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) - آل عمران / ٩٧ -

والإجماع منعقد على أن من جنّى في الحرم لا يؤمّن لأنه هناك حرمة الحرم وردّ الأمان ، وأجمعوا على أن الحرم لا يفيد الأمان فيما سوى التفسّس ،

إنما الخلاف فيما إذا وجب القصاص عليه خارج الحرم فالتجأ إلى الحرم

فهل يستوفي منه القصاص في الحرم ؟

قال مالك والشافعي وأحمد في رواية : يستوفي لعموم قوله تعالى :

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ) - البقرة / ١٧٨ -

وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا قتل خارج الحرم ثم دخله لم يقتل ، بل

يضيّق عليه حتى يخرج من الحرم ، لعموم قوله تعالى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) - آل عمران / ٩٧ -

ويترجح مذهب الجمهور من عدة أوجه :

الوجه الأول : - ما أفاده الإمام الزركشي (١) من تقديم الحكم بالخبر

الذي فيه أحوال أهل المدينة ، فإذا أمكن بناء كل واحدة من اليتين على

البطل جعل التخصيص في قوله تعالى : (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

كانه قال : إلا من وجب عليه القصاص

الوجه الثاني ما قاله الرازي (٢) : من أن قوله : (كان آمناً)

اثبات لمسمّى الأمن ويكفي في العمل به اثبات الأمن من بعض الوجوه ،

وهو عام في كل من دخله وقد خصّ بمن وجب عليه القصاص

الوجه الثالث : ما قاله أبو بكر ابن العربي (٣) رحمه الله :

ان قوله تعالى : (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) خبر عام كان وليس فيه اثبات

حكم مستقل وإنما هو تنبيه على آيات وتقرير نعم متعدي ، فإن الله

سبحانه قد كان صرف القلوب عن القصد إلى معارضته ، وصرف الأيدي عن إذايته

(١) البرهان ج ٢ / ٤٩ ، (٢) تفسير الرازي : ج ٨ / ١٥٣

(٣) أحكام القرآن ج ١ / ٢٨٤ - ٢٨٥ بتصرف ، وانظر : تفسير الماوردي ج ١ / ٣٣٥

وجمعها على تعظيم الله تعالى وحرمة ، كما قال تعالى :
 (أولم يروا أننا جعلنا حرما آمنا ويُتخطف الناس من حولهم ، أفتبالباطل
 يؤمنون وينعمة الله يكفرون ؟) - العنكبوت / ٦٧ -
 هذا بالإضافة الى أن من قال لا يُستوفى فيه القصاص ممّن لجأ اليه قالوا :
 إنه لا يُطعم ولا يُسقى ويُضيق عليه حتى يضطر للخروج وليس هذا من الأمن
 فسي شيء ، كذلك قولهم يقع القصاص في الأطراف في الحرم ، ولا أمن أيضا
 مع هذا) اهـ

الوجه الرابع : ما روي عن بعض السلف^(١) : (أن الحرم لا يُعيز عاصيا
 ولا فارا بدم ولا فارا بخربة^(٢))

ثالث الترجمات : أن يكون أحد الظاهرين مستقلا بحكمه ، والآخر مقتضيا
 لفظا يزداد عليه فيقدم المستقل بنفسه عند المعارضة والترتيب ،
 ومثال ذلك قوله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله) - البقرة / ١٩٦ -
 مع قوله تعالى : (فإن أُحصرتم فما استيسر من الهدي) - البقرة / ١٩٦ -

وقد أجمعت الامة على أن الهدي لا يجب بنفس الإحصار ، وإنما يجب على من
 تحلل بالإحصار ، فيكون تقدير الآية : فإن أُحصرتم فتحللتم فما استيسر
 من الهدي ، هذا والإجماع منعقد على أن المُحرم إذا حصره عدو من المشركين
 أو غيرهم فمنعوه من الوصول الى البيت ولم يجد طريقا آمنا فله التحلل
 وقوله تعالى : " فان احصرتم ... " إنما نزلت في حصر الحُدبية ، وكان
 النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه محرمين بعمرة فحلّوا جميعا^(٣)

وقد قدم جمهور العلماء^(٤) دلالة قوله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله)
 والتي فيها أن المُحرم ليس له التحلل عند المرض بل يبقى على إحرامه
 حتى يقدر على النسك ، قدموا ذلك على دلالة قوله تعالى :

(فان أُحصرتم فما استيسر من الهدي) التي تفيد في ظاهرها جواز الإحلال
 لمن منعه مرض عتق مواصلة النسك ،

ومرجح التقديم هو أن قوله تعالى : " وأتموا الحج والعمرة لله " مستقلا بحكمه ، وقوله : " فإن أُحصرتم ... " مقتضيا لفظا يُزداد عليه

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحج (شرح النووي ج٩ / ١٢٩) والقائل : عمرو بن سعيد

(٢) الخربة : اصلها سرقة الابل وتطلق على كل خيانة ، غريب الحديث للخطابي ج٢ / ٢٢٦
 شرح النووي على مسلم ج٩ / ١٢٨

(٣) المغني لابن قدامة ج٣ / ٣٥٦ ، ٣٦٣ احكام القرآن ج١ / ١٢٠ ، البرهان للزركشي ج٢ / ٤٩

(٤) مالك والشافعي واحمد وغيرهم ، وقال بجواز التحلل عند المرض ونحوه ابو
 حنيفة واصحابه وابو ثور ، المغني ج٣ / ٣٦٣ ، الموطأ : ج١ / ٢٦٠ كتاب الحج

وتقديره : فإن أُحْصِرْتُمْ فتلجأوا إلى ما بين يديكم من الأرض ولا جناح عليكم فيه لئلا تُنذروا . . . حيث إن الإجماع مُنعقد على أَنَّ الهدي لا يجب بنفس الإحصار بل بالتحلل من الإحرام هذا وللجمهور أدلة أخرى على أَنَّ الآية مُختصة بمن حصره عدو ، منها : أَنَّ الآية إنما نزلت في حصر المشركين للرسول وأصحابه عن أداء العمرة ، فدل ذلك أَنَّ المراد بالآية هو حصر العدو ، ومنها قوله تعالى بعد الآية : (٥٠) فإذا أمنتُم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج (٥٠) حيث إنَّ الأمن لا يطلق إلا في ارتفاع الخوف من العدو ومنها أنه تعالى ذكر بعد الآية حكم المريض فالظاهر أَنَّ المُحصر غير المريض ومنها أَنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - دخل على مُباعة بنت الزبير ، فقالت : يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (حجي واشترطي أَنَّ مَحَلِّي حيث جِستني) (١) فلو كان المرض يُبيح الحل ما احتاجت إلى شرط (٢) ومنها ما ورد من آثار عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وغيرهم بأسانيد صحيحة (٣) من أنه (لا حصر إلا حصر العدو) (وأن من حصره مرض لا يحل حتى يطوف بالبيت وبين الصفا والمروة) ، كما أخبر ابن عمر أن ذلك سنة النبي - صلى الله عليه وسلم -

رابع الترجيحات :-

ترجيح النص على الظاهر (٤) : وذلك أَنَّ النص في دلالة على الحكم أقوى من الظاهر ، ولذلك إذا تعارض النص مع الظاهر قُدِّم النص في العمل لأنَّ الأقوى دلالة يقدم على غيره ، ومثال ذلك : قوله تعالى في الخمر : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) - المائدة / ٩٠ فهذه الآية نص في التحريم ولا يحتمل غير ذلك ، فلا يكون معارضا له

(١) رواه :

مسلم في الحج ، باب جواز اشتراط المحرم التحلل (شرح النووي ج١ / ١٣١)

واحمد في مسنده ج١ / ١٦٤ ، كلهم عن عائشة رضي الله عنها

(٢) المغني لابن قدامة ج٢ / ٣٦٣ ، بداية المجتهد لابن رشد ج١ / ٣٥٤

احكام القرآن لابن العربي ج١ / ١٢١ ، نيل الاوطار للشوكاني ج٥ / ١٧٤

(٣) أخرجه عنهم : مالك في الموطأ في الحج ، ما جاء فيمن احصر بغير عدو ج١ / ٣٦١

(اثر ابن عمر وابن الزبير)

والشافعي في مسنده ص : ١٢٤ ، ٣٦٧ طاولي (اثر ابن عباس)

البخاري كتاب المحصر ، باب ٢ / ٢٠٧ (اثر ابن عمر)

(٤) النص : ما يفيد بنفسه من غير احتمال ، او هو الصريح في معناه

الظاهر : ما يسبق إلى الفهم منه عند الاطلاق معنئ مع تجويز غيره ، او ما

احتمل معنيين هو في احدهما اظهر من الاخر ، (روضة الناظر : ١٥٧)

قوله تعالى : (ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يُحب المحسنين) - المائدة / ٩٣ -

فهذه الآية لم تُسق لتحليل كل طعام وشراب بل لبيان منزلة التقوى ، وأن المتقي من يعمل الصالحات ويحسن عملها (١) ولذلك لما سيق شارب خمر إلى عمر وسأله لِمَ شربتها ؟ واستدل بهذه الآية ، أقام عليه عمر الحد وقال له : اخطأت التأويل ، إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله (٢)

الترجيح في السنة

الذي تقدم هو ترجيح بين مدلولات نصوص القرآن ، وانتقل الآن إلى بيان الترجيح في السنة غير المتواترة ، وهي أخبار الآحاد التي تُعتبر ظنية الثبوت في الجملة (٣) ولهذا تفاوتت في قوة ثبوتها ، لذلك قد يرد بعض الأخبار المتعارضة إما في الظاهر فنلجأ للجمع بين مدلولاتها كما تقدم ، وإما يكون التعارض حقيقي فنلجأ للنسخ إن علم المتأخر من المتقدم ، وإلا فالترجيح وقد عرّف العلماء الترجيح بأنه :

(تقوية أحد الدليلين الظنيين المتعارضين بمرجح من المرجحات فيعمل بالاقوى) أو هو : (اقتران أحد الصالحين للدلالة على المطلوب مع تعارضهما بما يوجب العمل به وإهمال الآخر)

فإذا كان أحد الدليلين غير صالح للدلالة فلا تعارض ، فإذا اقترن أحد الدليلين بمرجح من المرجحات فهذا مما يوجب العمل به وإهمال المرجوح (٤)

(١) اصول الفقه للعلامة أبي زهرة : ٩٥ وانظر : تفسير الألوسي ج٧/ ١٨ زاد المسير لابن الجوزي ج٢/ ٤١٩

(٢) وسبب نزول الآية كما روى البخاري في كتاب التفسير (ج٥/ ١٩٠) عن انس أنه لما نزل تحريم الخمر قال بعض القوم : قُتل قوم وهي في بطونهم ، قال : فأنزل الله : (ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية أي لأنها لم تكن محرمة عندما قُتلوا ، فلمهم العذر

(٣) البيهقي في الأشربة ج٨ / ٣١٦ ط : دائرة المعارف العثمانية - حيدر اباد والدارقطني ج٣ / ١٦٦ ، طبعة المدني - المدينة المنورة ، والشارب : قدامة بن (٣) أخبار الآحاد : هي التي لم تبلغ إلى درجة التواتر الذي يفيد العلم الضروري بحصول الخبر ، لكنها في نفس الوقت متفاوتة في قوة ثبوتها ، وكثير منها يفيد العلم النظري ، مثل الأحاديث المسلسلة بالائمة او المخوفة بالقرائن وإذا صح الخبر عن رسول الله وجب العمل به باتفاق الأمة

(٤) الأحكام لسلامدي ج٣/ ٢٥٦ ، كشف الاسرار ج٤/ ١٩٨ ، المستمقى / ٥٢٢ ، شرح البدخشي / ٤٤٥:٣

قال الآمدي (١) : (كان الصحابة والسلف لا يعدلون الى الاراء والاقيسة الا بعد البحث عن النصوص واليأس منها ، ومن نظر في وقائع اجتهاداتهم علم أنهم كانوا يُوجبون العمل بالراجح من الظنيين دون أضعفهما) اهـ هذا ومن الجدير بالذكر أنه اذا كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق ، فإن الظن لا يدفع اليقين ، إلا اذا كان المقطوع عاماً والمظنون خاصاً ، كآية خُصّت بحديث صحيح ، فالصحيح أن المظنون يُخصى عموم المقطوع ، لأن العمل بالأخص فيه إعمال الدليلين خلافاً للحنفية فإنهم يجعلون العام المقطوع المتأخر ناسخاً للخاص ، ويتوقفون حيث لم يُعلم التاريخ (٢) .

ومثال ذلك :

قوله تعالى بشأن المحرمات من النساء : (وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وراءَ ذلكَ) النساء/٢٤ خُصَّ ذلكَ بتحريم نكاح المرأة على عمتها والمرأة على خالتها وغير ذلك بطريق السنة الثابتة وهي قوله - صلى الله عليه وسلم - :
(لا تُنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها .) (٣)

والترجيح في الأخبار يكون من عدة أوجه ذكرها العلماء (٤)
اذكرها بايجاز يتناسب مع حاجة البحث
الوجه الأول : الترجيح الراجع الى الاسناد ، وذلك من عدة أمور :
أحدها : كثرة الرواة ، حيث إن الخبر الذي رواه أكثر يترجح لأنه أقوى في النفس وأبعد من الغلط والسهو ، وفي اجتماع الأكثر تقوية للظن ، ولذا فقد تنتهي الكثرة الى التواتر الذي لا يُشك فيه ، والكثرة التي يرجح بها على القلة إنما يُعتمد عليها بعد صحة الخبرين وإلا فليس لكثرة الرواة والطرق ترجح على غيره ، والصحابة رضي الله عنهم كانوا يرجحون بكثرة العدد

(١) الإحكام : ج٣ / ٢٥٦

(٢) شرح البدخشي ج٣ / ١٦٠

(٣) تقدم تخريج ذلك في مبحث العموم والخصوص

(٤) المستصفى للغزالي : ٥٢٢ فما بعدها ، الإحكام للآمدي : ج٣ / ٢٥٩

كشف الأسرار ج٤ / ١٢٠ ، التمهيد في أصول الفقه لأبي الخطاب ج٣ / ٢٠٢

الاعتبار للحازمي : ١١ ، روضة الناظر لابن قدامة : ٣٤٧

ارشاد الفحول للشوكاني : ٢٧٦

فأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - قوَّى خبر المغيرة بن شعبة في ميراث الجدة بموافقة محمد بن مسلمة (١) وقوَّى عمر - رضي الله عنه - خبر أبي موسى الأشعري في الاستئذان بموافقة أبي سعيد الخدري (٢) - رضي الله عنهم جميعا - ومن أمثلة ذلك : ما رواه الشيخان (٣) عن عبادة بن الصامت وأبي سعيد الخدري مرفوعا : (الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلا بمثل سواء بسواء ، يدا بيد فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد) وفي رواية : (فمن زاد أو استزاد فقد أربى) رجح العلماء هذا الحديث على حديث أسامة الذي أخرجه الشيخان أيضا (٤) (إنما الربا في النسيئة) (لا ربا إلا فيما كان يدا بيد) (٥) وقالوا : إن مع عبادة عمر وزيد بن أرقم والبراء بن عازب وأبا سعيد الخدري وأبا هريرة وغيرهم ، فالحديث الذي رواه جمع أولى من الذي رواه واحد (٦)

-
- (١) خبر ميراث الجدة : (أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أطعم الجدة السدس) أخرجه الترمذي : كتاب الفرائض ، باب ميراث الجدة ، وقال : حسن صحيح ج٤/٤١٩ وأبو داود : كتاب الفرائض ، باب ميراث الجدة ج٣/٣١٧ رقم : ٢٧٢٤ وابن ماجه : في الفرائض ، باب ميراث الجدة ، رقم ٢٧٢٤ تحقيق عبد الباقي ومالك في الموطأ ، كتاب الفرائض ، باب ميراث الجدة ج٢/٥١٣
- (٢) خبر أبي موسى في الاستئذان : (إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع) أخرجه البخاري : كتاب الاستئذان ، باب ١٣ ج٧ / ١٣٠ ومسلم : في الاستئذان (شرح النووي ج٤ / ١٣٠) عن أبي سعيد الخدري
- (٣) البخاري : في البيوع ، باب ٧٨ ، ج٢ / ٣٠ ، عن عمر ، وأبي بكر ، وأبي سعيد ومسلم : في البيوع ، باب الربا (شرح النووي ج١١ / ١٤) عن عبادة بن الصامت وأبي سعيد وأبي هريرة والبراء بن أرقم وغيرهم ، واللفظ لمسلم
- (٤) البخاري : في البيوع ، باب ٧٩ ، ج٢ / ٣١ ومسلم : في البيوع ، باب الربا (شرح النووي ج١١ / ٢٥ - ٢٦) واللفظ له
- (٥) أي يجوز بيع درهم بدرهمين ، وصاع بصاعين من التمر إذا كان يدا بيد ، أما مؤجلا فهو حرام ، وإباحة المورة الاولى وهي درهم بدرهمين حالا مجمع على ترك العمل بها (شرح النووي على مسلم ج١١ / ٢٥)
- (٦) انظر : الرسالة للامام الشافعي : ٢٨١ ، ارشاد الفحول للشوكاني : ٢٧٦ نيل الاوطار ج٥ / ٢٩٩ والترجيح بكثرة الرواة خالف فيه أكثر علماء الاحناف ، وذهب بعضهم الى الترجيح بكثرة الرواة ، انظر : كشف الاسرار ج٤ / ١٢٠ ، تيسير التحرير ج٣/ ١٦٩ أصول السرخسي : ج٢ / ٢٤

الامر الثاني : الترجيح بماء يعود على صدق الراوي وورعه أو ضبطه وإتقانه ، أو امتياز به بصفة معينة ، ومن أمثلة الترجيح لامتياز الراوي بصفة معينة :

(١) ما رواه البخاري وغيره عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها - أن بَريرة عُتقت في حال كون زوجها عبدا ، رجح العلماء هذه الرواية على رواية الاسود بن يزيد (٢) عنها أنه كان حرا ، لأن القاسم كان مُحَرَّمًا لعائشة لأنها عمته فكان يسمع منها بدون حجاب ، بخلاف الاسود بن يزيد ، فهنا رجح العلماء خبر القاسم لامتيازه بصفة معينة وهو كونه راويا عن عائشة بدون حجاب لما في ذلك من الفائدة والقدرة على حسن التلقي ، ويؤيد ذلك أيضا رواية ابن عباس في البخاري وغيره ،

الامر الثالث : أن يكون راوي أحد الخبرين المتعارضين صاحب الواقعة ، فقد قدّم العلماء حديث أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث (٣) رضي الله عنها (أن النبي - صلى الله عليه وسلم - تزوجها وهو حلال) (٤) على خبر ابن عباس رضي الله عنه - (أن النبي - صلى الله عليه وسلم - تزوج ميمونة وهو مُحَرَّم) (٥)

ومما يعضد هذا الترجيح : أن أبا رافع مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان السفير في تزوج ميمونة ، قال : (تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ميمونة وهي حلال وينى بها وهي حلال ، وكنت أنا الرسول فيما بينهما) (٦) الأمر الرابع : أن يكون أحدهما باشر القصة ، ولذلك قدّم الصحابة أخبار أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في صحة صوم من أصبح جنبا على من روى خلاف ذلك (٧) وهناك أمور أخرى تعود للسند ذكرت أهمها (٨)

(١) البخاري : كتاب الطلاق ، باب ١٥/ خيار الامة تحت العبد ، ج٦ / ١٧١

ومسلم في العتق ، باب الولاء لمن اعتق (شرح النووي ج ١٠ / ١٤٦ - ١٤٧)

عن القاسم وعروة بن الزبير أيضا ، والبخاري : في الطلاق عن ابن عباس ج ٦ / ١٧١

(٢) أخرجه ابو داود في الطلاق ، باب من قال كان حرا ، رقم ٢٢٣٥ ج ٢ / ٦٧٢

والنسائي : في الطلاق باب خيار الامة ، ج ٦ / ١٣٣ ، طبعة الحطبي ، واحد : ١٧٠/٦

(٣) هي أم المؤمنين تزوجها النبي سنة سبع ، قيل هي الواهية نفسها للنبي ،

روت ستة وأربعين حديثا ، وتوفيت : سنة ٥١ هـ (الإصابة لابن حجر العسقلاني ج ٤ / ٤١١)

(٤) مسلم في النكاح ، تحريم نكاح المحرم (شرح النووي ج ٩ / ١٩٦)

ورواه الترمذي : في كتاب الحج ج ٣ / ٢٠٣ ، وابو داود في المناسك ج ٢ / ٤٢٢

(٥) البخاري في النكاح ، باب ٣٠ نكاح المحرم ج ٦ / ١٢٨ ، ج ٢ / ٢١٤

ومسلم في النكاح ، تحريم نكاح المحرم (شرح النووي ج ٩ / ١٩٦)

(٦) رواه الترمذي في كتاب الحج ج ٣ / ٢٠٠ وقال حديث حسن ،

واحمد في مسنده ج ٦ / ٣٩٢ ، وانظر : نيل الاوطار للشوكاني ج ٥ / ٨٣

(٧) تقدم تخريج ذلك ، (٨) ومن اراد معرفة المزيد فليراجع كتب الاصول وعلوم الحديث ، التي مرت الاشارة الى بعضها ، وانظر : تدريب الراوي ٢ / ٢٠٠ ، والتقيد ولايضاح للعراقي ص : ٢٨٦

الوجه الثاني : الترجيح لأمر يعود الى المتن وذلك بأمور منها : أن يكون أحد الخبرين حاظرا والاخر مُبيحا ، فيقدم الحاضر على المُبَيِّح احتياطا وتركيا للريبة (١)

ومنها : أن يكون أحد الخبرين قولا ، فيقدم على الفعل عند التعارض كما أن الفعل مُقدم على التقرير ، وإنما كان القول مقدما على الفعل لاحتمال الفعل الاختصاص به - صلى الله عليه وسلم - ، ولأنَّ الفعل المجرد لا يدل على المراد من دون قرينة ، والقول يدل على الحكم بنفسه (٢) كما أن أكثر الأحكام مستندة الى اقوال دون الافعال ،

ويمكن التمثيل لهذا بما رواه الامام مسلم وغيره عن عثمان من أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : لا يَنْكِحُ الْمُحْرِمُ وَلَا يُنْكَحُ وَلَا يَخْطُبُ (٣) مع ما رواه الشيخان (٤) عن ابن عباس : (أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - تزوج ميمونة وهو مُحْرِمٌ)

فهذا من تعارض القول والفعل فيترجح القول خاصة وأنه قد ثبت من حديث ميمونة أم المؤمنين أنه قد تزوجها حلالا (٥) ، فهذا يدل أن قول ابن عباس : أنه تزوج وهو مُحْرِمٌ مؤوَّلٌ أو وهم كما قال الخطابي (٦) ومنها : أن يكون أحدهما دالا على الحكم والعلة ، والآخر على الحكم دون العلة ، فما يدل على العلة يكون أولى ، ومن أمثلة ذلك : ما رواه الشيخان (٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما - مرفوعا : (مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ) ، فهذا الحديث يدل بمسلك الإيماء والتنبيه على أنَّ عِلَّةَ القتل هنا تبديل الدين ، فيشمل الذكر والأنثى

(١) سبق توضيح ذلك في مبحث تعارض العمومين ، وانظر : أدلة التشريع المتعارضة / ١٠١

(٢) أي ان مجرد فعل الرسول له لا يدل على وجوب أو نداء أو اباحة أو غير ذلك من صيغته بل من قرينة أخرى ، انظر : كتاب أفعال الرسول - صلى

الله عليه وسلم - رداليتها على الأحكام ، ص : ٨٩ ، ٢٦٥ ، وأدلة التشريع : ٢٠٣ - ٢٠٥

(٣) أخرجه مسلم في كتاب النكاح ، تحريم نكاح المحرم (شرح النووي ج ٩ / ١٩٤)

واحمد في مسنده ج ١ / ٥٧ ، ٦٤ ، وأبو داود في المناسك ج ٢ / ٤٢١ ، رقم / ١٨٤١

والترمذي في الحج ، باب كراهية تزويج المحرم ج ٣ / ٩٨١ ، وابن ماجه في النكاح رقم / ١٩٦٦

(٤) سبق تخريجه في الامر الثالث من الوجه الأول للترجيح

(٥) سبق تخريجه ايضا قريبا

(٦) معالم السنن للخطابي بهامش سنن أبي داود ج ٢ / ٤٢٣ في المناسك رقم / ١٨٤٣

(٧) البخاري في صحيحه : كتاب استتابة المرتدين ، باب ٢ / حكم المرتد والمرتدة ٥٠ / ٨

ومسلم في صحيحه : كتاب القسامة ، ما يُباح به دم المسلم (شرح النووي ج ١٢ / ٤٨)

مع الحديث الصحيح الآخر الذي رواه الشيخان (١) : أنه صلى الله عليه وسلم - (نهى عن قتل النساء والمباني)

ففيه الحكم دون العلة ، فيقدم عليه الأول لذكر العلة مع الحكم ، فيكون الأرجح قتل المرتدة ، لأنَّ تبديل الدين صفة موجودة في الرجل والمرأة ، فصارت كالعلة وهي المؤثرة في الأحكام دون الأسامي ، كما أن النهي عن قتل النساء وارد على سبب في الحربية ، لأنه لا معنى فيهن لقتال ، وذلك خلافاً لمن منع قتل النساء مطلقاً بالكفر/ سواء كن مرتدات أو حربيات كالحنفية (٢)

ومنها : تقديم رواية الإثبات على رواية النفي ، ومثاله : ما قاله ابن عمر (٣) - رضي الله عنهما : (سألت بلالاً فقلت : ألقى النبي

- صلى الله عليه وسلم - في الكعبة ؟ قال : نعم ركعتين بين الساريتين اللتين على يساره إذا دخلت ، ثم خرج فلقى في وجه الكعبة ركعتين) مع ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال (٤) : (لما دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه فلما خرج ركع ركعتين في قبل الكعبة ، وقال هذه القبلة)

فقدّم العلماء رواية بلال ، لأنه مثبت وابن عباس إنما يعتمد في نفيه على سماعه من أسامة بن زيد ، كما ثبت في صحيح مسلم (٥) : حيث ساق بسنده إلى عطاء قال : (ولكنني سمعته - أي ابن عباس - يقول : أخبرني أسامة بن زيد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج)

وأسامة إنما ينفي حسب علمه ورؤيته ، وذلك لا يعارض ما أثبتته بلال لأن المثبت معه زيادة علم ، والله تعالى أعلم

(١) البخاري : كتاب الجهاد والسير باب ١٤٨/ قتل النساء في الحرب ج ٣/ ٢١ ومسلم : كتاب الجهاد والسير ، تحريم قتل النساء والمباني (شرح النووي ج ١١/ ١٦٤)

(٢) الرسالة للإمام الشافعي : ٣٠٠ ، الاعتبار للحازمي : ٢٠ البغني لابن قدامة ج ٨ / ١٢٣ ، مذكرة أصول الفقه للشيخ الشنقيطي : ٣٢٢

(٣) صحيح البخاري : كتاب الصلاة ، باب ٣٠ (واتخذوا من مقام إبراهيم صلى) ج ١/ ١٠٤ ، فتح الباري ج ١/ ٥٠١ ، واللفظ له

ومسلم : في كتاب الحج باب استحباب دخول الكعبة للحاج (شرح النووي ج ٩/ ٨٢)

(٤) أخرجه البخاري : كتاب الصلاة باب ٣٠ / (واتخذوا من مقام إبراهيم صلى) ج ١/ ١٠٤ ومسلم : في كتاب الحج ، باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره (شرائع النووي ٨٧/٩)

(٥) شرح النووي على مسلم ج ٩/ ٨٧ كتاب الحج ، استحباب دخول الكعبة

الوجه الثالث : الترجيح بأمر خارجي

منها أن يشهد القرآن أو السنة أو الإجماع بوجوب العمل على وفق الخبر ، أو يعضده قياس ، أو يعمل به الخفاء الى غير ذلك (١)
قال السرخسي (٢) : (إن ظهر عمل الناس بأحد النصين دون الآخر ينتفي التعارض ، لأنّ الذي ظهر العمل به بين الناس ترجح بدليل الاجماع فينتفي به معنى التعارض بينهما ، مع أنّ الظاهر أنّ اتفاقهم على العمل به لكونه متأخراً ناسخاً لما كان قبله ، وبالعلم بالتاريخ ينتفي التعارض فكذا بالاجماع الدال عليه ، وإن كان المعمول به سابقاً فذلك دليل على أنّ الآخر مؤول أو سهو من بعض الرواة إن كان في الأخبار) اهـ
قلت : ومن أمثلة عمل الناس بأحد النصين دون الآخر حديث : (الذهب بالذهب والفضة بالفضة ٠٠٠ الى قوله : (يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى) مع الحديث الآخر : الذي رواه أسامة بن زيد : (٣)
(إنما الربا في النسيئة) ، فقد ترجح الحديث الاول لعمل الناس به ، واجماعهم على ترك الفعل بالثاني كما قال الامام النووي - رحمه الله تعالى -

ومن أمثلة الترجيح لموافقة ظاهر القرآن :

حديث التغليس بالصبح الفتي روته عائشة (٥) : (كُنَّ نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن الى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس)
فإنه قدّم على حديث الإسفار بالفجر وهو ما رواه رافع بن خديج مرفوعاً :
(أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر)
فحديث التغليس يوافق ظاهر القرآن وهو قوله تعالى :
(وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض) - آل عمران / ١٣٣ -

(١) انظر : الرسالة للامام الشافعي : ٢٨٤ - ٢٨٥ ، تدريب الراوي للسيوطي ج٢/ ٢٠٢ التمهيد في اصول الفقه لابي الخطاب الحنبلي ج٣ / ٢١٧ - ٢٢٠

(٢) اصول السرخسي ج٢ / ١٨-١٩ (٣) تقدم تخريجهما

(٤) شرح النووي على مسلم ج١١ / ٢٥

(٥) اخرج به البخاري : في مواقيت الصلاة ، باب ٢٧ وقت الفجر ج١ / ١٤٤

(٦) اخرج به : الترمذي في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في الاسفار بالفجر ، وقال حسن صحيح ، ج١ / ٢٨٩ تحقيق احمد شاكر

والنسائي : في الصلاة ، باب الاسفار ج١ / ٢٧٢ بنحوه

وابو داود : في الصلاة باب في وقت الصبح ج١ / ٢٩٤

وقوله تعالى : (وحافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) - البقرة / ٢٣٨ -
قال الشافعي (١) رحمه الله : (وَمَنْ قَدَّمَ الصَّلَاةَ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا كَانَ
أَوَّلَى بِالمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا مِمَّنْ أَخَّرَهَا عَنْ أَوَّلِ الْوَقْتِ) اهـ
كما يؤيد ذلك ما رواه الترمذي وأبو داود (٢) عن أم فروة -
رضي الله عنها - (سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - : أي الأعمال أفضل
قال : الصلاة لأوّل - وقتها) (٣)
الى غير ذلك من أساليب الترجيح التي ذكرها العلماء
وأردتُ مما تقدم بيان منهج العمل وموقف الباحث مع ذكر أمثلة ولم
أقصد الحصر ، وتركت استقراء ما قيل في الترجيح لأن هذا المبحث
من تنمة الفائدة ،
ويظهر لنا مما تقدم كيف أن النصوص لا تظو عند تعارضها الظاهري من
إحدى ثلاث : إمكانية الجمع ، أو النسخ ، أو الترجيح
وبهذا نرى أن نصوص الشريعة لا يمكن ادعاء تعارضها ، إلا من قبل جاهل أو
حاقد ،

(١) الرسالة : ٢٨٩

- (٢) الترمذي في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في الوقت الاول من الفضل ج١ / ٣١٩
وابو داود في كتاب الصلاة ، باب المحافظة عليه وقت الصلاة ج١ / ٢٩٦
والحديث صححه الشيخ الالباني في صحيح الترغيب والترهيب / ١٥٩
(٣) قال السيوطي رحمه الله (في شرحه لسنن النسائي ج١ / ٢٧٢) :
(قال في النهاية : اسفر الصبح انما انكشف وضاء ، قالوا : انه حين
امرهم بتغليس صلاة الفجر في اول وقتها ، كانوا يطلونها عند الفجر الاول
حرما ورغبة ، فقال اسفروا بها اي : اخروها الى ان يطلع الفجر الثاني
ويتحقق ، ويقوي ذلك انه قال لبلال : نور بالفجر قدر ما يبصر القوم
مواقع نيلهم ، وقيل ان الامر بالاسفار خاص باليالي المقمرة لان اول الصبح
لا يتبين فيها فأمروا بالاسفار احتياطا .) اهـ

منهج الحنفية في التخلص من التعارض الظاهري بين النصوص

لقد سلك علماء الحنفية منهجا مغايرا لمنهج الجمهور في التوفيق بين النصوص ، وخلاصة منهجهم كما ذكروه في كتبهم (١) هو كالتالي :

: يُنظر في الدليلين المتعارضين في الظاهر من حيث التاريخ الذي وردا فيه ، فإن علم المتأخر منهما كان المتأخر ناسخا للمتقدم فإن لم يُعلم التاريخ فعلى المجتهد أن يبحث عن مرجح لأحد الدليلين) فإن لم يكن مرجح ، فيدفع التعارض بالجمع بين الدليلين والعمل بهما بقدر الامكان ، وذلك بحمل أحد الدليلين على غير ما يُحمل عليه الدليل الآخر ،

فالحنفية في هذا الترتيب قدموا الترجيح على الجمع بخلاف طريقة الجمهور ، ولهذا فهم يُقدمون الخبر المشهور إذا عارض خبر الواحد ، ويقدمون النص القرآني على خبر الآحاد وإن أمكن الجمع بينهما ، الى غير ذلك وهم قدموا الترجيح على الجمع لأمر ذكروها (٢) :

قالوا : لأنّ تقديم الخارج على المرجوح هو المعقول وعليه انعقد الاجماع فأولوية الأعمال إنما هو اذا لم يكن المهمل مرجوحا ، والسرف فيه أن المرجوح عند مقابلة الراجح ليس دليلا فليس في إهماله إهمال دليل لهذا فإن الاحاف قد رجحوا (٣) حديث : (تنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر من البول .) (٤)

وهو عام في بول ما يؤكل لحمه وما لا يؤكل ، وبول الانسان رجحوا عموم ذلك على ما أفاده حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - في خبر العُرنيين : (فأمرهم أن يأتوا إبل المدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ...) (٥) والذي يدل على طهارة أبوال ما يؤكل لحمه (٦)

(١) تيسير التحرير : ٢٣٨/٣ ، كشف الاسرار ٥٥/٢ ، اصول السرخسي ١٨/٢

مسلم الثبوت : ج٢/ ١٥٣ ، الاجوبة الفاظة للكنوي / ١٩٦

(٢) المصادر السابقة (٣) تيسير التحرير ج٣ / ١٣٨

(٤) رواه البزار والطبراني في الكبير عن ابن عباس (صحيح الترغيب للالباني/ ٦٥

والدارقطني في الطهارة عن انس ، والحاكم في المستدرک کتاب الطهارة

عن ابي هريرة ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ج١ / ١٨٣

(٥) البخاري : كتاب الحدود ، باب المرتدين ، ج٨/ ١٩ ، وفي الوضوء باب ٦٦ ج١/ ٦٤

(٦) وهو مذهب النخعي والاوزاعي والزهري ومالك واحمد ومحمد بن الحسن

وزفر وطائفة من السلف ، ووافقهم من الشافعية : ابن خزيمة وابن المنذر

وابن حبان والاصطخري والرويانى ، (المغني لابن قدامة ٨٨/٢ ، نيل الاوطار ج١/ ٦٠)

قلت : ولا يصح ادعاء الخصوصية هنا لعدم الدليل ، ولأن الله تعالى لم يجعل الشفاء في ما حرم ، فتطيل التداوي بها دليل على طهارتها ، وطهارة ما يلحق بها ، لذلك فإنَّ الواجب هو الجمع بين الخبرين فيحمل حديث (تنزهوا من البول ٠٠٠) المتقدم على بول الإنسان ، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه البخاري^(١) في الذي يُعذب في قبره : (كان أحدهما لا يستتر من بوله ٠٠٠) فلم يذكر سوى بول الناس كما قال البخاري^(٢) وقد أيد الإمام الشوكاني^(٣) مذهب الجمهور بأن الخبي - صلى الله عليه وسلم - كان يصلي في مرايض الغنم وأمر بذلك^(٤) مع أنها لا تخلو من أبقارها وأبوالها وأنَّ النهي عن الصلاة في معادن الإبل إنما هو لأجل أن لا تؤذي المصلي وقال^(٥) : (ولم نجد للقائلين بالنجاسة دليلاً يصلح للنقل عن حكم الأصل واستصحاب البراءة الأصلية) وغاية ما جاءوا به حديث صاحب القبر^(٦) وهو مع كونه مراداً به الخصوص كما سلف عموم ظني الدلالة لا ينتهز على معارضة تلك الأدلة المعتمدة بما سلف) اهـ

قال ابن قدامة في المغني^(٧) : والنجس لا يُباح شربه، ولو أُبِح

للضرورة لأمرهم بغسل أثره إذا أرادوا الصلاة) اهـ

قلت : فهذا الذي تقدم مثال لخبرين يمكن الجمع بينهما سلك الحنفية فيهما مسلك الترجيح ، وما ذكروه من أدلة علي منجهم من أولوية الراجح على المرجوح حتى مع إمكان التوفيق والجمع ليس بصحيح ، لان قولهم : «إن الإجماع منعقد على تقديم الراجح على المرجوح» هو فيما اذا لم يمكن الجمع بينهما فاذا أمكن كانا دليلين ، فليس هناك راجح ومرجوح ، فعدم العمل بهما هو إهمال لأحدهما بلا داعي ، والله ولي التوفيق

(١) صحيح البخاري : كتاب الوضوء ، باب ٥٥ من الكبائر ان لا يستتر من بوله ج١ / ٦٠ ، ورواه ايضا اصحاب السنن

(٢) المصدر السابق : نفس الكتاب ، باب ٥٦ ج١ / ٦١

(٣) نيل الأوطار : ج١ / ٦٠

(٤) البخاري : كتاب الوضوء ، باب أبوال إبل والدواب والغنم ج١ / ٦٤

(٥) نيل الأوطار ، مصدر سابق ج١ / ٦١

(٦) الحديث المتقدم : (تنزهوا من البول فان عامة عذاب القبر من البول) وكذلك جاء في بعض روايات البخاري : (لا يستتر من البول) ج١ / ٦١ بدل من بوله

(٧) المغني : ج٢ / ٨٨

الباب الثاني : موهم الاختلاف في النص القرآني

وهو من أربعة فصول :

الفصل الأول : موهم الاختلاف في القراءات

الفصل الثاني : موهم الاختلاف فيما يخص الكتاب

النسخ ، الشعر ، المحكم والمتشابه ، الالفاظ الأعجمية

.....

الفصل الثالث : المباحث اللغوية

الفصل الرابع : موهم الاختلاف في القصص القرآني ، وقد ألحقت به كل

ما يتعلق بالقصص وإن كان مما يتعلق بالباب الثالث

مؤهم الاختلاف في القراءات

(١) من المعروف أن هناك عشرَ قراءات متواترة يُقرأ بها النص القرآني ، وهذه القراءات العشر نقلتها الأمة خلفا عن سلف ، حفظا وكتابة ، وسند الامة في الحفظ والكتابة متصل برسول الله - صلى الله عليه وسلم - نقله جمع عن جمع بشروط التواتر المعروفة ، حتى وصلت اليها هذه القراءات كما نطق بها خاتم الأنبياء والمرسلين ، تحقيقا لقوله تعالى :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) - الحجر / ٩ -

فوجود هذا الاختلاف في القراءات مع تناسق مضمونها وأسلوبها البياني ، وأثرها المعجز ، وعدم تناقضها أو تعارض مدلولاتها له سببه وحكمته وفائدته ، وكله من عند الله عز وجل نزل به الروح الامين على سيد الانبياء والمرسلين - صلى الله عليه وسلم -

فالقراءات بمجموعها تمثل النص القرآني المتلقى عن رسول الله ، والاختلافات بينها انما هي في بعض الحروف أو كيفية النطق بها من تخفيف أو تشديد (٢) وغير ذلك مما سوف يأتي بيانه

وبسبب الجهل بمعنى القراءات وأسباب اختلافها وحكمتها وعلاقتها بالأحرف السبعة ، يظن بعض اعداء الاسلام جهلا أو من باب الطعن في المصدر التشريعي للمسلمين عن كيد وحسد أن النص القرآني متلف أو متناقض الي غير ذلك (٣)

كما أن بعض المسلمين ممن لم ينهل من علوم القرآن قد يتوهم او ينقدح في ذهنه بعض الاشياء التي تتعلق بالقراءات ينبغي ازالة الستار عنها وبيان حقيقتها ،

والذي سوف اتعرض له في هذا الفصل هو ما يتعلق ببيان أصل القراءات ومصدرها وحكمتها وفائدتها ، وبيان ماهية اختلافها ، وانه ليس باختلاف تضاد وانما هو اختلاف توسعة ورحمة وإعجاز ، وسوف اذكر بمشيئة الله امثلة تطبيقية لاختلاف القراءات

(١) انظر لمعرفة تواتر القراءات العشر : منجد المقرئين لابن الجزري ٩٣-٩٤، ١١٩ ومقدمة النشر في القراءات العشر لابن الجزري ايضا ، وفيث النفع للمفاقي ص : ٨ (بهامش سراج القارئ) ، والاتقان للسيوطي : ج١/ ٨٢

(٢) البرهان للزركشي : ج٢ / ٣١٨ (٣) انظر : كتاب القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي ، وكتاب الرسم العثماني للدكتور : عبد الفتاح الشلبي ، وكتاب : نقض كتاب في الشعر الجاهلي للعلامة : محمد الخضر حسين ص : ١٠٦

أصل القراءات ومصدرها :-

تعتبر القراءات المتواترة مظاهر للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ،
لذا لابد من إثبات نزول القرآن على سبعة أحرف ، ثم بيان معناها
وعلاقتها بالقراءات

نزول القرآن على سبعة أحرف :

روى الشيخان^(١) وأصحاب السنن^(٢) والمسانيد^(٣) عن جمع من الصحابة قوله -
صلى الله عليه وسلم - : (إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف)
وقد نصَّ أبو عبيد ، والحاكم ، والسيوطي ، والمصاقسي ، وغيرهم من الحفاظ والأئمة
أنه من الأحاديث المتواترة (٤)

وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده الكبير^(٥) : (أنَّ عثمان بن عفان رضي
الله عنه قال ، يوماً وهو على المنبر : (أُنْزِلَ اللَّهُ رَجُلًا سَمِعَ النَّبِيَّ -
صلى الله عليه وسلم - قال : (إنَّ القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شافٍ
كافٍ) لَمَّا قام ، فقاموا حتى لم يُحصوا فشهدوا أنَّ رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - قال : (أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ) ،
فقال عثمان - رضي الله عنه - : وأنا أشهد معهم)

(١) البخاري : في فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ج٦ / ١٠٠
ومسلم في فضائل القرآن (شرح النووي : ج٦ / ٩٩) كلاهما عن عمر بن الخطاب

وابن عباس وأبي بن كعب ، زاد في رواية مسلم : « فاقروا ما تيسر منه »
(٢) الترمذي في القراءات ، ج٥ / ١٩٤ وقال حسن صحيح ، عن عمر وأبي بن كعب بنحوه
وابن داود : كتاب الصلاة ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ج٢ / ١٥٨
والنسائي في الاقتراح ، باب جامع ما جاء في القرآن ج٢ / ١٥٠ عن عمر وأبي بن كعب
(٣) أحمد في مسنده : ج٢ / ٣٠٠ ، ٣٣٤ ج٤ / ١٦٩ ، ٢٠٤

وابن جرير في تفسيره : ج١ / ٢١ عن أبي هريرة مرفوعاً وسنده على شرط
الشيخين ، (سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني : ج٤ / ٢٧)
وابن حبان في صحيحه : عن أبي هريرة وابن مسعود (موارد الظمآن : ٤٤٠)
وغيرهم : انظر مجمع الزوائد للهيثمي : ج٧ / ١٥٠

(٤) انظر : نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني : ٢٨
النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج١ / ٢١ ، الاثنان للسيوطي ج١ / ٤٥
امرشد الوجيز لأبي شامة : ٨٧ ، غيث النفع للمصاقسي بهامش سراج
القارئ : ص ٩

(٥) مجمع الزوائد للهيثمي : ج٧ / ١٥٢

الحكمة والسبب من ورود القرآن على سبعة أحرف

إن الحكمة من ذلك هي التيسير على هذه الأمة والتخفيف عليها ، يقول ابن الجزري^(١) موضحاً ذلك : (فَأَمَّا سبب وروده على سبعة احرف فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها والتهوين عليها شرفاً لها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبیب الحق ، حيث أتاه جبريل فقال : إن الله يأمرک أن تقرأ القرآن على حرف ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : أسأل الله منافاته ومعاونته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ولم يزل يُبرِّد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف)^(٢) ، وذلك أن الانبياء عليهم السلام كانوا يُبعثون الى قومهم الخاصين بهم ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - بعث الى جميع الخلق أحمرها واسودها عربيها وعجميها ، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلففة ، والسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته الى غيرها او من حرف الى آخر ... فلو كُلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن السنتهم لكان من التكليف بما لا استطاع .) اهـ

ويقول ابن قتيبة^(٣) : (وكل هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الامين على رسوله عليه السلام ، وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر مبن شهر رمضان بما اجتمع عنده من القرآن ، فيحدث الله اليه من ذلك ما يشاء ، فكان من تيسيره أن أمره أن يُقرأ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ، فلهذلي يقرأ : " عى عين " يريد : حتى حين ولا سدي يقرأ " تعلمون " و " تسود وجوه " ، والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه ولم يُمكنه إلاّ بعد رياضة للنفس طويل ، وتذليل للسان وقطع للعادة ، فأراد الله برجمته ولطقه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ومتصرفاً في الحركات .) اهـ

(١) النشر في القراءات العشر ج١ / ٢٢ . ببعض الاختصار
(٢) رواه الامام مسلم : عن أبي بن كعب مرفوعاً ولغظه : (... إن الله يأمرک أن تقرأ أمتک القرآن على سبعة احرف ، فأیما حرف قرأوا عليه فقد اصابوا) - (شرح النووي ج٦ / ١٠٤) كتاب فضائل القرآن
(٣) تأويل مشكل القرآن : ص / ٢٨ باختصار بعض المقاطع

ولا يعني هذا التيسير والتخفيف أن يُبدّل كل أحد لفظ القرآن بما يوافق لهجته ولغته ، بل المراد أن الله أنزل من الحروف ما يوافق لهجات الأمة وطريقة تعبيرها في ذلك الوقت ، وقد أوضح ذلك الإمام ابن عطية (١) رحمه الله فقال : (أباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة ، وعارضه بها جبريل عليه السلام في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز وجودة الرصف ، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام : (فاقراءوا ما تيسر منه) بأن يكون كل واحد من الصحابة اذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن ، وكان معرضاً أن يُبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله ، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي ليوسع على أمته ، فأقرأ مرة لأبي بما عارضه جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه ، به ايضاً ، وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان وقراءة هشام بن حكيم لها ، والا فكيف يستقيم ان يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في كل قراءة منهما وقد اختلفا : (هكذا اقرأني جبريل) (٢) هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه .) اهـ

قلت : وما تقدم من كلام هؤلاء الائمة يوضح لنا الحكمه من هذه الاحرف ، وقد جاء النص عليها كما روى الامام الترمذي (٣) عن أبي بن كعب - رضي الله عنه قال : (لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل ، فقال : يا جبريل اني بعثت الى امة اميين منهم المعجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية ، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط ، فقال : يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة احرف) ولا بد من الاشارة أن حكمة التيسير والتخفيف على هذه الامة في هذه الاحرف هي الحكمة الرئيسية ، وهناك حكماً وفوائد اخرى سيأتي ذكرها بمشيئة الله تعالى

(١) نقله القرطبي في تفسيره : ج ١ / ٤٧

(٢) الرواية في الصحيحين ، وانه - صلى الله عليه وسلم - قال لهشام : اقرأ فقرأ ، فقال : هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة احرف فاقراءوا ما تيسر منه) وقد سبق تخريجه

(٣) سنن الترمذي : في القراءات ، ج ٥ / ١٩٣ ، رقم : ٢٩٤٤ ، وقال حسن صحيح وابو داود : ج ٢ / ١٦١ ، كتاب الصلاة رقم : ١٤٧٨ ط الحلبي والنسائي في الاقتراح ، باب جامع ما جاء في القرآن ج ٢ / ١٥٣

معنى قوله - عليه الصلاة والسلام - :

(إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف)

بعد استقراء اقوال العلماء في ذلك فإن الذي يظهر لي أن معنى :
السبعة أحرف الواردة في الحديث : سبعة أوجه من اللغات والمعاني
متفرقة في القرآن على ما يأتي (١)

وهذا ما اختاره جمع من الائمة منهم : ابن قتيبة وابن عبد
البر ، والباقلاني (٢) ، والرازي (٣) ، والزركشي (٤) ، وابن الجزري (٥)
ومكي بن أبي طالب القيسي (٦) ، وأبو علي الاهوازي (٧) ، وغيرهم
ومن المعاصرين : الشيخ عبد العظيم الزرقاني صاحب مناهل العرفان (٨) ،
والشيخ محمد بخت الميطعي (٩) ، والشيخ الخصري الدمياني ، والدكتور
صحي المالحي (١٠) ، وغيرهم

وانقل هنا بعض نصوصهم في إثبات معنى الاحرف السبعة :
يقول ابن قتيبة (١١) رحمه الله : (وانما تأويل قوله - على الله عليه
وسلم - أنزل القرآن على سبعة احرف : على سبعة أوجه من اللغات
متفرقة في القرآن ... والحرف يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم
وعلى الكلمة الواحدة ، ويقع على الكلمة بأسرها ، والخطبة كلها والقصيدة
بكمالها ... قال تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان
أصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه ...) الحج/١١ -
على حرف : أي على وجهه ، ثم قال : (وقد تدبرت وجوه الخلاف في
القرآن فوجدتها سبعة اوجه ، ثم ذكرها
وقال مكي بن أبي طالب القيسي (١٢) بعد أن ذكر الالوجه السبعة :
(والي هذه الاقسام السبعة ذهب جماعة من العلماء ... وقال :
وهو الذي نعتقده في ذلك ونقول به وهو الصواب وإن شاء الله)

-
- (١) قصدت في هذا المبحث بيان معنى الاحرف السبعة للقارئ من اقصر طريق
حتى يستطيع أن يدرك سبب وجود القراءات القرآنية ، لذلك لم أورد الاقوال
الآخري ، ولأن ذلك ليس من مقاصد هذا البحث ، ولمعرفة الاقوال الآخري وتفصيلها
يراجع : النشر لابن الجزري ج١/٢٤ ، البرهان للزركشي ج١/٢١٤ - ٢٢٠
(٢) تأويل مشكل القرآن : ٣٤ ، (٣) التمهيد ج٤/٦٦ (٤) النشر ج١/٢٦
(٥) النشر : ج١/٢٧ (٦) البرهان ج١/٣٣٤ ، (٧) النشر : ج١/٢٦
(٨) الإبانة : ص ٣٤ (٩) المرشد الوجيز لابن شامة : ١١٦ فما بعدها ، حيث
ذكر اقوال ائمة آخرين ايدوا هذا القول
(١٠) مناهل العرفان ج١/١٥٧ (١١) انظر : معجم القراءات القرآنية ، المقدمة
(١٢) مباحث في علوم القرآن : ١٠٨ (١٣) تأويل مشكل القرآن / ٣٤
(١٤) الإبانة : ٨٠/٨٩

وقال الزركشي^(١) : (حاصل اختلاف القراء يرجع الى سبعة أوجه ٠٠٠)
ثم شرع في عددها ، أما الحافظ محمد بن الجزري^(٢) فقد أفاد أنه فكر
وأمعن في هذا الحديث نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله عليه بما يراه
أنه الصواب وقال : (تتبعت القراءات صحيحها وشاذها وضعيفها ومنكرها ،
فإذا هي يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها ٠٠)
ثم ذكرها ،

قلت : فهذه الأوجه السبعة التي سوف يأتي تفصيلها تنتظم جميع
الاختلافات الواردة في القراءات ، كما تشمل على الحكمة التي لأجلها
جاءت الحرف السبعة الى غير ذلك من الغوائد التي سوف يأتي ذكرها^(٣)
وبالإستقراء التام لاختلاف جميع القراءات^(٤) توصل العلماء الذين مر ذكرهم
الى توضيح المقصود منها ، وانها سبعة أوجه لا يشذ عنها حرف واحد ،
وهذه السبعة اوجه ترجع جميع الاختلافات في القراءة اليها دون أن تلزم
في الكلمة الواحدة^(٥)
ولا بد من معرفة أن هذه السبعة أوجه في القراءات لا تشذ عن رسم المصحف
الامام الذي نسخه الخليفة الراشد عثمان بن عفان عن صف أبي بكر
الصديق رضي الله عنهما والتي كانت مشتملة على ما يحتمله رسمها من
الحرف السبعة متضمنة للعرضة الآخرة ؛
وانتقل الان الى بيان الالوجه السبعة التي هي تفر الألف السبعة ،
ملخصة منقحة مع ضرب الامثلة لكل وجه من القراءات المتواترة

(١) البرهان في علوم القرآن : ج١ / ٣٣٤

(٢) النشر في القراءات العشر ج١ / ٢٦

(٣) وللمزيد في معرفة ترجح هذا المذهب يُراجع : مناهل العرفان ج١ / ١٥٧

(٤) كان استقراء الرازي تاما وافيا واستقراء غيره فيه بعض النقص وذلك لا
يقدر فيمن كان استقراؤه تاما ، كما أن استقراءاتهم متقاربة
راجع : مناهل العرفان للزرقاني ج١ / ١٦٥ ، مباحث في علوم القرآن د ٠ صبحي
المالح ، : ص ١٠٥

(٥) وهذا بخلاف من قال إنها سبعة لهجات أو سبعة لغات ، فهناك اختلافات
لا ترجع لمجرد اللهجة كما أن في القرآن لغات اكثر من سبع قبائل ،
إضافة الى أن هشام بن حكيم وعمر بن الخطاب اختلفا في القراءة كما
مر وكلاهما قرشي ، انظر : الاتقان ١ / ٨٢ ، ٢٣٠ ، البرهان ١ / ٢١٩ ،

مباحث في علوم القرآن : ١٠٦

(١)
الأوجه السبعة :-

أولاً : اختلاف الأسماء إفراداً وتثنية وجمعاً
ومثاله : قوله تعالى : (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) - المؤمنون : ٨

قرأ ابن كثير (٢) : (والذين هم لأمانتهم ٠٠) بإفراد ، والملاحظ أن رسم المصحف للكلمة : هكذا : " لأمنتهم " بدون ألغين ، حتى تحتل القراءتين ثانياً : الاختلاف في تصريف الأفعال من مضارع وماض وأمر ،
ومثاله : قوله تعالى : (ربنا باعدْ بين أسفارنا) - سبأ / ١٩ -

يكسر العين المهملة واسكان الدال المهملة من " باعد " ، وهي قراءة نافع وعاصم وحمة والكسائي وابن ذكوان وخلف ، وقرأ يعقوب (٣) فهو من القراء العشرة : " ربنا باعدْ " برفع " ربنا " على أنه مبتدأ ، ويلفظ " باعد " على أنه فعلاً ماضياً جملته خبر ، وقرأ : ابن كثير وأبي عمرو وهشام (٣) : " ربنا بعدْ " على صيغة الدعاء ، وفيها معنى الإلحاح (٤) ، والملاحظ أن الرسم العثماني للكلمة " ربنا بعد " وهي محتملة للقراءات الثلاث حيث أنها في الرسم العثماني بلا ألف

ثالثاً : الإختلاف بالإبدال : وهو إبدال حرف بحرف مقارب له في الرسم ، ومثاله : (قوله تعالى : (وما هو على الغيب بضنين)

التكوير / ٢٤ -
قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (٥) : " بضنين " ،
وقراءة " بضنين " معناها : لا يبخل محمد - صلى الله عليه وسلم - بما آتاه الله من العلم والقرآن ، ولكن يؤدي عن الله عز وجل ،
وقراءة " بضنين " معناها : ما هو بمتهم على الوحي أنه من الله تعالى حيث إنها من ظننت : أي اتهمت ، لا من ظننت المتعدي الى مفعولين (٦)

(١) انظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ٣٦ الإبانة للقيسي : ٨٣ - ٩٠
النشر في القراءات العشر ج١ / ٢٦ - ٢٨ ، منهاهل العرفان ج١ / ١٥٥ فما بعدها

مباحث في علوم القرآن ، د . صبحي الصالح : ١٠٨ - ١١٢

(٢) النشر ج٢ / ٣٢٨ ، حجة القراءات لابي زرة : ٤٨٢

(٣) النشر ج٢ / ٣٥٠ ، حجة القراءات : ٥٨٨

(٤) كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التابعة منهم وبلقيس - صاحبة سليمان - منهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله اليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله ، ثم عرضوا عما امرؤا به فعوقبوا بارسال السيك والتفرق بالبلاد - ابن كثير : ج٣ / ٨٤٤

(٥) النشر : ج٢ / ٣٩٨

(٦) حجة القراءات لأبي زرة : ٧٥٢ ، وابوزرة هو : الامام عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة ، من علماء القرن الرابع الهجري ، مقرر ، وقاضي وفقه مالكي (مقدمة حجة القراءات : ٢٥ فما بعدها)

رابعاً : - الاختلاف بالتقديم والتأخير

ومثاله : قوله تعالى : (فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) - التوبة / ١١١ -

بفتح ياء الأولى وضم الثانية ، قرأ حمزة والكسائي وخلف^(١) :

(فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ) بضم ياء الأولى وفتح الثانية ، فأفادت القراءة

الثانية مدحهم بأنهم يُقْتَلُونَ بعد أن يقتل منهم^(٢)

خامساً : اختلاف وجوه الإعراب : ومثاله قوله تعالى :

(ذو العرش المجيد) - البروج / ١٥ -

قرأ حمزة والكسائي وخلف^(٣) : (ذو العرش المجيد) بخفض النال ،

فقراءة الرفع على أنه نعت كلمة " ذو " العائد على ذات الله تعالى

وقراءة الجر على أنه صفة العرش^(٤)

سادساً : - الاختلاف بالزيادة والنقص ، ومثاله قوله تعالى :

(وأُعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار) - التوبة / ١٠٠ -

قرأ بن كثير^(٥) : (تجري من تحتها الأنهار) بزيادة " من " ،

وهما قراءتان متواترتان قد وافق كل منهما رسم مصحف الإمام ، فإن

زيادة " من " وهي قراءة ابن كثير المكي وافقت رسم المصحف المكي

وهو أحد المصاحف التي بعث بها عثمان إلى الأمصار^(٦)

ومن الأمثلة أيضا : قوله تعالى :

(وقالوا اتخذ الله ولدا) - البقرة / ١١٦ -

قرأ ابن عامر الشامي^(٧) : (قالوا اتخذ الله ولدا) بغير واو^(٨)

(١) النشر : ٢ / ٢٤٦ (٢) حجة القراءات : ٣٢٥

(٣) النشر : ٢٩٩ / ٢ (٤) حجة القراءات : ٧٥٧

(٥) النشر : ٣٩٩ / ٣ ، حجة القراءات : ٣٢٢ ، وانظر : كتاب المصاحف لابن

أبي داود : ٤٧ طاولي ، المطبعة الرحمانية بمصر

(٦) قال ابن الجزري في توجيه قراءة : (تجري من تحتها الأنهار)

: فيُحتمل أنه إنما لم يُكتب في هذا الموضع لأن المعنى : ينبع الماء من

تحت أشجارها ، لأنَّه يأتي من موضع ويجري من تحت هذه الأشجار ، وأما

في سائر القرآن فالمعنى : أنها تأتي من موضع وتجري تحت هذه الأشجار ،

ولهذا المعنى خولف في الخط ، وتكون هذه الجنات معدة لمن ذكر تعظيما

لأمرهم وتنويعها بفنهم وإظهارا لمنزلتهم لمبادرتهم تصديق هذا النبي الكريم

عليه من الله أفضل الملة والتسليم (اهـ) (النشر : ٢٨٠ / ٢)

(٧) النشر : ٢٢٠ / ٢ ، حجة القراءات : ١١٠

(٨) ونقص الواو في قراءة ابن عامر على أن الكلام مستأنف غير متعلق بما

قبله ، لأنه قد علم أن المخبر عنه بهذا القول هو المخبر عنه فيما تقدم

بمنع ذكر الله في المساجد والسعي في خرابها ، وأثبت الواو عند غيره

لعطف الجملة على الجملة ، لأن المخبر عنهم واحد فعطف آخر الكلام على أوله

انظر : حجة القراءات : ١١٠ ، الكشف عن وجوه القراءات السبع للقيسي ٢٦٠ / ١

وقد وافقت قراءة ابن عامر رسم المصحف الشامي الذي هو بلده ، حيث إن عثمان - رضي الله عنه - قد أرسل الى الشام مصحفا إماما كبقية الأمصار ، فمهما كان الاختلاف بين القراءات المتوترة فإنه لا يخرج عن رسم المصحف الامام

سابعاً : - اختلاف اللهجات بالتفخيم والترقيق ، والإمالة ، والإظهار ، والإدغام ، والتسهيل ونحو ذلك

وهذا الحرف أكثر الحروف انتشاراً في القراءات حيث إنه يُراعى اختلاف اللهجات وكيفية أداء الكلمات والحروف لدى القبائل (١)

١ - مثال التفخيم ، كلمة : " الصلاة " بتفخيم اللام (٢)

٢ - ومثال الترقيق ، كلمة : " خيرا " بترقيق الراء (٣)

٣ - ومثال الإشباع ، كلمة " عليهم دائرة السوء " تُقرأ : عليهمو دائرة السوء " بإشباع حركة الضم (٤)

٤ - ومثال التسهيل ، كلمة : " أنتم أشد خلقا " تُقرأ بتسهيل الهمز : أنتم أشد خلقا " بتسهيل الثانية ، وتسهيل الهمز لغة قريش وبني تميم يهملون (٥)

٥ - ومثال الإشمام ، كلمة : " وفيض الماء " بإشمام الضم مع الكسر و : " مالك لا تأمناً " بإشمام الضم مع الإدغام (٦)

٦ - ومثال الإمالة ، كلمة : " بلى قادرين " و " هل أتاك " بإمالة ألف بلى وأتاك ، وكذلك : جاء وشاء وموسى وعيسى ، ونحو ذلك (٨) وإلإمالة تكون : بجعل الألف ياءً مُثَمَّةً بفتحة ، وهذا يُؤخذ بالتلقي

(١) وهذا كله متواتر ، انظر في ذلك : مُنجد المقرئين لابن الجزري ٢٢٧ - ٢٣٨

(٢) وهي قراءة ورش ، النشر : ج٢ / ١١١ ، تيسير التحبير / ٧٤

(٣) وهي رواية الأزرق عن ورش ، النشر ج٢ / ٧٤

(٤) حجة القراءات : ٨٠ وهي قراءة ابن كثير ورواية قالون عن نافع

(٥) وتسهيل الهمز قراءة : ابني عمرو وورش عن نافع وابن كثير وحمة وابي

جعفر مع بعض الفروق بينهم : النشر ج١ / ٣٦٢ فما بعدها ، ٣٩١

وتيسير التحبير ٥٧ - ٦٣ ، حجة القراءات ٨٤ ، تاويل مشكل القرآن ٣٨

وهذا كله يؤخذ بالتلقي من القراء

(٦) والإشمام قراءة الكسائي ، وافقه بعض القراء في بعض الكلمات ، انظر :

تيسير التحبير : ١٢٤ ، حجة القراءات : ٨٩ وهذا يؤخذ بالتلقي ايضاً

(٧) قرأ بها الجميع الا ابو جعفر ، تيسير التحبير : ١٢٤ ، حجة القراءات ٨٩

(٨) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف مع بعض الفروق بينهم ، وامال غيرهم في بعض الكلمات ، انظر : النشر ج٢ / ٣٥ ، حجة القراءات : ٨٧ تيسير التحبير : ٦٦

وبعد فإن هذه الاختلافات في أداء الكلمات والحروف والنطق بها ، تتجلى بها حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف ، وما وسّعه الله تعالى على العرب وغيرهم ، حيث كان أغلب الناس أميين يصعب عليهم قراءته بوجه واحد ، كما أن هذه القراءات حفظت لنا ضروب اللهجات العربية ، وما فيها من فصاحة وجاذبية وملائمة للخطبة ، وما عليها من طلاوة وحلاوة تزيد من جاذبية القرآن وروعة أسلوبه ؛

ومن المعلوم أن لغة قريش قد انتظمت كثيرا من مختارات السنة القبائل العربية التي كانت تأتي إلى مكة في مواسم الحج وأسواق العرب المشهورة ، قال الإمام البغوي (١) :

(ولا يكون هذا الاختلاف داخلا تحت قوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا) - النساء / ٨٢ -
إن ليس معنى هذه الحروف أن يقرأ كل فريق بما شاء مما يوافق لفته من غير توقيف ، بل كل هذه الحروف منصومة وكلها كلام الله عز وجل - نزل به الروح الأمين على الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدل عليه قوله عليه السلام :
(إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) (٢)

فجعل الأحرف كلها منزلة (١)
وفي جمال القراء للسخاوي (٣) بعد أن حكى القول بنزول الفاتحة مرتين ، (فإن قيل فما فائدة نزولها مرة ثانية ؟ قلت : يجوز أن تكون نزلت مرة على حرف واحد ونزلت الثانية ببقية وجوها نحو : ملك ، ومالك ، والسرط والصراط ، ونحو ذلك .) (٤)

فالاختلاف في القراءات اختلاف تنوع وتغاير وليس اختلاف تضاد وتناقض

كما سيأتي توضيحه

علاقة القراءات بالأحرف السبعة

معلوم أن الأحرف السبعة تعم القراءات المتواترة والشاذة ، فالقراءات المتواترة جزء من الأحرف السبعة ، حيث أن القراءات تشتمل على ما يحتمله رسم المصحف العثماني من الأحرف السبعة (٤)

(١) شرح السنة ج٢ / ٥٠٩

(٢) سبق تخريجه في أول المبحث

(٣) عن الاتقان للسيوطي : ج١ / ٣٥

(٤) انظر المرشد الوجيز لأبي شامة : ١٣٨ ، منجد المقرئين لابن الجزري : ١١١

قال الإمام مكي بن أبي طالب القيسي^(١) : (إن هذه القراءات كلها التي يقرأ بها الناس اليوم وصحت روايتها عن الائمة إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووافق اللفظ بها خط المصحف) مصحف عثمان الذي جمع الصحابة فمن بعدهم عليه ، واطرح ما سواه مما يخالف خطه ، فقرأ بذلك لموافقة الخط ، لا يخرج شيء منها عن خط المصاحف التي نسخها عثمان - رضي الله عنه - وبعث بها الى الأمصار (٠) اهـ

وحول هذه العلاقة بين القراءات والأحرف السبعة يقول المحقق ابن الجزري^(٢) رحمه الله : (وأما هل هذه السبعة الأحرف متفرقة في القرآن ؟ فلا شك عندنا أنها متفرقة فيه ، بل وفي كل رواية وقراءة باعتبار ما تقرّر في وجه كونها سبعة أحرف ، لأنها منحصرة في قراءة ختمة وتلاوة رواية ، فمن قرأ ولو بعض القرآن بقراءة معينة اشتملت على الواجه المذكورة^(٣) فإنه يكون قد قرأ بالواجه السبعة التي ذكرناها دون أن يكون قرأ بكل الاحرف السبعة (٠)

وقال^(٤) : وقد ذهب جماهير السلف والخلف وأئمة المسلمين الى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الاحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي - صلى الله عليه وسلم - على جبريل - عليه السلام - متضمنة لها لم تترك حرفاً منها (٠) اهـ

وقال العلامة أبو شامة^(٥) : (وبقي من الأحرف السبعة التي كان أبح قراءة القرآن عليها ما لا يخالف المرسوم ، وهو ما يتعلق بتلك الألفاظ من الحركات والسكنات والتشديد والتخفيف وابدال حرف بحرف يوافق في الرسم ونحو ذلك ، وما لا يحتمله الرسم الواحد فُرّق في المصاحف فكتب بعضها على رسم قراءة وبعضها على رسم قراءة أخرى (٠) اهـ قلت : ومن أمثلة ذلك كلمة " وصّى " من قوله تعالى : (ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) - البقرة / ١٣٢ -

فقد قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وهم من القراء العشرة : " وأوصى بها إبراهيم ... " ، والكلمة مرسومة كذلك في مصاحف أهل المدينة والشام ، وقرأ الباقون : " ووصى " بتشديد الصاد المهملة من غير همز قبل الواو ، وكذلك هي في مصاحفهم^(٦)

وتقدم مثال زيادة " من " في بعض المصاحف في مبحث الوجوه السبعة

(١) الإبانة عن معاني القراءات : ٣٤ ، وانظر : النشر : ج١ / ٣٩

(٢) النشر : ج١ / ٣٠ وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ج١٢ / ٣٩٥

(٣) أي الواجه السبعة التي مر ذكرها في هذا الفصل

(٤) النشر : ج١ / ٣١

(٥) النشر : ج٢ / ٢٢٢ ، المصاحف لابن أبي داود :

(٥) المرشد الوجيز : ٨٩

٣٩ ، ٤١ ، ٤٣

كيفية نشوء القراءات

فان سأل سائل عن كيفية نشوء القراءات فالجواب أن عثمان رضي الله عنه - حين بعث مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الغالب ، وعند تفرق الصحابة في البلدان مع اختلافهم في القراءات نقل ذلك عنهم التابعون ومن تبعهم ، واختلف بسبب ذلك أخذ التابعين حتى وصل الأمر على هذا النحو الى الامة القراء المشهورين (١)

فمن المعلوم أن كل صاحبي من أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قرأ على النبي حرفاً او جملة من الحروف فلما انتشروا في الاقاليم اقرأوا الناس بها ، فاختلف أخذ الناس عنهم ، وفي كل مصر من الامصار التي ارسل اليها عثمان بالمصاحف اشتهر قراء تواترت اليهم القراءات عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فاختلفت قراءاتهم بحسب اختلاف اخذهم ممن قبلهم من الصحابة والتابعين ، قال الامام السفاقي (٢) : (ولا يقدح في ثبوت التواتر اختلاف القراء ، فتقد تواتر القراءة عند قوم دون قوم فكل من القراء إنما لم يقرأ بقراءة غيره لأنها لم تبلغه على وجه التواتر .) اهـ

وحول ما تقدم يقول الامام مكي بن أبي طالب (٣) : (ولما مات النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج جماعة من الصحابة في أيام أبي بكر وعمر الى ما افتتح من الامصار ليعلموا الناس القرآن والدين فعلم كل واحد منهم أهل مصره على ما كان يقرأ على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - فاختلفت قراءة أهل الأمصار على نحو ما اختلفت قراءة الصحابة الذين علموهم ، فلما كتب عثمان المصاحف ووجهها الى الأمصار ، وحملهم على ما فيها وأمرهم بترك ما خالفها ، قرأ أهل كل مصر مصحفهم الذي وجه اليهم على ما كانوا يقرأون قبل وصول المصحف اليهم مما يوافق خط المصحف ، وتركوا من قراءاتهم التي كانوا عليها مما يخالف خط المصحف ، فهذه العلة اختلفت رواية القراء فيما نقلوا واختلفت أيضاً قراءة من نقلوا عنهم لذلك) اهـ

(١) الإبانة للقيسي : ٥٠ ، النشر في القراءات العشر : ج ١ / ٨

وانظر أحكام القرآن لابن العربي ج ٢ / ١٠٣ ، تفسير القرطبي : ج ١ / ٤٥

(٢) غيث النفع في القراءات السبع بهامش سراج القارئ ص : ١٧ - ١٨

(٣) الإبانة : ٥٣ ، وراجع ما كتبه الدكتور عبد الفتاح شلبي في كتابه : رسم المصحف العثماني : ٩٣ فما بعدها فقد فصل القول في ذلك

أمثلة تطبيقية لاختلاف القراءات

وبيان حكمتها والغرض منها ، وأن الاختلاف الذي بينها ليس اختلاف تضاد وهذا المبحث فيه استعراض لبعض الامثلة من القراءات المتواترة ، والتي تتجلى فيها فوائد ومعاني وأحكام أفادها هذا التباين والتنوع ، فكل قراءة تُغاير الأخرى إما أن تكون متممة ومفسرة لمعني الأخرى ، وإما أنها جاءت بحكم جديد ، وهنا تكون القراءتان بمنزلة الآيتين

المثال الاول : - قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا

قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين) - المائدة / ٦ -

فقد قرأ نافع وابن عامر وحض عن عاصم والكسائي ويعقوب : بفتح لام " أرجلكم " على أن الكلمة منصوبة معطوفة على المغسولات وهي الوجوه والأيدي

وإذا كان الأمر كذلك فإن الغرض هو غسلهما ،

وقرأ ابن كثير وحزمة وأبو عمرو وشعبة عن عاصم : بخفض لام " أرجلكم " على أن الكلمة مجرورة (١) أي أنها معطوفة على الرؤوس والتي فرضها المسح والمعطوف على المجرور مجرور وله أحكامه

فهاتان القراءتان قد يُتوهم أن بينهما تعارضا وتناقضا ، لأن أحدهما تثبت الغسل والأخرى تثبت المسح ، ولكن عند التدبر وفهم حقيقة الأمر نجد أن القراءتين لهما حكم الآيتين لأنهما أثبتتا حكمين شرعيين في حالتين مختلفتين ، وهذا من بلاغة القرآن وإيجازه وإعجازه ، فغسل الرجلين هو فرض من لم يكن لابسا للخُف ، ومسح الرجلين هو لمن كان لابسا للخُف سواء في الحضر أو في السفر ، ومن المعلوم أن المسح قد ثبت في السنة كما سيأتي ، فدل ذلك على أن قراءة الجر جاءت لبيان فرضية المسح في حالة لبس الخفين ليكون ذلك أوقع في النفس لكونه منصوبا عليه في الكتاب والسنة ، قال الامام الشافعي (٢) رحمه الله بعد ذكره للآية :

(فقصد جل ثناؤه قصد القدمين بالغسل كما قصد الوجه واليدين ، فكان ظاهر الآية انه لا يُجزى في القدمين إلا ما يُجزى في الوجه من الغسل أو الرأس من المسح ، وكان يحتمل أن يكون أريد بغسل القدمين أو مسحهما بعض المتوضئين دون بعض ، فلما مسح رسول الله على الخفين -

(١) النشر : ج٢ / ٢٥٤ ، حجة القراءات لابي زرعة : ٢٢١ ،
الكشف عن وجوه القراءات السبعة للقيسي : ج١ / ٤٠٥ - ٤٠٦

(٢) الرسالة : ٦٦

وأمر به مَنْ أَدخل رجليه في الخفين وهو كامل الطهارة ، دلت سنة رسول الله على أنه إنما أُريد بغسل القدمين أو مسحهما ببعض المتوضئين دون بعض (٠) اهـ

وقال الإمام السرخسي في أصوله (١) : (ثم تنتفي هذه المعارضة بأن تُحمل القراءة بالخفض على حال ما إذا كان لا بسا للخف ، بطريق أن الجلد الذي استتر به الرجل يُجعل قائما مقام بشرة الرجل فلنما نُكرُ الرجل عبارة عنه بهذا الطريق ، والقراءة بالنصب على حال ظهور القدم فإنَّ الغرض في هذه الحال غسل الرجلين عينا (٠) اهـ

وقال الامام القرطبي (٢) : (وقد قيل إن خفض في الرجلين إنما جاء مقيّدا لمسحهما اذا كان عليهما الخفان ، وتلقينا هذا القيد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان لم يصح عنه أنه مسح رجليه إلاّ وعليهما خفان ، فبيّن . صلى الله عليه وسلم - بفعله الحال التي تُغسل فيه الرجل والحال التي تُمسح فيه ، وهذا أحسن ، وحديث جرير في المسح على الخفين لا يخفى ، قال احمد بن حنبل : أنا استحس حديث جرير في الممسح على الخفين (٣) ، لأن إسلامه كان بعد نزول المائدة (١) . قلت : لأن المائدة كانت من آخر ما نزل من القرآن ولم يُنسخ منها شيء وفيها آية الوضوء آنفة الذكر ، فيقصد الامام احمد أن فعل الرسول هذا جاء بيانا لقراءة الجر في الآية ، وحديث جرير متفق عليه وفيه : (رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بال ثم توضأ ومسح على خفيه ، قال الأعمش كان يعجبهم هذا الحديث لأنّ إسلام جرير كان بعد نزول المائدة (٠)

وكذلك فإنّ إسلامه بعد نزول المائدة يرفع احتمال أن تكون الآية ناسخة لما ثبت من سنة المسح على الخفين

- (١) اصول السرخسي : ج٢ / ٢٠
(٢) تفسير القرطبي : ج٦ / ٩١
(٣) أخرجه الامام البخاري : في الصلاة ، باب ٢٥ الصلاة في الخفاف ج١ / ١٠٢
ومسلم : في الطهارة ، باب المسح على الخفين (شرح النووي : ج٢ / ١٦٤)
واللفظ لمسلم ، وأخرجه البخاري أيضا في الطهارة ، باب المسح على الخفين ج١ / ٥٨ ، ومسلم : في الطهارة أيضا عن المنيرة بن شعبة وسعد بن ابي

يوقام وبلال بن رباح وعلي بن ابي طالب رضي الله عنهم جميعا
وأخرج الامام احمد في مسنده (ج٤ / ٣٦٣) عن جرير قال : أنا أسلمت بعدما نزلت المائدة ، وأنا رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمسح

بعدما أسلمت (وسنده صحيح ، انظر : ارواء الغليل للشيخ اللبناني ج١ / ١٣٦)
قال الامام النووي في شرح مسلم : (ج٢ / ١٦٤) اجمع من يعتد به في الاجماع على جواز المسح على الخفين في السفر واحضر ، سواء كان لحاجة او لغيرها
وانما انكرته الشيعة والخوارج ولا يعتد بخلافهم ، وقد روى المسح على الخفين خلافا لا يحصون من الصحابة ، قلت : وقد نص الائمة على تواتره ، انظر : نظم المتناثر / ٤٤

وحول هذا المعنى نقل العلامة الآلوسي في تفسيره^(١) بعد أن ذكر
الاقوال الأخرى في الآية نقل معنى ما تقدم عن بعض أهل السنة وأضاف :
(وقوله : " الى الكعبين " لبيان المطل الذي يُجزىء عليه المسح لأنه
لا يُجزىء على ساقه ، واتّعى السيوطي أنه أحسن ما قيل في
الآية .) اهـ

قلت : وما تقدم في توجيه هاتين القراءتين فيه الكفاية لبيان
المراد ودفع توهم التعارض بين القراءتين من أقصر طريق وأوضحه ، وقد
أعرضت عن الاقوال الأخرى اختصاراً ولترجح ما تقدم في نظري والله الموفق

المثال الثاني : -

قوله تعالى حكاية عن أهل سبأ : (فقالوا ربّنا باعد بين
أسفارنا) - سبأ / ١٩ -

هذه الآية قرأ بها جمهور القراء على جهة الدعاء والمسألة

وقرأ يعقوب : (ربّنا باعد بين أسفارنا) على جهة الخبر^(٢)

والمعنيان وإن اختلفا صحيحان ، لأن أهل سبأ سألوا الله أن يفرقهم

في البلاد فقالوا : (ربّنا باعد بين أسفارنا) فلما فرقهم فني

البلاد وباعد بين أسفارهم قالوا : ربّنا باعد بين أسفارنا) أي

أجابنا الى ما سألناه ، فحكى الله تعالى عنهم بالمعنيين في غرضين^(٣)

ومعلوم أن أهل سبأ قد بطروا النعمة وملّوها كما ملّ بنو إسرائيل

المن والسلوى ، ولما ذكرتهم الرسل نعم الله وما هم فيه من

أمان بين قراهم أنكروا أن يكون ما هم فيه نعمة من الله ، وسألوا

الله أن يُبعد بين أسفارهم فمزقهم الله كل مُمزّق وجعلهم أحاديث^(٤)

(١) روح المعاني : ج٦ / ٧٨ ، وانظر البرهان للزركشي : ج٢ / ٥٢
وقد تبني الشيخ الزرقاني هذا الوجه ورجحه في مناهله

(٢) النشر : ج٢ / ٣٥٠ ، حجة القراءات : ٥٨٨

(٣) تأويل مشكل القرآن للإمام ابن قتيبة : ٤٠

(٤) زاد المسير لابن الجوزي : ج٦ / ٤٤٨ ، تفسير ابن كثير : ج٣ / ٨٤٩ سبأ / ١٩
روح المعاني : ج٢٢ / ١٣٠

المثال الثالث :

قوله تعالى : (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) الأنعام ٣٣ - هذه الآية الكريمة قرأ بها نافع والكسائي بتخفيف قوله : " لا يكذبونك " والباقون بالتشديد (١) ، ف قيل هما بمعنى واحد وقيل بينهما فرق ، قال ابو حيان (٢) : (فمعنى التخفيف : لا يجدونك كاذبا ، أو لا ينسبون الكذب اليك ، وعلى معنى التشديد : يكون إما خبرا محضا عن عدم تكذيبهم إياه ويكون ذلك الى كلهم على سبيل المجاز والمراد به بعضهم لأنه معلوم قطعا أن بعضهم كان يكذب به ويكذب ما جاء به ، وإما أن يكون نفي التكذيب لانتفاء ما يترتب عليه من المزار ، فكأنه قيل : لا يكذبونك تكذبا يضرك لأنك لست بكاذب ، فتكذيبهم كلا تكذيب .) اهـ وقال الإمام أبو زرعة (٣) : (قال الكسائي : معنى " لا يكذبونك " أنهم ليسوا يكذبون قولك فيما سوى ذلك ، قال : والعرب تقول : أكذبت الرجل " اذا أخبرته أنه جاء بالكذب ، وكذبت " أخبرته أنه كاذب ، فكان الكسائي يذهب الى أن الإكذاب يكون في بعض حديث الرجل وأخباره التي يرويها ، والتكذيب يكون في كل ما أخبر أو حدث به ، وهذا معنى قول الفراء (٤) ، وذلك أنه قال : " معنى التخفيف : - والله أعلم - لا يجعلونك كاذبا ، وإنما يريدون أن ما جئت به باطل لأنهم لم يجربوا عليه كذبا فيكذبوه ، إنما أكذبوه أي : ما جئت به كذب لا نعرفه " وقال قطرب : أكذبت الرجل : اذا دللت على كذبه ، فكان تأويل ذلك : لا يدلون على كذبك ببرهان يبطل ما جئت به)

هذه بالنسبة الى قراءة التخفيف ، أما قراءة التشديد : فقد قال أبو زرعة (٥) رحمه الله : (قال ابن عباس : " لا يسمونك كاذبا ، ولكنهم ينكرون آيات الله بألسنتهم وقلوبهم موقنة بأنها من عند الله كما قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) " ، وقال بعض أهل العربية : " فإنهم لا يكذبونك " أي لا يصحون عليك الكذب تقول : كذبت أي صححت عليه الكذب .) اهـ

قلت : ومما تقدم نرى كيف أن الله سبحانه قد ضمن لنا في هاتين القراءتين معنيين مختلفين يظهران مواقف الكفار في حق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فعلى قراءة التخفيف بمعنى : لا ينسبونك الى الكذب ، أو لا يدلون على كذبك ببرهان ، وعلى قراءة التشديد : بمعنى نفي حقيقة تكذيبهم وإنما هو مجرد جحود باللسان ، مكابرة وعنادا وحسدا ، والله اعلم

(١) النشر : ج٢/٢٥٧ ، حجة القراءات : ٢٤٦ ، (٢) البحر المحيط : ج٤/ ١١١

(٣) حجة القراءات : ٢٤٧ ، (٤) معاني القرآن : ج١/ ٣٣١

(٥) حجة القراءات : ٢٤٨

المثال الرابع :

قوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَيَنْزُولٌ مِنْهُ الْجِبَالُ) - ابراهيم / ٤٥ -
 قرأ الكسائي : بفتح اللام الأولى ورفع الثانية (وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَيَنْزُولٌ
 مِنْهُ الْجِبَالُ) ، وقرأ الباقون : بكسر الأولى ونصب الثانية ،
 وعلى هذا فقد يتوهم أن بينهما تضاداً ، والواقع أن الآية قد جمعت
 في هاتين القراءتين معنيين أرادهما الله سبحانه لبيان مكر هؤلاء الظالمين
 الذين تقدم ذكرهم قبل هذه الآية وبيان أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله
 مهما عظم ، فالقراءة الأولى وهي (وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَيَنْزُولٌ مِنْهُ الْجِبَالُ)
 "ان" فيها مخففة من الثقيلة واللام الأولى لام تأكيد دخلت لتوكيد
 الخبر ، واسم إن ضمير الشأن محذوف تقديره : " وإنه كان مكرهم لَيَنْزُولٌ
 مِنْهُ الْجِبَالُ " أي قد كادت تنزل من مكرهم ، وفي المراد بالجبـال قولان :
 أحدهما الجبال المعروفة ، والثاني : أنها ضربت مثلاً لأمر النبي - صلى
 الله عليه وسلم - وثبت دينه كثبوت الجبال الراسية ، والمعنى : لو بلغ
 كيدهم إلى إزالة الجبال لما زال أمر الاسلام (٢) ،
 قال ابن الجوزي (٣) : (ويدل على صحة هذا قوله : (فلا تحسبن
 الله مخلف وعده رسله) - ابراهيم / ٤٦ -

أي فقد وعدك الظهور عليهم ١٠٤٠هـ
 فمعنى هذه القراءة : أن الله تعالى عظم مكرهم كما قال :
 (ومكروا مكراً كُبَّاراً) - نوح / ٢٢ -
 والقراءة الثانية ، وهي قراءة أكثر القراء : " إِنْ " فيها بمعنى ما
 واللام الأولى لام نفي لوقوعها بعد نصب ونصب الفعل بها ، والتقدير :
 " وما كان مكرهم لَيَنْزُولٌ مِنْهُ الْجِبَالُ " أي هو أحقر وأضعف وأهون ،
 فالمعنى هو تصغير مكرهم وتحقيره فلم يكن هذا المكر ليذهب به الحق
 وأمر الاسلام (٤)
 وعلى هذا فقد أفاضت القراءتان معنيين متغايرين ، لكنهما متعاضان
 والمراد منهما واحد ، فمكرهم عظيم من جهة خبثهم وسوء نياتهم وكثرة
 تأمرهم واستمرارهم في الكيد للاسلام وأهله ، وهذا المكر بالاسلام
 وأهله مهما عظم واشتد ولو بلغ إزالة الجبال الراسيات فإنه أهون وأحقر
 من أن يوقف هذا الدين العظيم أو يوهن من عزيمة أهله ، ذلك بأن الله قد تكفل
 بحفظه وبرد كيدهم ، (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) - الانفال / ٣٠ -
 وقال : (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد) - النحل / ٢٦ -

(١) النشر : ج٢ / ٣٠٠ ، الكشف عن وجوه القراءات : ج٦ / ٤٦ ، زاد المسير : ج٤ / ٧٤

(٢) زاد المسير : ج٤ / ٧٤ ، (٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع : ج٢ / ٢٧ ، النكت والعيون للماوردي : ج٢ / ٣٥٤

زاد المسير : ج٤ / ٣٧٤ روح المعاني للالوسي ج١٢ / ٢٥١

المثال الخامس :

قوله تعالى : (حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ٠٠٠٠) - يوسف / ١١٠ -

قرأ عاصم وحمة والكسائي وأبو جعفر بتخفيف " كذبوا " مع كسر الذال المعجمة ، وقرأ الباقر بتشديد الذال مع كسرها أيضا (١) " وظنوا أنهم قد كذبوا "

فهاتان قراءتان متواترتان قد يُظن أن بينهما تضادا وتعارضا ، بينما حقيقة الأمر أنهما بمنزلة الآيتين حيث إن كل قراءة يُراد بها غير ما يراد بالأخرى وذلك كما يلي :

فقراءة التخفيف : معناها حتى إذا استيئس الرسل من إيمان قومهم المرسل اليهم ، توهم قومهم الذين تابعوهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من النصر على الأعداء إن لم يؤمنوا أو : وظن القوم المكذبون المرسل اليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل بمعنى أن الرسل قد كذبوا عليهم في ادعائهم النبوة ، وفي النصر عليهم فلم يصدقوهم في شيء مما ذكر ، كما حصل مع نوح عليه السلام الذي دعا قومه الف سنة إلا خمسين عاما فما آمن معه إلا قليل وكذبه أكثر قومه كما قال تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين) - الشعراء / ١٠٥ وقال تعالى : (وما آمن معه إلا قليل) - هود / ٤٠ -
وعندها أوحى إليه : (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن)
فهناك استيئس منهم ودعا عليهم ، قال تعالى : (فدعا ربه أن ي مغلوب فانتصر) - القمر / ١٠ -

فجاءه نصر الله ، واهلك الكافرون المكذبون تصديقا لوعده الله تعالى فالضائر الثلاثة في قراءة التخفيف (وظنوا أنهم قد كذبوا) للمرسل اليهم قال مكي (٢) : (وحسن أن يكون الضمير في "ظنوا" وفي "أنهم" للمرسل إليهم ولم يجر لهم ذكر لأن ذكر الرسل يدل على أن ثم مرسلًا إليهم) ١٠هـ

قلت : ولأن في قوله تعالى : (حتى إذا استيئس الرسل ٠٠٠) حذف تقديره : حتى إذا استيئس الرسل من إيمان قومهم المرسل اليهم ، فالضمير في ظنوا عائد على المحذوف من الكلام بدلالة السياق والله اعلم هذا بالنسبة لقراءة التخفيف ، أما قراءة التشديد (وظنوا أنهم قد كذبوا) فالمعنى : وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم في دعوى

(١) النشر في القراءات العشر : ج ٢ / ٢٩٦ حجة القراءات : ٣٦٦

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع : ج ٢ / ١٦ وانظر : روح المعاني : ج ١٣ / ٧٠

الرسالة وفي كل ما جاءوا به عن الله تعالى تكذيباً لا يُرجى معه الإيمان أصلاً ، فحينئذ جاء نصر الله تعالى للرسول ومن آمن بهم ، وأنزل عذاب الاستئصال بالمكذابين ، فعلى هذه القراءة يكون الظن بمعنى اليقين ، والضمائر الثلاثة للرسول ، فأفادت القراءة ثابتهن نعى الله تعالى عليهما في آية واحدة ، إن كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها ، فالذي تحصل من القرائتين كما تقدم هو تيقن الرسول بتكذيب قومهم وأسسهم من إيمانهم كما هو مُستفاد من قراءة التشديد ، وكذلك ظن القوم المكذابين أن الرسل قد كذبوا عليهم في ادعائهم النبوة وفي النصر عليهم إن لم يؤمنوا بهم (١)

المثال السادس :

اختلاف القراءة في البسمة^(٢) في أوائل السور من المعلوم أن القراءة اختلفوا في قراءة البسمة بين السور ، واتفقوا جميعاً على قراءتها إذا ابتدأ القارئ سورة من السور ، إلا إذا ابتدأ براءة سواء كان الابتداء عن وقف أم عن قطع ، والتحقيق أن هذا الاختلاف راجع لاختلاف القراءات الذي هو بدوره راجع للأحرف السبعة التي تقدم ذكرها في هذا المبحث ، والتي نزل عليها القرآن الكريم للحكم والفوائد التي مر ذكرها أيضاً ، وهذا ما أوضحه الأئمة من القراء : قال الإمام الزركشي (٣) : (وأيضاً البسمة نزلت مع السورة في بعض الأحرف السبعة ، فمن قرأ بحرف نزلت فيه عدّها ، ومن قرأ بغير ذلك لم يعدّها .) اهـ

(١) حجة القراءات: ٣٦٦ ، الكشف عن وجوه القراءات السبع ج٢/ ١٥ - ١٦ النشر في القراءات العشر : ج١/ ٥١ ، زاد المسير لابن الجوزي : ج٤/ ٢٩٦ مجموع الفتاوى لابن تيمية : ج١٥ / ١٧٥ - ١٩٠ ،
القراءات في نظر المستشرقين ، للشيخ عبد الفتاح القاضي : ١٤٩ - ١٥٢
(٢) ويقال لها التسمية أيضاً ، والبسمة : مصدر بسمل إذا قال : "بسم الله الرحمن الرحيم" وهي من الكلمات المنحوتة مثل حوقل وهلل وحمدل وغير ذلك ، يراد بها الاختصار
(٣) البرهان في علوم القرآن : ج١ / ٢٥٢ -

وقال المحقق ابن الجزري^(١) : (والصواب أن كلاً من القولين حق وإنها آية من القرآن في بعض القراءات وهي قراءة الذين يفتلون بها بين السورتين ، وليست آية في قراءة من لم يفتل بها والله أعلم) اهـ وقال في موضع آخر بعد أن ذكر الأقوال في البسمة^(٢) : (وهذه الأقوال ترجع الى الثفي والإثبات والذي نعتقده أن كليهما صحيح وأن كل ذلك حق فيكون الاختلاف فيها كالاختلاف في القراءات) اهـ وقال السخاوي رحمه الله^(٣) : (فإن ابن كثير وعاصم والكسائي يعتقدونها آية منها ومن كل سورة ووافقه حمزة على الفاتحة خاصة) اهـ وقال ابن تيمية رحمه الله^(٤) : (إن كل واحد من القولين حق وإنها آية من القرآن في بعض القراءات ، وهي قراءة الذين يفتلون ولا يفتلون بها بين السورتين) ، وقال في موضع آخر^(٥) : (وأبلغ من ذلك البسمة فإن من القراء من يفتل بها ومنهم من لا يفتل بها ، وهي مكتوبة في المصاحف ، ثم الذين يقرأون بحرف من لا يبسمون لا يبسمون ، ولهذا لا ينكر عليهم ترك البسمة إخوانهم من القراء الذين يبسمون) اهـ

قلت : ومما يدل على أن البسمة لم تنزل في بداية السور كآية في بعض الأحرف ونزلت في بعضها الآخر : (ما أخرجه الامام البخاري في صحيحه^(٦) : (أنه أول ما جاء الملك بالوحي قال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) فهذا أول ما نزل ولم ينزل قبل ذلك " بسم الله الرحمن الرحيم " وثبت في السنن^(٧) مرفوعاً : (سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهي تبارك الذي بيده الملك) وهي ثلاثون آية بدون البسمة

(١) النشر : ج ١ / ١٥ ، (٢) نفس المصدر : ج ١ / ٢٧١
(٣) عن النشر : ج ١ / ٢٧١ ، (٤) مجموع الفتاوى : ج ١٣ / ٣٩٩
(٥) المصدر السابق : ج ١٣ / ٤١٨ ، وانظر : ٤١٩
(٦) صحيح البخاري : كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي ج ١ / ٣
(٧) أخرجه : الترمذي في فضائل القرآن ج ٤ / ٢٣٨ وحسنه ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب عدد الاي رقم : ١٤٠٠ ، وابن ماجه في الادب ، باب ثواب القرآن ج ٢ / ١٢٤٤ عن أبي هريرة ، وله شاهد في الطبراني الكبير عن انس بسند صحيح (الاتقان ج ١ / ٦٨ ، نيل الاوطار ج ٢ / ٢٢٧)

ولا يغيب عن الذهن أن سورة براءة تُركت البسمة فيها عند جميع القراء وذلك مما يدل على أن البسمة في بداية السور هو من الأمور التي تختص بالقراءات^(١) ، وأنها من علم الرواية وليس من علم الدراية ، ولذلك أثبت ابن الجزري أن اختلاف الفقهاء في البسمة سواء كان في الفاتحة أو غيرها راجع لاختلاف القراءات في الحقيقة^(٢) وهذا هو الحق الذي لا يصبغ غيره ، ولذلك قال ابن الجزري في منجد المقرئين^(٣) : (والإمام الشافعي - رضي الله عنه - جعل البسمة من القرآن مع أن روايته عن شيخه مالك تقتضي عدم كونها من القرآن وذلك لأن الإمام الشافعي من أهل مكة وهم يُثبتون البسمة بين السورتين ويعدونها من أول الفاتحة آية ، وهو قرأ قراءة ابن كثير... فلم يعتمد على روايته عن مالك في عدم البسمة ، لأنها آحاد واعتمد على قراءة ابن كثير لأنها متواترة...) اهـ

قلت : وأما الأحاديث الواردة بشأن الإصرار بالبسمة أو الجهر بها في الصلاة فهذا ليس له علاقة بكون البسمة آية أو غير آية ، فالاحتجاج بذلك في غير موضعه ، فما دام أن القراء الذين يُثبتون البسمة أوائل السور قراءاتهم متواترة ، والذين لا يُثبتونها كذلك فهي آية قطعاً في بعض القراءات ، وغير آية قطعاً في البعض الآخر ولا يصح أن نختلف فيها بعد ذلك ، والله تعالى أعلم

هذا والقراء الذين يغطون بالبسمة ويعتبرونها آية في مطلع كل سورة هم : ابن كثير وعاصم والكسائي وأبو جعفر ورواية قالون عن نافع وطريق الأصماني عن ورش ، ووصل بين كل سورتين حمزة وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب^(٤)

وبعد : فهذه ستة أمثلة تطبيقية بينت فيها أن اختلاف القراءات إنما هو اختلاف تنوع وتغاير وليس اختلاف تضاد وتناقض ، وقد ذكرت من الأمثلة ما اظن أن فيه كفاية لتوضيح المراد من البحث وهناك أمثلة أخرى بحاجة إلى دراسة منفصلة في رسالة علمية ، وقد تبين من الأمثلة السالفة أن التوهم بوجود تضاد بين القراءات منشأه الجهل بأصل القراءات وحكمة وجودها وكذلك الجهل بمعانيها وانتقل الآن إلى بيان أنواع الاختلاف في القراءات وفائدتها والحكمة من ذلك

(١) قال القُشيري : (الصحيح أن التسمية لم تكن فيها لأن جبريل

عليه السلام لم ينزل بها فيها) - البرهان : ج١ / ٢٦٢ -

(٢) النشر : ج١ / ٢٧١

(٣) منجد المقرئين : ٩٥٠

(٤) النشر لابن الجزري : ج١ / ٢٥٩ ، وانظر ذلك مفصلاً ج٢ / ٢٠٠

وكتاب الاقناع في القراءات السبع لابن الباز : ج١ / ١٥٨

انواع الاختلاف في القراءات (١)

لا يخلو الاختلاف في القراءات من ثلاثة أحوال (٢) :

أولها : - اختلاف القراءتين في اللفظ مع اتفاقهما في المعنى

ومن هذا النوع ما يرجع الى اختلاف اللغات كقراءتي :

"اهدنا الصراط" بالماد ، و "السطر" بالسين ، الى ما يشاكل

هذا من نحو الإظهار والإدغام والمد والقصر ، والحكمة من ذلك ما

تقدم من التيسير والتخفيف على هذه الأمة بلطف الله ورحمته ، ومن هذا

النوع ما لا يختلف فيه اللغات وإنما هما وجهان أو هي وجوه تجري في

الفصح من الكلام نحو : (وما عملت أيديهم) و (وما عملته أيديهم) (٣)

وهذا النوع وارد على سنة العرب من صرف عنايتها الى المعاني ،

ونظرها الى الألفاظ نظر الوسائل فلا ترى بأسا في إيراد اللفظ على

وجهين أو وجوه ما دام المعنى الذي يقصد بالخطاب باقيا في نظمه

ومأخوذا من جميع أطرافه ، وفي هذا توسعة على القارئ وعدم قصره على

حرف ، ولا سيما أنه كان محجورا عليه أن يغير الكلمة من القرآن

ويحيد بها عن وجهها المسموع

ثانيا : - اختلاف اللفظ والمعنى مع صحة المعنيين كليهما ،

وحكمة هذا أن تكون الآية بمنزلة آيتين وردتا لإفادة المعنيين جميعا

وذلك كاختلاف قراءتي : (مالك يوم الدين) و (ملك يوم الدين)

بغير ألف ، فقد أفادت إحداهما القراءتين أن الله مالك يوم الدين

يتصرف فيه كيف يشاء ، وأفادت الأخرى أنه الذي يحكم فيه بما يريد ،

وكذا : (كيف ننشزها) بالراء والزاي (٤) لأن المراد بهما العظام

وذلك أن الله أنشزها أي : أحيها ، وأنشزها أي : رفع بعضها الى

بعض حتى التأممت ، فضمن الله تعالى المعنيين في القراءتين (٥)

ثالثا : اختلاف اللفظ والمعنى مع عدم اجتماعهما في شيء واحد

بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد نحو قوله تعالى :

(وظنوا أنهم قد كذبوا) بالتخفيف ، مع القراءة الأخرى بالتشديد (٦)

وقد تقدم وجه التشديد والتخفيف وأن الضمائر على قراءة التخفيف تعود

على القوم المرسل اليهم ، وعلى قراءة التخفيف تعود الضمائر على المرسل (٧)

فإن أدلت القراءتان معنيين ثابتين نص الله تعالى عليهما في آية واحدة

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ٤٠ ، النشر لابن الجزري : ج ١ / ٤٩ - ٥٠

نقض كتاب في الشعر الجاهلي : ١٠٧ - ١٠٩

(٢) والمراد بذلك ما وقع في القراءات العشر المتواترة ، ولا يعنينا ما شذ عن ذلك ، انظر : كتاب القراءات في نظر المستشرقين ، للشيخ عبد الفتاح القاضي حيث رد فيه على ادعاءات المستشرقين الذين يحتجون بالقراءة الشاذة

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف وشعبة : " وما عملت " بغير هاء ضمير وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك ، وقرأ الباقر بالبهاء ، النشر : ج ٢ / ٣٥٣

(٤) قرأ بالزاي المنقوطة ابن عامر والكوفيون ، والباقر بالراء المهملة ، النشر : ج ٢ / ٣١٢

(٥) راجع : النشر ج ١ / ٥٠ ، تأويل مشكل القرآن : ١٤١

(٦) قرأ بالتخفيف : عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ، والباقر بالتشديد ، النشر : ج ٢ / ٢٩٦

(٧) النشر : ج ١ / ٥١

قال ابن الجزري (١) : (وكل ما صحَّ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من ذلك فقد وجب قبوله ، ولم يسمع أحداً من الأمة رده ، ولزم الإيمان به وأنَّ كله منزل من عند الله تعالى ، إنَّ كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها واتباع ما تضمنته من المعنى ، علماً وعملاً لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظناً أن ذلك تعارض) اهـ

قلت : وقد ثبت في الصحاح كيف أنَّ الصحابة رضي الله عنهم - كانوا يقرأون القرآن كما تعلموه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيرى البعض أنَّ غيره يقرأه بخلاف قراءته التي أقرأه إياها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فينكر عليه في بادئ الأمر ثم يتحكما السني الرسول فيقرهما كليهما بقوله : " أحسنت " و " أصبت " و " هكذا أنزلت "

روى البخاري (٢) ومسلم (٣) واللفظ للبخاري عن عمر بن الخطاب قال : (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم - فكُدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى سلَّم فلَبَّيْتُهُ بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقلت : كذبت ، فإنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقتُ به أقوده الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني فقال - صلى الله عليه وسلم - : كذلك أنزلت ، ثم قال : إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه)

(١) النشر : ج١ / ٥١

(٢) صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ج١ / ١٠٠

(٣) صحيح مسلم ، فضائل القرآن ، (شرح النووي ج١ / ٩٨)

فائدة اختلاف القراءات والحكمة من ذلك (١)

اولا : التسهيل والتخفيف على الأمة كما تقدم مفصلا في أول المبحث
ثانيا : ومن الفوائد والحكم ما في ذلك من نهاية البلاغة وكمال
الإعجاز وجمال الإيجاز ، إذ كل قراءة بمنزلة الآية ، ولو جعلت
دلالة كل لفظة آية على حدة لم يخف ما كان من التطويل ، ولهذا
كان قوله تعالى : (... وأرجلكم الى الكعبين) منزلا لغسل الرجل
والمسح على الخف ، واللفظ واحد لكن باختلاف إعرابه كما تقدم
ثالثا : ومنها سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة ، إذ هو
على هذه الصفة من البلاغة والوجازة ، فإنه من يحفظ كلمة ذات أوجه
أسهل عليه وأقرب الى فهمه وأدعى لقبوله من حفظه جملا من الكلام
تؤدي معاني تلك القراءات المختلفة ، لا سيما فيما كان خطه واحدا
فكان ذلك أسهل حفظا وأيسر خطأ

رابعا : ومنها ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة إذ هو
مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف
بيل كله يصدق بعضها بعضا ويبين بعضه بعضا ، ويشهد بعضه لبعض على
نمط واحد وأسلوب واحد ، وما ذاك إلا آية بالغ وبرهان قاطع على
صدق من جاء به - صلى الله عليه وسلم -

خامسا : ومنها إعظام أجور هذه الأمة من حيث إنهم يُفرغون جهدهم
ليبلغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك واستنباط الحكم والاحكام من دلالة
كل لفظة (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو
أنثى) - آل عمران / ١٩٥ - والأجر على قدر المشقة

سادسا : ومنها ما ادخره الله من المنقبة العظيمة والنعمة الجليلة
الجسيمة لهذه الأمة الشريفة من إسناد كتاب ربها ، فهو خصيصة الله لهذه الأمة
المحمدية وأعظاها لقدر هذه الملة الحنيفية ، وكل قارئ يوصل حروفه
بالنقل الى أمته ويرفع ارتياب الملحد قطعا بوصله ، فلو لم يكن من
هذه الفوائد إلا هذه الفائدة لكفت

سابعا : (ومنها أن أثر هذا التعدد في القراءات : حفظ كثير
من طرق البيان وضروب اللهجات وإن لم يكن القصد من القرآن تعليم اللغة

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ٢٨ - ٤٠ ، البرهان للزركشي : ٢٢٩ / ٢
النشر في القراءات العشر : ج١ ٥٢ - ٥٣ ، مترك الاقران للسيوطي : ج١ / ٢٦٨
اعجاز القرآن للرافعي : ٤٧ - ٤٨ ، مناهل العرفان للزرقاني : ١٤٥ -
نقض كتاب في الشعر الجاهلي : ١٠٨ ، مؤلفه العلامة محمد الخضر حسين
من علماء الأزهر

وتقرير أساليب خطابها وفنون بيانها (١) :

ثامنا : ومنها أن اختلاف القراءات أحد جوانب الإعجاز القرآني حيث إن التحدي بالقرآن كان لكافة العرب فلما كانت لهجاتهم وأساليب بيانهم متباينة ، وضروب الفصاحة في الكلام متنوعة ، جاءت القراءات كنوع من التحدي (٢)

وفي هذا يقول الأديب الرافعي (٣) رحمه الله - :

(وإذا تمّ هذا النظم للقرآن مع بقاء الإعجاز الذي تحدي به وقع اليأس من معارضته ، على ما يكون في نظمه من قلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات بحسب ما يُلائم تلك الأحوال في مناطق العرب ، فقد تم له التمام كله ، ومار إعجازه إعجازا للفطرة اللغوية في نفسها حيث كانت وكيف ظهرت ومهما يكن من أمرها ومن ثمّ لا يستقيم للعرب أن يعارضوا القرآن إذ كان مأثى العجز من فطرتهم اللغوية ، ثم قال : إذ لا وجه للاختلاف الصحيح إلا هذا فإن القرآن لو نزل على لفظ واحد ما كان بضائره شيئا ، وهو ما هو إحصاء وإبداعا .) اهـ

قلت : وقد أومأ الى هذه الفائدة الإمام البغوي (٤) حيث قال :

(وقوله في الأحاديث " كلها شاف كاف " يريد والله اعلم - أن كل حرف من هذه الحروف السبعة شاف لصدور المؤمنين لاتفاقها في المعنى وكونها من عند الله وتنزيله ووحيه كما قال تعالى : (قل هو اللذين آمنوا هدى وشفاء) - فصلت / ٤٤ - وهو كاف في الحجة على صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لإعجاز نظمه وعجز الخلائق عن الاتيان بمثله .) اهـ

قلت : فلما كانت العرب متباينة في لغاتها ولهجاتها وأساليب بيانها ،

وفنون خطابها مع كونها على قدر مشترك من الفصاحة والبلاغة مع تفاوت في ذلك ، جاء القرآن مراعيًا لهذه الناحية فكانت القراءات المنزلة من عند الله تحديًا لجميع أصحاب اللهجات حتى لا يدعي مدّع أن القرآن ليس على لغة قبيلته حتى يستطيع معارضته ، فأسكت الله بذلك كل مدّع ، وأفحم كل عدو وجاحد ، وأثلج صدور المؤمنين (ولا ريب أن ذلك أدل على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه أعظم في اشتمال القرآن على مناج جمّة في الإعجاز وفي البيان ، على كل حرف ووجه وبكل لهجة ولسان) ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم (٥)

(١) نقض كتاب في الشعر الجاهلي للسيد محمد الخضر حسين : ٥٢ - ٥٤ حيث رد فيه على من تعرض للقراءات جهلا وكيدا ، وأحسن رحمه الله في الرد عليه وعلى أمثاله من أعداء الإسلام .

(٢) مختار القرآن للسيوطي : ١٦١ ، المرشد الوجيز لابي شامة : ١٣٥ الإعجاز والقراءات ، د . فتحي عبد القادر : ٤٦ فما بعدها

(٣) إعجاز القرآن : ٤٧ ، تحقيق شعيب الارناؤوط وزهير الشاويش ط : المكتب الاسلامي (٤) شرح السنة ٥١٢/٤ ، فتح عبد القادر : ٤٦ فما بعدها

(٥) مناهل العرفان للشيخ الزرقاني : ١٤٩ / ١

الفصل الثاني : الآيات المختصة . بالكتاب .

١- قوله تعالى بشأن القرآن : (ذلك الكتاب لا ريب فيه ٥٥) - البقرة ٢/

هذا النص يفيد العموم ، لأنه نكرة في سياق النفي ، وعلى ذلك فالآية تنفي كل ريب عن هذا القرآن العظيم ، وهناك آيات أخرى تدل على أنّ بعض الناس يرتاب في القرآن مثل قوله تعالى :

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ٥٥٠) - البقرة / ٢٣ -

وقوله تعالى : (وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) - التوبة / ٤٥ -

والجواب : أنّ القرآن لم ينفر أنّ أحداً يرتاب فيه ، وإنما المنفي كونه متعلقاً للريب ومظنة له بوجه من الوجوه ، والمقصود أنه لا شبهة في صحته ولا في كونه من عند الله ، ولا في كونه معجزاً ، لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان وظهور المعجزة بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه ، قال العلامة أبو السعود^(١) : (ألا يرى كيف جُوز ذلك في قوله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ٥٥) ففرض كونهم في الريب لا كون الريب فيه ، لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه مع نوع إشعار أنّ ذلك من جهتهم لا من جهته العالية) ١٥

وريب الكفار إنما هو لعمى بصائرهم كما قال تعالى : (أقمّن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) - الرعد / ١٩ -

ويقول الشاعر : قد تُنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمد
وقد يُنكر الفمُ طعمَ الماء من سقم

فهذا نفى الله سبحانه الريب فيه مع كثرة المرتابين على معنى : أنّ العاقل بعد النظر والتدبر في كونه وحياً من الله تعالى ، لا يجد فيّته أدنى ريب ، ذلك أنه تعالى قد نفى على المرتابين قلة تدبرهم لكتاب الله كما قال : (أفلا يتدبّون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) - النساء / ٨٢ -

فالسبب التي تُوجب الريب منفية عن القرآن ، كالتلبيس والتعقيد والتناقض والدعوى العارية عن البرهان ، والركاكة والعَيّ ، كل ذلك منتف عن كتاب الله ، فالقرآن حق يجب أن لا يُرتاب فيه ، وهذا كما يُبين المرءُ الشيءَ لخصمه فيحسن منه بعد البيان أن يقول : هذا واضح كالشمس ، هذا لا يشك فيه أحد^(٢) ولهذا قال الخطيب القزويني^(٣) :

هو من باب إنزال المنكر منزلة غير المنكر إذا كان معه ما . إن تأمله ارتدع عن الإنكار ١٥

(١) في تفسيره ارشاد العقل السليم : ج ١ / ٢٥

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار : ١١

فوائد في مشكل القرآن للعز بن عبد السلام : ٦٩ ، تفسير الزمخشري ١١٣/١

تفسير الرازي : ج ١ / ١٨ ، روح المعاني : ١٠٦/١ ، أضواء البيان ١٠ / ٧

(٣) الايضاح في علوم البلاغة : ١٥

قال الرازي (١) : (ولو قلت المراد : لا ريب في كونه مُعجزاً على
الخصوص كان أقرب لتأكيد هذا التأويل بقوله : (وإن كنتم في ريب
مما نزلنا على عبدنا ٠٠) ، فالمراد أنه بلغ من الوضوح الف حيث
لا ينبغي لمرتآب أن يرتآب فيه ، والأمر كذلك لأن العرب مع
بلوغهم في الفمآحة الى النهاية عجزوا عن معارضة أقصر سورة
من القرآن ، وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة الى حيث لا يجوز
للعقل أن يرتآب فيه ٠) هـ

هذا وقد ذكر العلماء وجهآ آخر : وهو أن قوله تعالى :
" لا ريب فيه " نفي بمعنى النهي ، أي لا ترتآبوا فيه لأنه
من عند الله ، ونظيره قوله تعالى : (فلا رفث ولا فسوق
ولا جدال في الحج) - البقرة / ١٩٧ -
أي لاترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا (٢)

وعلى كلٍ فإن آيات القرآن لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا
من خلفها ، تنزيل من عزيز حكيم

(١) في تفسيره مفاتيح الغيب : ج٢ / ١٨

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للإمام زكريا الانصاري : ١٣
فوائد في مشكل القرآن : ٦٩ روح المعاني : ج١ / ١٠٧

- ٢- قوله تعالى : ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)- البقرة / ٢ -
وصف الله تعالى في هذه الآية القرآن بأنه هدى للمتقين ، مسع
أنه وصفه في آيات أخرى بأنه هدى للناس كما قال : (شهر
رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ٠٠٠)- البقرة / ١٨٥ -
فقد يُظن أن بين هاتين الآيتين تعارض ، ولدفع ذلك فإن الجواب من
ثلاثة أوجه :
الوجه الاول^(١) : أن الهدى يُطلق في القرآن ويُراد به معنيان :
الاول الهدى العام ، والثاني الهدى الخاص ، أما الهدى العام :
فهو هدى الدلالة وإبانة الطريق وإيضاح الحجة ، وهو الذي
تقدر عليه الرسل وأتباعهم من الدعاة الى الله ، ومن ذلك
قوله تعالى : ولكل قوم هاد)- الرعد / ٧ -
وقوله : (وإنك لتهدي الى صراط مستقيم)- الشورى / ٥٢ -
وقوله : (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا)- الانسان / ٣ -
وقوله : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)- فطت / ١٧ -
أي بينا لهم طريق الحق والنجاة فاتبعوا طريق الباطل والخسارة
فقوله تعالى : " هدى للناس " بحق القرآن يُراد به الهدى العام
وهو الدلالة وإيضاح الحجة بالآيات البينات والبراهين الواضحات ، وما
فيه من إعجاز وإحكام ودلائل لا تُعد ولا تُحصى
وتفرد هو سبحانه بالهدى الخاص الذي معناه التأييد والتوفيق ، ومنه
بهذا المعنى قوله تعالى لنبيه . صلى الله عليه وسلم . :
إنك لا تهدي من أحببت ٠٠٠) - القصص / ٥٦ -
فالهدى على هذا يعني تمكين الايمان في القلب ، فالرسول
- صلى الله عليه وسلم - ليس بإمكانه تمكين الايمان في قلب أحد
بدون إرادة الله ، فهذا عمه أبو طالب اجتهد عليه كثيرا حتى يقول
كلمة التوحيد لكنه لم يقلها ومات على غير ملة الاسلام ، فلهذا
نزل^(٢) قوله تعالى : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)
ومن الهدى بمعناه الخاص قوله تعالى : (أولئك الذين هدى الله)
وقوله : يهدي من يشاء ٠٠٠٠) - ابراهيم / ٤ -
وقوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)- الانعام / ١٢٥ -

(١) زاد المسير : ج١ / ٢٤ ، تفسير القرطبي : ج١ / ١٦٠ تفسير ابن كثير : ج٢ / ٦٣
روح المعاني للالوسي : ج٢ / ٦١ ، اضاء البيان للشنقيطي : ٨٧ / ١٠
(٢) اخرج : سبب النزول : البخاري : ج٢ / ٩٨ في كتاب الجنائز باب اذا قال
المشرك لا اله الا الله عند الموت ، عن سعيد ابن المسيب عن ابيه
واخرجه الامام مسلم : في كتاب الايمان ، باب وفاة ابي طالب وما نزل فيه ،
(شرح النووي على مسلم : ج١ / ٤٠)

الوجه الثاني^(١) :-

أنه سبحانه قد بيّن في غير موضع أنّ القرآن هدى للناس نعمّ الكل، وإنما خصّ المتقين بها في قوله " هدى للمتقين " من حيث اختصاصا بقبولها وانتفعوا بها، فالقرآن فيه الهداية للجميع لكن لا ينالها إلاّ الأبرار، قال تعالى : قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى (٠٠) - فصلت/ ٤٤ - وقال : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارة) - الاسراء/ ٨٢ -

فالقرآن فيه الهداية للجميع بما فيه من آيات وبراهين وإعجاز وإحكام، لكن لما كان المتقون هم الذين يتدبرون آياته ويعملون بها خصهم الله تعالى بالذكر في غير موضع تكريماً لهم ولبيان فضهم وحسن عاقبتهم، وهذا لا ينفي أن يكون القرآن فيه الهداية لعامة الناس، لأنه من المعلوم أن ذكر الواحد لا يدل على أن غيره بخلافه كما قال تعالى : إنما أنت منذر من يخشاها (- النازعات / ٤٥ -

فهذا لا ينفي عموم إنذاره - صلى الله عليه وسلم - لقوله تعالى :
(وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً) - سبأ / ٢٨ -

فالمتقون يخشون عند الإنذار ويزدادون إيماناً مع إيمانهم، وتوجل قلوبهم لذكر الله تعالى، بعكس غيرهم ممن أعمى الهوى قلبه وطمس على بصيرته، (كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) - المطففين / ١٥ - فوجود الشبهات والشهوات مانع من الانتفاع بالقرآن كما قال تعالى :
(إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) - غافر / ٢٨ -

ولا يخفى أنّ قوله تعالى : " هدى للمتقين " من إيجاز القصر^(٢) أي هدى للخالين المائرين إلى الهدى بعد الضلال، وحسنه التوصل إلى تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه، وهذا راجع لما تقدم من تخصيصهم بالذكر لانتفاعهم بالقرآن وتدبرهم لآياته فاصبحوا متقين بعد ضلال، والله تعالى أعلم

(١) زاد المسير : ج١ / ٢٤ ، تفسير ابن كثير : ج١ / ٦٢ البقرة ٢ / تفسير الرازي : ج٢ / ٢١ ، روح المعاني : ج١ / ١٠٩ ، تنزيه القرآن : ١١

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة : ١٦

(٣) قوله تعالى " هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهاً ٠٠٠ " - آل عمران / ٧ -
مع قوله تعالى : " ألر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت
حكيم خبير " - هود / ١ -
وقوله تعالى : " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثاني
تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ٠٠٠ " - الزمر / ٢٣ -
هذه الآيات تتعلق بكتاب الله عز وجل قد يُتوهم أن بينها
اختلافاً و تضاداً فقوله تعالى : " منه آيات محكمات " يفيد
التبعية ، فهى تدل على أن القرآن منه محكم ومنه متشابه ،
وقوله تعالى : " كتاب أحكمت آياته " يفيد العموم ، أى أن كل
الآيات محكمة
وقوله تعالى : " كتابا متشابهاً " يدل على أن كله متشابه .
ووجه الجمع بين هذه الآيات ما يلى :-
كل آية من هذه الآيات أفادت غير ما أفادته الأخرى من غير
اختلاف بينها ، فالقرآن دل على أنه بكليته محكم ودل على أنه
بكليته متشابه ودل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه ،
فمعنى كونه كله محكما :- أنه فى غاية الاتقان فى ألفاظه
ومعانيه وإعجازه ، أخباره صدق وأحكامه عدل ، لا يعتريه
اختلاف أو خلل أو زلل فكله صحيح محكم وحق من عند الله ،
" لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد " ، والعرب تقول فى البناء الوثيق والعقد الوثيق الذى
لا يمكن حله : محكم ، فهذا وصف جميعه بأنه محكم (١)
وأما كونه متشابهاً كما قال تعالى : " كتابا متشابهاً " فمعنى
ذلك : أن آياته متفقه غير مختلفة يشبه بعضها بعضا فى البلاغة
والحسن والصدق والصحة وعدم التناقض وتأييد بعضه لبعض
والاعجاز والسلامة من جميع العيوب ، وإليه الإشارة بقوله
تعالى : " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً " - النساء / ٨٢ -

(١) تفسير الرازى ١٦٧ / ٧ ، تفسير القرطبي ١٠ / ٤

روح المعانى ٨٠ / ٣ - ٨٢ ، فتح الرحمن / ٧٨ - ٧٩

أضواء البيان / ١٠ / ٤٧

أى لكان بعضه واردا على نقيض الآخر ، ولتفاوت نسق الكلام فى
الفصامه والركاكه . (١)

لذلك يُطلق المعنيان على جميع القرآن آياته مُحكمات وهي أيضا
متشابهة فى كونها فى غاية الاحكام لا يشذ عن ذلك آية واحدة
فلاحكام العام بما فسرته والتشابه العام بما فسرتة يشترك فيه جميع
آيات القرآن الكريم .

وأما كون بعضه محكم وبعضه متشابه كما قال تعالى :

" منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات ... "

فالمراد بالمحكم منه :- واضح المعنى ظاهر القصد والدلالة ، مُحكم
العبارة محفوظ من الإحتمال والإشتباه فهو أصل الكتاب والعُمدة فيه
يُرد اليه غيره كقوله تعالى : " ولا تقربوا الزنا ... " - الاسراء / ٢٢ -
وقوله : " ولا تجعل مع الله إلها آخر ... " - الاسراء / ٢٩ -

وقوله : " ليس كمثله شئء وهو السميع البصير ... " - الشورى / ١١

وغير ذلك ، قال : محمد بن جعفر بن الزبير (٢) : " المحكمات : فيهن حجة
الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ، ليس لهن تصريف وتحريف
عما وُضعن عليه "

وأفاد الرازى (٣) : " أن المحكم : هو ما كان موضوعا لمعنى ولا يحتمل
غيره وهو النص ، أو ما احتمل معنيان واحتماله لأحدهما راجح
وهو الظاهر . "

هذا بالنسبة للمحكم من القرآن ، أما المتشابه منه الذى هو فى
مقابل المحكم :- فهو ما خفى علمه على غير الراسخين فى العلم مما
فيه غموض ودقة فالمتشابه فى قوله : " وأخر متشابهات " من باب
الاحتمال والاشتباه ، من قوله تعالى : " إن البقر تشابه علينا " - البقرة / ٧٠ -
أى التبس علينا ، فالآيات المتشابهات هي التي تحتمل معان متشابهة لا يمتاز
بعضها عن بعض فى استحقاق الارادة ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق ،
وعدم الاتضاح قد يكون للاشتراك أو الاجمال أو غير ذلك .

-

(١) تفسير الرازى ح ٧ / ١٦٧

تفسير القرطبى ٤ / ١٠

(٢) تفسير الطبرى ح ٦ / ١٧٧ تحقيق محمود شاكر

وانظر القرطبى ١ / ١٠

(٣) تفسير الرازى : ح ٧ / ١٦٨

ولا ريب أن الراسخين فى العلم يعلمون ما اشتبه على غيرهم كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه البخارى (١) و مسلم (٢) عن النعمان بن بشير مرفوعا :

" إِنْ الْحَلَالَ بَيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ... " الحديث فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها قال ابن تيمية رحمه الله (٣) : " وكلام السلف فى ذلك يدل على أن التشابه أمر إضافى فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على هذا ، فعلى كل أحد أن يعمل بما استبان له ويكل ما اشتبه عليه الى الله . " ٥٠١ هـ فالمتشابه كناية عما لا يتضح معناه لغير الراسخين فى العلم ، وكون المحكمات أمّا لغيرها من المتشابه باعتبار رده إليها وإرجاعه لها ، وأمومتها لنفسها باعتبار عدم احتياجها الى شئ سوى نفسها لظهور معناها .

وقيل : إن التشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة والحروف المقطعة فى أوائل السور ، وذلك بناءً على أن الواو فى قوله تعالى : " وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم " ٥٠٠ - آل عمران / ٧ - استثنائيه لا عاطفة لكن الراجح هو كونها عاطفة (٤) قال ابن تيمية رحمه الله (٥) : " قد يكون فى القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلا عن غيرهم وليس ذلك فى آية معينة بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا ، وذلك يكون لغرابة اللفظ وتارة لاشتباه المعنى بغيره ، وتارة لشبهة فى نفس الانسان تمنعه من معرفة الحق ، وتارة لعدم التدبر التام ، وتارة لغير ذلك من الاسباب ، فيجب القطع بأن قوله تعالى :

" وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ... " أن الصواب قول من يجعله معطوفاً ويجعل الواو لعطف مفرد على مفرد " ٥٠١ هـ

(١) كتاب العلم ، باب فضل من استبرأ لدينه ح ١ / ١٩

(٢) كتاب المساقاة والمزارعة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٤ (شرح

النووى ٢٦/١١) ورواه أيضا أصحاب السنن وأحمد ج ٤ / ٢٢٧ / ٢٦٩

وألفاظهم متقاربة واللفظ لمسلم .

(٣) أنظر مجموع الفتاوى ١٧ / ٣٨٥

(٤) القرطبي - ٤ / ١٠

روح المعانى ٨٠/٣ - ٨٢ ، أضواء البيان / للشنقيطى ح ١٠ / ٤٧

وهناك أقوال أخرى فى المحكم . والمتشابه لم أورد استقصاءها اختصارا

و لبيان وجهه من أقصر طريق ، وراجع للمزيد تفسير الطبرى ح ٦ / ١٧٤ فما

بعدها ، الرازى ٧ / ١٧٠ مجموع الفتاوى ١٧ / ٣٨٤

(٥) مجموع الفتاوى ١٧ / ٤٠٠

وانظر تفسير الطبرى ٦ / ٢٠٣ حيث نقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد والربيع

ومحمد بن جعفر

(١) وقال الأوسبي رحمه الله : فى قوله تعالى :

"وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه" : "وهو إما بأخذ ظاهره الغير مراد له تعالى ، أو يضربون القرآن بعضه ببعض ويظهرون التناقض بين معانيه إلحادا منهم وكفرا ويحملون لفظه على أحد احتملاته التى توافق أغراضهم الفاسده فى ذلك " ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله " ١٠ هـ قلت : وقد ورد أن نصارى نجران احتجوا بقوله تعالى .

"وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه " - النساء / ١٧١ - الواردة بشأن عيسى عليه السلام احتجوا بها على ألوهيه عيسى . ومعلوم أن لفظ كلمة الله " يُراد به الكلام ويُراد به المخلوق ، بالكلام " وروح منه " يراد به ابتداء الغاية ويراد به التبعية وهنا نجسد أن النصارى احتجوا بالمتشابه وتركوا المحكم ،

كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه مسلم (٢) : " اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّى الله فاحذروهم " وهو انما تشابه عليهم لجهلهم ومرض قلوبهم وزيفها ابتغاء للفتنة ولعدم تدبرهم لكتاب الله فإن قوله " منه " إضافة تشريق كما تقول بيت الله / والمعنى روح من أمر الله ، ومما يقاربها قوله تعالى :

" وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه " الجاثية / ١٣ وأما الراسخون فى العلم والمتدبرون لكتاب الله فيعلمون معانى هذه الكلمات بردها للمحكمات ، والمحكم هو ما قاله تعالى بعدها فى نفس الآية : " إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد " فهذا يُفسر القرآن بعضه ولذلك أمرنا بتدبر القرآن (٣) . وأما حكمة وجود المتشابه فى القرآن : فهي أن ذلك يكون أدعى لاثارة العلم والرغبة فى النظر فى القرآن ، وإشغال أهل العلم بردهم المتشابه الى المحكم فيطول بذلك فكرهم ويدأومون على البحث والاهتمام فيثابون على تعبهم ، ولو جعل القرآن كله محكما لاستوى فيه العالم والجاهل ولماتت الخواطر .

(١) روح المعاني : ٨٢ / ٣

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب العلم / باب النهي عن اتباع متشابه القرآن

(شرح النووى على مسلم ١٦ / ١١٧) وانظر تفسير الطبرى ج ٦ / ١٨٩ فما بعدها

(٣) تفسير الطبرى ج ٦ / ١٨٠

، زاد المسير ٢ / ٢٦٠

تفسير الرازى ٧ / ١٧٣

، روح المعاني ٦ / ٢٤

تفسير الماردي ١ / ٤٣٦

كما أن فيه اختبارا للعباد ليقف المؤمن عنده ويرده إلى عالمه
فيعظم بذلك ثوابه، ويرتاب به المنافق فيداخله الزينغ ، فيستحق بذلك
العقوبة كما أن فيه ضربا من ضروب الإعجاز حيث جاء على نسق
كلام العرب الذى فيه الموجز الذى لا يخفى على سامعه ولا يحتمل غير
ظاهره ، وفيه الكنايات والاشارات والتلويحات وهذا الضرب الثانى
هو المستحلى عند العرب والبديع فى كلامهم ، فأُنزل الله القرآن على
هذين الضربين ليتحقق عجزهم عن الاتيان بمثله فكأنه قال : عارضوه
بأى الضربين شئتم (١)

وخلاصة الأمر : أن الإحكام يُطلق فى القرآن ويراد به واضح الدلالة
والمعنى كما فى قوله تعالى : " منه آيات محكمات ..."
والمتشابه الذى هو مقابله بعكس معناه أى مشتبه الدلالة والمعنى غير
متضح لغير العالم ، ويطلق الإحكام ويراد به من جهة اللفظ والنظم
والمعنى أيضا كما فى قوله تعالى :-
" أحكمت آياته ثم فصلت ... "

وهذا الاحكام مرادف لكلمة "متشابهة" فى قوله تعالى : " كتابا متشابها "
ولله الحمد أولا وآخرا

(١) مشكل القرآن لابن قتيبة / ص ٦٣

تنزيه القرآن عن المطاعن / القاضى عبد الجبار ص ٥٧ - ٥٨

زاد المسير لابن الجوزي ج ١ / ٣٥١ - ٣٥٣

(٤) توهم وجود الشعر فى القرآن :

قال الله تعالى : " وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر
وقرآن مبين " يس/٦٩

وقال تعالى : " وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ... " الحاقة/٤١

مع ما قيل إن هناك مقاطع قرآنية تُشبه الشعر وهذا يوهّم التعارض مع
الآيات التى تنفى ذلك .

لَبُدَّ من العلم أن كتاب الله عز وجل قد استُهدف منذ بدء الدعوة
لظعن الحاسدين والحاقدين وخاصة من لم يتذوق بلاغة القرآن
فها هم كفار مكة يدّعون أن النبى - صلى الله عليه وسلم - شاعر
وذلك فى جملة ادعاءاتهم المتناقضة فمرة هو عندهم كاهن ومرة مجنون
ومرة شاعر ومرة ساحر ، ولهذا قال تعالى فى حقهم : " عمّ يتساءلون
عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون ... "
وقال : " والسماء ذات الحبك إنكم لفى قول مختلف يُؤفك عنه من أفك (١) "
وقد كذبهم الله سبحانه فى دعواهم أنه شاعر فقال :
" والشعراء يتبعهم الغاؤون ... "

لأن الذين يتبعهم الغاؤون لا يمكن أن يكون النبى - صلى الله عليه وسلم -
منهم حيث اتبعه رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، رجال
صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، جاهدوا أنفسهم وجاهدوا أعداء
الدين حتى نشروا الاسلام شرقا وغربا ، وأصبحوا سادة الأمم ، فلا
يمكن لهؤلاء أن يكونوا اتباع شاعر يقول ما لا يفعل ، وقد كان - صلى
الله عليه وسلم - خلقه القرآن وهو قدوة العالمين قولا وعملا فأخلاقه
تكذب دعواهم ، لذا كذبهم الله سبحانه بقوله : " وما هو بقول شاعر
قليلا ما تؤمنون "

وقوله تعالى : " إنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق
المرسلين " - الصافات / ٣٦ -

" فأعلم سبحانه أنه نزه القرآن عن نظم الشعر والوزن لأن القرآن
مجمع الحق ومنبع الصدق ، وقصارى أمر الشعراء* التحصيل بتصوير
الباطل فى صورة الحق ، والافراط فى الاطراء والمبالغة فى الذم
والايذاء دون إظهار الحق ، وإثبات الصدق منه بالعرض ،
ولم يُرد سبحانه أنه ليس بشعر ، فإن وزن الشعر أظهر من أن يشتبه
عليهم حتى يحتاج الى أن يُنفى عنه ، ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمى

(١) أى يُصرف عن الايمان بالقران من صرفه الله عن ذلك

المنادون القياسات المؤدية في أكثر الأحيان الى البطلان والكذب شعرية . " (١)

قال الباقلاني رحمه الله (٢) : " نفى الله الشعر عن القرآن وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - وما علمناه الشعر وما ينبغي له ... " وقال في ذم الشعراء : " والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون "

وقال : " وما هو بقول شاعر . " وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار من قولهم إنه شاعر ، وإن هذا شعر لابد وأن يكون محمولا على أنهم نسبوه الى أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام ، لا أنهم نسبوه في القرآن الى أن^{الذي} أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعراب المحصورة المألوفة ، أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرقهم في المنطق ، وإن كان ذلك الباب خارجا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة ، أو يكون محمولا على أنه أطلقه بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر ، وهذا أبعد الاحتمالات ، فإن حُمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحا وذلك أن الشاعر يفتن لما لا يفتن له غيره وإذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه - في رأيهم وعندهم - أقدر فنسبوه الى ذلك لهذا السبب " ١٠ هـ

قلت :- ومما يدل على أن ادعاءهم بأن النبي شاعر وأن القرآن قول شاعر أرادوا به ما تقدم من الكذب أو دقة الصنعة في نظم الكلام ما أخرجه الحاكم في مستدركه ومصححه والبيهقي في الدلائل (٣) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قول الوليد بن المغيرة لما قرأ عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - القرآن : " والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه (٤) ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه

(١) البرهان للزركشي ج ١ / ١١٣

(٢) اعجاز القرآن / ص : ٥١

(٣) انظر الاتقان ٢ / ١١٧

(٤) رجز الشعر هو :- نمط من الشعر ذو تفعيلة واحدة متكررة وقيل في صفته أنه مطية الشعراء وذلك لأنه غير معقد ولا يلتزم فيه بنظام التقفية وتفعيلته الاساسية كالتالي :-

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

العروض / الشيخ جلال الحنفى ص ٤٨٦ - ٤٩٥

الذى يقول من هذا ، ووالله إنَّ لقوله الذى يقوله لحلاوة وان عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته . " ١٠ هـ

إذا عُرف ما تقدم فإن بعض الملاحدة يدعون بوجود ما هو على وزن الشعر فى القرآن الكريم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذا الادعاء لا يستحق الرد عليه لظهور تهافته ولأنه لا يدل إلا على جهل من قائله ببلاغة القرآن ، وكذلك جهله المطبق بأوزان الشعر وحقيقته ؛ وإما لأجل التلبيس على الناس لظهار اختلاف القرآن وتناقضه حسدا وكيدا

قال ابن العربى رحمه الله (١) :

" ولقد اجتهد المجتهدون فى أن يُجروا القرآن أو شيئا منه على وزن من أوزان الشعر فلم يقدروا فظهر عند الولى والعدو أنه ليس بشعر ، وقد اعترض جماعة من فصحاء الملحدة علينا فى نظم القرآن والسنة بأشياء أرادوا بها التلبيس على الضعفة " ١٠ هـ

وقد قيل فى بعض المقاطع القرآنية أنها على أوزان الشعر وحتى لا يتوهم متوهم صحة ذلك أتى هنا بأمثلة مما قالوا ثم أعقب عليه بالرد اللازم ، وأبدأ هنا بالرد التفصيلى ثم أعقبه بردا جمليا :

الرد التفصيلي لما قيل في القرآن أنه على وزن الشعر

قال ابن العربي رحمه الله (١)

" منها قوله تعالى : " فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت

على كل شيء شهيد " - المائدة / ١١٧ -

وقالوا : إن هذا من بحر المتقارب (٢) ، وهذا إنما اعترض^{به} الجاهلون

بالصناعة لأن الذي يلائم هذا من الآية قوله :

" فلما ١٠٠ الى قوله : كل " وإنا وقفنا عليه لم يتم الكلام وإنا

أتمناه بقول : " شيء شهيد " خرج عن وزن الشعر "

قلت :- نلاحظ كيف يمكرون ويلبسون على الضعفة بتجزئة الآية باستخراج

كلام غير تام المعنى ليقولوا أنه على وزن الشعر . هل هكذا يكون

الشعر ؟

ونرجع الى كلام ابن العربي : " ومنها قوله تعالى :

" ويخزهم وينصركم عليهم ويشفر صدور قوم مؤمنين " - التوبة / ١٤ -

ادعوا أنه من بحر الوافر (٣) ، وهذا فاسد من أوجه :-

أحدها :- أنه إنما كانت تكون على هذا التقدير لو زدت فيها ألفا

بتمكين حرف النون من قوله " مؤمنين " فتقول : مؤمنينا

الثاني :- أنها إنما كانت تكون على الروي بإشباع حركة الميم في

قوله : " ويخزهم " وإذا دخل عليه التخيير لم يكن قرآنا وإذا

قُرئ على وجه لم يكن شعرا ،

ومنها قوله تعالى : " ودانية عليهم ظلالها و ذلت قطوفها تذليلا "

و هذا موضوع على وزن الكامل (٤) من وجه و على روي الرجز (٥) من

وجه آخر، وهذا فاسد لأن من قرأ عليهم " باسكان الميم يكون على وزن

فعولن، وليس في بحر الكامل ولا في بحر الرجز فعولن بحال ، ومن

(١) أحكام القرآن / ٤ / ١٦١٢ ، وأنظر اعجاز القرآن للباقلاني ٥١ - ٥٤

والبرهان للزركشي ج ٢ / ١١٤

(٢) بحر المتقارب : ٠٠ أحد البحور الثمانية التفاعيل وهو كالتالي

فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن

العروض / ٢١٠

(٣) بحر الوافر : من بحور الشعر الغنائي وهو كالتالي :

مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن

العروض / ٤٤٦

(٤) بحر الكامل :- أحد البحور الشعرية وهو كالتالي :

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن ، العروض / ٤٢٢

(٥) تقدم تفسير معنى الرجز قريبا .

ومن أشبع حركة الميم فلا يكون بيتا إلا باسقاط الواو من
دانية ، واذا حُذفت الواو بطل نظم القرآن ،

ومنها قوله تعالى : " ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا
لك ذكرك . " - الانشراح / ٢ - ٤ -

زعموا - أرغمهم الله - أنها من بحر الرمل^(١) وأنها ثلاث أبيات
كل بيت منها على مصراع وهو من مجزوه على فاعلات فاعلات ، و يقوم فيها
فاعلات مقامه ، فيقال لهم : ما جاء فى ديوان العرب بيت من الرمل
على جزئين وإنما جاء على ستة أجزاء تامة كلها : فاعلات أو فاعلات
أو على أربعة أجزاء كلها : فاعلات أو فاعلات ، فأما على جزأين كلاهما
فاعلات فاعلات فلم يرد قط فيها ، و كلامهم هذا يقتضى أن تكون كل
واحدة من هذه الآيات على وزن بعض بيت ، وهذا ما لا نُنكره^(٢)
وإنما ننكر أن تكون آية تامة ، أو كلام تام من القرآن على وزن
بيت تام من الشعر ،

ومنها قوله تعالى : " أرايت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع
اليتيم " - الماعون / ١ - ٢ -

وهذا باطل^(٣) ، لأن الآية لا تقع فى أقوال الشعراء إلا بحذف اللام من
قوله فذلك " وبتمكين حركة الميم من اليتيم " ، فيكون اليتيما . " .
انتهى بتصريف قليل

قلت فهذه الأمثلة التى تقدم ذكرها تبين لنا بوضوح تلبيس الملاحدة
ومكرهم وكيف أنهم يزيدون فى الآيات أو يُنقصون منها حتى ينتظم
لهم ما أرادوا من ادعاء الشعر

وما تقدم هو رد تفصيلى لبعض الأمثلة تدلك على الباقي من
افتراءات الملاحدة وإليك الرد الاجمالى :-

(١) بحر الرمل :- من البحور ذات الصفة الرجزية الغنائية وهو كالتالى
فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

العروض / ٣٦٥

(٢) سوف يأتى فى الرد الاجمالى بيان ذلك

(٣) أى ادعائهم أن الآيات من بحر الخفيف الذى تفعيلته

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

العروض / ٢٨٢

وقد ضمن أبو نواس

هذه الآيات فى شعره بعدما زاده فيها ونقص وقال :

أرايت الذى يكذب بالدي ن فذاك الذى يدع اليتيما

قلت : وأى قرآن اقتبسه شاعر فهو هكذا لابد له من التغيير فيه نأيا بلفظ

القرآن أن يكون شعرا أنظر اعجاز القرآن للباقلانى/ ٥٢

- والجواب الاجمالي قد تكفل به الامام الباقر (عليه السلام) فقال (١) :

" إِنَّ الفصحاء منهم حين أُورِد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعرا ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم لبادروا الى معارضته لأن الشعر مُسَخَّر لهم فسهل عليهم ، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ولا عولوا عليه عُلِمَ أنهم لم يعتقدوا فيه شيئا مما يقدره الضعفاء في الصنعة والمُرمَدون في هذا الشأن ، وإنَّ استدراك من يجيء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاداته في ذلك الزمان وبلغائهم وخطائهم ، وزعمه بأنه قد ظفر بشعر في القرآن وقد ذهب أولئك النفر عنه وخفى عليهم مع شدة حاجتهم عندهم الى الطعن في القرآن والغف منه والتوصل الى تكذيبه بكل ما قدروا عليه ، فلن يجوز أن يخفى على أولئك وأن يجهلوه ، ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل حقيقا ،

اذا كان كذلك عُلِمَ أن الذي أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد وهو أنهم قالوا : إنَّ البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا (٢) وأقل الشعر بيتان فصاعدا ، والى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الاسلام ، وقالوا أيضا : إنَّ ما كان على وزن بيتين الا أنه يختلف وزنهما او قافيتهما فليس بشعر ، ثم يقولون : ان الشعر انما يُطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذي يُتعمد ويُسلك ، ولا يصح أن يتفق مثله الا من الشعراء ، دون ما يستوي فيه العاوي والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر ، لأنه لو صح أن يُسمَّى كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر أو تنتظم انتظام بعض الأعاريف كان الناس كلهم شعراء لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض في جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر وينتظم بانتظامه

ألا ترى أن العاصي قد يقول : لصاحبه : " أغلق الباب وأتني بالطعام " ويقول الرجل لأصحابه : " أكرموا من لقيتم من تميم " ؟ ومتى تتبع الانسان هذا النحو عرف أنه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه انتهى المراد

(١) إعجاز القرآن / ٥٣ بحذف بعض الفقرات ،

وانظر : أحكام القرآن / لابن العربي ٤ / ١٦١٢

قرطبي ١٥ / ٥٢ لرازي ٢٦ / ١٠٥ روح المعاني / ٢٣ / ٤٦

(٢) تقدم في كلام ابن العربي قوله : " وانما ننكر آية تامة أو كلام تام من القرآن

على وزن بيت تام من الشعر "

وقال الجاحظ^(١) حول هذا المعنى :- " ويدخل على من طعن فى قوله : " تبت يدا أبي لهب " وزعم أنه شعر لأنه فى تقدير مستفعلن مفاعيلن^(٢) فيقال له : إعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل " مستفعلن مستفعلن " كثيرا ، و "مستفعلن مفاعيلن" وليس أحد فى الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا ، ولو أن رجلا من الباعة صاح : من يشتري باذنجان ؟ لقد كان تكلم بكلام فى وزن "مستفعلن مفعولات " وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد الى الشعر ، ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيا فى جميع الكلام وإذا جاء المقدار الذى يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعرا . " انتهى

قلت : فمن هذا الذى تقدم يتبين حقيقة قوله تعالى : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين " (٣) وأن القول بأن القرآن فيه ما يشبه أوزان الشعر قول بلا علم لا يصدر عن عالم بالعربية وبلاغتها والشعر وفنونه ، كذلك لا يصدر عن مؤمن بالله ورسوله حيث يقول الله تعالى :

" وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون " قال الفيروزبادى^(٤) : " خُصَّ ذكر الشعر بقوله " ما تؤمنون " لأن من قال القرآن شعر ومحمد شاعر بعدما عَلم اختلاف آيات القرآن فى الطول والقصر واختلاف حروف مقاطعه ، فلکفره وقلة إيمانه فإن الشعر كلام موزون مُقفى وخُصَّ ذكر الكهانة بقوله " ماتذكرون " (٥) لأن من ذهب الى أن القرآن كهانة وأن محمدا كاهن فهو ناهل عن ذكر كلام الكهّان فانه أسجاع لا معانى تحتها وأوضاع تنبو الطباع عنها ولا يكون فى كلامهم ذكر الله " ١٠ هـ

-
- (١) البيان والتبيين ٢٨٨ / ١ / تحقيق عبد السلام هارون ط : ٢
وأنظر تفسير الرازى ١٠٥ / ٢٦
(٢) تفعيلة البحر السريع : " مستفعلن مستفعلن فاعيلن "
و مفاعيلن من بدائل مستفعلن فى هذا البحر
(٣) يس / ٦٩ العروى / ٥٩٩
(٤) بصائر ذوى التمييز ج ١ / ٤٧٩
(٥) إشارة الى قوله تعالى : " وما هو بقول كاهن قليلا ما تذكرون "
الحاقة / ٤٣

قلت : فالذى يتحصل أن التفاعيل العروضية لا يعنى وجودها وجود الشعر أبداً، فهي كالحروف لا يعنى وجودها وجود الكلام العبارات ذات المعانى المفهومة ، فالتفعيلات العروضية لا بُدَّ لها من هيئة مرسومة لدى الشعراء من تناسق ووزن وقوافى ، والشعر لا تنجلي شخصيته بالشطر الواحد ولا بالبيت الواحد ولا بالأبيات المتناثرة المتقطعة ، بل له حدود وأوصاف تتحقق بها شخصيته ويتبين بها شكله وموضوعه فهو قواف منظومة على هيئة أبيات ، مؤلف كل بيت منها من مصراعين متكافئين ، بمقادير إيقاعية ويقال لمجموع تلك الأبيات قصيدة ، ويجب أن تكون القصيدة من بحر واحد ووزن واحد وليس من أوزان شتى، أما ما جاء في كلام الله على وفاق التفعيلات فليس بشعر لما تقدم ولأن النثر على اختلاف أنماطه ونماذجيه فيه الكثير مما يوزن بالتفعيلات ولا يسمّى ذلك شعر ، كما أن الكفار الذين نسبوا الرسول للشعر أرادوا به أكثر من معنى، ابتغاء التهوين من أمره وأمر شريعته . والعرب أنفسهم لم يواجهوا الرسول صلى الله عليه وسلم بنماذج من القرآن مما يبدو فيه الشكل الشعرى ليتحدوا رده عليهم بنفى الشعر عن الرسول وعن كتاب الله لأن ذلك لم يكن موضع بحث أصلاً (١)

(١) أنظر : العروض للشيخ جلال الحنفي ص ٦٠٢ - ٦٠٩ .

(٥) توهم الاختلاف بين آيات اثبات النسخ وآيات حفظ القرآن من التبديل والتغيير قال الله تعالى : " ما ننسخ من آية أو ننسها نأتريخيراً منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير " - البقرة / ١٠٦ -

وقال : " وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ، قل نزل به روح القدس من ربك بالحق " - النحل / ١٠١ -

هاتان الآيتان يوهم ظاهرهما التعارض مع قوله تعالى :
" وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسه إن أتبع إلا ما يوحى إليّ " - يونس / ١٤ -

وكذلك قوله تعالى : " اتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ... " - الكهف / ٢٧ -

وظاهر من الآيات التوافق وأن النسخ والتبديل المثبت غير التبديل المنفى إذ أن التبديل المنفى هو تبديل الرسول أو غيره لشيء من القرآن لأن المبدل والناسخ هو الله وليس ذلك لأحد غيره فالله قد حفظ كتابه من أن تمتد إليه يد التبديل والتغيير لأنه الكتاب الخالد الذى شاء الله له أن يكون كتاب البشرية الى أن يرث الله الأرض ومن عليها هذا وقد استبعد قوم ممن ينتسبون الى الاسلام النسخ فى القرآن واعتبروه مناقضاً لقوله تعالى : " لا مبدل لكلماته " فهذا المبحث رد على مقالاتهم هذه وكذلك لدحض افتراءات أعداء الاسلام الذين يجهلون معانى آيات القرآن ويظنون أنها متعارضة بسبب عدم تدبرهم لكتاب الله .

إذا عُرِف ذلك فقد قال بعضهم (١) : " وإخبار القرآن هنا بأنه لا مبدل لكلمات الله يضع مسألة النسخ فى القرآن موضع المراجعة وإعادة النظر فيما قيل فى النسخ " ١٠ هـ

وقال البعض الآخر (٢) : " إن آية " ما ننسخ من آية أو ننسها ... " جاء سياقها فى الحديث عن اليهود والتوراة وأن معناها : هو نسخ القرآن للتوراة ، وقد أنكر هذا البعض نسخ الآية بالآية فى القرآن

(١) هو الدكتور محمد البهي فى تفسيره سورة الكهف ص / ١٧

(٢) هو الدكتور أحمد حجازى السقا فى كتابه : " لا نسخ فى القرآن " ص : ١٩

اتباعا لأبى مسلم الأصفهاني

ودفعنا لأقوال هؤلاء وغيرهم أقول وبالله التوفيق :

إن الآيتين الأوليين : " ما ننسخ من آية ... "

وقوله تعالى : " وإذا بدلنا آية مكان آية "

قد نزلتا بشأن نسخ آي القرآن ببعضه للأسباب والحكم التي ذكرتها

في التمهيد في مبحث النسخ

فقوله تعالى : " ما ننسخ من آية أو ننسها ... " أخرج ابن أبي حاتم (١)

من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " كان ربما ينزل

الوحي على النبي - صلى الله عليه وسلم - بالليل ونسيه بالنهار ، فأُنزل

الله : " ما ننسخ من آية أو ننسها ... " الآية " ١٠ هـ - ص / ٣٢ - (٢)

وذكر الواحدى في أسباب النزول : أن المشركين قالوا ألا ترون إلى

محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه ، ويقول

اليوم قولا ويرجع عنه غدا ما هذا القرآن الا كلام محمد يقوله

من تلقاء نفسه وهو كلام يناقض بعضه بعضا فأُنزل الله تعالى :

" وإذا بدلنا آية مكان آية " الآية

وأنزل أيضا " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ... " أو

هذا بالنسبة لسبب النزول :

أما سياق الآيات فهو للرد على أهل الكتاب والمشركين معا

الذين يقولون : إن هذا القرآن من عند محمد ، فهي لتبكيك المشركين

واليهود في حسدهم لما ينزل من خير الوحي على رسول الله حيث

كان اليهود يتخذون من نسخ بعض الأوامر والتكاليف ذريعة للتشكيك في

مصدر هذه الأوامر والتكاليف و يقولون : لو كانت من عند الله ما

نُسخت ولا صدر أمر جبريل يلغى أو يعدل أمرا سابقا ،

واشتدت هذه الحملة عند تحويل القبلة من بيت المقدس قبله اليهود

إلى الكعبة فنزل القرآن يبين للمسلمين أن نسخ بعض الأوامر والآيات

يتبع حكمة الله الذي يختار الأحسن لعباده ويعلم ما يصلح لهم

في كل موقف وينبهم في الوقت ذاته أن هدف اليهود هو ردهم كفارا

بعد إيمانهم حسدا من عند أنفسهم على اختيار الله لهم واختصاصهم

برحمته و فضله . (٢)

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص : ٢٤

(٢) ص / ٣٢ وأنظر تفسير الرازي ٣ / ٢٢٦

(٣) في ظلال القرآن ج ١ / ٩٩ - ١٠٠ بتصرف

كما قال تعالى قبلها : " ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزلَ عليكم من خير من ركم " - البقرة / ١٠٥ -
فجاءت آية " ما ننسخ ... لبيان أن الله تعالى يأتي بالآيات وإذا أغاضكم ذلك ننسخ منها ما شئنا ونأتى بخير منها أو مثلها أيضا فموتوا بغيظكم ذلك أن الله على كل شيء قدير يقول الامام برهان الدين البقاعي (١) :

" ولما حرم سبحانه قولهم " راعنا " بعد حله وكان ذلك من باب النسخ وكان اليهود يرون أن دينهم لا يُنسخ ، فكان النسخ لذلك من مطاعنهم في هذا الدين وفي كون هذا الكتاب هدى للمتقين ، لأنه على زعمهم لا يجوز على الله لما كان ذلك قال تعالى جوابا عن طعنهم سابقا له في مظهر العظمة معلما أنه قد ألبس العرب المحسودين ما كان قد زين به أهل الكتاب دهورا فابتذلوه وندسوا محياه ، وردلوه وغيروه وبدلوه ، إشاره الى أن الحسد لكونه اعتراضا على المنعم يكون سببا لالباس المحسود ثوب الحاسد " ١٠١ هـ ثم بكتهم الله على أسئلتهم التعجيزية والتي يضاهئون بها أهل الكتاب في قوله تعالى بعدها : " أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ... " - البقرة / ١٠٨ -

وهذا مما يدل أن سياق آية " ما ننسخ ... " جاء في الرد على المشركين واليهود في طعنهم في النسخ في القرآن ، وليس المراد بها : ما ننسخ من شريعة ... وكيف يصح ذلك مع قوله تعالى : " أو ننسخها " و هل الشريعة تنسى بأكملها ؟ أو تؤخر بأكملها على قراءة " نسأها " هذا مع اتفاق المسلمين أن المراد بالآية نسخ القرآن بالقرآن

وكذلك فإن قوله تعالى : " وإذا بدلنا آية مكان آية ... " جاء سياقها في الرد على المشركين يتضح ذلك من خلال قراءة السياق حيث قال تعالى بعدها : - " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين " - النحل / ١٠٣ ودلالة الآية صريحة على النسخ وإلا فما معنى التبديل هنا .

(١) نظم الدرر في تناسب الآتي والسور ج ٢ / ٩٠ - ٩١

وليس الغرض من هذا المبحث إثبات وقوع النسخ في القرآن (١) وإنما القصد بيان عدم التعارض والاختلاف بين الآيات السالف ذكرها وأن الذين ينفون النسخ في القرآن يقولون بلا علم ويذهلون عن الآيات التي تتحدث عن النسخ وعن سياقها وسبب نزولها ،
أما قوله تعالى : " قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء
نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى " - يونس / ١٥ -
فقد نزلت (٢) لما قال المشركون : أنت بقرآن غير هذا ليس فيه ما نستبعده من البعث وتوابعه أو ما نكرهه من ذم آلهتنا والوعيد على عبادتها ، أو بدله بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى " قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى " أى من جهتي ومن عندى فإله تعالى هو الذى يبدل ما شاء بما شاء " إن اتبع الا ما يوحى الى " من غير تغيير له فى شي أصلا فهو سبحانه الذى ينسخ ما يشاء ويبدل ما يشاء وليس النسخ والتبديل فى القرآن للرسول ولا لأحد من خلقه كما قال تعالى : " ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين " - الحاقة / ٤٤ - ٤٧ -
فلاحظ أن الآية ليس فيها أى حجة لمن نفى النسخ عن القرآن لأن نفي التبديل منصب على التبديل من تلقاء نفس الرسول أو غيره كما هو نص الآية (٣)
وقوله تعالى : " لا مُبَدِّل لِكلماته ... " - الكهف / ٢٧ -
يفيد نفس المعنى : أى لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها غيره أما هو سبحانه فقدرته شامله لكل شيء يحو ما يشاء ويثبت (٤)
فالتبديل المثبت هو لله تعالى والمنفى هو تبديل خلقه وأما تفسير منكرى النسخ للباطل فى قوله تعالى : " لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " - فصلت / ٤٢ -
على أنه دال على منع النسخ لأن التغيير فيه نوع من الباطل وقد نفى الله عن القرآن كل أنواع الباطل ، فمردود بما قاله المفسرون

(١) راجع التهديد فى هذه الرسالة مبحث النسخ
وأنظر أيضا تفسير الرازى ج ٢ / ٢٢٧ - ٢٣١ حيث توسع فى إثبات النسخ
(٢) أسباب النزول للواحدوى / ٢٦٧ .
(٣) أنظر : روح المعانى ج ١١ / ٨٤ . تفسير الرازى ج ٤ / ٥٤٩
(٤) روح المعانى ١٥ / ٢٥٧ .
وأنظر : كتاب " رد مفتريات على الاسلام للدكتور عبد الجليل شلبي
ص ٦٧ - ٦٨ .

لأن الباطل في الآية هو ما خالف الحق، والنسخ حق، ومعنى الآية : أن عقائد القرآن موافقة للعقل وأحكامه، مسايرة للحكمة، وأخباره مطابقة للواقع، وألفاظه محفوظة من التغيير والتبديل، ولا يمكن أن يتطرق إلى ساحته الخطأ بأي حال فهذه الآية بهذا المعنى أدل على إثبات النسخ ووقوعه منها إلى نفيه وامتناعه، لأن النسخ تصرف إلهي حكيم تقتضيه الحكمة وترتبط به المصلحة كما تقدم (١)

وهذا الذي تقدم هو رد على ما احتج به أبو مسلم الأصفهاني كما نُقل عنه وعلى من حذا حذوه

وقد دافع بعض العلماء عن أبي مسلم بأنه لم ينفِ النسخ في القرآن ولكنه يتحاشى أن يُسميه باسمه، ويسميه تخصيصاً اتقاء من تهجم الضالين والمنكرين لوقوع النسخ وتأثراً بما ذكرته سابقاً من قوله تعالى : " لا تبدل لكلمات الله ... " الآية

وقوله تعالى : " لا يأتيه الباطل من بين يديه ... " الآية

وقد أجاب عن ذلك الشيخ الزرقاني بما فيه الشفاء فقال (٢) " إن أبا مسلم على فرض أن خلافه مع الجمهور لفظي لا يعدو حدود التسمية نأخذ عليه أنه أساء الأدب مع الله في تحمسه لرأي قائم على تحاشي لفظ اختاره جلت حكمته ودافع عن معناه بمثل قوله تعالى : " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير " . هـ

(١) الرازي ٢ / ١٠٤ ، الإحكام للآمدي ٣ / ١٠٦ ،

مناهل العرفان ٢ / ١٠٣

(٢) مناهل العرفان ٢ / ١٠٤ ، وانظر الرازي ٣ / ٢٢٩

(٦) توهم وجود ألفاظ غير عربية في القرآن

يقول الله تعالى : " إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " - الزخرف / ٢ -
وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " - يوسف / ٢ -
ويقول تعالى : " وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فَمَصَّتْ آيَاتِهِ
أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا " - فصلت / ١٤ -
ويقول تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ " - إبراهيم / ٤ -
فهذه الآيات من كتاب الله نصوص صريحة على عروبة القرآن وأنه
يخلو من الألفاظ الأعجمية

ومع ذلك فقد قيل في بعض كلمات القرآن إنها مُعَرَّبَةٌ أى أعجمية
الأصل وهذا القول في ظاهره يُعارض النصوص القطعية الصريحة في
خلو القرآن من اللفظ الأعجمي
ومن الكلمات التي قيل فيها ذلك كلمة سندس وإستبرق قيل إنهما
فارسيان وهما رقيق الديباج و غليظه
والسجل : الكتاب بالفارسية
والطور : جبل بالسريانية
والرقيم : اللوح بالرومية
والمشكاة : الكوة بالحشية
واليسم : البحر بالقبطية
وممن روى عنه القول بذلك : ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والسدي
وغيرهم من السلف^(١) وقد اختار هذا القول - وهو وجود المعرب^(٢)
في القرآن -

(١) تفسير الطبري / المقدمة ج ١ / ص ١٢ - ١٤ تحقيق محمود شاكر
الدر المنثور : ج ٤ / ٥٠٢ ، البرهان للزركشي ج ١ / ٢٨٨ ، الاتقان ١ / ١٣٥
النكت والعيون للماوردي ج ٢ / ٤٦٢ ، ٢٥٨ ، زاد المسير ٤ / ١٧٨
المزهر للسيوطي : ج ١ / ٢٦٨ ، الماحبي لابن فارس ص ٦٠ - ٦١
تفسير الفخر للرازي ج ٢٩ / ١٢٢ سورة الرحمن

(٢) قال الجوهري في الصحاح : ج ١ / ١٧٩ مادة عرب " وتعريب الاسم الأعجمي : أن
تتفوه به العرب على منهاجها تقول : عربته العرب وأعربته أيضا "
وأنظر المزهر / ١ / ٢٦٨

و قال الجواليقي (العرب ص : ٦) : " فالعرب اجترأوا على تغيير الأسماء
الأعجمية و بدلوا الحروف التي ليست من حروفهم بحروف قريبة المخرج منها
وربما غيروا البناء من الكلام الفارسي و جعلوه على أبنية اللغة العربية

- جماعة من العلماء منهم ابن عطية^(١) ، والسيوطي^(٢) ونقله عن الجويني وأبو عبيد القاسم بن سلام^(٣)

وهؤلاء الذين قالوا بذلك علّوا رأيهم بأمر تبدو في الظاهر بأنها مقنعة لكنها عند التحميم يبين ضعفها وعدم صحتها وذلك لأنها أولا وقبل كل شيء تعارض النص القاطع المريح "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" - يوسف / ٢ -

والضمير في أنزلناه راجع الى جميع ألفاظه لفظا لفظا لأنها جميعها منزلة كذلك .

وسوف أبدأ ببيان أقوالهم في ذلك وحججهم وتعليقهم لذلك ثم أعقب ذلك بأقوال الجمهور من العلماء الذين أنكروا مقالة وجود المعرب في كتاب الله

قال ابن عطية^(٤) : " كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لعائر الألسنة بتجارات وبرحلي قريش وكسفر مسافر ، ابن أبي عمرو الى الشام وسفر عمر بن الخطاب ، وكسفر عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد الى أرض الحبشة فخلقت العرب بهذا كله ألفاظا عجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها وجرت في تخفيف ثقل العجمة ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصح ووقع بها البيان وعلى هذا الحد نزل بها القرآن ، فإن جهلها عربي ما فكجهلها في لغة غيره ، وكما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر الى غير ذلك ، فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربت بها فهي عربية بهذا الوجه " ١٠ هـ

ونقل السيوطي عن الجويني قوله^(٥) : وهناك حكمة أخرى لاستعمال هذه الألفاظ المعربة ، ونضرب مثلا كلمة الاستبرق : وهو أن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس ولم يكن لهم بها عهد ، ولا وضع في اللغة العربية للديباج الثخين اسم ، وإنما عربوا ما سمعوا

(١) أنظر تفسيره المسمى : المحرر الوجيز ، تحقيق أحمد صادق الملاح ج ١ / ٦٩ والبرهان ج ١ / ٢٨٩ .

(٢) الاتقان للسيوطي ج ١ / ١٣٦ .

(٣) المصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص ٦٠ - ٦١

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / ج ١ / ٢٠

وأنظر البرهان ج ١ / ٢٨٩

(٥) الاتقان / ج ١ / ١٣٧

من العجم واستغنوا به عن الوضع لقلّة وجوده عندهم ونسبة

تلفظهم به " ١٠ هـ

وقال ابن الجوزي في زاد المسير^(١) وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : قال أبو عبيد^(٢) : " وكلاهما مصيب إن شاء الله ، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل ، فقال أولئك على الأصل ثم لفظت به العرب بالسنتها فعربته فصار عربيا بتعريبها إياه ، فهي عربية في هذه الحالة أعجبية الأصل فهذا القول يصدق الفريقين جميعا " ١٠ هـ

ثم أنهم قالوا : إن استعمال القرآن لهذه الألفاظ التي اقتبسوها من لغات بعض الأمم بسبب الخلطة بما يلائم فطرتهم و مناهجهم اللغوية هو من بلاغة القرآن حيث صارت هذه الكلمات المعربة من كلام العرب وأساليبهم في البلاغة ، وهذا من دلائل الإعجاز ، حيث لم يترك القرآن منهجا أو أسلوبا أو تركيبا يسلكه العرب في حوارهم وكلامهم إلا سلكه القرآن إمعانا في التحدى وبيانا من الله تعالى أن هذا القرآن بلسان عربي مبين .^(٣)

واحتجوا أيضا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - بُعث إلى كافة فيجب أن يكون في الكتاب المنزل عليه لسان كافة^(٤) وأجيب عن ذلك : - بأنه يجب أن يكون فيه على قولكم جميع اللغات من التركية والزنجية وأصناف الفارسية وبقية الشعوب والأمر بخلاف ذلك ، كما أن هذه الكلمات القليلة التي قيل فيها إنها معربة لا يحصل بها بيان ولا يحمل بها تبليغ حتى يقال إنها للناس كافة كما أنه إذا عجز العرب أهل الفصاحة والبيان عن مثل القرآن فغيرهم أعجز فثبت صدقه في حق الجميع^(٥)

(١) زاد المسير ج ٤ / ١٧٨ ، وأنظر البرهان ١ / ٢٩٠ ، والصاحبي / ٦١
(٢) أبو عبيد هو القاسم بن سلام ، وهو هنا يردّ على شيخه أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ والذي شنع على من قال بوجود المعرب في القرآن كما سيأتي قريبا

(٣) مجلة كلية الشريعة عدد ٢
مبحث نقاء القرآن الكريم من الكلام الأعجمي ص ٢٠٢

د . حسن عتر .

(٤) الاتقان ١ / ١٢٧

(٥) التمهيد في أصول الفقه ٢ / ٢٨٠

كما أنهم أجابوا عن قوله تعالى " قرآنا عربيا " بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تُخرجه عن كونه عربيا

وعن قوله تعالى : " أعجمي وعربي " بأن المعنى من السياق : أكلام أعجمي ومخاطب عربي

واستدلوا باتفاق النجاة على منع صرف نحو : " ابراهيم " للعلمية والعجمية وقالوا : بأن الاعلام وإن كانت ليست محل خلاف إلا أنه اذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس (٢)

قال الفخر الرازي (١) عند تفسيره لكلمة استبرق : " والجواب الحق أن اللفظة في أصلها لم تكن بين العرب بلغه وليس المراد أنه أنزل بلغته هي في أصل وضعها على لسان العرب ، بل المراد أنه منزل بلسان لا يخفي معناه على أحد من العرب ، ولم يستعمل فيه لغة لم تتكلم العرب بها فيصعب عليهم مثله لعدم مطاوعة لسانهم بها فعجزهم عن مثله ليس إلا لمعجز . "

هذا وقد أنكر جمهور العلماء وقوع المعرب في القرآن وفي مقدمتهم الامام الشافعي وأبن جرير الطبري شيخ المفسرين وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، والقاضي أبو بكر بن الطيب وأبو الحسين بن فارس اللغوي وغيرهم (٣) .

واستدلوا على عدم وقوع المعرب في القرآن بوصف القرآن بكونه عربيا ، ولهذا فقد شدد الامام الشافعي النكير على من زعم وقوع ذلك فيه فقال في الرسالة (٤) :-

" ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله انما نزل بلسان العرب فالواجب على العالمين أن لا يقولوا الا من حيث علموا وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الامساك أولى به وأقرب من السلامة له ان شاء الله ، فقال منهم قائل : إن في القرآن عربيا وعجميا - والقرآن يندل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب - ووجد قائل هذا القول ممن

(١) تفسير الرازي ٢٩ / ١٢٧

(٢) الاتقان ١ / ١٣٦

(٣) أنظر : البرهان للزركشي ١ / ٢٨٨ ، تفسير الطبري ج ١ / ص ١٤ من مقدمة تفسيره

الرسالة للشافعي ج ١ / ٤٠ - ٥٢ ، الماحبي لابن فارس ص ٥٨ - ٦٢

روح المعاني للاكوسي ج ١٢ / ١١٤

(٤) الرسالة ج ١ / ٤٠ - ٥٢

قبل ذلك منه تقليدا له وتركنا للمسألة له عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه ، وبالتقليد أغفل مَنْ أغفل منهم والله يغفر لنا ولهم ، ولعل من قال إن في القرآن غير لسان العرب وقبيل ذلك منه : ذهب الى أن من القرآن خاصا يجهل بعضه بعض العرب ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرهم ألفاظا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه ٠٠٠ فإن قال قائل :- ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلط فيه غيره

فالحجة فيه كتاب الله، قال الله : " وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه " - ابراهيم / ٤ -

وقال : " وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى و من حولها " - الشورى - ٧ -

وقال : " قرآنا عربيا غير ذي عوج " - الزمر / ٢٨ -
فأقام حجة بأنه كتاب عربي في كل آية ذكرناها ثم أكد ذلك بأن نفس عنه - جل ثناؤه - كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه ، فقال تبارك وتعالى : " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين " - النحل / ١٠٣ -
وقال : " ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فُصِّلَت آياته لأعجمي وعربي " - هـ - فصلت / ٤٤ -

وقد استنكر أبو عبيدة معمر بن المثنى^(١) دعوى وجود غير العربية في القرآن فقال : " إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول " .

قال ابن فارس^(٢) تعقبا علي قول أبي عبيدة هذا : " ومعناه أتى بأمر عظيم وكبير وذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الاتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها وفي ذلك ما فيه " . هـ - ١٠١ -
وقال القاضي عبد الجبار المعتزلي^(٣) : " ان كتاب الله تعالى وصف بأنه عربي فما يوجد فيه يجب أن يُعلم أنه لغة إما حقيقة وإما مجازا ، وإنا كنا نقبل ذلك متى ورد به شعر منظوم أو كلام منشور فلأن يلزم ذلك لما ذكرنا أولى " . هـ - ١٠١ -

(١) انظر : الماحبي لابن فارس / ٥٩ ، البرهان للزركشي ج ١ / ٢٨٨

(٢) الماحبي ص ٦٢ وأنظر البرهان ج ١ / ٢٨٨

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن / ص :-

قلت : ومن حجة الجمهور الذين أنكروا وقوع المُعَرَّب في القرآن أن كل تلك الألفاظ عربية صرفة ، ولكن لغة العرب متسعة جدا ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الأجلة ، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر وغيرها^(١) ومن هنا قال الشافعي في الرسالة^(٢) لا يحيط بجميع علم لسان العرب انسان غير نبي "

ولهذا فقد أخرج ابن جرير بسند صحيح^(٣) عن أبي ميسرة التابعي الجليل قوله : " في القرآن من كل لسان " قلت : أى من ألسنة العرب^(٤)

أما استدلال السيوطي في الاتقان^(٥) بظاهر كلام أبي ميسرة على أنه أراد من كل لسان من ألسنة الأمم فهو غير مقبول لأنه يحتمل غير ذلك مثلما فسّره ابن جرير في مقدمة تفسيره^(٦) : " بأنه فيه من كل لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التي تنطق به " ،

كما أنه يحتمل ما فسّره به وهو الذي أرجحه لما في القرآن من ألسنة القبائل العربية غير قريش^(٧) ولما سوف يأتي من تفسير ما توهم بأنه مُعَرَّب في القرآن .

وقال القرطبي^(٨) تأييدا لما تقدم من عدم وقوع المُعَرَّب في القرآن " ولو جعلناه قرآنا أعجميا " : أى بلغة غير العرب " لقالوا لولا فصلت آياته " أى بُيّنَت فإننا عرب لا نفهم الأعجمية ، فبَيّن أنه نزل بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظما ونثرا ، وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الأدلة على أنه من عند الله ولو كان بلسان العجم لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان " .

قلت : وفي كلامه هذا رد على من استدل " بأن وجود المُعَرَّب في القرآن أبلغ في الإعجاز لأنه جاء على وفق مناهج العرب لأنهم استعملوا هذه الألفاظ في محاوراتهم وعلى هذا الحد نزل القرآن " فكلام القرطبي

(١) الدر المنثور : ج ٢ / ٣

(٢) الرسالة ج ١ / ٤٢

(٣) تفسير ابن جرير الطبري ، المقدمة ج ١ / ١٣ تحقيق محمود شاكر

وأنظر الاتقان ج ١ / ١٣٦

(٤) أما قول عثمان رضي الله عنه الذي رواه البخاري : " انما نزل القرآن بلغة قريش " فأراد به معظمه وهذا بيّن .

(٥) أنظر ج ١ / ١٣٦

(٦) تفسير الطبري / المقدمة ج ١ / ١٣ تحقيق محمود شاكر

(٧) أنظر كتاب اللغات في القرآن / لاسماعيل بن عمرو المقرئ / تحقيق صلاح الدين

المنجد ، طبع القاهرة / مطبعة الرسالة ، وأنظر الاتقان ج ١ / ١٣٣

(٨) تفسير القرطبي ج ٥ / ٢٦٨

يدلنا على أن العرب لو علموا بوجود المعرب في القرآن لاحتجوا بذلك على أن فيه أعجميا وهم عرب لذا لا يستطيعون معارضته فلما لم يحتجوا بذلك علم أنهم لم يروا فيه لفظا أعجميا لذا فان القول بأن وجود المعرب في القرآن من دلائل الإعجاز ليس بصحيح .

وحول هذا قال الزركشي^(١) : " ولو جعلناه قرآنا أعجميا " .

يدل على أنه ليس فيه غير العربي ، لأن الله تعالى جعله معجزة العرب العرباء به ، ويحاجز البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة " ١٠ هـ

وقد فسر من أنكر وقوع ما قيل فيه أنه معرب في القرآن بما فيه الشفاء إن شاء الله ، أما التفسير الأول

فقد ذكر الطبري^(٢) وحكي عن أبي عبيد واستموبه الأزهري وذكره ابن جني في الخواص والثعالبي في فقه اللغة^(٣) من أن هذه الأمثلة المنسوبة الى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تتوارد اللغات فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد " وبهذا فسروا الأخبار المروية عن ابن عباس وغيره ممن نسب اليه القول بوجود بعض الألفاظ الأعجمية في القرآن ، فقد روى ابن جرير الطبري^(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما :

" إن ناشئة الليل " قال بلسان الحبشة ، وإذا قام الرجل من الليل قالوا : نشأ ، فذكر الطبري أن هذه الأخبار وأمثالها لا تدل على أن الكلمات المزعومة عجمتها لم تكن كلاما للعرب قبل نزول القرآن فإن نطق الأفاجم بها لا يدل على أن العرب قد اقتبسوها منهم ، ولكن غاية ما يدل عليه ذلك أنها من الكلام الذي تتفق فيه ألفاظ بعض الأمم دون أن تكون إحداها مقتبسة من الأخرى ،

وقال : " وذلك هو معنى من رويناه عنه القول في الأحرف التي مضت في صدر هذا الباب من نسبة بعضهم بعض ذلك الى لسان الحبشة ، ونسبة بعضهم بعض ذلك الى لسان الفرس ، ونسبة بعضهم بعض ذلك الى

(١) البرهان : ج ١ / ٢٨٢

(٢) تفسير الطبري / المقدمة / ج ١ / ص : ١٤ فما بعدها تحقيق / محمود شاكر

وانظر البرهان ١ / ٢٨٩ المصاحبي لابن فارس / ص ٢٩

(٣) روح المعاني ١٥ / ٢٧٢ المزهر للسيوطي ج ١ / ٢٦٧ - ٢٦٨

القرطبي ١ / ٦٨ ، اللغات في القرآن / لاسماعيل بن عمرو المقرئ

والخواص لابن جني ج ٢ / ٢٨٦ - ط ٢ تحقيق محمد علي النجار

(٤) تفسير الطبري / المقدمة ج ١ / ص ١٣

لسان الروم ، لأن من نسب شيئا الى ما نسبته اليه لم ينسب
بنسبته إياه الى ما نسبته اليه أن يكون عربيا، ولا من قال منهم
هو عربي نفى ذلك أن يكون مُستجِحا النسبة الى من هو كلامه من
سائر أجناس الأمم غيرها ، وانما يكون الاثبات دليلا علي النفسي
فيما لا يجوز اجتماعه من المعاني كقول القائل : فلان قائم فيكون
بذلك قوله دالا على أنه غير قاعد و نحو ذلك مما يمتنع اجتماعه
لتناقضهما، فأما ما جاز اجتماعه فهو خارج من هذا المعنى
فكذلك ما قلنا في الأحرف التي ذكرنا وما أشبهها - غير مستحيل أن
يكون عربيا بعضها أعجميا ، وحشيا بعضها عربيا ، إذ كان موجودا
استعمال ذلك في كلتا الأمتين ، فناسب ما نسب من ذلك الى إحدى
الامتين أو كليهما فحق غير مبطل ، وهذا المعنى الذي قلناه
في ذلك هو معنى قول من قال : (فيلقران من كل لسان) - عندنا بمعنى
والله أعلم : أن فيه من كل لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ
غيرها من الأمم التي تنطق به نظير ما وصفنا من القول فيما
مضى ،

وذلك أنه غير جائز أن يُتوهم على ذي فطرة صحيحة مُقرّ بكتاب
الله ممن قد قرأ القرآن وعرف حدود الله - أن يعتقد أن بعض
القران فارسي لا عربي وبعضه نبطي لا عربي وبعضه رومي لا عربي
وبعضه حبشي لا عربي ، بعدما أخبر الله تعالى ذكره عنه أنه
جعل قرآنا عربيا . انتهى المراد .

وقال الشافعي^(١) : (فان قال قائل : فقد نجد من العجم من
ينطق بالشيء من لسان العرب
فذلك يحتمل ما وصفت من تعلمه منهم ، فان لم يكن ممن تعلمه
منهم فلا يوجد يُنطق الا بالقليل منه ، ومن نطق بقليل منه فهو تبع
للعرب فيه ،

ولا ننكر اذا كان اللفظ قيل تعلمنا أو نُطق به موضوعا :- أن
يوافق لسان العجم أو بعضها قليلا من لسان العرب كما يتفق القليل
من ألسنة العجم المتباينة في أكثر كلامها مع تنائي ديارها واختلاف
لسانها وبعد الأواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه منها .

وَمِنْ نَصَرِ هَذَا الْقَوْلِ الْقُرْطُبِيُّ^(١) حَيْثُ نَسَبَ إِلَى ابْنِ قَتِيبَةَ أَنَّهُ يَقُولُ : إِنْ اسْتَبْرَقَ فَارِسِي مَعْرَبٌ ، ثُمَّ قَالَ : وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ وَفَاقَ بَيْنَ اللَّفْطَيْنِ إِذْ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مَا لَيْسَ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ ،

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ^(٢) : " وَلَا يَبْعَدُ اتِّفَاقُ اللُّغَاتِ فِي لَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَدْ وَجِدَ ذَلِكَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَعَ لُغَاتٍ غَيْرِهِمْ "

وَقَالَ ابْنُ الْأَثَارِيِّ^(٣) : " عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : (هَيْتُ لَكَ) " وَهَذَا وَفَاقَ بَيْنَ لُغَةِ قَرِيْشٍ وَأَهْلِ حَوْرَانٍ كَمَا اتَّفَقَتْ لُغَةُ الْعَرَبِ وَالرُّومِ فِي الْقُسْطَاسِ ، وَلُغَةِ الْعَرَبِ وَالْفَرَسِ فِي السَّجِلِ (١٠٠)

وَقَالَ أَبُو الْخَطَّابِ الْحَنْبَلِيُّ^(٤) : (إِنْ جَمِيعُ ذَلِكَ لُغَةُ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا وَافَقَتْهَا فَارِسُ وَالرُّومُ وَالْحَبْشَةُ فِيهَا ، كَمَا وَافَقَتْهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ كَالدَّوَاةِ وَالْمَنَارَةِ وَالتَّنُورِ)

قَالَ : وَفِي الْعَرَبِيَّةِ أَلْفَاظٌ يَعْرِفُهَا بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ (١٠٠) وَفِي قَامِ اسْمَاعِيلَ بْنِ عَمْرٍو الْمُقْرِيءِ بِتَمْيِيزِ كِتَابِ اللُّغَاتِ فِي الْقُرْآنِ^(٥) وَقَدْ أَسْنَدَ مَضْمُونَهُ إِلَى جَهْرِ الْأُمَّةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمِمَّا قَالَهُ فِي كِتَابِهِ^(٦) : " وَالْقُرْآنُ لَيْسَ فِيهِ لُغَةٌ إِلَّا لُغَةُ الْعَرَبِ وَرَبَّمَا وَافَقَتْ اللُّغَةُ اللُّغَاتِ وَأَمَّا الْأَمَلُ وَالْجَنَسُ فَعَرَبِيٌّ لَا يَخَالُطُهُ شَيْءٌ "

وَقَالَ فِي تَفْسِيرِهِ لِكَلِمَةِ الطُّورِ^(٧) : مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) - الْبَقَرَةُ / ٦٣ - يَعْنِي الْجَبَلَ ، وَافَقَتْ لُغَةُ الْعَرَبِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لُغَةُ السَّرْيَانِيَّةِ (

وَقَالَ^(٨) : (فَمَرَّهْنِ إِلَيْكَ) - الْبَقَرَةُ / ٢٦٠ -

يَعْنِي فَقَطَّعْنِ وَافَقَتْ لُغَةُ النُّبَطِيَّةِ

وَقَالَ^(٩) : (مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) - الزَّمَرُ / ٦٣ -

يَعْنِي مِفَاتِيحَ وَافَقَتْ لُغَةُ الْفَرَسِ وَالْأَنْبَاطِ وَالْحَبْشَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

(١) تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ ١٠ / ٣٥٧ .

(٢) الْبَحْرُ الْمَحِيطُ ج ٥ / ٢٥٣

(٣) زَادُ الْمَسِيرِ : ج ٤ / ٢٠٣ تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ : ١٨ / ١١٣

(٤) التَّمْهِيدُ فِي أَصُولِ الْفَقْهِ ٢ / ٢٧٨

(٥) بِتَحْقِيقِ صَلاَحِ السَّيِّدِ الْمُنْجِدِ /

(٦) مَقْدَمَةُ الْكِتَابِ

(٧) نَفْسُ الْمَصْدَرِ ص ٢

(٨) نَفْسُ الْمَصْدَرِ ص ٢

(٩) نَفْسُ الْمَصْدَرِ ص ٣

التفسير الثاني : لما قيل إنه معرب

قال بعض العلماء بأن سبب اشتراك بعض الألفاظ بين العربية وغيرها من اللغات يعود الى الاشتقاق من أصل لغوي واحد قديم، حيث إن اللغة العربية تعتبر أحد اللغات السامية ذات الأصل اللغوي الواحد، ومن اللغات السامية اضافة الى اللغة العربية الكنعانية والحبشية والسريانية والعبرية وغير ذلك .
فالألفاظ المشتركة بين العربية وغيرها من اللغات السامية ليست ترجع الى التعريب فقط بل غالبها يرجع الى الأصل السامي (١)

ولعل من نسب بعض الكلمات في القرآن إلى بعض اللغات السامية مثل الحبشية والسريانية والعبرية قصد أن هذه الكلمة موجودة أيضا في تلك اللغة ولم يقصد أنها غير عربية .
ومما يدل على ذلك أن معظم الكلمات التي قيل فيها أنها معربة قيل أنها عبرية أيضا .

قال د . العتر (٢) : فدعوى التعريب لا تصح الا بأدلة قوية تفيد الاشتقاق المباشر وخروج الكلمة من خصائصها العربية - بل تنسب الى السامية القديمة المتداولة بين الساميين أيام اتصالاتهم وتشابه ظروفهم وتقارب ألسنتهم قبل أن تتفرق وتتميز بسماتها وخصائصها (٣) هـ .
وقال الدكتور محمد تقي الدين الهلالي (٣)

" وهذه الكلمات الكثيرة المشتركة بين اللغات السامية هي أصيلة في كل واحدة منها ، لا يقال : إن إحداها من أختها من الأخرى، وهذا هو الشأن في كل مجموعة من اللغات ، ترجع الى أصل واحد ، كاللغات اللاتينية : كاللغة الإيطالية و الإسبانية والفرنسية والرومانية ومجموعة اللغات الجرمانية : كالألمانية و الهولندية والفلمنكية والسويدية والنرويجية والدنمركية ."
وضرب الدكتور الهلالي بعض الأمثلة على تقارب اللغتين العربية والعبرية

(١) أنظر : مبحث ، نقاء القرآن الكريم من الكلام الأعجمي ، مجلة كلية الشريعة

/ عدد ٢

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٠

(٣) مجلة البحوث الإسلامية / العدد الثامن ص ٢١٤

(٤) نفس المصدر ص ٢١٥ - ٢١٦

في كثير من الكلمات لكونهما لغتين ساميتين أصلهما واحد ومن ذلك كلمات البسمة

فاسم : شم بابدال السين شينا ، وذلك كثير العبرانية
والله : ألوهيم

والرحمن : هارحمن - حيث الهاء للتعريف -

وقد قام كاتب يهودى عربى^(١) بعمل قاموس للكلمات العربية التي لها ما يقابلها في العبرية ، وقد أثبت في كتابه هذا أن أصل اللغتين واحد وأنها قد افترقتا وأن العبرية " نالت ما نالته من عناية وتهذيب وتقويم وثثقيف وإصلاح وترتيب تهش لها الحضارة وييسم لها الدهر والملك^(٢) " إلا أن المصنف المذكور قد تعمّس وحاد عن الصواب وادّعى أن العبرية هي الأصل وأن العربية فرع لها واستدل لذلك بما هو أوهى من بيت العنكبوت^(٣)

وحيث أن الكاتب مجيد للغتين فقد أتى بالكلمات العربية التي لها مقابل في العبرية من حيث اللفظ والمعنى :
ومن أمثلة ما جاء به :

أن كلمة سلم ، سبت ، سمن ، قسط ، سكن ، سكب ، سبح وغير ذلك مما يشبهه^(٤) هي بالعبرية بالشين والمعنى واحد وكذلك : وعظ ، وقظ ، حفظ ، لحظ ، وما شابه ذلك هي عبريا بالصاد والمعنى واحد^(٤)

وكل ذلك يدل على أن هذه اللغات السامية أصلها واحد ثم تشعبت وافترقت وتميزت كل لغة منها ببعض المميزات والخصائص وبقي الكثير من التشابه فيما بينها وكل ذلك إن دل على شيء فإنما يدلنا على شيء واحد وهو أن ما ورد في القرآن مما قيل عنه أنه معرب لا يصح القول به وهو قول ناتج عن عدم العلم باللغات السامية وغيرها وفوق كل ذي علم عليم ،
والذى أراه أن بعض الكلمات التي قيل فيها إنها معربة مثل ما قيل إنه فارسي لا بد أن تكون الموافقة والتوارد هي سبب

(١) هو (فرج مراد) مؤلف القاموس المسمى ملتقى اللغتين العبرية والعربية وهو من مجلدين من الحجم المتوسط

(٢) ملتقى اللغتين ج ١ / ١١

(٣) المصدر السابق ج ١ / ص ٣ - ٤

(٤) نفس المصدر ج ١ / ١ - ١٠

التشابه بين اللغتين لأن العربية والفارسية أصلهما ليس واحد وغير ذلك من اللغات السامية سبب التشابه فيها في بعض الكلمات إنما هو لاتحاد الأصل كما تقدم

وهذا الذي تقدم من كون القرآن يخلو من الكلمات المعربة هو الصواب الذي لا يصح غيره كما قال ابن جرير والشافعي عليهما الرحمة ولذلك فإن الكلمات التي قيل إنها معربة لا تعارض قوله تعالى :
(إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون)

لأنها عربية أصيلة ووجودها في القرآن دليل على عربيتها، ومن أثر عنه من السلف لم يقل بأنها عربية - كما قال ابن جرير فيما تقدم بل نسبته إياها إلى السريانية أو العبرية أو غير ذلك لا يعنى أنها غير عربية إذ أن هذه الكلمات مما اشتركت فيه اللغات لكون أصلها واحد أو مما اتفقت فيه اللغات اتفاقًا عفوياً كما تقدم

والذين قالوا بوجود المعرب في القرآن لهم وجهة نظر قد ذكرتها في بداية البحث ، وما قيل إنه معرب كلمات معدودة على الأصابع وقد اختلف فيها أهى معربة أم عربية ، فكل ما قيل فيه إنه معرب قيل إنه عربي أو مما اتفقت عليه اللغات كما أن دعوى أن أصله أعجمي ثم عرب معارضة بمثلها وهو إمكان كونه أصله عربيًا ثم أعجم في اللغات الأخرى وانظر للمثال :
كلمة " سجيل " قيل إنها فارسية معربة بينما قال آخرون إنها عربية (١)

وكذلك كلمة " استبرق " وهيت لك (٢) وغيرها .
وهذه الكلمات التي قيل فيها إنها معربة لا يصح القول بأنها كذلك في الأعلام لأن العلم يحكي بلفظه في جميع اللغات .
أما غير ذلك من الكلام كالأفعال والتراكيب وأسماء الأجناس فلا يصح أبدا أن تكون معربة فمثلاً

(١) أنظر : النكت والعيون / ٢ / ٢٢٩ روح المعاني ١٢ / ٢١١

المعرب للجواليقي / ص : ١٨١

المفردات للراغب الأصبهاني ٢٢٤

اللغات في القرآن / ص ٢٩

(٢) أنظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٥ / ٢٩٣

كلمة "السجل" (١) : قيل إنها الكتاب بالفارسية، كيف يصح ذلك ولها مقابل في اللغة العربية ولم لا يصح أن يكون العرب قد وضعوا كلمة سجل وكلمة كتاب لمعنى واحد ، كالأسد والليث موضوعان لمعنى واحد

ولا يبعد أن تكون الكلمة موضوعة لهذا المعنى فى اللغتين كما تقدم فلا اختلاف ولا تعارض وأضرب هنا مثالا لكلمة أخرى نسبت لغير العربية وهى كلمة "أخلد"

قال السيوطي في الاتفاق* : قال الواسطي في الإرشاد : أخلد الى الأرض : ركن بالعبرانية " انتهى

قال الدكتور الهلالي (٢) : (هذا القول لا يقوله الا جاهل باللغات السامية فان أخلد وخلد موجودتان فى اللغتين كلاهما ومتفقتان فى معانيهما فى الجملة فمن قال إنها عبريتان وليستا عربيتين فقد قلنا ما لا علم له به ومن قال العكس فهو مثله ولم نر أحدا من علماء العربية أشار إلى أن "أخلد" عبرانية كما ادعى هذا المدعي .) انتهى

وهذا المثال يؤيد ما قلته من أن التعريب إن صح لا يصح إلا فى الاعلام، وغير ذلك مما لمعناه لفظ مقابل فى اللغة العربية فلا يصح أبدا أن يكون معربا و لله الحمد أولا وآخرا .

(١) أنظر : لسان العرب مادة سجل ج ١١ / ٣٢٦ حيث قال : والسجل كتاب العهد ونحوه ، والجمع سجلات ، وقيل السجل الكاتب ، وفى التنزيل العزيز : " كطى السجل للكتب " وجاء فى التفسير أن السجل الصحيفة التى فيها الكتاب ثم قال : وقيل السجل باللغة الحبشية الرجل ١٠٠ الخ

(٢) مجلة البحوث الاسلامية ص ٢١٩

الفصل الثالث : المباحث اللغوية

(١) مبحث في القسم وما فيه من موهم الاختلاف

من المعلوم أن الله سبحانه قد أقسم في القرآن الكريم بنفسه كما أقسم بغيره من مخلوقاته ومظاهر عظمته وقدرته التي أبدعها في هذا الوجود ، حيث أقسم بالزمان كالليل والفجر والضحى والعمر وغيرها ، وأقسم بالمكان السماء والأرض ومواقع النجوم والبلد الأمين مكة وغير ذلك

ومظاهر نعمته ورحمته كالذاريات والمرسلات^(١) والعاديات^(٢) التي غير ذلك ولله سبحانه أن يخلق بما شاء على ما يشاء ، فهو الخالق والمالك وهو أعلم بأسرار خلقه

والنهي عن الحلف بغير الله إنما ورد في حق العباد لأن الحلف بالشئ تعظيم له ، ومن حق المسلم ألا يعظم غير الله كما أن الحلف بغير الله من الشرك

- والغرض من القسم كما هو معلوم تأكيد الخبر وتحقيقه أو إثباته على وجه يُغيد اليقين ، وقد جرت عادة العرب إذا أرادت أن تؤكد أمراً بأبلغ المؤكدات - أن تقسم عليه بما هو عزيز عليها أو بمن هو مقدس عندها وخاصة في العهود والمواثيق التي يخشون نقضها حيث للقسم عندهم حرمة عظيمة ليس من السهل انتهاكها ولهذا كان القسم عندهم قاطعاً في ثبوت الحق أو تأكيد الوعد أو تمديد الخبر

يقول زهير

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء^(٣)

فما دام الأمر كذلك فإن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب التي من عاداتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً^(٤) .

كما أن الله سبحانه قد أقسم بمخلوقاته لتثقيفها وإعلاء شأنها ولفت النظر إليها كآيات ودلائل على عظمة الله وقدرته وإبداعه ورحمته بخلقه وأنها محل للنظر والتفكير^(٥)

(١) الذاريات والمرسلات : الرياح

(٢) العاديات : هي الخيل التي تعدو

(٣) يعني يميناً أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات ، أو جلاء : أي برهاناً يجلو الحق " الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ / ١٤٠ تحقيق : أحمد شاكر

(٤) الاثقان ١٣٣ / ٢

(٥) القسم بالمخلوقات ، د. نبيه حجاب ، مجلة كلية الشريعة ص ٢١٢

كما قال تعالى : " ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار " - آل عمران / ١٩١ -
وقد قال الشاعر :

" وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وبعد فإن ما تقدم هو موجز أردت الإتيان به لعلاقته ببعض الآيات القرآنية التي أقسم الله فيها ببعض مخلوقاته .
فهناك آيات قرآنية قد يُتوهم متوهم أن بينها اختلافاً ذلك أنه قد وردت آيات ظاهرة نفي القسم وأخرى إثبات للقسم ومن ذلك قوله تعالى : " والتين والزيتون وطور سنين

وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " وقال في آية أخرى " لأقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد " - البلد / ١ - ٣ -
نفى الأولى أقسم بالبلد الأمين وهو مكة وفي الأخرى نفي هذا القسم ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :

" واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب

الاخود " - الآيات - البروج / ١ - ٤ -

وقال في آية أخرى :

" لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة

أحسب الإنسان أنن نجعل عظامه ... " - القيامة / ١ - ٤ -

نفى الآية الأولى أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة وفي الأخرى الظاهر أنه نفي القسم بيوم القيامة

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :- " والسماء والطارق وما أدراك

ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس لَمَّا عليها حافظ ... " - الطارق / ١ - ٤ -

وقال في آية أخرى : " فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لـ

تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ... " - الواقعة / ٧٥ -

نفى الآية الأولى أقسم بالطارق وهو النجم الثاقب ، وفي الأخرى الظاهر أنه نفي القسم بمواقع النجوم فقد يتوهم متوهم أن هذه الآيات بينها تعارض أو اختلاف بسبب ما يبدو في الظاهر من ذلك حيث إنه تعالى في بعض الآيات أقسم بأشياء وفي آيات أخرى كان القسم مسبوقة بحرف النفي (١)

(١) انظر : البرهان للزركشي ج ٢ / ٤٦ حيث ذكر حمله هذا التوهم لبعض الناس ورد بعض العلماء عليه وكذلك كتاب رد مغتريات على الامام / ٦٩ - ٧٠ حيث ذكر فيه ما أوهمه المنهرون حول القسم ورد عليهم

والواقع أن ما ظاهره نفي القسم لا يعارض الآيات التي فيها اثبات القسم ذلك لأن هذا الأسلوب من أساليب العرب الذين نزل القرآن بلسانهم وأساليب كلامهم جريا على عاداتهم في التخاطب وتأكيد المعاني، وهذا فيه ما فيه من الإمعان في التحدى حيث إن هذا الكتاب لا يخرج بجملته عن لسان العرب ولو أن هذا الأسلوب، وهو اثبات القسم مرة ونفيه أخرى - خارج عن أسلوبهم وفصاحتهم لاثذوه مطعنا، وهذا لم يحصل منهم، ومما يدل على ذلك ما أخرجه ابن جرير^(١) والحاكم^(٢) وصححه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله تعالى : " لا أقسم بيوم القيامة " قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه " ومثله عن قتادة^(٣)

فهذا السائل يسأل عن الحكمة من القسم بيوم القيامة حيث كانت هذه المورة جارية على أساليبهم في تأكيد الكلام وابن عباس أثبت في جوابه أن لله^{أن} يقسم بما يشاء، ولم يقل للسائل أن هذا نفي للقسم وفي ذلك دلالة على أن المراد بهذه الآية ومثيلاتها مما ظاهره نفي القسم المراد بذلك هو نفس ما أريد بالقسم وأن هذا جاريا على أساليب العرب في التفنن في الكلام

إذا علم ذلك فإن العلماء والمفسرين قد وضحوا وجه مجيء " لا " قبل القسم على ثلاثة أقوال وأوجه، وكلها توضح تناسق آيات القرآن وانسجامها و اتفاق معانيها وأنه ليس بينها اختلاف

القول الأول : وهو قول كثير من المفسرين^(٤) أن " لا " هذه التي ظاهرها النفي إنما هي صلة مزیدة جيئ بها للتأكيد يُستفتح بها الكلام كما هو أسلوب العرب في ذلك وجريا على عاداتهم في التخاطب

(١) تفسير ابن جرير ٢٩ / ١٠٨

(٢) المستدرک ج ٢ / ٥٠٩ كتاب التفسير وقال : صحيح الاسناد ووافقه الذهبي وأنظر الدر المنثور ج ٨ / ٣٤٢

(٣) انظر المراجع السابقة

في كتاب البرهان في علوم القرآن / ج ٢ / ٤٦

(٤) ونقل عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأبي عبيدة

أنظر : القرطبي ١٧ / ٢٢٣ ، فتح القدير للشوكاني ٥ / ٣٢٩ ، ابن كثير ج ٤ / ٤٦٤

أحكام القرآن لابن العربي ٤ / ١٩٣٤ تفسير الرازي ٢٩ / ١٨٧

روح المعاني ٢٩ / ١٧١ ، زاد المسير ج ٨ / ١٥٠ ، ٤١٥ ، الماوردی ٤ / ٣٥٥

و انظر مغنى اللبيب لابن هشام الأمازي ج ١ / ٢٧٥ - ٢٧٧

وتأكيد المعاني وهذا القرآن انما نزل بلسانهم وقد استدل أصحاب هذا القول بأن مجيء " لا " صلة للتأكيد واستفتاح الكلام قد جاء في آيات القرآن وأشعار العرب وقد نقل الزركشي عن ابن سريج أنه قال في ذلك لمائل سأله : " إن العرب قد تدخل " لا " في أشناء كلامها وتلغي معناها وأنشد فيه أبياتا " ٠ ١ هـ

ومن الآيات التي استشهد بها لهذا القول :-

قوله تعالى : " قال ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألا تتبعني " طه / ٩٢ :

يعني أن تتبعني

وقوله تعالى : " لئلا يعلم أهل الكتاب " - الحديد / ٢٩ : أى ليعلم أهل الكتاب وقوله تعالى : " ولا تستوى الحسنة ولا السيئة " فملت / ٣٤ : أى و السيئة وقوله تعالى : " فلا وربك لا يؤمنون " النساء / ٦٥ : أى فوربك

واستدلوا كذلك بمجموعة من الشواهد الشعرية ومنها :-

قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني مبابة وكاد ضمير القلب لا يتقطع (١)
فلو قلنا أن " لا " هنا نافية لاختلف المعنى المراد ، لكنه جاء بها هنا صلة لتأكيد تقطع القلب .

ومنها قول المعراج :

في بشر لاحور سرى وما شعر بافكه حتى رأى المبح جسر (٢)
أى سرى في بشر حور أى مهلكة وما شعر بذلك
فلو كانت لا هنا نافية لاختلف المعنى المراد ولم ينسجم البيت فلا هنا صلة قاله أبو عبيدة وغيره

ومنها قول ساعدة الهذلي :

أفعنك لا برق كأن وميضه غاب تمنمه ضرام منقّب (٣)
يعني أفعنك برق ، و " لا " صلة

(١) ذكره الماوردي ج ١ / ٣٥٥ وابن العربي في أحكام القرآن ج ٤ / ١٩٢٤

(٢) أنشده الجوهري في الصحاح ج ٢ / ٦٣٩ باب الرأى فصل الحاء " كلمة حور " ذكر الصدر الأول وذكره بتمامه الكشاف ٤ / ٥٣٦ ومعنى البيت : سرى في بشر مهلكة وما درى بذلك و دام على كذبه حتى ظهر الحق ،

(٣) أنشده الأصمعي أنظر : أضواء البيان للشنقيطي ج ١٠ / ٣٢٤ .

ومنها قول امرئ القيس
فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر^(١)
يعني وأبيك لأنه يريد القسم لتأكيد شجاعته وعدم فراره

وأنشد الفراء قول الشاعر :
ما كان يُرضى رسول الله دينهم ولا الاطيبان أبو بكر ولا عمر^(٢)
يعني وعمر و " لا " صلة
هذا وقد ذكر الفراء أن لفظة " لا " لا تكون صلة إلا في الكلام الذي
فيه معني الجحد والنفي كالبيتين الأخيرين وتُعقب بالامثلة المتقدمة
ومنها بيت ساعدة الهذلي^(٣)

(١) ديوان امرئ القيس ص ٩٤ ، خزانة الأدب ج ٤ / ٤٨٩

وأنظر : الكشف ٥٢٦ / ٤

أضواء البيان ج ١٠ / ٣٢٢

(٢) معاني القرآن للفراء ج ٢ / ٢٠٧ / القيامة أضواء البيان ٣٢٢ / ١٠

(٣) أضواء البيان ٣٢٢ / ١٠

القول الثاني :

وهو الذي ذهب اليه الزمخشري أن " لا " هذه اذا وقعت في خلال الكلام كقوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون) النساء / ٦٥ فهي صلة تزداد لتأكيد القسم مثلها في قوله تعالى : (لئلا يعلم أهل الكتاب) ، لتأكيد العلم وأنها اذا وقعت ابتداء كما في قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة) (لا أقسم بهذا البلد) فهي للنفي لأن الصلة انما تكون في وسط الكلام ذلك أنشاء القسم يتضمن الاخبار عن تعظيم القسم به ، فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية ، والمراد أنه لا يعظم بالقسم لأنه في نفسه عظيم أقسم به أولا ، وترقى من هذا التعظيم الى تأكيد المقسم عليه اذ المبالغة في تعظيم المقسم به تتضمن المبالغة فيه (١)

وأيد هذا الوجه الفخر الرازي وأنكر كونها صلة اذا جاءت في بداية الكلام . فقال (٢)

وهذا القول عندى ضعيف من وجوه ،
أولها : أن تجويز هذا يُفضي الى الطعن في القرآن لأن على هذا التقدير يجوز جعل النفي اثباتا والاثبات نفيا

وثانيها : أن هذا الحرف انما يزداد في وسط الكلام وأما قول امرئ القيس :

لا وأبيك ابنة العامرى فهو قسم على النفي (٣)
وقوله تعالى : (لا أقسم) نفي للقسم فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائز .

والدليل عليه أنه لو حلف لا يقسم كان البر بترك القسم والحنث بفعل القسم فظهر أن البيت المذكور ليس من هذا الباب وقول من أثبتا صلة في أول الكلام : إن القرآن كالسورة الواحدة ، مدفوع بأن

(١) الكشاف / ج ٤ / ٥٢٥ - ٥٢٧ سورة القيامة ، ج ١ / ٥٣٨
وأنظر روح المعاني ج ٢٩ / ١٧٠ حيث أوضح مذهب الزمخشري بما تقدم

وأنظر غني اللبيب لابن هشام ج ١ / ٢٧٦

(٢) تفسير الرازي ٢١٥ / ٣٠ ، ١٨٧ / ٢٩

(٣) أى أن (لا) مؤكدة للقسم على النفي لأنه جاء بعدها واو القسم الظاهر عملها في المقسم به مما لا يجعل (لا) عمل في هذا البيت غير تأكيد معنى النفي الوارد في البيت ، بينما (لا في قوله : (لا أقسم) تجعل النفس تنساق الى فهم النفي منها لأنها اذا دخلت على الفعل المضارع في أول الكلام لا تفيد الا النفي أو النهي .

القرآن كالسورة الواحدة في عدم التناقض، فأما أن يقرن بكل آية ما قرن بالآية الأخرى فذلك غير جائز لأنه يلزم جواز أن يقرن بكل إثبات حرف النفي في سائر الآيات، وقال (١) :

ان لا هنا لنفي القسم كأنه قال :- لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم أتحب أنا لا نجمع عظامك اذا تفرقت بالموت ، فإن كنت تحب ذلك ، فأعلم أنا قادرين على أن نفعل ذلك ، وهذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح ويمكن تقدير هذا القول على وجوه أخر :

أحدها : كأنه تعالى يقول : (لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب ، فان هذا المطلوب أعظم وأجل من أن يُقسم عليه بهذه الأشياء) ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه

ثانيها : كأنه تعالى يقول : لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإن إثباته أظهر وأجلى وأقوى وأحرى من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم ثم قال بعده : أيحب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، أى كيف خطر بباله هذا الخاطر العاقد مع ظهور فساده)

قلت : فالرازي رأيته مع الزمخشري فهما يفرقان بين (لا) التى فى وسط الكلام والتى فى أوله ويريان أن لا التى فى وسط الكلام هي الملة لتأكيد القسم أما لا فى أول الكلام كما فى : (لا أقسم بهذا البلد) فهي نفي حقيقى بمعنى : أنى لا أقسم بهذا البلد العظيم الذى يستحق القسم به على إثبات ما بعده حيث إن الأمر أظهر ممن أن يُقسم عليه وأن يتطرق اليه شك لكون الواقعة المراد الاقسام عليها فى غاية الظهور ، فيريد بنفي القسم الاعلام بذلك ، والنتيجة أن المعنى هو بيان وتجلية الأمر المراد التأكيد عليه ولفت النظر تجاهه وهذا يلتقى مع المعنى المراد من القسم

القول الثالث : وقال به الفراء وابن قتيبة وابن جرير وابن العربي أن (لا) زيدت فى الكلام على نية الرد على المكذبه كما تقول فى الكلام : " لا والله ما ذاك كما تقول " ولو قلت : والله ما ذاك كما

(١) نفى المصدر ج ٣٠ / ٢١٥

وأنظر روح المعاني ج ٢٧ / ١٥٢

تقول لكان جائزا غير أن ادخالك " لا " في الكلام أولا أبلغ في الرد^(١) فأريد بقوله تعالى : " لا أقسم بيوم القيامة " .

تكذيب للكفار لأثم قالوا : لقيامه
قال الفراء^(٢) : (... ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار) فجاء الاقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ كقولك في الكلام : (لا والله لا أفعل ذلك) جعلوا (لا) - وإن رأيتها مبتدأة - ردا لكلام قد مضى فلو ألقيت (لا) مما ينوي به الجواب ، لم يكن بين اليمين التي تكون جوابا واليمين التي تستأنف فرق . ١٠ هـ

وقال الآلوس^(٣) : وقال سعيد بن جبير وبعض النحاة : - (لا) نفي ورد لما يقوله الكفار في القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة ، كأنه قيل : فلا صحة لما يقولونه فيه ثم استأنف فقيل : أقسم ١٠ هـ

وقال أبو بكر بن العربي رحمه^(٤) الله مؤيدا لهذا الوجه : - :
(وأما من قال إنها رد فهو قول ليس له رد لأنه يصح بك المعنى ويتمكن اللفظ والمراد .)

واختار هذا الوجه واستصوبه ابن جرير رحمه الله . (٥)
قلت : ومع وجاهة هذا القول إلا أنه قد تُعقَّب بما يوهن الاستدلال به ، فقد تعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز لما فيه من حذف اسم (لا) وخبرها في غير جواب سؤال نحو (لا) في جواب : هل من رجل في الدار؟ وقال الآلوسي^(٦) (وقيل الأولي فيما اذ قصد بلا نفي المحذوف واستئناف لما بعدها في اللفظ الاتيان بالواو نحو : لا وأطال الله بقاءك .)
ولهذا قال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان^(٧) : (وهذا القول وإن قال به كثير من العلماء فليس بوجيه عندي لقوله تعالى في سورة القيامة :

(ولا أقسم بالنفس اللوامة) لأن قوله تعالى : (ولا أقسم بالنفس اللوامة) يدل على أنه لم يرد الاثبات المؤتلف بعد النفي بقوله أقسم (١٠٠) - هـ

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبية ص ٢٤٦ - ٢٤٧

وانظر غريب القرآن له أيضا ص ٤٩٩ سورة القيامة

(٢) معاني القرآن للفراء ج ٣ / ٢٠٧ سورة القيامة تفسير الماوردي ٤ / ٣٥٥

(٣) روح المعاني ج ٢٧ / ١٥٢ وانظر القرطبي ١٧ / ٢٢٣

(٤) أحكام القرآن ج ٤ / ١٩٣٤

(٥) تفسير ابن جرير الطبري ج ٢٩ / ١٠٩

(٦) روح المعاني ج ٢٧ / ١٥٢

(٧) أضواء البيان ج ١٠ / ٣٢٤ وقد رجح الشيخ الشنقيطي القول الاول وأيده بالشواهد

أى أنه لو كان الأمر كما قالوا : لقال : (وأقسم بالنفس اللوامة)
للاكتفاء بـ (لا) الأولى في نفي ورد ما قالوا

ولهذا قال الرازى^(١) : ان اعادة حرف النفي مرة أخرى في قوله :
(ولا أقسم بالنفس اللوامة) مع أن المراد ما ذكره تقدح في
فماحة الكلام

قلت : والأقوال الثلاثة وإن كان بعضها أقوى من بعض إلا أنها
جميعا تلتقي عند نقطة واحدة وهي أن آيات القسم المسبوقة بحرف (لا)
كقوله : (لا أقسم بيوم القيامة) وقوله : (فلا أقسم بمواقع النجوم)
وغير ذلك لا يُعارض الآيات الأخرى والتي فيها الاقسام بيوم القيامة
ومواقع النجوم كقوله :
(واليوم الموعود) وقوله (والسماء والطارق) وغير ذلك
كما أن قوله تعالى :

(فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم)
أثبت فيه الباري أنه قسم عظيم لو أقسم به لكنه لم يُقسم به لأن ما
يريد الكفار أن يقسم عليه ليس في حاجة للقسم لظهوره و عظمته
ودلالته فأراد بنفي القسم الاعلام بذلك لذا قال بعده :
(وإنه لقسم لو تعلمون عظيم)

ويؤيد الذي تقدم اجمالا قراءة ابن كثير^(٢) (لأقسم بيوم القيامة)
وهي قراءة سبعية متواترة واللام في هذه القراءة لتأكيد الفعل وهو
أقسم^(٣) فدل ذلك أن الآيات المسبوقة بحرف (لا) والآيات غير المسبوقة
بذلك فرضها واحد وغايتها متحدة) وتؤيد بعضها وإن اختلف أسلوبها

(١) تفسير الرازى ج ٣٠ / ٢١٥

(٢) رواية قنبل عن ابن كثير ، والنقاش عن أبي ربيعة عن البزى عن ابن كثير
أنظر : النشر ج ٢ / ٢٨٢ ، الاقناع لابن الباز ج ٢ / ٢١٨
وهي قراءة ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وأبن محيصن
زاد المسير ٤١٥ / ٨ تفسير الماوردى ج ٤ / ٣٥٥

(٣) ذكر الآلوسى (ج ٢٧ / ١٥٢) أن بعض النحويين أجاز القسم على فعل
الحال وحينئذ لا يصح أن يقرن الفعل بالنون المؤكدة لأنها تخلصه
للاستقبال وهو خلاف المراد

قلت : وهذه القراءة السبعية الثابتة تدل على هذا فلا عبرة بغيره

واختيم بقول ابن العربي رحمه الله حيث قال (١) :

(ولو كان هذا خارجا عن أسلوب البلاغة قادحا في زين الفصاحة
لاعترض عليه به الفصحاء البلّغ من العرب والخصماء اللد ، فلما
سلموا فيه تبين أنه على أسلوبهم جار وفي رأس فصاحتهم منظوم)
فالإيهام المتصور قد دفع بهذه الأقوال :
فعلى القول الأول أن (لا) صلة زائدة جاءت على أساليب العرب
في التفنن في الكلام والخطاب فلا إشكال لأنها على هذا القول ليست
بنافية للقسم الذي أثبت في مواطن أخرى

وعلى القول الثاني وهو أنها نفي للقسم وعند النظر في المراد
بهذا النفي نجد أنه بيان عظمة المقسم عليه وشدة ظهوره بحيث
لا يحتاج الى أن يُقسم به فهو في نفسه عظيم أقسم به أولا
وترقى من هذا التعظيم الى تأكيد المقسم عليه وتغخيم شأنه
فكان نفي القسم كناية عن ذلك

وهذا هو الغرض من الاقسام وهو تأكيد المقسم عليه وتغخيم
شأنه وإثباته ولفت النظر اليه فاختلف الأسلوب واتحد المعنى
والمراد وهذا من بلاغة القرآن وإعجازه وإمعانه في تحدى
العرب بهذا القرآن

وعلى القول الثالث : أن (لا) رد لكلام سبق فهو أيضا لا يعارض
الآيات التي فيها اثبات القسم لأن (لا) في هذا القول نفي ورد
لكلام الكفار الذي تقدم ثم استأنف فقال : أقسم بيوم القيامة

الا أن الذي يظهر لي من هذه الأقوال هو القول الثاني وهو
الذي قال به الزمخشري والرازي كما تقدم لصحة الاستدلال والتوجيه
ويليه في الصحة والظهور القول الأول : بأن (لا) صلة مزيدة
للتأكيد كما تقدم ومما يؤيد القول الثاني أنه سبحانه في
الآيات التي جاءت مسبوقة بحرف (لا) يأتي بعد المقسم عليه باستفهام
انكارى فيه انكار وتوبيخ للجاحدين آيات الله ونعمه رغم ظهورها الذي هو
أجل من أن يقسم به أو يتطرق اليه شك ففي الواقعة قال بعد المقسم عليه :

(أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) أى تكذبون وتتهاونون

وفي القيامة قال بعد المقسم عليه : (أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه)

وفي البلد قال بعد المقسم عليه : (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) وهكذا
والله ولي التوفيق

القواعد النحوية

(٢) " مبحث في توهم مخالفة بعض الآيات للمشهور من قواعد النحو والعربية " من المعلوم أنه لم يتوفر لنص ما توفر للقران الكريم من تواتر رواياته وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متنا وسندا وتدوينها وضبطها بالمشافهه عن أفواه العلماء، الاثبات الفصحاء من التابعين عن الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم - فهو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا بها ، وعلى هذا يكون هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة في قراءاته كلها المتواترة والثابتة ، ولا ننسى بعد ذلك أن أئمة القراء كأبي عمرو بن العلاء والكسائي ويعقوب الحزمي هم أئمة في اللغة والنحو أيضا ، حتى أن القراءات الشاذة وهي التي لم تُنقل بالتواتر أقوى سندا وأصح نقلا من كل ما احتج به العلماء من الكلام العربي غير القران ، وليس ذلك إلا لأن رواتها الأئمة عرباً فصحاء سليمة سلاقتهم تبنى على أقوالهم قواعد العربية (١)

وإذا كان الأمر كذلك فإن من الواجب أن نتعرض الى دفع ما يُتوهم مخالفته لقواعد العربية ، والذي يدعوا الى ذلك أمران ، الأول : أن بعض الآيات التي يُتوهم مخالفتها لقواعد النحو والعربية قد رُوي أنها من لحن كاتب المصحف (٢) وتناقلت ذلك بعض المراجع واستغلها بعض أعداء الاسلام (٣)

الأمر الثاني : أن بعض النحاة قد توهم أن بعض القراءات تخالف ما يعرفه من قواعد النحو والعربية إما تعصبا لمنهجه النحوي أو لعدم الاطلاع على تواتر القراءات ومنهجية علماء القراءات ونقلتها وتاريخ تدوينها والعناية بحفظها في الصدور قبل السطور جيلا

(١) أنظر : في أصول النحو / سعيد الأفغاني ص ٤ - ٥

(٢) سوف يأتي قريبا بيان ذلك مع دفعه بالمنقول والمعقول

(٣) أنظر : مذاهب التفسير الاسلامي للمستشرق جولد تسهر / ترجمة د. عبد الحليم

النجار ص : ٤٦ ، ٦٦

القراءات في نظر المستشرقين / للشيخ عبد الفتاح القاضي

رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القران الكريم ص : ١٧ - فما

بعدها ١١١ فما بعدها

بعد جيل^(١) اضافة الى أن عدم الاحاطة بكلام العرب ومناهجهم يجعل بعض النحاه يتسرع في الحكم على بعض القراءات بمخالفة ما يعرفه من القواعد التي قعدوها وسوف يأتي بيان ذلك اذا علم ذلك فإن القواعد النحوية هي التي تخضع للقراءات ولا تخضع القراءات للقواعد النحوية لأن القرآن بجميع قراءاته نزل على أفصح لغات العرب وأكثرها زيوعا وانتشارا ، والقواعد النحوية مستنبطة من كلام العرب منشوره ومنظومة ، كما أنها مستنبطة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة ،

فالكلام العربي وفي مقدمته القرآن والسنة مصدر هذه القواعد منه نشأت وعنه أخذت فهو الأصل وهي الفرع .
لذا فلا بد أن يُعلم أنه ليس في القرآن ما يخالف القواعد النحوية وكلام العرب وما يُتوهم بخلاف ذلك انما مرجعه للجهل بكلام العرب وأساليبهم ونقص الاستقراء واضطراب المنهج وكيف يُتوهم ذلك وانما نزل القرآن بلسان العرب كما قال تعالى :

"إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"

وقد تكفل الله بحفظ القرآن في قوله :

"إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"

وقال "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"

(١) راجع ما كتبه العلماء بشأن كتاب المصاحف ونسخها وبعثها للأمصار وانتشار المصاحبة حيث وزعت المصاحف وأخذ الناس عنهم بالتواتر أنظر في ذلك :
منجد المقرئين لابن الجزري ، ومقدمة النشر له أيضا وكتاب المصاحف لابن أبي داود ص ٩ - ٣٤

وأبدأ بتفنيد الادعاء بأن ما ورد مما يوهم مخالفة القواعد النحوية هو : لحن من كاتب المصحف كما روى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال : " إَنَّ فِي الْقُرْآنِ لَحْنًا وَسَتَقِيمُهُ الْعَرَبُ بِالسَّنْثَا " (١) وكذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها حيث روى عن عروة بن الزبير أنها قالت : " يَا ابْنَ أُخْتِي هَذَا عَمَلُ الْكُتَّابِ أَخْطَأُوا فِي الْكِتَابِ " (٢) وقد بيّن السيوطي (٣) رحمه الله اضطراب هذه الروايات وبيّن علتها، فنقل عن ابن أشته بسنده عن عبد الله بن عامر قال : " لَمَّا فُرِغَ مِنَ الْمَصْحَفِ أَتَى عُثْمَانَ فَنَظَرَ فِيهِ فَقَالَ : أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ أَرَى شَيْئًا سَنَقِيمُهُ بِالسَّنْثَا " فهذا الأثر لا إشكال فيه، وبه يتضح معنى ما تقدم - من الروايات الأخرى والتي تُنسب لعثمان - فكانه عُرِضَ عَلَيْهِ عَقِبُ الْفَرَاغِ مِنْ كِتَابَتِهِ، فَرَأَى فِيهَا شَيْئًا كُتِبَ عَلَى غَيْرِ لِسَانِ قَرِيشٍ كَمَا وَقَعَ لَهُمْ فِي : التَّابُوهِ ، وَالتَّابُوتِ (٤)؛ فَوَعَدَ بِأَنَّهُ سَيَقِيمُهُ عَلَى لِسَانِ قَرِيشٍ ، ثُمَّ وَقَّى بِذَلِكَ عِنْدَ الْعَرْضِ وَالتَّقْوِيمِ وَلَمْ يَتْرَكْ فِيهِ شَيْئًا وَلَعَلَّ مِنْ رَوَى تِلْكَ الْأَثَارَ السَّابِقَةَ عَنْهُ حَرَّفَهَا وَلَمْ يَتَّقِنِ اللَّفْظَ الَّذِي صَدَرَ مِنْ عُثْمَانَ فَلَزِمَ مِنْهُ مَا لَزِمَ مِنَ الْأَشْكَالِ، فَهَذَا أَقْوَى مَا يُجَابُ بِهِ عَنْ ذَلِكَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ . " ١٠ هـ

قلت : فالروايات الأخرى والتي تدل على وجود خطأ في كتابة القرآن أو لحن تعارض الروايات الأخرى الصحيحة والتي تنفي ذلك فهي روايات باطلة ومردودة لا يركن إليها من في قلبه ذرة من إيمان أو معرفة بالعربية وليس لها أي وزن أو اعتبار أمام تواتر المصاحف والقراءات القرآنية

-
- (١) المصاحف لابن أبي داود / باب المصاحف العثمانية ص ٤١
الدر المنثور ج ٢ / ٧٤٤
- (٢) المصاحف؛ ابن أبي داود ص : ٤٣ ، تفسير ابن جرير ج ١ / ٣٩٥ تحقيق أحمد شاكر .
- (٣) الاتقان في علوم القرآن ج ١ / ١٨٤ .
- (٤) أخرج ذلك ابن أبي داود في المصاحف ص ٢٦ عن أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه : " واختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه فقال نفر القرشيون التابوت ، وقال زيد : التابوه فوقع اختلافهم الى عثمان فقال : اكتبوه التابوت فإنه بلسان قريش ١٠ هـ .

القرانية (١) .

قال ابن جرير (٢) رحمه الله عند حديثه عن قوله تعالى :

(والمقيمين الصلاة) - النساء / ١٦٢

قال : ولو كان " والمقيمين " خطأ من جهة الخط لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله . صلى الله عليه وسلم - يُعلمون مَنْ علّموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن ، ولأصلحوه بالسنتهم ولقنوه للأمة تعليماً على وجه الصواب ، وفي نقل المسلمين جميعاً ذلك قراءة على ما هو به في الخط مرسوماً أدل الدليل على صحة ذلك وموابه ، وأن لا منع في ذلك للكاتب . " ١٠ هـ

وقال الزمخشري في الكشاف (٣) موجهاً قراءة^{الذهب} في أية " والمقيمين الصلاة " " نُصب على المدح لبيان فضل الصلاة وهو باب واسع قد أُورد عليه سيبويه أمثلة وشواهد ، ولا يُلتفت الى مَنْ زعم أن في خط المصحف لحناً ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الاقتنائان ، وغاب عنه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كانوا أبعدَ همة في الغيرة على الاسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلثة ليسدها مَنْ بعدهم وخرقوا يرفوه من يلحق بهم . " ١٠ هـ

قلت : وصدق في ذلك فكيف يُظن بالصحب الكرام وهم القدوة بعد خير الأنام أن يتركوا لحناً أو خطأ يصلحه من بعدهم وهم الذين سخرهم الله لحفظ كتابه وتبليغ دينه ومن أجل ذلك

(١) أنظر : كتاب " القراءة في نظر المستشرقين والملحدّين / الشيخ عبد الفتاح

القاضي : ص ١٧٢ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ / ٣٩٧ .

(٣) الكشاف : ج ١ / ٥٨٢

فقد قال أبو بكر الانباري^(١) في الرد على من يزعم وجود لحن في القرآن:-
" وفي قوله تعالى: " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون" دلالة
على كفر هذا الانسان ، لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من
التغيير والتبديل والزيادة والنقصان ، وفي هذا الذي قال توطئة
الطريق لأهل الإلحاد ليُدخلوا في القرآن الحكيم ما يحلون به عُرا
الاسلام " . ١٠ هـ

وقد ذكر السيوطي^(٢) رحمه الله شبه من قال إنّ في القرآن لحنا
وفند ذلك وقال في دفعها :- " وأما قول عثمان : إنّ في القرآن
لحنا الخ

فهو مُشكل اذ كيف يُظن بالصحابة أولا اللحن في الكلام فضلا عن القرآن
وهم الفصحاء اللد ، ثم كيف يُظن بهم ثانيا اجتماعهم على
الخطأ وكتابته ، ثم كيف يُظن بهم ثالثا عدم التنبيه والرجوع ، ثم
كيف يُظن بعثمان عدم تغييره ثم كيف يظن أنّ القراءة استمرت على
ذلك الخطأ وهو مروي بالتواتر خلفا عن السلف ، وكيف يتركه
عثمان لتقييمه العرب ، واذا كان الذين تولوا جمعه لم يُقيموه وهم
الخيار فكيف يقيمه غيرهم ، إنّ هذا مما يستحيل عقلا وشرعا
وعادة ٤

وأيا فإِنْ عثمان لم يكتب مصحفا واحدا بل كتب عدة مصاحف
فان قيل إنّ اللحن وقع في جميعها فبعيد اتفاقهم على ذلك أو في
بعضها فهو اعتراف بصحة البعض ولم يذكر أحد من الناس أنّ اللحن
كان في مصحف دون مصحف ولم تأتي المصاحف فقط مختلفة إلا فيما
هو من وجوه القراءات وليس ذلك بلحن " . ١٠ هـ بتصرف قليل

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية^(٣) معلقا على شبهة وجود اللحن في المصحف
:- " وما يبين كذب ذلك : أنّ عثمان لو قُدِّرَ ذلك فيه فلنما رأى ذلك
في نسخة واحدة فأما أن تكون جميع المصاحف اتفقت على الغلط و
عثمان قد رآه في جميعها وسكت ، فهذا ممتنع عادة وشرعا من
الذين كتبوا ومن عثمان ، ثم من المسلمين الذين وصلت اليهم
المصاحف ورأوا ما فيها وهم يحفظون القرآن ويعلمون أن فيه لحنا

(١) في المصاحف ، نقلا عن القراءات في نظر المستشرقين والملحددين للشيخ

القاضي ص ١٧٨ .

(٢) الاتقان ج ١ / ١٨٣ وأنظر روح المعاني ج ١ / ٢٠

(٣) مجموع الفتاوى ج ١٥ / ١٥٣

لا يجوز في اللغة فضلا عن التلاوة) وكلهم يقر هذا المنكر لا
يغيره أحد ، فهذا مما يُعلم بطلانه عادة ، ويعلم من دين القوم
الذين لا يجتمعون علي ضلالة . " انتهى

قلت: والأجوبة المتقدمة لهؤلاء العلماء الأجلاء عن تلك الآثار توضح
لنا أن الخبر الوارد عن عثمان وعائشة إنما هو مردود لاضطرابه
وإعلاله

مضطرب لاختلاف الروايات في ألفاظها ومعانيها مما يدل على
حصول الخطأ في النقل عن عثمان وغيره ، يدل على ذلك ورود الرواية
الصحيحة المعني والتي لا إشكال فيها كما ذكر السيوطي ، كما أن
القرآن محفوظ في الصدور قبل السطور وهو منقول بالتواتر من عصر
الصحابة رضي الله عنهم وحتى يومنا هذا وهو محفوظ بحفظ الله ،
فهل حصول الخطأ في الكتابة على فرض صحته يجعل الصحابة
يغيروا حفظهم على حسب ذلك أم أنهم يؤدون القرآن كما سمعوه من
في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا هو اعتقادنا فيهم وهم
نقلة الدين و حماة حياضه وحملة لوائه رضي الله عنهم وأرضوه ،
وادعاء اللحن إنما هو من دسائس أعداء الإسلام الذين يغفلون عن
مثل قوله تعالى :

" إنما نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ."

وسوف أبين بمشيئة الله أهم الأمثلة والتي ادّعي بأنها من لحن
الكاتب أو أنها تخالف قواعد العربية ونبين صحتها وخصائصها
وانها لا تعارض ما صح وثبت من كلام العرب وأساليبهم الخطابية
بل هي تصحح ذلك وتثبت فصاحة من نطق به من العرب كما
سيأتي .

وانتقل الآن الي بيان حقيقة ادعاء بعض النحاة وغيرهم من أن بعض القراءات القرانية تخالف بعض قواعد العربية

فانه من الثابت أن بعض النحاة البصريين وغيرهم قد وقفوا من بعض الأحرف القرانية موقفا غير محمود (١)
قال الاستاذ أحمد مكي الأثاري في كتابه "الدفاع عن القرآن" (٢) :
" انني لا أتهم هؤلاء النحاة في دين أو خُلُق ولكنها العصبية المذهبية والتمسك بالقواعد النحوية كل ذلك فرض عليهم أن يقفوا هذه المواقف التي لا تليق بالعلماء الأجلاء " . ٥٠١ هـ

وما زال العلماء قديما وحديثا يُنكرون على بعض نحاة البصرة ومن سلك سبيلهم ، قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره (٣) :
" ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة ولا غيرهم ممن خالفهم فكم حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب لم ينقله البصريون ، وكم حكم ثبت بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون وانما يعرف ذلك من له استبحار في علم العربية " ٥٠١ هـ

قلت : فالذى أنكره العلماء والمحققون على بعض النحاة هو جعلهم ما قعدوه من القواعد استنادا الى ما علموه من كلام العرب أصلا ومقياسا لغيره ولذلك ردوا بعض الأحرف القرانية استنادا لذلك

متجاهلين أو غافلين أن ورود الحكم في القرآن دليل علي صحته وعربيته وفصاحته وهو المقياس لصحة غيره .

(١) في أصول النحو / سعيد الأفغاني ٣٧ - ٤٠
الدفاع عن القرآن / د . أحمد مكي الأثاري / المقدمة
مناهل العرفان للزرقاني / ج ١ / ٤٤٢
وأنظر : النشر لابن الجزري ج ١ / ١٠ ، الكامل للمبرد ج ٢ / ٧٤٩
الكشاف ٢ / ٥٤ ، وأنظر مبحث قوله تعالى : " وكذلك يُبين لكثير من
المشركين قتل أولادهم شركاؤهم " ، الحجة في القراءات السبع ص : ١٢٥

(٢) ص : ومن المقدمة ، ص : ٤ - ٥

(٣) البحر المحيط : ج ٣ / ١٥٩ .

وخير ما يصف اضطراب موقف بعض النحاة هذا قول الفخر الرازي في تفسيره^(١) : " وكثيرا ما أرى النحويين يتحيرون في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن ، فإنا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به ، وأنا شديد العجب منهم ، فانهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقها دليل على صحتها ، فلئن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحتها كان أولى " ٠ ١٠ هـ

قلت : والقراءة سُنّة متبعة يأخذها الأحق عن السابق بالسند والرواية ، ينقلها جيل عن جيل حفظا وكتابة وعناية من علماء هذه الأمة وقرائها العدول الأثبات حتى يتصل السند برسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قال ابن الجزري رحمه الله^(٢) : " فقولنا في الضابط ولو بوجه نريد به وجهها من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحاً مُجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله ، إذا كانت القراءة مما شاع وزاع وتلقاه الأئمة بالاسناد الصحيح ، إذ هو الأمل الأعظم والركن الأثوم ، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يُعتبر انكارهم " ٠ ١٠ هـ

ولهذا قال الحافظ أبو عمر الدانوي^(٣) : " وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأثني في اللغة والأئيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، وإذا ثبتت الرواية لم يردّها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سُنّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها " ٠ ١٠ هـ

فاللغة العربية أوسع من أن يحيط بها النحويون وقد قال الشافعي يرحمه الله^(٤) : " ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبي " ٠ ١٠ هـ وهناك فائتات كثيرة فاتت على الذين جمعوا اللغة في عصر التدوين

(١) تفسير الرازي ج ٣ / ١٥٩ ، دفاع عن القرآن ص ١٠٠ " من المقدمة

(٢) النشر في القراءات العشر ج ١ / ١٠

(٣) في كتابه جامع البيان (نقلا عن الاتقان للسيوطي ج ١ / ٧٥

والنشر ١ / ١٠)

(٤) الرسالة ص ٤٢

والشعر العربي قد ضاع عنه الكثير قبل أن يُدوّن ، وقد قال الفاروق رضي الله عنه في الشعر : " حُفِظَ أَقْلُ ذَلِكَ وَنَهَبَ عَنْهُمْ كَثِيرُهُ " (١)

والذي أراه أنّ النحاة الذين وقفوا موقف المعارضة لبعض الأُحرف القرآنية لو علموا بتواتر الأُحرف التي عارضوها لكان موقفهم منها قد تغيّر، وهذا ظننا بهم إذ كيف يتجرأ مسلم على عدم اعتبار شاهد قرآني مقياساً للنحو أو دليلاً على صحة وجه من الأوجه النحوية .

وذلك لأن القراءة قد تواترت عند قوم ولا تتواتر عند آخرين ، ولهذا نجد ابن جرير الطبري المفسّر يضعّ بعض الأُحرف ويرجح البعض الآخر من القراءات السبعية وغيرها وليس ذلك إلا لكونها لم تصح عنده ولا يمنع ذلك من أنها تواترت وصحت عند غيره ، فلهم العذر في ذلك (٢)

ومن ذلك المبرد الذي أثير عنه قوله في قراءة ابن عامر : " وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادهم شركائهم " الأنعام / ١٣٧ برفع " القتلُ " ونصب " أولادهم " وجر " شركائهم " بالفصل بين المضاف والمضاف إليه ، أثير عنه قوله : " لا تحل القراءة بها " وكذلك قوله في قراءة حمزة " الذي تساءلون به والأرحام " - بجر الأرحام : " وهذا ممّا لا يجوز عندنا إلا أن يضطر اليه شاعر (٣)

(١) البحر المحيط ج ٤ / ٢٣٠ .

(٢) تفسير الطبري / : ج ٢ / ٤٨ ، ٢٣ / ١٨ .

وانظر رسم المصحف العثماني د. الشلبي ص / ٦٠ .

(٣) أنظر الكامل للمبرد ج ٢ / ٧٤٩ طبع الحطبي تحقيق أحمد شاكر

وشرح المفصل لابن يعيش ج ٣ / ٧٨

دفاع عن القرآن د. أحمد مكي الأنصاري ص : ٧

وقد انتقده بعض النحاة وعلماء اللغة على ذلك ومنهم أبـن جـني وأبـن عـيش والحريري، حيث قال الأخير في درة الغواص (١) :
 " وهذه من جملة سقطاته وعظيم هفواته فان هذه القراءات من السبع المتواترة وقد وقع في ورطة وقع في مثلها بعض النحاة بناء على أن القراءات السبع عندهم غير متواترة " ٥١ هـ

قلت : والذي يظهر أن بعض النحويين ليس له دراية بعلم القراءات والأحرف ولذا فلا عجب اذا أنكر حرفا متواترا لأنه يُنكر ما لا علم له به بناء على تلك القواعد التي قعدوها دون استقراء وأفر لكلام العرب، ولهذا فقد اشتد نكير العلماء المحققين على مثل هؤلاء (٢)
 كما أن بعض النحاة لا يُعذر وذلك لأنه ينتزع من المقدار الذي يقف عليه من كلام العرب حكما لفظيا ويتخذ مذهباً ثم تعرض له آية على خلاف ذلك الحكم فيأخذ في صرف الآية عن وجهها وتأويلها (٣)
 ولا يغيب عن البال أن تعقيد النحو قد مرّ بمراحل متعددة فالذين كانوا في العصر الأول مثلاً كالخليل و سيبويه ومتقدمي البصريين يختلف اتجاههم عن اتجاه المتأخرين عموماً (٤)

فالذي يتبين أنه ليس لنا بعد أن أجمع المسلمون على تواتر القراءات أن نحيد عن بعضها بأن نضعف حرفاً ما لتوهم مخالفته لما قعدته النحاة الأوائل

فالواجب المتحتم على كل طالب علم هو اعتماد القراءة المتواترة حتى ولو لم ترد في لغة من اللغات على الإطلاق ، فالقرآن هو الحجة البالغة وعلى أساسه يكون تعقيد القواعد، قال الاستاذ أحمد مكي (٥)
 " والمنهج السليم في ذلك أن يُعمن النحاة في القراءات المتواترة والمحجة السند فما خالف منها قواعدهم صححوا به تلك القواعد ورجعوا النظر فيها فذلك أعود على النحو بالخير ، أما تحكيم

(١) درة الغواص ص ١٩٥ الطبعة الأولى (نقلا عن دفاع عن القرآن ص ٧) .

(٢) أنظر مناهل العرفان للزرقاني ج ١ / ٢٤٧ - ٤٥٤

(٣) في أصول النحو ، سعيد الأفغاني / ٣٢ عن الفصل لابن حزم /

(٤) دفاع عن القرآن / أحمد مكي الأثري ص ٤ رسم المصحف العثماني

د. عبد الفتاح شلبي ص ٥٨ ، ٧١ - ٧٢

وأنظر الكتاب لسبويه ٢ / ٤٢٣ حيث يضعف بعض القراءات اعتماداً

على ما انتهى إليه من قياس

(٥) في كتاب الدفاع عن القرآن ص / ٧ من المقدمة

قواعدهم الموضوعة في القراءات الصحيحة التي نقلها الفمحاء
العلماء فقلب للأوضاع وعكس للمنطق إذ كانت الوايات الصحيحة مصدر
القواعد لا العكس " ٥٠١ هـ

ويحسن بنا أن نختم بقول العلانة ابن المنير - رحمه الله -
حيث قال (١) : " وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية بل
تصحيح قواعد العربية بالقراءة " ٥٠١ هـ

وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه وينبغي على العلماء سلوكه
ومن العلماء الذين سلكوا هذا المسلك المحمود الامام ابن مالك
حيث اتخذ القرآن والسنة الصحيحة في مقدمة الشواهد وأدلة
التعميد ومقاييس الصحة ، قال في منظومته الكافية الشافية
في باب الفصل بين المتضايقين " (٢)

وعمدتني قراءة ابن عامر وكم لها من عاضدٍ وناصر
رحمة الله عليه ورضوانه .

(١) الائتماف من الكشاف (مطبوع بحاشية الكشاف) ج ٢ / ٥٤

(٢) شرح الكافية الشافية ج ٢ / ١٧٨

والآن استعرض أهم الأمثلة القرآنية التي ادعوا عليها توهمًا مخالفًا للقواعد النحوية مع إبطال هذا التوهم والله ولي التوفيق:

أولا : قوله تعالى في البقرة :

(ان الذين آمنوا والذين هادوا والذين صابئون من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ١٠) الآية / ٦٢

وقال في المائدة :-

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) الآية / ٦١

وقال في الحج :-

(ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله علي كل شيء شهيد) الآية / ١٧

ففي سورة المائدة رفع "الصابئون" مع أنها معطوفة علي اسم ان وحقها في الظاهر النصب كما هو شأن المواضع الأخرى التي جاءت فيها هذه الكلمة ، فهل هناك من سبب في رفعها في هذا الموضع دون غيره ؟
فالجواب الذي قاله العلماء^(١) :- أنه رفع "الصابئون" بالابتداء ونوى به التأخير عن مكانه كأنه قال : "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" والصابئون هذا حالهم ، أو والصابئون كذلك .

فقدمهم في اللفظ وأخروهم في التقدير لحكمة وفائدة وهذا جار على أساليب العرب كما قال الشاعر :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيارٌ بها لغريب^(٢)

اذ التقدير : فإني لغريبٌ بها وقيارٌ كذلك

(١) أنظر : درة التنزيل / ٢٠ ، أعراب القرآن للعكبري / ٢٢١
تأويل مشكل القرآن / ٥٤ ، القرطبي / ٦ / ٢٤٦ ، روح المعاني / ٦ / ٢٠١
بمائر نوى التمييز / ١ / ١٤٤ ،
(٢) البيت لضابي البرجمي ، اللسان / ٦ / ٢٣٨ ، تفسير الطبري ١٦ / ١٣٧ سورة طه

واحتج بذلك سيبويه في كتابه (١) وأنشد قول الشاعر (٢)
وإلا فاعلموا أنا وأنتم بُغاةٌ ما بقينا في شقاقٍ
والمعني : فاعلموا أنا بغاة ما بقينا في شقاقٍ وأنتم أيضا
كذلك

أما عن الحكمة والفائدة في تقديم اللفظ هنا مع نية التأخير
فلأنه تعالى قدم المائبين على النطاري في هذا الموضع لأنه ترتيب
حسب الزمان، فالمائبون كانوا قبل عيسى في الزمن (٣)
وقال ابن الزبير الغرناطي (٤) معللاً سبب ذلك إضافة إلى علة الترتيب
الزمانى بأنه : "أورد مرفوعاً تنبيهاً على أن الترتيب الأخرى ليس
بحسب ترتيب الدنيا بل إنَّ المستجيب المؤمن من الكل مخلص والمكذب
متورط، ثم مراتب الجزاء بحسب الأعمال وتأكيذاً للتسوية في الحكم
إذا اتفقوا في الموافقة على الإيمان ، فنبه التقديم على هذا ،
وزاد القطع إلى الرفع تأكيداً لأن قطع اللفظ عن الجريان على
ما قبله مُحَرِّكٌ للحظ توجيهه " ٥٠١ هـ

وقال الآلوس (٥) : " وانما وُسِّطت الجملة هنا بين إنَّ وخبرها مع
اعتبار نية التأخير ليسلم الكلام عن الفصل بين الاسم والخبر
فالمائبون مع ظهور ضلالهم وزيفهم عن الأديان كلها حيث قبلت
تويتهم إنَّ صح منهم الإيمان والعمل الصالح فغيرهم أولي بذلك " ٥٠١ هـ

وهناك توجيه آخر للأية قال به ابن قتيبة والفراء
قال ابن قتيبة (٦) : - رفع "المائبون" لأنه ردٌّ على موضع "إنَّ الذين
آمنوا" وموضعه رفع ، لأنَّ "إن" مبتدأة وليست تُحدث في الكلام معنى
كما تحدثه أخواتها ، ألا ترى أنك تقول : زيد قائم ، ثم تقول :
"إنَّ زيدا قائمٌ" ولا يكون بين الكلامين فرق في المعنى ، وتقول :
زيد قائم ، ثم تقول : ليت زيدا قائمٌ فتحدث في الكلام معنى
الشك ،

(١) الكتاب لسيبويه ج ٢ / ١٥٦ تحقيق عبد السلام هارون

(٢) بشر بين أبي حازم ، أنظر المصدر السابق ج ٢ / ١٥٦

(٣) درة التنزيل / ص ٢٠ ، بصائر نوى التمييز ، / ١٤٤

(٤) في ملاك التأويل ج ١ / ٢٨

(٥) رفع المعاني ج ٦ / ٢٠١

(٦) تأويل مشكل القرآن : ٥٢ /

وأنظر تفسير الرازي ج ١٢ / ٥٦

ويدلك على ذلك قولهم : **إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ قائمٌ وزيدٌ** فترفع **زيدا** كأنك قلت : **ـ "عبدُ الله قائمٌ وزيدٌ"**

وتقول : **لعلَّ عبدَ الله قائمٌ وزيداً** ، فتنصب مع **لعلَّ** وترفع مع **انَّ** ، لما أحدثته **لعلَّ** من معنى الشك في الكلام ، لأن **"إنَّ"** لم تحدث شيئا ، وكان الكسائي يجيز : **"إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ وزيدٌ قائمان"** والبصريون يجيزونه وينشدون :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنني وقيارٌ بها لغريب^(١)
وقال بنحو ذلك الفراء^(٢) : قال : **إِنَّ اسمٌ "إنَّ"** في هذه الآية وهو **"الذين"** من الأسماء التي لا يتغير حالها عند اختلاف العوامل^(٣) فلا يظهر أثر كلمة **إن** فيها ، فالذى يُعطف عليه يجوز فيه النصب على إعمال هذا الحرف ، والرفع على إسقاط عمله فيجوز أن يقال : **"ان هؤلاء وإخوتك يكرمونا"** وإن قطام وهند عندنا والسبب في جواز ذلك ان كلمة **ان** كانت في الأصل ضعيفة العمل لأن كلمة **"إنَّ"** إنما تعمل لكونها مشابهة للفعل ومعلوم أنَّ المشابهة بين الفعل وبين الحرف ضعيفة ، وإذا صارت بحيث لا يظهر لها أثر في اسمها صارت في غاية الضعف ، فجاز الرفع بمقتضى الحكم الثابت قبل دخول هذا الحرف عليه .

فهذا تقرير قول الفراء وقد ذكره الرازي^(٤) ورجحه على القول الأول والذي يظهر لي أن كلا القولين صحيح ويلتقيان عند معنى واحد وهو جواز مجيء المعطوف على اسم **إنَّ** مرفوعا أما بالابتداء على نية التأخير لفائدة يقتضيها المعنى والسياق كما هو القول الأول . وإما لأن كلمة **"انَّ"** ضعيفة العمل في بعض الأحوال كما تقدم في تقرير قول الفراء ولذلك يجوز أن يأتي المعطوف على اسمها والذي لا يظهر له أثر في الاعراب مرفوعا على الأصل ، أي رد على موضع **"إن الذين آمنوا"** كما هو تعبير ابن قتيبة

فمن أقوال هؤلاء العلماء يتضح لنا وجه رفع **"الصائبون"** ويزداد إيماننا واعتقادنا بعظمة القرآن وأسرار الله في كلامه

(١) تقدم تخريج البيت .

(٢) معاني القرآن سورة المائدة ٦٩ /

(٣) فأنت تنطق **"الذين"** في حال النصب والرفع والجر حالا واحدا لا يتأثر بموقعه من الاعراب فصح أن عليها المرفوع وإن كان حقه النصب باعتبار محله بالنظر إلى لزومه حالة واحدة مع سائر العوامل .

(٤) تفسير الرازي ج ١ / ٥٦

التي لا تحصى ولا تعد .

ثانيا : قوله تعالى في سورة النساء :

(لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) الآية / ١٦٢
قوله تعالى في هذه الآية " والمقيمين الصلاة " منصوبة وعلامة النصب الياء ، قد يُتوهم أن ذلك مخالف لنسق الآية وغيرها من الآيات وقواعد النحو ، إذ من حق الكلمة في الظاهر أن تكون مرفوعة عطفا على قوله : " والمؤمنون " كما أن كلمة :
" والمؤتون الزكاة " جاءت بعدها وهي مرفوعة فما بال كلمة :
" والمقيمين الصلاة " جاءت منصوبة من بينها .

والجواب : ان المعتمد في إعراب هذه الكلمة أنها جاءت على أسلوب من أساليب العرب عندما يصفون ويمدحون فيركزون على صفة من الصفات المدحوة في الكلام فينصبونها على المدح ، وهو قول الخليل وسيبويه وسائر البصريين (١)

قال سيبويه (٢) : هذا باب ما ينتصب على التعظيم ومن ذلك

" والمقيمين الصلاة " وأنشد ابن خياط :-

وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نُميرا أطاعت أمر غاويها
الظاعنين ولما يُظعنوا أحدا والقائلون لمن دار نخيلها (٣)
وأنشد لخرنق بنت هفان (٤) :

لا يَبْعَدَنَّ قومي الذين هم همُّ العداة وآفة الجُزر
النازلين بكل معسكر والطيبون معاقد الأُزر

نصبت النازلين على المدح فكأنها قالت : أعني النازلين ، فالعرب من أساليبها أن تفعل ذلك في صفة الشيء الواحد ونعتة اذا تطاولت بمدح

(١) اعراب القرآن للعكبري ج ١ / ٢٠٢ ، تأويل مشكل القرآن / ٥٣

القرطبي ١٣ / ٦ ، روح المعاني ١٤ / ٥ ، تفسير الرازي ١١ / ١٠٨

(٢) الكتاب : ج ١ / ٢٤٩ ، وانظر : الكامل للمبرد : ٢ / ٧٥١

(٣) قوله : " والظاعنين ولما يُظعنوا أحدا " أي يخافون من عدوهم لقلتهم وذلهم فيظعنون ولا يخاف منهم عدوهم فيظعن عن دارهم خوفا منهم -

القرطبي ١٤ / ٦ (٤) الكتاب : ١٠٩

وخرنق بنت هفان من بني قيس : وصفت قومها بالظهور على العدو ونحسرها للأضياف والملازمة للحرب والغفة عن الفواحق ، قرطبي ١٤ / ٦ ،

تأويل مشكل ٥٣ / ١ .

أو ذم ، خالفوا بين اعراب أوله أو وسطه أحيانا ثم رجعوا
بآخره الى اعراب أوله . وربما أجروا اعراب آخره على اعراب أوسطه
وربما أجروا ذلك على نوع واحد من الاعراب^(١)

وعلى هذا يقال : جائني قومك المطعمين في المحل والمغيثون
في الشدائد ، والتقدير جائني قومك أعني المطعمين في المحل
وهم المغيثون في الشدائد
وكذا ههنا تقدير الآية : أعني المقيمين الصلاة وهم المؤمنون
الزكاة^(٢)

واختار ابن جرير^(٣) أن " والمقيمين " في موضع خفض نسقا على " ما "
التي في قوله : " بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك " وأن معنى
المقيمين الصلاة : الملائكة

قال : فيكون تأويل الكلام : " والمؤمنون منهم يؤمنون بما
أنزل اليك يا محمد من الكتاب و بما أنزل من قبلك من كتبني و
بالملائكة الذين يقيمون الصلاة ، ثم يرجع الى صفة الراسخين في
العلم " فيقول : لكن الراسخين في العلم منهم والمؤمنون
بالكتب والمؤمنون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر
قلت :- وبهذا يتبين لنا أن قوله تعالى : ((والمقيمين الصلاة))
رغم مخالفتها لما قبلها وما بعدها لكنها موجهة توجيها عربيا
سليما سقت لأجله الشواهد على صحتها مما يدل على استعمال
العرب لهذا الأسلوب من التفنن في الكلام والخطاب ، والقرآن إنما نزل
على لسانهم وجريا على عادتهم في الخطاب ليكون أبلغ في الاعجاز
وأمعن في التحدى فالقول بأن هذه الكلمة أو غيرها من لحن
الكاتب، أو توهم أنها تخالف قواعد العربية ليس له وزن أو
اعتبار أو مستند صحيح .

(١) تفسير الطبري ٩ / ٣٩٥ تحقيق محمود شاكر

(٢) أنظر تفسير الرازي ج ١١ / ١٠٨

(٣) تفسير الطبري ج ٩ / ٣٩٥ فما بعدها

ثالثاً :- قوله تعالى في سورة طه :-

((إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ وَيَذْهَبَا

بَطْرِيقَتِكُمُ الْمُثَلِي ۖ)) الآية / ٦٣

هذه قراءة ابن كثير ورواية حفص عن عاصم وهما من القراء

السبعة ، بتخفيف نون ((إِنَّ)) وبإثبات الألف في ((هَٰذَا)) (١)

وعلى هذه القراءة تكون ((إِنَّ)) مخففة من الثقلية ولهذا دخلت اللام

على الخبر للفرقة بين إِنَّ النافية وإِنَّ المخففة من الثقلية ولهذا

تسمى اللام الفارقة (٢)

وقد قرر ابن مالك في ألفيته أَنَّ ((إِنَّ)) اذا خُفِّت يقل

عملها ، فإذا أهمل عملها وهى مخففة ألزمت اللام وكانت بمنزلة

ان النافية التى لا يلزم بعدها نصب الاسم بل لابد أن يكون

مرفوعاً

قال ابن مالك (٣) : وَخُفِّتْ إِنْ فَقُلَّ الْعَمَلُ وَتَلَزَمَ اللَّامُ إِذَا مَا تُهْمَلُ

وعلى هذا فلا إشكال في هذه القراءة

وكذلك قراءة أبي عمرو البصرى : ((انْ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ)) (١)

بتشديد نون ((إِنَّ)) وبإثبات الياء في "هَٰذَا" كعلامة على النصب

لأنها اسم "إِنَّ" حسب القاعدة المشهورة

وقرأ نافع المدني وعاصم برواية شعبة وحزمة والكسائي : (٤)

((إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ)) بتشديد نون ((إِنَّ)) وإثبات ألف

((هَٰذَا))

وحسب القاعدة المشهورة فان هذه القراءة قد يُتوهم أنها

تخالف قواعد العربية .

وللعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة : ((إِنَّ هَٰذَا)) المتواترة

أقوال وتوجيهات لبيان فصاحتها وأنها موافقة لما جاء عن العرب

وأن القرآن قد حفظ ضروب اللهجات وأنواع اللغات التى نطق بها العرب

وأنه كان وسوف يبقى الشاهد والمقياس لصحة الكلام وعربيته (٥)

(١) النشر في القراءات العشر ٢ / ٣٢١ البحر المحيط لأبي حيان ٢٥٥/٦

وقراءة ابن كثير بتشديد النون من ((هَٰذَا))

(٢) الحجة في القراءات لابن خالويه ص : ٢٤٢ ، تحقيق عبد العال مكرم ط : دار الشروق

(٣) :- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ج ١ / ٣٧٧

(٤) النشر في القراءات العشر ٢ / ٣٢١

(٥) انظر في ذلك : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١ / ٥٣ شرح المفصل ٧٨/٨

تأويل مشكل القرآن ص ٥٠ ، البحر المحيط ٢٥٥ / ٦

القرطبي ١١ / ٢١٦ روح المعاني ١٦ / ٢٢١ مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٥ / ٢٤٨

فأما القول الأول وهو أشهرها واختاره أبو حيان وابن مالك والأخفش وأبو علي الفارسي :

أن هناك قبائل عربية تجعل رفع المثني ونصبه وخفضه بالألف وهم : بنو الحرث بن كعب ، وزبيد ، وكنانة بن زيد ، وبكر بن وائل ، وهمدان ، وخثعم ، وبني العنبر ، وبني الهجيم ، ومراد وعذرة

يقولون : جاء الزيدان ، ورأيت الزيدان ، ومررت بالزيدان ، وجلست بين يديه

قال ابن خالويه^(١) : ((وقوله تعالى ((ان هذان لساخران)) فالحجة لمن شدد النون في ((ان)) وأتى بألف في ((هذان)) أنه احتج بخبر الضحاك عن ابن عباس : ((أن الله تعالى أنزل هذا القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب))

وهذه اللفظة بلغة بني الحرث بن كعب - خاصة - لأنهم يجعلون التثنية بالألف في كل وجه لا يقلبونها لنصب ولا خفض قال شاعرهم^(٢) إنَّ أباهَا وأبا أباهَا قد بلغنا في المجد غايتها ((١٠ هـ

وانشد الفراء^(٣) لرجل من بني أسد قال ما رأيت أفصح منه : فأطرق إطرارق الشجاع ولو يرى

مساغا لناباه الشجاع لصمما

فقال لناباه بدلا من : لنابيه^(٤) وقال آخر : -

تزود منا بين أذنائه ضربة دعته الى هابي التراب عقيم قال : بين أذنائه : بدلا من بين اننيه

قال ابو جعفر الثعالب^(٥) : وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ان كانت هذه اللغة معروفة وقد حكاها من يرتضى علمه ومدقه وأمانته : منهم أبو زيد الانصاري وأبو الخطاب

(١) في كتابه : الحجة في القراءات السبع ص ٢١٧

(٢) هو ابو النجم العجلي وقيل لرؤية . أنظر جمع الهوامع للسيوطي مع الحاشية ج ١ / ١٢٨ تحقيق د . عبد العال مكرم

(٣) معاني القرآن ج ٢ / ١٨٤

(٤) البيت لهويز الحارثي : اللسان ١٠ / ٦٤٠ ، الصحاح ٦ / ٢٥٣٢

(٥) اعراب القرآن / للنحاس ج ٢ / ٢٤٦

الأخفش والكسائي والفراء، كلهم قالوا : هذه لغة بني الحرث ابن كعب، وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب الأخفش أن هذه لغة بني كنانة

القول الثاني : -

أن قوله ((إِنَّ هَذَا)) جاء على أصله الذي ينبغي أن يكون وأصحاب هذا القول عبروا عنه بعبارات متقاربة قال أبو جعفر النحاس^(١) : ((ومن أبين ما في هذا قول سيبويه)) واعلم أنك إذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدتين الأولى منهما حرف مد ولين وهو حرف الاعراب))

قال أبو جعفر : فقول سيبويه وهو حرف الاعراب يوجب أن الأصل ألا يتغير فيكون ((إِنَّ هَذَا)) جاء على أصله ليعلم ذلك ولا يفكر في انكار من أنكر هذه اللغة أنا كان الأئمة قد رووها وبُسِّين أنها الأصل .))

قلت : أى أن لزوم الألف في لفظة 'هَذَا' نمبا ورفعا وخفضا اجتمع فيه أنه لغة مروية وأنه جاء على أصله الذي ينبغي أن يكون ومن ذلك قول الفراء^(٢) : ((وجدت الألف دعامة ليست بلام الفعل فزدت عليها نونا ولم أغيرها كما قلت : ((الذى)) ثم زدت عليه نونا فقلت : جائني الذين عندك ، ورأيت الذين عندك ومررت بالذين عندك .)) ١٠ هـ

قلت : ومعنى ما تقدم أن ألف ((هذا)) هو حرف لين وهو حرف متطرف فلو غير إلى الياء في النصب والجر لذهب الأصل ولما عُرف أن هذه الياء جاءت في النصب والجر بدل الألف، هذا بخلاف الاسم الصحيح كمحمدان رفعا، ومحمدين نصبا وجرًا، فإن الألف والنون ، والياء والنون ، زوائد على الأصل وحروف الكلمة الأصلية لم يُحذف منها شيء بعكس ((نا)) التي هي للإشارة فإن بناءها الأصلي على النال والألف المتطرفه فلو أبدلت بالياء

(١) المصدر السابق ج ٢ / ٣٤٦ .

(٢) معاني القرآن ٢ / ١٨٤ . وأنظر القرطبي ١١ / ٢١٨

مجموع الفتاوى ١٥ / ٢٥٧

لذهب أصل من بنية الكلمة

وكلام الفراء في الذى ، والذين، هو عين كلام سيويه في لزوم هذان في كل أحوالها الألف ، لأن الألف أصل في بنية الكلمة كما أن الياء أصل في بنية الكلمة ، وأمثال هذه الكلمات الأصل فيها وجود الأصل ولا يعدل عنه الى نصب المثنى أو جره بالياء إلا حيث يكون هذا الأصل مستحبا معلوما وهو لا يستحب ولا يعلم لكثير من الناس ولذا نطقت بعض القبائل العربية ((هذان)) في كل الأحوال استصحابا لذلك الأصل ونزل القرآن المتواتر بذلك تقريراً لفصاحة نطق هذه القبائل التي أسلفت ذكرها .

نقل السيوطي في الأشباه والنظائر^(١) : عن القفطي في إنباه الرواة أن القاضي اسماعيل بن اسحق سأل أبا الحسن بن كيسان عن قراءه ((ان هذان لساخران)) فأجاب بأنها مبنية لا معربة) قال فما علة بنائها ؟ ، قال : لأن المفرد منها هذا وهو مبني ، والجمع ((هؤلاء)) وهو مبني ، فتحمل التثنية على الوجهين ، فأعجب القاضي ذلك وقال : ما أحسنه لو قال به أحد ((١٠٠٠)) هـ

وقد أوضح ابن فارس في كتابه الماحبي^(٢) : أن الإعراب القياسي يقتضي لزوم الألف في التثنية فيقال : ((هذان)) في جميع الأحوال فقال : ((وذلك أن هذا)) اسم منهوك ونهكه أنه على حرفين أحدهما حرف علة وهي الألف وها" كلمة تنبيه ، ليست من الاسم في شيء ، فلما تُننى أُحتيج الى ألف التثنية فلم يوصل اليها لسكون الألف الأصلية ، وأُحتيج الى حذف أحديهما فقالوا : ان حذفنا الألف الأصلية بقي الاسم على حرف واحد وان أسقطنا ألف التثنية كان في النون منها عوض ودلالة على معنى التثنية ، فحذفوا ألف التثنية فلما كانت الألف الباقية هي ألف الاسم واحتاجوا الى اعراب التثنية لم يغيروا الألف عن صورتها لأن الاعراب واختلافه في التثنية والجمع إنما يقع على الحرف الذي هو علامة التثنية والجمع ، فتركوها على حالها في النصب والخفض ...

(١) الأشباه والنظائر ٣ / ١٣٤ ، وأنظر اعراب القرآن للنحاس ٢ / ٢٤٦ والقرطبي ١١ / ٢١٩ .

(٢) الماحبي لابن فارس ص : ٤٩ - ٥٠ وذكر معناه ابن هشام في شذور الذهب ص ٢٨ فما بعدها
وأنظر دفاع عن القرآن ص ٨٦ .

... قال : ومما يدل على هذا : قوله جل ثناؤه
((فذانك برهانان من ربك)) (١) لم تُحذف النون (٢) - لأنه لو
حذفت النون - وقد أُضيف لذهب معنى التثنية أصلاً لأنه لم تكن
للتثنية هنا علامة إلا النون وحدها ، فإذا حُذفت أشبهت
الواحد لذهب علامة التثنية)) ٥١ هـ

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية (٣) : ان بناء المثنى اذا كان مفردة
مبنياً أفصح من إعرابه ، لأن القياس في أسماء الإشارة هو أن يلحق
مثناه بمفرده ومجموعه لا يلحق بمثنى الذى هو معتبر بمفرده ومجموعه
وقال : وقد تقطن للفرق غير واحد من النحاة وذكر قول الفراء
وابن كيسان والجرجاني في ذلك
قال بيان هذا القول : أن المفرد : ((ذا)) فلو جعلوه كسائر
الاسماء لقالوا في التثنية : ((زوان)) ولم يقولوا : ((زان)) كما
قالوا : عصوان ، ورحوان ونحوهما من الأسماء الثلاثية
وفي ((ذات)) التي بمعنى صاحب قالوا : ((هو ذو علم))
((وهما ذو علم)) ، كما قال : ((نواتا أفنان)) وفي اسم
الإشارة قالوا : زان ، ذاتان كما قال : ((فذانك برهانان من
ربك))

فان ذا بمعنى صاحب هو اسم معرب فتغير إعرابه في الرفع
والنصب والجر ف قيل : ((ذو ، وذا ، وذى)) ٥١ هـ .
ومن ذلك قول ابن الحاجب : (٤)

قال : ان ((هذان)) مبني لدلالته على معنى الإشارة وإنّ قول
الأكثرين : ((هذين)) جراً ونصباً ليس إعراباً أيضاً .

قال ابن هشام (٥) : وعلى هذا فقرأة هذان أقيس ان الأصل في
المبني أن لا تختلف صيغته مع أن فيها مناسبة لألف ساحران)) ٥١ هـ

(١) آية ٢٢ / القصص .

(٢) من ذانك

(٣) مجموع الفتاوى ج ١٥ / ٢٥٥ فما بعدها

وأنظر شذور الذهب لابن هشام ص ٢٨ فما بعدها

فقد أتى بقول ابن تيمية ملخصاً مهنياً .

(٤) مغني اللبيب لابن هشام ج ١ / ٥٨ تحقيق د. مازن المبارك و محمد علي

حمد الله .

(٥) المصدر السابق ج ١ / ٥٨

وفي إعراب القرآن المنسوب للزجاج ^(١) : جعل الأصل في إعراب المثني أن يكون بالألف على الدوام في جميع الأحوال لكن الاستعمال جاء علي خلاف الأصل

قال ^(٢) : ((ومن ذلك : ((انّ هذان لساحران)) الأصل في ألف التثنية أن تكون كعما ورحا في الرفع والنصب والجر علي صورته واحدة ، لأن الحركة فيها مقدرة كما هي في ألف ((عصا)) و ((رحا)) - ولكنه جاء الاستعمال علي قلبها ياء في النصب والجر حرصا علي البيان إذ لم يكن هناك ما في المفرد من البيان - ألا تراك تقول : ضرب موسى العاقل عيسى الأديب فيتبين الرفع بالصفة بعد الفاعل ونصبها بعد المفعول ، وهذا المعني لا يتأتى بالتثنية لو قلت : ضرب الزيدان العاقلان العمران القائمان - لم تتغير الصفة فجاء قوله : ((انّ هذان لساحران علي الأصل الذي ينبغي أن يكون)) ٥٠١ هـ

قلت : فمن خلال ما تقدم يتضح لنا أن قوله تعالى : ((انّ هذان لساحران)) جاءت علي الأصل الذي ينبغي أن يكون وأنها في غاية الفصاحة وأن هذه القراءة قد اجتمع فيها شيان : أولهما : أنها جاءت علي الأصل كما تقدم والثاني : أنها نزلت علي لغة نطق بها الكثير من القبائل فليس هناك اختلاف بين القولين .
والذي يتلخص أن الأسماء المبنية مثل هذا و الذي ونحوها الأصل بقاء مثناها كمفردا وجمعها مبني علي كل حال و أما قراءة أبي عمرو البصري ((إنّ هذين)) بالياء فانها تدل علي جواز الإعراب فيصح في مثل ذلك البناء وهو فصح والإعراب وهو فصح أيضا لكونه قراءة سبعة .
والله تعالى أعلم وهو ولي التوفيق ،

(١) إعراب القرآن للزجاج ص ٩٣٣ تحقيق الاستاذ الأبياري

وانظر : دفاع عن القرآن ص ٨٠

(٢) ص ٩٣٣ من المصدر السابق - من القسم الثالث .

رابعاً :- قوله تعالى :

((وكذلك زَيْنَ لَكثير من المشركين قَتَلَ أولادهم شركائهم)) الانعام / ١٣٧
قرأ ابن عامر الشامي وهو أحد القراء السبعة :-
((وكذلك زَيْنَ لَكثير من المشركين قَتَلَ أولادهم شركائهم)) بالبناء
للمفعول ونصب الأولاد وجر الشركاء بالإضافة مفصلاً بينهما بمفعول
القتل .

انتقد الزمخشري هذه القراءة لمخالفتها للقواعد النحوية فسي
نظره فشنع عليه الأئمة في ذلك^(١) وجعلوه بعلمي القراءة والأصول
لأن ماردّه محض قراءة متواترة نظيرها في كلام العرب في غير ما
بيت ، كما تولى النحاة البصريون كبر توهين هذه القراءة^(٢) تعصبا
لمقاييسهم النظرية لتسلم لهم قواعد وضعوها دون استقراء وافٍ فقد
قالوا : إنّ المضاف والمضاف اليه في حكم الشيء الواحد والكلمة
الواحدة فلا يُفصل بينهما بأجنبي وإنما جاز الفصل بالظرف والجار
والمجرور لأننا نتسامح فيهما ولا نتسامح في غيرهما^(٣) كما حكم
الفراء علي هذه القراءة بأنها ليست بشيء^(٤)

وهذا ان لم يكن اساءة أدب مع كتاب الله فهو عدم إطلاع على
تواتر هذه القراءة السبعة لابن عامر أعلى القراء السبعة سنداً وهو
العربي المريح وكلامه حجة يستدل به النحاة واللغويون لأنه من
عصور الاحتجاج : قال ابن البانثي^(٥) :- وعبد الله بن عامر من
التابعين سمع أبا الدرداء وفضالة بن عبيد ووالدة بن الأسقع ، ومعاوية
ابن أبي سفيان وغيرهم وليس في السبعة القراء من العرب إلا
ابن عامر وأبو عمرو وسائرهم موالي ، وتوفي بدمشق سنة ثمانى
عشر ومائة في أيام هشام بن عبد الملك (١٠٠) هـ
فكيف يكون كلامه العادى حجة لأنه من عصور الاحتجاج ، ثم يرفضون

(١) انظر البحر المحيط لأبي حيان ج ٤ / ٢٣٠ سورة الأنعام / ١٣٧

روح المعاني للآلوسي ج ٨ / ٢٣

وأنظر الكشف بحاشية ابن المثير ج ٢ / ٥٤

(٢) الحجة في القراءات السبع / ١٢٥ تفسير القرطبي ٩١ / ٧ ، البحر المحيط ٢٢٩ / ٤

(٣) في أصول النحو / سعيد الأفغاني ٤٠ - ٤١ ، دفاع عن القرآن / ١٠٤

(٤) معاني القرآن ج ١ / ٣٥٨ الأنعام / ١٣٧ وأنظر دفاع عن القرآن / ١٠٤

(٥) في كتابه الاقناع في القراءات السبع :- ج ١ / ١٠٤ - ١٠٥

تحقيق د . عبد المجيد قطامش ط : أولى

القراءة التي رواها عن كبار الصحابة والتابعين^(١) فما دامت اللغة سماعا فقولهم لا ينهض حجة في شيء قال أبو حيان^(٢) : ((وبعض النحويين أجازوها وهو الصحيح لوجودها في هذه القراءات المتواترة المنسوبة الي العربي الصريح المحض أبـن عامر الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب، ولوجودها أيضا في لسان العرب في عدة أبيات)) ١٠١ هـ . هذا وقد تولى العلامة ابن مالك الرد عليهم في عدة مواضع من مصنفاته قال في الفيته المشهورة^(٣)

فصل مُضَافٍ شَبَّهَ فعل ما نصب مفعولا أو ظرفا أَجَزُ ، ولم يُعَبِّ بأجنبي أو بُنِعت أو نَدَا^(٤)

وقال في الكافية الشافية^(٥)

و ظرف أو شبيهه قد يَفْعِلُ جُزئى إضافة ، وقد يُسْتَعْمَلُ فصلان في اضطرار بعض الشعرا وفي اختيار قد أضافوا المصدر كقول بعض القائلين للرجز بالقعاقع فَرَكَ القطن المحالج^(٦) وعمدتي قراءة ابن عامر وكم لها من عاضدٍ وناصر ١٠١ هـ

و الشاهد هو إضافة المصدر للفاعل مفعولا بينهما بالمفعول كقول الراجز : فَرَكَ القطن المحالج : أى فَرَكَ المحالج القطن ، وقال ابن مالك في تسهيل الفوائد^(٧) : وان كان المُضَافُ مصدرا جاز أن يُضاف نظما ونثرا الى فاعله مفعولا بمفعوله ١٠٠ هـ .

(١) انظر : اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للديلمي ص : ٢١٧

(٢) البحر المحيط ٤ / ٢٣٠ الأنعام / ١٣٧

(٣) شرح ابن عقيل علي ألفية ابن مالك ج ٣ / ٨٢ - ٨٣

(٤) وشبه الفعل هو المصدر واسم الفاعل ، قال ابن عقيل : ومثال ما فصل فيه بين المضاف والمضاف اليه بظرف نمبه المضاف الذي هو مصدر ما حُكي عن بعض من يوثق بعربيته : ((تَرَكَ يوماً نَفْسِكَ و هو اها سعي لها في رهاها)) . وقول ابن مالك : ولم يُعَبِّ فصل يمين : مثاله كما قال ابن عقيل : هذا غلام والله زيد ، شرح ابن عقيل ٣ / ٨٢ - ٨٣

(٥) شرح الكافية الشافية ج ٢ / ٩٧٨

(٦) هو أبو جندل الطهوى يصف جرانا ، ومعني السنبيل الكنافج : المكتنز ، والضمير في

يفرك يعود للجراد أنظر شرح الكافية ج ٢ / ٩٨٦ مع الهامش

(٧) تسهيل الفوائد لابن مالك ص ١٦١ .

وقال في شرح التسهيل^(١) : ان قراءة ابن عامر فضلا عن أنها قراءة ثابتة بالتواتر ومعزوة الى موثق بعربيته من كبار التابعين في الفصاحة وأخذ عن جامع القرآن عثمان رضي الله عنه فضلا عن ذلك فإنها قوية في القياس لثلاثة أمور .
أحدها :- كون الفاصل فضلا فإنه لذلك صالح لعدم الاعتداد به الثاني :- كونه غير أجنبي معنى لأنه معمول للمضاف وهو المصدر الثالث :- أن الفاصل مُقَدَّرُ التأخير لأن المضاف اليه مقدر التقديم لأنه فاعل في المعنى ، حتى أن العرب لو لم تستعمل مثل هذا الفصل لا قضى القياس استعماله ، لأنهم قد فصلوا في الشعر بالأجنبي كثيرا فاستحق((الفصل بغير أجنبي)) أن يكون له مزية فيحكم بجوازه مطلقا وانا كانوا قد فصلوا بين المضافين بالجملة في قول بعض العرب ((هو غلام - ان شاء الله - أخيك)) فالفصل بالمفرد أسهل ((١٠ هـ

قال القرطبي في تفسيره^(٢) : قال القشيري : (اذا ثبتت القراءة عن النبي - صلى الله عليه وسلم فهو الفصح لا القبيح ، وقد ورد ذلك في كلام العرب وفي مصحف عثمان : ((شركائهم)) بالياء فهذا يدل على قراءة ابن عامر وأضيف القتل في هذه القراءة الى الشركاء لأن الشركاء هم الذين زينوا ذلك ودعوا اليه فالفعل مضاف الى فاعله على ما يجب في الأصل لكنه فرّق بين المضاف والمضاف اليه وقدم المفعول وتركه منصوبا على حاله إذ كان متأخرا في المعنى ، وأخّر المضاف وتركه مخفوضا على حاله ان كان متقدما بعد القتل ، والتقدير : وكذلك زين كثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم : أَيْ أَنْ قَتَلَ شُرَكَاءُ هُمْ أَوْلَادُهُمْ)) ١٠ هـ

وقال الآلوسي في تفسيره^(٣) : ((وقال العلماء إن هناك فرقا بين المضاف الذي لم يعمل وبين غيره بأن الثاني يُفصل فيه بالظرف والأول إذا كان مصدرا أو نحوه يُفصل بمعموله مطلقا ، لأن إضافته في نية الانفصال ومعموله مؤخر رتبة ففعله كلافصل فلذا ساغ ذلك

(١) شرح تسهيل الفوائد ج ٢ / ١٨٢ وأنظر : النشر لأبن الجزري حيث نقل كلام ابن مالك هذا ج ٢ / ٢٥٥

(٢) ج ٧ / ٩٣ الإبعام / ١٣٧

(٣) روح المعاني ج ٨ / ٣٣

فيه ولم يُخَمَّ بالشعر، وممن صرح بذلك ابن مالك وخطأ
الزمخشري بعدم التفرقة فقال في الكافية (.....)) وذكر الأبيات
التي نقلناها آنفاً

قلت :- فهذا بيان المحققين من العلماء^{الذين} اتفلموا من علوم
النظر والأثر ، ومما يؤيد أن المنكرين لهذه القراءة ولغيرها
انما ينقصهم المزيد من علم الأثر قول ابن خالويه^(١) بحق
ابن عامر : ((وانما حمل القارئ بهذا عليه أنه وجده في مصاحف
أهل الشام بالياء فاتبع الخط)) ٥٠١ هـ

و كلامه هذا منقوض وباطل ، اذ أن القراءة سنة متبعة
مأخوذة بالتلقي من أفواه القراء الأعلام جيلاً عن جيل ، وعثمان
لما أرسل المصاحف أرسل مع كل مصحف من الصحابة من يقرأ
القرآن على ما يوافق رسم ذلك المصحف كما تقدم في أول هذا الفصل
كما أنه من المعلوم أن المصاحف العثمانية التي وُزعت على
الامصار روعي فيها اختلاف القراءات المتلقاة من رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - لذا فقد كان هناك بعض الاختلاف في رسم المصاحف
مثل : ((تجرى من تحتها الأنهار)) في التوبة

هكذا هي في المصحف المكي^(٢) وهي قراءة ابن كثير المكي
وجمهور القراء على حذف ((من)) وكذلك هي في بقية المصاحف
والله ولي التوفيق ،

(١) الحجة في القراءات ص / ١٢٥

وأنظر تفسير الزمخشري ٢ / ٥٤

(٢) النشر في القراءات العشر ج ٢ / ٢٨٠

من مباحث موهم الاختلاف في النص القرآني
التقديم والتأخير والزيادة والنقص وإبدال كلمة بأخرى

من المعلوم أن بعض آيات القرآن الكريم متشابهة في اللفظ يعاد ذكرها في موطنين أو أكثر ، لكن باختلاف بسيط من تقديم كلمة وتأخير أخرى أو زيادة في كلمة أو إبدالها بأخرى ، لحكم وفوائد يقتضيها المعنى الذي سيقت له الآية ولمناسبة ما قبلها من الكلام كما سوف يأتي تفصيله .

ومن المعلوم أنه لا يتقدم اللفظ في الكتاب العزيز ذكرا أو يتأخر أو يبدل بغيره إلا لموجب ، لذا فإن هذا المبحث فيه بيان تناسق آيات الكتاب وترباطها وانسجامها مع سياقها وبيان فوائد كل تقديم أو تأخير أو زيادة أو ابدال في لفظه في الآيات المتشابهة اللفظ ، وفي ذلك رد على أعداء الاسلام ممن يتعرضون لمتشابه اللفظ بالقاء الشبهات والضلالات حوله بأنه مختلف .

ومن أجل ذلك فقد انبرى من علماء المسلمين من استوعب الآيات المتشابهة اللفظ في مصنف لبيان تناسقها ومناسبتها لسياقها وانسجام معانيها ، وللدرد على الطاعنين والملحدين في هذا الباب بالذات ، ومن هؤلاء العلماء الخطيب الاسكافي في كتابه درة التنزيل فقد قال في مقدمة كتابه : بعد أن ذكر أنه لم يسبق لمثل عمله من بيان متشابه اللفظ مثل التقديم والتأخير والزيادة والنقص في بعض الآيات المتشابهات دون بعض .

قال : ((ففتقتُ من أكمام المعاني ما أوقع فرقانا وصار المبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبيانا ، ولطعن الجاحدين ردا ، ولمسلك الملحدين سدا . وسميته : دُرّة التنزيل و غُرّة التأويل)) ١٠ هـ

والآخر هو أحمد بن الزبير الفرناطي في كتابه الذي سَمّاه :
((ملك التأويل القاطع بذوى الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أى التنزيل)) .

قال في مقدمة كتابه (ص / ٣) : ((وان من مُغفلات مصنفِي أئمتنا رضي الله عنهم في خدمة علومه وتدبر منطوقه الجليل ومفهوميّه : توجيه ما تكرر من آياته لفظا أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير ، ففسّر إلّا على الماهر حفظا ، وظنّ الغافل عن التدبر

والمخلد الى الراحة عن التفكير أن تخصيص كل آية من تلك الآيات بالوارد فيها مما خالفت فيه نظيرتها لسبب يقتضيه وداع من المعنى يستوعبه ، ليس على جميع الوارد من ذلك مرجحات من المعاني ومقتضيات من لوازم التركيب ، فتعسا لمن تنكب عن واضح آياته ، وكأنه لم يقرع سمعه قوله تعالى : ((كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته - سورة ص / ٢٢ - .

ثم ذكر أن مما حركة الى هذا الغرض أنه باب لم يقرعه أحد ممن تقدمه مع عظيم موقعه وجليل منزعه ومكانته في الدين وفته أعضاد المشركين وذوى الشك والارتياح من الطاعين والملحدين ، سوى صاحب درة التنزيل : الخطيب الاسكافي . ١٠ هـ

قلت : وسوف آتي هنا بأمثلة شاملة من الكتاب العزيز تبدل على غيرها وتوضح لنا ماتقدم من حكمة وجود بعض الاختلاف في متشابه اللفظ، ولما كان متشابه اللفظ لا يخرج إجمالاً عن هذه الأنواع الثلاثة من الاختلاف أخذت منه نماذج وأمثلة ولم استوعب هذا المبحث لأن ذلك مما يطول وهذه النماذج تكفي في بيان المراد .

وأبدأ بالتقديم والتأخير :

التقديم والتأخير في كتاب الله يأتي لحكم وغايات تتناسب مع سياق الكلام وما يقتضيه بلاغة الكتاب وفماحته وتغاير أساليبه وليس في ذلك اختلاف ولا تعارض .

ومن ذلك : قوله تعالى (في البقرة / ٦٢)

((ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين^(١) من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .))

وقال : ((في المائدة / ٦٩)) : ((ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)) .

(١) الصابئون : قوم لا دين لهم ولا كتاب يعبدون الملائكة ، وقيل الكواكب وقيل غير ذلك - فهو من صبا إذا مال ، لأنهم مالوا عن الأديان الى دينهم فالذى يجمعهم أنهم لا دين لهم . انظر تفسير الماوردي ٨٦/١ زاد المسير ٩٢/١ روح المعاني ٢٧٨/١ تفسير ابن كثير ١٥٧/١ قرطبي ٤٣٥/١ .

وقال : ((فى الحج / ١٧)) : ((ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة إنّ الله على كل شيء شهيد .))

نلاحظ فى هذه الآيات أنه سبحانه قدم ذكر النصارى على الصابئين فى آية البقرة بينما قدم ذكر الصابئين على النصارى فى آتى المائدة والحج ، فهل هناك حكمة وفائدة من هذا التقديم والتأخير .

فالجواب^(١) : انه عند تدبر هذه الآيات نجد أن كل آية جاءت لغرض معين :

فالآية الأولى وهى آية البقرة والتى قدّم فيها النصارى على الصابئين جاء الترتيب فيها حسب نزول الكتب السماوية :

صحف ابراهيم ، التوراة ، الانجيل ، ثم ذكر الصابئة الذين لا كتاب لهم فهم متأخرون من هذا الباب - أى فى الرتبة .

فهم لا يُقرّون بالبداة والعودة وإرسال الرسل كحال أهل الأديان الذين هم أهل الكتاب ، لذا فقد أُخروا فى الذكر لهذا الغرض وهذا على تفسير الذين آمنوا بأنهم المؤمنون بصف ابراهيم وغيره من الأنبياء السابقين وهم كانوا قبل اليهود والنصارى .

أما على تفسيرهم بأنهم الحنفيون قبل البعثة أو المؤمنون بموسى الى أن جاء عيسى^(٢) عليهما السلام أو المؤمنون بدين الاسلام مخلصين أو منافقين فتقديمهم لأنهم أحق بالتقديم وهم أهل الخطاب وهم معظم من قصد بالخطاب بالتأنيس والترغيب^(٣).

(١) درة التنزيل ص ٢٠ ، فتح الرحمن ٣٠ / ٣١ / ملك التأويل ج ١ / ٧٤-٧٦

بصائر ذوى التمييز ج ١ / ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) انظر : ملك التأويل ج ١ / ٧٥ زاد السير ٩١/١ .

روح المعانى ١ / ٢٧٨ .

(٣) إطلاق التهود كاصطلاح كان بعد التحريف .

أما في سورة المائدة فقد قدّم " المابثون " على النصارى والحكمة من ذلك أنه قد رُوعي في هذه الآية غرضان : الزمان ، والرتبة ، فالمابثة متقدمون في الزمان على النصارى^(١) لذا فقد قدمهم لفظاً .
والغرض الآخر هو مراعاة الرتبة ولذلك أُخروا في النية فرفع " المابثون " ونوى به التأخير عن مكانه على أنه مبتدأ وخبره مقدر . يفهم من سياق الآية كأنه قال : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والمابثون هذا حالهم أيضاً)^(٢) .

وإنما قدّم " المابثون " في اللفظ وأخروا في النية لأن التقديم الحقيقي التقديم بكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام .
وهناك وجه آخر ذكره ابن الزبير القرطبي^(٣) وغيره . " وهو أن المابثين أشد الفرق المذكورين في هذه الآية ضللاً فقدّم ذكرهم في سورة المائدة زيادة بيان في أن المؤمن من الكل مخلص والمكذب متورط ثم مراتب الجزاء بحسب الأعمال حيث إن الآية سبقت للترغيب في الإيمان والعمل الصالح . فكان التقدير : كل هذه الفرق إن آمنوا وتابوا وعملوا صالحاً قبل الله توبتهم وأزال ذنبهم حتى المابثون فانهم إن آمنوا وعملوا صالحاً كانوا أيضاً كذلك " ٥٠١ هـ .

فابن الزبير لا ينظر إلى الترتيب الزمني ولا إلى الترتيب الرتبتي بقدر ما ينظر إلى سلامة من آمن من كل هذه الفرق وهلاك من لم يؤمن ولذا رفع المابثون لبيان أن الترتيب ليس هو المقصود .

- (١) وهذا قاله الاسكافي في الدرة وابن الزبير في ملك التأويل وهو الذي يظهر لأن المابثة ليسوا أهل كتاب، والذي ذكره كثير من المفسرين أن دينهم مركب من اليهودية والمجوسية (انظر القرطبي (٤٣٥/١)) وأنهم خرجوا من دين أهل الكتاب وهذا يدل على تأخرهم عن اليهودية وأن بداية ظهورهم كان بعد اليهودية) .
(٢) وهذا مذهب الخليل وسيبويه وسبق مجيء زيادة تفصيل في توجيه الآية من الناحية النحوية في مبحث موهم الاختلاف مع القواعد النحوية .
(٣) ملك التأويل (ج ١/٧٥) وانظر تفسير الرازي (ج ١٢/٥٥) ، روح المعاني (ج ٦/٢٠١) .

وأما الترتيب الثالث في سورة الحج وهو قوله تعالى :
(ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس^(١) والذين
أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة إِنَّ الله على كل شيء
شهِيد) .

فهذه الآية جاء ترتيب الفرق فيها حسب ترتيب الأزمنة التي
كانت فيها ، والتي لانية للتأخير معه ، لأنه لم يقصد في هذا
المكان أهل الكتب ان كان أكثر من ذكر ممن لا كتب لهم وهم الصابئون
والمجوس والذين أشركوا عبدة الأوثان ، فهذه ثلاث طوائف ، وأهل الكتاب
طائفتان ، فلذا رُتبوا بالأزمنة ، وآخر الذين أشركوا لأنهم
وان تقدمت لهم أزمنة فانهم كانوا أكثر من مُني رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - وصلي بجهادهم وكأنهم لما كانوا موجودين
في عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - كانوا أهل زمانه وهذا الزمان
متأخر عن أزمنة الفرق الذين قدم ذكرهم^(٢) .

(١) قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، يقولون إِنَّ للعالم أطلسين
نور وظلمة .

(٢) درة التنزيل ص ٢٠ ، فتح الرحمن ٣٠ - ٣١ ، بمائري التمييز
ج ١/١٤٤ ، ملاك التأويل ج ١ ٧٤ - ٧٦ .

المثال الثاني :

قوله تعالى (في البقرة / ١٧٢) :
(إنما حَرَّمَ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أَهْلَ بِهِ لغير
الله .)

قدّم في هذه الآية لفظة (به) .

وقال تعالى : (في المائدة / ٣) : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الميتة والدم
ولحمُ الخنزير وما أَهْلَ لغير الله به) .
وقال (في الأنعام / ١٤٥) : (قل لا أجد فيما أُوحي إلَيَّ محرماً
على طامعٍ يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير
فإنه رجسٌ أوفِسَقَ أَهْلٌ لغير الله به ..) الآية .

وقال : (في النحل ١١٤) : (إنما حرم عليكم الميتة والدم
ولحم الخنزير وما أَهْلَ لغير الله به .)

آخر في هذه الآيات الثلاث لفظة (به) بخلاف آية البقرة .
فهل تقديم الجار والمجرور مرة وتأخيره أخرى من الاختلاف الذي
ينبغي تنزيه كتاب الله عنه ، وهل لأهل الزيغ والاحاد متعلق
للطعن في ذلك .

الجواب : ان هذا التقديم والتأخير جارٍ على مقتضى البلاغة
ومراعاة السياق وجودة النظم ، كغيره من النماذج التي فيها تقديم
وتأخير ومن المعلوم أن المتكلم يُقدِّم دائماً من الألفاظ ما يناسب
عليه الغرض فلا بُدَّ أن يكون التقديم لموجب اقتضاه المعنى .

وإذا كان الأمر كذلك فان تقديم لفظة (به) في آية البقرة
بخلاف سائر الآيات .

فيه وجهان : أما الوجه الأول^(١)

(١) ذكره : صاحب الدرة ٤١ - ٤٢ فتح الرحمن / ٥٠
بمائر ذوى التمييز ج١ / ٥٠ روح المعاني ج٢ / ٤٢

فان آية البقرة وهي أولى الآيات في الترتيب جاء فيها الجار والمجرور وهو لفظه (به) على الأصل الذي يقتضيه حكم اللفظ فان مادة "أَهْلٌ" تتعدى لمفعولها بالباء والتي تجيء كحرف من نفس الفعل فالأصل هو تقديمها ولا تُأخر إلا لغرض وفائدة. يقتضيه المعنى، ولما كانت آية البقرة أولى الآيات في ترتيب المصحف لذلك كانت الباء في هذا الموضع أحق بالتقديم لأنه أولى بما هو أصل ليعلم ما يقتضيه اللفظ .

والوجه الثاني في سبب تقديم لفظة (به) في آية البقرة (١) : هو أنه لما كان الضمير في (به) يعود على الأنعام التي تُهل لغير الله وهذه الأنعام من جملة النعم والمُباحات التي عددها الله سبحانه فيما سبق من الآيات كقوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْغُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) الآية (٢) .

وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا) (٣) ثم أعقب ذلك بالأمر بالشكر لجليل تلك النعمة : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ) (٤) لما كان الأمر كذلك وتحصل بهذه المقاصد الجليلة ما ليس في شيء من مواضع الآيات الأخرى ناسب في هذا الموضع تقديم المضممر المجرور في قوله : (وما أهل به لغير الله) ٦

(١) ذكره ابن الزبير الغرناطي / ملاك التأويل ج ١ / ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) البقرة / ١٦٤

(٣) البقرة / ١٦٨

(٤) البقرة / ١٧٢

ليناسب ما تقدم لأن العرب مهما اعتزت بشيء أو قصدت به قصد
زيادة من تأكيد أو تشريف قدمته أو قدمت ضميره .

وفي هذا الموضع نرى أن في تقديم المضرر المجرور فيه بيان
استنكار وتحقير فعل الكفار من الاهلال بهذه النعم والمباحات
لغير الله .

مع أن المفروض هو الاهلال بها لله المنعم والمتفضل .

هذا بالنسبة لتقديم لفظه (به) في آية البقرة ، أما وجه
تأخير هذه اللفظه في بقية المواضع فالحكمة ظاهرة وهو أن
الاهلال بالمذبح لا يستنكر إلا إذا كان لغير الله فقدّم المستنكر
وهو الذبح لغير الله لأنه هو المقصود بالذكر فتقديمه أولى
فالأصل أن تُهَلَّ لله بما خلق ، ومن القبح أن تُهَلَّ بما خلق
لغيره .

المثال الثالث :-

قوله تعالى : (في النساء / ١٣٥) :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله
ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ٠)

وقوله : (في سورة المائدة / ٨) :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ،
ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)

ما الفائدة في تقديم قوله بالقسط على قوله شهداء لله
في الآية الأولى ، وتأخير عنه في الآية الثانية .

الجواب :- اختلاف الآيتين بالتقديم والتأخير ليس فيه تعارض
ولاشناقض إنما هو مسوق لأغراض اقتضاها المعنى ومناسبة السياق ففى
كلتا الآيتين فكل آية جاءت لتؤدى هدفا معينا فاننا اذا تدبرنا الآية
الأولى 'آية النساء ' والتي قدّم فيها قوله (بالقسط) لوجدنا أن الآيات
المتصلة بها مبنية على الأمر بالعدل والقسط .

قال تعالى : (من يعمل سوءا يُجز به) (النساء / ١٢٣) .

وقال تعالى : (ويستفتونك فى النساء ٠٠٠) ثم قال (وأن

تقوموا لليتامى بالقسط) (النساء / ١٢٧) .

وقال تعالى : (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم

فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ٠٠) - النساء / ١٢٩ -

ثم انه تعالى أمر فى هذه الآيات بالمصالحاة مع الزوجة ومعلوم أن
ذلك أمر من الله لعباده بأن يكونوا قائمين بالقسط شاهدين لله على
كل أحد ولو على أنفسهم .

فلما كان السياق مبنيا على الأمر بالقسط ومراعاة الحق وجاءت هذه
الآية فى الشهادة ، أمر عز وجل من عنده شهادة أن يقوم بالحق
فيها ويشهد لله على كل من عنده حق لغيره يمنعه اياه حتى يصل اليه ،
فقال : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ٠٠) أى بالعدل
فى كل أحوالكم ولا تنظنوا أن للجور دواع تقتضيه فان الله حرم الظلم على
نفسه وجعله بين عباده محرما ، ثم قال : (شهداء لله : أى قوموا
بأداء الشهادة التى عندكم لوجه الله ولا تحيفوا فيها ،

وقوله (ولو على أنفسكم) أى التزموا بالعدل وأقام الشهادة لله على القريب والبعيد على السواء فلا تحملكم أى علاقة مهما قدست عندكم على الجور أو الحيف فى الشهادة .

فكانت هذه الآية كالمؤكد لكل ما جرى ذكره فى هذه السورة من الأمر بالعدل فناسب لذلك تقديم قوله : (بالقسط) .

وقوله: "لله" بعد شهداء : فلتعلقه بالشهادة كأنه قال : كونوا شهداء لله لا للهوى والميل إلى ذوى القربى والدليل أنه قال : (ولو على أنفسكم ..) (١).

وأما آية المائدة والتى آخر فيها كلمة (بالقسط) وبدأ فيها بالقيام لله ، فقد ثبت قبلها مجموعة من الأوامر والنواهي كالأمر بالوفاء بالعقود ، وتحريم إحلال شعائر الله والأمر بنبذ الجور مع الأعداء وترك العدل معهم ، والحض على التعاون على البر والتقوى .
والشكر على ما أحل الله من الصيد بالكلاب المعلمة ، والطيبات عامسة وإحلال نكاح الذين أوتوا الكتاب والأمر بالطهارة للصلاة والتميم عند فقد الماء ثم أجمل ذلك كله بقوله تعالى :

(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقكم الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور) (الآية / ٧)

(١) درة التنزيل / ٨٤ - ٨٥ ، ملاك التأويل ج ١٠ / ٢٢١ .
بصائر ذوى التمييز ج ١ / ١٧٦ ، تفسير الرازى ج ١١ / ٧٣ - ٧٤ .
روح المعانى ج ٦ / ٨٣ ، حاشية الجمل ١ / ٤٦٩ .

وكل ما سبق يقتضى شدة التمسك ومزيد الاهتمام والجهد فى فعل ما أمرنا به وترك مانهينا عنه فناسب لذلك تقديم قوله : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ..) .

بدأ فيها بالقيام لله أى الاجتهاد فى فعل الأوامر وترك النواهي و اظهار العبودية وتعظيم الربوبية وشكر النعم .
كما أن هذا التقديم أردع للمؤمنين لأن الآية جىء بها فى معرض ترك العداوة ، ثم ثنى بالشهادة بالقسط ، وأعقبه بالأمر بالعدل حتى مع حصول البغض والعداوة لأن ذلك أقرب للتقوى فجىء فى كل معرض بمناسبه من السياق والمعنى (١) .

وهناك وجه آخر فى توجيه التقديم والتأخير فى آية المائدة ذكره الخطيب الاسكا فى فقال (٢) .:

(وأما فى الآية الأخرى - آية المائدة - فان فحواها يدل على أنها للولاء فقال : كونوا قوامين لله لا للنفع ، ويكون بالقسط متعلقاً بقوامين أى كونوا قوامين لأجل طاعة الله بالعدل والحكم فيه فى حال كونكم شهداء أى وسائط بين الخالق والخلق أو بين النبى وأمتـه فالقائم بتنفيذ أحكام الله بين خلقه اذا وفى بما عليه من حقه فهو شهيد على من وليه ، والدليل على أن الخطاب لولاء الأحكام قولـه بعده : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى ..) ا . هـ

قلت : وهو وجه وجهه الا أن الوجه الأول أولى وأظهر والله أعلم .

(١) ملاك التأويل ج ١ / ٢٢١ ، بوائر ذوي التمييز ج ١ / ١٧٦ .

تفسير الرازى ج ١١ / ١٨٤ ، حاشية الجمل ج ١ / ٤٦٩ .

روح المعاني ٦ / ٨٣ .

(٢) درة التزيل / ٨٥ .

المشال الرابع :-

قوله تعالى : (وجاء رجل^(١) من أقصى المدينة يسعى ٠٠٠)

(القصص / ٢٠) .

وقوله تعالى : (وجاء من أقصى المدينة رجل^(٢) يسعى ٠٠٠)

(يس / ٢٠) .

فى هاتين الآيتين نلاحظ أنه قد تأخر ذكر الجار والمجرور وهو قوله (من أقصى المدينة) وذلك فى سورة القصص . وتقدم مرة أخرى وذلك فى آية سورة يس .

وكما مر سابقا فإنه لابد من حكمة وفائدة اقتضاها السياق والمعنى لتقدم الجار والمجرور فى سورة يس .

اعلم أولا أن آية القصص : (وجاء رجل من أقصى المدينة ٠٠) جاءت على الأصل من تقديم الفاعل لأن مرتبة الفاعل التقدم ولا يتأخر عن الفعل إلا لعارض .

فلما لم يكن هناك ما يدعو لتقديم الجار والمجرور على الفاعل حيث إن المراد أنه جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاورا لمكانه فأعلم الرجل موسى ما فيه الكفار من ائثارهم به ، فاستوى حكم الفاعل إذ لم يكن هناك ما يدعو لتأخيره ، إضافة الى أن تقديم ذكر الفاعل فيه فائدة وهى مدح هذا الرجل المؤمن والاعتناء به لأنه كان وحيدا فى إيمانه جاء من مكان بعيد للدفاع عن موسى ، اذا تقرر ذلك

(١) هو مؤمن آل فرعون وكان يكتُم إيمانه بموسى ، جاء من أقصى المدينة لما سمع بما قاله فرعون : (ذرونى أقتل موسى) فجاء للدفاع عنه وقال : (أقتلون رجلا أن يقول ربي الله) وقد جاءكم بالبينات من ربكم ٠٠) الآيات ٢٦ - ٣٥ من القصص .

(٢) هو حبيب النجار وكان قد آمن بالرسول لما وردوا القرية وكان منزله عند أقصى باب من أبواب القرية ، فلما بلغه أن قومه قد كذبوا الرسول وهموا بقتلهم جاء يسعى ويدعو قومه لاتباع الرسول .

ففى وجه تأخر قوله رجل (عن الفعل وتقديم الجار والمجرور فى سورة يس فى قوله : (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ٠٠) فى ذلك أقوال للعلماء كلها فى غاية الحسن ونهاية البراعة وهى تدل على بعض أسرار كتاب الله وكيف أنه جاء فى نهاية البلاغة وغاية الفصاحة وأنه لكل تقديم أو تأخير أو غير ذلك حكم وغايات لا تُدرك إلا بالتدبر والتأمل فى كلام الله تعالى .

قال الخطيب الاسكافى^(١) : - " إِنَّ الْفَاعِلَ فِي الْمَوْضِعِينَ لَمَّا كَانَ نَكْرَةً وَالْمَعْنَى : جَاءَ جَاءٌ وَقَدْ دَلَّ الْفِعْلُ عَلَى جَاءٍ ، وَلَا يَكُونُ الْجَائِي مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ فِي الْأَعْمِ الْأَغْلَبُ إِلَّا رَجُلًا ، وَكَانَ الَّذِي يَفَادُ الْمُخَاطَبَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ إِلَى مَجْتَمَعِ النَّاسِ فِي الْقَرْيَةِ وَحَيْثُ لَا يَقْرُبُ مِنْ مَجَارَى الْقِصَّةِ وَلَا يَحْضُرُ الدَّعْوَةَ وَمَشْهَدُ الْمَعْجِزَةِ ، فَقَدْ دُمَّ مَا تَبَكَّيْتُ الْقَوْمَ بِهِ أَعْظَمَ وَالتَّعَجُّبُ مِنْهُ أَكْثَرَ فَقَالَ :

(وجاء من أقصى المدينة رجل ٠٠) ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم ولا ينصح لهم أقربهم مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه ولم يشهد من كلام الأنبياء^(٢) ما يشهدونه ، فبعثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم ، ا . هـ

وقال أبو جعفر بن الزبير الفرناطى^(٣) : -

ان الآية مثال لحال كفار قريش من أهل مكة ، وحال الأنصار من أهل المدينة ، وَأَنَّ بُعْدَ مَسَافَةِ الْمَدْعُو عَنْ دَاعِيهِ إِلَى الْهَدَايَةِ لَا يَخْفِرُهُ بَعْدُ الدَّارِ ، وَأَنْ مِنْ كَفَرٍ مِمَّنْ بَاشَرَ الرِّسْلَ وَشَافَهُمْ لَا يَنْفَعُهُ قَرَبُ الدَّارِ ، فَالْأَنْصَارُ قَدْ جَاءُوا مَعَ بُعْدِ دَارِهِمْ وَأَمَّنُوا بِالْمُصْطَفَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَانَدَ عَتَاةَ قُرَيْشٍ فَكَفَرُوا مَعَ الْإِلْتِحَامِ فِي النَّسَبِ وَاتِّحَادِ الدَّارِ ، وَيُوضَحُ لِهَذَا أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ

(١) درة التنزيل / ٣٩٠ .

(٢) قال ابن كثير : " ظاهراً القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى : (اذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا إليكم مرسلون ٠) الى أن قالوا : (ربنا يعلم انا إليكم لمرسلون وما علينا الا البلاغ المبين) ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : (ان أنتم الا بشر مثلنا) والله أعلم .

(٣) ملك التأويل ج ٢ / ٧٥٧ - ٨٥٨ باختصار فى بداية النص .

وانما افتتحت بذكر قريش وهم المعنيون بقوله : (لتنذر قوما ما أنذرت
آباؤهم فهم غافلون) - يس / ٦ - .
- الى ما بعد من الآيات - والإخبار بأن ذلك لا يجدى عليهم في قوله :
(وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) - يس / ١٠ - .

فهذا إخبار بحال كفار قريش ثم قال تعالى : (إنما تنذر
من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب) أى من انقاد وأصغى
إليك وإن بَعُدَتْ داره وهذه حال الأنصار^(١) ، ثم قال : (واضرب لهم
مثلاً ...) أى للفريقين ممن كفر مع قرب داره ومن آمن مع بعد
داره .

فقال أصحاب القرية في قولهم : - (ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا) كمال
قريش في قولهم : (ما ل هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)
- الفرقان / ٧) . فلما قصد في آية يس مثال من ذكر من الفريقين
خَصَّت من تقديم المجرور على الفاعل بما يُحرز المعنى المقصود فهو
من قبيل ما قُدِّم للاعتناء والاهتمام (٥٠ آ هـ

وقد ذكر الخفاجي قريبا مما ذكره ابن الزبير فقال^(٢) :

(قدم الجار والمجرور على الفاعل الذى حقه التقديم بياناً
لغضله اذ هداه الله تعالى مع بُعده عنهم ، وأنَّ بعده لم يمنعه عن
ذلك ، ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة الى السعة
وأن الله تعالى يهدى من يشاء سواء قَرُب أم بَعُد) .

وقد نقل الألوسي فائدة أخرى فقال^(٣) : (وقيل قُدِّم للاهتمام
حيث تضمن الإشارة الى إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة فيشعر أنهم
أتوا بالبلاغ المبين ، وقيل إنه لو أخر تَوْهَم تعلقه بيسعى فلم
يفسد أنه من أهل المدينة مسكنه في طرفها وهو المقصود) .

قلت : - والذى يتلخص من أقوالهم أن التقديم والتأخير في آيتي
القصص ويس جاء في كل آية مناسبا لسياقها ونظمها والمعنى المراد
منها ٤

(١) ولعل ابن الزبير يرى أن يس نزلت بعد العقبة وقبل الهجرة .

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوى ج ٧ / ٢٢٧ .

(٣) روح المعاني ج ٢٢ / ٢٢٦ .

وأن تقديم الجار والمجرور في آية يس إنما جاء لبيان الاعتناء والاهتمام بالرجل الذي جاء من أقصى المدينة وبيان شرفه وفضلته وسرعة امتثاله مع بعد داره وكونها في أقصى المدينة، وبيان شرف المرسلين الذين وصل إنذارهم أقصى القرية فلم يدعوا قريباً ولا بعيداً إلا أنذروه ، كما أن في ذلك تبليكتنا لأصحاب القرية وتحنيفاً لهم إذ كفروا وهم بالقرب من الرسل ومعجزاتهم وآمن البعيد مع بعده عن مركز الهداية ، وفي هذا بيان أن الفضيلة لمن صدق وأخلص واتبع الهدى ولا يضره بعد الدار عن داعيته إلى الهدى كما لا ينفع الكافر قرينه من دعاة الخير سواء كان قُرْبَ المكان أو النسب .

ومن أجل ذلك اعتنى بتقديم الجار والمجرور : (من أقصى المدينة) ولما لم ترد هذه الأغراض والمعاني في آية القصص جاءت على ما يجب من تقديم الفاعل إضافة إلى الاهتمام والاعتناء بالرجل المؤمن ومدحه .

وتناسب هذا كله يوضح أن كلاً من الموضعين لا يناسبه ويلائمه غير الوارد فيه ،

ولانستطيع بعد ملاحظة كل هذه المعاني وهذا التناسق في سياق الآيات المتشابهة اللفظ ومناسبتها لما قبلها وما بعدها إلا أن نزداد إيماناً وتدبراً ببلاغة القرآن وفماحته ودلائل إعجازه ، ولو أن الطاعنين في القرآن من أعداء الإسلام تدبروا مثل هذه المعاني بتجرد ونزاهة لعلموا أن هذا القرآن تنزيل من عزيز حميد وأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ..

(والله ولي التوفيق) ..

وأنقل الآن إلى مبحث الزيادة والنقص

(الزيادة والنقص في بعض الآيات متشابهة اللفظ)

وهذا مبحث آخر من المباحث التي تدل على وجه من وجوه بلاغة القرآن وتناسق نظمها حيث إن زيادة لفظة في آية بخلاف نظيرتها من متشابه اللفظ له حكمته وفائدته، يُلاحظ ذلك عند تدبر السياق والمعنى ،

ومن أمثلة ذلك في الكتاب العزيز :

قوله تعالى في البقرة : بشأن بني اسرائيل وبيان ظلمهم ومخالفتهم لأوامر الله : (فبدّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ٠٠ ٠٠) - الآية / ٥٩ - ٠

وقال في سورة الأعراف بشأن نفس القصة :

(فبدّل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم)

- الآية / ١٦٢ -

فهل في زيادة منهم في هذه الآية في الأعراف حكمة وفائدة يقتضيانها ليستا في سورة البقرة .

الجواب : انه عند تدبر سياق كل من الآيتين نجد أن في سورة الأعراف معنى يقتضي زيادة منهم هناك ولا يقتضيها في البقرة ، وهو أن أول القصة في الأعراف مبني على التخصيص والتمييز حيث إن الله سبحانه لما ذكر منكرات بني اسرائيل من اتخاذ العجل من بعده ثم طلبهم رؤية الله جهرة فأخذتهم الرجفة، لما ذكر ذلك قال : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . فذكر أن منهم من يفعل ذلك ثم عدّ صفوف إنعامه عليهم وأوامره لهم الى أن قال : (وإنّ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطّة وادخلوا الباب سجّدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين) .

ثم قال : (فبدّل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم ٠٠) فأتى في آخر ما حكى عنهم من مقابلة نعمة الله عليهم بتبديلهم ما أمروا به من الفعل والقول عند دخول القرية (١) .

(١) القرية هي بيت المقدس صحح ذلك ابن كثير في تفسيره ج ١ / ١٤٨ .

فقد روى البخارى^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا :
(قيل لبني اسرائيل ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حِطَّةً^(٢)) -
فدخلوا يزحفون على استباههم، فبدلوا وقالوا : حبة في شعيرة) ،

ويبين الله في هذه الآية أنهم لم يكونوا سواءً في هذا الفعل
القبیح، وأن الذين ظلموا منهم هم الذين بدّلوا وليسوا كلهم .
لذا جاء بحرف منّ التي هي للتخصيص والتمييز بناءً على اول القصة
التي هي : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ٥٥)
- الأعراف / ١٥٩ -
ولقوله بعدها : (منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ٥٥) - الأعراف / ١٦٨ -
فهذا هو السبب في زيادة كلمة منهم في آية الأعراف لمراعاة
السياق والمعنى المراد .

أما في سورة البقرة فان الله سبحانه وتعالى ذكر قصة بني
اسرائيل لكنه لم يذكر فيها تخصيصاً وتمييزاً قبل قوله :
(فبدل الذين ظلموا ٥٥ ٥٥) .
حيث إن سياق القصة بأكمله مُنصَّبٌ على ذكر مخالفات بني اسرائيل
وظلمهم وما بدّلوه من أوامر الله .
حيث ذكر اتخاذهم العجل ، وطلبهم من موسى أن يروا الله جهرة ،

ثم ذكر سبحانه أمره لهم بدخول القرية والأكل منها وأن يدخلوا
الباب ساجدين مع الاستغفار والشكر .
وأعقب ذلك بقوله : (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ٥٥) .
ولما لم يرد قبل ذلك تخصيص للمؤمنين من بني اسرائيل - بل ركزت
الآيات على أفعال الذين ظلموا : - لم يذكر في آخر القصة تخصيصاً فهذا
هو السبب في زيادة من في الأعراف ، ونقصها في البقرة لمراعاة السياق
والمعاني الواردة فجاء في كل معرض بما يناسبه .

(١) البخارى / كتاب التفسير ج ٥ / ١٤٨ ، كتاب ٦٥ / باب ٥ / ٥ .
(٢) أى لما فتحوها باذن الله أمرهم الله أن يدخلوا خاضعين لله ساجدين مستغفرين
لذنوبهم أن يحطها الله عنهم - انظر تفسير ابن كثير ج ١ / ١٤٨ .
(٣) درة التنزيل / ١٨ ، بصائر نوى التمييز / ١٤٣ ،
تفسير الرازى ج ٢ / ٩٤ ، روح المعاني ج ١ / ٢٦٨ .

وقريبا من هذا المعنى الذى تقدم يقول ابن الزبير الغرناطي^(١) :
(إنَّ لفظ الذين ظلموا لفظ عام يحتمل التخصيص ، ومن المعلوم
أن بني اسرائيل لم يكونوا في تلقي الأوامر والنواهي على حد سواء
كما قال تعالى : (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) - آل عمران / ١١٠ -
وقوله تعالى : (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات
الله ...) - آل عمران / ١١٣ - . وغير ذلك من الآيات ، لذلك جاءت آية
الأعراف تخصيصا سميعيا بما يُعطيه حرف التبعية في قوله : (منهم)
فآية الأعراف مخصصة للعموم البادئ من آية البقرة . ١٠ هـ

وقد ذكر الزمخشري^(٢) : أن زيادة منهم زيادة بيان ،
قلت : وهو صحيح في الجملة ، وظاهر كلامه أنها بيان للتخصيص
والتمييز الذى جاء في سياق سورة الأعراف وذلك لأن زيادتها في
موضع دون موضع لا يمكن أن يكون إلا لحكمة وغاية تناسب المعنى
والسياق .. والله أعلم .

(١) ملاك التأويل ج ١ / ٦٣ - ٦٤ .

(٢) الكشاف ج ٢ / ١٢٥ .

(المثال الثاني للزيادة والنقص)

قوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) .
- البقرة / ١٩٣ -

وقال في الأنفال : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .
- الأنفال / ٣٩ -

فزاد في الأنفال كلمة (كله) بخلاف آية البقرة .
والسبب في ذلك أن آية البقرة جاءت في قتال أهل مكة ^(١) ألا ترى ما قبلها : (وقاتلوهم حيث ثقتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) ثم قال : (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) فهذا مختص بأهل الحرم ، فاقصر على كلمة الدين من غير تأكيد ، فيكون التقدير : حتى يكون الدين حيث هو لا في كل مكان ، لأنه لا يحصل بقتل مشركي مكة الدين في كل البلاد .

وأما في الأنفال : فالأمر ورد عاما في قتال كل الكافرين ألا ترى أن قبل الآية : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) وليس هذا في طائفة دون أخرى من الكفار فاقضي هذا أن يكون بعده : (ويكون الدين كله لله) فأمرؤا بإبطال كل كفر قدرؤا عليه ^(٢) .

" والآية بمقتضى اللفظ في كل كافر والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومن المعلوم في الشريعة أن كل كافر مهما كان كفره فإنه إذا أسلم فإن إسلامه يجب ما قبله ويمحوه فلما اقتضت الآية الاستغراق والعموم ناسب ذلك التأكيد المعم فقال تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ^(٣) .

ابن جرير / ج ٣ / ٥٦٦
تحقيق محمود شاكر

(١) اسباب النزول للواحدى ص / ٤٩
لباب النقول للسيوطي ص / ٣٦

تفسير الرازى ١٥ / ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) درة التنزيل / ٤٦
بمائر ذوى التمييز ١٥٣/١

(٣) ملاك التأويل ج ١ / ١١٨ .

قال الألوسي^(١) : " ولم يجيء هنا كلمة (كله) كما في آية الأنفال لأن ما هنا في مشركي العرب ، وما هناك في الكفار عموماً فناسب العموم هناك وتركه هنا " . ٥١ هـ

قلت : ومن المعلوم أن سورتي الأنفال وبراءة من آخر ما نزل لذا جاء فيهما تعميم القتال وتوسيع نطاق الدعوة للعالم كله فكان فرض الجهاد لحماية نشر الدعوة من كيد الكائدين وعناد المعاندين وخاصة الظلمة من الملوك والحكام الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون بينها وبين إيمانها للشعوب المتعطشة لشريعة الله التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها .

فالواجب على المسلمين اليوم العمل على نشر الدين كله في العالم كله ، كما قال تعالى :

(ويكون الدين كله لله) .

وكما قال تعالى :

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

- سورة الصف / ١ -

(١) روح المعاني ٢ / ٧٦ .

((إبدال لفظ بآخر))

من مباحث متشابه اللفظ ابدال لفظة بأخرى مرادفة لها أو قريبة من معناها لرعاية المناسبة والسياق وما يقتضيه جودة النظم والتفكير في الأسلوب ، إظهارا لغاية الفصاحة ومنتهى البلاغة ، وإمعانا في التحدى بإظهار المعنى الواحد بعدة ألفاظ وعدة أساليب .

وهناك عدة أمثلة من الآيات القرآنية المتشابهة اللفظ وفيها إبدال حرف بغيره أو كلمة بغيرها مرادفة لها أو قريبة من معناها وسوف أستعرض بعض النماذج مع شرحها .

(١) فمن ذلك قوله تعالى في النحل / ٣٤ :

(فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون)

وقال في الزمر / ٥١ :

(فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم

سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين) .

مرة قال (ما عملوا) ومرة قال (ما كسبوا) هل لهذا التباين ما يستدعيه ؟

الجواب : إن سبب مجيء : (ما عملوا) في النحل و (ما كسبوا)

في الزمر هو استدعاء التناسب ورعاية ألفاظ السياق ، فآية النحل

ورد قبلها قوله تعالى مخبرا عن المشركين (الذين تتوفاهم الملائكة

ظالمي أنفسهم فآلقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ، بلى إن الله

عليم بما كنتم تعلمون) ثم صرف الكلام الى كفار العرب في توقفهم

عن الايمان ف قيل : (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة) الآية / ٣٣ .

ثم قيل : كذلك فعل الذين من قبلهم) والمراد : من قال : (ما كنا

نعمل من سوء) ومن كان على مثل حالهم ف قيل بناء على قولهم :

(ما كنا نعمل من سوء) ، (فأصابهم سيئات ما عملوا) وتناسب

هذا أبين تناسب .

وأما آية الزمر ، فقد وقع قبلها قوله :
(ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض) الى قوله : (وبدا لهم
سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤن)
- الآيتان / ٤٧ - ٤٨ -

وبعد هذا قال : (قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم
ما كانوا يكسبون) ثم قال : (فأصابهم سيئات ما كسبوا ، والذين
ظلموا من هؤلاء) الآية / ٥٠
يعنى كفار العرب : (سيصيبهم سيئات ما كسبوا) وبهذا يتضح وجوه
التناسب في الآيتين وعكس الوارد لا يُناسب .

حيث كل لفظ يأتي في مكانه اللائق به لا يتقدم ولا يتأخر
وهذا من بلاغة النظم القرآني الذي أعجز العرب حيث وجدوا أن الكلمات
والألفاظ من كلامهم وألفاظهم لكنهم انبهروا لهذا النظم الفصيح
المتناسق الذي لا يقدر على مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١) .

ومثال آخر : قوله تعالى في الأنبياء في حق مريم عليها السلام
: (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها
آية للعالمين) الآية / ٩١ .

وقال في حقها أيضا في التحريم :
(ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا
وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين)
- الآية / ١٢ -

هاتان الآيتان من كتاب الله في حق مريم - عليها السلام -
تحدثان إجمالا عن إحسانها وعفتها وشرفها وفضلها وتمديقها
بكلمات الله وكتبه ،

(١) أنظر ملاك التأويل ج ٢ / ٦٠٢ .

لكن الملاحظ أنه عبر في آية الأنبياء بقوله :

(فنفخنا فيها) والمراد مريم عليها السلام .

وعبر في آية التحريم بقوله : (فنفخنا فيه) والضمير يرجع الى الفرج ، والمراد به : مخرج الولد ، أو جيب درعها^(١) وهو أبلغ في الثناء عليها لأنها اذا منعت جيب درعها فهي لنفسها أمنع^(٢) ولا تعارض بين الآيتين : حيث عبر في آية الأنبياء بقوله (فيها) لأن جبريل عليه السلام قد نفخ في جيب درعها فوصل النفخ الى جوفها ، فصح أن النفخ فيها ، وعبر في التحريم بقوله : (فيه) أي فرجها أو في جيب درعها باعتبار أنه أول مكان استقبل النفخ من جبريل عليه السلام ، وكلمة (فيها) في الأنبياء تدل على استقرار النفخة واحداث المطلوب-بقدره الله- وهو عيسى عليه السلام .

قال الرازي^(٣) : " معناه فنفخنا الروح في عيسى فيها أي أحييناه

في جوفها . "

فالإيتان مفسرتان لبعضهما ولا اختلاف بينهما .

لكن ما هو سبب التعبير بقوله (فيها) في الأنبياء .

وقوله (فيه) في التحريم .

الجواب : انه عند استعراض سياق آية الأنبياء نجد أن القصد

كان الاخبار عن حال مريم وابنها وأنهما جُعلا آية للناس كما قال :

(وجعلناها وابنها آية للعالمين) .

وجاء قبلها بيان قدرة الله تعالى وآيته في زكريا لما دعا

ربه أن يرزقه ولدا مع أنه شيخ كبير وامراته عجوز عاقر لم تكن

تلد في حال شبابها فذكر بعد ذلك قصة مريم وهي أعجب فإنها

إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر .

(١) حيث أن معنى الفرج في اللغة : كل فرجة بين شيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو يسمى فرجا ، ومعنى الدرع : القميص . انظر : المفردات / للرافع الأصفهاني ص ٣٧٥ . ، معاني القرآن للغراء ج ٣ / ١٦٩ ، زاد المسير لابن الجوزي ٥ / ٣٨٥ .

(٢) روح المعاني ١٦٤/٢٨ ، معاني القرآن للغراء ج ٣ / ١٦٩ ، الدر المنثور ج ٥ / ٦٧١ .

(٣) تفسير الرازي ج ٢٢ / ١١٨ .

فلما كان القصد التعجب من حالتها وأنها بالنفخ صارت حاملا وأن النفخ لم يتعدها الى غيرها وأنها المخصوصة بهذا الأمر في علم الله لفضلها وشرفها وأنها كانت هي مستقر هذه الآلية العظيمة وهي عيسى ، لما كان القصد كذلك أخبر الله تعالى هنا أن النفخ كان فيها مما جعلها حاملا بالآلية العظيمة وهي عيسى وبما أن الحامل صفة الجملة ردّ الضمير الى جملتها إذ كان النفخ في فرجها نفخا فيها ، فكان قوله (فنفخنا فيها) أولى من قوله : (فنفخنا فيه) ليناسب التوسع في المقصود بذكر الآيات .

أما في سورة التحريم فإنّ الغرض كان بيان الموضع الذي وصل فيه النفخ الى جوفها وبيان إحسانها وعفتها وتصديقها بكلمات ربها وكتبه وإثباتها في القانتين وتشبيه حالها بحال سابقتهما امرأة فرعون واجتماعهما في ضرب المثل بهما للمؤمنين ولم يوسع الكلام بذكر ابنها ولم يقصد التعجب من حالها كما هو في الأنبياء فناسب لذلك عدم التوسع في عودة الضمير فجاء اللفظ على أصله فقال (فنفخنا فيه) أي في فرجها ، فجيء في كل معرض بما يناسبه والله أعلم (١)

إذا اتضح ما تقدم فإنه لا بُدّ من إيضاح معنى قوله تعالى :

(فنفخنا فيه من روحنا) .

معنى الآية : - أن عيسى عليه السلام كان مجيئه بغير أب وإنما هو كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منه كما قال تعالى في موضع آخر : (إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) - آل عمران / ٥٩ -

فكلاهما لم يُولد بالطريق المعتاد بل بواسطة القدرة الالهية المباشرة ، فأدم ليس له أب ولا أم وإنما هو من التراب ،

وعيسى ليس له أب ، فحال عيسى وصفته العجيبة كحال آدم ففي الخروج عن الطريق المعتاد وعدم استكمال طرفي الأب والأم ،

(١) انظر درة التنزيل / ٣٠٣ ، بمائرنوى التمييز ١ / ٣٢٢

تفسير ابن كثير ج٣ / ٣١٠ ملاك التأويل ج ٣ / ٧٥٥

تفسير الرازي ١١٨ / ٢٢ .

فتكوين عيسى في بطن أمه نشأ عن نفخة جبريل في مريم بأمر الله تعالى ٤

واسناد نفخ الروح الى الله تعالى عبارة عن الإحياء كما قال تعالى في حق آدم عليه السلام : (فإذا سويته ونفختُ فيه من روحي) - الحجرات / ٢٩ -

فإن الله هو الذي شاء إحياءه وما كان لنفخة جبريل أن ينتج عنها عيسى لولا إرادة الله تعالى ، وما جبريل إلا عبد من عباد الله نَفَذَ به ما أَرَادَ، وهو القادر على تحقيق مراده بلا واسطة .

وتشبيه الإحياء بالنفخ : بأن الروح اذا خُلِقَ في الجسد انتشر فيه كالريح اذا نفخ في شيء .

واسناد النفخ اليه تعالى مع أن النافخ هو جبريل عليه السلام للتشريف ، كما قال في موضع آخر : (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) - مريم / ١٧ -

وكان جبريل عليه السلام قد نفخ في جيب درعها فوصل النفخ الى جوفها (١) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ / ٣١٠ ، تفسير الرازي ١١٨/٢٢ ،

روح المعاني ١٦٤ / ٢٨ ، ج ٣ / ١٨٦ .

((الفصل الرابع))

مَوْهَمُ الْاِخْتِلَافِ
فِي قِصَصِ الْقُرْآنِ

وهذا المبحث يشتمل على مقدمة فيها بيان الدافع لادخال
هذا المبحث فى الرسالة .

ثم مبحث فوائد تكرار القصص وأسراره .

ثم مبحث اختلاف الفاظ حكاية القصة الواحدة عند تكرارها مع
بيان امثلة شاملة للتوضيح .

ثم مبحث مَوْهَمُ الْاِخْتِلَافِ فى مضمون القصص وفيه استعراض شامل
لجميع ما فيه إيهام الاختلاف والتعارض فى مضمون القصص .

قص الله جل وعلا في كتابه من أنباء الرسل والأمم لحكمهم
وغايات عديدة ، وهناك كثير من القصص ثناء الله مرات وكرات ، مرة بايجاز
ومرة بإطناب ، واختلف أسلوب الحكاية في كل مرة والمحكي واحد ،
حيث زاد مرة هنا ونقص هناك ، أجمل في موضع وأسهب في آخر ، وهناك
من القصص ما لم يذكره إلا مرة واحدة ،
فبسبب ذلك قد يُتوهم متوهم ان تكرار القصص على هذا النحو من
أسباب الطعن في النص القرآني وعدم سلامته .
لذلك سوف أعرض في هذا البحث للتكرار في القصص وحكمة مجيئه على هذا
النمط الذي جاء به .

ثم اختلاف حكاية القصة الواحدة في كل موضع ،
ثم ما يُتوهم أنَّ فيه اختلافاً أو تناقضاً في المعنى المراد أي المضمون
مع التوضيح والشرح لكل ذلك .
والذي يهمني في هذا الفصل من أمور القصص هو ما يتعلق بموهم الاختلاف
حيث إن ما يحكيه الله من أنباء الانبياء والأمم السالفة في قصص
القرآن وما فيها من تكرار مُعجز واختلاف في أُلُفاظ الحكاية ، قد استهدف
من قبل الملاحدة وأعداء الاسلام ، بأن فيه اختلافاً وتضاداً وذلك لأجل
الطعن في النص القرآني ، فكان هذا الفصل محاولة متواضعة للرد عليهم
ومحاولة لتجلية بعض أسرار القصص في القرآن وبيان تناسقه وانسجامه
وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن أعداء الاسلام ؛
(يريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نوره
ولسو كره الكافرون .) - التوبة ٣٠ -
هذا ومن المحاولات الخبيثة للطعن في سلامة النص القرآني قام كاتب
يدعي الاسلام بتأليف كتاب حول قصص القرآن (١) .

(١) هو: محمد أحمد خلف الله مؤلف كتاب " الفن القصصى فى القرآن " ،
وقد قدمه المذكور لنيل درجة الدكتوراه فى كلية الآداب بجامعة
فؤاد فى مصر .
وكان المشرف على الرسالة والموجه للطالب فيما كتب هو أمين
الخولى وقد رُفِضَت الرسالة واستنكرت .
انظر : كتاب منهج المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير ، فهد بن
عبد الرحمن الرومى ص (٤٤٥) فما بعدها الطبعة الأولى - نشر
مؤسسة الرسالة - بيروت .
وكتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين
ج ١ / ٣٤٥ فما بعدها .
الطبعة الثانية - نشر دار أحياء التراث / بيروت .
وتفسير الشيخ محمود شلتوت ص (٢٧٣) طبعة ٨ دار الشروق .
وكتابه مطبوع عدة طبعات واعتمدت على الطبعة الرابعة .

رَدَدَ فيه أوهاما وشبهات وتضليلات خلاصتها أن القصص القرآني قائم على أساس فني وأدبي ليس إلّا وادّعى أنه المخرج الوحيد لتفسير ماتوهمه أو أوهمه أنه من الاختلاف والتعارض في القصص القرآني^(١) وسوف يتبين من خلال هذا البحث أن ما أوهم به هذا الكاتب أو غيره من اعداء الاسلام انما هو محض افتراء وتضليل ومحاولات يائسة للنيل من معجزة الاسلام الخالدة (إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

(١) قال المذكور في كتابه (ص ٣٣ - ٣٤) بمصد حديثه عن تكرار القصص القرآني (فلماذا كان هذا الاختلاف ؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة في موطن عنه في آخر ؟) ثم أورد المذكور بعض مظاهر الاختلاف في حكاية قصة موسى وأعقبه بقوله : (إنّ الموقف واحد وإن الحادثة واحدة ولكن الوصف مختلف والحوار غير الحوار) .. الى ان قال : لقد حاول العقل الاسلامي أن يجيب عن أمثال هذه الأسئلة التي تخص تكرار القصص القرآني واختلاف الوصف والتصوير ولكنه لم يهتد الى رأى قاطع ،

وأضاف : ولو أن العقل الاسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس فني وأدبي لما وقف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولى الذي عدة تكرارا ليس من التكرار في شيء . أن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن إنذار وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر ، ومن هنا كان الاختلاف لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك الى اختلاف الصور الأدبية (الى آخر ما قاله من جهالات وافتراءات من أن القصص القرآني قائم على وحدة الغرض والعبرة لا وحدة الشخص ، ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة الخ . انظر ص ١٩٧ من الكتاب المذكور ، ومن الجدير بالذكر أن البعض قد انساق الى مثل هذه الشبهات ، انظر كتاب القرآن المجيد محمد عزة دروزة ، وانظر الرد عليهم في كتاب : سيكولوجية القصة للتهامي نقرة ، والفن القصصي في مفهومه ومنطوقه عبد الكريم الخطيب .

(قضية تكرار القصص القرآني)

من المعروف أن غالب القصص القرآني تُعاد فيه القصة مرتين أو ثلاثا أو أكثر من ذلك لكن الحديث في كل مقام عن شيء معين لا يكون من زاوية واحدة ، وذلك بحسب المناسبات واختلاف المقامات ، فتكون في كل مرة مشتملة على معان أو أهداف غير التي تشتمل عليها الأخرى ، أو في جو من الأسلوب وطريق الأداء غير الذي تكون فيه في موضع آخر .

ولذلك لم يعتبر بعض العلماء ما وقع في القرآن من هذا من التكرار حيث نظر الى أن التكرار إنما هو اذا أعيدت الألفاظ نفسها في عدة مواضع بدون فائدة زائدة أو غرض معين .
والصحيح أن التكرار هو لأصل القصة ، وهذا مُراد من قال بالتكرار وذكر فوائده .

لهذا سوف ابدأ ببيان الحكم والفوائد المجنية من تكرار القصص القرآني : -

(الحكمة في تكرار القصص وفوائده إجمالاً)

أولاً : اظهار بلاغة القرآن وفصاحته :

ففي كل موضع زيادة شيء لم يُذكر في الذي قبله أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة ، وهذه عادة البلغاء ففي إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة مالا يخفى من الفصاحة^(١).

حيث إن كل فصيح اذا كرّر الكلام في موضوع واحد لم يحافظ على فصاحته الأولى والقرآن في أعلى الفصاحة في تكراراته الكثيرة

قال الباقلاني^(٢) : " وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه عن الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المرتبة العليا .

وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بيناً ويختلف اختلافاً كبيراً ، ونظرنا القرآن فيما يُعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو في نهاية البلاغة وغاية البراعة فعلماً بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر .. (٥٠١ هـ)

ثانياً : أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود الى أهله ثم يهاجر بعده آخرون ويحكون ما نزل بعد صدور من تقدمهم فلولا تكرار القصص لوقعت قصة موسى الى قوم ، وقصة عيسى الى آخرين ، وكذا سائر القصص فأراد الله اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيها إعادة لقوم وزيادة تأكيد لآخرين وهم الحاضرون^(٣) .

(١) الاتقان ٢ / ٦٨ ، البرهان ج ٣ / ٩ ، ٢٦

(٢) إعجاز القرآن / ٣٨ .

(٣) البرهان ٢٦ / ٣ ، الاتقان ١ / ٦٨ .

قال ابن قتيبة^(١) : " وكانت وفود العرب ترد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للاسلام فيقرئهم المسلمون شيئا من القرآن فيكون ذلك كافيا لهم ، وكان يبعث الى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الأنبياء والقصى مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى الى قوم وقصة عيسى الى قوم وقصة نوح الى قوم وقصة لوط الى قوم ،

فأراد الله بلطفه ورحمته أن يُشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع ويثبتها في كل قلب ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير .

وليست القصص كالفروض ، لأن كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تنفذ الى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة وعددها وأوقاتها والزكاة وسنتها وصوم شهر رمضان ، وحج البيت ، وهذا ما لا تعرف كيفيته من الكتاب ولم تكن تنفذ قصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء " اهـ

ثالثا : الاعجاز والتحدي :

حيث أن الله تعالى أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الاتيان بمثله ، ثم أوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء أو بأي عبارات عبروا ففيه تأكيد التحدي وإظهار الإعجاز ،

ولما تحداهم قال : (فأتوا بسورة من مثله) فلو ذكرت القصة في موضع واحد واكتفى بها لقال العربي ائتونا أنتم بسورة من مثله فأنزلها الله سبحانه وتعالى في تعداد السور فعالجتهم من كل وجه^(٢) وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة فقصة موسى مثلا ذكرت نحو عشرين مرة أو يزيد ، ونجد أسلوبها في البقرة يختلف عن أسلوبها في الأعراف وهما يختلفان عن الأسلوب الذي جاء في سورة طه أو النازعات ،

(١) تأويل مشكل القرآن / ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) الاتقان ١ / ٦٨ ، فتح الرحمن / ٢٠٣ ، البرهان ٣ / ٢٧ .

والآيات تنادى : أيها المنكرون لمعجزة القرآن هذه قصة معروفة الحوادث فقصوها أنتم بأسلوب يماثل هذا الأسلوب القرآني إذا عجزتم فيها نحن أولاً نقصها بأسلوب جديد بمثله أيضاً ثم هاهو ذا أسلوب ثالث ، وهكذا فهذا نوع من إعجاز القرآن وتحد للمكرين .

قال الباقلاني^(١) : " وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة ونُبِّهوا بذلك على عجزهم عن الاتيان بمثله مبتدأً به ومكرراً . "

رابعاً : جذب النفوس

فالقصة الواحدة لما كُرِّرت في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقمان وتقديم وتأخير وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى ، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في إخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم - وجذب النفوس الى سماعها ، لما جُبِلت عليه من حُبِّ التنقل في الأشياء المتجددة واستلذاذها بها ، وإظهار خاصية القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هُجْنَةٌ في اللفظ ولا ملل عند استماعه فباين ذلك كلام المخلوقين^(٢) .

" فان من جمال النظم القرآني أنه ينقل المشاهد بجميع أبعادها على دفعات ولقطات . كل جانب منها يُبرز بعض مُشَخَّصات المشهد^(٣) ولو جمعت تلك المواطن في موضع واحد لتكاملت القصة بمعانيها لكن ذلك لا يفيد تلك الروعة وذلك التلذذ النفسي اللذين حصلا بتوزيع المشاهد وتفريقها والقرآن كما أسلفت معجز ببلاغته ،

(١) ص / ٦١ - ٦٢ وراجع بحوث في قصص القرآن ص / ٥٥ ، ١٨١ .

اعجاز القرآن

(٢) البرهان ٢٧ / ٣ .

الاتقان ٦٨/٢ فتح الرحمن / ٢٠٢ للشيخ زكريا الأنصاري .

(٣) بحوث في قصص القرآن / السيد عبد الحافظ ص / ٥٥ .

خامساً : حاجة الناس الى الاعتبار وترسيخ العقيدة :

قال شيخ الاسلام ابن تيمية^(١) :

"إنَّ الله ثنَّى قصة فرعون في القرآن في غير موضع لاحتياج الناس الى الاعتبار بها ، فانه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطّلين وكانت عاقبته الى ما ذكر تعالى (١٠) .

فالتالي لقصص هؤلاء من الأمم التي أهلكتها الله تعالى لإعراضها عن دعوة الرسل يعتبر بذلك اعتباراً بعد اعتبار^(٢) .

حيث إن في التكرار تأثيراً نفسياً ينطبع في النفس الانسانية فمن أراد الدعاية لشيء قام بالتكرار في الدعاية له في صور متنوعة ومناسبات مختلفة بقصد التأثير ، ومن هنا كان التكرار في القرآن موجهاً الى صميم العقيدة أكثر من سواها كالمعاملات والأحكام ، وكان تأكيداً لحقيقة التوحيد بتكريره إياها في صور متنوعة ، وإبرازها في القصص والأمثال على الخصوص ، من أهم العوامل في تقريرها وترسيخها^(٣) .

قال الزركشي^(٤) : " وعلى ذلك يُحمل ماورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد ، لأن الانسان مجبول من الطبائع المختلفة وكلها داعية الى الشهوات ولا يقمع ذلك الا تكرار المواعظ والقوارع قال تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) - القمر / ١٧ - .

وقد أخبر سبحانه بالسبب الذي لأجله كرر القصص والأخبار في القرآن . فقال : (ولقد وّصّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) . وقال : (وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يُحدث لهم مذكرات) - طه / ١١٣ - ١٠١ هـ .

(١) مجموع الفتاوى ١٦٤ / ١٣ .

(٢) تنزيه القرآن / ٢٤٥ .

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن / التهامي نقره ، ص / ١١٦ .

(٤) البرهان ١ / ٣ .

سادسا : تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده :

قال تعالى : (وكلاًّ نقص. عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) هود // ١٢٠ .

فكان القصص ينزل مرة بعد مرة ليسليه حالا بعد حال لما كان المشركون يأتون به في حق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل وقت وخاصة في الفترة المكية (١) .

والقرآن لم يكرر من القصص أو من حلقاتها إلا ما كان أشد تجاوبا مع بيئة الدعوة وأكثر استجابة لأهدافها وخدمة لأغراضها ولم يذكر من قصص الأنبياء إلا ما يقوى عزيمة الرسول وأصحابه ويثبت قلوبهم ويُنير سبيلهم (٢) .

فنحن نجد أن هناك تشابها كبيرا بين قصة موسى عليه السلام وقصة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة .

فقد تأمر على موسى فرعون وقومه ليقتلوه : (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين .) القصص / ١٩ - .

كما تأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم مشركو مكة : (وإنّ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .) الأنفال / ٣٠ - .

وفي كلتا القمتين عذب المؤمنون واضطهدوا ، فقد نال الصحابة في مكة أنواعاً من البلاء والعذاب والخوف والتشريد ، نقص الله عليهم من أنباء المؤمنين أتباع موسى ما فيه تسلية وعزاء لهم

(١) انظر : تنزيه القرآن عن المطاعن / القاضي عبد الجبار ص ٤٤٥

البرهان ٢ / ٢٦

(٢) سيكولوجية القصة في القرآن ص / ١١٩

وتثبيث لقلوبهم ، فهاهو فرعون يهددهم بتقطيع الأيدي والأرجل
من خلاف ويصلبهم في جذوع النخل فاستخفوا بتهديده ، حيث إن الإيمان
ملاً مشاعرهم والحق ملك قلوبهم .

(قالوا لاضير إنّا الى ربنا منقلبون ، إنّا نطمع أن يغفر
لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ٠) - الشعراء / ٥٠ - ٥١ -

ولذلك نجد أن قصة السحره مع فرعون قد تكررت عدة مرات في
القرآن ، ولا يغيب عن الذهن أنّ كفار مكة قد نسبوا الرسول
إلى السحر ، كما قال تعالى حكاية عنهم : (إنّ هذا إلا سحر يُؤثر
إنّ هذا إلا قولُ البشر) وفرعون وقومه نسبوا موسى إلى السحر
أيضا كما قال تعالى حكاية عنهم :

(إنّ هذان لساحران يريدان أن يُخرجاك من أرضك بسحرهما...) - طه / ٦٣ -
فالقصة متشابهة ، لهذا " فقد كان من تربية الله لنبيه محمد
صلى الله عليه وسلم أن قمّ عليه من سير الأنبياء واتباعهم مايسليه
لأن نفوس المفسدين في كل زمان متقاربة ووسائلهم في محاربة الحق
متشابهة " (١) .

(ما يقال لك الا ماقد قيل للرسل من قبلك ...)

- فصلت / ٤٣ -

سابعاً : ومن فوائد التكرار ومقاصده :

ترهيب الجاحدين وإنذارهم بما جرت عليه سنة الله في المُكذِّبين
لرسله فسنة الله واحدة لا تُبدل ولا تتحول فقد تكرر في القرآن بيان
هلاك فرعون وقومه وبيان هلاك عاد وثمود .. وكذلك تكرر بيان
هلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم شعيب بالرجفة وغير ذلك ، ولهذا قال الله
تعالى (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود)
- فصلت / ١٢ -

وقد كان تقرر في أذهانهم ماهية صاعقة ثمود وهي الطاغية
وما هي صاعقة عاد وهي الريح الصرصر . وما فعلت بهم :
(فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر
عاتية ٠٠٠) - الحاقة / ٦ -

" وقد نبّه الله سبحانه على السبب الذي لأجله كرر الأقسام
والوعيد في القرآن بقوله : (ولقد صرّفنا في هذا القرآن لذكروا
وما يزيدهم الا نفورا) - الاسراء / ٤١ -

وللقصص من التأثير على النفوس بمقتضى فطرها ما ليس لغيره من
ألوان القول ، فهو يُبين أن ما أنذرا الله سبحانه به من العذاب قد
وقع لمن جحد واستكبر ولذلك أمر الله تعالى بالسير في الأرض -
لزيادة العظة والاعتبار بمن سبق فقال تعالى : (قل سـمـيـروا
في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ٠) - الأنعام / ١١ -

حكمة عدم تكرار بعض القصص مثل قصة يوسف عليه السلام

حيث إنه من المعلوم أن قصة يوسف سقت مساقا واحدا في موضع واحد وهو سورة يوسف ولم تُكرر في القرآن .

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة (١) منها :

أنها قصة تعالج ناحية اجتماعية تقوم على الصراع الذي مبعثه الغيرة والحقد من جانب أخوة يوسف وكيدهم له وهذا ما نراه يحدث كثيرا في المجتمعات الأسرية ، فأراد القرآن أن يجعل هذه القصة مستقلة بنفسها لما فيها من العواقب الوخيمة لكل من يحيد عن الحب والاخلاص ، ويكون مجبولا على الغيرة والشر . (٢)

ومنها : - أن فيها حال امرأة ونسوة افتتنوا بشخص من أبداع الناس جمالا فناسب عدم تكرارها لما فيه من الاغضاء والستر .

ومنها : - انها اختصت بحصول الفرج بعد الشدة بخلاف غيرها من القصص فان مآلها الى الوصال كقصة إبليس وقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .

فلما اختصت بذلك اتفقت الدواعي على نقلها لخروجها عن سمت القصص ، قال الألوسي (٣) : - " في تفسير قوله تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص ٠٠٠) ولكونها بتلك المثابة من الحسن تتوفر الدواعي الى نقلها ، ولذا لم تتكرر غيرها من القصص ٠ // ١٠ هـ

ومنها : - قال الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني (٤) : " انما كرر الله قصص الأنبياء وساق قصة يوسف مساقا واحدا اشارة الى عجز العرب كأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لهم : إن كان من تلقاء نفسي فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في سائر القصص .

(١) البرهان / ٣ / ١٧ ، الاتقان / ج٢ / ٦٩

(٢) الاعجاز اللغوي في القصة / ١٢٧ ، محمود السيد أحمد

(٣) روح المعاني ١٢ / ١٧٦

(٤) نفس المصدر

فالتناسق بين القصة التي تعرض والسياق هو الغرض المقدم ، ولذلك نجد أن القصة تعرض بالقدر الذى يكفي لأداء الغرض الذى سبقت من أجله ، فمرة تُعرض القصة من أولها وذلك مثل قصة آدم منذ خلقه ، ومولود عيسى وموسى وغيرهم حيث فيها مظاهر قدرة الله تعالى وكمال علمه ونعمته على خلقه ،

بينما نجد قصة ابراهيم تبدأ^(١) وهو فتى يحتاج قومه في ابطال ما يعبدونه من دون الله ويدعو قومه الى هذا الاله الواحد فلا يجيبونه ، فيحطم اصنامهم في غفلة منهم فيهمون باحراقه فينجيه الله منهم (قلنا يا نازكوني بردا وسلاما على ابراهيم) .

ثم نجد قصصا لا تعرض الا في حلقة متأخرة جدا ، فنوح ، وهود
وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وكثيرون غيرهم لا تُعرض قصصهم الا عند حلقة
الرسالة وهي الحلقة الوحيدة التي تُعرض عن حياتهم لأنها أهم حلقة
منها ، والعبرة كامنة فيها .

والايجاز والاطناب في القصة تابع أيضا لما في حلقات القصة من عظمة وأهمية (٢) .

يقول سيد قطب رحمه الله^(٢) في معرض كلامه عن قصة موسى : -
(إنَّ هذه القصة أشد القصص تكرارا في القرآن ، وقد رأينا من
هذا الاستعراض نوع التكرار ، وأنه - فيما عدا ستة مواضع - اشارات
توجيهية الى القصة اقتضاها السياق ، أما الحلقات الأساسية فلم
تكرر تقريبا ، وانا كررت حلقة منها جاءت بشيء جديد في تكرارها
وهذه القصة نموذج للقصص الأخرى وعلى ضوءها ندرك أن ليس في القصص
القرآني ذلك التكرار المطلق ، الذي يُخيّل لبعض من يقرأون القرآن
بلا تدقيق ولا ايمان) . ١٠ هـ

وبعد هذا الذى تقدم حول تكرار القصص انتقل الآن الى مبحث آخر وهو اختلاف حكاية القصة الواحدة .

(۱) قال تعالى : حكاية عن قوم ابراهيم (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) وذكر المفسرون انه كان عمره حين أُلقي في النار ستة عشر عاماً وهذا يدل أنه قد نُبِّئَ وهو فتى كما قال تعالى : (ولقد أتينا ابراهيم برشده من قبل وكنا به عالمين) . آلوسي : ۶۹/۱۷ ، ابن الجوزي ۵ / ۳۶۶ .
وانظر : ابن كثير ۳ / ۲۹۴ .

(٢) انظر التصوير الفني في القرآن ص ١٢٥ - ١٣١ .

• ١٢٥ ص " " " " (٣)

قال السيوطي (١) : " وظهر لي جواب رابع وهو أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم كما رواه الحاكم في مستدركه (٢) فنزلت مبسوبة تامة ليحصل لهم مقصود القصص من استيعاب القصة وترويح النفس بها والاحاطة بطرفيها .

جواب خامس : وهو أقوى ما يجاب به أن قصص الأنبياء إنما كُتبت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار للرسول - صلى الله عليه وسلم - فكلمنا كذبوا نزلت قصة بحلول العذاب كما حل على المكذبين ولهذا قال تعالى في آيات : (فقد مضت سنة الأولين)

- الانفال / ٣٨ -

(ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن) - الانعام / ٦ -

وقصة يوسف لم يُقصد منها ذلك ٦

وبهذا يحصل الجواب عن حكمة عدم تكرير قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ، وقصة موسى مع الخضر ، وقصة الذبيح . " ا . هـ

والذي يُستخلص من خلال استقراء قصص القرآن أن التكرار لا يتناول القصة كلها - غالبا - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه اشارات سريعة لموضع العبرة فيها وبالقدر الذي يكفي لآداء الغرض المراد من بيان قدرة أو إظهار نعمة أو غير ذلك .

وكذلك فإن كل حلقة من حلقات القصة حينما تُذكر فإننا نجد لها مناسبة تماما للسياق الواردة فيه وذلك لأن القرآن كتاب هداية ودعوة ٧

(١) الاتقان / ج٢ / ٦٩ . (٢) المستدرک : کتاب التفسیر ، سورة يوسف ج٢ / ٣٤٥

وقال في الدر المنثور : (ج ٤ / ٤٩٦) أخرج اسحاق بن راهويه والـسـبـزار وابو يعلى وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وابو الشيخ والحاكم وصححه :
عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : " أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم - القرآن فتلا عليهم زمانا فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ، فأنزل الله : (الأمر ، تلك آيات الكتاب المبين) .
هذه السورة .

(اختلاف حكاية القصص)

فمن الأمور التي أوقعت البعض في اللبس أو لنقل لبسوا بها اختلاف الحكاية في القصص القرآني فقد ظنوه انه اختلاف في المحكي وقد نسوا أو تناسوا أن لغة القرآن ليست هي لغة الأمم السابقة وإنما هو يُعبر ويُفصح عما حصل بين الأنبياء وأممهم وغير ذلك . ويحكى ذلك عنهم ، والحكاية إذا اختلفت واتفقت في معناها لا يكون ذلك اختلافًا ولا تناقضًا بل الذي يظن ذلك إنما هو جاهل أو متجاهل كما حصل مع "محمد أحمد خلق الله" في كتابه الفن القصصي في القرآن (١)

حيث أورد مقطعاً من قصة موسى من عدة سور اختلفت فيها الحكاية فوهم أو أوهم انه اختلاف في المحكي وغير ذلك من مفترياته حول القصص (٢) ، ولذلك أوردت هذا المبحث لكشف الغطاء عن اختلاف الحكاية في القصة الواحدة .. والله ولي التوفيق ..

قال السيوطي في الاتقان (٣) :

جميع ماورد في القرآن حكاية عن غير أهل اللسان من القرون الخالية إنما هو معرب عن معانيهم وليس بحقيقة الفاظهم ولهذا لا شك في أن قوله تعالى (قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) من أرضكم هذه الفصاحة لم تجر على لغة العجم " انتهى .

(١) انظر ص ٣٢ منه فما بعدها .

(٢) والرجل بهذا القول لم يأت بجديد بل هي مقولة المستشرقين والتي ردها تلاميذهم ممن لم يدخل الايمان بشاشة قلوبهم ، راجع في ذلك كتاب : نقص كتاب في الشعر الجاهلي للعلامة محمد الخضر حسين ص ٧٦ فما بعدها حول افتراءات المستشرقين وتلاميذهم عن القصص القرآني .

(٣) نقلًا عن ابن جني في الخطريات (الاتقان ج ٢ / ١٢٥) .

قلت : فمن المعلوم أن الله سبحانه عندما يثني ذكر القصة في موضع غير الموضع الأول يذكرها بأسلوب مغاير وطريقة مختلفة إما إيجازاً ، وإما اطناباً ، والإيجاز والاطناب من أعظم أنواع البلاغة حتى قال بعضهم إن البلاغة هي الإيجاز والاطناب (١) .

واختلاف الفاظ الحكاية للقصة الواحدة دائر على معنى واحد واختلافها لاختلاف مواضعها المقتضية تغيير الألفاظ فيها ،

قال صاحب درة التنزيل (٢) : " فالقصد حكاية المعنى لا أداء اللفظ على جهته والحكايات ليس يُشترط فيها إذا أُدّيت معانيها دون ألفاظها استيعاب جميعها في مكان واحد بل يجوز أن تُفرق في أماكن كثيرة " اهـ

وقال ابن الزبير الغرناطي (٣) : " من المعلوم بأعلام الله سبحانه أنه تعالى لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ، فموس عليه السلام إنما خاطب أهله في هذه المحاورة باللسان العبراني الذي هو لسان قومه فالوارد في كتابنا إنما هو حكاية المعنى الذي خُوطب به موسى عليه السلام وخاطب به " ١٠ هـ

وقد بين الباقلاني (٤) كيف أعاد القرآن قصة موسى وآو حلقات منها على طرق شتى ووجوه مختلفة وفواصل متنوعة مع اتفاق المعنى ، ليعلم عجزهم ولهذا قال : " فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين " اهـ

- الطور / ٢٤ -

فالقصة الواحدة تتكرر في مواضع مختلفة ولكن بأسلوب يتفق والسياق الذي تعرض فيه والغرض الذي سبقت له فلهذا تذكر على وجوه مختلفة .

وترد القصة الواحدة موجزة مرة ومطولة أخرى ليحصل من ذلك الاطلاع على عليّ البلاغة وجلالة النظم وعليّ الفصاحة في طرفي الإيجاز والاطناب ، فإن الفصحى من البشر إذا رام هذا لم يف في الطرفين بما يريده ووضح التفاوت في مرتكبه ولان وظهر الضعف مهما طال (٥) .

(١) المصدر السابق ٥٣/٢ .

(٢) الخطيب الاسكافي ص ١٥٦ / ٣٣٥ ،

(٣) ملاك التأويل ٦٧٢ / ٢ .

(٤) إعجاز القرآن ص ٦١ - ٦٢ .

(٥) انظر ملاك التأويل ج ١ / ٣٢٥ ، روح المعاني ٢٣٠/٢٣ ،

تفسير أبي السعود ٢٣٨ / ٧ .

وأما القرآن الكريم فإنه حين يوجز في قصة ما أو يطنب يبغي على نمط واحد من البلاغة والفصاحة ، كما أنه يستخدم الإيجاز والاطناب عند إعادة ذكره القصة القرآنية لأغراض وأهداف تناسب المقصد العام للسورة والسياق الذي ذكرت فيه القصة، فلما استخدم الإيجاز حمل الاطناب أو العكس لغات الغرض المراد .
فتكرار القصة الواحدة مطبوعة مرة وموجزة أخرى مختلفة الحكاية والمحكي واحد لا يؤدي إلى لبس أو تناقض كما يزعمه أعداء الإسلام وسوف أعرض لكثير من الأمثلة لتوضيح هذه الناحية وبيان تناسب القصص في منظوقه ومفهومه .

وفيما يلي البيان والتوضيح لما تقدم بالأمثلة والنصوص :

اختلاف الحكاية في القرآن عند إعادة القصة الواحد يكون أحيانا لاختلاف المقام فيكون حينئذ لاختلاف المحكي .
وأحيانا يكون المقام واحدا فلا يختلف المحكي وإنما يختلف أسلوب الحكاية كما سيأتي .:

أولا : اختلاف الحكاية لاختلاف المقام :

وسوف أعرض لذلك مثالين :

المثال الأول : قصة نوح عليه السلام :-

يقول تعالى : في سورة الأعراف : حكاية عن دعوة نوح لقومه وردهم عليه . (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين) الآية ٥٨ - ٥٩ .

وقال في هود : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) الآيات ٢٥ - ٢٧ .

وقال في سورة المؤمنين : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه
فقال : يا قوم اعبدوا الله مالم من إله غيره أفلا تتقون ؟
فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن
يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ماسمعا بهذا في آبائنا
الأولين ، ان هو الا رجل به جنّة فترى صوا به حتى حين .)
(الآيات ٢٣ - ٢٥)

هذه الآيات تمثل تصويرا لمواقف عدة من دعوة نوح لقومه
وردهم عليه ، ومن المعلوم أن نبي الله نوحاً عليه السلام لبث في
قومه (الف سنة الا خمسين عاما) يدعوهم الى الله تعالى ،
لذلك كانت مواقفه مع قومه كثيرة حيث دعاهم ليلا ونهارا وسرا وعلانية
كما قال تعالى : (قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزيدهم
دعائي الا فرارا) نوح / ٥ - ٦

وكذلك الأنبياء يكون لهم مع أممهم مقامات يكون فيها الاعذار
والانذار ويرجع فيها الوعد والوعيد عودا على بدء ، ولا تكون دعوتهم
الى الايمان بالله ورفض عبادة ما سوى الله في موقف واحد بلفظ
واحد لا يتغير عن حاله بل الداعي يفتن في مقاله والجاحد المنكسر
تختلف أجوبته في مواقفه ، فلذلك تأتي المحكيات مختلفة لاختلف
المقامات والمواقف ونلاحظ ذلك جليا فيما تقدم من الآيات التي
تحكي دعوة نوح لقومه ورد قومه عليه فقد يظن ظان أو متوهم أن
الكلام مختلف والمقام واحد لكن الأمر بخلاف ذلك ،

فالنص الأول من الأعراف يظهر أنها كانت بداية المواجهة حيث
دعاهم الى الله وخوفهم عذابه العظيم .

وفي النص الثاني من هود لما لم ينزجروا كان المقام مقام انذار
وذكرهم بأثر العذاب وهو الألم الشديد .

وفي النص الثالث : - انكر عليهم استمرارهم على غيهم بقوله :
(أفلا تتقون) ؟ ونلاحظ أن جميع المقامات كان فيها الدعوة الى
توحيد الله لأن ذلك هو مقصد الرسالة الأول ،

وقد اختلف ردود القوم في هذه المقامات الثلاثة ، ففي المقام
الأول وصفوه بالضلال المبين .

فلما كرر عليهم الدعوة والانذار عادوا للانكار باسلوب جديد فقالوا : (ما نراك الا بشرا مثلنا) ووصفوا أتباعه بأنهم ممن أراذل القوم وأنهم كاذبون ، وفي النص الثالث : - نجد الملائكة يخاطبون عوام القوم ليصدوهم عن دعوة نوح بأنه بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ووصفوه لهم بأنه مجنون ، فنلاحظ اختلاف ردودهم وما ذاك الا لاختلاف المقامات وليس في هذا تعارض أو اختلاف لمن تدبر .

المثال الثاني : قصة لوط عليه السلام :

يقول تعالى في سورة النمل حكاية عن جواب قوم لوط لنبيهم عندما دعاهم :
(وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم انهم أناس يتطهرون) الآية ٥٦ .

أما جوابهم في العنكبوت فكان مختلفا : (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) الآية (٢٩) .
فقوم لوط لما كرر عليهم نبيهم الانكار وأعاد اليهم الاعذار والانذار قال في موقف ما حكاه الله تعالى في سورة النمل : (أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون
فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط ...) .
أما في العنكبوت فكان موقفا آخر ومقاماً آخر غير المقام الأول حيث أنكر عليهم هنا عدة أمور كما قال تعالى حكاية عنه : (أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ...)
فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنتم من الصادقين) .

فكان موقفهم هنا موقف التكذيب والتحدى حيث عدد عليهم منكراتهم وأما الموقف الاول فكان موقف استهزاء وسخرية لأنه انكر عليهم أمرا قد استفحل في حياتهم واستمراؤه فلذا طالبوا باخراجه ،
وهذه حال كل داعية للخير والطهارة في مجتمعات الفسق والفجور حيث إنهم في مثل هذه الأحوال لا يحبون الناصحين ،

فنلاحظ أن الاجابة اختلفت لما اختلف الموقف ولايبعد أيضا أن يكون موقفا واحدا وأجاب بعض القوم بكلام والبعض الآخر أجاب بغيره فالجوابية كلها من جهتهم ، وإذا قال البعض جوابا ورضيه الآخرون فكلهم قائلون به ،

فاختلاف أجوبتهم ليس من التكرار وليس من التعارض أو التناقض
وانما يقع ذلك لمن لا يتدبر آيات الله عز وجل حق التدبر^(١).

(١) انظر درة التنزيل ص / ١٥٠ - ١٥١ ، ١٦٤ .

النوع الثانى من الاختلاف فى ألفاظ القصة :- اختلاف الحكاية والمحكي واحد فى المقام الواحد

من ذلك قصة موسى وذلك فى عدة مواطن منها :

أولا : قوله تعالى :- فى سورة طه

(وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إننى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى ياموسى ، إنى أنا ربك فاظع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) الآية ٩ - ١٤ .

وقال فى النمل :- (إذ قال موسى لأهله إننى آنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ، فلما جاءها نودى أن بسورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ، ياموسى إنى أنا الله العزيز الحكيم .) الآية ٧ - ٩

وقال فى سورة القصص :

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس عن جانب الطور نارا، قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين .) الآية ٢٩ - ٣١

ونلاحظ من خلال قراءة هذه المقاطع الثلاثة أن القصة واحدة والمقام واحد سقت بألفاظ متغايرة .

فلماذا اختلف الإخبار عن القصة الواحدة ؟

الجواب : أن الله تعالى لم يُخبر أنه خطب موسى عليه السلام باللغة العربية بألفاظ إذا عدل عنها الى غيرها مما يخالف معناها كان اختلافا فى القرآن ، بل معلوم أن الخطاب كان بغير هذه اللغة وأنه تعالى أخبر فى بعض السور ببعض ما جرى وفي أخرى بأكثر مما أخبر به فى التى قبلها وليس يدفع بعضها بعضا وانما هي مفسرة لبعضها ومتممة ،

فأما قوله تعالى : (لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) .

فهو معنى قوله : (سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس)
 كأن الخبر الذي يأتيهم به هو أن يجد على النار ما يهديه ويخبره أن
 الطريق هو ما عليه أو غيره فهو شيء واحد لا اختلاف فيه ،
 فأما قوله : (فلما أتاهما نودى ياموسى انى أنا ربك فاخلع نعليك)
 فهو مما جرى ، ولم يخبر به تعالى في سائر السور وأخبر به في
 هذه (١) .

وقال الفيروز بادى (٢) :

نقص في بعضها وزاد في البعض الآخر لأن الشيء قد يُجمل ثم
 يفصل وقد يفصل ثم يُجمل ، وفي طه فصل ثم أجمل في النمل ثم فصل
 في القصص وبالح في طه ، وقوله : (أو أجد على النار هدى) في طه
 هو بمعنى الخبر في القصص والنمل ،

وكرر (لعلى) في القصص لفظا وفيهما معنى ، لأن "أو" في قوله
 (أو أجد على النار هدى) نائب عن قوله (لعلى) ،
 وسأتيكم تتضمن معنى (لعلى) (٣) ،
 والجذوة من النار هي الخشبة في رأسها قبس له شهاب فهي في السور
 الثلاث عبارة عن معنى واحد .

قال ابن الزبير الغرناطي : (٦٧٤/٢)

" وأما الانصاح في السورتين الآخرين بالحاجة الى النار وهو
 الاصطلاء ، ولم يقع ذلك في طه ، فان ذلك اخبار بزيادة لا يعارضها
 شيء عما في سورة طه فمرة وقع به الاخبار ، ومرة لم يذكر
 اكتفاء بذكره حيث ذكر ،

وأما التعبير عن الخبر في سورة طه بقوله : (أو أجد على النار هدى)
 فانصاح بما هو معلوم من قوله في سورة النمل :
 (سأتيكم منها بخبر) وقوله في سورة القصص (لعلى آتيكم منها بخبر)

(١) درة التنزيل / ٢٩٢ - ٢٩٣ وانظر ص ٢٩٤ - ٢٩٥ للمزيد
 (٢) بمائثر ذوى التمييز ج ١ / ص : ٣١٣ وانظر فتح الرحمن ص ٤١٨ للشيخ زكريا الانصارى
 (٣) قال في فتح الرحمن (ص ٤١٨) : " قد يقول الراجي اذا قوى رجاؤه سأفعل كذا
 وسيكون كذا مع تجويزه عدم الجزم " .
 وراجع ملاك التأويل / لابن الزبير الغرناطي ج ٢ / ٦٧٢ .

لأن أهله لم يكن لهم من حاجة لغير الاصطلاء واستعلام طريقهم
فورد في سورة طه مفعلاً بالمقصود معبراً فيها بما هو مفهوم
من آيتي النمل والقصص من معنى الكلام وسياقه ، فلاختلاف في شيء
من ذلك كله ولا تعارض ولا خلاف ، والحمد لله " ٥٠١

قلت : فكل نقص أو زيادة أو بسط أو إيجاز في سرد الحدث
إنما يأتي لغاية يقتضيها السياق أو المقام ،

فلما كان الغرض من حكاية قصة موسى في الشعراء بيان ما حصل
لموسى مع فرعون أو جز الله ماتقدم بقوله : (واذ نادى ربك موسى
أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون) (سورة الشعراء ١٠-١١)
وإنما كان هذا الخطاب بعد أن خاطبه بخلع نعليه وأنه اختاره
لرسالته وأمره بإقامة الصلاة لذكره تعالى وغير ذلك ، فلما كانت الغاية
في ذلك المقام تجلية أمر فرعون وحواره مع موسى عليه السلام طوى
الله بداية القصة .

وكذلك نجد في سورة النازعات مثل ذلك

وهو قوله تعالى : (هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالسواد
المنقوس طوى) ، وإذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى ،
وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ...) (١) النازعات / آية ١٥-٢٠ .

قال الآلوس في تفسيره (٢) : (الغاء فصيحة تُخَمَّع عن جُمْل طُوِيَتْ
تعويلاً على تفصيلها في موضع آخر كأنه قال : فذهب وكان كيت وكيت فأراه) ١٥٠ هـ .
وقال الشوكاني في تفسيره (٣) :

" هذه الغاء هي الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف ، يعنى فذهب فقال له
ما قال مما حكاه الله في غير موضع وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال
إن كنت جئت بآية فأت بها فعند ذلك أراه الآية الكبرى " ١٠٠ هـ .
قلت : فلما كان الهدف في سورة النازعات بيان قدرة الله تعالى وأنه
عزيز غالب على أمره ينتقم ممن عصى أمره وكذب بآياته ،

(١) النازعات / آية ١٥-٢٠ والآية الكبرى هي قلب العما حية باذن الله .

(٢) روح المعاني ج ٢٠ / ٢٧ .

(٣) فتح القدير ٥ / ٣٦٥ .

حكى الله تعالى لنا هنا ما يُبين حصول الانذار وبيان الحجة وعاقبة ذلك التي هي عبرة لمن يخشى بأسلوب موجز في غاية البلاغة فتكرار القصة هنا له هدفه وحكمته ولم يذكر سبحانه وتعالى منها الا ما يخدم المغزى العام للسورة /

ومن أختلاف الحكاية الزيادة والنقص مع اتحاد المقام لاقتضائه ذلك : من ذلك ما يتعلق بقصة موسى عليه السلام مما حكاه الله عنه من خوفه من العما لما قلبت باذن الله الى حية تسعى فخاف موسى وأدبر . فقال الله حكاية عما خاطبه به في ذلك الموقف .

(يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون) النمل / ١٠ .

وهذا في سورة النمل أما في سورة القصص فقد قال حكاية عن نفس الموقف : (يا موسى أقبل ولا تخف انك من الأمنين) القصص / ٣١ . فالمحكى واحد ولكن الحكاية اختلفت ولا تعارض بين الحكايتين لأنه ليس في أحدهما ما ينفي ما جاء في الحكاية الأخرى بل من مجموعهما نستخلص المحكى في ذلك الموقف وهو أنه ثقف في إحداها ما زاده في الأخرى لحكمة يقتضيها السياق فالله قد ناداه بأن يقبل ولا يخف وأنه من الأمنين وأنه لا يخاف لديه المرسلون . اى مجموع ما تضمنته الآيتين /

قال الخطيب الاسكافى (١) :

" ويكون معنى (انك من الأمنين) أى من المرسلين الذين لا يخافون " فالمراد من الوارد في السورتين أن موسى عليه السلام آمن من خوفه الذى لحقه وأعلم أنه من الأمنين وأن الأمنين لديه سبحانه هم المرسلون ومن اهتدى بهداهم ممن سبقت له الحسنى ، ومن لحق بهم ممن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فهو لاء هم الآمنون لديه سبحانه بما سبق لهم / فسمع موسى عليه السلام من كلام ربه ما حصل له من المعنى المقصود ثم اختلف التعبير عندنا عن ذلك والمعنى واحد فلا اختلاف (٢) .

أما لماذا زاد هنا ما نقص عن هناك واختص كل لفظ بموضعه . قال الشيخ زكريا الأنصارى (٣) : قوله تعالى : (يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون) قال ذلك هنا وقال في القصص (يا موسى أقبل ولا تخف انك من الأمنين) بزيادة (أقبل) لأن ما هنا بُني عليه كلام يناسبه

(١) درة التنزيل / ٣٣٦ .

(٢) ملاك التأويل ج ٢ / ٧٥١ - ٧٥٢ .

(٣) فتح الرحمن ص ٤١٩ ، وانظر بمائر ذوى التمييز ج ١ / ٣٥٠ .

وهو اني لا يخاف لدى المرسلون ، فناسبه الحذف ، وما هناك لم يبين عليه شيء فناسبه زيادة (أقبل) جبرا له وليكون في مقابلة (مدبرا) أى أقبل أمنا غير مدبر ولا تخف ٥٠١ هـ

قلت : هذا الى جانب البلاغة القرآنية من تغاير الاسلوب وما فيه من نزعة إعجازية بايراد القصة الواحدة على عدة اشكال وألوان للحكم والغايات التى تقدم ذكرها (١) .

ثانيا : ومن ذلك ايضا ما حكاه الله تعالى بشأن قصة لوط عليه السلام عندما أمره وأهله بالخروج من المدينة المنضوب عليها والستى كانت تفعل الفواحش فأراد الله عز وجل أن يدمرها على أهلها ،

يقول تعالى في سورة هود :

(فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما أصابهم) ، الآية ٨١ ،

وقال في موضع آخر (الحجر)

(فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون) الآية ٦٥ .

نلاحظ كيف أنه في كلا الآيتين اخبرنا الله تعالى عن مجموع المحكي حيث زاد في الأولى مانقسه في الثانية ونقص في الأولى ما زاده في الثانية فلا تعارض بين الآيتين فالأولى فيها زيادة ، (إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم) ،

والثانية فيها زيادة : (واتبع ادبارهم)

(وامضوا حيث تؤمرون)

فالآيتان متمتان لبعضهما : فيصبح المراد : أن الله تعالى أمر لوطا عليه السلام بأن يخرج بأهله ساريا من الليل وأن لا يلتفت منهم أحد باستثناء امرأته لأنها كانت من الكافرين وسوف يصيبها العذاب ،

(١) راجع القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه / عبد الكريم الخطيب

وكذلك على لوط ان يتبع أدبار أهله ، أى يسير خلفهم وأن يمشوا
حيث يأمرهم جبريل عليه السلام أما قوم لوط فانه مصيبيهم العذاب
الذى أوعدهم الله إياه^(١) كما قال تعالى : (إن موعدهم المصبح
أليس المصبح بقريب) هود / ٨١

أما عن سبب استثناء قوله تعالى : (الا امرأتك) من قوله تعالى
(فأسر بأهلك بقطع من الليل) في سورة هود ، ولم يستثن ذلك في
سورة الحجر ، فالسبب أنه في سورة الحجر تقدم قول الملائكة الذين
أرسلوا الى لوط عليه السلام فيما حكاه الله عنهم :

(قالوا : إنا أرسلنا الى قوم مجرمين ، الا آل لوط اننا
لمنجوم أجمعين ، الا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين)
- الحجر / ٥٨ - ٦٠ -

فهذا الاستثناء الذى لم يتقدم مثله في سورة هود أغنى عن
الاستثناء الواقع فيها من قوله تعالى : (فأسر بأهلك بقطع من
الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك)^(٢) .

فلأجل هذا الاستثناء الذى تقدم لم يستثن مرة أخرى في قوله :
(فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد
وأَمْضُوا حيث تُمْرُونَ)

اكْتفاء بهذا الاستثناء المتقدم .

بخلاف سورة هود فانه لم يتقدم قبل قوله : (فأسر بأهلك بقطع من
الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك)

لم يتقدم قبل ذلك استثناء لامرأة لوط لذا حُسن أن يؤتى بهذا
الاستثناء في هذا الموضع ، لبيان مقصد عظيم وهو مآل امرأة لوط
لشاعة فعلها ، ولم يُطوّر ذكر مآلها في جميع المواضع الا في
الذاريات والقمر ، لأن القصة فيها بُنيت على الإيجاز ،

فالذى يتضح من أمر القصص القرآني أن من سنن الله الحكيم
عدم استيفاء عناصر القصة الواحدة - غالباً - في موضع واحد بل هي
موزعة على عدة مواطن في القرآن يحكي الله في كل موطن ما يناسب السياق

(١) زاد السير لابن الجوزي ج ٤ / ٤٠٧ ، النكت والعيون ج ٢ / ٢٢٨ ،

روح المعاني ١٢ / ١٠٩ - ١١٢ .

(٢) درة التنزيل / ص ٢٢٦ .

والمقصد الذى سيقت له القصة ومن أسرار الله في ذلك : أن تكون النفس متشوقة الى استيفاء بعض العناصر ، فتدرك جانباً منها في مقام وجانباً آخر في مقام آخر ، وهكذا حتى تستكمل القصة جميع عناصرها ويتم مراد الله عما قصه علينا في كتابه . (١)

ومن اختلاف الحكاية إبدال كلمة بأخرى أو حرف بحرف ومن أمثلة ذلك مايلي :

أولا : قوله تعالى بشأن مريم : (قالت رب أنّى يكون لي ولد ..)
- آل عمران / ٤٧ -

هذا في آل عمران
وفي سورة مريم : (قالت أنّى يكون لي غلام ..) - مريم / ٢٠ -
الآية الأولى تقدم فيها ذكر المسيح عليه السلام وهو ولدها
وفي مريم تقدم ذكر كلمة (الغلام) حيث قال لها الملك :
(... انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ،
قالت أنّى يكون لي غلام)
فكل كلمة ناسبت سياقها والمعنى واحد . فالولد هو الغلام
وانما حكى الله عنها معنى ما قالت (٢) .

ومن ذلك ايضا : ما ذكره الله تعالى بشأن ابليس اللعين ،
فقال تعالى : حكاية عنه عندما طرده من رحمته وأنظره الى يوم
يبعثون : (قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ..)
- الأعراف / ١٦ -

وقال في موضع آخر حكاية عن نفس الموقف :
(قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ..)
- الحجر / ٣٩ -

وقال في موضع آخر حكاية عن نفس الموقف أيضا :
(قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ..)
- ص / ٨٢ -

(١) بحوث في قصص القرآن / ٧٩ .

(٢) انظر بمأثر ذوى التمييز ج ١ / ١٦٢ .

هذه الحكاية هي مقطع من قصة خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا كلهم لكن ابليس لم يسجد حسداً واستكباراً فطرده الله من رحمته فطلب ابليس الإنظار الى يوم البعث ، فأجابه الله بأنه من المنظرين الى وقت فناء الدنيا ، فأقسم ابليس بعزة الله أنه سوف يُغوى بني آدم الا المخلصين، وبين كيفية إغوائه لهم حسب ظنه الذي ظنه في بني آدم كما قال تعالى : (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) سبأ / ٢٠ الى آخر القصة .

والمقطع الذي اخترناه هو الموقف الذي يقسم فيه ابليس بعزة الله التي أغواه بها أن يزين لبني آدم في الأرض وأن يغويهم الا القليل المخلص ، وأنه لأجل ذلك سيعمل جهده حيث لا يدع طريقاً للشر والاستدراج للمنكر الا ويتبعه مع بني آدم حيث يقعد لهم صراط الله المستقيم ليحرفهم عنه الى طرق الضلال ، ولقد حذرنا الله سبحانه من ذلك بقوله :

(وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

فعند التمعن في اختلاف الحكايات الثلاث التي اخترناها نجد أن مجموعها يدلنا على حقيقة مآسر من اللعين ابليس وأنها كلها منسجمة تؤدي معنا واحداً متكاملاً وهو اجتهاد اللعين في اغواء بني آدم ، وهكذا الحال في جميع ما ذكر في القرآن من قصة آدم وابليس حيث إن أقوال كل حكاية وان توزعت في صور متعددة هي قول واحد في موقف واحد (١) .

يقول الألوسي (٢) : والذي يجب اعتباره في نقل الكلام إنما هو أصل معناه ونفس مدلوله الذي يفيدُه وأما كيفية إفادته له فليس مما يجب مراعاته عند النقل البتة ، بل قد تُراعى وقد لا تُراعى حسب اقتضاء المقام ، ولا يقدح في أصل الكلام تجريده عنها ، بل قد تُراعى عند نقله كصفات وخصوميات لم يراعها المتكلم أصلاً ، حيث إن مقام الحكاية اقتضتها وهي ملاك الأمر ولا يخلُ ذلك بكون المنقول أصل المعنى " انتهى " .

(١) انظر : كتاب الفن القصصي في مفهومه ومنطوقه / ص ٣٥٥ - ٣٧٠ .

(٢) ج ٢٣ / ٢٣٠ روح المعاني .

ولذلك أوضح صاحب الدرة^(١) اختلاف الحكايات التي نقلناها بشأن ابليس بقوله : (والجواب متى حُلت الباء على القسم في قوله (بما أغويتني) في الآيتين بشهادة الآية الثالثة وهي : (فبعزتك) .
يمكن هناك اختلاف في المعنى لأن المراد في قوله : باغواك إياي ، وهو يحتمل وجوها من المعنى أحدهما :
أن يكون المراد بتخيبك إياي لأجتهدن في تخييبهم وهذا ظاهر الكلام لأن القسم مُتلقًى باللام ، ولأن قوله * (فبعزتك) في مقابلتهما من الآية الأخرى ، وتخييب الله إياه هو بعزته ،

والثاني : أن يكون المراد باهلاكك إياي بأن لعنتني ، وهذا الفعل أيضا عزة من الله ، وكذلك إن حُمل على معنى الحكم بغوايته فهو عزة من الله تعالى وإذا كان كذلك تماوت في المعنى ، وكل قسم ، والاغواء الذي هو التخييب أو الإهلاك أو الحكم بالغواية كل ذلك عزة من الله تعالى فالقسم به كالقسم بعزته (١) هـ

وقال العلامة أبو السعود في تفسيره^(٢) : عند تفسير قوله تعالى : (قال فبعزتك ..) * الباء للقسم والفاء لترتيب مضمون الجملة على الانذار ولا ينافيه قوله تعالى (بما أغويتني) وقوله : (رب بما أغويتني) فان اغوائه تعالى إياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته وحكم من أحكام قهره وسلطنته ، فمآل الأقسام بهما واحد .. ١٠١ هـ

وبعد هذا الإيضاح لما يُتوهم أنه من الاختلاف في حكاية القصص انتقل إلى المبحث الآخر وهو ما يتوهم أنه من الاختلاف في مضمون القصص .

(١) درة التنزيل للخطيب الاسكافي / ١٤٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ج ٧ / ٢٣٨ .

(الفصل الخامس)

موم الاختلاف في مضمون القمص
حسب التسلسل التاريخي^(١)

قال الله تعالى :-

((نحن نقم عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا
القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين))

يوسف / ٣

وقال تعالى :

((نحن نقم عليك نبأهم بالحق)) الكهف / ١٣

وقال تعالى :

((لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً
يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة
لقوم يؤمنون)) .

يوسف / ١١١

(١) اعتمدت في ترتيب ذكر الأنبياء وقصصهم على ما أفاده الحفاظ
الامام أبو الغداء اسماعيل بن كثير ت : ٧٧٤ في كتابه (قصص الأنبياء)
ط اولى محققة دار الفكر - بيروت .

(١) قصة ابليس :

وردت آيات قرآنية تحكي قصة ابليس ورفضه السجود لآدم حيث قال الله تعالى : (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا - ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .)

البقرة / ٣٤

وقال تعالى : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين .)

الحجر / ٣٠ - ٣١

وكذلك في سورة " ص " حيث قال تعالى :
(فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا ابليس استكبر وكان من الكافرين .)

الآية ٧٣ - ٧٤

فهذه الآيات يستدل بها البعض على أن ابليس كان من الملائكة لأن ظاهر الاستثناء يعني ذلك حيث إنه استثنى منهم ، والمستثنى يكون من جنس المستثنى منه ،

وهذا في الظاهر يعارض قوله تعالى :

(واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . . .) الكهف / ٥٠ .
فهو نص في أن ابليس كان من الجن وليس من الملائكة ،

والصحيح الذي هو قول المحققين من العلماء أن ابليس كان جنيا ، وهو أصل الجن كما أن آدم أصل البشر ،

فالآية التي تنص على أن ابليس من الجن لا تعارض الآيات الأخرى والتي ظاهرها أنه من الملائكة وذلك من عدة أوجه وأدلة ،

الوجه الأول :- أن القول بأن ابليس من الملائكة هو من دلالة الآيات

التي تقدم ذكرها وهذه الدلالة لا عبرة بها مقابل النصوص الصريحة والتي تنص على كون ابليس من الجن .

ومن هذه النصوص قوله تعالى : (كان من الجن) - الكهف / ٥٠ - .
والجن اذا أُطلقوا في الكتاب والسنة أريد بهم تلك المخلوقات الخفية المظوقة من النار كما قال تعالى :
(والجآن خلقناه من قبل من نار السموم) الحجر / ٢٧ .

وقوله : (وخلق الجن من مارج من نار) الرحمن / ١٥ .
وابليس اللعين قال عن نفسه (خلقتني من نار وخلقته من طين)

الاعراف / ١٢ .

بينما الملائكة مخلوقة من النور بنص الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (١)
(خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من مارج من نار وخلق آدم مـمـا
وصف لكم) .

وأما من قال بأن قوله (كان من الجن) بأنهم جنس من الملائكة
اسمهم الجن فهذا القول ليس له سند صحيح من كتاب أو سنة وهو مخالف
لظاهر القرآن والاطلاق الشرعي (٢).

الوجه الثاني :-

_____ أن الآيات التي استثنى فيها إبليس من الملائكة مع
أنه من الجن من باب التغليب لكونه جنيا واحدا فيما بينهم (٣).
قال ابن كثير رحمه الله (٤) : (دخل إبليس في خطابهم لأنه وإن لم يكن
من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم فلماذا دخل في
الخطاب لهم ، وُدِّمَ في مخالفة الأمر) ١٠ هـ .
وقال الزمخشري (٥) : (" إلا إبليس " استثناء متصل لأنه كان جنيا واحدا
بين أظهر الأئوف من الملائكة مغمورا بهم فغلبوا عليه في قوله " فسجدوا "
ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم ، ويجوز أن يُجعل منقطعا) .

أي أنه على القول باتصال الاستثناء لما جمع الملائكة وإبليس
الحكم المقصود وهو الأمر بالسجود وكان في زمرتهم موصوف بصفاتهم
شملته الملائكة تغليبا ثم استثنى استثناء واحد منهم .
وأما إذا جُعِلَت " إلا " في الآية بمعنى لكن فليس هناك أشكال لأن
الاستثناء يكون منقطعا فلا يكون فيه دلالة على أن إبليس من الملائكة (٦).

(١) كتاب الزهد ، باب أحاديث متفرقة (شرح النووي على مسلم ج ١٨ / ١٢٣)
عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ / ١١٧ ، أضواء البيان للشنقيطي ج ٤ / ١٢٠-١٢١ .

(٣) البرهان / ٣ / ٣١٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١١٧ ، ٤ / ١٤٥ ، طبعة دار الكتب العلمية .

(٥) الكشف : ١ / ٢٧٣ ، ٢ / ٤٨٨ .

(٦) انظر تفسير أبي السعود ج ١ / ٨٧ ، روح المعاني ٢٣ / ٢٢٥ .

، القرطبي ١٥ / ٢٢٧ .

زاد المسير ١ / ٦٥

قال القرطبي^(١) : " الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي والدليل لقول الشافعي أن الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس : قول الله تعالى : (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قليلا سلاما) فاستثنى السلام من جملة اللغو ومثله : " وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير والآل العيس " فاستثنى اليعافير وهي ذكور الطباء والعيس وهي الجمال البيضاء من الأنيس . (١٠ هـ .

الوجه الثالث :

_____ ماقاله ابن تيميه^(٢) (ومذهب المسلمين ما أخبر الله به في القرآن ولم يكن في الأمورين بالسجود أحد من الشياطين ، لكن أبوه ابليس كان مأمورا فامتنع وعصى ... والتحقيق أنه كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله ، ولم يخرج من السجود لآدم أحد من الملائكة لاجبرائيل ولا ميكائيل ولا غيرهما . (١٠ هـ .

أى إن ابليس لما كان في صورتهم دخل في الأمر وإن لم يكن من جنسهم فصح استثناءه منهم لما دخل معهم في الأمر بالسجود لآدم

الوجه الرابع :-

_____ أن ابليس اللعين قد عصى ربه واستكبر بنص الآية بينما الملائكة عباد مكرمون قال الله فيهم .

(لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون) التحريم / ٦ .
وقال فيهم : (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يُؤمرون) النحل / ٥٠ .
فالمعصية مستحيلة من الملائكة ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) لذلك لا يمكن أن يكون ابليس من الملائكة^(٣) .

الوجه الخامس :-

_____ أن الله سبحانه جعل لإبليس ذرية وقبيلة وهذا ليس للملائكة .

يقول الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدد بئس للطالمين بدلا) الكهف / ٥٠ .

(١) تفسير القرطبي ٢٥ / ١٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٤٦ / ٤ وانظر تنزيه القرآن عن المطاعن ٢٢ / للقاضي عبد الجبار .

(٣) فتح الرحمن / ٢٤٢ ، تفسير القرطبي ٢٢٧ / ١٥ .

وقال تعالى : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) .

الأعراف / ٢٧ .

فأثبت الله تعالى له ذرية وقبيلة وهذا كما تقدم يناهى طبيعة الملائكة
لأنهم لا يتوالدون^(١).

وما يذكره بعض المفسرين عن جماعة من السلف كابن عباس وغيره
من أن إبليس كان من أشرف الملائكة ومن خزان الجنة وأنه كان يدبر أمر
السماء الدنيا ، وأنه كان اسمه عزازيل وغير ذلك^(٢). كله من الاسرائيليات
التي لا معمول عليها كما قال ابن كثير وغيره من العلماء مع مصادمتها
للأدلة التي ذكرناها^(٣).

اسند ابن جرير عن الحسن البصري رحمه الله باسناد صحيح^(٤)
(ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم
عليه السلام - أصل الانس .)

وأسند مثل ذلك عن ابن زيد .

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٥٠٦/١ حيث اسند معنى ذلك الى الحسن وانظر :
مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٤٦/٤ ، فتح الرحمن لذكرى الانصارى ص : ٣٤٢ .

(٢) انظر الدر المنثور ج ١ / ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ١ / ١١٧ طبعة دار الكتب العلمية
ج ٤ / ١٤٥ - ١٤٦ أضواء البيان للشنقيط ج ٤ / ١٢٠ - ١٢١ .

(٤) تفسير ابن جرير ج ١ / ٥٠٦ تحقيق محمود شاكر
وانظر ابن كثير ج ٤ / ١٤٥ حيث قال : " وهذا اسناد صحيح عن
الحسن) .

٢- قوله تعالى في سورة الاعراف :-

(قال مامنك ألا تسجد إذ أمرتك) الآية ١٢ .

وقال في موضع آخر : (يا إبليس مامنك أن تسجد لما خلقت

بيدي استكبرت أم كنت من العالين .) ص / ٧٥

من المعلوم أن إبليس أبى واستكبر أن يكون مع الساجدين لآدم

لذا جاء التوبيخ والتفريع على ترك السجود كما هو نص الآية :-

(مامنك أن تسجد)

لكن قوله تعالى في الأعراف : (ما منعك ألا تسجد ..)

يؤهم ظاهرها أن التوبيخ واللوم جاء على السجود ، لأن المعنى

المتبادر ما هو المانع لك على عدم السجود وهذا في الظاهر من موهم

الاختلاف ، وعند التدبر والتعمن في سياق الآية ومعناها والمراد منها

نجد أنها تفيد نفس ما أفادته الآية الأخرى لكن بأسلوب آخر فحكى

الله ما حصل بعدة أساليب يقتضيها السياق والبلاغة ،

فقوله تعالى (مامنك ألا تسجد إذ أمرتك) .

ضمّن فيه (منعك) معنى حملك : أي ما حملك على أن لا تسجد

ويدل عليه قوله بعدها : (إذ أمرتك) أي بالسجود ،

فقد نبّه بقوله : (إذ أمرتك) على أن المراد : مامنك أن تفعل

ما أمرتك^(١)، هذا مع تقدم قوله قبلها : (لم يكن من الساجدين) ،

وقد اختار هذا ابن جرير^(٢) حيث قال ما حاصله : (إنَّ "منعك"

تضمّن معنى فعل آخر تقديره : ما أحوجك والزمك واضطرك أن لا تسجد

إذ أمرتك ،

قال الألوسي^(٣) " وقيل إنها غير زائدة بأن يكون المنع مجازاً

عن الإلجاء والاضطرار ، فالمعنى : ما اضطرك إلى أن لا تسجد ،

وجوّز أن يكون ذلك من باب التضمين ، فالمنع هو البخل ويقال في

الحماية ومنه فلان ذو منعة : أي حماية ، فالمعنى : ما حماك عن عدم

السجود . // ١٠ هـ

(١) انظر فتح الرحمن / ١٨٨ ، تنزيه القرآن عن المطاعن / ١٤٣

(٢) تفسير ابن جرير ٣٢٤/١٢ وقواه ابن كثير في تفسيره ٣٢٦/٢

(٣) روح المعاني : ج ٨ / ٨٨ .

قلت : ويؤيد ذلك الآية الأخرى حكاية عن نفس الموقف وهي قوله تعالى : (مالك أن لا تكون مع الساجدين) الحجر / ٣٢ .

أى مالذى حملك أو حماك على أن لا تكون مع الساجدين .
فأجاب اللعين بقوله : (لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون .)

فنبّه إبليس على المانع له من السجود وهو الكبر ،
قال القرطبي^(١) : " وقيل ليست بزائدة ، فان المنع فيه طرف من القول والدعاء فكأنه قال : من قال لك ألا تسجد ، أو من دعاك الى أن لا تسجد

فلما نُفخَ في آدم الروح وقعت الملائكة سُجّداً وبقي هو قائماً بين أظهرهم ، فأظهر بقيامه وترك السجود ما في الضمير فقال تعالى : (ما منعك ألا تسجد) أى ما منعك من الانقياد لأمرى ، فأخرج سر ضميره فقال : (أنا خير منه) .

وهناك من قال بأن (لا) في قوله : (ما منعك ألا تسجد) مزيده لتأكيد معنى الفعل الذى دخلت عليه وتحقيقه^(٢) .
قال الشهاب الخفاجي^(٣) : وهي لا تؤكد مطلقاً بل اذا صحب نفيها مقدماً أو مؤخراً صريحاً أو غير صريح : كما في (غير المنسوب عليهم ولا الضالين) وكما هنا - أى في الآية - فانها تؤكد تعلق المنع به) .

والوجه الأول وهو تفسير : (ما منعك) بـ ما دعاك أو ما حملك أظهر وان كان الوجه الثاني له حظ من النظر ، وعلى كل فلا تعارض بين الآيات لمن فهم وتدبر، ويتبين لنا أن المعنى متفق غير مختلف هذا الى جانب أنه لا بد أن يُعلم - كما مر سابقاً - أن اقتصاص حكاية ما قيل لابليس لم يقصد به أداء الألفاظ التى قيلت بأعيانها وانما المقصود ذكر المعاني التى حصلت بلفظ القرآن الذى يتنوع أسلوبه وأداؤه حسب المقام والسياق في النص القرآني ، والقارئ أو السامع للآيات الثلاث يحمل له معنى واحد وهو ذكر ما حمله على ترك السجود لآدم .. والله ولي التوفيق .

(١) تفسير القرطبي : ج ٧ / ١٧٠

(٢) تفسير الزمخشري ج ٢ / ٦٨ ، روح المعاني ٨٨ / ٨ ، القرطبي ٧ / ١٧٠

تفسير أبي السعود ٣ / ٢١٦ ، تنزيه القرآن ١٤٣ / ١ ، فتح الرحمن ١٨٧ / ١

بمائر ذوى التمييز ج ١ / ٢٠٥ .

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوى ج ٤ / ١٥٣ .

(٣) قوله تعالى : حكاية عن إبليس :
(قال رب فأُنظرني الى يوم يُبعثون ، قال : فانك من المُنظرين ،
الى يوم الوقت المعلوم .) الحجر : ٢٧ - ٢٩

قوله تعالى : (فإنك من المُنظرين)
قد يُتوهم أنها استجابة من الله لدعاء إبليس ، ومعلوم أن إبليس
ابى واستكبر وكان من الكافرين والله تعالى لا يستجيب لكافر غير مفطر ،

كما قال تعالى : (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال)

الرعد / ١٤

والذى يزيل هذا التوهم هو أن قوله تعالى : (فإنك من المُنظرين)
ليس استجابة لدعاء إبليس، وإنما هو إجابة، بمعنى أن الله تعالى
جاوبه بهذا القول أى إنك إن طلبت الإنظار الى يوم البعث أو لم
تطلب فانك من المُنظرين أى المقدر لهم أن يُنظروا الى يوم البعث
لحكمة يريدّها الله تعالى ،

فهو إخبار بالانظار المقدر له وللآخرين وليس انشاء انظار
خاص به وقع اجابة لدعائه : أى انك من جملة الذين أُخّرت آجالهم
أزلا حسبما تقتضيه الحكمة (١) .

وهذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته بمنزلته عند الله
تعالى وأنه أهل أن يُجاب له دعاء ، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة
في بلائه كفعل الآيس من السلامة وأراد بسؤاله الانظار الى يوم
يبعثون ألا يموت لأن يوم البعث لاموت فيه ولا بعده ، ثم قال :
فانك من المُنظرين ، يعنى المؤجلين (الى يوم الوقت المعلوم)
قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى ، أى حين يموت الخلائق
قال الله تعالى : (كل من عليها فان) (٢) .

(١) بصائر ذوى التمييز ٢٠٦ / ١ ، تفسير ابي السعود ٢٢٨ / ٧

روح المعاني ٤٨ / ١٤ ، ج ٢٢٩ / ٢٣ وانظر حاشية الشهاب ج ٤ / ١٥٤ .

(٢) تفسير القرطبي وسورة الحجر / ٢٧ .

وانظر ج ٢٢٩ / ١٥ سورة ص / ٧٩ .

٤- قوله تعالى في حق نصرته للرسول :

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

المجادلة / ٢١

وقوله : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) غافر / ٥١

وقوله : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .) الصافات / ١٧٢

فهذه الآيات تثبت أن النصر والغلبة والظفر لعباد الله المرسلين مع أنه قد وردت آيات فيها أن بعض الأنبياء والمرسلين قد قُتلوا وهذا في الظاهر ينافي النصر والغلبة ، وهو قوله تعالى في حق بني إسرائيل : -

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) البقرة / ٦١

وقوله تعالى أيضا : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْتَكُوا أَنْفُسَكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ففريقا كذبتهم وفريقا تقتلون) البقرة / ٨٧

والجواب : انه ليس بين هذه الآيات تنافي أو اختلاف ، وذلك كما يلي :

قال المفسرون : إِنَّ الرسل قسمان : قسم أمروا بالقتال في سبيل الله ، وقسم أمروا بالصبر والكف عن الناس ، فالذين أمروا بالقتال وعدمهم الله بالنصر والغلبة في الآيات المذكورة ، والذين أمروا بالصبر والكف هم الذين قُتلوا ليزيد الله رفع درجاتهم العلية بقتلهم مظلومين ، وهذا الجمع مفهوم من الآيات لأن النصر والغلبة فيه الدلالة بالالتزام على جهاد ومقاتلة^(١) . فاذا أمر رسول بجهاد وقتال لأعدائه بعد صدمه من سبيل الله فان الله ناصره حتما وعاصمه من القتل

كما أَنَّ النصر بالحجة والبرهان وظهور الأدلة هو لجميع الأنبياء والرسل فلا يزال الأنبياء والرسل ظاهرين على أقوامهم بحجتهم وأقوالهم

(١) أعضاء البيان للشنقيطي ج ٢٤/١٠ ، وانظر النكت والعيون للماوردي ج ١١٥/١

روح المعاني للألوسي ج ٢٧٧/١ ، زاد المسير لابن الجوزي ج ١٩٨/٨ .

القرطبي ٤٣٢ / ١ .

ولا يزال الكفرة والمعادون محجوجين ليس لهم الا العناد والمكابرة
كما قال تعالى عن قوم شعيب :

(قالوا يا شعيب مانفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا
ولولا رهطك لرجمناك) هود / ٩١

قال ابن الجوزي^(١) : - " من بُعث من الرسل بالحرب فعاقبته
الأمر له ، ومن لم يُبعث بالحرب فهو غالب بالحجة " ٥٠١ هـ

وقال الماوردي^(٢) : - قال الحسن إن الله عز وجل ما أمر نبيا
بالحرب الاّ نصره فلم يُقتل ، وإنما خلّى بين الكفار وبين من لم
يؤمر بالقتال من الأنبياء .

وقال الألوسي^(٣) : " ان المراد بالرسل : المأمورون بالقتال - كما
أجاب به بعض المحققين - لأن أمرهم بالقتال وعدم عصمتهم لا يليق
بحكمة العزيز الحكيم " ٥٠١ هـ

قلت : - والأنبياء الذين قُتلوا اقتضى الله لهم في الدنيا قبل
الآخرة كما أخبر سبحانه عن بني اسرائيل : - (وضربت عليهم الذلة
والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله
ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)
البقرة / ٦١

وأخذ التأثير والمقاممة بعد القتل هو من النصر الذي اثبتته
الله في كتابه كما قال في المقتول ظلما : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ
جعلنا لوليّه سلطانا فلا يُسرف في القتل انه كان منصورا) - الاسراء / ٣٣
وكذلك فان الله يقتضى لأنبيائه في الدنيا قبل الآخرة كما قال :
(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم
الأشهاد) غافر / ٥١

(١) زاد المسير ج ٨ / ١٩٨ .

(٢) النكت والعيون ج ١ / ١١٥ ، وانظر القرطبي ٤٣٢ / ١ حيث نسب ذلك
لابن عباس ايضا .

(٣) روح المعاني : ج ١ / ٢٧٧ .

هذا وان الأنبياء الذين لم يؤمرا بقتال وجهاد قسمان :
قسم قتلهم أقوامهم ظلما وعدوانا كما فعلت بنو اسرائيل بحق بعض
الأنبياء وهؤلاء نصرهم الله كما تقدم بأن اقتضى من قاتليهم وعذبهم
في الدنيا وكتب عليهم انواع اللعنة والغضب والهوان، ذلك لهم خزي ولهم
في الآخرة عذاب أليم ،

والقسم الآخرهم الأنبياء الذين لم يتمكن أقوامهم من قتلهم
حيث نصرهم الله بأن أهلك أقوامهم في الدنيا في حياة أنبيائهم كما
فعل مع قوم فرعون أغرقهم الله ، وقوم نمرود أهلكوا بالصلح
وقوم عاد بالريح العقيم ، وقوم نوح أغرقوا ، وقوم شعيب أخذوا
بعذاب يوم الظلة ،

كما قال تعالى :

(فكلما أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من
أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان
الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) العنكبوت / ٤٠

ومصدق الله ان يقول :

(كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز) .

٥ - قوله تعالى : (ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين .) هود / ٤٥

هذه الآية الكريمة تدل على أن هذا الابن من أهل نوح عليه عليه السلام ،

وقوله تعالى : (يانوح إنه ليس من أهلك . . .) هود / ٤٦ يدل على خلاف ذلك ،

والجواب : هو أن هذا الابن هو ابن نوح وقد دعا نوح له اعتمادا على وعد الله له بقوله :

(قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول .) هود / ٤٠

فلذلك قال : (وإن وعدك الحق)

وقوله : (إلا من سبق عليه القول) لاتعني ان ابن نوح منهم

قبل أن يتضح حاله ، وكان يظنه مسلما من جملة المسلمين الناجين

كما يشير اليه قوله تعالى : (فلا تسألني ما ليس لك به علم) .

فلم يكن نوح عليه السلام عالما بكفر ابنه إذ ذاك لأنه لم يكن مجاهرا بكفره والا لم يدع له بل لم يدعه بقوله :

(ولا تكن مع الكافرين) أى لاتدخل في غمارهم ،

فأخبره الله تعالى : أن هذا الابن عمل عملا غير صالح لكفره ،

فليس هو من الأهل الموعود بنجاتهم ، وإن كان من جملة الأهل نسبا

فمدار الأهلية هو القرابة الدينية وقد انقطعت بالكفر فلا علاقة

بين مسلم وكافر ولذا لم يتوارثا (١) (٢)

(١) وهذا لا يمنع بر الأيوين الكافرين وصلتهم ، أما موالاتهم فهي

المنهي عنها لقوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم

ولم يخرجوكم من دياركم أن تبزؤهم وتقسطوا اليهم ان الله

يحب المقسطين) المتحنة / ٨

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٦٩٠ ، القرطبي ٩ / ٤٥ ، روح المعاني ١٢ / ٦٩

أضواء البيان للشيخ الطيبي ج ١٠ / ١٥٦ ، أمالي المرتضى ج ١ / ٥٠٢

قال ابن المنير^(١) : (لما وُعد عليه السلام بتنجية أهله
الّا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفا لحال ابنه ، بقي على
التمسك بمينة العموم للأهلية الثابتة ولم يُعارضها يقين في كفر
ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين ، فسأل الله تعالى
فيه بناء على ذلك ، فبين له في علمه أنه من المستثنين وأنه هو
لا علم له بذلك فلذلك سأله فيه (٠) ٠ ١ هـ

(١) حاشية الأنصاف على الكشاف / لابن المنير ج ٢ / ٢٧٣ - ٢٧٤ .

٦ - قوله تعالى : بشأن نمود :

(فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم) - الاعراف / ٧٧ -

وقال في أية أخرى : (فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) الشمس /

أسند العقر في هذه الآيات للكل ،

بينما في سورة القمر أسند العقر لواحد منهم ،

فقال تعالى : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ٠٠) القمر / ٢١

قال البيضاوي^(١) : (فعقروا الناقة : فنحروها ،

أسند الى جميعهم فعل بعضهم للملازمة ، أو لأنه

كان يرضاهم) .

فالذى فعل العقر وتعاطاه هو صاحبهم الذى ذكرته سورة القمر وقد

ذكر المفسرون أن اسمه " قدار بن سالف " .

نقل القرطبي^(٢) قول الشاعر وهو الأنفوه الأودى :

أو قبله كقدار حين تابعه

على الغواية أقوام فقد سادوا

قال الألوسي^(٣) : " وضير الجمع للأشقى وجمعه على تقدير وحدته

لرضا الكل بفعله ، قال قتادة بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم

وكبيرهم وذكرهم وأنشاهم " (٤) .

قلت : وما يدل على أن فعلة العقر كانت برضا الجميع وتدبيرهم

أن الله سبحانه وتعالى قال في سورة القمر :

(فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ، انا أرسلنا

عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) القمر / ٣٠-٣٢ .

فهم قد نادوه لهذه الفعلة بنى الآية فأسند ذلك الى مجموع القبيلة فدل

ذلك على رضاهم جميعا بذلك .

وكذلك عمم الهلاك بالصيحة مما يدل على اشتراكهم بالجناية واسناد الفعل

الى المجموع مراداً به بعضهم من أساليب اللغة العربية التى نزل بها

القرآن الكريم .

(١) انوار التنزيل / ص (٢١٤) .

(٢) الجامع لاحكام القرآن / ١٤١/١٧ ، تفسير ابن كثير ٣٦٥/٢ .

(٣) روح المعاني ١٨٥/٣ ، تفسير ابن كثير ٣٦٥/٢ .

(٤) انظر النكت والعيون للماوردي ج ٤ / ١٤٠ .

أخرج الإمام أحمد في مسنده (١) عن جابر بن عبد الله قال :
" لما مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم - بالحجر قال : " لا تألوا
الآيات فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج
وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون
لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أخذ الله مَنْ تحت أديم السماء منهم
الآ رجلا واحدا كان فى حرم الله ، فقالوا من هو يا رسول الله قال :
أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . "

قال ابن كثير (٢) : وهذا الحديث ليس فى شيء من الكتب الستة
وهو على شرط مسلم .

(١) المسند ج ٣ / ٢٩٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٦٤/٢ .

وانظر قصص الانبياء له ص (١٤٥) .

٧ - قوله تعالى بشأن قوم صالح وهم ثمود^(١).

(فمعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اثنتا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)
الاعراف / ٧٧ .

وقال في آية أخرى : (وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون .) فصلت / ١٧ .
وقال في آية أخرى : (أنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) القمر / ٣١ .

فنلاحظ اختلاف نوع العذاب في كل مع وقوعه لقوم صالح وهدم والجواب أنه لا اختلاف في ذلك إذ أن القوم عذبوا بهذه الأنواع كلها : الرجفة والصيحة والصاعقة^(٢).

قال ابن كثير^(٣) : " فلما أصبحوا من يوم الأحد وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح " فأصبحوا في دارهم جاثمين " أي صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد . ١٠ هـ .
(فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها) .

(١) أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وماحوله ووقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم - على قراهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع (ابن كثير ج٢/٣٦٣ سورة الاعراف) قصص الانبياء ١٣٣/١٠ .

(٢) انظر روح المعاني ١١٤/٢٤ ، فتح الرحمن / ١٩٨ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٦٦/٢ ، سورة الاعراف آية ٧٨ .
وانظر قصص الانبياء له أيضا ص (١٤٤) ط أولى دار الفكر .

٨ - ومن الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض .

ما حكاه الله سبحانه عن نبي الله ابراهيم عليه السلام من مناظرته

لقومه وقوله عن الكوكب (هذا ربي) ،

في قوله تعالى في الانعام : (فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكبا
قال هذا ربي ، فلما أفل قال لأحب الآفلين ، فلما رأى القمر
بازغا ، قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني ربي لأكونن من
القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر
فلما أفلت قال يا قومي اني برئ مما تشركون .) الآيات ٧٦ - ٧٨

فقوله عليه السلام عن الكوكب والقمر والشمس : (هذا ربي)

يوهم أنه قد مر عليه وقت ظن فيه ربوبية غير الله .

وهذا يعارض الآيات التي اثبت الله تعالى فيها أن ابراهيم عليه السلام
قد أوتي رشده منذ صغره وفتوته .

قال تعالى : (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به
عالمين ان قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها
عاكفون) الأنبياء / ٥١ - ٥٢

وقد وصفه الله بالتوحيد بقوله تعالى :

(ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما

وما كان من المشركين .) آل عمران / ٦٧

والجواب : أنه لا تعارض بين مدلول هذه الآيات فان ابراهيم عليه
السلام في قوله عن الكوكب : (هذا ربي) كان في مقام المناظرة كما
هو ظاهر حيث إنه غير جائز ان يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت
من الأوقات الا وهو لله موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه برئ ،
فمن المعروف أن قوم ابراهيم كانوا يعبدون الأصنام والكواكب وقد نشأ
ابراهيم بينهم وقد آتاه الله رشده منذ فتوته فأنكر على قوميه
عبادة الأصنام والكواكب ودعاهم لعبادة الواحد القهار ،

وكان يجادلهم ويبين لهم عدم نفعها وأنها لا تسمع ولا تجيب وكان

من ضمن هذه المجادلات والمناظرات ما حكاه الله عنه عندما رأى كوكبا

(قال هذا ربي فلما أفل قال لأحب الآفلين .)

فقلوه (هذا ربي ٠٠٠) كان يقصد به التسليم الجدلي ، والمناظر قد يسلم المقدمة الباطلة تسليماً جديلاً ليفحم خصمه بذلك . فقال ذلك على سبيل الغرض وارتخاء العنان مجازاة مع قومه* . ليستدل بذلك على فساد قولهم ومعتقدهم ثم يكر عليه بالابطال ، وهذا هو الحق ، ولذلك تدرج في محاجتهم فقال مرة : (لا أحب الآفلين) ثم قال : (لا يكون من القوم الضالين) لأن ما رأى لا يملح للربوبية وهذه مبالغة منه في النصفه^(١) وفي ذلك " تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال " ^(٢) .

قال ابن المنير^(٣) : " والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله أولاً : (لا أحب الآفلين) وإنما ترقى عليه السلام الى ذلك لأن الخصوم قد قامت عليهم بالاستدلال الأول حجة فأنسوا بالقدرح فسي معتقدتهم ولو قال هذا في الأول فلعلهم كانوا ينغرون ولا يصغون الى الاستدلال ثم ترقى في النوبة الثالثة الى التصريح بالبراءة منهم والتصريح بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة عليهم وظهر الحق " ٠١ هـ فالآيات تبين أن استدلاله عليه السلام كان لمحااجة قومه وليس لنفسه ومما يدل على أنه كان مناظراً سوى ما تقدم :

أولاً : قوله تعالى قبل هذه الآيات : (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) . ثم قال بعده : (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً ٠٠) والفناء تقتضي الترتيب ، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار ابراهيم من الموقنين العارفين بربه .

(١) القرطبي ٢٥ / ٧ ، روح المعاني ١٩٨ / ٧ ، تفسير الرازي ٥٢ / ١٣

دفع ايها الاضطراب للشنقيطي / ٥٤ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣١ .

(٣) حاشية على الكشاف ٢ / ٣١ .

* قال ابن كثير (في قصص الأنبياء ص : ١٥٧) : والظاهر ان مواعظته هذه في الكواكب لأهل حرّان ، فانهم كانوا يعبدونها ٠٠٠ وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها ٠٠٠ " ٠١ هـ

ثانيا : مما يدل على ان هذه الواقعة كانت بسبب مناظرة ابراهيم لقومه أنه تعالى لما ذكر القصة قال : (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ولم يقل على نفسه ، فعلم أن هذه المباحثة انما جرت مع قومه لأجل أن يرشداهم الى الايمان والتوحيد .

ومما يدل على ذلك أنه قال في آخر المناظرة : (فلما أفلست قال يا قوم اني برئ مما تشركون) وهذا خطاب لقومه المشركين . ومما يدل على مناظرته وأن استدلاله كان لقومه وليس لنفسه قوله تعالى بعد هذه الآيات : (وحاجه قومه قال ثجاجوني فني الله وقد هداني ...) الآيات .

ثالثا : كما أن ابراهيم عليه السلام من أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة وقد ثبت في الصحيح - عن ابي هريره رضي الله عنه مرفوعا : " ما من مولود الا يولد على الفطرة " (١) . وقال الله تعالى : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله .) الروم / ٣٠

فاذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون ابراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتا لله حنيفا ولم يملأ من المشركين ناظرا في هذا المقام ، وقد قال الله فيه : (اذ جاء ربه بقلب سليم) أي لم يشرك قط (٢) .

قال الألوسي (٣) : " وخلاصة احتجاجه : أن الأقول يدل على مطلق الحركة وكل متحرك محدث وكل محدث فهو محتاج الى القديم القادر فلا يكون الاقل إلها بل محتاجا للإله . "

أي أن ما تغير لا يجوز أن يكون ربا وكانوا يعبدون النجوم فأراهم النقص الداخل على النجم بالأقول لأنه ليس ينبغي لإله أن يزول ولا أن يغيب ، فلذلك قال : (لا أحب الآفلين) واعتبر مثل ذلك في الشمس والقمر حتى تبين للقوم ما أراد من غير جهة العناد والمبادأة بالتنقص والعيب (٤) .

فتبين بذلك أن ابراهيم بمحاجة قومه كان مناظرا لا قرار التوحيد وكان سليم القلب ولم يكن كما يتوهم قد أشرك ولو طرفة عين .
(والله ولي التوفيق) ..

(١) ابن كثير ٢/٢٤٢ ، القرطبي ٧/٢٥ ، تفسير الرازي ١٣/٥٢ .
(٢) البخاري في الجنايز باب اذا أسلم الصبي فمات هل يملي عليه ج ٤/٩٧ وفي التفسير سورة الروم - باب لا تبديل لخلق الله .
(٣) روح المعاني ج ٧ / ٢٠٠ ، وانظر تفسير الرازي ١٣/٥٥ .
(٤) تأويل مشكل القرآن / ابن قتيبة / ٣١٢

١ - قوله تعالى بشأن ابراهيم عليه السلام ايضا في سورة البقرة
(وان قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا) الآية / ١٢٦
وقال في سورة ابراهيم : (وان قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا)
الآية / ٣٥

والمراد بالبلد هي مكة المكرمة بلد الله الحرام ،
فقد يُظن أن هناك اختلافاً في الدعاء مع أن المقام واحد .
بينما حقيقة الحال أن ابراهيم عليه السلام حصل منه الدعاء ان
مرة قبل بناء البيت وقبل مصير تلك البقعة بلدا وهو قوله :
(رب اجعل هذا بلدا آمنا .) أي اجعل هذا المكان القفر بلدا
آمنا ، فالمدعو به أن يجعله بلدا وكذلك أن يجعله آمنا ، ومرة بعد
بناء البيت لما صار بلدا دعا له بالأمن ،

قال ابن كثير رحمه الله^(١) : (قال في هذه السورة (رب اجعل
هذا بلدا آمنا .) أي اجعل هذه البقعة بلدا آمنا ، وناسب هذا
لأنه قبل بناء الكعبة . "

قلت : وما يدل على أن دعاء ابراهيم الأول حصل قبل مصير تلك
البقعة بلدا وقبل أن تُسكن :

ما أخرجه البخاري^(٢) عن ابن عباس : أن ابراهيم عليه السلام جاء
بأم اسماعيل وبابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند
دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها
ماء فوضعهما هنالك ، .. الى قوله : وكان البيت مرتفعاً من الأرض
كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت
بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء
فنزلوا في أسفل مكة

(١) ج ١ / ٢٦٠ / سورة البقرة / ١٢٦ .

(٢) صحيح البخاري / كتاب الأنبياء باب ١ يزفون النملان في المشي

ج ٤ / ١١٣ .

الى قولهم : اتأذنين أن ننزل عندك قالت: نعم ، ولا حق لكم في الماء ، قالوا نعم . وقص القصة الى أن جاء ابراهيم بعد ذلك وقال لاسماعيل : " ان الله أمرني أن ابني ههنا بيتا وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني "

فمن خلال هذا الحديث نرى^١دعاء ابراهيم له أن يكون بلدا لأنه لم يكن به أحد يسكنه سوى أم اسماعيل ،

وجاء الدعاء الثاني (رب اجعل هذا البلد آمنا) بتعريف البلد لأن البيت كان قد بُني ورفعت قواعده ، وكانت قبيلة جُرههم قد استقرت في الوادي واتخذته مسكنا كما تقدم في الحديث .

فلذا دعا له ثانية بالأمن (١) .

قال ابن كثير (٢) : (وقال تعالى في سورة ابراهيم : (واذا قال رب اجعل هذا البلد آمنا) وناسب هذا هناك لأنه - والله أعلم - كأنه وقع دعاءً ثانيا بعد بناء البيت واستقرار أهله به وبعد مولد اسحاق الذي هو اصغر سنا من اسماعيل بثلاث عشرة سنة ولهذا قال في آخر الدعاء : (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحق ان ربي لسميع الدعاء .) .

فثبت بما تقدم أن الدعاءين كانا في موقفين ، ولذا فلا اختلاف بينهما .

(١) القرطبي ٢ / ١١٨ ، روح المعاني ١ / ٢٨١ ، درة التنزيل / ٢٩

فتح الرحمن / ٣٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٢٦٠ .

١٠ - قوله تعالى : مخبرا عما حل بقوم شعيب من الهلاك بسبب تكذيبهم وظلمهم : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) الأعراف / ٩١ - ٩٢ .

وقال في سورة هود : (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين .) الآية / ٩٤ .

وقال تعالى في الشعراء : (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم .) الآية / ١٨٩

فهذه الآيات المتقدمة سقت لبيان الهلاك الذي حل بقوم شعيب وبينهما في الظاهر اختلاف حيث انه عبر عن هلاكهم مرة بالرجفة ومرة بالصيحة ، ومرة بعذاب يوم الظلة ،
والحقيقة أنه ليس هناك اختلاف لأن الآيتين الأوليين مختمتان بأهل مدين* الذين أرسل اليهم شعيب عليه السلام ،
لقوله تعالى في الأعراف : (وإلى مدين أخاهم شعيبا ... الى قوله تعالى : (فأخذتهم الرجفة) الآيات ٨٥ - ٩٢ .
وقال في سورة هود : (وإلى مدين أخاهم شعيبا ... الى قوله تعالى (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) ،
والرجفة هي الزلزلة ، والصيحة هي صيحة جبريل عليه السلام وكانت الصيحة قرينة للرجفة فأُسند إهلاكهم الى كل منهما هذه تارة وهذه تارة ،

قال الألوسي^(١) : ووفق بينهما بأن الصيحة تُفسي الى الرجفة أو هي مجاز عنها ، وقال القرطبي^(٢) : "فأخذتهم الرجفة" أي الزلزلة الشديدة ، وقيل كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم كما في

(١) روح المعاني ١٤ / ٧٦ ، ج ١ / ٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٢٤٢

* كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم (مدين) والتي هي قريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلي فاحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط - البحر الميت - وكانوا بعدهم بمدة قريبة ، ومدين قبيلة عرفت بهم وهم من بني مدين بن مديان بن ابراهيم الخليل . (قصص الأنبياء لابن كثير

(وأخذت الذين ظلموا الصيحة) : يقال رَجَفَ الشيء يَرْجِفُ ، رَجْفًا وأرجفت الريح الشجرة : حركته وأصله حركة مع صوت ، ومنه قوله تعالى : (يوم ترجف الراجفة) ٥١ هـ

والقصد أن الرجفة كانت مصحوبة بالصيحة وهي صوت هائل كان في نفسه عذابا آخر .

أما آية الشعراء والتي فيها : عذاب يوم الظلة ، فهي لأصحاب الأيكة وهي غيضة بقرب مدين تسكنها طائفة من الناس فبعث الله اليهم شعبيا كما بعث الى مدين وكان أجنبيا منهم ولذلك قال : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ولم يقل : أخوهم شعيب (١) .

وعذاب يوم الظلة الذي أخذهم هو عذاب على نحو ما اقترحوا كما قال الله عنهم : (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين)

الشعراء / ١٨٧

فسلط الله عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى غلت أنهارهم، وأظلمت سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا (٢) ،
فلذلك قال تعالى بحقهم : (إنه كان عذاب يوم عظيم) وما يدل على أن الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة ليسوا أهل مدين اقترح العذاب وهذا غير موجود في الأعراف وهوود حيث قصة أصحاب مدين ، وكذلك نجد تباينا في الحوار بين شعيب مع أهل مدين ومع أهل الأيكة ، مما يؤكد أنهما قمتان ، وكونه عليه السلام أمرهم بايفاء الكيل والميزان وغير ذلك من أمور التجارة فالظاهر أنه بسبب كون الطائفتين مشهورتان بالتجارة ويبدو أنهم كانوا في مسر قوافل التجارة فكانوا يتحكمون فيها وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كله ، ولقرينهم من بعضهم فالظاهر أن أصحاب الأيكة تطبعوا بطباع أهل مدين (٣) ،
والله اعلم

(١) تفسير البيضاوى / ٤٩٥ - ٤٩٦ روح المعاني ج ٦ / ٦ ، ١١٧/ ١٩

زاد المسير ١٤١ / ٥

(٢) تفسير البيضاوى / ٤٩٦ ، زاد المسير لابن الجوزى ١٤٣ / ٦

تفسير القرآن العظيم ٥٥٣ / ٣

(٣) في ظلال القرآن ج ٥ / ٢٦١٥

وعلى فرض أنها قصة واحدة وأن أهل مدين هم أصحاب الأيكة كما قال ابن جرير^(١) وابن كثير^(٢) فلا مانع من أن يكون أصابتهم الصيحة والزلزلة في يوم الظلة فاجتمع عليهم أنواع العذاب، قال ابن كثير رحمه الله^(٣) : " وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلمت فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجساد (فأصبحوا في ديارهم جائعين) ٥٠١ هـ

فحملت لهم ضرب من العذاب لقبيح مرتكبهم وسوء ردهم على نبيهم وهذا كما تنوع امتحان آل فرعون بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والطمسة ،

هذا وعلى كلا الوجهين فلا اختلاف بين هذه الآيات والوجه الأول الذي تقدم هو الظاهر والمواب في نظري - والله أعلم -

(١) تفسير الطبري ١٥ / ١٦١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٥٥٣ ، قصص الأنبياء له أيضا

ص : ٢٥٢

(٣) نفس المصدر السابق ٢ / ٣٧٢ .

١١ - قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام - مخاطبا الملك :

(قال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم) يوسف / ٥٥

فهذه الآية تدل على أن نبي الله يوسف قد مدح نفسه وزكاها أمام الملك بأنه أهل للإمارة مع أن الله سبحانه وتعالى : - قد نهي عن تزكية النفس ومدحها في قوله :

(فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) النجم / ٣٢

كما أن من شأن الأنبياء والمالحين التواضع ،

وقد ورد في الصحيحين^(١) من حديث عبد الرحمن بن سمره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عبد الرحمن لاتعال الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها . "

فهل طلب نبي الله يوسف تولى المسؤولية وإخباره أنه أهل لها وأنه حفيظ عليم من تزكية النفس المنهي عنها .

الجواب : أن مدح النفس وبيان فضائلها قسمان : قسم مذموم وهو ما كان دافعه البغي والكبر والتفاخر، وكذلك تزكيتها بما ليس فيها ، والقسم الآخر جائز وهو ما كان دافعه التحدث بنعمة الله أو لطلب حق أو أداء واجب فنسبى الله يوسف لما خلا مدحه لنفسه من بغي وتكبر وكان مراده به الوصول الى حق يُقيمه، وعدل يُحييه، وجور يُبطله كان ذلك جميلا جائزا ويوسف عليه السلام كان رسولا من قبل الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة قدر الإمكان فلذلك طلب مسئولية خزائن الأرض وأبان عن قدرته وفضله ليتوصل الى ذلك لما فيه من المصالح للناس خصوصا في تلك السنين الشديدة^(٢) .

نقل ابن الجوزي^(٣) عن القاضي أبي يعلى قوله : " في قصة يوسف دلالة على أنه يجوز للانسان أن يصف نفسه بالفضل عند من

(١) أخرجه : - البخارى كتاب الأحكام - باب رقم ٥ من لم يعال الإمارة أعانه الله ج ٨ / ١٠٦ ومسلم في كتاب الإمارة / باب النهي عن طلب الإمارة (شرح النووي ج ٢ / ٢٠٦) .

(٢) زاد المسير ٢٤٤ / ٤ ، تفسير الرازي ١٦٥ / ١٨ ، ابن كثير ج ٢ / ٢٤٥ تنزيه القرآن عن المطاعن / ١٩٣ .

(٣) زاد المسير ٤٥ / ٢٤٤ .

لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور في قوله : (فلا تزكوا أنفسكم) .^١

وقال الماوردي^(١) : " وفي هذا دليل على أنه يجوز للانسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل، أو ليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلة أو تعلق بظاهر من كسب ، ومنوع منه فيما سواه لما فيه من تزكية ومراآة ، ولو تنزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ، فإن يوسف دعت الضرورة اليه لما سبق من حاله ولما يرجوه من الظفر بأهله . " ٥٠١ هـ

وقال الرازي^(٢) : " لا نُسَلِّم أنه مدح نفسه لكنه بين كونه موصوفاً بهاتين الصفتين النافعتين في حصول المطلوب - أي رعاية مصالح الخلق - وبين البابين فرق ، وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج الى ذكر هذا الوصف لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالماً بأنه يفي بهذا الأمر ثم نقول : هب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموماً اذا قصد الرجل به التناول والتفاخر والتوصل الى غير ما يحسن ، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم ، فقوله تعالى : (فلا تزكوا أنفسكم) المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية ، والدليل عليه قوله تعالى : بعد هذه الآية : (هو أعلم بمن اتقى) أما اذا كان الانسان عالماً بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع - والله أعلم - ٥٠١ هـ

قلت : - فنبي الله يوسف لما كان معصوماً عن أن ينطق عن الهوى ورأى أنه لا يصلح لقيادة مصر في سنين المجاعة الا هو لا جرم زكى نفسه بالصفات التي تخوله لتولي المسئولية ورعاية مصالح الأمة ،

ومما يدل على جواز تزكية النفس وبيان فضلها وعلمها لمصلحة يراها القائل أو توصلاً للقيام بواجب أو من باب التحدث بنعمة الله ،

(١) النكت والعيون ج ٢ / ٢٨١ سورة يوسف .

(٢) تفسير الرازي ج ١٣ / ١٦٥ سورة يوسف .

قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع . " (١)

فالرسول يتحدث بنعمة الله عليه من تفضيله وتكريمه مع أنه صلى الله عليه وسلم سيد المتواضعين وأبعد الناس عن الكبر والبغي .

وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : " والله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار . "

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : " لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الأبل لرحلت إليه . " (٢)

وقال أيضا فيما رواه عن البخاري (٣) : " والله الذي لا اله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت . "

فهذه الأشياء خرجت مخرج الشكر لله والتحدث بنعمة وتعريف المستفيد ما عند المفيد رعاية للمصلحة (٤) .

ونهي الرسول عن طلب الإمارة إنما هو في حق من لا يصلح لها وليس بكفه وكذلك في حق من لا يتعين عليه تولي المسؤولية لكونه أصلح من يقوم بها ، أما من يتعين عليه ذلك فطلبه لتولي المسؤولية إنما هو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما حصل مع نبي الله يوسف عليه السلام ،

كما أن الاسلام قد نهى عن طلب الامارة والحرص عليها عموما لأنها مسؤولية عظيمة يترتب عليها واجبات وحقوق لا يقوم بها غير الأكفاء الأتقياء ، وكذلك لما في الناس من حب السلطة والحرص عليها فلذلك نهى الاسلام عن ذلك حتى لا تقوم المقاتلة والمنافسة عليها لما في ذلك من الفتنة ولهذا قال عليه السلام " إنا والله لا نُؤلِّي هذا العمل أحدا سألناه ولا أحدا حَرَصَ عليه . " (٥)

(١) أخرجه مسلم في الغزائل / شرح النووي ٣٦/١٥ ، وأبو داود ج ٢ / ٤٦٧ ، وأحمد ٤٠/٢ عن أبي هريرة .

(٢) أخرج ذلك ابن أبي داود في المصاحف / ص : ٣١ .

(٣) البخاري في صحيحه / كتاب فضل القرآن / باب القراء من أصحاب النبي (ص) .

(٤) زاد المسير ج ٤ / ٢٤٤ .

(٥) صحيح مسلم / كتاب الامارة عن أبي موسى الأشعري (شرح النووي ٢٠٧/١٢) والبخاري :

كتاب الاحكام باب رقم ٧ / ما يُكره من الحرص على الامارة ج ٨ / ١٠٦ .

١٢ - قوله تعالى في حق أيوب عليه السلام :
(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) - ص / ٤٤ -
وصفه هنا بالصبر ، وقال في آية أخرى حكاية عنه :
(... أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانَ بِنَصَبٍ وَعَذَابٍ) - ص / ٤١ -
وفي آية أخرى : (... أَنِّي مَسْنِي الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)
- الأنبياء / ٨٣ -
فهاتان الآيتان قد يُتوهم من ظاهرهما أنّ أيوب عليه السلام لم يصبر
بل لجأ الى الدعاء لكشف البلاء ، مما ينافي مفهوم الآية الأولى
والتي تصفه بالصبر .

والجواب : ان الشكوى الى الله تعالى لاتنافي الصبر ، ولا تُسمى
جزءا لما فيها من الجهاد والخضوع والعبودية لله تعالى والافتقار اليه
ويؤيده قول يعقوب عليه السلام : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)
- يوسف / ٨٦ -

مع قوله : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) - يوسف / ١٨ -
وقولهم الصبر ترك الشكوى : أى الى العباد (١) ،

قال العلامة ابن القيم (٢) - رحمه الله - " فالشكوى اليه سبحانه
لاتنافي الصبر الجميل بل إغراض عبده عن الشكوى الى غيره جملة وجعل
الشكوى اليه وحده تعالى هو الصبر ، والله تعالى يبتلي عبده ليسمع
شكواه وتضرعه ودعاءه ، وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم
يشتكي له وقت البلاء ، كما قال تعالى : (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ
فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) - المؤمنون / ٧٦ - ،
والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه ، والرب تعالى لم يُرد من عبده
أن يتجلد عليه ، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع اليه وهو تعالى
يمقت من يشكوه الى خلقه ، ويحب من يشكو مابه اليه ،
وقد شك يعقوب عليه السلام الى ربه تعالى بقوله : (إِنَّمَا أَشْكُو
بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) - يوسف / ٨٦ -

(١) فتح الرحمن : ٤٨٩ ، تفسير ابن كثير ج ٥ / ٣٥٢ الانبياء / ٨٣

(٢) عدة الصابرين : ٢٦

وكذلك موسى عليه السلام بقوله : (رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير .) - القصص / ٢٤ - ١٠ هـ .

وهدي الانبياء عليهم السلام أكمل من هدى غيرهم وأفضل ، فهذا نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - عندما توفي ولده ابراهيم اتسع قلبه للرضا عن الله ، ورحمة الولد والرقعة عليه ، فحمد الله ورضي عنه في قضائه ، وبكى رحمة ورقة ،

وكذلك قصة نبي الله يعقوب - عليه السلام - ان حكى الله تعالى عنه أنه ابيضت عيناه من الحزن على ولده يوسف رحمة عليه ورقعة مع قوله تعالى عنه : (فصبر جميل) - يوسف / ١٨ - . وقوله : (انما أشكو بثي وحزني الى الله) يوسف / ٨٦ . فهذا هو كمال الرضا والتفويض (١) .

وقد سُئل النبي - صلى الله عليه وسلم - أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الامثل فالأمثل (٢) .

وقول أيوب عليه السلام في الآية : (أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) أي تعب وألم ومرض وما كان يقاسيه من الشدائد ، وهو المراد بالضرر في قوله : (أني مسني الضر ...)

والاسناد الى الشيطان تواضعا ومراعاة للادب ، والأفعال كلها خيرها وشرها في إيمانها وكفرها ، طاعتها وعصيانها خالقها هو الله لا شريك له في خلقه ولكن الشر لا يُنسب إليه ذكرنا وإن كان موجودا منه خلقا أدبا أدبنا به سبحانه ومنه قول ابراهيم عليه السلام : (وإذا مرضت فهو يشفين) - الشعراء / ٨٠ -

وقول الفتى لموسى عليه السلام . (وما أنسانيه الا الشيطان ..) - الكهف / ٦٣ -

وكان من جملة دعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - وذكره لربه قوله :

(١) تسلية اهل المصائب : ١٤٨ ، محمد المنجي الحنبلي ت : ٢٨٥ .

(٢) رواه الترمذى : في الزهد رقم ٢٣٩٨ ، ج ٤ / ٦٠٢ وقال : حديث حسن

صحيح وابن ماجه في الفتن رقم ٤٠٢٤ ج ٢ / ١٣٣٤ .

واحمد في مسنده ج ١ / ١٧٢ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك ...) (١) .
وفي ذلك ارشاد الى استعمال الأدب في الثناء على الله ومدحه وان كان
كل الأشياء بقضاء الله وقدره .
وقيل انه ذكر الشيطان لأنه وسوس الى اتباعه حتى رفضوه وأخرجوه
من ديارهم (٢) ،

قال العلامة أبو السعود (٣) - رحمه الله - : (إنا وجدناه
صابرا) - فيما أصابه في النفس والأهل والمال ، وليس في شكواه
الى الله تعالى إخلال بذلك - أي بالصبر الجميل - فانه لا يُسَمَّى
جزعا ، كتمني العافية وطلب الشفاء ، على أنه قال ذلك خيفة الفتنة
في الدين حيث كان الشيطان وسوس الى قومه بأنه لو كان نبيا لما
ابتلي بمثل ما ابتلي به ، وإرادة القوة على الطاعة " ١٠ هـ

قلت : والذي يتحصل أن وصف ايوب عليه السلام بالعبد الصابر
لا يُنافيه كونه تضرع الى الله تعالى لكشف البلاء ، ذلك أن الدعاء
وطلب العافية لا ينافي الصبر بل هو العبودية والخضوع لله ، وانما
الذي يُذَمُّ هو الشكوى لغير الله على سبيل الجزع والسخط .
والله ولي التوفيق .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب المسافرين ، باب صلاة النبي
- صلى الله عليه وسلم - ودعائه في الليل (شرح النووي ٦ / ٥٧)
والترمذي رقم : ٣٤١٧ في الدعوات ، كتاب ما جاء في الدعاء عند
افتتاح الصلاة بالليل ج ٥ / ٢٥٧ .

(٢) تفسير الرازي ٢٦ / ٢١٢ ، تفسير أبي السعود ٧ / ٢٢٩ .
القرطبي ١٥ / ٢١٠ .

(٣) في تفسيره ج ٧ / ٢٢٩ وأنظر تفسير الرازي ٢٦ / ٢١٣ .

١٣ - قوله تعالى في حق يونس عليه السلام : -

(فنبذناه بالعراء وهو سقيم) الصافات / ١٤٥

هذه الآية تدل على نبذ يونس عليه السلام بالعراء بعد أن قذفه الحوت الى الشاطئ كما قال تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون) - الصافات / ١٤٤ -
وقد جاءت آية أخرى قد يُتوهم منها خلاف ذلك ،
وهي قوله تعالى : (لولا أن تداركه نعماً من ربه لنُبذ بالعراء وهو مذموم) القلم / ٤٩

والجواب عن ذلك : أن تقدير الآية كما قال المفسرون^(١) : لولا هذه النعمة لنُبذ بالعراء مع وصف المذمومية ، فلما حطت هذه النعمة لا جرم لم يوجد النبذ بالعراء مع هذا الوصف ، فأخبر الله تعالى أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم لأنه نبي مكرم تداركته رحمة الله ، وعلى هذا فإن جواب لولا معتمد على قوله (وهو مذموم) لأن المقصود امتناع نبذه مذموماً .

قال الشيخ الشنقيطي^(٢) - رحمه الله - : " والجواب أن الامتناع المدلول عليه بحرف الامتناع الذي هو (لولا) منصب على الجملة الحالية لا على جواب لولا ، وتقرير المعنى : لولا أن تداركه نعمة من ربه لنُبذ بالعراء في حال كونه مذموماً ، لكنه تداركته نعمة ربه فنبذ بالعراء غير مذموم ، فهذه الحال عُمدة لا فضلة ، أو أن المراد بالفضلة ما ليس ركناً في الاسناد وإن توقفت صحة المعنى عليه ونظيرها قوله تعالى : - (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) الدخان / ٣٨ -

وقوله : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) لأن النفي فيهما منصب على الحال لا على ما قبلهما " ٥١ هـ
قلت : والذي يتحصل أن آية القلم لم تنف أن يونس عليه السلام قد نبذ بالعراء ، بل نفت أنه نبذ بالعراء في حالة كونه مذموماً كما تقدم ، وعلى هذا فليس هناك مجال لتوهم وجود تنافي مع آية الصافات التي أثبتت كونه قد نبذ بالعراء .. والله ولي التوفيق ..

(١) زاد المسير ٣٤٢/٨ ، الكشاف للزمخشري ١٤٨/٤ ، البحر المحيط لأبي

حيان ٣١٧/٨ ، تفسير الرازي ٩٨/٣٠ ، القرطبي ١٢٩/١٥ ، ٢٥٤ / ١٨ ،

روح المعاني ٤٦ / ٢٩ .

(٢) أضواء البيان ج ١٠ / ٢٥٠ .

١٤ - قوله تعالى بشأن آية موسى الأخرى وذلك في سورة طه :

(واضمُّ يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى .)

- الآية / ٢٢ -

والمراد بالجناح : الجنب الذي تحت العضد ، يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر ، استعارة من جناحي الطائر^(١) ، والمعنى : اجعل كفك تحت عضدك تخرج بيضاء من غير برص ولا أذى لأنها مصباح كآية من آيات الله الكبرى^(٢) .

وقال في آية أخرى من سورة القصص حكاية عن نفس الموقوف :
(أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضم اليك جناحك من الريب فذائك برهانا من ربك) الآية / ٢٢ -

والجيب هو طوق المدرعة من الجهة التي يدخل منها الرأس، فيصبح معنى الآية : أدخل يدك اليمنى من طوق مدرعتك ، وليس بين الآيتين تنافي أو اختلاف لأن المعنى الكلي للآيتين هو : ادخل يدك اليمنى من طوق مدرعتك واجعلها تحت جناحك وهو الابط الأيسر تحت العضد فحكى الله في كل آية بعض المراد .

وأما قوله : (واضم اليك جناحك من الريب) فهو أمر آخر من الله سبحانه لموسى عليه السلام بعد أن ضم يده الى جنبه فخرجت بيضاء من غير سوء كما أخبر الله تعالى فهو أمر له باخفاء الريب والفزع الحاصل له من الآية أو من أي شيء آخر يعترضه بأن يضم اليه جناحه وهي يده .

قال مجاهد وابن زيد^(٣) : " أمره سبحانه بضم عضده وذراعه وهو الجناح ليخف بذلك فزعه ومن شأن الانسان اذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يقوى قلبه . "

وقال الثوري : " خاف موسى عليه السلام أن يكون حدث به سوء فأمره سبحانه أن يُعيد يده الى جنبه لتعود الى حالتها الأولى فيعلم أن ذلك لم يكن سوءاً بل آية من الله عز وجل . "

(١) أنوار التنزيل / ٤١٥ ، روح المعاني ١٦ / ١٧٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٣٤ / ٣ سورة طه .

(٣) روح المعاني ٢٠ / ٧٥ تفسير ابن كثير ٢ / ٦٢٠ .

قال ابن كثير^(١) تعقبا على ذلك : " والظاهر أن المراد أم من هذا ، وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهي يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . " ٥٠١ هـ

وهناك معنى ثانيا ذكره صاحب الكشاف^(٢) : وهو أن يراد بضم جناحه اليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وارخاهما ، وإلا فجناحاه مضمومان اليه مشمران ،

قلت : وبالرغم من وجاهة هذا القول إلا أن ماتقدمه أرجح حسب ظاهر الآيات ،

والحاصل أن موسى عليه السلام أمر في المرة الأولى بأن يضم يده اليمنى إلى جنبه الأيسر تحت الابط حتى تخرج بيضاء من غير سوء كآية أخرى من آيات الله ، ثم أمره الله سبحانه أمرا ثانيًا بأن يضم يده اليمنى هذه تحت جناحه الأيسر مرة أخرى لحكمة أخرى وهي أنه لما حصل لموسى بعض الخوف من رؤية الآيات المتقدمة علمه الله سبحانه مافيه إزالة الرهب من كل ما يُخيفه ، وقد أطلق سبحانه في المرة الأولى لفظ الجناح على اليد اليسرى ، وفي المرة الثانية أطلقه على اليد اليمنى بقوله : (واضم اليك جناحك ٥٥) وكلاهما جناحان المضموم والمضموم إليه فلا تنافي بين الآيات ،

وقوله تعالى في طه : (فأوجس في نفسه خيفة موسى ٥٥)

الآية ٦٧ / ٥٥

هو خوفه على الناس أن يُفْتَنُوا بسحر السحرة ويغْتَرُوا بهم قبل أن يُلقَى ما في يمينه ، فقد خاف عليه السلام من أن يعرض للناس ويختلج في خواطرهم شك وشبهة في معجزة العصا للذي رأوا من عصي السحرة ، ف قيل له : (لا تخف إنك أنت الأعلى) عليهم بالظفر والغلبة^(٣) .

(١) المصدر السابق ٦٢٠ / ٣

(٢) الكشاف للزمخشري ١٧٥ / ٣ وانظر تفسير أبي السعود ١٢ / ٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٥٣ / ٣ سورة طه ٦٧ /

روح المعاني ٢٢٨ / ١٦ ، زاد المسير ٣٠٦ / ٥

تفسير الرازي ٢٢ / ٨٤ .

١٥ - قوله تعالى : بشأن بني اسرائيل :

(ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين)
- القصص / ٣ - ٥ -

هذا النص من كتاب الله يفيد أنّ إفساد فرعون وتقتيله لبني اسرائيل حصل قبل ولادة موسى لقوله بعد ذلك :
(وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه)

وهناك نص آخر من كتاب الله يفيد أنّ إفساد فرعون وتقتيله كان بعد بعثة موسى عليه السلام : وهو قوله تعالى في الاعراف :-
(وقال الملاء من قوم فرعون أئذّر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ؟ قال : سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون)
الآية / ١٢٧

وليس بين هذين النصين اختلاف أو تضاد لأن إفساد فرعون وتقتيله لبني اسرائيل حصل مرتين^(١) : مرة قبل ولادة موسى إهانة لبني اسرائيل وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه ، قال ابن كثير^(٢) : " وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني اسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول ابراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ماجرى ، فبشّر ابراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك مصر على يديه ، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني اسرائيل ولن ينفذ حذر من قدر لأن أجل الله اذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب " ٥٠١ .

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٢ / ٢٨١ ، تفسير الزمخشري ١٠٥ / ٢

انوار التنزيل للبيضاوي / ٥١١ ، روح المعاني ٤٤ / ٢٠ .

وليس مرة واحدة كما ادعى محمد خلف الله في كتابه الفن القصصى وأوهم أنه من الاختلاف ، انظر سيكولوجية القصة للتهامي في نقرة ص / ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٣ / ٦٠٧ .

ولهذا قال الله تعالى بعد ذلك :- (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ٦ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ... " الآيات .

فقد أراد الله أن يمنَّ على هؤلاء المستضعفين بأن ينقذهم على يد هذا المولود الذي أوحى إلى أمّه أن ترضعه ولا تخاف عليه لأن الله سوف يربيه عند عدوه بقدرته ونعمته وسوف يرده لأمه ويجعله من المرسلين ويكون هلاك فرعون على يده ٦

وبعد بعثة موسى عليه السلام استشاط غضب فرعون من هذا الذي يدعو إلى التوحيد ، واستجاب لبطانة السوء الذين قالوا له : " أئذّر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذكرك وآلهتك ٦

قال سنُقتلُ أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون " .

فظاهر الآيات ينص على أن هذا الأفسار حصل بعد بعثة موسى ٦

قال ابن كثير - رحمه الله - (١) : " وهذا أمر ثانى بهذا الصنيع وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذرا من وجوده فكان خلاف مارامه وضد ماقصده فرعون وهكذا عومل في صنيعة أيضا لما أراد اذلال بني اسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد أعزّم الله وأذلّه وأرغم أنفه وأغرق جنوده " .

والحاصل أن إفساد فرعون وتقتيله لأبناء اسرائيل حصل مرتين : قبل ميلاد موسى بدافع الخوف من تحقيق الرؤيا التي عبرها له الكهنة ، ثم تجدد ذلك بعد بعثة موسى بدافع الانتقام وإدخال الهلع في نفوس المؤمنين (٢) .

وأنه على قهره وغلبته وحتى لايتوهم أحد أن موسى هو المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكه على يده (٣) ،

" قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ٦

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٢ / ٣٨١ .

(٢) انظر سيكولوجية القصة في القرآن / ١٥٣ .

(٣) انوار التنزيل / ٢١٨ .

تفسير الزمخشري ١٠٥/٢ ، تفسير ابن حيان " البحر المحيط " ج ٤ / ٣٦٧ .

قالوا أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم
أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون . " الاعراف ١٢٨/١٢٩ .

وقوله تعالى هنا حكاية عن بنى اسرائيل : " أودينا من قبل أن
تأتينا ومن بعد ما جئتنا " صريح في أن العذاب قد وقع مرتين على بنى
اسرائيل كما تقدم فليس هناك اختلاف والحمد لله بين نصوص القصص كما
أوهمه البعض ممن لم يتدبر القرآن ولم يذق حلاوة الايمان، والله
ولي التوفيق .

١٦ - قوله تعالى : فى سورة النمل بشأنه آية موسى الكبرى :
(وألقِ عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولّى مُدبراً ولم يُعقب يا موسى
لا تخف إني لأخاف لديّ المرسلون) الآية / ١٠ ،

وقال تعالى فى سورة طه :
(قال ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا هى حية تسعى ، قال خذها ولا تخف
سنعيدها سيرتها الأولى) ١٩- ٢١ ،

وقال تعالى فى سورة الأعراف :- حكاية عن حوار موسى وفرعون
(قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه
فإذا هى ثعبان مبين) الآية ١٠٦- ١٠٧ .

وقال فى الشعراء حكاية عن نفس الموقف :-
(قال فأت به إن كنت من الصادقين ،
فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . " الآية ٣١ - ٣٢ .
ذكر مرة أنها انقلبت تهتز كأنها جان ، وهى الحية الخفيفة السريعة
ولذلك قال تهتز أى تضطرب وتتحرك بسرعة (١) .
وفى الحديث " نهى عن قتل جنان البيوت " (٢) .

ونذكر فى سورة طه : أنها انقلبت حية تسمى
وليس هناك اختلاف لأن الحية كانت مع عظمها وقوتها سريعة الحركة كأسرع
الحيات وهى الجان ،
قال الألوسي (٣) : " فلما رآها تهتز " فصيحة مُفصحة عن جمل حذفت أى فألقاها
فصارت حية فاهتزت فلما رآها تهتز وتتحرك " كأنها جان " وهى كحلاء
العين لا تؤذى ... والتشبيه بها باعتبار سرعة حركتها وخفتها لاقى هيئتها
وجنتها " ٥٠١ .

وليس يجب إذا شبهها بالجان أن يكون لها جميع صفاته لأن التشبيه
يقع فى صفة دون صفة ومن وجه دون وجه (٤)

(١) تفسير ابن كثير ٥٧١/٣ ، انوار التنزيل للبيضاوى / ٥٠٠

روح المعانى ٢٠ / ٧٤ .

(٢) البخارى / بدء الخلق / باب ١٥ / خير مال المسلم غنم ٠٠ ج ٩٩/٤

ومسلم / كتاب قتل الحيات (شرح النووى على مسلم ج ٢٣٣/١٤)

(٣) روح المعانى ٢٠ / ٧٤ .

(٤) انظر : أمالى المرتضى ج ١ / ٢٦ .

أما وصف انقلاب العصا الى ثعبان : وهى الحية العظيمة (وعن الفراء أنه الذكر العظيم من الحيات^(١)) فلم يحصل الا فى حوار موسى مع فرعون والسحرة وذلك فى سورتي الأعراف والشعراء .

فإذاً انقلاب العصا كان مرتين ، مرة وموسى فى الطور بعد أن كلمه الله تعالى وقال له : (وماتلك بيمينك يا موسى ، قال هى عصاى ..)

فأراد الله سبحانه أن يريه آياته وعظيم قدرته ثم يرسله بهذه الآيات الى فرعون مما قصه الله علينا فانقلبت العصا الى حية تسعى والسعى هو المشى بسرعة وخفة ، ففيها من سرعة الحركة ما توصف بأنها كانت تهتز كأنها جان وان كانت كبيرة وضمة ،

والانقلاب الثانى - وهو بحضرة فرعون - عندما طلب منه فرعون آية تدل على صدقه : " فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين " وهو الذكر الضخم من الحيات كما تقدم ،

كذلك فان الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى فلذلك فإن وصفها بالثعبان المبين لا ينافى كونها حية أيضا .

وهناك جواب ثانى بالنسبة لتفسير الجان ذكره الشريف المرتضى^(٢) حيث قال : " والجواب الثانى أنه تعالى لم يُردِ بذكر الجان فى الآية الأخرى الحية وإنما أراد أحد الجن ، فكأنه تعالى خبر بأن العصا صارت ثعبانا فى الخلقة وعظم الجسم ، وكانت مع ذلك كأحد الجن فى هول المنظر وافزاعها لمن شاهدها ولهذا قال تعالى :
(فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب) ١٠ هـ .

(١) القرطبي ٢٥٦/٧ ، ١٦٠/١٣ ، روح المعانى ٢٠/٩ .

معانى القرآن للشراء ج ١ / ١٠٠ سورة الأعراف / ١٠٦ .

(٢) أمالى المرتضى ج ١ / ٢٦ .

١٧ - قوله تعالى :- فى سورة الأعراف .
(ودمّرنا ماكان يصنع فرعونُ وقومُه وماكانوا يعرشون) الآية / ١٣٧ .

مع قوله تعالى : فى الشعراء : فى حق آل فرعون :
(فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى اسرائيل)
الآية ٥٨ - ٥٩ .

قد يُتوهم من ظاهر الآيتين التعارض حيث إن الجنات والعيون والمقام
الكريم وغير ذلك مما كان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون^(١) وهو مما
نصت الآية الأولى على تدميره ونصت الآية الثانية على أنهم أخرجوا
منه وتركوه وأورثه الله بنى اسرائيل ، وعن ذلك جوابان :

الأول :- أن معنى " دمرنا " : أبطلنا ماكان يصنع فرعون وقومه من المكر
والكيد بموسى عليه السلام وقومه ،

وماكانوا يعرشون :- يبنون من الصرح الذى أمر فرعون هامان ببنائه ليصعد
بواسطته الى السماء وهذا جواب زكريا الأثمارى فى فتح الرحمن^(٢) ،

وعلى ذلك فلا إشكال ان الجنات والعيون والكنوز والمقام الكبير
لم تدمر ، وانما الذى دمر مكائد فرعون وصرحه الذى بناه تجبرا ،

الجواب الثانى :- أن المدمر : هو القصور والعمارات وماكان من قبيل
البناء وأورث الله بنى اسرائيل أماكنهم وجناتهم وأنهارهم وكنوزهم وغير
ذلك فقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى :-
(وماكانوا يعرشون ") قال : يبنون .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وعبد بن حميد وغيرهم عن مجاهد فى
قوله تعالى : (وماكانوا يعرشون) قال : يبنون : البيوت والمساكن
مابلغت وكان عندهم غير معروش^(٣) .

قال الواحدى : ان الله تعالى : رد بنى اسرائيل الى مصر بعد ما أغرق
فرعون وقومه فأعطاهم جميع ماكان لقوم فرعون من الأموال والعقار ،

(١) راجع لمعرفة معنى يعرشون : مفردات الراغب الأصفهاني / ٣٢٩ .

(٢) فتح الرحمن ٢٠٥ - ٢٠٦

وتفسير وماكانوا يعرشون : يبنون ، هو قول أبى عبيدة أنظر المفردات ٣٢٩ .

(٣) الدر المنثور للسيوطى ج ٣ / ٥٣٢ .

وروي عن الحسن أنه قال : كما عبروا البحر رجعوا وورثوا
ديارهم وأموالهم ،
وقيل انه رجع بعضهم بعد إغراق فرعون وهم الذين أورثوا أموال القبط
وذهب الباقيون مع موسى عليه السلام الى أرض الشام وقيل : إنهم بعد أن
جازوا البحر ذهبوا الى الشام ولم يدخلوا مصر في حياة موسى عليه
السلام وملكوها زمن سليمان عليه السلام^(١) ،

وفي قوله تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق
الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ...)

ما يدل على ان بنى اسرائيل رجعوا الى مصر إما كلهم أو بعضهم
فهم قد أورثوا مصر والشام أي مشارق الأرض ومغاربها^(٢) .

وعلى القول بأن بنى اسرائيل لم يعودوا الى مصر بعد خروجهم
الى الأرض المقدسة فهم قد ورثوا مثل ما كان لفرعون وملأته ، فهي وراثته لنوع
ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم^(٣) .

(١) روح المعاني ٨٣/١٩ - ٨٤ .

زاد المسير لابن الجوزي ج ٦ / ١٢٦ .

(٢) انظر تفسير أبو السعود ٢٦٦/٣ ، الكشاف ١٠٩/٤ .

(٣) في ظلال القرآن / ج ٣ / ٢٥٩٨ .

١٨ - قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام بعد أن صمق وأفأق :
(فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال
سبحانك تبتُّ إليك وأنا أول المؤمنين) الاعراف / ١٤٣ .

وقال تعالى حكاية عن السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام لما
رأوا الآيات : (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول
المؤمنين) الشعراء / ٥١ .

وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم :-
(قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له
وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) الانعام / ١٦٣ .

فهذه الآيات يدل بعضها أن أول المؤمنين هو موسى عليه السلام
وبعضها يدل أن سحرة فرعون هم أول المؤمنين
والآية الثالثة تدل أن النبي محمد هو أول المسلمين .
مع أن الآية الأولى تثبت أن أول المؤمنين هو موسى . إضافة الى أن كل
نبي ومن آمن معه يعتبرون مسلمين كما قال تعالى :-
(ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً)
آل فرعون / ٦٧

وقال : (وإن أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا
آمنّا واشهد بأننا مسلمون) المائدة / ١١١ .
وقال حكاية عن سليمان عليه السلام : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا
مسلمين) النمل / ٤٢ .

وهذه الآيات ليس بينها تنافى أو اختلاف وإنما هي متفقة المعاني ،
فقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : (وأنا أول المؤمنين)
ليس المراد به أول المؤمنين إطلاقاً إذ من المعلوم أنه قد سبقه
أنبياء مؤمنون ولكن السياق يحدد المعنى : فالمراد أنا أول المصدقين
بأنه لا يراك أحد في الدنيا ، وذلك أنه حين قال لربه :
(أرني انظر اليك ، قال لن تراني) يعني في الدنيا فأمره الله سبحانه
أن ينظر إلى الجبل (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى
صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبتُّ إليك وأنا أول المؤمنين) (١) ،

(١) الرد على الزنادقة للامام أحمد / ١٤
التنبيه والرد لأبي الحسين الملقب بـ : ٦١ تفسير البيضاوي ٢٢١ ،
روح المعاني ج ١ / ٤٦ .

أى أول المصدقين بأنك لا ترى في الدنيا فأراد عليه السلام أن يعبر عن مجرد التصديق بهذا الذى غاب عنه جواز تعجيله مع علمه بجوازه على الجملة (١) .

وأما قول السحرة : (أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) يعنى أول المصدقين من أهل مصر من القبط بموسى عليه السلام وذلك لما رأوا آيات موسى في تلك الحال وفي ذلك المشهد ،
قال الألوسي (٢) : " أول المؤمنين من اتباع فرعون أو أول المؤمنين من أهل زمانهم ، ولعل الإخبار بكونهم كذلك لعدم علمهم بمؤ من سبقهم بالايمان فهو اخبار مبني على غالب الظن ولا محذور فيه " ،
وقيل : أرادوا أول من أظهر الايمان بالله تعالى وبرسوله عند فرعون كفاحا بعد الدعوة وظهور الآية ، فلا يرد مؤ من آل فرعون وآمية ، وكذا لا يرد بنو اسرائيل لأنهم - كما في البحر - كانوا مؤمنين قبلهم اما لعدم علم السحرة بذلك أو لأن كلا من المذكورين لم يظهر الايمان بالله تعالى وبرسوله عند فرعون كفاحا بعد الدعوة وظهور الآية . " ١٠٠ هـ

وأما قوله تعالى بحق الرسول - صلى الله عليه وسلم - :
(وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) - فالمراد به أول المسلمين من أمته وذلك لأن اسلام (٣) كل نبي متقدم على اسلام أمته (٤) ،
فابراهيم عليه السلام هو أول مسلمي أمته ، وكذلك موسى وعيسى عليهم السلام وأتباعهم كما قال تعالى حكاية عن الحواريين :
(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .) المائدة / ١١١

(١) ملاك التأويل / للغناطي ج ١ / ٣٥٧ .

(٢) روح المعاني ١٩ / ٨٠ .

(٣) وليس المقصد أنه أسلم بعد أن كان كافرا وإنما المراد أنه أول من أظهر دين الله وأول من طبقه على نفسه .

(٤) انظر : الرد على الزنادقة / ١٤ . ، تفسير البيضاوى / ١٩٨

روح المعاني ٨ / ٧١ .

فكل نبي يؤمر بأن يكون أول من أسلم من أمته وذلك لأنه قدوتهم
في الاعتقاد والعمل كما قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم
(قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعم
قل إني أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ •)
- الأنعام / ١٤ -

فعبارة عليه السلام منبئة عن الكمال في مسمى الايمان والاسلام
على الحال التي درج عليها الْمُصْطَفَوْنَ الْأَخْيَارُ (١) •

١٩ - قوله تعالى :- حكاية عن سليمان عليه السلام
(وقال يا أيها الناس عُلِّمْنَا منطق الطير وأوتينا من كل شيء)

النمل / ١٦٠

ثم قال تعالى في نفس السورة حكاية عن الهدد بشأن بلقيس ملكة سبأ
(إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ٥٠)

النمل / ٢٢٠

فأخبر في كلا الآيتين أن سليمان أوتي من كل شيء وكذلك بلقيس فقد يُتوهم
أنه ساوى بينهما مع أن سليمان عليه السلام أوتي ملكا لا ينبغي لأحد غيره ،

والجواب عن ذلك : قال زكريا الأنصاري^(١) : " الفرق بينهما أنها
أوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا فقط لعطف ذلك على قوله : " تملكهم "
وسليمان أوتي من كل شيء من أسباب الدين والدنيا لعطف ذلك على المعجزة
وهي منطق الطير " ٥٠١ .

فقد أوتي نبي الله سليمان النبوة والملك وسخر له الجن والانس والشياطين
والريح والطير كما قال تعالى :- (ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالوا
الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود
وقال يا أيها الناس عُلِّمْنَا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْفَضْلُ الْمُبِينُ ، وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)
النمل / ١٥ - ١٧ .

وقال : (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين
كلَّ بناءٍ وغمّاص ، وآخريّن مقرّنين في الأصْفَادِ ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِكْ
بغير حساب) ص / ٣٦ - ٣٩ .

فما يهمه عليه السلام من أمر الدنيا والآخرة قد أوتيّه ، أما بلقيس
فقد كانت كافرة ، وسياق الآية يوضح لنا أنها أوتيت من كل شيء يحتاجه
الملوك لقوله تعالى : (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) النمل / ٢٣ ،

فهي قد أوتيت من كل شيء يحتاجه الملوك بقريّة قوله : " تملكهم " (٢) .

(١) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن / ٤٢١ .

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ١٦٠/٦ .

ولم تؤت من الملك مثل ما أوتي سليمان عليه السلام لقوله تعالى
عنه (قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت
الوهاب) ص / ٣٥ .

وقد يقال ليس الغرض إلا إفادة كثرة ما أوتيت^(١)،
أو أنها أوتيت من كل شيء في أرضها وهي مملكة سبأ^(٢)
قال الفخر الرازي^(٣) :- (أما قوله : " وأوتينا من كل شيء ")
فالمراد كثرة ما أوتي لأن الكل والبعض الكثير يشتركان في صفة الكثرة
والمشاركة سبب لجواز الاستعارة فلا جرم يُطلق لفظ الكل على الكثير ومثله
قوله : (وأوتيت من كل شيء) ١٠ هـ .

قلت : وعلى هذا الوجه فإن المراد باليتين بيان كثرة ما أوتي
سليمان وكثرة ما أوتيت بلقيس ،

والكثرة أمر نسبي فهناك أمور أوتيها سليمان كالمعجزات وتسخير
الانس والجن والريح ونحو ذلك ولم تؤت بها بلقيس .

والله الموفق

(١) روح المعاني ١٩٠/١٩ .

(٢) النكت والعيون للماوردي ١٩٤/٣ .

(٣) تفسير الرازي ١٨٦/٢٤ .

٢٠ - قوله تعالى فى سورة مريم حكاية عن مقالة بنى اسرائيل للسيدة مريم البتول عليها السلام :-

(يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) الآية/٢٨ .

ومن المعلوم أن أخا موسى اسمه هرون-عليهما السلام- حيث قال الله تعالى فى الاعراف :-

(وقال موسى لأخيه هرون ، اخلفني فى قومي ...) الآية / ١٤٢ .

وقال أيضا فى طه : (واجعل لى وزيرا من أهل هرون أخى) الآية/٣٠ .

وقد كان بين موسى وهارون عليهما السلام وبين مريم البتول التى هى أم عيسى عليهما السلام ما يقرب من ألف سنة فكيف يُقال لمريم :
" يا أخت هارون " .

والجواب هو ما رواه أحمد (١) ومسلم (٢) عن المغيرة بن شعبة ، رضى الله عنه قال : " لما قدمت نجران سألتونى فقالوا إنكم تقرأون :
" يا أخت هرون " وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قدمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألته عن ذلك فقال : إنهم كانوا يُسمون بأنبيائهم والمالحين قبلهم " هـ .

وهذا يعنى أن مريم - عليها السلام - كان لها أخ اسمه هارون (٣) لأن بنى اسرائيل كانوا يُسمون أولادهم بأسماء الأنبياء والصالحين ولا شك أن هارون أخا موسى كان نبيا من الانبياء .

هذا وقد سمى النبى - صلى الله عليه وسلم - ابنه ابراهيم ، ونسب الى التسمية بأسماء الأنبياء والصالحين ،
فقد روى ابو داود (٤) والنسائى (٥) عن أبى وهب رضى الله عنه - مرفوعا -
" تسموا بأسماء الانبياء ، وأحبُّ الاسماء الى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن ... " .

(١) المسند ٢٥٢/٤ .

(٢) كتاب الآداب ، باب بيان ما يستحب من الأسماء (شرح النووى ١١٧/١٤)

والفظ لمسلم .

(٣) قال الزمخشري (٥٠٨/٢) : " كان اخاها من أبيها من امثل بنى اسرائيل "

وانظر تفسير أبى حيان ج ١٨٦/٦ .

(٤) رقم ٤٩٥٠ فى الأدب باب تغيير الأسماء ،

(٥) ٢١٨/٦ فى كتاب الخيل / ما يستحب من شية الخيل .

فتشابه الاسم أو اللقب لا يدل على أن المُسمّى واحد كما توهم أهل نجران (١).

وهناك وجه آخر لقولهم : " يا أخت هرون " .
وهو أن هارون كان اسم رجل صالح في بني اسرائيل فشبهوها به في
الصالح ، والاخت على هذا بمعنى المشابهة قالوه تهكما أو لما رأوا قبل
من صلاحها تقريبا ، وتأنيبا ، وهو مروى عن قتادة وسعيد ابن جبير (٢).

والوجه الثالث الذى ذكره بعض المفسرين : أن المراد هارون أخو
موسى عليهما السلام وكانت هى من أعقابيه ومن نسله
فقليل هارون كما يقال هاشم وتميم ، والمراد بالأخت أنها واحدة منهم
كما يقال يا أخا العرب وللرجل من قريش يا أخا قريش وللرجل من مُضر
يا أخا مُضر وهذا قول على بن أبى طلحة والسدى (٣)

قلت : والجواب الأخير وإن كان صحيحا على العموم إلا أن ورود الحديث
الصحيح الذى تقدم بأنهم كانوا يتسمون بأسماء الانبياء يدل أن هارون
كان أخا لها ، أو من قومها وكان صالحا قالوه على وجه التهكم بها
أو التقرّيع .

والله أعلم .

(١) ابن كثير ١٩٣/٣ ، تنزيه القرآن ٢٤٧/٢ ، زاد المسير ٢٢٧/٥ روح المعاني ٨٨/١٦ .

(٢) روح المعاني ٨٨/١٦ النكت والعيون ٥٢٤/٢ ابن كثير ١٩٢/٣ الزمخشري

٥٠٨/٢ فى ظلال القرآن ٢٣٠٧/٤ .

(٣) روح المعاني ٨٨/١٦ النكت والعيون ٥٢٤/٢ ، زاد المسير ٢٢٧/٥ ابن

كثير ١٩٢/٣ ، الزمخشري ٥٠٨/٢ .

٢١ - قوله تعالى بشأن عيسى عليه السلام :
(اذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومُطهرك من الذين
كفروا ...) آل عمران / ٥٥ .

هذه الآية الكريمة قد يتوهم من ظاهرها وفاة عيسى عليه السلام ،
وقد جاءت آيات أخرى تدل على عدم وفاته ،

وهي قوله تعالى : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإنّ الذين اختلفوا
فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً
بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً ، وإنّ من أهل الكتاب إلّا
ليؤمننّ به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) النساء / ١٥٧-١٥٩ .

فقوله : (وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه) ردّ وإنكار لقتله ، وإثبات
لرفعه عليه الصلاة والسلام :

وهذا النص قطعي الدلالة في رفع المسيح عليه السلام حياً الى السماء
لايحتمل التأويل لأن كلمة " بل " بعد النفي يجب أن يكون ما بعدها اثباتاً
لنفي المنفي المتقدم ،

ولو حمل الرفع على رفع الروح فقط فهذا لايفاد القتل والمصائب
المنفيين قبل " بل " لامكان اجتماع القتل مع رفع الروح كما أنه يلغى
النفي السابق .

ولهذا فالآية صريحة في رفع عيسى عليه السلام حياً بروحه وجسده (١) .

ومعنى " قبل موته " : أى موت عيسى عليه السلام في آخر الزمان
على الصحيح من القولين (٢) كما هو مروى عن ابن عباس والحسن وقتادة وعبد
الرحمن بن زيد وأبى هريرة واختار ذلك ابن جرير (٣) واستظهره ابو حيان (٤)
وقال ابن كثير (٥) : " وهذا القول هو الحق " وأفاد : بأنه المقصود
من سياق الآتي في تقرير بطلان مادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم
من سلم لهم ذلك من النارى الجيلة ،

(١) انظر موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين للعلامة مصطفى
صبيح ج ٢٣٣/٤ فما بعدها ، وانظر تفسير أبى السعود ج ٢/٢٥٢ = أبى حيان (البحر
المحيط : ج ٢/٣٩١) .

(٢) القول الآخر ان المقصود بالضمير في قوله " قبل موته " أى قبل موت الكتابي وقد
رجّحه الزمخشري في تفسيره (ج ١/٥٨٠) وأبو السعود (ج ٢/٢٥٢) وهو قول غير معقول في
ذاته لكون إيمان أهل الكتاب جميعاً بعيسى قبل موتهم خلاف الواقع والقائلون به
يدّعون وقوع هذا الايمان عند موتهم لكن نص القرآن " قبل موته " لآحين موته (راجع
موقف العقل ٠٠ ج ٢٤٧/٤) .

(٣) تفسير ابن جرير ج ٢٨٦/٩ . (٤) البحر المحيط : ج ٢/٣٩٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ج ١/٨٧٧ سورة النساء آية ١٥٩ . وانظر: زاد المسير ج ٢/٢٤٧
سورة النساء ١٥٩ ، روح المعاني ج ٥/١٢ .

فالمراد تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته في السماء وأنه سينزل الى الأرض قبل يوم القيامة ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتصادمت وتناقضت ففُـرط هؤلاء اليهود ، وأُفـرط هؤلاء النصارى " ٥٠١ هـ

(٢) روى البخاري ومسلم (٣) وأحمد (٤) وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر المليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : واقرأوا ان شئتم : " وإن من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا " .

وهذا الحديث متواتر تواترا معنويا أن عيسى عليه السلام حي في السماء وأنه ينزل آخر الزمان وهذا اجماع من الأمة كما نص على ذلك العلماء (٥) .

وهو عند ما ينزل يحكم بشرع الاسلام كما روى البخاري (٦) عن أبي هريرة مرفوعا " كيف أنتم اذ انزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم " .

(١) ابن كثير ج ١ / ٨٧٧ ، النساء / ١٥٩ بتصرف قليل .

(٢) صحيح البخاري / كتاب الانبياء / باب نزول عيسى ج ٤ / ١٤٣ وفي كتاب ٣٤ / باب ١٠٢ ، ٣١ / ٤٦ ، ٢٤ / ٦٠ .

(٣) صحيح مسلم / كتاب الايمان / باب نزول عيسى (شرح النووي ج ٢ / ١٨٩) .

(٤) مسند أحمد ج ٢ / ٢٦٠ .

(٥) نص على ذلك ابن جرير في تفسيره ج ٢ / ٢٠٣ سورة آل عمران / ٥٥ ، وابن عطية في تفسيره ، انظر البحر المحيط لأبي حيان ٤٧٣ / ٢ ، وابن كثير في تفسيره ج ١ / ٨٧٨ سورة النساء / ١٥٩ ، وابن حجر في فتح الباري ج ٦ / ٤٩٣ ، والعلامة السفاريني في لوايح الأنوار ٩٤ / ٢ ، والشوكاني : في فتح القدير ج ١ / ٥٣٥ ، والكتاني في نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص ١٤٧ . هذا وقد ألف العلامة الشيخ محمد أنور شاه الكشميري (ت : ١٣٥٢ هـ) كتابا في ذلك سماه : التصريح بما تواتر في نزول المسيح ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة - فليراجع فانه نفيس .

(٦) صحيح البخاري / كتاب الانبياء / باب نزول عيسى ج ٤ / ١٤٣ .

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى : بشأن المسيح عليه السلام :

(وانه لعلم الساعة) - الزخرف / ٥٩ -

حيث أخرج الامام احمد (١) وابن حبان في صحيحه (٢) والحاكم في مستدركه (٣) وصحه عن ابن عباس مرفوعا : في قوله تعالى : (وانه لعلم الساعة) قال : نزول عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة .

قال ابن كثير (٤) : ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى (وانه لعلم الساعة) (٥) أى أمانة ودليل على وقوع الساعة ، قال مجاهد : " وانه لعلم الساعة " أى آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة .

إذا كان الأمر كذلك : فهذه الآيات التي تدل على بقاء عيسى عليه السلام حيا وأنه علم من أعلام الساعة وأن أهل الكتاب سوف يؤمنون به على أنه عبد الله ورسوله ويدخلون في شرع الاسلام وكذلك الأحاديث المتواترة والتي تدل على ذلك أيضا .

إذا كان الأمر كذلك فإن قوله تعالى : -

(إذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا ...) الآية .

يوهم ظاهره مخالفة بقاء عيسى حيا وأنه سوف ينزل قبل يوم القيامة حيث قال فيها : (إني متوفيك ورافعك الي) .

والوهم انما يأتي من لفظة (متوفيك) على أن التوفي بمعنى الأمانة وأنه قد حصل قبل الرفع (٦) .

(١) في مسنده ج ١ / ٣١٧ .

(٢) موارد الظمان في زوائد ابن حبان / ٤٣٥ .

(٣) مستدرک الحاكم / كتاب التفسير ج ٢ / ٤٤٨ وصحه ووافقه الذهبي .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ / ٢٠١ سورة الزخرف / آية ٥٩ .

(٥) قرأ بها ابن عباس وأبو رزين وأبو عبد الرحمن وقتادة وحמיד وابن محيصن انظر زاد المسير ٣٢٥/٧ والقراءة وان كانت غير متواترة الا انه يصح الاستشهاد بها كتفسير للقراءة المتواترة .

(٦) وقد حصل هذا الوهم فعلا : انظر كتاب : موقف العقل والعلم والعالم من رب - العالمين وعباده المرسلين للعلامة مصطفى ضبري ج ٤ / ٢٢٨ ط ٢ حيث رد فيه على من توهم ذلك ، وانظر تفسير المراغي ج ٣ / ١٧٠ ، المنار : ٣١٧/٣ .

والجواب عن هذا من عدة أوجه :

الأول : أن قوله تعالى : (متوفيك) لا يدل على تعيين الوقت ولا يدل على كونه قد مضى ، وهو متوفيه قطعاً يوماً ما ولكن لا دليل على أن ذلك اليوم قد مضى ،

وأما عطفه (ورافعك) على قوله : (متوفيك) فلا دليل فيه لإطباق جمهور أهل اللسان العربي على أن الواو لا تقتضي الترتيب ولا الجمع ، وإنما تقتضي مطلق التشريك ويدل عليه قوله تعالى : حكاية عن الكفار : (ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) . فدللت الآية على أن الواو لا تدل على الترتيب ، لأن المعطوف وهو الحياة سابق في الوجود على المعطوف عليه وهو الموت ،

فالله تعالى يفعل به هذه الأفعال فأما كيف يفعل ومتى يفعل فالأمر فيه موقوف على الدليل وقد ثبت الدليل أنه حي وأنه سيمنزل ويقتل الدجال ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك (١) .

قال زكريا الأنصاري (٢) لما هدده اليهود بالقتل بشره الله بأنه لا يقبض روحه الا بالوفاء لا بالقتل والواو لا تقتضي الترتيب . " ١٠ هـ فيكون معنى الآية على هذا : (إني مستوفي أجلك ومميتك حتف أنفك لأسلط عليك من يقتلك ، فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بمصدده من الفتك به عليه السلام لأنه يلزم من استيفاء الله تعالى أجله وموته حتف أنفه ذلك . (٣)

والحاصل أن الآية لا تدل على وقت الوفاة بل دلت النصوص على رفعه حياً وأنه ينزل آخر الزمان ثم يتوفاه الله كما وعده

(١) تفسير الفخر الرازي ٦٢/٨ ، زاد المسير ج ١ / ٣٩٦ ، تفسير الزمخشري : ٤٣٢/١ . شرح ابن عقيل على الغية ابن مالك ج ٢ / ٢٢٦ ط ١٢ ، تفسير البيضاوي / ٧٥ أضواء البيان ج ١٠ / ٥٠ - ٥٢ . وكون الواو لمطلق التشريك هو قول البصريين ،

(٢) فتح الرحمن : ٩٣ لشيخ الاسلام زكريا الأنصاري .

(٣) انظر : روح المعاني ج ٣ / ١٧٥ .

الوجه الثاني : أنها وفاة نوم للرفع الى السماء
فمعنى متوفيك : أى مُنيمك ، ورافعك إلي : أى في تلك النومة ، وقد
جاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في قوله تعالى : (وهو الذى
يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) - الأنعام / ٦٠ -
وقوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها)
- الزمر / ٤٢ -

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول اذا قام من النوم :
(الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .) (١)
وقال بهذا الوجه الريح والحسن وعزاه ابن كثير للاكثرين ورجّحه (٢)
واذا ثبت بالكتاب والسنة صحة إطلاق الوفاة على النوم فليس هناك
إشكال فيكون رفعه عليه السلام وهو نائم رفقا به كما قال الحسن
البصرى ،

الوجه الثالث : أنّ (متوفيك) اسم فاعل من توفاه اذا قبضه
وحازه اليه ومنه قولهم : (توفّى فلان دينه) اذا قبضه اليه ،
قال ابن قتيبة في غريب القرآن (٣) : " متوفيك : قابضك من الأرض ممن
غير موت . " .
فيكون معنى متوفيك على هذا : قابضك منهم إلىّ حيا وهذا القول هو
اختيار ابن جرير الطبرى قال (٤) : " ومعلوم أنه لو كان أماته الله
عز وجل لم يكن بالذى يُميتة ميتة أخرى فيجمع عليه ميتتين
فتأويل الآية : يا عيسى اني قابضك من الأرض ورافعك إليّ ومطهرك ممن
الذين كفروا فجددوا نبوتك . " .

هذا وقد أفاد الرازى (٥) " أن قوله (ورافعك الي) هو تعيين
لنوع التوفي اذ أن التوفي جنس تحته انواع بعضها بالموت وبعضها بالاصعاد
الى السماء . " . هـ .

-
- (١) البخارى في صحيحه / كتاب الدعوات / باب ما يقول اذا نام ج ١٤٧/٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥٤٨/١ ، آل عمران / ٥٥ ، النكت والعيون / ج ٣٢٦/١ .
روح المعاني ١٧٩ / ٣ .
(٣) غريب القرآن ص ١٠٦ .
(٤) تفسير ابن جرير ج ٦ / ٤٥٨ تحقيق احمد شاكر .
(٥) تفسير الرازى ج ٨ / ٦٨ .

فعلى هذا الوجه يكون التوفي : هو الأخذ والقبض، والقرينة على تعيين هذا المعنى في الآية : الرفع المذكور بعده ، والتطهير المذكور بعد الرفع ، وكذلك النص على الرفع في آية النساء : (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) .

اذ هي صريحة في الدلالة على رفعه حيا كما تقدم ،
فمعنى الآية حسب ما تقدم : - اني آخذك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا بابعادك عن عالم الكفرة والفجرة ،

الوجه الرابع : اخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : هذا من المُقدم والمؤخر : أي رافعك الي ومتوفيك بعد ذلك في الأرض بعد أن تعود اليها قبل يوم القيامة ، لتكون علما من أعلام الساعة وهذا قول الغراء والزجاج في آخرين فتكون الفائدة في إعلامه بالتوفي تعريفه أن رفعه الى السماء لا يمنع من موته (١) ،

قلت : وكل الأوجه التي مرت يمح تفسير الآية بها الا أن الذي يترجح هو الوجه الثالث وهو أن المراد مستوفي شخصك من الأرض حيا من غير وفاة ولا نوم وأن قوله ورافعك الي " هو تعيين لنوع التوفي وهو كما تقدم اختيار الطبري ، والرواية الصحيحة عن ابن عباس كما قال الألوسي (٢) .

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون المراد من قوله (متوفيك) مميتك ، ومن قوله (رافعك) : رافع روحك كما زعم البعض (٣) وذلك لما تقدم من أوجه في معنى التوفي .

وللدلالة قوله تعالى : (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) .
فلو كان المراد رفع الروح لما تناسق الكلام كما تقدم ، ولأنه تعالى كلما ذكر رفع عيسى قرنه بالجار والمجرور : (بل رفعه الله إليه) ،

(١) تفسير ابن كثير ج ١ / ٤٨٥ آل عمران / ٥٥ .

زاد المسير لابن الجوزي ج ١ / ٣٩٧ ، النكت والعيون للماوردي ج ١ / ٣٢٦ ،

روح المعاني للألوسي ج ٣ / ١٧٩ .

(٢) روح المعاني ج ٣ / ١٧٩ .

(٣) انظر : تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ج ٣ / ٣١٦ ، تفسير المراغي

ج ٣ / ١٧٠ ، الفتاوى / محمود شلتوت ص : ٦٠ - ٦١ ط : ٩ دار الشروق .

٢٢ - قوله تعالى بشأن الفتية أصحاب الكهف يومون بعضهم بعدم الظهور والمبالغة في التخفي لئلا يطلع عليهم أهل الكفر فيفتنونهم عن دينهم : -

(إنهم إنْ يظهروا عليكم يرموكم أو يُعيدوكم في ملَّتكم ولن تُفلحوا إذا أبداً .) - الكهف / ٢٠ -

فقوله : (أو يُعيدوكم في ملَّتكم) معناه : يردوكم الى دينهم وهو دين الكفر والشرك وهو موجب لعدم الفلاح في الدارين ، هذا مع أن الله سبحانه قد رخص للمُكْرَه على الكفر أن يتلفظ به مع بقائه مطمئناً بالايمان هو قوله تعالى : -

(من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا مَنْ أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ...)

النحل / ١٠٦

فالغضب من الله وعدم الفلاح هو على من رضي بالكفر وتابع منشراح الصدر له ، فكيف يكون عدم الفلاح للفتية إذا أُرغموا على العود في الكفر ،

والجواب : أنه ليس بين الآيات اختلاف عند التدبر وفهم المراد من كلام الله سبحانه لذلك فإن اثبات عدم الفلاح في حال الإرغام على الكفر بالنسبة للفتية المؤمنين أصحاب الكهف له جوابه ، وهو من ثلاثة أوجه :-

الوجه الأول : - أن الإكراه على الكفر قد يكون سببا لاستدراج الشيطان الى استحسانه والاستمرار عليه (١) ،

قال الرازي (٢) " فان قيل أليس أنهم لو أُكْرهوا على الكفر حتى أنهم أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة ، فكيف قالوا : (ولن تُفلحوا إذا أبداً) ،

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١٥ / ٢٣٢ .

(٢) في تفسيره ج ٢١ / ١٠٣ .

قلنا : يحتمل أن يكون المراد أنهم لو ردّوا هؤلاء المسلمين الى الكفر على سبيل الإكراه ويقوا مظهرين لذلك الكفر مدة فإنسه يميل قلبهم الى ذلك الكفر ويصيرون كافرين في الحقيقة ، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه - والله أعلم . // ٠ هـ

فالتلفظ بكلمة الكفر حالة الاكراه وان كان مرضيا فيه (١) كما نصّت عليه الآية ألا أن ذلك التلفظ قد يجره الى الكفر القلبي ويستدرجه الشيطان بذلك الى الإجابة الحقيقية حسب المصالح والظروف ويوسوس له بعد التلفظ بكلمة الكفر أنه خرج من دائرة الاسلام فله أن يدخل في الكفر بكل حرية (٢)

ولذلك نصّ العلماء (٣) أن الأفضل والأولى للمسلم أن يثبت على دينه ولو أفضى الى قتله أخذا بالعزيمة لما في الصبر من اعلاء كلمة الله ، ولما جاء في النصوص من تأييد الأخذ بالعزيمة كقوله - صلى الله عليه وسلم - لآل ياسر وقد رأهم يفتنون عن دينهم بالعذاب الشديد وهم صابرون يأبون الكفر : قال لهم : (اصبروا آل ياسر فان موعدكم الجنة) (٤) ،

وقد كان بلال رضي الله عنه يفعل به المشركون الأفاعيل حتى ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله - فيا بئس عليهم وهو يقول : " أحد أحد " ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها (٥) ، ذلك أن العقيدة أمر عظيم وثمان الاحتفاظ بها فادح ،

(١) وكما نص عليه الحديث الذي أخرجه البيهقي وابن جرير في تفسير : عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك الى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنا بالايمان ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - ان عادوا فعد " البيهقي / في كتاب المرتد / باب المكره على الردة ج ٨ / ٢٠٨ ، وابن جرير ج ١٤ / ١٨١ طبعة الحلبي .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ / ٩١٢ ، سورة النحل آية ١٠٦ ، فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ١٢ / ٣١٦ .

(٣) مجمع الزوائد للهيتمي ٢٩٣ / ٩ ، سيرة ابن هشام ٢٧٩ / ١ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ / ٩١٢ .

الوجه الثاني : أن قولهم : (ولن تغلحوا إذا أبدا) هو للتشديد والتحذير وأن المراد من الفلاح : الفلاح الكامل ، فالتلفظ بالكفر حالة الإكراه وإن كان جائزا إلا أن العزيمة تركه والأخذ بها هو الفلاح الكامل (١) .

الوجه الثالث : أن المؤاخذة على الإكراه كان جاريا في الأمم السابقة ورفع المؤاخذة على الإكراه من خصائص هذه الأمة ، قال أبو سليمان الجمل في حاشيته على الجلالين (٢) : - (واستشكل الحكم عليهم بعدم الفلاح مع الإكراه المستفاد من : (إن يظهروا ...)

إذ المكره لا يؤاخذ بما أكره عليه لخبر : " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " (٣) .

وأجيب بأن المؤاخذة به كانت في غير هذه الشريعة بدليل : " وما أكرهتنا عليه من السحر " ، وخبر (رفع عن أمتي ...) ٥٠١ هـ

قلت : فأهل الأمم الماضية لا يحق لهم أن يتلفظوا بكلمة الكفر تقيّة ولا أن يعملوا ذنبا مع حصول الإكراه فخفف الله عن هذه الأمة ورخص لها فيما كان مشددا على غيرها من الأمم ، كما قال تعالى : (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) - الأعراف / ١٥٧ -

فالمؤاخذة على الذنوب مع الإكراه كانت من الأصر الذي كان على من قبلنا ، ويدل على ذلك إثم النسيان والخطأ وهو مرفوع عن هذه الأمة وكانت الأمم السابقة تؤاخذ عليه كما قال تعالى :

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) ثبت في مسلم (٤) عن ابن عباس أنها لما نزلت وأذن عن الصحابة لها ودعوا بها قال الله : (قد فعلت) .

(١) تفسير أبي السعود ٢١٤/٥ ، وانظر تفسير سورة الكهف ، أبو المجد شير على شاه .

(٢) حاشية الجمل ج ٣ / ١٥ .

(٣) الحديث موجود في كتب السنة بلغظ (أن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " وسيأتي تخرجه قريبا .

(٤) صحيح مسلم / كتاب الإيمان / باب تجاوز الله عن حديث النفس (شرح النووي ج ٢ / ١٤٥) .

وقد جمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الرخص الثلاث في قوله :

(ان الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) (١) .

فيدل هذا الحديث بمفهومه أن الأمم السابقة كانت تؤاخذ على هذه الأمور

كما يدل على ذلك ما أشار إليه الجمل في حاشيته : وهو قول السحرة :

" انا آمننا بريننا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ،

والله خير وابقى " طه / ٧٣ .

فهذا فرعون قد أكرههم على تعلم السحر وأكرههم ايضاً على معارضة موسى به ، ولذلك فان السحرة بسبب علمهم أن الاكراه على الكفر مؤاخذ به آمنوا فوراً لما رأوا آية موسى عليه السلام حيث اطمأنت قلوبهم للحق الذي علموه ولكونهم كانوا مكرهين على هذه المعارضة وهم لم يعرفوا أنهم أكرهوا على السحر وارتكاب المعصية إلا بعد أن خالط الايمان قلوبهم فعلموا به ما هو حلال وما هو حرام فلا ينافي ذلك قولهم قبل اسلامهم " أئن لنا أجراً إن كنا نحن الغالبين " ولا قولهم " قالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون "

لأنهم قالوه اثناء كفرهم وتسلط فرعون عليهم ، والكفر حجاب على القلب وعلى العقل يحول بين الكافر وبين معرفة ما هو حق وصواب ولذلك لما رأوا آية موسى عليه السلام وما فيها من إعجاز خروا سجداً لله كما قال تعالى : (فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلن سوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لاغير إنا الى ربنا منقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) الشعراء / ٤٥ - ٥١ .

فهذا الكلام الذي حكاه الله عنهم لا يصدر الا عن تهيأ قلبه للايمان وكان عنده معرفة وعلم بالشرائع وما يوجب الرضا والسخط ولكن حجاب الكفر وظروف السيطرة الفرعونية وتعلم السحر منعتهم من الايمان قبل رؤية المعجزة

(١) أخرجه ابن ماجه ج١/٦٥٩ كتاب الطلاق / باب طلاق المكره عن أبي ذر الغفاري وابن عباس رضي الله عنهم . والطبراني عن ابن عمر وغيره مجمع الزوائد ٦/٢٥٠ كتاب الحدود / باب الناسي والمكره ، والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما كتاب الطلاق ج٢/١٩٨ وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والحديث حسنه ابن حجر في تلخيص الحبير / ١٠٩ والنووي في الأربعين وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير ج٢/١٠٢ رقم ٢٧٢٧ وفي ارواء الغليل ج١/١٢٣ رقم ٨٢ .

والذى يتلخص من حكاية السحرة أنهم كانوا مُكرهين على السحر
ومؤاخذين عليه كما هو مفهوم السياق ، وهذا دليل على أن الأمم التى
قبلنا كانت تؤاخذ على ما تُكره عليه وذلك من الإصر والاغلال التى كانت
عليهم ، وإذا ثبت كل ما تقدم تبين لنا كيف أن أصحاب الكهف قالوا ما قالوه
من أنهم لو رجعوا الى ملة أهل بلدهم وهى الوثنية ولو ظاهرا فإنهم
لن يفلحوا أبدا وذلك لعلمهم أنهم مؤاخذون على ما يُكرهون عليه ولا يصح
لهم بحال إظهار الكفر ولو تقية وهذا الوجه هو الظاهر عندى لما
تقدم والله تعالى اعلم (١).

(١) انظر : زاد المسير لابن الجوزى ٣٠٨/٥

روح المعانى ٢٣٢/١٥

دفع ايها المضطرب للشنقيط / ١٨٩ - ١٩٠ .

٢٣- قوله تعالى : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) التحريم / ١٠ -

هذه الآية تدل على أن الانبياء والمؤمنين قد يقتربون بزواج موصوفات بالخيانة ، وقد وردت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى :

(الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، أولئك مبترّون ممّا يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم .) - النور / ٢٦ -

والجواب : انه ليس بين مدلول هذه الآيات ما يوهم التعارض ، لأن لفظ الخيانة في قوله تعالى : (فخانتاهما لم يُرد به خيانة الزوج بمعنى الفجور والزنا ، وإنما المراد به : خيانة الكفر وإباحة أسرار البيت ، حيث إنه من المعلوم أن الاقتران بالكافرة كان جائزا في الشرائع السابقة ، ويدل عليه امرأة نوح ولوط اللتان يقال لهما يوم القيامة : (ادخلا النار مع الداخلين) ،

ويدل عليه أيضا قوله تعالى : (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) - التحريم / ١١ -

فثبت الله تعالى أنها امرأة مع أنه كافر ، فدل ذلك على صحة ما قلنا ، وإذا علم ذلك فإن قوله تعالى : (فخانتاهما) المراد به خيانة الكفر لأنهما كانتا كافرتين تخيان الكفر ، ولما هرتهما قومهما على الرسولين ، قال حبر الأمة ابن عباس (١) رضي الله عنهما - :

(إن امرأة نوح كانت تقول لقومه إنه مجنون ، وامرأة لوط كانت تدل قومها على نزول ضيف إبراهيم)

ولا يجوز أن تكون خيانتهمما بالفجور والزنا ، قال ابن عباس : (ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهمما في الدين)
ومما يدل على أن الخيانة لا يلزم حملها على الزنا ما قال علماء اللغة ، فقد قال الراغب الاصفهاني (٢) : (الخيانة والنفاق واحد إلا أن

(١) اخرج ذلك الحاكم في المستدرک ج٢ / ٤٩٦ ، وصححه ، ووافقه الذهبي

وانظر الدر المنثور للسيوطي : ج٨ / ٢٢٨

(٢) مستدرک الحاكم : ج٢ / ٤٩٦ كتاب التفسير ، الدر المنثور : ج٨ / ٢٢٨

تفسير الماوردي : ج٤ / ٢٦٧ ، تفسير الرازي : ج٣٠ / ٥٠ ، تفسير ابن كثير : ج٤ / ٦١٤ روح المعاني : ج٣٠ / ١٣٢ ، (٣) المفردات : ج١٢٣ مادة خون

الخيانة تُقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يُقال اعتباراً بالدين ، ثم يتداخلان ، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ، ونقيض الخيانة : الأمانة ، وعلى ذلك قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا

أماناتكم وأنتم تعلمون ٠٠٠) - الانفال / ٢٧ -

وقوله تعالى : (كانتا تحت عبيد من عبادنا عالحين فخانتاهما ٠) اهـ

أما قوله تعالى : (الخبيثات للخبيثين ٠٠٠) فإنها نزلت

بشأن حادث الإفك في حق أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - حين

رماها عدو الله بالبهتان والغربة فبرأها الله من ذلك ،

(١)

أخرج الطبراني بسند رجاله ثقات عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

في قوله تعالى : (الخبيثات للخبيثين ٠٠٠) الآية قال نزلت في عائشة

حين رماها المنافق بالبهتان والغربة فبرأها الله من ذلك ٠)

والمنافق هو عبد الله بن أبي، وهو الخبيث وكان أولى بشأن

تكون له الخبيثة ويكون لها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم —

طيباً فكان أولى أن تكون له الطيبة ، وكانت عائشة طيبة وكانت أولى

بأن يكون لها الطيب (٢)

فالخبيثات الواردة في الآية : المراد بها : الفاجرات الزواني

وقد ورد في الحديث : (أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر

الخبيث ٠) (٣) أي الفجور والزنا ، وعلى هذا فإن الانبياء عليهم السلام

لا يمكن أن يقتربوا بالخبيثات وهن الفاجرات الزانيات لما في ذلك من

تنفير الناس عنهم وعن دعوتهم ، وحيث إنهم دعاة الغضيلة ومكارم الاخلاق ،

بعكس الكفر ، فقد يقتربون بالكافرات كما حصل مع نوح ولوط عليهما

السلام ، وذلك أن الإيمان أمر باطني يمكن اخفاؤه ، إضافة الى أن الكفار

لا يرون الكفر قبيحاً أو منكراً ، وذلك بخلاف الفجور والزنا الذي يمتته

كل ذي فطرة سليمة ، وكل ذي عقل متنور ،

ولذلك لما بايع النبي صلى الله عليه وسلم - نساء قريش على الاسلام

(١) لباب النقول في اسباب النزول للسيوطي : ١٥٧ ، الدر المنثور : ٦ / ١٦٨

(٢) فتح البيان ، للعلامة صديق حسن خان : ج١ / ٣٤١

(٣) أخرجه البخاري : في الفتن ج٨ / ٨٨ باب رقم ٤ ، ومسلم في الفتن أيضاً (شرح النووي : ٣ / ٨) ونقل فيه تفسير الخبيث بالسوق والفجور والزنا وانظر مسند أحمد : ٦٩ / ٢ حيث ورد فيه معنى الديوث وهو الذي يقر الخبيث على أهله

الباب الثالث : (موهـم الاختلاف في مضمون القرآن)

وهو من عشرة فصول :

الفصل الاول : موهـم آيات العقيدة

الفصل الثاني : موهـم آيات النبوة والرسالة

الفصل الثالث : موهـم آيات المؤمنين

الفصل الرابع : موهـم آيات اهل الكتاب

الفصل الخامس : موهـم آيات المشركين

الفصل السادس : موهـم آيات المنافقين

الفصل السابع : موهـم آيات الاحكام

الفصل الثامن : موهـم الآيات الكونية

الفصل التاسع : موهـم آيات الجهاد

الفصل العاشر : موهـم آيات القيامة والحساب

الفصل الاول : موهم آيات العقيدة

هذا الفصل يبحث في الآيات المتعلقة بالعقيدة ، حيث وردت آيات قرانية تتحدث عن أمور تتعلق بالايمان بالله والرسل واليوم الآخر ونحو ذلك مما هو من الأمور الاعتقادية ، وبعض هذه الآيات قد يتوهم منها أن بينها اختلافا أو تعارضا سأذكرها بمشيئة الله وأدفع ما يتوهم من ذلك مع بيان توافقها وانسجامها

- ١- قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) بالاسراء / ١٥
هذه الآية الكريمة تدل على أن الله تعالى لا يُعَذِّب أحدا حتى يبعث إليه رسولا يُنذره ويدعوه الى الله ، ونظير ذلك قوله تعالى : (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل) - النساء / ١٦٥ وقوله تعالى : كلما أُلقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا ٠٠٠٠) - الملك / ٨ -
وقد جاءت آيات أخرى قد يُفهم من ظاهرها أن أهل الفترة (١) وهم الذين لم تبلغهم دعوة الرسل - في النار ، كقوله تعالى : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) - التوبة / ١١٣ -
فهذه الآية تدل بعمومها على دخول كل مشرك في النار ومنهم أهل الفترة وكذلك قوله تعالى : (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين) - البقرة / ١٦١ -
وقوله تعالى : (ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما) - النساء / ١٨ -
وقوله تعالى مخاطبا الانصار وعموم أهل الايمان : (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) - آل عمران / ١٠٣ -
والجواب أن أهل الفترة ومن في حكمهم معذورون فلا يحكم عليهم

(١) وكذلك من في حكمهم من الذين كانوا في عهد رسول ولم تبلغهم دعوته ومن هؤلاء أهل القطبين وأهل الغابات الاستوائية النائية التي لا يصلها أحد ، وفي حكم هؤلاء أهل البلاد الشيوعية ونحوها الذين سمعوا بالاسلام على وجه يُنفّرهم منه وليس عندهم ما يُرغبهم في الاسلام
(٢) تفسير ابن كثير : ج١ / ٥٨٢ ، زاد المسير لابن الجوزي : ج١ / ٤٣٢

بأنهم من أهل النار لعديم مجيء رسول يُنذِرهم ويدلهم الى الحق وما فيه سعادة الدارين^(١) ، وقد بين الله تعالى أنه لا يُعذب أحداً إلاّ بعد قيام الحُجة عليه كما قال : (لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرسل) وقد أخبر الله تعالى أن الرسول قد جاء لينذر قوما ما أنذر آباؤهم (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) - يس / ٦ -

وما داموا لم يُنذروا فهم معذورون بعدم وجود النذير الذي يهديهم الى الحق (أم يقولون افتروه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهاهم من نذير من قبلك لعلمهم يهتدون) - السجدة / ٣ -
(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يُبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير^(٢)) - المائدة / ١٩ -

ويؤكد عذر أهل الفترة ومن في حكمهم أن جميع الذين يُلقون في النار يعترفون بمجيء الرسل اليهم وأنهم كذبوهم كما قال تعالى :
(كلما أُلقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلاّ في ضلال كبير) - الملك / ٨ - ومعلوم أن كلمة كلّما من صيغ العموم ، فهذا تصريح بأن كل فوج من أهل النار قد جاءتهم الرسل في دار الدنيا وهذا بخلاف أهل الفترة ومن في حكمهم الذين لم تبلغهم دعوة رسول^(٣)

(١) وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة ، وخالف في ذلك الماتريدية والمعتزلة ، فقالوا : إن العقل موصل لمعرفة الله ، فوجود الله عندهم وتوحيده واجبان بالعقل فلا عذر لمن اشرك بالله وكفر به حتى لو لم يأتهم رسول ، لأن الكفر معلوم قبحه بالضرورة كما هو قول المعتزلة ، أو لأن معرفة الله يستقل العقل بأدراكها لوضوحها كما هو قول الماتريدية ، وحملوا قوله تعالى : (وما كنا مُعذِّبين حتى نبعث رسولا) على عذاب الاستئصال في الدنيا ، أو أن المراد بالرسول هو العقل ، وعلى قولهم هذا ليس هناك تنافي بين الآيات كما هو ظاهر ، انظر :

تفسير الرازي : ج ١ / ١٧٣-١٧٤ ، متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار : ج ٢ / ٤٦٠

الكشاف للزمخشري : ج ٢ / ٤٤١ ، تفسير التبيان للطوسي : ج ٦ / ٤٥٧
الإرشاد للجويني : ٢٥٩ ، تفسير ابن كثير : ج ٣ / ٥١ الأسراء / ١٥

مجموع الفتاوى لابن تيمية : ج ١٧ / ٣٠٨ ، روح المعاني للالوسي : ج ١٥ / ٣٩

التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور ج ١٥ / ٥٢

(٢) المراد بالآية بيان حكمة الله من بعثة الرسل وهي قطع معذرة أهل الكتاب عند مؤاخذتهم في الآخرة أو تقريعهم في الدنيا على ما غيروا من شرائعهم ، لئلا يكون من معاذيرهم أنهم اعتادوا تعاقب الأنبياء لارشادهم وتجديد الآيانية ، فلعلمهم أن يعتذروا بأنهم لما مضت عليهم فترة بدون إرسال رسول لم يتجه عليهم ملام فيما أهملوا من شرعهم وأنهم لو جاءهم رسول لاهتدوا (التحرير والتنوير : ج ١٥ / ١٥٩)
(٣) تفسير ابن كثير : ج ٣ / ٤٧ الأسراء / ١٥ ، أصواء البيان للشنقيطي : ج ١٠ / ١٧٨-١٨٢

كما أن قوله تعالى : (وما كنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) تدل بعمومها على أن الله تعالى لا يُعَذِّبُ أحداً بِنوع من العذاب دنيوياً كان أو آخروياً حتى يبعث إليه رسولا يهدي الى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج^(١) وعلى تسليم أن المناسب لسباق الآية أن المراد هو العذاب الدنيوي^(٢) فالجواب : أنه إذا دللت الآية على أن اللائق بالحكمة أن لا يُعَذَّبَ أحدٌ في الدنيا على ترك واجب قبل بعثة الرسول فدلالتها على أن لا يُعَذَّبَ أحدٌ العذاب الأكبر وهو عذاب الآخرة من باب أولى^(٣) قال قتادة^(٤) : (إنَّ الله تعالى ليس يُعَذِّبُ أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر أو يأتيه من الله بينة ، وليس معذبا أحداً الا بذنبه)

قال الشوكاني^(٥) - رحمه الله - (والظاهر أنه لا يعذبهم لافئ الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد الإعذار إليهم بالرسال الرسل) اهـ

قلت : لما دلت عليه الايات من أن أهل النار يعترفون بالرسال الرسل إليهم وأنهم كذبوهم ، كما قال تعالى : (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) - الزمر/ ٢١ -

الى غير ذلك من الايات الدالة على انه تعالى لا يعذب احدا الا بعد ارسال الرسل

(١) قال العلامة ابن عاشور : (وهي دليل على انتفاء مؤآخذة أحد ما لم تبلغه دعوة رسول من الله الى قومه ، فهي حجة للاشعري ناهضة على الماتريدي والمعتزلة الذين اتفقوا على إيصال العقل الى معرفة الله وتأويل المعتزلة أن يُراد بالرسول العقل تطوُّح عن استعمال اللغة وإغماض عن كونه مفعولاً لفعل ينبعث ، ان لا يقال بعث عقلاً بمعنى جعل) التحرير والتنوير : ج ١٥ / ٥٢ وانظر : الكشاف بحاشية ابن المنير ج ١ / ٤٤١ والفصل لابن حزم ج ٤ / ١٠٥

(٢) وهو قول كثير من المفسرين انظر : تفسير الطبري ج ١٥ / ٥٤ طبع الحلبي تفسير ابن كثير : ج ٣ / ٤٧ الاسراء / ١٥ ، القرطبي : ٢٣١ / ١٠ ، روح المعاني : ٣٧ / ١٥

(٣) انظر : روح المعاني : ج ١٥ / ٢٦ ، التحرير والتنوير لابن عاشور : ج ١٥ / ٥٢

(٤) تفسير الطبري : ج ١٥ / ٥٤ طبعة الحلبي

(٥) فتح القدير للشوكاني : ج ٣ / ٢١٤ ، وانظر تفسير القرطبي ج ١٠ / ٢٣١

الفصل لابن حزم : ج ٤ / ١٠٥ ، محاسن التأويل للقاسمي : ج ١٠ / ٣٩١٣

ومجيء النذير ، وأنه تعالى لا يُكلف نفساً إلاّ وسعها ، وليس في وسع أحد علم الغيب ، والقول بأن أهل الفترة عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا قبله - صلى الله عليه وسلم - تقوم عليهم بها الحجة ^(١) يردده صريح القرآن بنفي أصل النذير عنهم قال تعالى : (لَتُنذِر قوما ما أَنذِر أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) - يس/٦ - وقال تعالى : (بل هو الحق من ربك لتُنذِر قوما ما أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ۚ) - السجدة/٣ - كما أَنَّ المسألة أعمُّ من كونها تخصُّ أهل الفترة ، بل يدخل فيها كل مَنْ لم تبلغه الدعوة ولم يسمع بالاسلام ، وهذا أمر واقع فمثّل هؤلاء لم يُبعث اليهم رسول وصريح الايات يدل على أَنهم معذورون لأنهم لم يُنذروا ولم تقم عليهم الحجة فلا يكلفهم الله فوق وسعهم

وأما الايات التي تدل بعمومها على أَن كل كافر مصيره النار ، كقوله تعالى : (ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) التوبة/١١٣ فإن مثل هذه الآية محمولة على معنى أَنهم أُنذروا ودُعوا الى الاسلام وامتنعوا من الدخول فيه بعد أن عرفوا الحق ، وذلك مثل أبي طالب ونحوه ممن أدرك الاسلام ولم يؤمن ومات على كفره ^(٢)

فمثل هؤلاء هم الذين تبين لنا أَنهم من أصحاب الجحيم بخلاف من مات ولم يُدرك الاسلام ، أو لم يطله خبر الاسلام حتى مات ، وقد أوضح لنا القرآن مَنْ هم أصحاب الجحيم في قوله تعالى : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُوْمِنِينَ نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُؤَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَ مَصِيرًا) - النساء/١١٥ -

- (١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (ج٣/٢٩٩) حيث قال : (ان من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الاوثان فهو من اهل النار ، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة فان هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة ابراهيم وغيره من الانبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم) اهـ
- (٢) اخرج البخاري ومسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم - يعرض عليه كلمة التوحيد وحوله بعض رؤوس قريش يقولون له : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله يعرضها عليه حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله : أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك فأنزل الله تعالى فيه الآية . البخاري : كتاب الجنائز ، باب اذا قال المشرك عند الموت : لا إله إلا الله ج٢/٩٨ ، ومسلم : في كتاب الايمان ، باب الدليل على صحة اسلام من حضره الموت (شرح النووي : ج١/٢١٤)

وتبين الهدى ظهوره واتفاحه بالبرهان والدليل ، وسبيل المؤمنين هو ما بينه الله تعالى في آيات القرآن من معرفة الحق والعمل على مقتضاه وهو صراط الله المستقيم ، والآية صريحة في أن الوعيد بجهنم هو لمن يُشاقق الرسول وأهل الإيمان ويعادي الحق بعد أن يتضح له ويظهر بدلائله فيعرض عنه عنادا واستكبارا ، أو اتباعا لشهوة أو جاه زائل ونحو ذلك من الموانع ، وهذا يقتضي أن تكون دعوة الحق قد بلغت على وجهها الصحيح دون تحريف أو تشويه ،

فمن لم تبلغه الدعوة أو بلغت مَشوَّهة مُحرَّفة وعلى وجه يُنفِره منها فلم يتضح له الحق ولم يتبين له الهدى فكل هؤلاء لا ينالهم هذا الوعيد كما هو مفهوم الآية (١)

وقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) - البقرة / ١٦١ - ونحو ذلك من الآيات محمول على من كفر بالرسول بعد أن جاءت به البينات ومات على ذلك ، ويدل لهذا قوله تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) - هود / ١٧ - أي من يكفر بالرسول أو القرآن الذي جاء به ، فبرسالة خاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم - لم يبق عذر لأحد ، فكل من بلغته دعوة الإسلام وبان له الحق فلم يؤمن فليس له إلا النار التي أعدت للكافرين

وأما قوله تعالى : (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) فان المراد من ذلك أنهم كانوا على شفا حفرة من النار عندما دُعوا إلى الإسلام بادية ذي بدء فأبى كثير منهم ثم وفقهم الله وهداهم للإسلام فأنقذهم بذلك من النار لأنهم لو أصروا على كفرهم ولم يؤمنوا برسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - لكانت النار مصيرهم ، فالآية جاءت في معرض الامتنان عليهم ببيان فضل الله عليهم ورحمته بهم أن هداهم للإيمان وكفر غيرهم ، فلو لم يؤمنوا بعد قيام الحجة عليهم لوقعوا في النار ، لأن من كفر بعد مجيء الرسالة فليس له عذر وإنما مصيره النار كما قال تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) أي ومن كفر بالقرآن من الأحزاب وهم سائر أهل الأرض ممن بلغه الإسلام (٢) ويدل على أن الوعيد

(١) انظر تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت : ٢٢٧ - ٢٣٠ طبعة دار الشروق

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٢ / ٦٨٢ هود / ١٧ ، وانظر أضواء البيان للشنقيطي ج ١ / ٦٧

مشروط ببلوغ الدعوة قوله تعالى : (لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) بالانعام ١٦- وفي صحيح مسلم (١) عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)

قال سعيد بن جبير (٢) أحد رواة الحديث : وقلما سمعت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا وجدت له تصديقا في القرآن ، حتى وجدت هذه الآية : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) قال الأحزاب: الملل كلها

قال الامام النووي (٣) : (وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيها

على مَنْ سواهما ، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم مِمَّنْ لا كتاب له أولى .) اهـ

قلت : فالرسول - صلى الله عليه وسلم - جعل دخول النار لمن سمع به ولم يؤمن به ، وهذا يُخرج أهل الفترة وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَسْمَعْ بِالْإِسْلَامِ أَوْ سَمِعَ بِهِ لَكِنْ عَلَىٰ وَجْهِ يَنْفِرُ مِنْهُ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْإِيمَانِ بِالْإِسْلَامِ مِنْ وَجُودِ الْحُجَّةِ وَالِدَلِيلِ وَالْمُرْغَبَاتِ ،

وهذا واجب المسلمين اليوم أن ينهضوا ليلبغوا دين الله الى كل الناس حتى يسمعوا بالاسلام ديننا خاتما للأديان ، وأنه حق الله على العباد ولا يرضى بغيره ديننا ، وأنه طريق السعادة في الدنيا والاخرة ، ولا بد من إقامة الحجج والبيانات لكل أفراد البشر (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة)

هذا وهناك وجه آخر في تفسير قوله تعالى : (وكنتم على شفا حفرة من النار ٠٠٠) ذكره العلامة محمد الطاهر بن عاشور (٤) وهو : (ان شفا حفرة النار هنا تمثيل لحالهم في الجاهلية حين كانوا على وشك الهلاك والتفاني الذي عبّر عنه زهير بقوله :

" تفانوا ودقوا بينهم عطر منشّم " بحال قوم بلغ بهم المشي الى شفا حفرة من النار كالاخذود فليس بينهم وبين الهلاك السريع التام الا خطوة قصيرة ، واختيار الحالة المشبه بها هنا لأن النار من أشد المهلكات إهلاكاً وأسرعها ، وهذا هو المناسب في حمل الآية ليكون الامتنان بنعمتين محسوستين هما : نعمة الأخوة بعد العداوة ونعمة السلامة بعد الخطر (٠٠٠) اهـ

(١) صحيح مسلم : كتاب الايمان ، باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد (شرح النووي : ١٨٦/٢) والحاكم في المستدرک عن ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي (المستدرک : كتاب التفسير ، سورة هود ، ج ٢ / ٣٤٢)

(٢) انظر : الدر المنثور للسيوطي : ج ٤ / ٤١١ ، المستدرک : ج ٢ / ٣٤٢ كتاب التفسير ، وقال صحيح ، وانظر تفسير ابن كثير : ج ٢ / ٦٨٢ هود / ١٧

(٣) شرح النووي على مسلم : ١٨٨/٢ (٤) التحرير والتنوير : ج ٤ / ٥٣

إذا تقرر ما تقدم فأننا نجد أنّ الآيات متوافقة في معانيها ولا مجال لتوهم الاختلاف بينها ، وإذا كان أهل الفترة ومن في حكمهم معذورين ولا يحكم عليهم بالنار فما هو مصيرهم ؟

الجواب : هو ما ثبت في الحديث (١) من امتحان أهل الفترة وكذا الأعم والأحقق والهمم ، يُمتحنون يوم القيامة بالأمر باقتحام النار ، فمن اقتحمها دخل الجنة وهو الذي كان يُصدّق الرسل لو جاءت في الدنيا لأن الله يعلم ما كانوا **عاجلين** لو جاءتهم الرسل (٢)

أخرج الامام أحمد (٣) وابن حبان (٤) والبيهقي (٥) وابن جرير (٦) وغيرهم (٧) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (أربعة يحتجون يوم القيامة ، رجل أعمى لا يسمع شيئا ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ورجل مات في الفترة ، فأما الأعم فيقول : رب جاء الاسلام وما أسمع شيئا وأما الأحمق فيقول : رب قد جاء الاسلام والمبيان يحذفونني بالبر ، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الاسلام وما أعقل شيئا ، وأما الذي مات في الفترة فيقول : رب ما أتاني لك رسول ، فيأخذ موثيقهم ليطيعنه فيرسل اليهم أن ادخلوا النار ، فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ، ومن لم يدخلها يُسحب إليها) وفي رواية ابن جرير : فيطيعه من كان يريد أن يطيعه قبل ، قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : (وما كنا مُعذّبين حتى نبعث رسولا)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كلامه عن أهل الجاهلية (٨) :
(فهو لاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا ، وقد رُويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يُبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة ، وقد زعم بعضهم (٩) أن هذا يخالف دين المسلمين ، فإن الآخرة لا

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (ج٣/ ١٩٥) : وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون ومن مات في الفترة من طرق صحيحة ١٠هـ وقال البيهقي في الاعتقاد : (ص : ١١١) : وهذا اسناد صحيح وقال الهيثمي (مجمع الزوائد : ج٢/ ٢١٦) : بعد ان ذكر من رواه : ورجاله في طريق الاسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح وكذلك رجال البزار فيهما وقد احتج به ابن حزم في الفصل : ج٤/ ١٠٥ على عذر من لم تبلغه الدعوة (٢) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية : ٣٠٨/ ١٧٤ ، تفسير ابن كثير : ١٥٩/ ٣ الاسراء/ ١٥ فتح الباري : ج٣/ ١٩٥ ، اضواء البيان للشنقيطي : ج١٠/ ١٨٥

(٣) في مسنده : ج٤/ ٢٤ من رواية الاسود بن سريع
(٤) في صحيحه : كُتال القدر ، باب فيمن لم تبلغهم الدعوة وغيره (موارد الظمآن : ٤٥٢)
(٥) في كتاب الاعتقاد : ١١١ ، تحقيق كمال الحوت ، ط١ عالم الكتب ، بيروت
(٦) تفسير ابن جرير : ج١٥/ ٥٤ طبعة الحلبي
(٧) قال الهيثمي (مجمع الزوائد : ج٢/ ٢١٦) رواه احمد والبزار ، هذا لفظ احمد
(٨) مجموع الفتاوى : ج٣٠٨/ ١٧٤ (٩) نقل القرطبي (ح٢٣٢/ ٩) عن ابن عطية قوله : (وأما ما روي أن الله تعالى يبعث اليهم يوم القيامة وإلى المجانين والاطفال فحديث لا يصح ، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف) ١٠هـ

تكليف فيها ، وليس كما قال إنما ينقطع التكليف اذا دخلوا دار الجزاء الجنة أو النار ، ولّا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتنون ، يقال لأحدهم من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ وكذلك في عرصات القيامة يقال : ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، فدل ذلك على أنّ المحنة إنما تنقطع اذا دخلوا دار الجزاء وأما قبل ذلك الجزء امتحان وبلاء (١) اهـ

(١) وقال ابن كثير رحمه الله - بعد أن ساق الاحاديث المختصة بأهل الفترة ونحوهم : (ومنهم من ذهب الى أنهم يُمتحنون يوم القيامة في العرصات ، فمن أطلع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخرا وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة ، وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها ، وقد مرحت به الاحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض ، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد (٢) ، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد (٣) اهـ

ثم أجاب رحمه الله على من ضعف أحاديث الباب وأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل وابتلاء فقال : (والجواب عما قال : أن أحاديث الباب منها ما هو صحيح كما نص على ذلك كثير من أئمة العلماء ، ومنها ما هو حسن ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن ، واذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها وأما قوله : إن الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء ، ولا يُنافي التكليف في عرصات قبل دخول الجنة والنار كما حكاه الشيخ أبو الحسن عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الاطفال ، وقد قال تعال :

(يوم يُكشف عن ساق ويدعون الى السجود ٠٠٠) الآية - القلم / ٤٢ - وقد ثبت في الصحاح (٤) وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة ، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفحة الواحدة طبقاً واحداً كلما أراد السجود خسر لقفاه ،

(١) تفسير ابن كثير : ج٣ / ٥١ الاسراء / ١٥

(٢) ص : ١١١ طبعة عالم الكتب ، تحقيق كمال الحوت

(٣) هو الامام ابو عمر بن عبد البر النمري صاحب كتاب التمهيد ، احد اعلام المذهب المالكي ، من كبار حفاظ الحديث ، مؤرخ اديب من مصنفاته : الاستيعاب ، جامع بيان العلم وفضله ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد انظر : وفيات الاعيان ج٢ / ٣٤٨ ، الاعلام للزركلي ج٨ / ٢٤١

(٤) البخاري ، كتاب التوحيد ، باب ٢٤ قول الله : وجوه يومئذ ناضرة ٠٠٠ ج٨ / ١٨٢

ومسلم ، كتاب الايمان ، باب اثبات رؤية الله سبحانه (شرح النووي : ج٣ / ٢٣

عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً

وفي الصحيحين (١) في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجا منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه ، ويتكرر ذلك مرارا ويقول الله تعالى : يا بن آدم ما اغدرك ، ثم يأذن له بدخول الجنة (٢) (٣٠٠) هـ

قلت : والحاصل أن السؤال في القبر والامر بالسجود في أرض المحشر والعهود والمواثيق التي تؤخذ على آخر من يدخل الجنة ، كل ذلك تكليف وابتلاء يسبق دخول الجنة والنار ، فدل ذلك على عدم صحة إطلاق القول أن الآخرة ليس فيها ابتلاء وامتحان ،

وعلى فرض التسليم أن دار الآخرة دار جزاء بجملتها ومنها عرصات المحشر ، فأحاديث امتحان أهل الفترة ونحوهم مخصص لهذا العموم (٣) لثبوت تلك الأحاديث كما تقدم والله ولي التوفيق

وأما الأحاديث التي وردت في عذاب بعض أهل الفترة فالجواب عنها من وجهين :

الوجه الأول : أنها أحاديث آحاد لا تعارض القطع بعدم التعذيب قبل البعثة الوارد في قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لأنه تعالى تمدح بكمال الإنصاف ، وصرح بأنه لا يُعَذَّبُ حتى يقطع حُجَّةُ المَعْدَبِ بإنذار الرسل في دار الدنيا ، فلو عَذَّبَ سبحانه إنسانا واحدا من غير إنذار لاختلت تلك الحكمة ، كما أن الآيات القرآنية صرحت بنفي أصل النذير عن أهل الفترة ولا عذاب إلاّ بإنذار (٤)

الوجه الثاني : أن تُحْمَلِ الأخبار الواردة في عذاب بعض أهل الفترة على أنهم قد علم مصيرهم بعد الامتحان ، وأعلم الله نبيه بذلك والنبي - صلى الله عليه وسلم - إنما يُخْبِرُ عما يُوحَى إليه ، وإخبار النبي عن بعض أهل الفترة أنهم في النار لا يعني الحكم على الجميع ،

وهذا الوجه موافق لما تقدم من وجه الجمع بين الآيات وبه تتفق الأدلة ، وهو أولى من إهمال الأخبار الصحيحة وإن كانت آحادية ظنية الثبوت

قال الألبوسي (٥) : (يجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبه منهم لأمر مختص به يقتضي ذلك علمه الله تعالى وأعلمه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - نظير ما قيل في الحكم بكفر الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام مع أنه صبي وقيل أن تعذيب هؤلاء المذكورين في الأحاديث مقصور على من غير وبدل من أهل الفترة بما لا يُعَذَّرُ به كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع كما فعل عمرو بن لحي)

(١) البخاري : كتاب التوحيد باب ٢٤ ، قول الله تعالى وحوه يومئذ ناضرة ٣٠٠ ج ١٨٢/٨

ومسلم في كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية الله تعالى : (شرح النووي : ج ٣ / ٢٣)

(٢) يراجع بقية كلام ابن كثير حيث أحاب أيضا عن شبهة : كيف يكلفهم الله دخول النار

وليس ذلك في وسعهم

(٣) انظر : أضواء البيان للشهيد الشنقيطي ج ١٠ / ١٨٦

(٤) روح المعاني للألبوسي ج ١٥ / ٤٠ ، أضواء البيان ١٨٢/١٠ شرح جوهرة التوحيد : ٢٩

(٥) روح المعاني ج ٥ / ٤٠ - ٤١

٢- قوله تعالى : (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) - الرعد/٧ -
هذه الآية تدل على أن لكل قوم هاديا ، وقد جاء في بعض الآيات
ما قد يُفهم منه أن بعض الأقوام لم يكن له هادٍ وهي قوله تعالى :
(لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) - يس/٦ -
وقوله تعالى : (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) - السجدة/٣
وقوله تعالى : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يُبين لكم على فترة من
الرسول) - المائدة / ١٩ -

فالقوم الذين لم يُنذر آباؤهم هم قريش وكفار أهل الكتاب
حيث كانت هناك فترة من الرسل بين نبي الله عيسى عليه السلام وبين
نبي الله محمد خاتم الانبياء - صلى الله عليه وسلم - ، وهذه الفترة خاصة
بأهل الكتاب ، أما فترة العرب فهي ممتدة من مبعث اسماعيل عليه السلام
الى مبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث إن عيسى عليه السلام لم
يُبعث الا لبني اسرائيل كما هو معلوم لأن رسالته خاصة وليست عامة (١)
وعلى هذا فكيف التوفيق بين الآية التي تثبت أن لكل قوم هاد
وبين الآيات التي تدل على وجود فترة بين الرسل وأن الرسول بُعث الى قوم
لم ينذر آباؤهم ؟

الجواب من وجهين : الوجه الاول : وهو مروي عن ابن عباس من
طريق علي بن ابي طلحة (٢) أن معنى قوله تعالى (ولكل قوم هاد) اي لكل قوم
داع يدعوهم اما الى الخير والهدى كالانبياء ، واما الى الشر والردى مثل
الشياطين ودعاة الفجور والضلال ،

واستعمال الهدى في الارشاد الى الضلال والشر موجود في القرآن

كقوله تعالى : فاهدوهم الى صراط الجحيم) - المافات/ ٢٣ -
وقوله تعالى : (ولا يهديهم طريقا الا طريق جهنم ٠٠٠) - النساء/١٦٩ -
وعلى هذا الوجه فلنّ قوله تعالى : (ولكل قوم هاد) لا يعني أن لكل
قوم نبي ، بل المراد : لكل قوم داع للخير أو الشر كما هو واقع البشر (٣)
ولأن هناك اقواما لم يأتهم نبي وهم أهل الفترة كما هو صريح قوله تعالى :
(لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) - يس/٦ -

(١) تفسير القرطبي : ج٥/ ٧ ، روح المعاني ج٢٢/ ٢١٢ ، ج٢٠/ ٨٧

(٢) تفسير ابن جرير ج١٢/ ١٠٨ طبعة الطبي ، الدر المنثور : ج٤/ ٦٠٧

وانظر تفسير ابن كثير : ج١/ ٧٧٦ الرعد/ ٧ ، زاد المسير : ج٤/ ٣٠٧

(٣) انظر : اضواء البيان للشنقيطي : ج ١٠/ ١٦٤

فهؤلاء لم يأتهم نذير يهديهم الى الحق والصراط المستقيم ،
 وأما الآية التي فيها أن كل أمة لا تظلوا من نذير وهي قوله تعالى
 : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) - فاطر / ٢٤ -
 وأيضا قوله تعالى : (ولكل أمة رسول) - يونس / ٤٧ -
 فإن هذا دليل على أن كل أمة من الأمم لم تخل من نبي ، بخلاف
 الأقوام ، لأن القوم جزء من الأمة ، فأمة العرب مثلا بعث فيها اسماعيل
 عليه السلام (١) ثم تطاول العهد حتى أصبح بعض هذه الأمة أهل فترة
 ليس فيها نذير وهم قوم الرسول وآباؤهم ، لذا فإن نفي النذير عن
 القوم لا يعني نفيه عن الأمة كما هو واضح ، ولذلك فإن عموم قوله
 تعالى : (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم) يدخل فيه اليهود والنصارى
 فإن كلا منهم أمة لها رسول ، لكن لما تباعد العهد ونشأ فيهم الكفر
 وظلوا ، أصبحوا كغيرهم من أهل الفترة بحاجة الى النذير ليهديهم الى الحق ،
 فالمعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - من اليهود والنصارى هم وآباؤهم
 الأذنون قوم لم يُنذروا ، وهذا لا يعني أنهم ليسوا بأمة ، بل اليهود
 أمة أرسل لها موسى وغيره من الانبياء عليهم السلام ، لكن المعاصرين
 للنبي - صلى الله عليه وسلم - لم يأتهم نذير ولا آباءهم الأذنون وكذا النصارى (٢)
 وعلى هذا فليس هناك ما يدعو لقوم التعارض أو الاختلاف بين قولنا :
 لم تظلو أمة اليهود وأمة النصارى من الانبياء والنذر ، وبين قولنا : اليهود
 والنصارى المعاصرين للنبي وآباؤهم الأذنون قوم لم ينذروا

الوجه الثاني :

وهو قول مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد (٣) أن معنى : (ولكل قوم هاد)
 : لكل أمة نبي كقوله تعالى : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وقوله :
 (ولكل أمة رسول) فاستعمل القوم هنا وأراد الأمة ، وهذا موجود بكثرة في
 إطلاق القرآن : كما قال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) بالمؤمنين^{٢٣}
 وقال : (وانذر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) - الاحقاف / ٢١ -
 وقال (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) - الاعراف / ١٢٨ -
 التي غير ذلك من الآيات ، ومعلوم أن قوم نوح أمة وكذا قوم صالح وهود
 وغيرهم من الانبياء عليهم السلام ، فهذا دليل على أنه يطلق على الأمة قوم

(١) معلوم ان العرب كانوا على دين ابراهيم واسماعيل ولم يزالوا على ذلك الى ان
 فشت فيهم عبادة الاصنام وهم لم تشملهم دعوة عيسى وموسى عليهما السلام لان دعوتيهما
 ليس لعموم الناس بل لخصوص بني اسرائيل

(٢) انظر تفسير الرازي : ج٢ / ٤٢

(٣) تفسير الطبري : ج١٢ / ١٠٨ طبعة الحلبي ، الدر المنثور : ج٤ / ٦٠٧

تفسير ابن كثير ج٢ / ٧٧٦ الرد / ٧ ، زاد المسير لابن الجوزي : ج٤ / ٣٠٧

فكلُّ أُمَّةٍ قَوْمٌ وليس كلُّ قومٍ أُمَّةٌ ، وعلى هذا فإنَّ قوله تعالى :
 (ولكل قوم هاد) لا يُنافي قوله تعالى : (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم)
 لأن القوم في الآية الاولى بمعنى الامة التى لاتخطو من نذير ، فالآية على
 على هذا كقوله تعالى (وإن من أُمَّة إلا خلا فيها نذير) ، وقوله :
 (ولكل أمة رسول) ، وقد أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما رواه
 الترمذي وابن ماجه (١) واحمد (٢) وابن جرير (٣) والحاكم (٤) عن معاوية بن حيدة
 القشيري - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
 (أنتم تتعمون سبعين أُمَّة أنتم خيرها وأكرمها على الله) ،
 فالأمم محصورة في سبعين أُمَّة لم تخل أمة منها من رسول ، فلذلك فإن
 من لم يُنذر كقوم الرسول وآبائهم الأذنون ونحوهم يُعتبروا قوم وليسوا أُمَّة
 مستقلة بل هم بعض من الأمة ، قال الالوسي (٥) رحمه الله بعد كلام :
 (أو تعتبر العرب أمة وبني اسرائيل أمة ونحو ذلك أمة دون أهل عصر
 واحد ، وتحمل من لم يأتهم نذير على جماعة من أمة لم يأتهم بخصوصهم
 نذير ومما يُستأنس به في ذلك أنه حين ينفي إتيان النذير ينفي عن
 قوم لا عن أمة فليتأمل .) اهـ

(٦)

وقد أيد العلامة الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - هذا الوجه فقال :
 (وأقرب الأوجه المذكورة عندنا هو ما يدل عليه القرآن العظيم ... وهو أن
 معنى الآية : (ولكل قوم هاد) أي لكل أمة نبي ، فليست يا نبي الله
 بدعا من الرسل ، ووجه دلالة القرآن على هذا كثرة إتيان مثله في
 الايات كقوله : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا
 الطاغوت) - النحل / ٣٦ - وقوله : (ولكل أمة رسول) - يونس / ٤٧ -
 وقوله : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) - فاطر / ٢٤ -

(١) الترمذي : في التفسير ، باب ومن سورة آل عمران رقم : ٣٠٠١ ، ج٥ / ٢٢٦ وقال : حسن
 وابن ماجه : في الزهد رقم : ٤٢٨٨ ج٢ / ١٤٣٣ باب صفة امة محمد

(٢) في مسنده ج٥ / ٢٥٥

(٣) في تفسيره : رقم : ٧٦٢٢ ج٧ / ١٠٤ ، تحقيق محمود شاكر

(٤) في المستدرک کتاب معرفة الصحابة ، باب ذكر فضائل هذه الامة ج٤ / ٨٤

وقال صحيح الاسناد ووافقه الامام الذهبي

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ج٨ / ١٦٩ طبعة دار المعرفة : (وهو حديث
 حسن صحيح أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه ، وله شاهد مرسل
 عن قتادة عند الطبري رجاله ثقات) اهـ

(٥) روح المعاني : ج٢١ / ١١٧

(٦) اضواء البيان ج١٠ / ١٦٧

وعليه فالحكمة من الإخبار بأن لكل أمة نبياً أن المشركين عجبوا من إرساله
- صلى الله عليه وسلم - إليهم كما بيّنه قوله تعالى : (أكان للناس عجباً أن
أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) - يونس / ٢ -
وقوله : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) - ق / ٢ -
وقوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا
أبعث الله رسلاً رسولاً) - الاسراء / ٩٤ -
فأخبرهم أن إنذاره لهم ليس بعجب ولا غريب لأن لكل أمة منذراً ،
فالاية كقوله : (قل ما كنت بدعاً من الرسل)
وقوله : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) - النساء
١٦٣
والعلم عند الله تعالى (٠) اهـ

قلت : وبهذا يتضح لنا أن قوله تعالى : (ولكل قوم هاد) على
هذا الوجه بمعنى : ولكل أمة رسول ، وأن قوله تعالى : (ولقد بعثنا في
كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله ...) دلنا على أن المراد بالقوم في قوله
تعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ...) ونحو ذلك من الآيات : الأمة ،
فنوح رسول أرسل إلى أمة وهو يخاطبها بقوله : يا قوم اعبدوا الله ،
فهو هاد تلك الأمة أي نبيها ، وعلى هذا ينتفى توهم الاختلاف بين
قوله تعالى : (ولكل قوم هاد) وبين قوله تعالى (لتنذر قوماً ما أنذر
آبائهم ...) لأن القوم في الآية الأولى بمعنى الأمة والقوم في الثانية
بمعنى الجزء من الأمة ، ونفي النذير عن جزء من الأمة لا يعني نفيه
عن كل الأمة كما هو معلوم ، والله ولي التوفيق

٣ - قوله تعالى : (٠٠٠ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) المائدة / ٤٨ -
هذه الآية تدل على أن لكل أمة شريعة وطريقة تتبعها وتختلف عن الأخرى
فكل أمة مكلّفة بشريعة رسولها التي جاء بها ،

وقد جاءت آيات أخرى قد يُتوهم من ظاهرها خلاف ذلك منها :
قوله تعالى : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ٠٠) - الانعام / ٩٠ -
والمقصود بقوله " أولئك " : الانبياء المذكورين في سياق الآيات المتقدمة ،
فهذه الآية فيها الأمر باتباع هدى الانبياء

ومنها قوله تعالى : (هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة
أبيكم إبراهيم ٠٠٠) - الحج / ٧٨ - ومعنى الآية : إن الله وسّع علينا
ففي الدين ملة إبراهيم عليه السلام دين الحنيفية السمحة ،

ومنها قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي
أوحينا إليك ، وما وصىنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا
تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبإ إليه من يشاء
ويهدي إليه من ينيب) - الشورى / ١٣

وفي هذه الآية أوضح سبحانه أن دين الله واحد ، وصى به جميع الانبياء
وهذا في الظاهر قد يتوهم منه منافاة مدلول الآية الأولى والتي تدل
على أن الله جعل لكل أمة شريعة كُلفت بها

والجواب : أن الآيات القرآنية التي تُثبت أن دين الانبياء واحد

وأن الله شرع لنا ما وصى به نوحا وغيره من المرسلين ، وأن الملة واحدة
واننا مأمورون بالاعتداء بهداهم ونحو ذلك ، هذه الآيات المراد بها :

الأصول التي لا تختلف الشرائع فيها واتفقت عليها ومايا الانبياء ودعوتهم
وذلك في أمر التوحيد ونبذ الشرك والايمان بالرسول واليوم الآخر والتقرب
الى الله بأركان العبادات وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والالتزام بأصول
الاخلاق والمعاملات كالاخلاص والصدق والامانة وملة الرحم وتحريم الكذب والقتل
والزنا والاعتداء ونحو ذلك مما شرعه الله سبحانه لكل أمة مما لا يُستغنى
عنه في حياة البشر من الكليات والأمور الجامعة التي لا تختلف باختلاف
الأمة أو الزمان ، وعلى هذا فملة الانبياء واحدة كما قال البارئ :

(ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ٠٠) - البقرة / ١٣٦ -

ذلك أن ملة إبراهيم هي التوحيد ، ونبذ الشرك ، والحنيفية السمحة : (وقالوا
كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)
وقال الله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت) - النحل / ٣٦ -

فعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت - وهو كل ما يُتبع ويُعبد من دون الله -
كل ذلك ملة الانبياء وهداهم الذي أُمروا باتباعه ،

وأما الآية التي تُثبت أن لكل أمة شريعة ومنهاجا فالمراد بذلك :
 الفروع الجزئية والاحكام التفصيلية في العبادات والمعاملات والجهاد ونحو
 ذلك من الأمور التي شرعها الله لكل أمة في كل زمن بما يتناسب مع
 مصالحها ويلائم زمانها ، أو بما تقتضيه الحكمة وإرادة الله في ابتلاء
 البشر ، وقد أخبر النبي بهذا المعنى (حيث روى البخاري^(١)) عن أبي هريرة
 - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
 (أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء
 إخوة لعلات^(٢) أمهاتهم شتى ودينهم واحد .)

" فالشرائع مختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشيء في
 هذه الشريعة حراما ثم يُحل في الشريعة الأخرى وبالعكس ، وخفيفا فيُزاد في
 الشدة في هذه دون هذه ، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة
 والحجة الدامغة . " (٣)

هذا وقد اتفقت كلمة العلماء على معنى ما تقدم في توجيه الآيات
 وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين الشرائع إجمالا (٤) وأسوق هنا بعض كلامهم
 للإيضاح وتأكيد المعنى ، قال الامام الشاطبي^(٥) رحمه الله - :
 (قال الأصوليون : إن الضروريات مُراعاة في كل ملة ، وهكذا يقتضي الامر
 في الحاجيات والتحسينيات ، وقد قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به
 نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا
 الدين ولا تتفرقوا فيه ٠٠٠) ، وقال : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل)
 - الاحقاف / ٣٥ - وقال : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) - المائدة
 وقال : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) - الانعام / ٩٠ -
 وكثير من الآيات أخبر فيها بأحكام كلية كانت في الشرائع المتقدمة وهي
 في شريعتنا ولا فرق بينها ، قال تعالى : (ملة أبيكم ابراهيم) ، وقال :
 إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) - طه / ١٤ -
 وقال : (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ٠٠) -

(١) في صحيحه : كتاب الانبياء ، باب ٤٨ واذكر في الكتاب مريم ٠٠٠ ج ٤ / ١٤٢

(٢) اخوة لعلات : اخوة لأب ، يشير الى اتفاق الشرائع في التوحيد والاصول واختلاف
 شرائعهم المعبر عنه بقوله : " أمهاتهم شتى " ، واخوة لأُم هم الاخياف ، والاشقاء

هم الاعيان ،
 (٣) تفسير ابن كثير : ج ٢ / ١٠٦ المائدة / ٤٨

(٤) انظر : احكام القرآن لابن العربي : ١٦٦٦ / ٤ ، زاد المسير : ٣٧٣ / ٢ ، الرازي : ١٢ / ٤

١٣٨ / ٢٠ ، ١٥٧ / ٢٧ ، مجموع الفتاوى لابن تيمية : ج ١٩ / ١٠٧ ، تفسير ابن كثير : ١٠٦ / ٢
 الموافقات : ٧٩ / ٣ ، القرطبي : ٢١١ / ٦ ، ١٠ / ١٦ ، روح المعاني : ١٩٣ / ٦ ، ٢٠ / ٢٥ ، ٩٦ / ٣

(٥) الموافقات : ج ٣ / ٧٩ - ٨٠ (٦) المراد بالضروريات : هي حفظ الدين والنفس

والعقل والعرض والمال ، فحفظ هذه الامور وتشريع ما يؤدى الى حمايتها متفق عليه
 في كل الشرائع

وقال : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) - المائدة / ٤٥ -
الى سائر ما في ذلك من معاني الضرورات وكذلك الحاجيات ، فلما نعلم أنهم
لم يُكلفوا بما لا يُطاق ، هذا وإن كانوا قد كُلفوا بأمور شاقة ، فذلك لا يدفع أصل
اعتبار الحاجيات ومثل ذلك التحسينيات ، فقد قال تعالى : (أنكم لتأتون الرجال
وتقطعون السبيل وتأتون في ناديك المنكر) ، وقوله : (فبهذا هم اقتده) يقتضي
بظاهرة دخول محاسن العادات من الصبر على الآتي والدفع بالتى هي أحسن
وغير ذلك ، وأما قوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) فإنه
يصدق على الفروع الجزئية وبه تجتمع معاني الآيات والأخبار . اهـ

وقال الامام ابن العربي^(١) - رحمه الله - عند قوله تعالى :
(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا) الآية قال :
(ووصيناك يا محمد ونوحا ديننا واحدا يعني في الأصول التي لا تختلف فيه
الشرائع ، وهي : التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب الى الله
تعالى بمالح الاعمال والتزلف إليه بما يرد القلب والجراحة إليه ، والصدق
والوفاء بالعهد وأداء الامانة وطهارة الرحم وتحريم الكفر والقتل والزنا والادائسة
للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما كان ، وإقتحام الدنئات ،
فهذا كله شرع ديننا واحدا وملة متحدة لم يختلف على السنة الانبياء وان
وان اختلفت اعدادهم ، وذلك قوله تعالى : (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)
واختلفت الشرائع وراء هذا في معاني حسبما أراد الله واقتضته المصلحة ووجب
الحكمة وضعه فتي الازمنة على الامم والشعوب .) اهـ

قلت : وبهذا يتبين لنا ما اتفقت فيه الشرائع وما اختلفت فيه وأن
كل أمة لها شريعتها الخاصة بها كما قال تعالى :^(٢) (ولكل أمة جعلنا منكما
هم ناسكوه ..) - الحج / ٦٧ -

ونرى بذلك توافق الآيات في معانيها وأنه لا تناقض بينها ، وإنما تثبت ان
دين الانبياء واحد وهو التوحيد وعبادة الله ، وما يحفظ للناس ضروراتهم

(١) احكام القرآن : ج٤ / ١٦٦٦
(٢) وبهذا الجمع الذي تقدم احتج من قال : إننا غير ملزمين بسرائع من قبلنا
اطلاقا ، وهم أكثر الحنفية وكثير من أصحاب الشافعي ومالك ، قالوا :
ويؤكد ذلك ان قوله تعالى : (أولئك الذين هدى الله فبها هم اقتده)
والمراد بالهدى طريقهم في الايمان والتوحيد واصل الدين دون الشرائع
القابلة للنسخ ، فانها بعد النسخ لا تبقى هدى ، وهم ايضا مختلفون في
الشرائع فلا يمكن التأسى بهم جميعا ، وعلى ذلك فلا يمكن الاحتجاج بهذه الآية
الآية على وجوب اتباع شرائع الانبياء فيما عدم فيه النص - كما هو مذهب
معظم اصحاب مالك واصحاب الشافعي وجماعة من الحنفية - لأن لكل أمة شرعة =

وحاجاتهم ، والدعوة الى محاسن العادات ومكارم الاخلاق والاعمال ؛ كما
أن كل دين جاء بأحكام جزئية وتفصيلية لبعض الاحكام تغاير الشريعة
الآخري بما يناسب الامة والزمان حسبما تقتضيه الحكمة الربانية المبنية
على مراعاة مصالح العباد ، رحمة من الله بخلقه وابتلاء لهم ،
فلهذا اختلفت الشرائع كما قال تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)
والله الموفق

= ومنهاجا يختلف عن الآخر ، وما أمرنا أن نقتدي به هو ما أجمعوا
عليه من الايمان وأصول الدين ومكارم الاخلاق والاعمال مما هو ملّة جميع
الانبياء ، ولهذا قال الفخر الرازي عند تفسير قوله تعالى : (وكيف
يُحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) - المائدة / ٤٣ -
: (احتج جماعة من الحنفية بهذه الآية على أن حكم التوراة وشرائع
من قبلنا لازم علينا ما لم يُنسخ ، وهو ضعيف ولو كان كذلك لكان
حكم التوراة حكم القرآن في وجوب طلب الحكم منه ، لكن الشارع نهى عن
النظر فيها ، بل المراد هذا الأمر الخاص وهو الرجم ، لأنهم طلبوا
الرخصة بالتحكيم .) ١٠ هـ

انظر : احكام القرآن لابن العربي ١٦٦٦/٤ ، تفسير الرازي : ١٤٢/١١
القرطبي : ٣٥/٧ ، ابن كثير : ١٠٦/٢ المائدة ٤٨٤ زاد المسير : ٣٧٣/٢
روح المعاني : ج٧ / ٢١٦ ، الموافقات للشاطبي : ج٣ / ٧٩

٤ - قوله تعالى : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) - النساء / ٩٣ -^(١)

هذه الآية ظاهرها أنَّ من يقتل مؤمنا متعمدا عدوانا فإن مصيره النار والغضب واللعة وشدة العذاب ، والاية أطلقت هذا الوعيد ولم تقيده بشيء ، وقد جاءت آيات أخرى تدل على أنَّ القاتل إذا تاب تاب الله عليه أو أنه تحت المشيئة ، قال الله تعالى :

(والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) - الفرقان / ٦٨ - ٧٠ -
فهذه الاية استثنت التائب من الوعيد الشديد ، وكذلك عموم آيات التوبة مثل قوله تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) - الزمر / ٥٣ -
وهذا عام في جميع الذنوب ومنه القتل ، فالقاتل أسرف على نفسه وهو مطالب أن لا يقنط من رحمة الله ،

وكذلك قوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) - النساء / ٤٨ - ، وهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك ، فكل من أذنب ذنبا ولم يتب منه فهو تحت المشيئة إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ، إلا الشرك فلا بُدَّ له من توبة ،
إذا تبين ذلك فإن هذه الآيات لاتنافي مدلول آية النساء والتي فيها الوعيد بدخول جهنم خالدا فيها لمن قتل مؤمنا متعمدا عدوانا ، وذلك من وجهين :

(١) نزلت هذه الاية في مقيس بن صابئة ، اخرج ابن جرير الطبري (٦١ / ٩) من طريق ابن جريج عن عكرمة أنَّ رجلا من الانصار قتل أخا مقيس بن صابئة ، فأعطاه النبي - صلى الله عليه وسلم - الدية فقبلها ثم وثب على قاتل أخيه فقتله ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : لا أوَّ منه في حل ولا حرم ، فقتل يوم فتح مكة ، قال ابن جريج : وفيه نزلت هذه الآية :
ومن يقتل مؤمنا متعمدا ٠٠٠٠) الاية

وذكر الواحدي في أسباب النزول أنها نزلت في مقيس هذا لكن بسياق آخر انظر : أسباب النزول للواحدي ص : ١٦٤ النساء / ٩٣
الا أن المفسرين مجمعون على أنها نزلت في كافر قتل مؤمنا ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومن أجل هذا ذكرت هذه الاية مع ما يُتوهم انه ينافيها

الوجه الاول :

أَنَّ آية النساء التي فيها التوعد بجهنم لقاتل العمد مطلقة قيّدتها آيات التوبة ، فيحمل المطلق على المقيّد ، فيكون التقدير : " ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم إلا من تاب ١٠٠٠ " ، وقد علم من نصوص الشريعة أَنَّ الله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ولا يرد تائباً ، وقد أخبر سبحانه في آية الفرقان أَنَّ عقوبة الشرك والقتل والزنا مضاعفة العذاب في جهنم ، ثم استثنى من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، وهو خبر لا يجوز نسخه وهو عام في حق المشركين والمؤمنين ، وعلى هذا فإن المراد بالآية : فجزاؤه جهنم إن لم يكن معه توبة ، بيّن ذلك قوله تعالى في الآية " وغضب الله عليه ولعنه " ومعلوم من حال التائب أَنّه حبيب الله وَأَنّه لا يُلعن ولا ينزل به الغضب من الله بل يناله الرضا والمغفرة كما دلت على ذلك النصوص منها قوله تعالى : (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً) (اهتدى) - طه / ٨٢ - ومنها قوله تعالى : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه) - المائدة / ٣٩ - ونحوها من الآيات ،

ثم إنه تعالى أوعد في القرآن من ارتد بعد إيمانه بأشد من وعيد القاتل ، ومع ذلك استثنى من تاب وهو قوله تعالى : (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أَنّ الرسول حق وجاءتهم البينات ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، أولئك جزاؤهم أَنّ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) - آل عمران / ٨٦ - ٨٩ - فهذه دلت أن الوعيد الشديد لا يقتضي عدم قبول التوبة ، وأنّ

المراد بالوعيد هو من لم يتب

وأما الأحاديث : فثبت في الصحيحين ^(١) خبر الاسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده الى بلد يُعبد الله فيه فهاجر اليه فمات في الطريق فقبضته ملائكة الرحمة فهذا الرجل ممن تاب وأصلح فتاب الله عليه ، وإذا كان هذا في بني اسرائيل فلأن يكون في هذه الامة التوبة مقبولة أولى وأحرى ، لأن الله وضع عنا الإسر والأغلال التي كانت عليهم ، وقد بُعث نبينا بالحنيفية السمحة

(١) أخرجه البخاري : كتاب الانبياء ، باب ٤٤٥ حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب ج ٤ / ١٤٨

ومسلم : كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثّر قتله : (شرح النووي ١٧ / ٦٤) عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً

وفي الصحيحين^(١) أيضا عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ)

وإذا كان الشرك وهو أعظم الذنوب وأشدّها تمحوه التوبة إلى الله فكيف بما هو دونه من المعاصي والتي من جعلتها القتل عمدا ، ولذلك فإن كل وعيد في القرآن إذا أُطلق فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق العلماء ،

كما في قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) - النساء / ١ -

فهذا الوعيد هو في حق من لم يتب ويردّ الحق إلى أهله ، ومثله القاتل عمدا إذا تاب وأُنبأ^(٢)

ومن الجدير بالذكر أن ابن عباس - رضي الله عنهما - يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا ، أخرج البخاري ومسلم^(٣) عن سعيد بن جبير قال : (اختلّف فيها أهل الكوفة فرحلت إلى ابن عباس فسألتها عنها فقال : نزلت هذه الآية : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ٠٠٠) هي آخر ما نزل وما نسخها شيء) ، وفي رواية : قلت لابن عباس : أَلِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلّا بالحق ٠٠) الآية ، قَالَ هَذِهِ آيَةُ مَكِّيَّةٌ ، نَسَخْتُهَا آيَةً مَدِينِيَّةً : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ٠٠) اهـ

قلت : ومراده بقوله : نسخها آية مدنية : أي خصصت عمومها بالنسبة للقتل ، ويدل على ذلك الرواية الأخرى^(٤) عنه لما سئل عن قوله تعالى : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ٠٠) قال نزلت في أهل الشرك ، يعني أنهم يعذرون بكفرهم وجهالتهم بحدود الله بخلاف من أسلم وعقل الاسلام وعرف الحلال والحرام فلا توبة له إذا قتل ،

(١) البخاري : في الدعوات ، باب التوبة ، ج ٧ / ١٤٦ واللفظ له

ومسلم في التوبة ، باب الحضر على التوبة (شرح النووي : ج ١٧ / ٦٤)

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار : ١٠٤ ، زاد المسير : ١٦٨ / ٢

تفسير الرازي : ١٠ / ٢٤٥ - ٢٤٦ ، تفسير القرطبي : ج ٥ / ٣٣٣

مجموع الفتاوى لابن تيمية : ج ١٦ / ١٨ - ٢٢ ، تفسير ابن كثير : ج ١ / ٨١٤ النساء / ٩٣

فتح القدير للشوكاني : ج ١ / ٤٦١ ، لوامع الانوار للسفاريني : ج ١ / ٣٧٠

روح المعاني للالوسي : ج ٥ / ١١٥ - ١١٦

(٣) البخاري كتاب التفسير : سورة النساء ، باب من يقتل مؤمنا متعمدا ج ٥ / ١٨٢ ومسلم : كتاب التفسير : (شرح النووي ج ١٨ / ١٥٨)

(٤) المصادر السابقة نفس الكتب والابواب

قال الامام النووي^(١) - رحمه الله - : (هذا هو المشهور عن ابن عباس ، وروى عنه : أن له توبة وجواز المغفرة له لقوله تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) - النساء / ١١٠ - فهذه الرواية الثانية هي مذهب جميع أهل السنة والصحابة والتابعين ومن بعدهم وما روي عن بعض السلف مما يخالف هذا محمول على التغليظ والتحذير من القتل والتأكيد في المنع منه . اهـ

قلت : ذكر ابن كثير في تفسيره^(٢) نقلا عن ابن أبي حاتم من ذهب من السلف أنه لا توبة للقاتل وهم : زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر والحسن وقتادة والضحاك ، وما روي عنهم محمول على التغليظ كما قال الامام النووي ، وكذلك أن المقتول لا يسقط حقه بالقتل ، قال الامام ابن تيمية^(٣) - رحمه الله - : (ولكن يُقال لا تقبل توبة القاتل بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل ، بل التوبة تُسقط حق الله والمقتول مطالبه بحقه ، وهذا صحيح في جميع حقوق الأدميين حتى الدين ، لكن حق الأدي يُعطاه من حسنات القاتل ، فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول ، ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لما حبه حسنات تقابل حق المقتول فلا بد أن يبقى له سيئات يُعَذَّبُ بها ، وهذا الذي قاله قد يقع من بعض الناس ، فيبقى الكلام فيمن تاب وأخلص وعجز عن حسنات تعادل حق المظلوم هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يُعَذَّبُ به ؟ وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس ، لكن هذا لا يُنافي موجب الآية وهو أن الله يغفر كل ذنب الشرك والقتل والزنا وغير ذلك من حيث الجملة . اهـ

قلت : ويدل على مراد ابن عباس بعدم قبول توبة القاتل أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل ما رواه الامام أحمد^(٤) والنسائي^(٥) والترمذي^(٦) وابن ماجه^(٧) من طرق متعددة : أن ابن عباس سئل عمّن قتل مؤمنا متعمدا ثم

(١) شرح النووي على صحيح مسلم : ج ١٨ / ١٥٨

(٢) تفسير ابن كثير : ج ١ / ٨١٣ النساء / ٩٣

(٣) مجموع الفتاوى : ج ١٦ / ٢٥ (٤) المسند : ج ٤ / ١٤ بسند صحيح ، تحقيق احمد

(٥) سنن النسائي : كتاب تعظيم الدم ، باب تعظيم الدم ج ٧ / ٨٥ واللفظ له شاكراً

(٦) سنن الترمذي : في التفسير : باب ومن سورة النساء ، وقال حسن غريب ج ٥ / ٢٤٠

(٧) سنن ابن ماجه : كتاب الديات ، باب هل لقاتل المؤمن توبة رقم : ٢٦٢١ ج ٢ / ٨٧٤

ورواه ايضا ابن جرير الطبري : رقم : ١٠١٨٨ تحقيق محمود شاكر

قال ابن كثير : وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة (ج ١ / ٨١٣)

تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ، فقال ابن عباس : وأنسى له التوبة سمعت نبيكم - صلى الله عليه وسلم - يقول : (يجيء متعلقا بالقاتل تشخب اوداجه دما ، فيقول : اى رب سل هذا فيم قتلني)

وبهذا يتبين لنا معنى ما روى عن ابن عباس انه لا توبة له ، وأن مراده التغليظ والتحذير من القتل ، وكذلك لإثبات حق المقتول وأن التوبة لا تُسقط حق من قتل ظلما ، بل لابد من المقاصصة يوم القيامة ، وهذا في الجملة لا ينفي صحة توبة القاتل فيما بينه وبين الله كما دلت عليه النصوص قال الالوسي (١) عند تفسير الآية : (واستدلّ بالآية والأحاديث المتضمنة للوعيد المعزلة على خلود من قتل مؤمنا متعمدا في النار ، وأجاب أهل السنة : بأن ذلك خرج مخرج التغليظ في الزجر لا سيما الآية ، لاقتضاء النظم له فيها كقوله تعالى : (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) آل عمران ٩٧ . . . وشاع القول بنفي التوبة عن ابن عباس ، وأخرجه غير واحد عنه وهو محمول على ما ذكرنا ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن حميد والنحاس عن سعيد بن عبيدة (أن ابن عباس كان يقول : لمن قتل مؤمنا توبة ، فجاء رجل فسأله ألمن قتل مؤمنا توبة ؟ قال لا ، الى النار ، فلما قام الرجل قال له : جساؤه : ما كنت هكذا تفتينا ، كنت تفتينا أن لمن قتل مؤمنا توبة مقبولة فما شأن هذا اليوم ؟ قال : أظنه رجلا مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا ، فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك .) وكان هذا شأن غيره من الاكابر فقد قال سفيان : كان أهل العلم إذا سُئلوا قالوا لا توبة له ، فاذا ابتلي رجل قالوا له : تُب .) اهـ

الوجه الثاني :

أنّ الوعيد في الآية إخبار من الله تعالى بأن ذلك جزاءه ، لا بأنه يجزيه به ، كيف لا وقد قال تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) - الشورى / ولو كان هذا إخباراً بأنه سبحانه يجزي كل سيئة بمثلها لعارضه قوله تعالى : (ويعفو عن كثير) - المائدة / ١٥ . وقوله : (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) - الشورى / ٢٥ -

والجزاء عبارة عن المُستحق سواء فعل أو لم يفعل ، ولهذا يقال جزاء المحسن الإحسان وجزاء المسيء الاساءة ، ويقال لمن يقتل : جزاء هذا أن يُقتل

وهو كلام صادق وإن لم يفعل القتل وعلى هذا فإن قاتل المؤمن عمدا جزاؤه ما توعدده الله به لكنه داخل تحت المشيئة لأن معصية القتل دون الشرك كما قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) - النساء / ٤٨ (١) وعلى هذا فإن الآية مخصوصة فيما إذا حصل عفو من قبل الله لقوله : (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) وهذه الآية في حق غير التائبين ، لأن التائب من الشرك يُغفر له الشرك أيضا بنصوص القرآن واتفاق المسلمين ، فالقاتل ولو لم يتب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء الله عاقبه وإن شاء غفر له ، فكيف به إذا تاب

أخرج الامام البيهقي في كتاب الاعتقاد (٢) عن هشام بن حسان قال : (كنا عند محمد بن سيرين فقال له رجل : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ٥٠) حتى ختم الآية ، قال : فغضب محمد وقال : أين أنت عن هذه الآية : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) قُمْ فَأَخْرِجْ عَنِّي) اهـ

وأخرج البيهقي أيضا عن قريش بن أنس قال : (كنتُ عند عمرو بن عبيد في بيته فانشأ يقول لي : يُؤْتَى بي يوم القيامة فأقام بين يدي الله تعالى ، فيقول لي : لم قلتَ إِنَّ الْقَاتِلَ فِي النَّارِ ، فأقولُ : أنتَ قلتَ به ثم تلا هذه الآية : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا ٥٠) الآية فقلت له - وما في البيت أصغر مني - : رأيْتُ إِنَّ قَاتِلَكَ : فأني قد قلتُ : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) فمن أين علمتَ أنني لا أشاء أَنْ أَغْفَرَ لِهَذَا ، قال فما استطاع أَنْ يرد عليَّ شيئا .) اهـ

قال ابن كثير (٤) - رحمه الله - : (وبتقدير دخول القاتل في النار أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحا ينجو به ، فليس بمخلد فيها أبداً ، بل الظنون هو المكث الطويل ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - (أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان)) اهـ

(١) الاعتقاد للبيهقي : ١٠٢ - ١٠٣ طبعة دار الكتب العلمية / بيروت
تفسير الرازي : ١٠ / ٢٤٥ ، مجموع الفتاوى : ١٦ / ١٨ ، القرطبي : ٥ / ٣٣٤
تفسير ابن كثير : ١ / ٨١٥ النساء / ٩٣ ، روح المعاني للألوسي : ج ٥ / ٥١
(٢) الاعتقاد : ١٠٣ ، (٣) نقلا عن الألوسي : ج ٥ / ١١٦

(٤) تفسير القرآن العظيم : ج ١ / ٨١٥ وانظر القرطبي : ج ٥ / ٣٣٥
(٥) أخرج ذلك البخاري ، كتاب الإيمان ، باب ٣٣ زيادة الإيمان ونقصانه ج ١ / ١٦
ومسلم : في كتاب الإيمان ، باب اثبات الشفاعة ، (شرح النووي : ج ٣ / ٣٥)

قلت : وبهذا يتبين لنا توافق الآيات وعلاقتها ببعضها ، وكيف أن كلَّ وعيد في القرآن إنما هو في حق مَنْ لم يتب ، فكل آية أطلق الوعيد تُحمل على الآيات التي قيّدت ذلك بعدم التوبة (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُم الظالمون) ، إضافة الى أن كل ذنب دون الشرك القتل فما سواه هو تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ، وإن عاقبه وأدخله النار خرج بالشفاعة حيث لا يبقى في النار مُوحّد بإذن الله تعالى ، والله أعلم وهو ولي التوفيق

٥- قوله تعالى : (حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يُفرطون ، ثم رُدُّوا الى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) - الانعام / ٦١ -

هذه الآية يُفهم من ظاهرها أن الله تعالى مولى جميع العباد ويدخل في ذلك الكفار ، وقد جاءت آية أخرى قد يُفهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) - محمد / ١١ -

فهذه الآية فيها أن الكافرين لا مولى لهم ، فكيف التوفيق بين اليتين ؟

والجواب : أنّ الولاية المثبتة غير الولاية المنفية ، فالمولى في آية الانعام أراد به أنهم رُدُّوا الى الله مالكم وخالقهم المتصرف فيهم بما شاء ، وهو المولى الحق وما دونه فهي أرباب باطلة اتخذوها في الدنيا ولا تغني شيئا إنما المولى الحق هو من له الخلق والأمر والحساب والعقاب ، وهذا كقوله تعالى : (فاعلم أنه لا اله الا الله) محمد/ ١٩ اي فاعلم انه لا معبود بحق الا الله ، ان هناك معبودات باطلة اتخذها كثير من الناس واعتقدوها الهة ، بينما الله هو الاله الحق والمولى الحق ، وما دونه فهو طاغوت لا يضر ولا ينفع ، والامر كله لله يفعل ما يشاء سبحانه وتعالى

وأما قوله تعالى : (وأن الكافرين لا مولى لهم) : فأراد به أنه لناصر لهم في الدنيا والاخرة ، فالولاية المنفية هنا هي ولاية النصرة والتأييد ، فالكافرون مصيرهم الهلاك والدمار ، واذنا تأملنا سياق الآية وتدبرنا المعنى تأكد لنا ذلك : (أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف

كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها)
وهذه عاقبة أهل الكفر في كل مكان وزمان في مواجهة أهل الايمان ، (ذلك
بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) ، فمن اتخذ من
دون الله أولياء فلا يجلب لنفسه الا الضر والخذلان ، قال الله تعالى :
(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا
أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم
فيها خالدون) - البقرة / ٢٥٧ - فأولياء الكفار إنما هم شياطين الانس
والجن ، وهؤلاء إنما يتولون بعضهم لأجل المصلحة ، فاذا انقطعت تلك
المصلحة تخلوا عن بعضهم وتبرأوا من بعض : (والذين كفروا بعضهم أولياء
بعض) - الانفال / ٧٣ - (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) - الاعراف
وهؤلاء يتبرأون من بعض يوم القيامة كما قال الباري : (إذ تبرأ الذين
اتَّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) - البقرة / ١٦٦ -
وقال : (يوم لا يُغني مولى عن مولى شيئا ولا هم يُنصرون) الدخان / ٤١ -
وقال : (ثمَّ يوم القيامة يكفرُ بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) - العنكبوت / ٢٥ -
من أجل ذلك نفى الله تعالى أن يكون للكافرين أولياء بمعنى ولاية النصرة
والتوفيق ، وإن كان لهم من دون الله المولى الحق مولى كثيرون ،
لأن مولاتهم لهم إنما هي (كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه
لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) - النور / ٣٩ -
وبهذا يتبين لنا توافق الايتين وانسجامهما (١)

هذا وقد قال ابن جرير الطبري (٢) - رحمه الله - : إن المعنى :
« ثم رُدُّوا: أي الملائكة الى الله سيدهم الحق » ، وعلى هذا التفسير ليس
هناك ما يؤهم الاختلاف ، إنما الذي يترجى هو ما قدمته من معنى الآية
وعليه بقية المفسرين ، ويؤكد ذلك قوله تعالى في سورة يونس : (ورُدُّوا
الى الله مولاهم الحق وظل عنهم ما كانوا يفترون) - يونس / ٣٠ -
فالضمير في ردوا وفي ظلوا عائد على الكافرين المتقدم ذكرهم في السياق

(١) الرد على الزنادقة للإمام احمد : ١٥ - ١٦
المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني : ٥٣٣ ، فتح الرحمن : ١٦٩
روح المعاني لالوسي : ج٧ / ١٧٢

(٢) تفسير الطبري : ج٧ / ٢١٨ طبعة الحطبي ،

٦ - قوله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ۖ (الزمر/٤٢-
أى : يقبض الأرواح حين موت أجسادها ،

أخبر الله سبحانه في هذه الآية أنه يتوفى الأنفس ، بينما أسند التوفي
في آيات أخرى لملك الموت والملائكة ، قال تعالى :

(قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم ثم إلى ربكم ترجعون) - السجدة/١١-

وقال تعالى : (حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يُفرطون)

- الانعام / ٦١ - وقال : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) - الانفال / ٥٠-

والجواب أن الآيات لا تنافي بينها ، إذ أنه سبحانه أسند التوفي

مرة لنفسه ومرة لملك الموت ومرة أخرى للملائكة باعتبارات معينة :

ففي سورة الزمر قال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها) لأنه تعالى

الْمُتَوَفَّى الْحَقِيقِي ، وهو تعالى مُقَدِّرُ الموت والآجال وخالق الأعمال ، ولا

تُقبض الأرواح إلا بمشيئته وأمره كما قال : (وما كان لنفس أن تموت إلا

بإذن الله كتاباً مؤجلاً) - آل عمران / ١٤٥ -

كما أنه سبحانه يخلق الموت عند قبض الأرواح (الذي خلق الموت والحياة

ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) - الملك / ٢ -

فهذا الاعتبار أضاف الباري عز وجل التوفي الى نفسه لما سبق ذكره

أما قوله تعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم ۖ)

فهو سبحانه قد أضاف التوفي لملك الموت لما أنه المأمور بقبض الأرواح

عند حلول الآجال ، فلما كان متولى ذلك بالوساطة والمباشرة أُضيف إليه

التوفي كما يشير إليه قوله تعالى : (الذي وُكِّلَ بكم ۖ) والذي وُكِّلَهُ

ليباشر ذلك هو الله تعالى

وأما قوله تعالى : (۞ توفته رسلنا ۞) وقوله : (ولو ترى إذ

يتوفى الذين كفروا الملائكة ۞) ونحو ذلك من الآيات التي فيها اضافة

التوفي للملائكة ، فالمراد بذلك أعوان ملك الموت الذين يُعالجون الروح

وينتزعونها من سائر الجسد حتى اذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت ،

فهذا الاعتبار أضاف سبحانه التوفي إليهم (١)

ومعالجة الملائكة للروح وانتزاعهم لها عند الموت هو ما عبّر

عنه تعالى بقوله : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) ق/١٩

وقوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم)

الانعام / ٩٣

فإن الله تعالى يقدر ويأذن ويأمر ، والملائكة تنزع وتعالج وملك الموت يقبض ،

ولهذا فإن كل اسناد بحسبه لما يقتضيه السياق والمعنى المراد ،

وبهذا نرى توافق الآيات وتعاضدها وعدم تنافيها وتوهم غير ذلك إنما سببه

الجهل بمعاني الكلام وأسلوب القرآن في التعبير ، والله الموفق

(١) زاد المسير: ٥٦/٣ ، تفسير القرطبي: ٩٣/١٤ ، فتح الرحمن : ٤٥٣

تفسير ابن كثير: ج٢/ ٢٢١ ؛ ج٣/ ٧٣٩ ، البرهان للزركشي: ج٢/ ٦٤ ، روح المعاني: ٧٦/٧

٧- وردت آيات في القرآن تنفي الشفاعة والشفيع يوم القيامة ،
ووردت آيات أخرى تثبت ذلك (١)

أما الآيات التي تنفي الشفاعة والشفيع فهي ما يلي :

(واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها شفاعة ولا يُؤخذ منها عدل ولا هم يُنصرون) - البقرة / ٤٨ -

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا

بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) - البقرة / ٢٥٤ -

وقال تعالى حاكيا عن أهل النار : (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم

فلو أن لنا كربة فنكون من المؤمنين) - الشعراء / ١٠٠ - ١٠٢

وقال تعالى : (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما

للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) - غافر / ١٨ -

ونحو ذلك من الآيات التي تدل على نفي الشفاعة والشفعاء يوم القيامة

أما الآيات التي تثبت الشفاعة والشفيع فهي ما يلي :

(من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه) - البقرة / ٢٥٥ -

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) - الانبياء / ٢٦

(يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) طه / ١٠٩

(ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم

يعلمون) - الزخرف / ٨٦ -

فهذه الآيات أثبتت وجود الشفاعة والشفيع يوم القيامة بالشروط

المذكورة ، ومن خلال تدبر آيات القرآن نجد أنه تعالى عندما نفى

وجود الشفاعة يوم القيامة إنما نفاهما في حق الكفار وأهل الشرك ،

الذين يُحرمون من شفاعة الرسل وعباد الله المؤمنين ، وهذا المراد في مثل

قوله تعالى : (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها

شفاعة) لأن الخطاب فيها مع اليهود كما هو السياق ، حيث ذكّرهم

سبحانه بنعمة ثم حذّرهم من نقمته وعذابه ، وأن زعمهم أن آباءهم تشفع

فيهم زعم باطل (٢) ، ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى : (ما للظالمين

من حميم ولا شفيع يطاع) - غافر / ١٨ - ، والظالمون هم أهل الكفر

والشرك لقوله تعالى : (والكافرون هم الظالمون) - البقرة / ٢٥٤ -

(١) أوهم بعض المنصرين من أعداء الإسلام حصول تناقض بين آيات الشفاعة
انظر : كتاب رد مفتريات على الأمام للدكتور: عبد الجليل شلبي ص : ٧٠

(٢) انظر تفسير الرازي : ج ٣ / ٥٦ ، ج ٢ / ٦٥

وبدليل الأحاديث المتواترة في الشفاعة لأهل الإيمان ^(١) وحرمان أهل الكفر والشرك منها ، قال ابن كثير ^(٢) عند تفسير قوله تعالى : (ولا يُقبل منها شفاعة) (٠٠) يعني من الكافرين كما قال : فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وكما قال عن أهل النار : (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) (٠) اهـ وقال القرطبي ^(٣) : (فلن قالوا : وردت نصوص من الكتاب بما يوجب أنه ليس للعمامة شفاعة مثل قوله : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) ، (ولا يقبل منها شفاعة) قلنا : هذه الآيات ليست عامة في كل ظالم ، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك وأيضا فان الله تعالى أثبت الشفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام فقال في صفة الكافرين : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وقال : (لا يشفعون الا لمن ارتضى) وقد أجمع المفسرون على ان المراد بقوله تعالى : (ولا يقبل منها شفاعة) : النفس الكافرة (٠) اهـ

كما أن الله سبحانه نفى أن يكون هناك شفاعة يملكها غيرها ، لقوله تعالى : (قل لله الشفاعة جميعا) - الزمر / ٤٤ - فهذا المقصود بنفي الشفاعة في مثل قوله : (يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) (٠٠٠) فيوم القيامة لا بيع فيه انما هو الحسنات والسيئات ، ولا خلة هناك ، ولا الخلة التي يرضاها الله تعالى وهي خلة عباده المؤمنين كما قال : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) - الزخرف / ٦٧ - ولا أحد يملك الشفاعة لأن الله تعالى له الشفاعة جميعا ، لا أحد يملكها سواه ، وهو سبحانه يمنحها لمن يشاء ويرضى ممن توفرت فيه الشروط التي تُستحق بها الشفاعة ، ولذلك فإن الآيات التي اثبتت الشفاعة قد قرئت بشروط هي كما يلي :

١ - إيمان المشفوع له وإسلامه ، فهي لا تنفع من لم يشهد الشهادتين قال تعالى : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) والمراد بالظالمين هنا الكافرون كما تقدم ، قال الحافظ البيهقي في كتابه شعب الإيمان ^(٤) : (فالظالمون ها هنا هم الكافرون ، ويشهد لذلك مفتتح الآية انه في ذكر الكافرين) اهـ

(١) سيأتي تخريجها بعد قليل

(٢) تفسير القرآن العظيم : ج١ / ١٣٥ البقرة / ٤٨

(٣) تفسير القرطبي : ج١ / ٣٧٩

(٤) شعب الإيمان : ج١ / ٢٠٥ (نقلًا عن كتاب الشفاعة للشيخ مقبل بن هادي

وقال ابن كثير^(١) : (أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شافع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير) اهـ وقال عند تفسير قوله تعالى : (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) - مريم / ٨٧ - : هذا استثناء منقطع بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها ، قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) قال : العهد شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ الى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل) اهـ

قلت : ويدل على ذلك ما رواه الشيخان^(٢) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا) اهـ

٢- إذن الله تعالى للشافع ، لقوله تعالى : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) - البقرة / ٢٥٥ - وقوله تعالى : (ما من شافع إلا من بعد إذنه) - يونس / ٣ -

ومعلوم أن الله سبحانه هو الذى يمنح الشفاعة ويأذن فيها ، وفي حديث الشفاعة الذى أخرجه الشيخان^(٣) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ساق أبو هريرة الحديث الى قوله : (... اذهبوا الى محمد - صلى الله عليه وسلم - فيأتوني فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الانبياء وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ، فأنت تاتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي ثم يفتح الله على ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتح له لأحد قبلي ثم قال : يا محمد ارفع رأسك سأل تعطه ، اشفع تُشفع) الحديث

٣- الرضا عن المشفوع له ، كما قال تعالى : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) - الانبياء / ٢٦ - ومعلوم أن الله لا يرضى عن كافر او مشرك او ظالم ، وبهذا لا ينال الشفاعة إلا أهل الايمان المرضي عنهم كما قال الباري : (يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا) وبهذا يتبين لنا توافق الايات وعدم تنافيها ويندفع توهم الاختلاف بينها بما تقدم

(١) تفسير ابن كثير : ج٤ / ١١٤ غافر / ١٨

(٢) البخاري : كتاب التوحيد ، باب في المشيئة والارادة ج٨ / ١٩٢ ومسلم : في الايمان ، باب الشفاعة ، (شرح النووي ج٣ / ٧٤)

(٣) البخاري : كتاب الانبياء ، باب قول الله تعالى : انا ارسلنا نوحا الى قومه ج٤ / ١٠٤ ومسلم : كتاب الايمان ، باب الشفاعة ، (شرح النووي ج٢ / ٦٧ - ٦٩) واللفظ لمسلم

(٤) انظر : كتاب الشفاعة للشيخ مقبل بن هادي الوادعي ص ٨ - ١٣ ، الناشر دار الارقم الكويت ، الطبعة الاولى

قوله تعالى: (٠٠ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى)

- الانعام / ١٦٤ -

معنى الآية : لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس وزرها فالمنذوب لا يؤخذ بذنب غيره بل كل أحد مُختص بذنب نفسه لا يتحملة عنه أحد (١) وعلى هذا فإن ظاهر هذه الآية قد يُتوهم أنه يناغي مدلول آية أخرى

وهي قوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبلنا ولنحمل خطاياكم

وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ، وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) - العنكبوت / ١٢

فهذه الآية الكريمة دلت على أن الذين كفروا يحملون أثقالهم وهي ذنوبهم ، وأثقالا مع أثقالهم أى ذنوبا مع ذنوبهم ، مع أن الآية الأولى دلت على أنه لا أحد يحمل ذنب أحد

والجواب : أن قوله تعالى : (وليحملن أثقالا مع أثقالهم) إذا فهم

تفسيرها على الوجه الصحيح اندفع توهم التناهي ، فمعنى أنهم يحملون أثقالا مع أثقالهم : أنهم لما قاموا بإضلال غيرهم وتسببوا في ذنوبهم كان جزاؤهم أن يحملوا أثقال كفرهم وكفر من تبعهم ، فهي أثقال الاضلال الذى أشار اليه قوله تعالى : (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) ، ومعلوم أن أوزار الاضلال هي أوزارهم أنفسهم لتسببهم في ضلال الاتباع (٢)

وقوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) معناها : أنه لا أحد يتحمل ذنب أحد بحيث يتعثر المحمول عنه من الوزر ، فمن يذنب يكون مسؤو ولا عن ذنبه ، لا أحد يُسأل عن ذنب أحد ، حتى الابن لا يحمل آثام أمه بل كل نفس بما كسبت رهينة ،

والآية لم تنف أن أحداً يتحمل مثل وزر غيره لسبب مُعَيَّن وهو سبب الاضلال قال مجاهد (٣) : (يحملون وزر من أضلوه ولا ينقص من إثم المُضِل شيء) قال الفخر الرازى (٤) : (ومن أوزار الذين يضلونهم) : معناه يحصل للروءساء مثل أوزار الاتباع) اهـ

أخرج الامام مسلم والترمذى وابن ماجه (٥) عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا الى

(١) مفردات الراغب: ٥٢١ ، أحكام القرآن لابن العربي: ٢٢٤ / ٢٠٢ ، زاد المسير: ١٦٢ / ٣ ، فسير الرازى: ١٧٢ / ٢٠٠ تفسير ابن كثير: ٣١٩ / ٢

(٢) تفسير الرازى: ١٨ / ٢٠ ، ٤١ / ٢٥ ، القرطبي: ٢٣٠ / ١٠ ، فتح الرحمن: ١٨٢ تفسير ابن كثير: ٤٧ / ٣ الاسراء: ١٥ ، روح المعاني: ١٨٤ / ٢٢٤ ج ١٥ / ٣٥

وانظر القرطبي: ٩٦ / ١٠

(٣) تفسير ابن جرير : (٥) مسلم في كتاب العلم باب من سئل سنة حسنة أو سيئة / ١٦ والترمذى في كتاب العلم ، باب ما جاء فيمن دعا الى هدى ... رقم ٢٧٧٤ ج ٣ / ٤٣

(٤) تفسير الرازى: ٤١ / ٢٥

الى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من
أثامهم شيئاً)

وقد أفاد الواحدى^(١) رحمه الله - أن: (لغظة من في قوله : (ومن أوزار
الذين يُظْلونهم بغير علم)) ليست للتبعيض لأنها لو كانت للتبعيض لخف
عن الاتباع بعض أوزارهم وذلك غير جائز لقوله عليه السلام :
(من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً) ، ولكنها للجنس : أى
ليحملوا من جنس أوزار الاتباع) اهـ

وقال ابن الجوزى^(٢) : (وقد ذكر ابن الانبارى في " من " وجهين :
أحدهما : أنها للتبعيض ، فهم يحملون ما شركوهم فيه ، فاما ما ركبته
أولئك باختيارهم من غير تزيين هؤلاء فلا يحملونه فيصح معنى التبعيض ،
والثاني : أنها مؤكدة ، والمعنى : وأوزار الذين يُظْلونهم) اهـ
قلت : وعلى اعتبار أن " من " تبعيضية فليس هناك إشكال ، لأنه
يكون المعنى على تقدير ذلك : وليحملوا بعض أوزار من ضل بإضلالهم
على معنى : ومثل بعض أوزارهم ، والمراد بهذا البعض حصة التسبب ، فالمظل
والضال شريكان هذا يُضله وهذا يُطاعوه فيتحملان الوزر ، وللضال أوزار
غير ذلك لأنه يحملها المظل لأنه إنما يحمل ما تسبب به من غير أن
ينقص من أوزار الضال شيئاً^(٣)

وعلى هذا فإن الذي يظهر هو كون " من " تبعيضية لما تقدم
من أن للاتباع ذنوباً لم يتسبب فيها المظلون ، فلا جرم لا يتحملون
كل ذنوب الاتباع ، بل يتحملون ما تسببوا به وهو ما أفاده الحديث :

(فعليه اثمها وإثم من عمل بها)

فاقتصر تحمل الإثم على ما تسبب به دون ما غيره ، أما إذا كان المتبوع
متسبباً في أصل ضلال أتباعه ، كأن يصددهم عن الاسلام ، أو يحمل من أسلم
على الردة ، فلا شك أنه يحمل مثل أوزار المتبوع كاملة لأنه المتسبب
في كفره ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في رسالته لهرقل ملك الروم :

(أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فأنت توليت فان عليك

إثم الأريسيين)^(٤) ، أى اثم الاتباع الذين تصدهم عن الاسلام ،

(١) انظر تفسير الرازى : ١٨ / ٢٠ ، روح المعانى للالوسى : ١٢٤ / ١٤

(٢) زاد المسير : ٤٣٩ / ٤٤ (٣) روح المعانى : ١٢٤ / ١٤

(٤) أخرجه البخارى : كتاب الجهاد ، باب ١٠٢ دعاء النبي الى الاسلام والنبوة : ٢ / ٤

ومسلم : كتاب الجهاد والسير ، باب كتب النبي - على الله عليه وسلم -
(شرح النووى : ١٠٩ / ١٢) واللفظ لمسلم

وفي رسالته - صلى الله عليه وسلم - لكسرى ملك الفرس قال :

(أَسْلِمَ تَسْلَمَ فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمَ الْمَجُوسِ) (١)

قال الرازي (٢) عند تفسير قوله تعالى : (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يخلونهم بغير علم) : (ويحصل للرؤساء مثل أوزار الاتباع وليس المراد منه أنه تعالى يوصل العقاب الذي يستحقه الاتباع للرؤساء لقوله تعالى : (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) - النجم / ٣٩ -

وقوله : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) - الاسراء / ١٥ - بل المعنى أن الرئيس إذا وضع سنة قبيحة عظم عقابه حتى إن ذلك العقاب يكون مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع) (٣) ١٥

قلت : وبهذا يتبين لنا أن من يحمل إثما فهو مرهون به لا يتحمله عنه أحد، وأن هذا لا يُنافي أن الانسان يتحمل مثل آثام غيره الذين أضلهم، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا كما تقدم ، وعلى هذا نرى توافق الايات وتعاضدها ، ويندفع توهم الاختلاف بينها ، والله الموفق

٩ - قوله تعالى : (لا تُدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)

ظاهر هذه الآية قد يُتوهم منه نفي إمكانية رؤية الله تعالى في

الدنيا والآخرة ، بينما جاءت آية أخرى تثبت رؤية المؤمنين لربهم

تبارك وتعالى في جنات النعيم وهي قوله تعالى :

(وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة) - القيامة / ٢٢ -

والجواب عن ذلك تقدم في الباب الأول ، فصل أسباب إيهام الاختلاف ، السبب الرابع (٣)

١٠ - قوله تعالى : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) - المائدة / ٥ -

ظاهر هذه الآية أن من يرتد بعد إيمانه يحبط عمله الماضي ، سواء رجع الى الايمان أو لم يرجع ، وجاءت آية أخرى يُفهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى : (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) - القرة / ٢١٧

فهذه الآية قيّدت حبوط الأعمال بالموت على الردة ، وليس بمطلق

الردة كما هو مفهوم الآية الاولى ،

والجواب عن ذلك تقدم في الباب الأول ، فصل أسباب إيهام الاختلاف

السبب الثالث (٤)

(١) صحيح البخارى : كتاب المغازى ، باب كتاب النبي الى كسرى وقيصر : ج ٥ / ١٢٦

(٢) تفسير الرازي : ج ٢ / ١٨ (٣) ص : (٤) ص

الفصل الثاني

موهم آيات النبوة والرسالة

وردت آيات في القرآن الكريم تتحدث عن النبي الأمي خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهذه الآيات منها ما يتحدث عن أخلاقه العظيمة وصفاته الجليلة ، ومعاملته مع الكفار والمنافقين وموقفه منهم أو تتحدث عن معاملته للمؤمنين وغير ذلك ، وقد جاء في بعض هذه الآيات ما قد يُتوهم منه الاختلاف والتعارض بسبب عدم التدبر أو الفهم الصحيح لمقاصد الآيات ومعانيها المُساقاة لها ،

١ - قوله تعالى : (فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين) المائدة/٤٢
هذه الآية الكريمة فيها أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - اذا جاءه أهل الكتاب ليحكم بينهم فيما شجر بينهم من الخصومات مُخَيَّر بين الحكم بينهم بما أراه الله وبين الإعراض عنهم وهذا في الظاهر معارض لقوله تعالى :

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) - المائدة/٤٩
والجواب من وجهين :

الوجه الاول : واليه ذهب ابن عباس وأكثر السلف أن الآية الثانية والتي فيها وجوب الحكم بينهم بما أنزل الله ناسخة للآية الاولى والتي فيها التخيير بين الحكم أو الاعراض عنهم ، وقالوا :
إنَّ التخيير كان في أول الأمر وفي مرحلة مبكرة من المرحلة المدنية فلما نزل قوله تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) لزمه وزال التخيير

قال ابو جعفر النحاس^(٢) : (وهو الصحيح من قول الشافعي ، قال في كتاب الجزية^(٣) : (ولا خيار له اذا تحاكموا اليه لقوله عز وجل : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) - التوبة / ٢٩ -

(١) تفسير الطبري : تحقيق محمود شاكر ، تفسير الماوردي : ج١ / ٤٦٨

زاد المسير : ج٢ / ٣٦١ ، تفسير الرازي : ج١١ / ٢٤٢ ، القرطبي : ج٦ / ١٨٦

تفسير ابن كثير : ج٢ / ٩٥ ، المائدة / ٤٢

(٢) الناسخ والمنسوخ : ١٦٠ ، وانظر : تفسير القرطبي : ج٦ / ١٨٦

احكام القرآن للشافعي جمع البيهقي : ج٢ / ٧٧-٧٩ ، شرح النووي : ج١١ / ٢٠٨

(٣) انظر الأم للامام الشافعي : ج٤ / ٢١٠

وهذا من أصلح الاحتجاجات ، لأنه إذا كان معنى " وهم صاغرون " :
أن تجرى عليهم أحكام المسلمين ، وجب ألا يُردّوا الى أحكامهم ، فإذا
وجب هذا فالآية منسوخة ، وهو أيضا قول الكوفيين: أبى حنيفة وزفر وأبى
يوسف ومحمد ، لا اختلاف بينهم ، إذا تحاكم أهل الكتاب الى الامام أنه ليس
له أن يعرض عنهم (١٠) اهـ

(١) ومذهب الشافعي : أنه يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بين أهل
الذمة اذا تحاكموا اليه ، لأن في إمضاء حكم الاسلام عليهم صغار لهم ،
فأما المعاهدون الذين ليس لهم منع المسلمين عهد الى مدة فليس بواجب
على الحاكم أن يحكم بينهم بل يتخير في ذلك ، وهذا التخيير الذي
في الآية مخصوص بالمعاهدين الذين ليس لهم ذمة

وعلى هذا فان الشافعي رحمه الله ومن وافقه يرون أن التخييرين
الحكم بين أهل الذمة وبين الاعراض عنهم منسوخ بالآية الاخرى : (وأن
احكم بينهم بما أنزل الله ...) ، وأن الذي خصّ أهل الذمة بالنسخ
دون غيرهم من أهل الكتاب المواعدين للمسلمين الذي خصّهم بذلك هو مدلول
قوله تعالى : (حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) - التوبة / ٢٩ -

وعلى هذا الوجه فليس هناك مجال لتوهم الاختلاف بين الايتين ، إذ
انه لا تعارض بين الناسخ والمنسوخ

الوجه الثاني

أن الآيّة محكمة ، وأن الامام ونوابه مخيرون في الحكم اذا ترافع
اليهم أهل الكتاب ، إن شاءوا حكموا بينهم وإن شاءوا أعرضوا عنهم
وهذا مروي عن الحسن وقتادة والشعبي والنخعي والزهرى ، وبه قال الامام
احمد بن حنبل والامام مالك بن أنس (٢) واختاره ابو جعفر الطبرى (٣) لعدم
التعارض بين الايتين ولأنه لم يصح به خبر عن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وليس فيه اجماع ، قال ابن الجوزى (٤) :

(وهو الصحيح لأنه لا تنافي بين الايتين ، لأن أحدهما خیرت بين
الحكم وتركه ، والثانية بينت كيفية الحكم اذا كان (١٠) اهـ

(١) الأم : ٢١٠ / ٤ طبعة ثانية ، دار المعرفة ، أحكام القرآن للشافعي ،
جمع البيهقي : ٧٩ / ٢ ، السنن الكبرى للبيهقي : ٢٤٨ / ١ ، الرازي : ٢٤٢ / ١١
(٢) تفسير الطبرى : ٣٣٠ / ١٠ ، الماوردي : ٤٦٨ / ١ ، زاد المسير : ٣٦١ / ٢
القرطبي : ١٨٤ / ٦ ، الرازي : ٢٤٢ / ١١
(٣) تفسير الطبرى : ٣٣ / ١٠ (٤) زاد المسير : ٣٦١ / ٢

اي أن معنسى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) : اذا حكمت بينهم فاحكم بما أنزل الله لا باتباع الهوى ، فالاية الثانية متممة للاولى فالرسول - صلى الله عليه وسلم - مُخَيَّرَ بمقتضى الاية الاولى بين أن يحكم بينهم وأن يعرض عنهم ، واذا اختار أن يحكم بينهم وجب أن يحكم بما أنزل الله بمقتضى الاية الثانية ،

وَعَلَّتْ هَذَا الْوَجْهَ لَا مَجَالَ لِتَوْهَمِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ الْاِيتَيْنِ اَيْضًا
لما تقدم من وجه الجمع بينهما ، والله ولي التوفيق

٦- قوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ...)
الآية - الاحزاب / ٥٠ -

هذه الآية بينت ما أحله الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - من أصناف النساء ، وقد جاءت آية أخرى بعدها مباشرة تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى :

(لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ، إلا ما ملكت يمينك ، وكان الله على كل شيء رقيباً)
الاحزاب / ٥٢ -

والجواب عن ذلك من وجهين :

الوجه الاول : أن قوله تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد ...)

معناه : أى من بعد النساء التى أحلهن الله لك فى قوله : (... إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك ...) الآية

وما سوى المذكور فى الآية من أصناف النساء فلا يحل له ، وهو قول أبي بن كعب ومجاهد فى رواية وعكرمة والسدي وغيرهم ، واختار ذلك ابن جرير الطبرى وأبو حيان فى تفسيريهما (١)

قلت : وظاهر أن أصحاب هذا القول يرون أن الآيتين متممتان لبعضهما وأنه يستفاد من مجموعهما بيان ما أحله الله تعالى لرسوله ، وهو ما ورد فى نص الاية الاولى ، وأن الآية الثانية جاءت لبيان عدم إحلال سوى ما نصت عليه الاية الاولى ، وأنه لا نسخ بينهما

(١) تفسير ابن جرير الطبرى : ج ٢٢ / ٣٠ طبعة الحلبي
تفسير أبي حيان : ج ٧ / ٢٢٤ ، تفسير ابن كثير : ج ٢ / ١٧٩٨ الاحزاب / ٥٢

الوجه الثاني :

(١) وهو قول أكثر السلف وجمهور المفسرين أن الآية الأولى ناسخة
للآية الثانية ، وبيان ذلك هو ما قاله الامام القرطبي^(٢) - رحمه الله :
(لما خير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نساءه فاختارنه حرم عليه
التزوج بغيرهن والاستبدال بهن مكافأة لهن على فعلهن ، والدليل على ذلك
قوله تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو
أعجبك حسنهن ...) الآية ثم نسخ هذا التحريم فأباح له أن يتزوج بمن
شاء عليهم من النساء ، والدليل عليه قوله تعالى : (إنا أطينا لك
أزواجك ...) والاحلال يقتضي تقدم الحظر ، وزوجاته اللاتي في
حياته لم يكن محرمات عليه ، وانما كان حرم عليه التزوج بالاجنبيات
فانصرف الاحلال اليهن - اي الاجنبيات - ، ولأنه قال في سياق الآية :
(وبنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن
معك ...) الآية ومعلوم أنه لم يكن تحته أحد من بنات عمه ولا من
بنات عماته ، ولا من بنات خاله ولا من بنات خالاته ، فثبت أنه أحل
له التزوج بهذا ابتداء ، وهذه الآية وان كانت مقدمة في التلاوة فهي
متأخرة النزول على الآية المنسوخة بها (...) اهـ

قلت : ومما يؤكد ان آية الاحلال ناسخة لآية الحظر هو
ما ثبت عن اعلم الناس بالمسألة وهن أزواجه - صلى الله عليه وسلم -
لأن احلال غيرهن من الضرات أو عدمه يستحوذ على اهتمامهن ، فهن
صاحبات القصة وقولهن في هذه المسألة مقدم على كل قول ، ومعلوم
انه اذا ثبت النسخ فانه يقدم على الجمع بين النصين ، لأنه يتبين
به مراد الشارع ،

اخرج الامام احمد^(٣) والترمذي^(٤) والنسائي^(٥) والحاكم^(٦)
عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت :
(ما مات - صلى الله عليه وسلم - حتى أحل الله له النساء)
وفي رواية للنسائي : (حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء)
واخرج ابن ابي حاتم في تفسيره عن أم سلمة - رضي الله عنها انها قالت :
(لم يمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء
ما شاء الا ذات محرم ، وذلك قوله تعالى : (ترجي من تشاء منهن ...) الآية
قلت : فبان بذلك ثبوت النسخ وان التحليل جاء بعد الحظر ، ولذلك فان
هذا الوجه هو الذي يترجح لما تقدم من الأدلة والله ولي التوفيق

(١) تفسير الطبري : ٢٢ / ٢٩ فما بعدها ، تفسير ابن كثير : ٣ / ١٧٩٨ الاحزاب / ٥٢
زاد المسير : ٤١١ / ٦ ، القرطبي : ٢٠٦ / ١٤ ، روح المعاني : ٦٦ / ٢٢
(٢) في تفسيره : ٢٠٦ / ١٤ (٣) مسند احمد : (٤) الترمذي في التفسير : ج ٤ / ٣٥٦ وحنه
(٥) كتاب النكاح ج ٦ / ٥٦ رقم ٢٣٠٥ بسند صحيح (٦) المستدرک : ج ٢ / ٤٣٦ كتاب التفسير وقال : صحيح
(٧) نقلاً عن ابنه كثير : ج ٣ / ٧٩٨
على شرط الشيخين ، ووافقه الاصبهاني

٣ - قوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى ٠٠٠) - الضحى / ٧ -

هذه الآية قد يُتوهم من ظاهرها أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - جاءه وقت من الأوقات كان فيه ضالاً (١) ، مع أنه جاء آيات أخرى تدل على خلاف هذا التوهم وهي قوله تعالى :

(ما ضل صاحبكم وما غوى ٠٠٠) - النجم / ٢ -

وقوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) - الروم / ٣٠ -
فهاتان الايتان تدلان على أنه - صلى الله عليه وسلم - قد فُطر على هذا الدين الحنيف ، وقد ثبت أنه - صلى الله عليه وسلم - كان قبل نزول الوحي عليه يتعبد في غار حراء ، ويكره ما عليه قومه من الشرك والضلال ، ولم يسجد لصنم قط ، وكل ذلك دليل على بقاءه على الفطرة ، بعيداً عن كل ضلال أو اعتقاد فاسد ، وهو صريح قوله تعالى :
(ما ضل صاحبكم وما غوى)

لذلك فان قوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) لا ينافي مدلول ذلك لأن المراد بالضلال هنا هو الغفلة وذهاب العلم ، كقوله تعالى : (أن تضل إحداهما فتذكر إحداها الأخرى) - البقرة / ٢٨٢ فيكون المعنى : ووجدك غافلاً عن معالم النعمة وأحكام الشريعة وأسرار علوم الدين التي لا تُعلم بالفطرة والعقل وإنما تُعلم بالوحي ، فهذا الى ذلك بما أوحى إليك كما في قوله تعالى :

(ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) - الشورى / ٥٢ -

وقوله : (وإن كنت من قبله لمن الغافلين)

وقوله : (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) - النساء / ١١٣

قال الشوكاني (٢) - رحمه الله - : (والضلال هنا بمعنى الغفلة كما

في قوله تعالى : (لا يضل ربي ولا ينسى) - طه / ٥٢ -

وكما في قوله : (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) - يوسف / ٣ -

والمعنى : أنه وجدك غافلاً عما يُراد بك من أمر النبوة ، وقيل : معنى

ضالاً : لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع فهذا لك (٠) اهـ

(١) انظر كتاب : رد مفتريات علي الاسلام ، د . عبد الجليل شلبي ص : ٣٨

حيث ذكر فيه ما أوهمه بعض المنصرين حول هذه الآية

(٢) زاد المسير : ١٥٨ / ٩ ، تفسير الرازي : ٢١٦ / ٣١٦ ، القرطبي : ٩٦ / ٢٠

تفسير ابن كثير : ٨٢٨ / ٤٦ ، روح المعاني : ٣٠ / ٣٠٧ ، أضواء البيان : ٣٣٤ / ١٠

(٣) فتح القدير : ٤٤٥ / ٥ ، وانظر تفسير القرطبي : ٢١٦ / ٢٠

(١) وقال الفخر الرازي بعد أن نقل عن بعضهم أن المراد بالضلال في الآية هو الكفر، قال راداً على ذلك : (... ثلثها كنت ضالاً عن النبوة) ما كنت تطمع في ذلك ولا خطر شيء من ذلك في قلبك ، فان اليهود والنصارى كانوا يزعمون أن النبوة في بنى اسرائيل ، فهديتك الى النبوة التي ما كنت تطمع فيها البتة . اهـ

قلت : ومما يدل على ما تقدم إضافة الى تعبدك - عليه الصلاة والسلام - في غار حراء قبل نزول الوحي عليه ، ما كان من إرهابات النبوة له - عليه الصلاة والسلام -

(٢) فمنها ما رآته حليمة السعدية من بركته - صلى الله عليه وسلم -

ومنها حادثة شق الصدر وهو يلعب مع الغلمان في بني سعد ، وإخراج حظ الشيطان منه ، روى الامام مسلم (٣) عن أنس رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتاه جبريل - صلى الله عليه وسلم - وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه يعني ظئره ، فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره . (٤)

ومنها : لما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة وارتحل به عمه أبيو طالب تاجراً الى الشام حتى وصل الى بصرى من بلاد الشام ، ولقيهم راهب يدعى بحيرى خرج اليهم وأكرمهم بالضيافة ، وكان لا يخرج اليهم قبل ذلك وعرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمفته فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ،

فقال أبو طالب : وما علمك بذلك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخر ساجداً ولا تسجد الا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غزوقه كتفه مثل التفاحة ، وإننا نجده في كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يرده ولا يقدم به الى الشام ، خوفاً عليه من اليهود ، فبعثه عمه مع بعض غلمانهم الى مكة (٥)

(١) تفسير الرازي : ٢١٦ / ٣١

(٢) انظر تفصيل قصة رضاعه عليه الصلاة والسلام في كتب السيرة والحديث :

سيرة ابن هشام : ج١ / ١٦٢ - ١٦٣ ، صحيح ابن حبان : (موارد الظمآن : ٢٠٩٤)
الرحيق المختوم : ٦٣ - ٦٤ للشيخ صفى الرحمن المباركفوري

(٣) في صحيحه : كتاب الايمان ، باب الاسراء (شرح النووي : ج٢ / ٢١٦)

(٤) المخيط : بكسر الميم واسكان الخاء المعجمة وفتح الياء : وهي الابرّة

(٥) سيرة ابن هشام ، ج١ / ١٨٠ ، واخرجه الترمذي (ج٥ / ٥٩٠ كتاب المناقب باب ٣) وحسنه وهو حديث صحيح رجاله ثقات ، انظر : مشكاة المصابيح تحقيق الشيخ الالباني : ١٦٦٤ / ٣
والصحيح المند من دلائل النبوة للشيخ قبل بن هادي الوادعي ص : ٦١

ومنها : سيرته - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة وما امتاز به من أخلاق
وابتعاد عن أسباب الرذيلة والمنكرات ، فكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما
نُبح على النصب ، ولا يحضر للأوثان عيدا ولا احتفالا ، وكان لا يصبر
على سماع الحلف بغير الله (١) ، حتى ان نفسه كانت مجبولة على
الخير معصومة من الدنس والتقاليد غير المحمودة ،

روى الحاكم (٢) عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال :
(سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (ما هممت بما كان أهل
الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر ، كلاهما يعصمني الله تعالى
منهما ، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش في أغنام لأهلها ترعى :
ابصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الغتيان
.... الحديث وفيه أن الله تعالى أنامه فلم يسمع شيئا من ذلك السمر
الى أن قال : فوالله ما هممت بعدها أبدا بسوء مما يعمل أهل الجاهلية
حتى أكرمني الله بنبوته .) اهـ

فإذا كان قد عصم من سماع اللهو والسمر ، فلأن يكون معصوما من
الضلال والكفر أحرى وأولى
قال الامام القرطبي (٣) : (غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي
عليه وقت من الاوقات الا وهو لله موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه
بريء .) اهـ

هذا وقد استدلل بالحديث المتقدم الائمة العلماء على عصمة الله تعالى
لنبيه - صلى الله عليه وسلم - قبل النبوة وحفظه إياه من جميع أعمال الجاهلية
وقد أجمعت الامة على عصمتهم من وقوع الكفر منهم قبل البعثة ، وحكى
هذا الاجماع صاحب المواقف ، وقال شارحه : بلا خلاف لأحد منهم في ذلك (٤)
قلت : وهذه الارهاصات المتقدمة وغيرها انما تدل على صفاء فطرته وعدم
تلوثها بشيء من شرك او معتقد فاسد ، والله تعالى اعلم وهو ولي التوفيق

(١) سيرة ابن هشام : ج١ / ١٢٨ ، الرحيق المختوم : ٧٢

(٢) المستدرک : ج٤ / ٢٤٥ ، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي

وابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن : ص ٥١٥ رقم : ٢١٠٠)

وقال السيوطي في الخائص الكبرى (ج١ / ٢١٩) تحقيق الدكتور محمد خليل هراس
قال : أخرجه ابن راهويه في مسنده وابن اسحق والبزار والبيهقي وابو نعيم في
الدلائل وابن عساکر عن علي بن أبي طالب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم -
فذكر الحديث ثم قال : قال ابن حجر : اسناده حسن ورجاله ثقات

(٣) في تفسيره : ج٧ / ٢٥

(٤) شرح الشفا لعلی القاری ج١ / ٤٨٣ بها مش نسیم الرياض لشهاب الدين الخفاجي

آیات عتاب المصطفى ، د . عويد المطرفی : ٢٨

(٥) شرح المواقف : ج٨ / ٢٦٤

٤ - قوله تعالى : (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى
إلا على الله وهو على كل شيء شهيد) - سبأ / ٤٧ -

وقوله تعالى : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين)
- ص / ٨٦ -

وقوله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين)
- الانعام / ٩٠ -

هذه الايات تفيد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يطلب على

تبليغه رسالة ربه أجرا لأن أجره إنما هو على الله تعالى، والدعوة

والتبليغ إنما هي وظيفته التي كُلف بها من قبل الله تعالى ،

كما أن عدم طلب الأجر على التبليغ هو شأن جميع الرسل - صلوات

الله وسلامه عليهم - كما جاء على لسان نوح وهود وصالح عليهم السلام -

في قول كل نبي لقومه : (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على

الله رب العالمين) - الشعراء / ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ -

وقد جاء في آية أخرى ما قد يُتوهم منه مخالفة مضمون هذه

الآيات ، وهو قوله تعالى :

(قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) - الشورى ٢٣ -

والجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه :

الوجه الاول : أن الاستثناء في قوله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا

المودة في القربى) ليس متصلا ، بمعنى : أن المودة في القربى ليست

أجرا حتى تستثنى من الأجر ، وعلى هذا فإن الاستثناء منقطع ، والتقدير

لا أسألكم على التبليغ أجرا لكن أسألكم مودتي في قرابتي ،

قال ابن جرير (١) : (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بظاهر

التنزيل قول من قال : معناه قل لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش

إلا أن تودوني في قرابتي منكم وتملوا الرحم التي بيني وبينكم) اهـ

(٢) أخرج البخاري عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى : (إلا المودة

في القربى) ، فقال سعيد بن جبير : قُربى آل محمد ، فقال ابن عباس :

عجلت ، إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم

قرابة ، فقال : إلا أن تملوا ما بيني وبينكم من القرابة)

والمعنى إنكم قومي وأحق من أجنبي وأطاعني فإذا أبيتم ذلك فاحفظوا

حق قرابتي ولا تؤذوني ولا تهيجوا علي ، وهذا التفسير من ابن عباس يدل

على أن الاستثناء منقطع (٣)

(١) تفسير ابن جرير : ج ٢٥ / ١٧ طبعة دار المعرفة

(٢) صحيح البخاري : كتاب التفسير ، سورة الشورى ، ج ٦ / ٣٧

(٣) انظر : تفسير الرازي : ج ٢٧ / ١٦٥

قال اللوسي^(١) رحمه الله - : (وعلك اعتبار أن الاستثناء منقطع تنتفي
المُنافاة المتوهمة بين هذه الآية والآيات المتضمنة لنفي سؤال الأجر
مطلقاً .) اهـ

وقال القرطبي^(٢) : (قال الزجاج : إلا المودة : استثناء ليس من الاول
اي إلا أن تودوني لقرايتي فتحفظوني ، والخطاب لقريش خاصة .) اهـ

الوجه الثاني :

أن الاستثناء منقطع أيضا ، لكن تقدير المعنى : قل لا أسألكم
عليه أجرا لكن أذكركم قرايتي وعترتي فاحفظوني فيهم ولا تودوهم^(٣)
فالقربى على هذا الوجه بمعنى الأقارب ، والخطاب لجميع الامّة
أخرج الامام مسلم^(٤) عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : (... أذكركم الله فلي. أهل بيتي ، أذكركم
الله في أهل بيتي .)
والمودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم ، وقراءة النبي - صلى الله
عليه وسلم - أولى وأحرى بذلك

الوجه الثالث :

أن المعنى : إلا أن تتودبوا إلى الله تعالى فيما يقربكم
إليه من العمل الصالح ، والتقرب إلى الله ليس أجرا على
التبليغ ، وهذا مروي عن ابن عباس والحسن وقتادة^(٥)
وعلى هذا فالقربى هي فعلى من القرب والتقرب ، فيصبح تقدير الآية :
لا أسألكم عليه أجراً لكن أطلب منكم التودد إلى الله بالعمل
الصالح والتقرب إليه ، فتبليغي لكم لمنفعتكم أنتم لتقريبكم إلى الله
على حد قوله تعالى : (قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء
أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) - الفرقان / ٥٥ -

أى إلا من شاء أن يتخذ إلى ثواب ربه سبيلاً ، فأنا أدله على ذلك
وعلى هذا فإن الاستثناء في الآية منقطع أيضا ،

وعلى جميع هذه الأوجه ينتفي توهم الاختلاف بين الآيات ، حيث

إن الاستثناء منقطع في جميع هذه الأوجه ، وعلى هذا فليس هناك سؤال
للأجر حتى يمتوهم الاختلاف بين الآيات ، وكل هذه الأوجه حسنة إلا أن
الوجه الاول في معنى القربى عليه جمهور المفسرين وهو الأرجح حسب ما يظهر والله أعلم

(١) روح المعاني : ٣٠/٢٥ ، وانظر : زاد المسير : ٢٨٤/٧ ، الرازي : ١٦٥ / ٢٧

(٢) تفسير القرطبي ٢١/١٦ (٣) تفسير ابن كثير : ١٦٨/٤ ، الرازي : ١٦٥ / ٢٧

زاد المسير : ٢٨٤/٧ ، القرطبي : ٢١/١٦ ، روح المعاني : ٣٠ / ٢٥

(٤) صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل علي بن أبي طالب ، (شرح النووى : ١٨٠/١٥)
والحمد لله منده ج ١١٩/٢ ، ج ٢٦٧/٤

(٥) تفسير ابن جرير : ١٧ / ٢٥ ، ابن كثير : ١٩٦/٤ الشورى ٢٢ ، زاد المسير : ٢٨٥/٧
القرطبي : ٢١ / ١٦

٥- قوله تعالى : (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) - القصص / ٥٦ -

هذه الآية نزلت في عم الرسول أبي طالب لما حضرته الوفاة ، وأبى أن يقول كلمة التوحيد ، أخرج مسلم^(١) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : (قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمة : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة ، قال : لولا أن تعيرني قريش يقولون إنما حملته الجزع لأقررت بها عينك ، فأنزل الله : (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) (١٠) اهـ

وهناك آية أخرى تثبت للنبي الهداية ، وهي قوله تعالى :

(وانك لا تهدي إلى صراط مستقيم ٠٠٠) - الشورى / ٥٢ -

فظاهر هذه الآية قد يتوهم منه منافاة ما دلت عليه الآية الأولى من عدم قدرة الرسول على هداية من أحب ،

والجواب عن ذلك : أن الهداية المنفية عن الرسول غير الهداية المثبتة ، لأن الهداية المنفية هي هداية التوفيق ، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يقدر أن يدخل الإيمان في قلب أحد وإن بذل فيه غاية المجهود ، لأن تمكين الهداية في القلوب هو من فعله سبحانه فمن شاء هدايته شرح صدره للإسلام ووفقه للدخول فيه ، فهو يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين المتصفين بصفات الهداية المرئيين لها والمستعدين لها والباحثين عن الحق ، وهذه الآية كقوله تعالى : (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) - البقرة / ٢٧٢ -

والآية جاءت لتسليّة الرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث لم ينجح إنذاره وما جاء به من الحق في كثير من قومه الذين يحبهم ويحرص على هداهم أشد الحرص ، بل أصروا على ما هم عليه وحاربوه^(٢)

أما الهداية المثبتة له - صلى الله عليه وسلم - فهي : هداية البيان والدعوة والدلالة ، فهو صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى صراط مستقيم ويبين للناس ويدلهم على خير الدنيا والآخرة ، وليس عليه إلا البلاغ

(١) صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يخرغر (شرح النووي : ج ١ / ٢١٤) ، قال النووي : وقد اجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب (المصدر السابق : ١ / ٢١٥) وانظر زاد المسير : ٢٣١ / ٦

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ٦٢٨ ، الرازي : ٢ / ٢٥ ، روح المعاني : ٢٠ / ٩٦

فهذا عمه أبو طالب أقربُ الناس إليه وكافله وحاميه والذائد عنه ،
لا يملك الرسول سوى أن يدعو ويُبين له ويدله على طريق الحق والخير ،
ولكن أبا طالب لم يُكتب له الايمان على شدة حبه لرسول الله - صلى الله
عليه وسلم وشدة حُبِّ الرسول له أن يؤمن (ذلك أنَّ أبا طالب إنما قصد
الى عصبية القرابة وحُبِّ الأبوة) ولم يقصد الى العقيدة ، وقد علم الله
هذا منه ، والهدى والضلال وفق ما يعلمه سبحانه من قلوب العباد
واستعدادهم للهدى والضلال (ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم
بالمهتدين) (١)

قال الراغب الاصفهاني (٢) : (الهداية : دلالة بلطف ، ومنه
الهدية ، وهوادي الوحش : أى متقدماتها الهادية لغيرها ، وهداية الله
تعالى للانسان على أربعة أوجه :

الأول : الهداية التى عمَّ بجنسها كل مكلف من العقل والخطنة
والمعارف الضرورية التى أعمَّ منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله ،
كما قال : (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) - طه / ٥٠ -

الثاني : التوفيق الذى يختص به من اهتدى ، وهو المعنى بقوله تعالى :
(والذين اهتدوا زادهم هُدى) - محمد / ١٧ -

وقوله : (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ) - التَّوْبَةِ / ١١ -

وقوله : (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) - النور / ٤٦ -

الثالث : الهداية التى جعل للناس بدعائه إياهم على السنة الانبياء
وإنزال القرآن ونحو ذلك ، وهو المقصود بقوله تعالى : (وجعلنا منهم
أئمة يهتدون بأمرنا) - السجدة / ٢٤ -

الرابع : الهداية فى الآخرة الى الجنة ، المعنى بقوله :
(سيهديهم ويصلح بالهم) -

وقوله : (ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ) - الى قوله : الحمد لله الذى
هدانا لهذا) - الاعراف / ٤٣ - ،

وهذه الهدايات الاربع مترتبة فإنَّ مَنْ لم يحصل له الاولى لا تحصل
له الثانية ، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة ...
والانسان لا يقدر أن يهتدى أحدا الا بالدعاء وتعريف الطرق دون أنواع سائر
الهدايات ، والى الاول أشار بقوله : (وانك لتهدى الى صراط مستقيم)
(يهتدون بأمرنا) (ولكل قوم هاد) أى داع ،

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب : ج ٥ / ٢٧٠٢

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهاني : ٥٣٨ كتاب الباء ، ونقلت كلامه
بطوله مع بعض الحذف لعظم فائدته وحسن مسلكه ودقة فهمه

والى سائر الهدايات أشار بقوله : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)
 وكل هداية ذكر الله عز وجل أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية
 الثانية ، وهي التوفيق الذى يختص به المهتدون ، والرابعة التى هي الثواب
 فى الآخرة وإدخال الجنة نحو قوله تعالى : (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا ۖ
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) - آل عمران / ٨٦ -
 وكقوله : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا
 يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) - النحل / ١٠٧ -

وكل هداية نفاها الله عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن البشر
 وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق
 وذلك كإعطاء العقل وإدخال الجنة ، كقوله عز ذكره : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) - البقرة / ٢٧٢ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى
 الْهَدْيِ) - الانعام / ٣٥ - (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ) - الروم / ٣٥ -
 (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ، والى هذا المعنى
 أشار بقوله تعالى : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مَوَّافِينَ) - يونس / ٩٩ -
 أي طالب الهدى ومُتَحَرِّيه هو الذى يوفقه ويهديه الى طريق الجنة ، لا
 من ضاده فيتحرى طريق الضلال والكفر ، كقوله : (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) - البقرة / ٢٥٨ -
 - البقرة / ٢٦٤ - وفي أخرى : (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) - البقرة / ٢٥٨ -
 وقوله : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) - الزمر / ٣ -
 والكاذب الكفار هو الذى لا يقبل هدايته ٠٠٠٠ ومن لم يقبل هدايته لم
 يهده ٠) انتهى المراد

قلت : نلاحظ كيف فصل لنا هذا الامام معاني الهداية والتي جاءت
 فى القرآن ، وأن الذى يحدد كل معنى هو سياق الآية ولغظها ، وهذا الفهم
 لا يحصل الا بتدبر كتاب الله ، وتوهم الاختلاف انما يأتي من قلة التدبر
 والجهل باللغة وأساليب استعمالها ، ولهذا قال الله تعالى :
 (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
 كَثِيرًا) - النساء / ٨٢ -

(١) تمام الآية : (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ
 الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

٦ - قوله تعالى : في حق الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

(وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) - النجم/٤٣ -

هذه الآية الكريمة تدل بظاهرها على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يجتهد في شيء لأن كل ما ينطق به إنما هو وحي يوحى ، وهذا في الظاهر قد يُتوهم منه مخالفة ما جاء في آيات أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم - قد اجتهد^(١) في بعض المسائل قبل نزول الوحي في تلك المسائل كما في آيات العتاب^(٢)

(١) جواز اجتهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعمله بالاجتهاد في الأحكام الشرعية والامور الدينية والحروب هو قول الجمهور من العلماء ، ومن أصرح أدلتهم في ذلك ما جاء في آيات العتاب والتي تدل على أن الرسول قد اجتهد في تلك الوقائع فجاء الوحي بعد ذلك ببيان أن الأولى خلاف ذلك ، من ذلك مثلاً ما حصل بعد غزوة بدر بشأن الأسرى حيث شاور الرسول أصحابه في شأن الأسرى ، والمشاورة لا تكون إلا فيما لم ينزل فيه وحي ، وكذلك حكمه - صلى الله عليه وسلم - بعد استطلاع آراء أصحابه بأخذ الغداء ، والذي يدل على أن هذا الحكم باجتهاد منه نزول الوحي بقوله تعالى : (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) ولو كان ما أخذوه من الغداء بوحي من الله ما نزل ذلك ،

كما استدلل القائلون بجواز الاجتهاد للرسول وعمله بذلك استدلوا بنصوص كثيرة من السنة منها : ما رواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - في بعث فقال : إن وجدتم فلانا وفلانا فأحرقوهما بالنار ، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أردنا الخروج : إني أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا وإن النار لا يعذب بها إلا الله ، فان وجدتموهما فاقتلوهما) البخاري : الجهاد ، باب ١٤٩ لا يعذب بعذاب الله ج ٤ / ٢١ ولو كان ما أمر به أولاً عن وحي لما رجع عنه ، وقد استدلل بهذا الحديث الحافظ ابن حجر على : جواز الحكم بالشيء اجتهداً ثم الرجوع عنه ، فتح الباري : ١٥٠/٦ وراجع للتوسع في الموضوع ومعرفة أدلة الجمهور ومخالفهم : كتاب : آيات عتاب المصطفى في فضاء العصمة والاجتهاد ، د . عويد بن عياد المطرقي من : ٦٨ - ٩٥ وانظر : المستصفى : ٣٥٦/٢ ، الأحكام للآمدي : ١٤٣/٤ ، تفسير الزمخشري : ٢٨/٤ ، تفسير الرازي : ٢٢٢/٢٨ ، ٥٦/١٧ ، شرح النووي : ١٤١/١ ، ارشاد الفحول للشوكاني : ٢٥٦

(٢) العتاب في اللغة : يستعمل ليعان منها أن العتاب مخاطبة اللادلال والاشفاق ، وعتاب الله للنبيه - صلى الله عليه وسلم - تذكيره في تلاف واشفاق بما يقع من الخطأ في اجتهداه توعداً إلى تصحيح هذا الخطأ الذي يعود بالرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى موافقة قرار الله تعالى ، وتحقيق المطلوب منه عليه الصلاة والسلام فينال كامل الرضا - ، آيات عتاب المصطفى : ١٠٤ فاجتهاد الرسول إما أن يكون صواباً فيقره الله عليه ولما أن يكون خلاف مراد الله فيصوب ، فيرجع الأمر إلى الوحي

وذلك مثل قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) - براءة / ٤٣ -

هذه الآية جاءت عندما أذن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لجماعة من المنافقين بالتخلف عن الغزو ، حيث أذن لهم قبل أن ينكشف حالهم ، فجاء العتاب على المسارعة بالاذن لهم بالقعود دون أن يتلبث بهم حتى ينكشف سرهم ، ويظهر الصادق من الكاذب ، لذا فإن العتاب قد جاء على مخالفة ما هو أولى بالحزم في حق هؤلاء المنافقين (١)

وكما في قوله تعالى : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) - براءة / ١١٣ - (٢)

ومعنى الآية حسب ما سقت له : النهي عن الاستغفار للمشركين : أى لا تستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لكم أنهم ماتوا على كفرهم وأنهم من أهل النار ، وقد نزلت الآية لما عرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - الإيمان على عمه أبي طالب فأبى ومات على الكفر ، فقال الرسول : (والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنّه عن ذلك) (٣) ، مع أنه تبين له أنه مات على كفره لقوله تعالى : (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) ، فالعتاب في الآية وارد على ما أدّاه اجتهد الرسول من جواز الاستغفار للمشرك الذى تبين أنه من أصحاب الجحيم ، وهذا لا يجوز في في مراد الله ، لأن من مات على الكفر لا يُستغفر له ولا يوعده بالاستغفار له (٤)

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٩٢/٢ ، تفسير أبي السعود : ٢٧٢ / ٢
روح المعاني للآلوسي : ١٠٧/١٠ ، آيات عتاب المصطفى : ١٥٨ - ١٦١
والذى يدل على أن الآية جاءت عتاباً على خطأ في الاجتهاد - وهو الإسراع بالاذن قبل تبين الصادق من الكاذب منهم - هو تعقيب الدعاء بالعفو استغفارها ما انكاريا ومن الجدير بالذكر أن نفس الاذن لهم بالقعود كان صواباً لأنهم مشبطين مخذلين لا فائدة من خروجهم ، لكن العتاب جاء على الإسراع بالاذن لهم دون التلبث الذى يكشف عن حقيقة المنافقين ليعرفهم الناس ويفضحهم الله على رؤوس الأشهاد

(٢) الوجه الاول والاصل في استعمال هذا الاسلوب : هو النفي للفعل ، وكذلك نفي التهيء له ، ونفي ارادته والصلاحية له كما قال العلماء ، وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية : ما كان من شأن النبي وما كان شأن المؤمنين أن يدعوا للمشركين بالمغفرة ... لكن الذى يجعل الآية للنهي هو سبب نزولها كما تقدم ، انظر : البحر المحيط لأبي حيان : ٤٢٦/١ ، تفسير القرطبي : ٢٧٤ / ٨ ، فتح القدير : ٤١٠/٢ شرح النووي : ٢١٥ / ١ ، وانظر : آيات عتاب المصطفى : ١٨٠ - ١٨١

(٣) سبق تخريج الحديث قريباً ، ولا ينافي كون السورة من آخر ما نزل أن أبا طالب توفي قبل الهجرة بثلاث سنين لأنه قد تكون السورة مدنية وفيها آيات مكية والعكس صحيح ، لأن ترتيب الآيات والصور توقيفي وليس حسب ترتيب النزول ، واحكم على السورة بأنها مدنية أو مكية هو باعتبار الغالب

(٤) آيات عتاب المصطفى : ١٨٥

ومن آيات العتاب أيضا قوله تعالى :

(يا أيها النبي لِمَ تَحَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) - التحريم / ١ -

والمراد بالتحريم في هذه الآية : هو المعنى اللغوي وهو الامتناع ، كما قال تعالى في موضع آخر : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ) - القصص / ١٢ - أي منعنا موسى المراضع أن يرتضع منهن من قبل أمّه (١)

وتفسير الآية بذلك لأنه هو الأصل أولا ، ولامتناع صدور المعنى الشرعي منه - صلى الله عليه وسلم - ثانيا (٢) ، والعتاب في الآية جاء على ما أداه اجتهاده إليه من منع نفسه - صلى الله عليه وسلم - عن أحل الله له وهو سريته مارية القبطية أم ولد إبراهيم ، أو العسل على خلاف في ذلك (٣) تقديم لرضى أزواجه على ما يختص براحته النفسية ومتعته الجسدية ، كما قال تعالى :

(تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ)

فهذه ثلاث آيات من الآيات التي جاء الوحي فيها بتصويب ما أداه اجتهاد الرسول إليه مما هو خلاف الأولى ، وهذه الآيات وما شاكلها والتي ظاهرها أن فعل الرسول أو قوله في هذه الوقائع جاء على خلاف الوحي قد يُتوهم أنها تناقض مدلول قوله تعالى :

(وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) - النجم / ٣ -

والجواب عن ذلك أنه إذا فهم معنى قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى) الآية زال هذا التوهم وعلم توافق الآيات وانسجامها ، فمعنى الآية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا ينطق بالقرآن عن هواه إنما هو وحي من عند الله ، وهذا ما يفيد دلالة السياق ، ولأن كلام المنكرين كان في شأنه ، وذلك أنهم قالوا : إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه (٤)

(٥) قال ابن كثير : (إن هو إلا وحي يوحى) : أي إنما يقول ما أمَرَ به يُبلغه إلى الناس كاملا موفورا من غير زيادة ولا نقصان) اهـ

-
- (١) تفسير الطبري : ٤٠ / ٢٠ ، زاد المسير : ٢٠٦ / ٦ ، لسان العرب : ١٢٥ / ١٢ مادة حرم
- (٢) تفسير الرازي : ٤٢ / ٣٠ ، البحر المحيط : ٢٨٩ / ٨ ، روح المعاني : ١٤٧ / ٢٨
- (٣) بسبب اختلاف الروايات في ذلك ، وكونه العسل هو الذي في الصحيحين والمهم هو أن التحريم قد وقع منه - صلى الله عليه وسلم - انظر لذلك : أحكام القرآن لابن العربي : ١٨٤٤ / ٤ ، شرح النووي على مسلم ٧٦ / ٩ ، زاد المسير : ٣٠٢ / ٨ - ٣٠٦
- تفسير ابن كثير : ج ٤ / ٦٠٣ ، فتح الباري طبعة الطبى : ١١ / ١٩٩ - ٢٠٠
- وقد استوعب الدكتور عويد المطرفي في كتابه : آيات عتاب المصطفى المبحث ورجح أن التحريم كان لسريته مارية القبطية أم ولده إبراهيم ، فليراجع
- (٤) زاد المسير : ٦٣ / ٨ ، (٥) تفسير ابن كثير : ٢٨٣ / ٤ النجم / ٣

وقال الفخر الرازي^(١) : (الظاهر خلاف ما هو المشهور عند بعض المفسرين وهو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ما كان ينطق إلا عن وحي ، ولا حجة لمن توهم هذا في الآية ، لأن قوله تعالى : (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) إِنْ كَانَ ضَمِيرَ الْقُرْآنِ فَظَاهِرٌ ، وَإِنْ كَانَ ضَمِيرًا عَائِدًا إِلَى قَوْلِهِ فَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي كَانُوا يَقُولُونَهُ فِيهِ إِنَّهُ قَوْلُ شَاعِرٍ ، وَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) وَذَلِكَ الْقَوْلُ هُوَ الْقُرْآنُ) ، ثُمَّ رَدَّ الرَّازِي عَلَى مَنْ قَالَ : إِنْ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ مَا يَنْطِقُ بِهِ الرَّسُولُ إِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ يُوحَى ، فَقَالَ : (وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَجْتَهِدْ وَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ ، فَانْه فِي الْحُرُوبِ اجْتَهِدْ وَأَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْ الْقَوْلِ : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذْنَبْ لَهُمْ) نَقُولُ عَلَى مَا ثَبَتَ : لَا تَدُلُّ الْآيَةُ عَلَيْهِ فَلَا تَعَارِضُ) ١٥

أَيُّ إِنْ الْآيَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ لَمْ يَجْتَهِدْ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا هُوَ الْقُرْآنُ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَنْطِقُ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ^(٢) : (قَالَ قَتَادَةُ : وَمَا يَنْطِقُ بِالْقُرْآنِ عَنْ هَوَاهُ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى إِلَيْهِ) ١٥

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ^(٣) : (وَمُنَاسِبَتُهَا لِآخِرِ مَا قَبْلَهَا ظَاهِرٌ لِأَنَّهُ قَانَ : (أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ) أَيْ اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الشَّعْرِ ، وَقَالُوا هُوَ كَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ ، فَأَقْسَمَ تَعَالَى أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا ضَلَّ ، وَأَنَّ مَا يَأْتِي بِهِ هُوَ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ) ١٥

قُلْتُ : فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) لَيْسَ فِيهِ نَفْيٌ لِأَنَّهُ يَكُونُ لِلرَّسُولِ اجْتِهَادٌ فِيمَا لَمْ يَنْزَلْ فِيهِ وَحْيٌ ، لِأَنَّ الْآيَةَ جَاءَتْ رَدًّا وَابْطَالًا لِمَا كَانَ يَزْعُمُهُ الْكُفَّارُ مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَفْتَرِي الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ مُمْتَرٌ فَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) - الْفَرْقَانُ / ٤ -

فَالْآيَةُ لَيْسَتْ عَامَةً فِي كُلِّ مَا يَنْطِقُ بِهِ الرَّسُولُ ، وَالتَّخْصِيسُ وَاقِعٌ قَطْعًا بِمَا يَنْطِقُ بِهِ النَّبِيُّ فِي غَيْرِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، فَالْعُمُومُ لَيْسَ بِمُجِيبٍ ، وَعَلَى فَرَضِ أَنَّهُ عَامٌ فِي جَمِيعِ مَا يَنْطِقُ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَيْسَ فِيهِ اثْبَاتٌ أَنَّ النَّبِيَّ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ ، لِأَنَّ اجْتِهَادَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ كُلُّهُ وَحْيٌ وَلَيْسَ نَطْقًا عَنِ الْهَوَى وَإِنَّمَا اتِّبَاعٌ لِلْوَحْيِ الْمَأْذُونُ لَهُ فَيَسَّرُ

(١) فِي تَفْسِيرِهِ : ج ٢٨ / ٢٨٢ (٢) الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ : ج ١٧ / ٨٤

(٣) الْبَحْرُ الْمَحِيطُ : ج ٨ / ١٥٧

بالاجتهاد ، وإذا كان مؤدى الاجتهاد على خلاف مراد الله يأتي التصويب من الله تعالى لأن النبي لا يُقَرُّ على خطأ ، فيرجع الأمر كله الى الوحي (١) ، فلذلك فإن آيات العتاب والتي فيها تنبيه أو توجيه للرسول - صلى الله عليه وسلم - لاتباع ما هو أولى وأعوب بسبب اجتهاده الذي لم يوافق الوحي ، لا يعارض قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) لأن المراد بها : هو القرآن الذي لا ينطق به الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن هواه إنما هو كلام رب العالمين نزل به الروح الامين على قلب سيد المرسلين ، فبلغه كما أنزل : (يا أيها النبي بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس) - المائدة / ٦٧

فليس كل ما ينطق به الرسول وحي من عند الله إذ انه بشر ينطق بما ينطق به البشر في شئون حياته وخاصة أمره ،

وأستطيع حصر ما هو وحي أمر الرسول بتبليغه بالاتي :

١ - القرآن الكريم

٢ - الاحاديث القدسية ، وهي ما ثبت عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من قوله قال الله تعالى ، أو ما يُعبر عنه بعض الرواة بقولهم : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه

٣ - الاحاديث النبوية التي صدرت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - على سبيل تبليغها عن الله عز وجل ، والأصل في كل حديث أن يكون تبليغا عن الله إلا ما دلت القرائن على خلافه (٢)

-
- (١) تفسير الزمخشري : ٢٨/٤ ، مجموع الفتاوى لابن تيمية : ١٨٩ / ١٥ ، وانظر :
آيات عتاب المصطفى : ٧٨ ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - :
(والذي عليه جمهور اهل الحديث والفقه أنه يجوز عليهم الخطأ في الاجتهاد لكن لا يقرون عليه) اهـ
- (٢) ومما دلت القرائن على أنه من اجتهاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وليس وحيا من عند الله الامثلة التالية : ١ - حديث الامر بالتحريق بالنار والرجوع عنه ، والذي تقدم في هامش ص : ٤٢٣ من هذا الفصل
- ٢ - الحديث الذي رواه البخاري ومسلم* عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم - قال : (لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى ولخللت مع الناس حين حلوا) الحديث ، فلو كان قوله في هذه الواقعة وحيا لما تأسف
- ٣ - ومن ذلك ايضا قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قصة ذي اليمين لما سلم من ركعتين في صلاة رباعية ، فسأله ذو اليمين : أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال النبي : " كل ذلك لم يكن " وفي رواية : " لم أنس ولم تُقصّر ... " *
- وهذا القسم ليس بكثير في السنة ، بل أغلب السنة من قسم ما أمر بتبليغه

* البخاري : في التمني ، باب قول النبي : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت : ج١/ ١٢٨ ومسلم : في الحج ، باب بيان وجوه الاحرام (شرح النووي : ١٥٥/ ٨) واللفظ للبخاري

** البخاري في السهو ، باب يكبر في سجدي السهو ، ج٢/ ٦٦ (شرح النووي : ج٥/ ٦٨ - ٦٩) ومسلم : في كتاب المساجد ، باب السهو في الصلاة ، (شرح النووي : ج٥/ ٦٨ - ٦٩)

٧- قوله تعالى : (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم)
- النور / ٦٢ -

هذه الآية الكريمة تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم - له الأذن لمن شاء لقوله تعالى : (فأذن لمن شئت منهم)

وقد جاءت آية أخرى قد يُتوهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى
(عفا الله عنك لم أذن لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا)

وتعلم الكاذبين) - التوبة / ٤٣ -

والجواب : أن الآيتين لا تنافي بينهما ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - كان له حق الأذن لمن شاء لمن يستأذن من أصحابه عندما يكونون في أمر جامع يقتضي اشتراك الجماعة فيه لرأى أو حرب أو عمل هام ، أو بعد صلاة جامعة كصلاة عيد أو جمعة ، فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم كي لا يُصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام ،

وكان تخير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام في الأوقات والأشخاص بما يحقق المصلحة لأمر الدين والجماعة ، ولما كان إذنه - صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك لبعض المستترين بالنفاق قبل أن يتبين المادق من الكاذب ، وكان استئذانهم لمجرد التظلف وليس لعذر لا جرم عاتبه الله تعالى على ترك الأولى وهو التوقف عن الأذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال المشار إليه بقوله سبحانه : (حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) أى فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة ، كأنه قيل : لم سارعت إلى الأذن لهم ، ولم تتوقف حتى ينجلي الأمر كما هو قضية الحزم اللائق بشأنك الرفيع ، ولهذا فلن العتاب لم يأت على مطلق الأذن إنما جاء للمسارعة في الأذن قبل انجلاء الأمر في مثل تلك الظروف ، وهي ظروف الجهاد والتجهز للقتال والتي ينكشف فيها هؤلاء المنافقون ،

ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين بل كان فيه فساد وخبال حسبما قال الباري : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ٠٠٠) - وقد كره الله خروجهم كما قال : (ولكن كره الله انبعاثهم) - ، والآية دلت أن الأولى تأخير الأذن حتى يظهر كذبهم ويقتضوا على رؤوس الأشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ، ولا يتسنى لهم ابتهاج فيما بينهم بأنهم غرّوه - صلى الله عليه وسلم - وأرضوه بالأكاذيب ولكن الله كشف أمرهم وهتك سترهم (١)

(١) تفسير الرازي : ٧٥ / ١٦ ، تفسير القرطبي : ١٥٤ / ٨ ،
تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٦٢ ، النور / ٤٣ - ، روح المعاني : ١٠ / ١٠٧ ،
إيضواء البيان : ١٠ / ٢٢٠ ، في ظلال القرآن ج ٤ / ٢٥٣٥

قال ابن الجوزي (١) : (وُرُوِي عن ابن عباس أَنَّهُ قال : نُسخَت هذه الآية بقوله تعالى : (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) - التور / ٦٢ -
قال أبو سليمان الدمشقي : وليس للنسخ هاهنا مدخل لامكان العمل باليتين وذلك أنه عاب على المنافقين أن يستأذنه في القعود عن الجهاد من غير عذر ، وأجاز للمؤمنين الاستئذان لما يعرض لهم من حاجة ؛ وكان المنافقون إذا كانوا معه فعرضت لهم حاجة ذهبوا من غير استئذانه . (١٠) هـ

(١) زاد المسير : ج٣ / ٤٤٦

الفصل الثالث

مؤم آيات المؤمنين

١- قوله تعالى بشأن نصرته لعباده المؤمنين :

(وإن جندنا لهم الغالبون) - الصافات / ١٧٢ -

وقال : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم

يقوم الاشهاد) - غافر / ٥١ -

هذه الايات تثبت أنَّ الغلبة والنصر لعباد الله المؤمنين ، وقد

وردت آيات أخرى تحدثت عن تعذيب المؤمنين وقتلهم ، كقوله تعالى :

(إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون

الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) - آل عمران / ٢١

وقوله تعالى في حق أصحاب الأخدود :

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ

عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

العزيز الحميد) - البرج / ٤ - ٨ -

فهذه الايات وغيرها تثبت أنَّ من عباد الله المؤمنين من قُتِلَ

وُعَذِّبَ عَلَىٰ أَيْدِي الطَّغَاةِ وَالْجَابِرَةِ ، وهذا قد يُتوهم من ظاهره أنه ينافي

ما وعد الله به عباده المؤمنين من النصر والغلبة كما تقدم في الايات

والجواب : ان عباد الله المؤمنين منصورون دائما وأبدا ، كما وعد

الله سبحانه ، وهم لا يخرجون عن إحدى حالتين :

الاولى : أن يكونوا قد أُمرُوا بِقِتَالِ وَجْهَادٍ وَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَهُمُ الْغَلْبَةُ

دائما ما داموا مستمسكين بأوامر الله وسائرين على نهجه ، مقتدين بأنبيائه

لقوله تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) - محمد / ٧ -

وقوله : (والله ولي المؤمنين) - آل عمران / ٦٨ - أي الذين التزموا بالايان

الحق وما يستلزمه من سلوك قويم على صراط الله المستقيم ، ووعد المؤمنين

بالنصر والغلبة يستلزم الأمر بالجهاد حتى يُعَذِّبَ اللهُ الْكَفَّارَ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ

ويشفي صدورهم كما قال : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِمُهُمُ

عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَهُمْ قَوْمٌ مُّؤْمِنُونَ) - التوبة / ١٤ -

وقوله أيضا : (وإن يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير

ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر

الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) - الانفال / ٨٦ -

و ذات الشوكة يُقصد بها الجهاد والقتال الذي به يُحقُّ اللهُ الحقَّ ويُبطل به الباطل على أيدي عباد الله المؤمنين المجاهدين ، ويُذل به أعداء الدين كما حصل في بدر وغيرها من معارك المسلمين ، فنصرة الله وتأييده متحققة في كل زمان ومكان يكون فيه جنود الله مخلصين مجاهدين مهما وُضعت في طريقهم العوائق والعراقيل ، ومهما رُصد لهم من حديد ونار ودعاية واغتراء ، وتبقى الحرب سجال ثم تنتهي الى الوعد الرباني بالتمكين في الارض ،

قال الله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِقُونَ) - النور / ٤٥ - ٥٥ -

فنحن نلاحظ كيف كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشتد عليهم البلاء في مكة حتى يشتكوا من ذلك الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبأمرهم بالصبر وكف الأيدي حتى أذن الله لهم بالهجرة ثم الجهاد فمكّن الله لهم وأبدل خوفهم أماناً ، واستخلفهم في الأرض ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها ، ونشروا دين الله وحطموا طواغيت الأرض ، إنه وعد الله الذي لا يتخلف لجنده المؤمنين الذين يصدقون في إيمانهم وجهادهم ،

أما إن كان هناك ثغرات في الإيمان والسلوك فإن النصر لا بد وأن يتخلف ولذلك قال تعالى : (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) - النساء / ١٤١ -

أي المؤمنين المتزمين المتجردين لله وإقامة دينه ، يقول الشهيد سيد قطب (١) - رحمه الله - : (وأنا أقدر في ثقة بوعد الله لا يخالفها شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ولم تلحق بهم في تاريخهم كله إلاّ وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان ، إما في الشعور وإما في العمل - ومن الإيمان أخذ العدة واعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله ، وتحت هذه الزاية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة -

وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين حين يوجدون ، ففي أحد مثلاً كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول - صلى الله عليه عليه وسلم - وفي الطمع في الغنيمة ، وفي حدين كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والاعجاب بها ونسيان السند الأصيل ، ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها

(١) في ظلال القرآن : ج٢ / ٧٨٢ النساء / ١٤١

النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذا نعرفه أو لا نعرفه
أما وعد الله فهو حق في كل حين ، على انني إنما أعني بالهزيمة
معني أشمل من نتيجة معركة من المعارك ، إنما أعني بالهزيمة هزيمة الروح
وكلال العزيمة ، فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا اذا تركت آثارها في
النفوس همودا وكلالا وقنوطا ، فأما اذا بعثت الهممة وأذكت الشعلة، وبصّرت
بالمزالق ، وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق ،
فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد ولو طال الطريق ،

وكذلك حين يقرر النص القرآني : أن الله لن يجعل للكافرين على
المؤمنين سبيلا ٠٠٠ فإنما يُشير الى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر ،
والفكرة المؤمنة هي التي تسود ، وإنما يدعوا الجماعة المؤمنة الى
استكمال حقيقة الايمان في قلوبها تصورا وشعورا ، وفي حياتها واقعا وعملا
وإلا يكون اعتمادها كله على عنوانها ، فالنصر ليس للعنوانات انما هو
للحقيقة التي وراءها ٠٠٠ إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق
وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين
الباطل مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون ،
(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)
(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) (١٠) اهـ

قلت هذه الحالة الاولى وهي التي يكون فيها عباد الله مأمورين
بالقتال والجهاد

والحالة الثانية : هو أن يكون عباد الله المؤمنين غير مأمورين بقتال
كما حصل مع أصحاب الاخدود ، والذين أمروا بالقسط في بني اسرائيل ، وسحرة
فرعون ، وحبيب النجار وغيرهم ، فهؤلاء أثبت الله لهم النصر في الدنيا
والآخرة ، أما نصره الدنيا فهي بشيئين اثنين : أولهما النصر بالحجة
والبرهان وظهور الحق ، فما زال اتباع الانبياء الملتزمين بشرع الله
ظاهرين على عدوهم بما يؤيدهم الله من حجة وبرهان وأدلة ساطعة ، فما
يملك الطغاة بعد ذلك الا العناد والمكابرة ثم إنزال العذاب بأولياء الله
وفي هذه الحال فإن الله ينصر عباده المقتولين أو المعذبين بأن ينتقم
لهم من أعدائهم بإهلاكهم في الدنيا قبل الآخرة ، ويأخذ لهم بثأرهم ،
والانتقام لهم في الدنيا هو نصر وأي نصر ، كما سمّاه الله في كتابه
في قوله تعالى : (ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يُسئرف
في القتل إنه كان منصوراً) - الاسراء / ٣٣ - أي منصوراً بما شرع
الله من المقاصمة وقتل القاتل ، وقد انتصر لعباده المؤمنين كما قال في
حق فرعون الذي نكّل باتباع موسى عليه السلام وقتل السحرة الذين آمنوا :

قال في حقه : (فأخذه الله نكال الآخرة والاولى ، إِنَّ في ذلك لعبرة

للمن يخشى) - النازعات / ٢٥-٢٦ -

وبني اسرائيل الذين قتلوا الانبياء والذين يأمرون بالقسط منهم ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) وبعث اليهم من يجوس خلال ديارهم يقتلهم ويحببهم ، والذين بطشوا بحبيب النجار ذلك المؤمن الذي دعا قومه للايمان بالرسول أنزل الله بهم عذابه كما قال الباري :

(وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين

إِنْ كانت الا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) يس / ٢٨-٢٩ -

وهذا العذاب لهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب الحريق وكل ذلك نصر من الله لعباده في الحياة الدنيا بالانتقام لهم ، وفي الآخرة بإدخالهم أشد العذاب ، وصدق الله ان يقول :

(انا لننصر رسلكم والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)

كما أن ثبات المؤمنين علي دينهم وصبرهم على الابتلاء واستشهادهم في سبيل عقيدتهم هو في حد ذاته نصر وأمر نصر ، ان ثبات المؤمن أمام التحديات أكبر من كل نصر ، لأن ذلك يسقي نفوس الطغاة والظالمين كؤوس المرارة والحنق لما يرونه من ثبات وتصميم على الحق والمبادئ أمام كل الفتن والمغريات ، فهذا كله من نصر الدنيا الذي يوفق الله المؤمنين من عباده اليه ،

ويتبين لنا مما تقدم أَنَّ المؤمنين منصورون في كل أحوالهم ، فمن أمر منهم بقتال وجهاد فان الله ناصره على عدوه ومظهره عليه وذلك متى كان متمسكا بدينه مظلما لربه ، ومن لم يؤصر بجهاد فان الله ناصره بالحجة والبرهان وبثبتيته على دينه واذا تعرض لأذى فان الله ينتقم له في الدنيا والآخرة وبهذا يتبين لنا توافق الايات واتسجامها والله الموفق

١٢- قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم
عدوا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم
انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) التغابن / ١٥ -

هذه الايات تثبت أن من الزوجات والاولاد ما هو عدو للانسان يجب
الحذر منهم ، وأن المال والولد فتنة ، قد تفتن المرء عن دينه
وهناك آيات أخرى تثبت أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، قال تعالى :
(المال والبنون زينة الحياة الدنيا ٠٠٠) الكهف / ٤٦ -

وقال : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة
من الذهب والفضة ٠٠) - آل عمران / ١٤ -
وقال في حق الأزواج : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا
اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) الروم / ٢١ -
أثبت هنا المودة والرحمة والسكن بينما قال في الآية المتقدمة ان
من الأزواج عدو للانسان المؤمن

والجواب عن ذلك : أن عداوة الاولاد والأزواج من حيث إنهم يحاولون
بين المؤمن وبين الطاعات والامور النافعة لهم في آخرتهم ، وقد يحملونه
على السعي في اكتساب الحرام وارتكاب الاثام لتأمين راحتهم ، ومن الناس
من يحمله حبهم والشفقة عليهم على أن يكونوا في عيش رغد في حياته وبعد
مماته فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سببا لذلك فيهلك

ويدل على ذلك سبب النزول حيث أخرج الترمذي (١) والحاكم (٢) وابن
جرير (٣) عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية ((يا أيها الذين آمنوا إن من
أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ٠٠٠٠) في قوم من أهل مكة أسلموا وارانوا
أن يأتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فأبى أزواجهم أن يدعوه ، فلما أتوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم - ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن
يعاقبوه ، فأنزل الله تعالى الآية (

فالإخبار عن الأزواج والاولاد أن منهم من هو عدو للزوج والوالد بمعنى
أنه يلتهي بهم عن ذكر الله والعمل الصالح كقوله تعالى :
(يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله ومن يفعل
فأولئك هم الخاسرون) - المنافقون / ٩ -

(١) الترمذي : كتاب التفسير ، باب ومن سورة التغابن ، ج ٤١٩ / هـ وقال : حسن صحيح
المستدرك : كتاب التفسير ، ج ٤٩١ / ٢ ، وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي
تفسير ابن جرير : ج ٢٤ / ١٢٤ التغابن / ١٥ طبعة الحلبي

والانسان قد يتحمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده، فيبخل ويجن ليوفر لهم الأمن والقرار والمتاع والمال ، فبسبب ذلك حيث إنهم صدوه عن الخير وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده ، بسبب ذلك فعلوا به فعل العدو ، فكم من الناس أشغلهم حب الأولاد والأزواج وكثرة الأموال عن الالتزام بشرع الله ، فمن هذا الباب كان بعض الأولاد والأزواج والاموال فتنة للانسان لما يترتب عليهم من الوقوع في المأثم والتقصير في الواجبات ، وحصول الشدائد الدنيوية وغير ذلك^(١)

ومن الفتنة بهم أن الانسان يبقى دائم التفكير بهم وفي مصلحتهم والحنو عليهم ، حتى انه قد يعرض له حبهم والتفكير بهم أثناء العبادة والطاعة فيشوشوا عليه ،

اخرج الامام أحمد والنسائي وأبو داود والحاكم^(٢) عن بُريدة - رضي الله عنه قال : (كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميضان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل النبي - صلى الله عليه وسلم - من المنبر فحمل واحدا من ذا الشق وواحدا من ذا الشق ، ثم صعد المنبر فقال : صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) إني لما نظرت الى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت اليهما)

أمّا قوله تعالى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ونحو ذلك من الايات ، فإنه لما كان المال قوام الانسان كما قال تعالى (ولا تؤثتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) - النساء/٥ - وبالمال يحصل البيع والشراء وتظهر به آثار نعمة الله على عبده في ملبسه ومأكله ومسكنه وعونه للفقراء ، فكان المال من هذا الباب زينة الحياة الدنيا لما فيه من النفع والجمال ، وكذلك الاولاد فان الناس يعتزون بكثرة الاولاد لأنهم عون على الحياة ونصرة لأهلهم خاصة إذا كانوا صالحين ، فإن خير ما يترك المرء المسلم في هذه الحياة ولد صالح يدعو له ، وتشتد الاهمية للولد في كبر الوالدين

(١) زاد المسير : ٢٨٤/٨ ، تفسير الرازي : ٢٦/٣٠

تفسير ابن كثير : ٥٨٨/٤ التباين/١٥ ، روح المعاني : ١٢٦/٢٨

في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٦ / ٣٥٩٠

(٢) مسند الامام أحمد : ج٥ / ٣٥٤ ، ابو داود في الصلاة ، باب ٢٣٣ ، ج١ / ٦٦٣

النسائي : كتاب الجمعة ، باب نزول الامام عن المنبر ، ج٢ / ١٠٨

المستدرک للحاكم : كتاب الجمعة ، ج١ / ٢٨٧ ، وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي

(١)

لحاجتهما للرعاية والعناية من قبل الأولاد ، قال الماوردي :

(لَأَنَّ فِي الْمَالِ جَمَالًا وَنَفْعًا وَفِي الْأَوْلَادِ قُوَّةً وَدَفْعًا عَارًا زِينَةً لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا) اهـ ، فكان الأولاد من هذا الباب زينة بشرط أن لا يُتَبَطَّوا آباءهم عن طاعة الله ورسوله ، فإن المال والأولاد ابتلاء ومحنة ليرى الله تعالى كيف صنع بهم ، فإن ربنا الأولاد التربية السالحة وعلمناهم العلم النافع كانوا زينة الحياة الدنيا بالتكثير والعسبون والرعاية ، وكانوا زينة الحياة الآخرة أيضًا لأن الأولاد المؤمنين تمل دعواتهم وصدقاتهم إلى آبائهم بعد وفاتهم ،

كما أنهم يلتحقون ببعضهم في درجات الآخرة كما قال تعالى :
(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) (٥٠) الطور / ٢١

أما إن كان الهم الوحيد هو المكاثرة في الأولاد والتفاخر بهم فإن زينتهم تقتصر على الحياة الدنيا ، وهي زينة ناقصة حيث إن الأولاد غير الصالحين لا بد وأن يكونوا في الغالب عاقين لآبائهم ، مثبطين لهم عن الطاعات واتباع أوامر الله ، فمن هذا الباب يكونون لهم أعداء وفتنة وابتلاء ،

وكذلك الأمر بالنسبة للزوجة التي جعلها الله سكنًا لزوجها وجعل بينهما مودة ورحمة إنما هي الزوجة السالحة العاقلة ،

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : (قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي النساء خير؟ قال : التي تسره إذا أبصر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها وماله بما يكره) (٢)

فهذه المرأة هي زينة الحياة الدنيا وكنزها الثمين لأنها تُعين زوجها على دينه وتربي أبنائه التربية السليمة السالحة ، وتضفي على حياته المودة السعادة والوفاق

أما التي عناها الله تعالى بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ إِنْ مِنْكُمْ أَزْوَاجٌ فَأُولَادُكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ) فهي الزوجة غير السالحة والتي لا دين لها ، والتي لا تُؤتمن على أولاد أو مال أو عرض ، فهذه الزوجة تهدد الأسرة من داخلها فأمر الله تعالى بالحد من منها ، وقد أمر الإسلام الأزواج أن يُحسنوا الاختيار من البداية ، وأن يظفروا بذات الدين صيانة للأزواج والأولاد والبيوت ،

(١) تفسير الماوردي (النكت والعيون) ج٤ / ٤٨٤

(٢) أخرجه الإمام أحمد : ج٢ / ٢٥١

والنسائي : في النكاح باب : أي النساء خير ج٦ / ٦٨ رقم : ٢٢٣١
والحاكم في المستدرک : كتاب النكاح ج٢ / ٢٦١ ، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي

قال ابن الجوزي (١) قال الفراء : (قال أهل المعاني : إنما دخل " مِنْ " في قوله تعالى : (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ..) لأنه ليس كل الأزواج والأولاد أعداء ولم يذكر " مِنْ " في قوله تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) لأنها لا تخلو من الفتنة واشتغال القلب بها) اهـ

قلت : ومما تقدم يتبين لنا توافق الآيات وانسجامها ، وأن الأولاد والأزواج لهم حالات يكونون فيها أعداءً وحالات يكونون فيها أولياءً وأنصاراً وأن المال قد يكون نعمة للإنسان إذا عرف حق الله فيه وأظهر فيه آثار نعمة الله ، وقد يكون نقمة وفتنة إذا لم يؤدّر حق الله فيه ولم يُظهر آثار نعمة الله ، واستغله في معصية الله ، وجعله همّه هذه الحياة الزائلة ، والله ولي التوفيق

٣- قوله تعالى : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تقوا السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) - غافر/٩-٨-
وقوله تعالى : (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) - الرعد / ٢٣ -

وقوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعهم نريتهم بإيمان ألحقنا بهم نريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين) الطور/ ٢١ -

هذه الايات الكريمة تثبت أن الأزواج والذرية المؤمنة يلحقون بدرجة أزواجهم وآبائهم ، وهذا في الظاهر قد يُتوهم منه منافاة ما جاء في آيات أخرى تدل أن الانسان لا ينتفع بعمل غيره ، وأن الوالد لا يجزي عن ولده شيئا كما قال تعالى :

(يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق ٠٠) - لقمان / ٢٣ -

والجواب : ان الايات متوافقة في معانيها ، فالآيات الاولى والتي تفيد إلحاق الأبناء بدرجة الآباء وكذلك من صلح من الآباء والأزواج يلحقون بأبنائهم وأزواجهم ، فهذه الايات إنما تدل على فضل الله وكرمه ومزيد إحسانه لعباده المؤمنين الذين يدخلون الجنة بأن يجمعهم مع بعضهم في جنات الخلد وإن لم يكونوا في درجاتهم في الصلاح والتقوى ، وذلك لتقرر أعينهم وتزيد فرحتهم ويجمع شملهم تغضلا من الله تعالى كما قال :

(ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ٠٠) - النور/ ٢٨ -

وقد أخرج ابن جرير والحاكم والبيهقي في سننه^(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : (ان الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ، ثم قرأ الآية :

(والذين آمنوا واتبعهم نريتهم بإيمان ألحقنا بهم نريتهم ٠٠)

قال القرطبي^(٢) : قال النحاس ما حاصله : (إن هذا مما لا يُقال بالرأى فحكمه حكم المرفوع ٠) اهـ

(١) تفسير ابن جرير : ج ٢ / ٢٦ ، المستدرک : ج ٢ / ٤٦٨ ، الطور / ٢١ كتاب التفسير

سنن البيهقي : ج / ، الدر المنثور : ج ٢ / ٦٣٢

(٢) الجامع لاحكام القرآن : ج ١٧ / ٦٦

واخرج الامام أحمد^(١) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

(إِنَّ اللَّهَ لِيرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُ :

يَا رَبِّ أَنْتَ لِي هَذِهِ ؟ فَيَقُولُ : بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدَكَ لَكَ -)

فهذا أيضا من فضل الله على عباده وهو إكرام الآباء بأعمال الأبناء ، كما أن من فضل الله مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها أو أكثر، وانتفاع

المؤمن بدعاء أخيه المؤمن ، وانتفاع الميت بسلامة المسلمين عليه (٢) ، والصدقة عنه^(٣) وصيامهم عنه^(٤) ، وكذلك الحج عنه بعد موته^(٥) ، وثواب كل

ذلك يصل إليه وهو لم يعمله ، فهذا من فضل الله تعالى

وهو تعالى لما ذكر مقام الفضل في قوله تعالى : (وَالذِينَ

آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

أعقبه بذكر مقام العدل وهو أنه تعالى لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره فقال : (كل امرئ بما كسب رهين) أى مرتبه بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من

الناس ، قال الألوسي :

(فلما ذكر سبحانه حال المتقين وأنه عز وجل وفر عليهم ما أعدّه

لهم من الثواب والتفضل ، عقب بقوله (كل امرئ بما كسب رهين) ليدل على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها وغيرهم بقي معذبا لأنه لم يفك رقبته ، وإنما جعل متظلا بين أجزية المتقين عقيب ذكر توفير ما أعد لهم ليدل على أن الخلاص من بعض

أجزيتهم) (١٠) هـ

(١) مسند أحمد : ج ٥٠٩/١ بسند صحيح ، انظر تفسير ابن كثير : ج ٤/٣٧٢ الطور / ٢١

(٢) كما روى مسلم وغيره عن عائشة مرفوعا : (ما من ميت تطلى عليه أمة من الناس يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه) وفي رواية : (أربعون لا يشركون بالله شيئا) - (شرح النووى على مسلم : ج ٧/ ١٧ ، كتاب الجنائز)

(٣) اخرج البخارى ومسلم عن عائشة : (أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم - إن أمتي افتلتت نفسها ولم توصي ، وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلقها أجر ان تصدقت عنها ؟ قال نعم) البخارى : في الجنائز باب موت الفجأة ج ١٠٦/٢

ومسلم : في الزكاة واللفظ له : (شرح النووى : ج ٧/ ٩٩)

(٤) روى البخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة - رضي الله عنها - مرفوعا : (من مات وعليه صيام صام عنه وليه) البخارى : في الصوم باب من مات وعليه صوم ج ٢٣٩/٢ ومسلم في الصوم (شرح النووى : ج ٨/ ٢٣)

(٥) روى البخارى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : (أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : إن أمتي نذرت أن تحج فلم تحج أفأحج عنها ؟ قال نعم حجي عنها ، أ رأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ أقضوا الله فالله أحق بالوفاء) البخارى ، في الحج باب الحج والنذر عن الميت ج ٢١٦/٢

(٦) روح المعاني : ج ٢٧/ ٣٣

(١) وقال الرازي عند تفسير قوله تعالى : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم ...) : فيها قولان ، الأول : قال ابن عباس : يريد من صدق بما صدقوا به وإن لم يعمل مثل أعمالهم ، وقال الزجاج : بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال سالحة ، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال السالحة ، والصحيح ما قال ابن عباس لأن الله تعالى جعل ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة ، وذلك يدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتي بالأعمال السالحة ، ولو دخلوها بأعمالهم السالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ، ولا فائدة في الوعد به إذ كل من كان مطيعا في عمله فهو يدخل الجنة ، والمقصود بشارة المطيع بكل ما يزيده سرورا وبهجة فإذا بشر الله المكلف بأنه إذا دخل الجنة فإنه يحضر معه آباؤه وأزواجه وأولاده فلا شك أنه يعظم سرور المكلف بذلك وتقوى بهجته . قلت : فهذا كله يبين لنا ما أنعم الله به من فضله ومزيد إحسانه ، أمّا قوله تعالى : (واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده .. فإن المراد بذلك هو الكافر ، والمراد باليوم يوم الجزاء والحساب قبل انصراف الناس الى الجنة أو النار ، فإذا كان الولد غير مؤمن فإن والده المؤمن لا يجزى عنه شيئا ، وكذلك الوالد إن كان غير مؤمن فإن ولده المؤمن لا يجزى عنه شيئا ، لأن الأنساب في ذلك اليوم لا تنفع إن لم يكن هناك إيمان وعمل صالح ، فعلى هذا فإن المقصود بقوله تعالى : (واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ..) هم الكفار كما قال المفسرون فلو أراد الولد المؤمن أن يفدى أباه الكافر لما قبل منه ،

وقد خاطب الله سبحانه بني اسرائيل في سورة البقرة بقوله : (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاع ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) - البقرة / ٤٨ - قال الزجاج (٣) : كانت اليهود تزعم أن آباءها الانبياء تشفع لهم يوم القيامة ، فأيسهم الله بهذه الآية من ذلك . اهـ

قلت : وكثير من الآيات في القرآن جاءت لتكذيب أطماع المشركين الباطلة ، وأن ما تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح

(١) في تفسيره : ج١٨ / ١٦
(٢) انظر : الكشف للزمخشري : ج٣ / ٧٢١ ، ج٤ / ٢٤ ، زاد المسير : ج٦ / ٣٢٩ ، ج١ / ٧٦ ، البحر المحيط : ج٧ / ١٩٤ ، تفسير ابن كثير : ج٣ / ٧٢١ لقمان / ٣٣ روح المعاني للإلوسي : ج٢٤ / ١٠٧ - ١٠٨
(٣) زاد المسير : ج١ / ٧٦

أو صلبة) ينفعهم يوم القيامة أو يُجيرهم من عذاب الله أو يشفع لهم عند الله ، حيث إن هذه الأطماع أصل ضلال بني آدم وشركهم ، حيث قالوا : (هولاء شفعاءنا عند الله) - يونس / ١٨ -
فبيّن القرآن الكريم أنّ اتصال البُتوة والأبوة والزوجية والذي ليس فوقه اتصال لم ينفع أقرب الناس للأنبياء فلم يُغن نوح عن ابنه شيئا ، ولا إبراهيم عن أبيه ، ولا نوح ولا لوط عن امرأتهما من الله شيئا
قال الله تعالى : (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) يوم القيامة يفصل بينكم) - الممتحنة / ٣ -

وقال : (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا)
وقال : (واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده)

وهذا كله كما تقدم تكذيب لأطماع المشركين الباطلة بالتعلق بالانساب والأحساب والخلان من دون الله تعالى ، وكل ذلك يُبين لنا أنّ الآيات التي تدلّ أنه لا يجزي أحد عن أحد إنما هو في حق الكفار وذلك في موقف الحساب ، لأن الله تعالى قد نفى أن يكون للكافر شفاعة أو فداء أو نصرة ، لأن النصرة يومئذ تكون لعباد الله المؤمنين كما قال تعالى :

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) - غافر / ٥١ -

هذا وقد أثبت الله تعالى الشفاعة لعباده المؤمنين وأعظمها الشفاعة الكبرى للرسول صلى الله عليه وسلم - والتي يشفع فيها لأهل الموقف حتى يُقضى بينهم بعد أن يتدافعها الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وهي المقام المحمود الذي وُعد به - صلى الله عليه وسلم - وهي

(١) حديث الشفاعة متواتر نصّ على ذلك علماء الاسلام ، انظر :

قطف الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة للحافظ السيوطي : ج ٣ : ٣٠٣
نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني : ص ١٤٩ رقم : ٣٠١
لوامع الأنوار للسفاري : ج ٢ / ٢٠٤ - ٢٠٨

هذا وقد بلغت رواية حديث الشفاعة أكثر من عشرين صاحبيا ، وأخرجه أصحاب الحديث ، فرواه البخاري : في التوحيد باب ٣٤ ، ج ٨ / ١٨٤ ، وباب ٣٦ ج ٨ / ٢٠٠ وفي الأنبياء باب ٣ ج ٤ / ١٠٤ ، ومسلم في الإيمان (شرح النووي : ٣ / ٥٥ - ٥٨) أحمد في مسنده في عدة مواضع : ج ١ / ٥ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥ ج ٢ / ٤٣٦ ج ٣ / ١١٦ الترمذي : في صفة القيامة ، باب ما جاء في الشفاعة ، ج ٤ / ٦٦٢ الحاكم في المستدرک : كتاب الأحوال ج ٤ / ٥٨٨ وانظر مجمع الزوائد للهيثمی : ج ١٠ / ٣٦٧

وهي المرادة بقوله - على الله عليه وسلم - : (لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته ، ولني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة)^(١)

وكذلك ثبتت شفاعة الانبياء والملائكة والمؤمنين ، فقد أخرج الشيخان^(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - : قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ... وساق الحديث الى قوله : فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، قال أبو سعيد : فإن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط ... الحديث)

فثبت الشارع بهذه الأدلة وغيرها انتفاع الموحدين بشفاعة الانبياء والملائكة والمؤمنين ، كما أثبت انتفاعهم بالخلة والنصرة كما تقدم ، فلذلك فان قوله تعالى : (واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ...) لا تعارض ما ثبت من تفضل الله على الآباء والابناء والأزواج برفع درجاتهم بشفاعة بعضهم لتتم لهم النعمة والسرور ، لأن نفي انتفاع الولد بوالده أو الوالد بولده أو زوجه إنما هو في حق الكفار كما تقدم ، ويدل على ذلك أن الله تعالى قد نفى عن أهل الشرك والكفر كل شفاعة أو خلة أو نصرة يوم القيامة كما قال تعالى في حقهم : فما تنفعهم شفاعة الشافعين) - المدثر / ٤٨

وقال : (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) - الشعراء / ١٠٠ -

وقال : (الاخلاء يومئذ بعضهم ابغض عدو إلا المتقين) - الزخرف / ٦٧ -

أما قوله تعالى : (وأن ليس للانسان الا ما سعى) فانها أيضا لا تعارض ما تقدم من انتفاع الآباء والابناء والأزواج بأعمال بعضهم ، وذلك من عدة أوجه :

الوجه الأول : أن الآية إنما دلت على نفي ملك الانسان لغير سعيه ولم

(١) أخرجه الإمام البخاري : كتاب الدعوات ، باب ١ ج ١ / ١٤٥
ومسلم : كتاب الايمان ، باب الشفاعة (شرح النووي : ج ٣ / ٧٤) واللفظ له

(٢) البخاري : كتاب التوحيد ، باب ٢٤ وجوه يومئذ ناضرة ج ١ / ١٨٢
ومسلم : في كتاب الايمان ، (شرح النووي : ج ٣ / ٣٢ ، ٦٠ - ٦٣)

تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره ، لأنه لم يقل : " وَأَنْ لَّنْ يَنْتَفِعَ
الانسان إِلَّا بما سعى " ، وإنما قال : (وَأَنْ لَّيْسَ لِلانسانِ إِلَّا ما سعى)
وبين الأمرين فرق ظاهر لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذلك
لغيره فانتفع به ذلك الغير وإن شاء أبقاه لنفسه (١)
فسعي الغير هو حق وملك لذلك الغير لكن هذا لا يمنع أَنْ يَنْتَفِعَ
الانسان بسعي غيره تفضلاً من الله ، فَمَنْ طَلَبَ على جنازة يُثاب على سعيه
الذى هو صلاته ، والميت أيضاً يُرحم بصلاة الحي عليه وسعيه لدعائه له
وصدقته عنه وصيامه عنه ووجهه عنه ، ودعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب من
السعي الذى ينتفع به المؤمن من أخاه ، يُثيب الله هذا ويرحم هذا
وليس كل ما ينتفع به الميت أو الحي أو يرحم به يكون من سعيه
بل أطفال المؤمن يدخلون الجنة مع آبائهم بلا سعي (٢)
قال ابن عطية (٣) : والتحرير عندى في هذه الآية أَنْ ملاء المعنى هو
اللام من قوله سبحانه : (للانسان) فإذا حققت الشئ الذى حق الانسان
ان يقول فيه لي كذا ، لم تجده إلا سعيه ، وما يكون من رحمة بشفاعته
أو رعاية أب صالح أو ابن صالح أو تضعيف حسنات أو نحو ذلك فليس
هو للانسان ، ولا يسعه أَنْ يقول لي كذا وكذا إلا على تجوز وإلحاق
بما هو حقيقة . اهـ

الوجه الثاني :

أَنَّ إِيْمَانَ الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم ، اذ لو كانوا
كفاراً لما حصل لهم ذلك ، وإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه
بعمل غيره من المسلمين ، كما وقع في صلاة الجماعة فإن صلاتهم مع بعض
يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاة أحدهم منفردة ، وتلك المضاعفة انتفاع
بعمل الغير سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة ، وهذا الوجه
يشير اليه قوله تعالى : (واتبعتهم ذريتهم بإيمان) (٤)
فانتفاع الانسان بسعي غيره مبني على سعي نفسه للإيمان والطاعة ،
نقل الالوسي (٥) : (أَبْنُ والي خراسان سأل الحسين بن فضل عن هذه
الآية مع قوله تعالى : (واللّه يُضاعف لمن يشاء) - البقرة / ٢٦١ -
فقال : ليس له بالعدل إلا ما سعى ، وله بالفضل ما شاء الله تعالى
فقبل الوالي رأس الحسين) اهـ

(١) أضواء البيان للشيخ الشنقيطي : ج ١٠ / ٢٧٨

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية : ج ٢٤ / ٣١٢ - ٣١٣

(٣) روح المعاني : ج ٢٧ / ٦٧ (٤) زاد المسير : ٨١ / ٨ ، القرطبي : ١١٤ / ١٧

روح المعاني : ٦٦ / ٢٧ ، أضواء البيان : ١٠ / ٢٧٢ ، (٥) روح المعاني : ٢٧ / ٦٦

وهذا الفضل إنما يُعطيه الله لأهل التوحيد ، فكل من دخل في التوحيد فقد سعى للانتفاع بدعاء المسلمين وشفاعتهم وصدقاتهم ونحو ذلك ، أخرج الامام أحمد^(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص : (أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن يذبح مائة بدنة ، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين) ، وأن عمرًا سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال : : أما أبوك فلو أقرّ بالتوحيد فصمت عنه أو تمددت عنه نفعه ذلك .)

قلت : والعبد لما دخل في التوحيد والعمل الصالح فقد سعى لما وعده الله من رفع الذرية الى درجة الآباء وإن لم يبلغ درجة صلاحهم وهذا مثل وعد المحسن بالأمثال والأضعاف المضاعفة ، فإذا أتى بحسنة راجيا أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى في الأمثال ، كما أنه لما دخل في التوحيد يكون قد سعى للانتفاع بشفاعدة النبي العظمى يوم القيامة لأهل التوحيد ؛

الوجه الثالث : أن السعي الذي حصل به رفع درجات الاولاد ليس للاولاد كما هو نص قوله تعالى : (وأن ليس للانسان الا ما سعى) ولكنه من سعي الآباء ، فهو سعي للآباء أقر الله به عيونهم بسببه بأن رفع اليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برويتهم ، فالاية على هذا لا تنافي الآية الأخرى لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الاولاد ، فانتفاع الاولاد تبع ، فهو بالنسبة لهم تفضل من الله عليهم بما ليس لهم كما تفضل بذلك على الولدان والحوار العين والخلق الذين يُنشئهم للجنة^(٣)

هذا وقد ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه الامام مسلم^(٤) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : (اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له .)

(١) مسند أحمد : ج ٢ / ١٨٢

(٢) تفسير الفخر الرازي : ج ٢٥ / ١٥ ، ٢٩ / ١٦

(٣) أضواء البيان ، للشيخ الشنقيطي : ج ١٠ / ٢٧٨

(٤) صحيح مسلم : كتاب الوصية ، باب ما يلحق من الثواب بعد وفاته (شرح النووي : ١٣ / ٨٥

ورواه ابو داود : كتاب الوصايا ، باب ما جاء في الصدقة عن الميت : ج ٣ / ٣٠٠

والنسائي : في كتاب الوصايا ، فضل الصدقة عن الميت : ج ٦ / ٢٥١

فهذا الحديث قد يتوهم منه عدم انتفاع الميت المسلم من غير سعيه ، والحديث لا يدل على ذلك ، فقول الرسول : اذا مات الانسان انقطع عمله : أى انقطع ثواب عمله الصالح الذى كان يعمل به في الدنيا الا هذه الثلاثة فان ثوابها لا ينقطع لأنها من كسبه وعمله ويمتد اثرها بعد موته وليس في الحديث ما يمنع انتفاع الميت بسعي غيره كما وردت به النصوص مثل الصدقة ودعاء المسلمين والحج عنه والصوم عنه ، وكذلك لا يمنع الحديث ان المؤمن ينتفع بشقاعة الاباء أو الاولاد تفضلا من الله تعالى وغير ذلك مما يلحق المؤمن من غير سعيه ،

وهذه الثلاثة الواردة في الحديث انما هي من سعيه وكسبه ، فالولد من سعيه وكسبه لكونه كان سبيه ، كما ورد في الحديث : (ان أطيّب ما أكل الرجل من كسبه وان ولد الرجل من كسبه (١))
وقد قال تعالى : ((ما أغنى عنه ماله وما كسبه)) - المسد / ٢ -
قال المفسرون : ان المراد بقوله وما كسب : اولاده

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي آثار عمله ووقفه ، وقد وقد قال تعالى (ونكتب ما قدموا وآثارهم) - يس / ١٢ -
والعلم الذى نشره بين الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله ، وثبت في الحديث :

(من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه من غير أن ينقص من أجرهم شيئا .) (٢)
فالحديث يدلنا على أن اعمال الانسان نفسه ينقطع ثوابها بعد موته الا هذه الثلاثة التي تقدم شرحها ، وليس فيه نفي للانتفاع بعمل الغير تفضلا من الله تعالى (٣)

(١) أخرجه النسائي : في كتاب البيوع ، باب الحث على الكسب ، ج٢ / ٢٤٠
وأحمد في مسنده ج١ / ٣١

(٢) أخرجه أحمد : ج٢ / ٣٨٠

ابو داود في سننه ج٥ / ١٦ ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة
وابن ماجة في المقدمة : باب من سن سنة حسنة أو سيئة ج١ / ٧٤

(٣) تفسير ابن كثير : ج٤ / ٤٠١ ، مجموع الفتاوى : ج٢٤ / ٣٠٦
شرح النووي على مسلم : (ج١١ / ٨٥)

٤ - قوله تعالى في حق عباده المؤمنين :

(والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون) - الشورى / ٢٩ -

هذه الآية يُفهم منها أنّ مَنْ صفة عباد الله المومنين الانتصار ممن يظلمهم أو يبغى عليهم ، وهذا في الظاهر قد يُتوهم منه منافاة الآيات الأخرى والتي جاء فيها الأمر بالصبر والحلم على الباهليين ومن هذه الآيات قوله تعالى :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) - الفرقان / ٣٧ -

وقوله تعالى : (واذا ما غضبوا هم يغفرون) - الشورى / ٦٣ -

وقوله تعالى : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) - البقرة / ٢٣٧ -

وقوله تعالى : (واذا مروا باللغو مروا كراما) - الفرقان / ٧٢ -

والجواب : ان هذه الآيات ترجع الى الحكمة في المعاملة وهو وضع الشيء في محله ، فالحل سبحانه قد حدد للمؤمنين صفتين كل صفة ترجع الى حالة معينة ،

فالحالة الاولى : وهي الانتصار عندما يصيب المؤمن بغي أو إساءة فهي عندما يكون الباغي معلنا بالفجور متماذيا في غيه مؤذيا للضعيف والكبير ، مصر على عدوانه ، فهذا يكون الانتصار منه أفضل ، وفي مثل هؤلاء قال ابراهيم النخعي ومجاهد - رحمهم الله - : (كانوا يكرهون أن يُستذلوا فيجترؤ عليهم الفساق ، فإذا قدروا عفا)

فالحل تعالى : مدح عباده المومنين بأن فيهم همة الانتصار للحق ، والحمية له ، ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزا ودلا لأن ذلك مما يُذم ، والممدوح هو العفو مع المقدرة والقيام لما يجب من نصر الحق وعدم إهمال حق الله وحق العباد ،

والمؤمن إذا قدر عفا ، فالانتصار ليس منافيا للعفو لأنه يكون باظهار القدرة على الانتقام ثم يقع العفو بعد ذلك فيكون أتمّ وأكمل ، لأنّ العفو هنا ابتداءً بدون إظهار القدرة على الانتقام يصير سببا لمزيد جرأة الجاني ولقوة غيظه وغضبه ، والعفو عن المصّر على الاعتداء والسفاهة يكون كالأغراء له ولغيره (١)

(١) زاد المسير لابن الجوزي : ٢ / ٢٩٢ ، تفسير السرازي : ٢٧ / ١٧٨

مجموع الفتاوى : ج ١٥ / ١٧٤ ، تفسير ابن كثير : ج ٤ / ١٧٨ الشورى / ٣٩

روح المعاني للآلوسي : ج ٢٥ / ٧٦ ، لوامع الانوار للسفارينيني : ج ١ / ٣٨١

روى النسائي وابن ماجه (١) عن عائشة - رضي الله عنها - : أن زينب بنت جحش - وكان فيها سورة من جدّة - أقبلت على عائشة وهي غضبي فوقعمت بها ، فلم تبرح زينب حتى عرفت عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يكره أن تنتصر ، فأقبلت عليها عائشة حتى أغحمتها وأسكتتها

وهو سبحانه قد بيّن في الآية مشروعية الانتصار ، ثم بين بعده أن هذه المشروعية مشروطة برعاية المماثل ، ثم بين أن العفو أولى بقوله تعالى : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله)

ويرى القرطبي (٢) في قوله تعالى : (وإذا أصابهم البغي هم ينتصرون) أي أصابهم بغي المشركين ، قال ابن عباس : وذلك أن المشركين بنوا على رسول الله وأصحابه وأذوهم وأخرجوهم من مكة فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم في الأرض ونصرهم على من بغي عليهم ، وذلك قوله تعالى في سورة الحج :

(أُنْزِلَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)

الآيات ٣٩/٤١ - ٤٠
وقيل هو عام في بغي كل باغ من كافر وغيره ، إذا نالهم ظلم ظالم لم يستسلموا لظلمه ، وهذه إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود . اهـ

قال ابن كثير (٣) : (أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ، ليسوا بالهائزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغي عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوهم ، كما قال يوسف عليه السلام لأخوته : (لا تشرب عليك اليوم يغفر الله لكم) مع قدرته على مؤآخذتهم ومقابلتهم على منيعهم إليه ، وكما عفا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن أولئك الغفر الثمانية الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام . اهـ

فالعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة ، - فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدي والمسامح سواء ، فالمعتدي حينما يشعر أن العفو جاء سماحة ولم يجيء ضعفاً يخجل

(١) سنن النسائي : في النكاح ، باب حب الرجل بعض نساءه أكثر من بعض ج ٧ / ٦٨

سنن ابن ماجه : في النكاح ، ج ١ / ٦٢٧ ، رقم : ١٩٨١ وهو حديث صحيح

(٢) تفسير القرطبي : ٢٨ / ١٦

(٣) تفسير القرآن العظيم : ج ٤ / ١٧٨ الشورى ٢٧

ويستحي ويحس بأن خصمه الذي عفا هو الأعلى ، والقوى الذي يغفو تصفوا نفسه وتعلو ، فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا ، أما العفو عند الضعف والعجز فليس له ثمة وجود وهو شر يُطمع المعتدى ويُذل للمُعتدى عليه وينشر في الأرض الفساد (١)

والحالة الثانية :

أن تقع الاساءة أو التعدى من السفهاء والجهلة وفاقدى الادب ، وهو ما أشار اليه قوله تعالى : (واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) فهذه الآية جاءت لمدح المؤمنين في معاملتهم ، ووصفهم بالانضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون الا خيرا ، كما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حِلما ، قال مجاهد (٢) رحمه الله : (معنى سلاما : سدادا ، أى يقولون للجاهل كلاما يُدفع به برفق ولين)

ونظير ذلك قوله تعالى :

(واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم

سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) - القصص / ٥٥ -

أى لا نُجازيهم بالباطل على باطلهم ، فعباد الرحمن من صفاتهم الخُلم والعفو لما يصدر من إساءة أو فُحش من السفهاء ، لا يغضبون لأنفسهم وهذا من محاسن الاخلاق ، حيث يشفقون على من ظلمهم ، ويصفحون عمن جهل عليهم يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه لقوله تعالى :

(والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)

آل عمران / ١٣٤ -

فالانضاء عن السفهاء وترك المقابلة مُستحسن في الشرع والعقل وسبب لسلامة العرض وصيانة الوقت (وهم - أى عباد الرحمن - في جدهم ووقارهم وقصدهم الى ما يُشغلهم نفوسهم من اهتمامات كبيرة لا يتلفتون الى حماقة الحمقى وسفه السفهاء ، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السفهاء والحمقى في جدل أو عراك ، ويترفعون عن المهادرة مع المهاترين الطائشين ، (واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) لا عن ضعف ولكن عن ترفع ، ولا عن عجز إنما عن استعلاء وعن عيانة الوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهادرة بما هو أهم وأكرم وأرفع .) (٣)

(١) في ظلال القرآن : ج٥ / ٣١٦٢

(٢) تفسير ابن كثير : ج٣ / ٥١٩ ، تفسير القرطبي : ٦٩ / ١٣

زاد المسير : ج٦ / ١٠١ ، تفسير الرازي : ج٢٣ / ١٠

(٣) في ظلال القرآن : ج٥ / ٢٥٧٨

والعفو والمغفرة من عباد الله المؤمنين إنما هي لمن تآتون منه
الغلطة والزلة ، أو يقع ذلك ممن يعترف ويسأل المغفرة ، وكفلك اذا
كان العفو سببا لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه عن جانيته ،
فالعفو هنا أفضل ، وآيات العفو والصّحّ محمولة عليه ،
قال القرطبي (١) - رحمه الله - : والموضع المأمور فيه بالسّو
اذا كان الجاني نادما مُقلعا ، وقد قال عُقَيْب هذه الآية :
(ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) ، ويقتضي ذلك
إباحة الانتصار لا الأمر به ، وقد عَقَّبَه بقوله : (ولئن عبر وغفر إن
ذلك لمن عزم الأمور) وهو محمول على الغفران عن غير المصر ، فأما
المصر على البغي والظلم فالأفضل الانتصار بدلالة الآية التي قبلها .

قلت : وبهذا يتبين لنا كيف مدح الله عباده المؤمنين بالانتصار
من الباغي المصّر المعتدى المّجاهر الذي لا يردعه سوى إظهار القدرة على
الانتصار ، وأن عباد الرحمن يُفَرِّقون بين هذا الباغي وبين السفيه
الجاهل الذي لا نفع معه سوى المتاركة والاغضاء عن جهله وحقائقه
صيانة للعرض وحفاظا على الوقت وترغبا عن المهادنة ،

وكذلك عفوهم عمن تقع منه الزلة والغلطة ويطلب المغفرة ، فالناس
في معاملتهم متفاوتون وأساليبهم تختلف ، فمن الحكمة معاملة الناس
بحسب حالهم ، وهذا ما يتميز به عباد الرحمن

(٢)

واختتم هنا بقول الأوسى رحمه الله : حيث قال :

(فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود ولفظ المغفرة مُشعر به ، -
والانتصار من المّخاض المصر محمود ولفظ الانتصار مشعر به ، ولو أوقعا
على عكس ذلك كانا مذمومين ، وعلى هذا جاء قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فوضع الندى في موضع السيف بالاعلا

مُضرّ كوضع السيف في موضع الندى ، أو

(١) تفسير القرطبي : ج ١٦ / ٣٨

(٢) روح المعاني : ج ٢٥ / ٤٧

٥ - قوله تعالى في حق عباده المؤمنين :

(والذين آمنوا ولم يُهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يُهاجروا) - الانفال / ٧٢ -

تدل هذه الآية أن مَنْ لم يهاجر لا ولاية بينه وبين المؤمنين حتى يهاجر ، وهناك آية أخرى لم تُقيد الولاية بالهجرة بل جعلتها بين جميع المؤمنين وهي قوله تعالى :

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) - التوبة / ٧١ -

والجواب أن الآية الأولى إنما نعت ولاية الميراث ، وكان ذلك في بدء الإسلام لما هاجر المؤمنون إلى المدينة المنورة ديار الإسلام وبقي في مكة وغيرها مؤمنون لم يهاجروا فرغبهم الله تعالى بالهجرة ، قال ابن عباس وغيره : (جعل الله الميراث للمهاجرين والانصار دون ذوي الارحام للاخوة التي آخى النبي - صلى الله عليه وسلم - بينهم) .

فيكون معنى الآية وهو قوله تعالى : (ما لكم من ولايتهم شيء) أي : ما لكم من شيء من ميراثهم حتى يهاجروا ، لأن المهاجرين والانصار كانوا يتوارثون بالمؤاخاة التي جعلها النبي - صلى الله عليه وسلم - بينهم فمن مات من المهاجرين ورثه أخوه الانصاري دون أخيه المؤمن الذي لم يهاجر حتى نسخ ذلك بقوله تعالى : (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) - الاحزاب / ٦ -

(١)

أخرج الحاكم والطبراني عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : (آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم - بين أصحابه وورث بعضهم من بعض حتى نزلت : (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض) فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب) ١٠هـ

وروى مثل ذلك عن مجاهد وقتادة وعكرمة والسدي ومقاتل بن سليمان (٢) ،

قال الالوسي : (ويدل على أن المقصود ولاية الميراث قولنـه تعالى بعدها : (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر) أي فوجب عليكم أن تنصروهم على المشركين أعداء الله وأعدائكم) ١٠هـ

(١) مسند الطيالسي : ج٢ / ١١ ، مجمع الزوائد : ج٧ / ٢٨

المستدرک : ج٤ / ٢٤٥ من حديث الزبير بن العوام ، وقال : صحيح الاسناد ووافقه الذهبي ، وانظر : الصحيح المسند من أسباب النزول : ٧٥

(٢) تفسير ابن كثير : ج٢ / ٥١٦ ، تفسير الماوردي : ج٢ / ١١٤ ، زاد المسير : ٣ / ٣٨٥

احكام القرآن للشافعي : ج١ / ١٤٦ ، الرد على الزنادقة للامام احمد : ١٦ - ١٧ التنبيه والرد للملطي : ٦٤ ، روح المعاني : ١٠ / ٣٨ ، اضواء البيان : ١٠ / ١٤٢

قلت : فهذا يدل على أنَّ الولاية المنفية وهي ولاية الميراث غير ولاية
النصرة المثبتة في قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء
بعض) فالولاية هنا هي ولاية النصرة والمؤازرة والتعاون بين المؤمنين
وعلى هذا فتوهم الاختلاف مدفوع بما تقدم

وهناك وجه آخر في تفسير قوله تعالى : (والذين آمنوا ولم
يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء) : وهو أن المؤمنين للذين
لم يهاجروا ليس لهم في المغانم نصيب ولا في خمسها إلا ما حضروا
فيه القتال ، قال بذلك ابن كثير^(١) واستشهد بحديث رواه الإمام أحمد
ومسلم^(٢) عن يزيد بن الخصب الأسلمي - رضي الله عنه - قال : (كان رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أو ماء ففى
خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا وقال : (أغزوا باسم
الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ، إذا لقيت عدوك من
المشركين فادعهم الى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهم ما أجابوك وإليها
فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم الى الاسلام فإن أجابوك فاقبل منهم
وكف عنهم ، ثم ادعهم للتحويل من دارهم الى دار المهاجرين ، وأعلمهم
إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين ،
فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى
عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفبيء -
والغنيمة نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فادعهم
الى إعطاء الجزية فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن
بالله وقاتلهم .) اهـ

وعلى هذا الوجه الذى ذكره ابن كثير في تفسيره فليس هناك
إشكال لأن المنفي هو نصيب من لم يهاجر من المغانم والفبيء ،
والمثبت هو ولاية النصرة والمؤازرة والتعاون ،
وليس هناك مانع من تناول الآية للجميع ، فيكون المراد بها : نفي
الميراث بينهم ونفي القسم لهم في الغنائم والخمس^(٣) والله أعلم

(١) تفسير القرآن العظيم : ج٢ / ٥١٦ ، الانفال / ٧٢

(٢) مسند أحمد : ج٥ / ٣٥٢ ، عن يزيد بن الخصب الأسلمي
ومسلم في صحيحه : كتاب الجهاد ، باب تأمير الامراء على البعوث ، عن بريدة

(شرح النووي : ج١٢ / ٣٧)

(٣) أنظر : أضواء البيان للشيخ الشنقيطي : ١٤٣ / ١٠

٦ - قوله تعالى:

(انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم
وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون...)
الأنفال / ٢ -

وصف الله تعالى حال عباده المؤمنين حق الإيمان بأن قلوبهم توجل
لذكر الله أي تخاف وتفرع ،

بينما وصفهم في آية أخرى بقوله : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم
بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) - الرعد / ٢٨ -
فقد يُتوهم أن بين الخوف والطمأنينة تنافي أو تعارض

والجواب : أن عباد الله المؤمنين لهم صفات وحالات يتنقلون
فيها بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة ، كذلك بين الطمأنينة
والتي هي كمال المعرفة وثقة القلب وسكون النفس وثلج اليقين
وشرح الصدر بمعرفة التوحيد ،

وبين الوجيل وهو : الخوف من الله وتعظيمه والهيبة منه ،
ولا منافاة بينهما ، لأن المؤمن المطمئن قلبه بمعرفة الله وتوحيده
وتوفيقه هو مع ذلك دائم الخوف من الله يراقبه في كل أحواله
يخشى من التقصير ومن عقاب الله ،

وهذان الوصفان قد اجتمعا في قوله تعالى : (الله نزل أحسن
الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعراً منه جلود الذين يخشون ربهم
ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله...) - الزمر / ٢٣ -

أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين على الله ، وإن كانوا يخافون الله ،
ولذلك وصف الله أحوال المؤمنين عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال :

(وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع
مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا بما كتبتنا مع الشاهدين) - المائدة / ٨٣

والاية وإن كانت في وصف من آمن من أهل الكتاب ، إلا أن بعض
أوصافهم هذه هي خلائق لعامة المؤمنين ،

كما أن المؤمن من حق الإيمان وإن كان مطمئناً القلب بوعده الله منشرح
الصدر بمعرفة توحيده وآياته ، متيقن بشوابه وإحسانه ، إلا أنه دائم
الخوف أيضاً من زيغ القلب ، والذهاب عن الهدى ، فتوجل القلوب لذلك (١)

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن : ٢٠٣ ، زاد المسير : ج٢ / ٢٢٠

تفسير الرازي : ج١٨ / ٥٠ ، تفسير القرطبي : ج٧ / ٢٦٥

تفسير ابن كثير : ج١ / ٤٥٢ الأنفال / ٢ ، البرهان للزركشي : ج٢ / ٦٢

روح المعاني للآلوسي : ج٩ / ١٦٥ ، أضواء البيان : ١٣٥ / ١٠

ولهذا كان من دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي يُكثر منه : (يا مُقلبَ القلوب ثبّت قلبي على دينك) ، فقال الصحابة يا رسول الله آمنا بك وما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إنّ القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يُقلبها (١)

فهكذا حال المؤمنين المتعلقين بربهم الراغبين في مرضاته ، والظامعين في جناته ، والهابسين من سخطه وعقابه هم بين الطمانينة والوجل ، ذلك أنهم يتدبرون آيات الله حق التدبر فيفهمون ما فيها وإذا تُكِّروا بها لم يخروا عليها مُمّا وعميانا ، بل فرحوا بها واستبشروا لما فيها من وعد وبشرى ورحمة وتذكير بنعم الله تعالى ، وإذا مرت بهم الآيات التي فيها ذكر جلال الله وعظمته وقدرته ووعيده لأهل الباطل بالعقاب والانتقام وما فعله سبحانه بالأمم الماضية من هلاك وعقاب انتابتهم هيبة الله والخوف منه ، لشعورهم بالتقصير وخوفهم على أنفسهم من ذنوبهم مهما صغرت ، فيفعلوا أوامره ويتركوا زواجره ، كقوله تعالى :

(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)

وقوله تعالى : (وإيمان خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى) - النازعات /

ولهذا قال سفيان الثوري (٢) : (سمعت السدي يقول في قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ٠٠) قال : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهمل بمعصية فيقال له اتق الله فيجل قلبه) ولنا في أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خير أسوة فقد روى الامام الترمذي وصححه (٣) عن العراب بن سارية - رضي الله عنه - قال : (وعظنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - موعظة بليغة ذرعت منها العيون ووجلّت منها القلوب ٠٠٠) الحديث

وبهذا يتبين لنا أنّ طمانينة القلب بذكر الله ومعرفته وانشراح الصدر بتوحيده عندما يكون العبد مستغرقا في الطاعة ، لا ينافي حصول الخوف والهيبة من عظمة الله وعقابه عند الشعور بالتقصير أو الهمل بمعصية أو - لخوف زيفان القلب ، والله تعالى ولي التوفيق

(١) رواه احمد : ج٢ / ١١٢ والترمذي : في الدعوات رقم : ٣٥٠٧ وحسنه ابن ماجه : في الدعاء ، باب دعاء رسول الله ج٢ / ١٢٦٠ رقم : ٣٨٣٤ عن انس بن مالك (٢) الدر المنثور : ٤ / ١٢٠١ بسبكثير ٤٥٨ ، (٣) سنن الترمذي : كتاب العلم ، باب ١٦ ج٢ / ٥٣ / ٤٣

١٧- قوله تعالى : (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) ١١٢ إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا ، وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) - المائدة / ١١٢- ١١٣

الآية الأولى تفيد إيمانهم وإسلامهم ، والثانية قد يتوهم منها أنهم كانوا شاكين في قدرة الله تعالى (١) مع أن الله سبحانه قد وصفهم بالحواريين ، وهذا ينافي أن يكونوا على الباطل وكذلك فإن الله تعالى أمر المؤمنين بالتشبه بهم والافتداء بسنتهم في قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِجِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ -١٤-)

والجواب : أنه لا تعارض بين مدلول هذه الآيات وأنَّ الخواريين لم يشكوا في قدرة الله تعالى ، وهناك عدة توجيهات لقول الخواريين : (هل يستطيع ربك ؟) ،

الوجه الأول : أن قولهم : هل يستطيع ربك ؟ (بمعنى : هل يفعل كما تقول للقادر على القيام : هل تستطيع أن تقوم ؟ مبالغة ،

قال ابن الأنباري : (٢) ولا يجوز لأحد أن يتوهم أنَّ الخواريين شكوا في قدرة الله وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه : هل تستطيع أن تقوم معي ؟ وهو يعلم أنه مستطيع ولكنه يريد : هل يسهل عليك) ١٥ ولهذا فإن التعبير عن الفعل بالاستطاعة من التعبير عن المسبب بالسبب إذ هي من أسباب الإيجاد (٣) ، وهذا كما قال بعض التابعين لبعض الصحابة هل تستطيع أن تُريني كيف كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتوضأ ؟ وهو يعلم أنه يستطيع ذلك ، فالمعنى هل تفعل ذلك وتحقق رغبتك فيكون حاصل معنى الآية على هذا : هل يُنزل الله مائدة من السماء بسؤالك إياه ؟ فإن كان كذلك فاسأله لنا أن يُنزلها (٤)

الوجه الثاني : أنَّ المعنى : هل يطيع ربك ، ويطيع بمعنى يجب مجازاً ، فالسين والتاء في قوله : (هل يستطيع ربك) زائدتان ،

(١) ادعى بعض أعداء الإسلام أن هذا السؤال لا يمكن أن يكون قد صدر على

لسان الخواريين ، مثل جولد زيهر المستشرق في : مذاهب التفسير : ٣٦ وانظر : تفسير القرآن للشيخ محمود شلتوت حيث ذكر توهم الاختلاف وأجاب عنه : ٢٦٣

(٢) زاد المسير : ٤٥٦ / ٢ ، (٣) روح المعاني : ٥٨ / ٧ تفسير الماوردي : ٤٩٩ / ١

زاد المسير : ٤٥٦ / ٢ (٤) القراءات في نظر المستشرقين : ١٣٦ عبد الغني القاضي

وكثيرا ما تُزاد السين والتاء في ألفاظ العرب وأساليبهم ، في نثرهم ونظمهم من ذلك قولهم : استجاب بمعنى أجاب ،

قال الامام ابن جرير (١) - رحمه الله - : (إِنْ يُطِيعَ بِمَعْنَى يُجِيبُ ، والمعنى هل يستجيب إِنْ سَأَلْتَهُ ذَلِكَ وَيُطِيعُكَ فِيهِ) اهـ وهذا قول السدي (٢)

الوجه الثالث : أنهم كانوا عالمين باستطاعة الله وقدرته ، لما سألوه ولغيره علم دلالة وخبر ونظر ، فأرادوا علم معاينة كذلك ، كما قال ابراهيم عليه السلام : (رب أرني كيف تحيي الموتى) ولذلك قال الحواريون : (وتطمئن قلوبنا) كما قال ابراهيم : (ولكن ليطمئن قلبي) ، فسؤالهم كان ليحصل لهم مزيد الطمأنينة ، لأن مشاهدة مثل تلك الآلة لا شك انها تورث الطمأنينة ،

وعلى هذه الأوجه الثلاثة يظهر لنا أن الحواريين لم يشكوا في قدرة الله تعالى ولذلك فإن هذه الآلة لا تعارض ما جاء في آيات أخرى من إيمان الحواريين ونصرتهم لنبيهم حتى أن الله سبحانه أمرنا أن نقتدى بهم في نصرتهم وإيمانهم وتضحياتهم ،

أمّا قوله تعالى حكاية عن عيسى - عليه السلام - مخاطبا الحواريين : (اتقوا الله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فمعناه : إِنْ كُنْتُمْ كَامِلِينَ فِدَـيِ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ لَا يَطْلُبُونَ الْخَوَارِقَ وَلَا يَقْتَرِحُونَ - الْآيَاتِ وَلَكِنْ حَالَهُمْ هَذَا يَشْبَهُ حَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا طَلَبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَقَالَ : (أَوَلَمْ تَوَدَّ أَنْ يَدْعُوا وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي) ، ولذلك لما قال لهم عيسى : (اتقوا الله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) كرّروا له الطلب معانين عن أسبابه وما يرجونه من ورائه ، وأن طلبهم لم يكن شكاً أو جهلاً منهم بل قالوا : (نريد أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) ، فهم يريدون أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ هَذَا الطَّعَامِ الْغَرِيدِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ بِرُؤْيَا هَذِهِ الْخَارِقَةِ وَهِيَ تَتَحَقَّقُ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ ، وَيَعْلَمُوا عِلْمَ يَقِينٍ وَمَشَاهِدَةٍ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ صَدَقَهُمْ حَتَّى لَا يَبْقَى لِمَعَانِدٍ أَوْ جَا حِدٍ أَوْ شَاكٍ حُجَّةٌ بَعْدَهَا ، ثُمَّ لِيَدُونُوا شُهَدَا

(١) تفسير ابن جرير : ج ١١ / ٢٢٠ ، تحقيق محمود شاكر

(٢) المصدر السابق ج ١١ / ٢٢٠ ، تفسير الماوردي : ١ / ٤٩٩ ، زاد المسير : ٢ / ٤٥٦

لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة ، ولذلك فإنّ قوتهم :
(ونكونَ عليها من الشاهدين) دليلاً على نُبلِ مقصدهم وُبُعدِ همّتهم حيث
إنهم أرادوا بها يُدعّم دعوتهم بعد نبينهم ويستشهدون به لدعوة الناس^(١)

هذا وقد قرأ الامام الكسائي وهو من السبعة : (هل تستطيع
ربّك) بالتاء خطاباً لعيسى عليه السلام ، وربّك بالنصب^(٢)

والمعنى : هل تستطيع سؤال ربك فينزل بدعاك مائدة من السماء
أى : هل تسأله ذلك من غير عارف يصرفك عن سؤاله ،

فمن القرائتين نستنتج أنهم سألوه عن شيئين : أولهما : هو
استعداده لسؤال الله لإنزال مائدة من السماء ، وعدم وجود عوارف عن ذلك
وهو ما أفاده قراءة الكسائي

والشيء الثاني : هو استفهامهم عن إجابة الله لمثل هذا الطلب ،
وهل أن الله يحققه لنا ويكرمنا به ، أم أن مثل هذا الطلب لا يجيبه
الله لحكمة يعلمها الله ولا نعلمها

ولذلك فإن ما دلت عليه قراءة الكسائي كان منهم تمهيدا لطلبهم إجابة
الله لإنزال مائدة من السماء ، فدل أن المراد طلب الدعاء منه فلذا
استجاب لهم عيسى ودعا الله تعالى بذلك بعد أن حذّرهم وخوّفهم من أن
يحدثَ منهم أو من غيرهم إنحراف وتبديل بعد نزول هذه الخارقة ،
فيؤدّي إلى نزول العذاب بهم كما هي سنة الله في المكذّبين السابقين
في معاقبتهم على كفرهم بعد نزول الخوارق التي طلبوها ،

فقالوا تمهيدا لعذرهم : (نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم
أنّ قد صدقتنا وتكون عليها من الشاهدين)

فلما دعا عيسى بنزول المائدة : (قال الله إنّي منزلها عليكم فمن
يكفر بعد منك فاني أعذبه عذاباً لا أُعذّبه أحداً من العالمين)

أما قول ابن جرير^(٣) والزمخشري^(٤) : إن هذا السؤال كان في ابتداء
أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل ، وأن قول عيسى عليه السلام
(اتقوا الله ان كنتم مؤمنين) أى لا تشكوا في قدرة الله يدل على ذلك

(١) انظر : تفسير القرطبي : ٣٦٦ / ٦ ، تفسير الرازي : ١٣٦ / ١٢

روح المعاني : ٥٩ / ٧ ، في ظلال القرآن : ج ٢ / ١٠٠٠ المائدة / ١١٢

(٢) النشر في القراءات العشر لابن الجزري : ٢٥٦ / ٢ ، الاقناع لابن الباذر : ٢٣٦ / ٢

تفسير الماوردي : ٤٩٩ / ١ ، القرطبي : ٣٦٦ / ٦

(٣) تفسير ابن جرير : ٢٢٢ / ١١ تحقيق محمد شاكر (٤) الكشف : ج ١ / ٦٥٤

ونقله الماوردي في تفسيره : ١٤٩ / ١

فقد ردّ عليه الامام القرطبي^(١) بقوله : فيه نظر من حيث إن الحواريين أنصار الأنبياء وصفوة المؤمنين وخصائهم كما قال : (من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله) ، إلا أنه يجوز أن يُقال : إنّ ذلك صدر ممّن كان معهم كما قال ذلك الصحابي الحديث عهد بالكفر للنبي - صلى الله عليه وسلم - : (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)^(٢) ، ثم صحح القرطبي القول بأن مرادهم الطمأنينة بعد العلم كما حصل مع إبراهيم عليه السلام ،

هذا وقد أيد الشيخ ثلثت - رحمه الله - إمكانية كون أصحاب عيسى كانوا شاكين في أول الأمر حيث قال^(٣) : (وليكن كل هذا فإنّ من المعلوم أنّ الدعوات تبتدئ دائماً بمرحلة من التردد في نفوس المدعوين ، تختلف باختلاف الأفراد في الاستعداد لإدراك الحق وقبوله ، فمنهم من يُبادر بالإيمان ، ومنهم من يمتدّ به التردد حتى يرى ما يُطمئنّه فيطمئن ، وليست أمة عيسى في هذا بدعاً من الأمم فقد رأينا مثل ذلك في أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - إذ سارع منهم من سارع ، وتأخر منهم من تأخر ، وصدق منهم من صدق ، وما كان تأخر مثل عمرو وخالد بالذي يُبعدهم عن مرتبة النُصرة للحق والصدق في الإيمان بمحمد ودعوته ، وعلى هذا فمن الجائز القريب أن يكون الحواريون ممّن تريثوا في بادئ الدعوة وناقشوا فيها وطلبوا الآيات عليها مرة بعد مرة حتى يطمئنوا ويصلوا إلى الإيمان بعد الشك ، إن دل كلامهم في آية السؤال على شيء من الشك فإنما كان ذلك في مرحلة النظر والاستدلال ، وإذا ذلت الآيات الأخرى على إيمانهم فإنما كان ذلك بعد انتهاء هذه المرحلة وتقرر الإيمان في نفوسهم)^(٤) .

ثم أفاد^(٤) رحمه الله بعد ذلك أنه إذا فرض إيمانهم من أول الأمر فإنه ليس في آية السؤال ما يترجح به شكهم على إيمانهم ، ثم وجه ذلك بنحو ما ذكرته في الملّب ، والله تعالى أعلم وهو ولي التوفيق

(١) تفسير القرطبي : ج٦ / ٣٦٦

(٢) أخرج الحديث : الترمذي في سننه ، كتاب الفتن باب ١٨ رقم ٢١٨٠ ج٤ / ٤٧٥

وقال : حسن صحيح ، وأحمد في مسنده : ج٥ / ٢١٨

وابن حبان في صحيحه : (موارد الظمآن : ٤٥٤) ، وابن جرير : ج١٣ / ٨١ محمود شاكر

وانظر الدر المنثور : ج٣ / ٥٣٢

ومعنى ذات أنواط : أى يعلق بها السلاح ، وكانت شجرة تميد من دون الله

(٣) في تفسيره : ٢٦٥ فما بعدها ، (٤) نفس المصدر : ٢٦٦

٨ - قوله تعالى في حق عباده التائبين :

(الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأُولئك يُبدل الله سيئاتهم

حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) - الفرقان / ٢٠ -

هذه الآية من سورة الفرقان تدل على أن سيئات التائب تُبدل حسنات بغضل الله ورحمته إكراماً لتوبته وإنبائه الايمان الحق والعمل الصالح ، وهناك آيات أخرى يدل ظاهرها على خلاف ذلك وهي قوله تعالى :

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت

من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) - آل عمران / ٣٠ -

فهذه الآية تدل على أن كل نفس ترى يوم القيامة ما عملت من

خير أو شر حسناتها وسيئاتها ، ويؤيد ذلك قوله تعالى :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) -

الزلزلة / ٦ - ٨ -

وهذا في الظاهر قد يُتوهم منه منافاة ما دلت عليه الآية الاولى من أن الحسنات تُبدل سيئات ، لأنها اذا بُدلت فكيف تُرى في الآخرة

والجواب : ان توهم الاختلاف بين هذه الايات مدفوع من وجهين :

الوجه الاول : أن قوله تعالى : (وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) مختص بخير التائب ، وهو الذي خرج من الدنيا مُسرفاً على نفسه في الذنوب ، ولقي الله بلا توبة ، فهناك يعرض على يديه ولات حين مندم ، ويتمنى لو أن بينه وبين سيئاته الكثيرة أمداً بعيداً ، وهذا بعكس المؤمن التائب الذي خرج من الدنيا نقياً من الذنوب فان سيئاته تُبدل حسنات ، ويلقى الله مبيضاً وجهه لا يحزنه الخزع الاكبر ، فيوم القيامة وإن وجد سيئاته مكتوبة ورآها فانها لا تضره وتنقلب حسنات في صحيفته كما ثبت ذلك في السنة وآثار السلف كما سيأتي تفصيله ،

الوجه الثاني : أن تمنى الامد البعيد ورؤية السيئات إنما هي قبل الوقوف على التبديل ، فهو أولاً يرى ما عمل من خير وشر فيشفق من ذنوبه ويخاف على نفسه ، ثم يمحو الله سيئاته ويقلبها حسنات بفضل الله ورحمته ، وهذا ايضا في حق التائب التوبة النصوح ومن شاء الله تعالى من خلقه

(١)

وهناك وجه ثالث مروي عن بعض السلف وهو أَنَّ الحسنات والسيئات في الآية معناها : أَنَّ الله يُبدل هؤلاء التائبين شركهم إيماناً وشكهم إخلاصاً وقتلهم إمساكاً وزناهم إحصاناً ونسيانهم لله ذكراً وعصيانهم طاعة ، قال ابن كثير (٢) : قال سعيد بن جبير : أُبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات (٣) اهـ
فمساوئ أعمالهم في الشرك يُبدلها الله بمحاسن أعمالهم في الإسلام فكانه تعالى يُبشرهم بأن يوفقهم لهذه الأعمال المأثرة فيستوجبون بها الثواب ،

وبعضهم قال إن المراد هو تبديل العقاب بالثواب ، فعقاب السيئات يُبدل بثواب الحسنات المكتسبة بعد التوبة ، فذكر في الآية الحسنات والسيئات وأراد ما يُستحق بهما (٤)
قال الآلوسي (٤) : (وقيل هذا التبديل في الآخرة والمبررات بالسيئات والحسنات العقاب والثواب مجازاً ، من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب ، والمعنى يغفو جل وعلا عن عقابهم ويتفضل سبحانه عليهم بدله بالثواب) اهـ

وعلى هذا التفسير لمعنى السيئات والحسنات في الآية ينتفي توهم الاختلاف مع الآيات التي تثبت أن كل إنسان سوف يرى ما عمل من خير أو شر، وأن من عمل سوءاً في حياته يود لو أن بينه وبين هذا السوء أمداً بعيداً ، لأنه على هذا الوجه فإن الآية لم تدل على أن السيئات تُمحى من صحائف الإنسان إذا تاب وأتاب ،

ولكن الذي يترجح هو أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، قال ابن كثير (٥) : (وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وإن وجدته مكتوباً عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة في محيطة ، كما ثبتت السنة بذلك ومحتبه الآثار المروية عن السلف - رضي الله عنهم -) اهـ

(١) تفسير ابن جرير ج ١٩ / تفسير ابن كثير : ج ٣ / ٥٢٣

النكت والعيون للماوردي : ج ٣ / ١٦٦ ، زاد المسير : ج ٦ / ١٠٧
القرطبي : ٧٨ / ١٣ ،

(٢) تفسير القرآن العظيم : ج ٣ / ٥٢٢ الخرقان / ٧١

(٣) تفسير الماوردي : ج ٣ / ١٦٦ ونقل هذا الوجه عن ابن بحر تفسير الرازي : ونسبه للقفال الشاشي

(٤) روح المعاني : ٤٩ / ١٩ ، (٥) تفسير ابن كثير : ج ٣ / ٥٢٣

وقال القرطبي^(١) : (فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا دعت توبة العبد
أن يضع مكان كل سيئة حسنة ١٠) اهـ

فهذا فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أن الله
تاب وأناب ورجع عن الضلال
أخرج الامام مسلم^(٢) في كتاب الإيمان عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال :
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إني لأعلم آخر أهل الجنة
دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجا منها رجل يُؤتى به يوم
القيامة فيقال : أعرضوا عليه عغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ،
فتعرض عليه عغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا وكذا ،
وعملت يوم كذا وكذا وكذا ، فيقول نعم ، لا يستطيع أن ينكر
وهو مُثَقَّف من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه ، فيقال له : غُلِّقْ لك مكان
كل سيئة حسنة ١٠٠ الحديث)

ونقل ابن كثير^(٣) عن ابن أبي حاتم بإسناده عن سلمان - رضي الله عنه
قال : يُعطى الرجل يوم القيامة صفيته ، فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ،
فإذا كان يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر في
أعلاها فإذا هي قد بُدلت حسنات ١٠)

وعنه بإسناد آخر عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : (ليأتين الله
عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ،
قيل من هم يا أبا هريرة ؟ قال : الذين يُبدل الله سيئاتهم حسنات)

ونقل عن الطبراني بإسناده (عن أبي هريرة أنه أتى رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فقال : أ رأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا -
داجة فهل له من توبة ؟ فقال : أسلمت ؟ فقال : نعم ، قال : فافعل
الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها ، قال وغدراتي
وفجراتي ؟ قال : نعم ، قال فما زال يُكبر حتى توارى)

ونقل ابن كثير عن علي بن الحسين ومكحول وسعيد بن المسيب نحو ذلك

قلت : فهذا الحديث الذي رواه الامام مسلم وهذه الآثار الصحيحة عن
السلف تدل على أن تبديل السيئات الوارد في الآية هو على ظاهره ،
وأنه يكون في الآخرة عند إعطاء الصحف ،

(١) تفسير القرطبي : ج ١٣ / ٧٨

(٢) كتاب الإيمان ، باب آخر أهل النار خروجا ، (شرح النووي : ج ٣ / ٤٧)

(٣) تفسير القرآن العظيم : ج ٣ / ٥٢٣ سورة الفرقان / ٧١

وأن هذا لا يناغي قوله تعالى : (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ٠٠٠) وقوله : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) لأن المؤمن يوم القيامة يُعطى صحيفته فيها حسناته وسيئاته كما قال تعالى : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) - الاسراء / ١٣ - ١٤ -

فيقرأ حسناته وسيئاته حتى يعلم أن الله لم يظلمه شيئاً . كما قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) الانبياء / ٤٧ -

فاذا نُصبت الموازين فهناك يتمنى المرء لو أن بينه وبين سيئاته أمداً بعيداً خشية أن توبقه ، فاذا كان ممن قال الله فيهم : (ألا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً)

إذا كان منهم يبدل الله سيئاته حسنات كما وعده سبحانه فتعظم هنالك فرحته وسروره ،

نقل اللوسي (١) : أن عبد بن حميد أخرج عن أبي العالية أنه قيل له إن أناساً يزعمون أنهم يتمنون أن يستكثروا من الذنوب ، فقال : ولم ذلك ؟ فقيل له : يتأولون هذه الآية : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) فقال أبو العالية : آمنت بما أنزل الله تعالى في كتابه ثم تلا : (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) ٠

قال اللوسي تعقيباً على هذا الاثر : (وكأنه ظن أن ما تلاه مناف لما زعموه ، ويمكن أن يُقال : إن ما دلت عليه الآية يكون قبل الوقوف على التبديل والله اعلم -) اهـ

قلت وهو الظاهر لأنه لما قرأ العبد كتابه وما فيه ممن من سيئات وحسنات ، ولما نُصبت الموازين ورأى ما فيها من ذرات الخير والشر ، علم أن الله لم يظلمه شيئاً وبأن له قدرة الله واحاطته بأعمال العباد ، هنالك يتفضل الله برحمته ومنه على عبده الذي تاب -

توبة نصوحا فيبدل سيئاته حسنات ويُعطيه كتابه بيمينه ، وكذلك يُبدل الله سيئات من شاء من خلقه الموحدين كالذى تقدم في الذى يخرج من النار ،

وأما ما جاء من النصوص في أن الحسنات يُذهبن السيئات ، كقوله تعالى : (أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إِنَّ الحسنات يُذهبن السيئات) - هود / ١١٤ -

وكقوله صلى الله عليه وسلم - لمعان بن جبل - رضي الله عنه - :
(١) (اتَّقِ اللَّهَ حِينَما كنت واتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها...)
فهذه النصوص لم تنفِر أن العبد يوقف على ما اكتسبه من السيئات يوم القيامة ، إنما تدل على أن فعل الخيرات يُكفِّر فعل السيئات - والذنوب التي هي من قبيل الصنائر ، وتكفيرها هو محو عقوبتها ، لكن العبد يوقف عليها يوم القيامة ويرى ما فعله من خير أو شر عندما توضع موازين القسط وتُنشر الصحف وما فيها من مناقيل الذر :
(وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفأ بنا حاسبين)
قال العلامة السفاريني (٢) : (والصحيح كتبهم - أى الحفظة - الصنائر المغفورة وإن غفرت باجتناب الكبائر) ١٠ هـ

ونقل الحافظ بن رجب عن طائفة من العلماء (٣) : أن الذنوب لا تُمحى من صحائف الأعمال بتوبة ولا غيرها ، بل لا بُدَّ أن يوقف عليها صاحبها ويقرأها يوم القيامة ، واستدل بقوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ، وقال : وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا القول هو الصحيح عند المحققين ، وقد روى هذا القول عن الحسن البصري ، وبلال بن سعيد الدمشقي (٤)

قال الحسن : في العبد يُذنب ثم يتوب ويستغفر الله يُغفر له ، ولكن لا يمحوه من كتابه دون أن يقف عليه ثم يُسأل عنه ، وقال بلال بن سعد : إن الله يغفر الذنوب ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوم القيامة وإن تاب (٥) ١٠ هـ

قال السفاريني (٥) : أخرج بن المبارك عن أبي عثمان النهدي قال : (إن المؤمن ليُعطى كتابه في ستر من الله فيقرأ سيئاته فيتغير لونه

(١) أخرجه أحمد في المسند : ج ٥ / ٢٢٨ عن معاذ ، ج ٥ / ١٥٣ عن أبي ذر

والترمذى : في البر ، باب ما جاء في معاشره الناس ، وقال : حسن ج ٤ / ٣٥٥

(٢) لواضع الانوار : ج ٢ / ١٨٢ ، (٣) جامع العلوم والحكم : ١٥٨

(٤) من كبار التابعين ، ثقة عابد فاضل مات في خلافة هشام بن عبد الملك

انظر : تقريب التهذيب للحافظ بن حجر ، ١٢٩ تحقيق : الشيخ محمد عوامة

(٥) لواضع الانوار : ج ٢ / ١٨٢

ثم يقرأ حسناته فيرجع اليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد
بُدلت حسنات ، فعند ذلك يقول : (هاؤم اقرأوا كتابي)

(١) ونقل السيوطي عن ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث
عن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة
خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) أنه قال :
(ليس مؤمن ولا كافر عمل خيرا وشرا في الدنيا إلا أراه الله تعالى
إياه ، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر له من سيئاته ،
ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فيرى حسناته وسيئاته ، فيرد حسناته
ويُعذبه بسيئاته) (٠) اهـ

هذا وما ورد من النصوص من أن الحسنات يُذهبن السيئات إنما
هو في حق المغائر ، أما الكبائر فإنه لا بُدَّ من التوبة حتى
تُكفَّر ، لأن الله تعالى أمر العباد بالتوبة وجعل من لم يتب ظالما
واتفقت الأمة على أن التوبة فرض ، والفرائض لا تؤدي إلا بنية وقصد
ولو كانت الكبائر تقع مُكفَّرة بالوضوء والملاة وأداء بقية أركان الاسلام
لم يُحتج الى التوبة وهذا باطل بالإجماع (٢)

ويدل على ذلك ما أخرجه الامام مسلم (٣) عن أبي هريرة - رضي الله عنه
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : (الطلوات الخمس والجمعة
والجمعة ورمضان الى رمضان مُكفَّرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر)
وفي صحيح مسلم أيضا (٤) عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال :
سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :

(ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها
وخشوعها وركوعها الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تُؤتَ
كبيرة ، وذلك الدهر كله)

وهذا يدل على أن الكبائر لا تكفرها الفرائض والحسنات بل لا بد
من التوبة النصوح ، قال الامام النووي (٥) : (هذا المذكور في
الحديث من غفران الذنوب ما لم تُؤتَ كبيرة هو مذهب أهل السنة ، وأن
الكبائر انما تكفرها التوبة أو رحمة الله تعالى وفضله) (٠) اهـ

(١) الدر المنثور : ج٥ / ٥٩٥ ، (٢) جامع العلوم والحكم : ١٥٥ ابن رجب

(٣) صحيح مسلم : كتاب الوضوء ، باب فضل الوضوء ، (شرح النووي : ٣ / ١١٢)

(٤) صحيح مسلم : كتاب الوضوء ، فضل الوضوء ، (شرح النووي : ٣ / ١١٢)

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم : ج٣ / ١١٢

(الفصل الرابع)

موهم آيات أهل الكتاب :

والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، وقد يراد بذلك أحدهما حسب دلالة السياق القرآني ، وظاهر أن تسميتهم بذلك بسبب ما في أيديهم مما يدعون أنه التوراة والانجيل على ما فيهما من تبديل وتحريف ومعلوم أن موقف الاسلام من أهل الكتاب واضح وصريح ، وقد جاءت - الآيات القرآنية لبيان ذلك وهو أن كل دين غير دين الاسلام منسوخ ببعثة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث إنه خاتم المرسلين ومبعوث الى كافة الناس بشيرا ونذيرا ، كما قال تعالى : -

(ومن يبتغي غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة

من الخاسرين) آل عمران / ٨٥ .

وقال : وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا (سبأ / ٢٨) ولذلك فإن المطلوب من أهل الأديان غير الاسلام هو ترك دينهم والتحول الى الاسلام واتباع الرسول محمد الذي بشرت به الكتب السابقة . وقد بينت الآيات القرآنية ابتعاد أهل الكتاب عن حقيقة دينهم واشترائهم بآيات الله ثمنا قليلا وأنهم حرّفوا الكتاب المنزل وبدلوا فيه وأنهم أشركوا بالله وادعوا الألوهية لغيره ، وقالوا انه ثالث ثلاثة الى غير ذلك من الافتراءات والأباطيل التي لا يجوزها عقل ولا منطق فضلا عن دين صحيح وكتاب منزل من عند الواحد الأحد .

هذا وقد جاءت بعض الآيات قد يتوهم من ظاهرها وبسبب الجهل بالمراد منها وبسبب نزولها قد يتوهم أن فيها مدحا لأهل الكتاب وهذا في الظاهر يخالف ما جاء في آيات أخرى تبين كفرهم وضلالهم وانهم على باطل .

أما الآيات التي جاءت لبيان كفرهم وسوء اعتقادهم فهي كالتالي:

قال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) .

وقال تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون ، وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) التوبة / ٢٩ - ٣١ .

وقال تعالى : (ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ٠٠٠) البينة / ٦ .
فهذه الآيات وغيرها تثبت كفر أهل الكتاب وشركهم واتخاذهم آلهة من دون الله وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر الايمان الصحيح المطلوب ، وأنهم لا يدينون دين الحق ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، وأنهم لكل ذلك فى نار جهنم ان ماتوا على ما هم عليه ولم يدخلوا فى دين الاسلام .
أما الآيات التى يَوْم ظاهرها مدح أهل الكتاب فهى ما يلى ، وسوف أعقب عليها بما يوضح معناها والمراد منها :-

(١) قوله تعالى : (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب) آل عمران / ١٩٩ .

هذه الآية فيها مدح لمن آمن من أهل الكتاب ودخل فى الاسلام ومنهم النجاشى وأصحابه^(١) وكونهم من أهل الكتاب هو باعتبار ما كانوا عليه ،

وقد وصفهم الله تعالى بصفات تدل على المراد بهم ، وأول هذه الصفات أنهم يؤمنون بالله الايمان الصحيح الخالى من الشرك بعكس أهل الكتاب الذين بقوا على دينهم المبدل والذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

وثانى هذه الصفات : الايمان بما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وثالثها : الايمان بما أنزل على الانبياء الذين كانوا قبل الاسلام . ورابعها : كونهم خاشعين لله .

وخامسها : أنهم لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا بعكس أهل الكتاب ممن كان يكتُم أمر الرسول وصحة نبوته .

(١) تفسير الطبرى ١٩٩/٧ ، ٤٩٧ ، زاد المسير ٥٣٢/١ .

اسباب النزول للواحدي : ١٣٤ / ٢ الدار المنشور : ١١٣/٢

مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وهذه الآية فيها تعريض بأهل الكتاب الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، والذين تقدم ذكرهم قريباً في نفس السورة في قوله تعالى :

(واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشتررون) آل عمران / ١٨٧ .

وعلى هذا فإن المراد بالآية مَنْ آمَنَ من أهل الكتاب ودخل في الإسلام وتحلى بتلك الصفات الحميدة ، وتسميتهم بأهل الكتاب باعتبار ما كانوا عليه من قبل ولذلك قال تعالى في حقهم : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتتون أجرهم مرتين بما صبروا ٠٠٠) الآيات من سورة القصص ٥٢-٥٤ .

٢- وقوله تعالى : (ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) آل عمران / ١١٣-١١٤ .

هذه الآية جاءت بعد آيات ذكر الله فيها مخازي اليهود ومساوئهم وأنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق فجاءت هذه الآية في هذا السياق لبيان أنه لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى : (ليسوا سواء) وهذا تمام كلام لما تقدم .

ثم ابتدأ الكلام بوصف المؤمنين بالايمان والقرآن والصلاة ، وهذه الخصال من شعائر الاسلام ، وعلى هذا فإن الآية نزلت بشأن من أسلم من أهل الكتاب وعلى هذا جمهور المفسرين (١) .

أخرج ابن اسحق والطبراني وابن جرير والبيهقي (٢) وغيرهم عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من اليهود معهم فأمنوا وصدقوا ورغبوا في الاسلام ،

(١) احكام القرآن لابن العربي ٢٩٥/١ زاد المسير ، الرازي ١٨٧/٨ القرطبي

١٧٥/٤ ابن كثير ٥٩٤/١ آل عمران ١١٣/١ ، روح المعاني ٣٣/٤ .

(٢) الدر المنثور ٦٤/٢ ، مجمع الزوائد ٧٣٢/٦ وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات ، اسباب النزول للواحدى ص ١١٤ ، سيرة ابن هشام ٥٥٧، ٢١٣/١

سنن البيهقي ، ج ، تفسير الطبري ٥٢/٤ طبع الحلبي .

قالت أجبّار اليهود ما آمن بمحمد وتبعه إلّا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم ، فبأنزل الله تعالى :
(ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة ...) الى قوله (اولئك من الصالحين) .

قال ابن كثير (١) : (وهؤلاء هم المذكورون فى آخر السورة :) وانّ من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله واليوم الآخر وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله ...) الآية
وهناك وجه آخر اختاره الامام ابن جرير ورواه عن ابن مسعود موقوفا ومرفوعا (٢) ، أن المراد بأهل الكتاب فى الآية المسلمون الذين كانوا يطلون صلاة العشاء التى لا يملئها أحد من أهل الكتاب .
أخرج احمد (٣) وابن حبان فى صحيحه (٤) وابن جرير فى تفسيره (٥) عن ابن مسعود ، قال : آخر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلاة العشاء ، ثم خرج الى المسجد ، فاذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : أما انه ليس من اهل هذه الاديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم قال : فنزلت هذه الآيات : (ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة) الآيات وعلى هذا يكون المراد بأهل الكتاب فى الآية المسلمين لقوله تعالى :
(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ...) فاطر / ٣٢ .
ويكون الغرض من هذه الآية تقرير فضيلة أهل الاسلام وذكر حالهم مقابل صفات أهل الكتاب الذميمة ، وتأكيذا لما تقدم من قوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس ...) آل عمران / ١١٠ .

ولامانع من صحة هذين الوجهين لجواز نزول الآية فى الجميع أو أنه تعدد سبب نزولها بمعنى أنها نزلت مرتين مرة فى أهل الكتاب الذين أسلموا ومرة فى المسلمين الذين يطلون صلاة العشاء من دون الأمّ والله أعلم .

-
- (١) تفسير القرآن العظيم : ٥٩٥/ آل عمران / ١١٣ .
(٢) تفسير ابن جرير الطبرى ج ٤/ ٥٥ - ٥٦ طبع الحلبي .
(٣) المسند ٣٩٦/١ واسناده حسن (من طريق عاصم عن زر عن ابن مسعود) .
(٤) موارد الظمآن ص (٩١) .
(٥) تفسير ابن جرير ٥٥/٤ طبع الحلبي ، رواه من عدة طرق وانظر مجمع الزوائد ٣٧٥/١ ، فتح القدير للشوكاني ٣٧٥/١ .

٣ - لكن الراسحون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والآتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما (النساء / ١٦٢ .

ذكر الله هذه الآية فى سياق ذم أهل الكتاب من اليهود ثم استثنى هؤلاء وهم من أسلم منهم وقد وصفهم سبحانه بالرسوخ فى العلم ذلك لأنهم استخدموا علمهم وعقلهم لمعرفة الحق من الباطل واتبعوا بشارات التوراة والانجيل بمبعث الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - وما فيهما من أوصافه .

كما قال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شىء فصأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا مؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) الاعراف / ١٥٦ - ١٥٧ .

٤- قوله تعالى :-

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين ، ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدْخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) المائدة/٨٢-٨٦.

هذه الآية الكريمة فيها مدح للقسيسين والرهبان من الذين قالوا إنا نصارى ، والمراد بهم علماء النصارى الذين أسلموا وسماهم قسيسين ورهبانا باعتبار ما كانوا عليه والمقصود بهم النجاشى وأصحابه الذين أسلموا على يد الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه عندما هاجر الى الحبشه .

روى النسائى وابن أبى حاتم والبخارى وابن جرير^(١) عن عبد الله بن الزبير قال:

نزلت هذه الآية فى النجاشى وفى أصحابه : (وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ..) هذا وقد جاء مع جعفر الى المدينة ثلاثون رجلا من الذين كانوا رهبانا وعبادا من أهل الحبشه فلما قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليهم القرآن آمنوا وفاقت أعينهم^(٢).

(١) انظر : مجمع الزوائد للهيثمى ج ٩/٤١٩ .

تفسير ابن جرير ج ٥/٧ طبع الحلبي .

تفسير ابن كثير ١٣٩/٢ حيث عزاه للنسائى .

الصحيح المسند من اسباب النزول للشيخ مقبل بن هادى

السوادني ص ٦٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٥٥/٦ ابن كثير ١٣٨/٢ المائدة / ٨٢ .

روح المعاني ٢/٧ الرازى ٧٠/١٢ اسباب النزول للواحدي / ١٩٦ .

والآيات توضح أن الممدوحين هم من اسلم من النصارى لقولسه :
(واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا
من الحق) فهؤلاء لما اسلموا وسمعوا القرآن عرفوا الحق وأن هذا
صدق لما بين يديه ، وأن هذا النبي هو النبي الموعود الذي بشر به
عيسى عليه السلام ، لذلك قال الله تعالى بعدها حكاية عنهم :
(ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا
مع القوم الصالحين) .

قال القاضي أبو يعلى (١) رحمه الله : " وربما ظن جاهل أن في هذه
الآية مدح للنصارى وليس كذلك ، لأنه إنما مدح من آمن منهم ويدل عليه
ما بعد ذلك ، ولا شك أن مقالة النصارى أقبح من مقالة اليهود (٢) اهـ
وقال ابن كثير (٣) : " وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله :
(وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم
خاشعين لله ...) الآية .

وهم الذين قال الله فيهم : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به
يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من
قبله مسلمين) ٥٠١ هـ .

(١) زاد المسير لابن الجوزي ج٢/٤٠٩ وانظر الرازي ج٢/٧٨ والقاضي أبو يعلى :
هو محمد بن الحسين بن خلف بن الفراء ، عالم عصره في الاصول والفروع
وانواع الفنون ، وكان شيخ الحنابلة له الاحكام السلطانية والعهده في
أصول الفقه ، طبقات الحنابلة ج٢/١٩٣ لابن أبي يعلى ، تاريخ بغداد
ج٢/٢٥٦ الاعلام للزرعلى ج٦/١٠٠ .

(٢) قلت : يقصد أن اعتقاد النصارى في ذات الله عز وجل ، أقبح
وأشنع من اعتقاد اليهود لأن النصارى قالوا بالتثليث وإلهية عيسى
ومريم وهذا لم يقله اليهود وعلى هذا فكفر النصارى أقبح وأعظم
والآية الكريمة وصفت السيرة والأخلاق وأن اليهود أشد عداوة وبغضا
والنصارى أقرب مودة ، لما فيهم من ترهب وزهد إجمالا ، ولذلك فهم
أقرب الى الاسلام من اليهود ، انظر الرازي ج١٢/٧٠ .

(٣) في تفسيره ج٢/١٣٩ المائدة / ٨٢ .

قوله تعالى :-

٥ - (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرا) الحج / ٤٠ .
هذه الآية قد يتوهم من ظاهرها أن الصوامع والبيع والصلوات وهي أماكن عبادة النصارى واليهود كالمساجد في الفضل والتقديس لأن الآية بدأت بها أولا ثم عطف عليها المساجد، وقوله : يذكر فيها اسم الله كثيرا يوم أنها مدحت بذلك وهذا يعارض ما جاء في القرآن من أنهم يشركون بالله ولا ينزهونه تعالى عما لا يليق بجلاله ،

والجواب من وجهين :-

الأول : أن الضمير في قوله تعالى (يذكر فيها ...) عائد إلى أقرب المذكورات وهي المساجد ولأن جميع المواقع الأخرى يغلب فيها الشرك فعلى هذا يكون قوله ، "يذكر فيها اسم الله كثيرا" : في موضع صفة لمساجد (١) .

قال ابن جرير (٢) : الصواب : لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهي كنائسهم ، ومساجد المسلمين التي يُذكر فيها اسم الله كثيرا لأن هذا هو المعروف من كلام العرب المستفيض فيهم " ١٠٠ هـ .
قال القرطبي (٣) قال النحاس : " يُذكر فيها اسم الله " الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون (يذكر فيها اسم الله) عائدا على المساجد لا على غيرها لأن الضمير يليها . وعلى هذا الوجه فليس في الآية بيان أن كنائس النصارى واليهود يُذكر فيها اسم الله على وجه مرضى مدح لأن ذكرهم لله فيها لا يعدو عن الشرك والتثليث وسوء المعتقد بسبب ما عثر على كتابهم من التحريف والتبديل على مر العصور وما عملته أيدي الأخبار والرهبان في تغيير الدين .

قال أبو السعود (٤) : " يُذكر فيها اسم الله كثيرا " " صفة مادة للمساجد خُصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها ، وقيل صفة للأربع وليس كذلك فإن بيان ذكر الله عز وجل في الصوامع والبيع والكنائس بعد انتساخ شرعيتها مما لا يقتضيه المقام ولا يرتضيه الاتهام " ١٠٠ هـ .

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٤٣٧/٥ الرازي ٤٢/٢٣ ، تفسير ابن كثير ٣٦٣/٣

الحج / ٤٠ ، روح المعاني ١٦٤/١٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٧٨/١٧ / الحلبي .

(٣) القرطبي ٧٢/١٢ .

(٤) تفسير أبي السعود : ٢٢/٤ .

الوجه الآخر : وقال به الضحاك ومقاتل^(١) : أن قوله تعالى : (يذكر فيها اسم الله كثيرا) : فى موضع صفه لجميع المذكورات . واستظهر ذلك ابوحيان^(٢)

وعلى هذا الوجه يكون المعنى ما قاله الزجاج^(٣) : (لولا دفع بعض الناس ببعض لهدمت فى زمن موسى الكنائس وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - المساجد) .

قال القرطبي^(٤) : ويجوز أن يعود - يعنى الضير - على " صوامع " وما بعدها ، ويكون المعنى : وقت شرائعهم واقامتهم الحق ،

وعلى هذا الوجه فان المراد بالآية أنه فى كل عصر يهيب الله من الاسباب بحيث يدفع شر الناس بما شرع من الجهاد والقتال وتسليط المؤمنين على الكافرين ولولا ذلك لهدمت متعبدات يذكر فيها اسم الله كثيرا فى أزمنة الانبياء حيث الدين الحق ، وليس المراد بذلك الكنائس والاديره التى يذكر فيها الله على وجه نيه الشرك وعدم التنزيه فهذه لا يتأسف على هدمها اذا هدمت ولا على تعطيلها اذا عطلت مع التنبيه على أنه لايجوز اذا فتح المسلمون بلدا أن يهدموا كنائسها ونحو ذلك بل يقرون على ما هم عليه اذا دفعوا الجزية ويصبحون أهل ذمة .

وعلى غرار ذلك جميع الآيات التى فيها مدح لأهل الكتاب ، فانما أريد بها من آمن منهم ودخل فى الاسلام الدين الذى ارتضاه الله للبشرية بعدما جاء عليها فترة من الرسل وانحرف الناس عن الحنيفية وغير أهل الكتاب فى دينهم وبدلوا وحرفوا التوراة والانجيل ليوافق ذلك اغراضهم وأهواءهم .

ولذلك أوضح القرآن أن الاسلام هو الدين المقبول عند الله وأنه هو الذى فيه الهداية كما قال تعالى :

(وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليكم البلاغ والله بصير بالعباد ..) آل عمران / ٢٠ .

(١) تفسير الطبرى ١١٧/١٧ الطبى ، الدر المنثور ٦٠/٦

زاد المسير ٤٣٧/٥ ، روح المعانى ١٦٤/١٧ .

(٢) البحر المحيط / ج٦ / ٢٧٢ / الحج / ٤٠ (والظاهر عودة الضمير فى قوله يذكر فيها على المواضع جميعا فيكون يذكر فى موضع الصفة .

(٣) تفسير الماوردى (النكت والعيون) ج٨ / ٨٤ لها ، زاد المسير ٤٣٧/٥ .

(٤) القرطبي ٧٢/١٢ .

فدلت هذه الآية أن الهداية منوطه بالاسلام فمن أسلم فقد اهتدى ومن تولى وأعرض فليس على الرسول سوى ابلاغه واقامة الحجة عليه بالتى هي أحسن ، كما قال تعالى :-

(ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هي أحسن الا الذين ظلموا منهم) وقد رد الله تعالى فى كتابه على اليهود والنصارى جميعا عندما ادعى كل منهم أن دينه هو دين الحق : فقال :
(وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)

فاليهود والنصارى لما أشركوا بالله وبدلوا وغيروا انحرفوا عن ملة ابراهيم الحنيفية التى جاء بها نبينا محمد لحياتها واظهارها ونشرها وقد أوضح الله سبحانه فى كتابه صفة المؤمنين من أهل الكتاب الذين دخلوا فى الاسلام بعدما عرفوا وانساقوا للحجة وما عرفوه من صفات النبى فى كتبهم وهو قوله تعالى :

(الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ^(١)) ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون .)

فهذه الآية أناطت الفلاح بالإيمان بالنبى الأمى وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - واتّباعه ونصرته كما قال تعالى :
(وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) - الانعام / ١٥٣ -

(١) قال الرازى : ٢٥/١٥ : " يضع عنهم إصرهم " المراد منه أن شريعة موسى عليه السلام كانت شديدة ، وقوله والأغلال التى كانت عليهم الشدائد التى كانت فى عباداتهم : كقطع أثر البول ، وقتل النفس فى التوبة ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وتتبع العروق من اللحم ، وجعلها لله اغلالا لأن التحريم يمنع^{من} الغفل . ١٠ هـ .

وقد جعل الله الاسلام خاتم الأديان فجاء مهيمنا عليها ومصدقاً لها ومبيناً لما حصل فيها من التغيير والتبديل فكان ناسخاً لها وأراد الله سبحانه أن يكون الاسلام ظاهراً على كل الأديان (كما قال :) هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

فكل من يكره ظهور هذا الدين أو يتمسك بملة غير الاسلام فهو كافر .

ولذلك قال الله تعالى :-

(قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) المائدة / ٦٨ .
واقامة التوراة والانجيل : انما تكون باتباع ما فيها من أحكام ومنها ما بشرنا به ودلتا عليه من نبوة الرسول ووجوب اتباعه عند ظهوره .

وقوله :

(وما أنزل اليكم من ربكم) أى القرآن واقامته بالايان به ،

ثم قال بعدهم :-

(وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا)
بياناً لشدة شكيמתهم وغلوهم فى المكابرة والعناد ، ثم قال :
(فلا تأس على القوم الكافرين) أى لا تأسف على زيادة طغيانهم وكفرهم ولا تحزن على هلاكهم وعذابهم (١) .

(١) ابن كثير ١٢٨/٢ المائدة ٦٨

٦- : قوله تعالى :-

(وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) الانبياء / ٥٧ .
هذه الآية فيها طلب سؤال أهل الذكر ، والمراد بهم أهل الكتاب (وسموا أهل الذكر : لأنهم كانوا يذكرون خبر الانبياء مما لم تعرفه العرب) (١) . وقد يتوهم من الآية أنهم على حق والا لما طلب سؤالهم وهذا فى الظاهر ينافى ماتقدم من الآيات الدالة على كفر أهل الكتاب وكونهم على الباطل والضلال وأنهم بدلوا وحرفوا وكتبوا كثيرا مما أنزل الله اليهم .

والجواب ظاهر :- وهو أن هذه الآية خطاب للمشركين الذين انكروا أن يكون الرسول من البشر، أمرهم الله أن يسألوا أهل الكتاب الذين يقررون ببعثة الرسل من البشر وأنهم رجال يوحى اليهم ، وإن كان أهل الكتاب لا يقررون فى الظاهر بنبوة الرسول الا أنهم يعرفونه كما يعرفون انبائهم وقد حكى الله شبهة المشركين قبل هذه الآية فقال :-

(وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم ...) الانبياء / ٣٠ .
وكما قال عنهم فى سورة أخرى :
(وما منع الناس أن يؤمنوا اذا جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا .) الاسراء / ٩٤ .

وأهل الكتاب مع ضلالهم وتحريفهم وسوء معتقدهم يعترفون أن رسل الله بشر وكان مشركوا مكة يقدررون أهل الكتاب ويعترفون بعلمهم وأنهم أهل كتب يذكر فيها الانبياء .

لأجل ذلك لاجرم أُحيل المشركين على سؤال أهل الكتاب ، خاصة وأنهم من جنسهم فى الضلال كما أنهم يشايعون بعضهم فى معاداة الاسلام وأهله وقد نص الله على هذه المشايعة فى قوله :

(ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد لهم نصيرا) النساء / ٥٢ .
لذلك فقد حصلت الثقة بينهم .

فالأية جاءت لبيان أنه اذا كنتم ايها المشركون تستبعدون وتستغريون أن يبعث الله بشرا رسولا كما تدعون فاسألوا اهل الكتاب الذين تثقون بهم وتعتبرونهم اهل علم وتراجعونهم في أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتشايعونهم في معاداته ، لأنهم مع كونهم لايقرون بنبوة الرسول الا انهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر (١) .

قال الرازي (٢) : " الظاهر أن هذه الشبهة وهي قولهم الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر انما تمسك بها كفار مكة ثم انهم كانوا مقرين بأن اليهود والنصارى اصحاب العلوم والكتب ، فأمرهم الله بأن يرجعوا في هذه المسألة الى اليهود والنصارى ليبينوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها . "

قلت : وهذه الآية نظيرها قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى ..) يوسف / ١٠١ .

وقوله : (قل ما كنت بدعا من الرسل ...) الاحقاف / ٩
فمن تمام نعمة الله تعالى على البشر أنه جعل الرسل من أنفسهم وليس من غير جنسهم كالملائكة والجن ليتمكن الناس من تناول التبليغ منهم والفهم عنهم .

ولذلك عقب الله تعالى على قوله : (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) فقال : (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) أى بل قد كانوا اجسادا يأكلون الطعام ، كما قال في آية أخرى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) الفرقان / ٢٠

وهذا ادعي لاقتداء الناس بهم لأن المجانسة تستدعي المؤانسة وليس في كونهم بشرا نقيصة أو قدحا في النبوة كما ادعاه المشركون في قولهم : (مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ...) الآية .

(١) ابن كثير ٢٧٨/٣ ، الرازي ٢٠ / ٣٧ ، ١٤٤/٢٢ .

القرطبي ٢٧٢/١١ ، روح المعاني ١٧ / ١٣ .

(٢) الرازي ٢٠ / ٣٧ .

فلاحظ أن هذه الآيات وما أشبهها جاءت للرد على شبهة المشركين وابطالها فكان من رد شبهتهم حالتهم على سؤال اهل الكتاب الذين حصل بينهم وبين المشركين نوع من الثقة بسبب التجانس في الضلال ومعاداة الاسلام والتناصر على ذلك ، واعتقاد المشركين ان اهل الكتاب اهل علم وذكر . لذلك فان حالتهم على سؤال اهل الكتاب لا يُنافي كونهم على ضلال وباطل لأن مقصد الاحالة هو أمر متفق عليه بين اهل الحق والباطل من اهل الأديان وهو كون الرسل بشرا وليسوا ملائكة .

٧- قوله تعالى : (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكون من الممترين) يونس / ١٤

هذه الآية قد يتوهم من ظاهرها أنه طلب من الرسول أن يسأل اهل الكتاب عما جاءه من الحق . وهذا في الظاهر ينافي ماتقدم من أن اهل الكتاب أصحاب كفر وضلال وأن مابأيديهم من الكتاب باطله اضعاف حقه ، وحقه منسوخ بدين الاسلام فكيف يُحال الرسول على سؤالهم .

والجواب : أن قوله : (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك) مخاطبه المشرك الشاك في القرآن وأمر الرسول ، لاستحالة حصول الشك من الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي قال الله فيه : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ...) البقرة / ٢٨٣

ولأنه عقب الآية بقوله : (ولا تكون من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) وهذه صفة الكفار المتنقلين بين الشك والتكذيب ولأنه قال بعدها بآيات مخاطبا الكفار بصيغة الجمع فقال : (قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دین الله ...) يونس / ١٠٤

فالشك في أمر الرسول ورسالته انما هو صفة الكفار والمنافقين ، كما قال البخاري عز وجل : (.. انهم كانوا في شك مريب) سبأ / ٥٤ وقال : (أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب) ص / ٨

هذا اضافة الى أن اهل الكتاب أنفسهم في شك من عقائدهم وما بأيديهم من الكتاب كما قال البارى عز وجل : (٠٠٠) وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم (٠٠٠)
الآيات من الشورى / ١٤ - ١٥

وانا كان الأمر كذلك فان معنى الآية يكون كالتالي : -
ان كنت أيها المشرك شاكا في نبوة الرسول محمد وصدقه وما أنزل اليه فاسأل أهل الكتاب الذين يعرفون الرسول أنه نبي حق المعرفة لكنهم يكتُمون ذلك بغيا وحسدا .. كما قال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتُمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين (٠٠٠)
البقرة / ١٥٦

فعلماء اليهود والنصارى يعرفون أن الرسول محمد هو نبي الله المبعث به في كتبهم كما يعرف أحدهم ابنه ثم أخبر الله أنهم مع هذه المعرفة والتحقيق (ليكتُمون الحق وهم يعلمون) أى ما جاء في كتبهم من صفة الرسول ونعته ولذلك مدح الله من آمن من أهل الكتاب ممن اتبع الحق والهدى (قال عذابي أصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث (٠٠٠)
الأعراف / ١٥٧

ومعلوم أن التوراة والإنجيل قد بشرتا بمبعث رسول الله ومهاجره وصفاته الخلقية والخلقية وقد حرقوا كثيرا منها أو أخفوها أو أولوها لكن بقيت بعض النصوص أعمى الله أبصارهم وأيديهم عنها (١) .

(١) وقد اسهب علماء الاسلام في استخراجها وبيانها وشرحها وانطباقها على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، وتلميذه ابن القيم في كتابه هداية الحيارى في اجوبة اليهود والنصارى ، وحديثا العلامة رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) . فمن أراد التوسع في ذلك فليرجع لها ، وأسوق هنا بعضا منها مع شرح موجز : -
أولا : قوله في التوراة (سفر التثنية ١٥/١٨ - ٢٢) : (سأقيم لبني اسرائيل نبيا من إخوتهم مثلك اجعل كلامي في فيه (٠٠٠) وهي بشارة مريحة لأن اخوة بني اسرائيل هم بنو اسماعيل أى العرب فلا تذرف هذه البشارة الى نبي من بني اسرائيل لأنه يكون حينئذ من أنفسهم وليس من إخوتهم ، كما أنه لم يأت نبي مثل موسى جاء بشريعة وفتوحات وانتصارات الا الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - .
ثانيا : قوله في التوراة (في سفر التثنية ٢٣ / ١ - ٢) أن موسى قال قبل موته

فمن كان منهم ذا عقل وقلب مفتوح اتبع الحق وما بشرت به الكتب ومن هؤلاء عبد الله بن سلام وكعب الأحمري وعبد الله بن صوريا وكلهم من علماء اليهود الذين أسلموا واتبعوا الحق والذي بشرت به الأنبياء قال الرازي^(١) عند تفسير قوله تعالى : (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ..)

" قال المحققون : هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وعبد الله بن صوريا وتميم الداري وكعب الأحمري لأنهم هم الذين يوثق بخبرهم ، ومنهم من قال : الكل سواء كانوا من المسلمين أو الكفار لأنهم اذا بلغوا عدد التواتر ثم قرأوا آية من التوراة ،

— جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلاًلاً من جبل فاران^(٢) . وهذه البشارة متضمنة للنبوءات الثلاث : " نبوة موسى الذي نُبئ من جبل الطور الكائن في سيناء . ونبوة عيسى عليه السلام الذي ظهر من بيت المقدس ، وسعير قرية هناك ، وفاران هي مكة التي خرجت منها رسالة الاسلام وظهرت للعالم ، فهذه الأماكن الثلاثة ظهرت منها رسالات الله الثلاث وشعت منها أنوارها فكانت فاران خاتمة الأماكن التي ظهرت منها الرسائل لكن أهل الكتاب كتموا وأولوا وقالوا فاران هي أرض الشام ، وهذا من بُهتهم وتحريفهم ، وما يُرد عليهم أن عندهم في التوراة : " ان اسماعيل لما فارق أبيه سكن في بركة فاران ولغظه : (وأقام اسماعيل في بركة فاران أنكحته أمه امرأة من " جرهم ") هذا نقل ابن القيم عن التوراة سفر التكوين ٢١ / ١٧ - ٢١ وهو يختلف في الفاظه عن نسخ اليوم .

ثالثا : في انجيل يوحنا (الاصحاح الخامس عشر / ٢٦ - ٢٧ ، السادس عشر / ٧ - ١٥) وفي ١٤ - ١٥ . " وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأموراً آتية وذاك يمجديني ... " وفي فقرة ٨ : " إن لم انطلق لا يأتيكم المَعزَّى ، ولكن إن ذهبت أرسله اليكم وصتي جاء ذاك يُبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة ... "

وفي هداية الحيارى نقلا عن انجيل يوحنا الذي نقلنا عنه الفقرات السابقة : " ان المسيح قال للحواريين : " اني ذاهب وسأتيكم الفارقليط روح الحق لا يتكلم من قبل نفسه انما هو كما يقال له وهو يشهد لي ... " وهذه العبارة بنفسها لا توجد في

(١) تفسير الرازي ج ١٧ / ١٦٩ .

(٢) قارن هذا النص بالنص الذي نقله ابن القيم عن التوراة في هداية الحيارى

والانجيل وتلك الآية دالة على البشارة بمقدم محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد وصل الغرض ، أما تحريفهم للكتب وتغييرهم فيها فانما كان بسبب اخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فان بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من اقوى الدلائل على صحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنها لما بقيت مع توفر دواعيهم على إزالته دل ذلك على أنها في غاية الظهور . " ٥١هـ

— انجيل يوحنا أو غيره انما هي بمعناها في انجيل يوحنا كما ذكرت أولا وبإبدال "الفارقليط" " بالمعزى" واختلاف الألفاظ مما يدل على توالي التحريف واختلاف الترجمات في كل عصر، وللمقارنة انظر: هداية الحيارى ٥٥ - ٥٦ وقارنه بما في يوحنا اصحاب خامس عشر / ٢٦ - ٢٧ / سادس عشر ٧ - ١٥ يوحنا الاصحاح الحادى والعشرون / ٤٢ وانظر: القرآن والمبشرون ص ٥٠ حيث ذكر هذه الفروق والاختلافات .

وعلى أية حال :

فان هذه الصفة التي ذكرناها صفة رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم اذ أنه يشهد لعيسى ولا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى " كما انه هو وحده الذى مجد عيسى عليه السلام وبرأه مما ادعته النصارى واليهود فيه من غلو أو شتيمة . والفارقليط : - كلمة سريانية تدل على معنى الحمد اما أحمد أو محمد كما قال الله في القرآن عن المسيح (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ...)

انظر للتوسع في البشارات ومعناها هداية الحيارى لابن القيم ٥١ - ٦٤ ، ٨٨ مطابق المجد التجارية - الجواب الصحيح لابن تيمية ج ٣ / ٣٠٠ ، إظهار الحق / رحمة الله الهندي ج ٢ / ٢٣٦ فلما بعدها .

٨- قوله تعالى : في حق المسيح عليه السلام :

(وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ٠٠٠٠)

آل عمران / ٥٥

هذه الآية قد يتوهم منها أن النصارى غير كفار لأنه وعد بأن يجعلهم فوق الكفار وقد يتوهم منها أن من يدّعي تبعية عيسى في كل زمان على حق ونور

مع أن آيات القرآن مريحة بكفر النصارى وشركهم وسوء مقصدهم وأنهم ليسوا على شيء .

كما قال الله فيهم : - (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ٠٠٠٠) المائدة / ٧٢

وقال : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ٠٠) البقرة / ١٢٠

وقال : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ٠٠٠) آل عمران / ٨٥ .

والجواب : - أن الذين يصدق عليهم انهم اتباع عيسى عليه السلام انما هم أمة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنهم تمسكوا بدين الله الصحيح القائم على التوحيد الذي جاء به كل الأنبياء ، ولأنهم آمنوا بنبي الله عيسى حق الايمان ولم يدعوا له الألوهية أو البنوة كما هو حال النصارى لذلك فان المسلمين هم اتباعه في الحقيقة أما النصارى الذين جاءوا بعد عصر التبديل والتحريف فان عيسى عليه السلام يتبرأ منهم وليسوا بأتباعه .

فالذين اتبعوا عيسى عليه السلام هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح الاسلام ، الذي عرف حقيقته كل نبي ، وجاء به كل رسول وآمن به كل من آمن حقاً بدين الله ، وهؤلاء فوق الذين كفروا الى يوم القيامة في ميزان الله كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الايمان وحقيقة الاتباع .

ودين الله واحد وقد جاء به عيسى بن مريم كما جاء به من قبله ومن بعده .

والذين يتبعون محمداً - صلى الله عليه وسلم - هم الذين اتبعوا

موكب الرسل كلهم من لدن آدم - عليه السلام - الى آخر الرسل .

فمن يتبع رسولا واحدا ويؤمن بما جاء به انما يؤمن بجميع الرسل لأن دينهم واحد كما قال تعالى :

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب (الشورى / ١٣)

ومطلوب من المسلم أن يؤمن بجميع الرسل لا يفرق بين أحد منهم كما قال الله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله ...) البقرة / ٢٨٤

فالذى شرعه الله للأنبياء جميعا واتفقوا عليه هو عقيدة التوحيد وتنزيه الرب من كل شريك أو نقص أو اعتقاد باطل في الله أو ملائكته أو رسله أو اليوم الآخر وكذلك ما شرعه الله لكل من أصول الاخلاق والمعاملة وممالك الدنيا .

والذى يكذب بنبي واحد أو رسول واحد انما يكذب بكل الرسل كما قال الله : (كذبت قوم نوح المرسلين) . لأن التكذيب بنبي واحد تكذيب بكل الرسل واتباعه اتباع لكل الرسل ومنهم خاتمهم محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى أخذ الله على كل الامم الايمان به وتمديقه كما قال :

(وان أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم وأخذتم على ذلك إصرى ، قالوا : أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) آل عمران / ٨١

وفي الحديث : " أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد " (١) .

(١) أخرجه البخارى / كتاب الانبياء باب ٤٨ واذكر في الكتاب مريم اذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ج ٤ / ١٤٢ . ومعنى إخوة لعلات : إخوة لأب .

يشير الى اتفاق الشرائع في التوحيد والأصول والضروريات - واختلاف الشرائع فيها دون ذلك من التفاصيل المعبر عنه بقوله (أمهاتهم شتى) .

لذلك فان اتباع عيسى في الحقيقة هم المسلمون ،
فعبد الله بن سلام وعبد الله بن سوريا وتميم الداري والنجاشي
وكل من أسلم من أهل الكتاب هم الذين اتبعوا عيسى باتباعهم للاسلام
وايمانهم بخاتم المرسلين الذي بشرت به الأنبياء وأرشدت الى الايمان
به عند مجيئه .

وهؤلاء المتبعون لرسول الاسلام وجميع الانبياء قبله هم
الموعودون بالنصر في الدنيا والآخرة كما قال الله عز وجل : -
(انا لننصر رسلانا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم
يقوم الأشهاد ...) ظفر / ٥١ .
وقال : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوى عزيز)
المجادلة / ٢١

أما قوله " فوق الذين كفروا " ...

سبق أن ذكرنا أن نصر المؤمنين يكون بالظفر والغلبة واستخلافهم
في الأرض كما استخلف الله المسلمين ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها
وقضوا على أكبر دولتين للكفر في زمانهم فارس والروم ،
ونشروا دين الله والنور الذي أنزله لعباده وكانوا فوق الذين كفروا
ماداموا متمسكين بحقيقة الايمان والاتباع .

كما أن نصر المؤمنين يكون بالحجة والدليل وهذه صفة دائمة
لهم الى قيام الساعة حيث إن الكفر والإلحاد انما ينتشر بقوة
السلطان لا بقوة الحجة والبرهان وذلك في حين غفلة أهل الحق
عن دينهم (١) .

والذي يتلخص أن النصارى الذين لم يؤمنوا برسالة الاسلام ليسوا
أتباعا لعيسى عليه السلام وإن أظهروا وأدعوا أنهم يحبونه ويتبعونه
وذلك لأنهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث إن صريح العقل والنقل
يشهد أن عيسى عليه السلام ماكان يرضي بشيء مما يقوله هؤلاء الكفار
الجهال في حقه وحق أمه وما افتروه عليه من تأليه أو القول بالتثليث
(وإن قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين
من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق ، إن كنت قلتُه
فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ،
ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا
مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد .)

المائد / ١١٦ - ١١٧

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥٤٩/١ آل عمران / ٥٥ ، ابن جرير ٤٦٢ / ٦
رازي ٦٩ / ٨ ، روح المعاني ج ٣ / ١٨٣ ، الظلال ج ١ / ٤٠٢

4- قوله تعالى في حق بني اسرائيل :-

(يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأني فضلتكم على

العالمين .) البقرة / ٤٧

وقوله في حقهم أيضا : (ولقد اخترناهم على علم على العالمين)

الدخان / ٣٢

هاتان الآيتان ونحوهما قد يتوهم منهما تفضيل بني اسرائيل على جميع الأمم ومنها أمة الاسلام :- التي قال الله فيها :-

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن

المنكر وتؤمنون بالله .) آل عمران / ١١٠

والجواب :- أن المراد بقوله : (وأني فضلتكم على العالمين)

وما شاكلها المراد عالمي زمانهم الذي كانوا فيه في وقت التفضيل^(١)

وتفضيلهم بما منحهم من النعم المشار إليها بقوله تعالى : (وأذ قال

موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء

وجعلكم ملوكا " - المائدة / ٢٠ -

قال الرازي^(٢) : (المراد : فضلتكم على عالمي زمانكم وذلك لأن -

الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن ذلك

الشخص من جملة العالمين حال عدمه . ، ووجه آخر أن قوله :

(وأني فضلتكم على العالمين) . عام في العالمين لكنه مطلق ففي

الفضل والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة ، فالآية تدل على أن بني

اسرائيل فضلوا على العالمين في أمر ما - أي كثرة الأنبياء فيهم

وجعلهم ملوكا - وهذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في كل

الأمر^(٣) . إرأى انهم ليسوا بأفضل من عالمي زمانهم في كل الأمور

(١) ابن كثير / ١ / ١٣٤ البقرة / ١٣٤ ، وانظر روح المعاني ١ / ٢٥

والقرطبي ٢ / ٢٧٦ ، زاد المسير ١ / ٧٦

(٢) الرازي ٢ / ٥٢

بل في أمر ما يصدق عليه التفضيل
فالآيات جاءت لمخاطبة بني اسرائيل الموجودين في عصر النبي
وما بعده وتذكيرهم بنعم الله على أجدادهم زمان موسى عليه السلام ،
ولتخويفهم يوم الحساب وأن مجرد الأمانى لا تنفع عند الله وكذلك
الاعتزاز بالماضي اذا لم يقترن بايمان وعمل صحيحين .
فتفضيل بني اسرائيل على العالمين موقوف بزمان استخلافهم واختيارهم
فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم وعصوا انبياءهم وجحدوا نعمة الله
عليهم وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم فقد اعلن الله حكمه عليهم باللعنة
والغضب والذلة والمسكنة وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد ،
كما قال الباري :

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) المائدة / ٧٨

وقال : (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا
عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) البقرة / ٦١

ثم انهم بعد زمان التفضيل حرّفوا كتاب الله وهو التوراة الذي عهد
اليهم بحفظه ، وافتروا فيه على الله وأنبيائه ما لا يقبله عقل
ولانقل .

ولما جاء الاسلام وكفروا بالدين الجديد الخاتم والمهيمن
الا من رحم الله منهم نزلت كثير من الآيات لمحاورتهم ودعوتهم
ومنها الآيات التي تذكرهم بنعمة الله عليهم بتفضيلهم على عالمي
زمانهم وما جعل فيهم من الأنبياء والملوك وكيف انجاهم من اعدائهم
وكل ذلك لإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوى
الاسلامية فيعودوا الى موكب الايمان وإلى عهد الله شكرا على تفضيله
لآبائهم ورغبة في العودة الى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون
من هذه الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس تأمّر
بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله الايمان الصحيح المطلوب وفيها
كل خير ومعروف .

ألا ترى أن الله جعل المقصد من بني اسرائيل وغيرهم هو
أعلام منزلة حيث قال : (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء
ما يعملون) المائدة / ٦٦ .

وجعل في هذه الأمة درجة أعلى من درجة المقتصد وهي درجة السابق بالخيرات^(١) حيث قال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير .) فاطر / ٣٢

فكان من فضل الله على البشرية أن قيَّض لها هذه الأمة أمة القرآن فنشرت فيها الحق والعدل والرحمة ورفعت الظلم عن العباد لما فتحت بلاد الكفر والشرك في الشرق والغرب ونشرت التوحيد وأبطلت معاول الكفر وذلك لما كان المسلمون متمسكين بحقيقة الإيمان والاتباع وكانوا جسدا واحدا .

وان البشرية اليوم تحتاج لذلك اليوم الذي تستعيد فيه هذه الأمة أمجادها برجوعها لكتاب ربها وتحكيم شريعة الاسلام وأحياء الجهاد والدعوة الى الله على نحو يكفل للبشرية فلاحها من براثن الكفر والالحاد والاباحية والفساد وما هم فيه من ظلم واستعباد وحروب وأحقاد^(٢) . (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .) الصف / ٨ - ٩

(١) اضواء البيان ١٠ / ٢٠

(٢) في ظلال ٦٩ / ١

١٠- : قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)
المائدة / ١٦٩

هذه الآية قد يتوهم منافاتها للآيات التي تثبت كفر اليهود
والنصارى وكونهم مشركين لا يقبل الله منهم إيماناً ولا عملاً .

والجواب : أن هذه الآية تتحدث عن المؤمنين من أهل الأديان
في زمانهم فكل من بُعث إليه نبي وآمن به الإيمان الصحيح وعمل صالحاً
كان من أهل السعادة ، فالآية تصف أهل السعادة من الأولين والآخرين
فمن آمن بنوح عليه السلام وعمل صالحاً كان من أهل السعادة .
ومن آمن بشعيب عليه السلام وعمل صالحاً كان من أهل السعادة .
وكذلك جميع من آمن بنبي زمانه وعمل صالحاً ، ومنهم الذين هادوا وهم
من آمن بموسى عليه السلام وعملوا صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم
يحزنون ، ومنهم النصارى : وهم من آمن بـعيسى وعملوا صالحاً ،
ومنهم من آمن بالرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم الرسل

(١) تقدم تفسير معنى : (الصابئون)

ولا بأس بتوضيحه هنا : والذي يتلخص من أقوال العلماء أن الصابئ
قد لا يكون مشركاً بطل مؤمناً بالله واليوم الآخر كما هو نص
الآية ، وأنهم في الأصل موحدون طرأ عليهم الشرك كحال اليهود والنصارى
ويعتقدون تأثير النجوم ، واختار الرازي أنهم قوم يعبدون الكواكب
بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء ،

قال ابن كثير ج ١ / ١٥٧ البقرة / ٦٢ ، وأظهر الأقوال والله أعلم أنهم
قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين ، وإنما
هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه ولهذا كان المشركون
ينبذون من أسلم : بالصابي أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ
ذاك وقال بعض العلماء : الصابئون : الذين لم تبلغهم دعوة نبي والله
أعلم .

فتاوى ٥ / ٢١ ، رازي ٢ / ١٠٤ ، روح ١ / ٢٧٨ ، ابن كثير ١ / ١٥٧
المعاني

البقرة / ٦٢ .

فالآية تشمل كل من آمن بدين زمانه قبل أن يُنسخ وعمل بمقتضى شرعه فيعم الحكم : المخلصين من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - والمنافقين الذين تابوا واليهود والنصارى الذين ماتوا قبل التحريف والنسخ والصابئين الذين ماتوا زمن استقامة أمرهم .

ويدل على ذلك سبب نزول الآية : -

حيث أخرج ابن أبي حاتم بسند فى غاية الصحة (١) عن مجاهد قال : قال سلمان رضى الله عنه : سألت النبى صلى الله عليه وسلم - عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم ، فنزلت :- (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ...) الآية .

فكل من آمن بنبى زمانه ولم يغير ولم يبدل وعمل صالحا كان من أهل السعادة والفوز، وقد كان قبل مبعث النبى بقايا من أهل الكتاب لم يغيروا ولم يُبدلوا ولم يشركوا بالله تعالى وكانوا مجتهدين فى العبادة والصلاة اخرج الامام مسلم (٢) :- عن عياض بن حمار ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فى حديثه عن قبل البعثة :- " وأن الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب " أى ليس كل أهل الكتاب بل من ثبت على ما كان عليه الرسل - عليهم السلام .

ففى مثلهم نزل قوله تعالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ...) .

فالمؤمن من الكيل مخلص وناج

فلما بُعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجب على كل مؤمن من أهل الكتاب أن يؤمن به ويتبعه ويطيعه فيما أمر لقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) . ولقوله تعالى : (ان الدين عند الله الاسلام) .

(١) قال ابن أبي حاتم كما فى تفسير ابن كثير ج١/١٥٦ البقرة / ٦٢ :-

حدثنا عمر بن أبى عمر العدنى حدثنا سفيان عن ابن أبى نجیح عن مجاهد قال قال سلمان

وأبو حاتم حافظ كبير ثقة ثبت تقريب ١٤٣/٢ " ، وعمر بن أبى عمر: صدوق روى له مسلم ولازم ابن عينية (تقريب ٢١٨/٢) وسفيان بن عينية : حافظ كبير ثقة ثبت : (تقريب ٣١٢/١)

وابن أبى نجیح : هو عبد الله بن يسار وهو ثقة روى عنه المستنق،

تقريب (٤٥٦/١) ومجاهد : ثقة امام فى التفسير والعلم، تقريب (٢٢٩/٢) .

انظر الدر المنثور ج١/٧٣ ، تفسير ابن جرير ١٥٠/٢ البقرة / ٦٢ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار (شرح المنور ج ١٧/١٩٧)

قال الآلوسي^(١) : (وعموم الآية يشمل اليهود والمبائين الذين آمنوا بعبسى عليه السلام وماتوا في زمنه ، وكذا من آمن من هؤلاء الفرق بمحمد - صلى الله عليه وسلم) - فأهل الكتاب الذين حرفوا وغيروا وأشركوا وغيرهم من الكفار فكل هؤلاء من أحدث منهم الايمان الصحيح ودخل في الاسلام وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٢) .
 فقوله تعالى : " من آمن منهم بالله واليوم الآخر ...) الآية ،
 أى آمن الايمان المطلوب والصحيح وهو الايمان الذى جاء به الاسلام والخالي عن كل شائبة شرك أو وثنية ، قال الرازى^(٣) : (فبين سبحانه في هذه الفرق الأربعة أنهم اذا آمنوا بالله فلهم الثواب ففى الآخرة ، ليعرف أن جميع أرباب الضلال اذا رجعوا عن ضلالهم وآمنوا بالدين الحق فان الله سبحانه وتعالى يقبل ايمانهم وطاعتهم ولا يردهم عن حضرته البتة وأعلم أنه قد دخل في الايمان بالله الايمان بما أوجبه أئنى الايمان برسله ودخل في الايمان باليوم الآخر جميع أحكام الآخرة.) ويدل على عدم اعتبار ايمان أهل الكتاب قوله تعالى :
 (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)
 فمن دخل منهم في الاسلام فهو المؤمن ومن أصر على دينه فهو الفاسق ، ولهذا قال تعالى : (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أديارها أو نلعنهم ..) فالايان المعتبر هو الايمان بما نُزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - ، لأن ما عند أهل الأديان أكثره باطل بسبب التبديل والتغيير وحقه منسوخ بالاسلام ،
 وقد قال الله تعالى في ذلك (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم) البقرة / ١٧٧

وقد نص الله تعالى أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله الايمان الصحيح المطلوب الذى يُنجي وهو قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم^{الأخر} ولا يُحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون)

التوبة / ٢٨

-
- (١) روح المعاني ١ / ٢٧٨ .
 (٢) ابن كثير ١ / ١٥٧ ، البقرة / ٦٢ ، القرظى ١ / ٤٣٣ ، الرازى ٢ / ١٠٤ .
 مجموع الفتاوى ١٤ / ٦٨ ، روح المعاني ١ / ٢٠١ ، ١ / ٢٧٨ .
 (٣) تفسير الرازى ٢ / ١٠٤ .

فإيمانهم الذى يزعمون ليس له قيمة أو اعتبار عند الله ، فنفى الله عنهم الإيمان بالله واليوم الآخر لما يشوبه من الشرك والكفر وسوء الاعتقاد^(١) ونفى عنهم الدين الحق لأن الدين عند الله الاسلام .

١١- قوله تعالى : (ولambدل لكلمات الله) الانعام / ٢٤ .

وقوله : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لambدل لكلماته) الانعام / ١١٥ .

هذه الآيات لاشنافى الآيات التى تدل على تحريف أهل الكتاب وتبديلهم لكلام الله الذى أنزله على موسى وعيسى عليهما السلام^(٢) .

كقوله تعالى : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) البقرة / ٧٨ .

لأن المراد بالكلمات فى هذه الآيات : هو تقدير الله وحكمه وقضائه فلا مبدل لذلك وهو كقوله تعالى :

(ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) الزمر / ٧١ .

أى ما قضاه الله وقدره على الكافرين من العذاب .

وكقوله : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) الكهف / ١٠٩ .

فمعناها معلومات الله وحكمته وتقديره فهى غير متناهية^(٣) .

- (١) قال الرازى (ج ١٦ / ٢٩) : (كونهم لا يؤمنون باليوم الآخر : لأن المنقول عن اليهود والنصارى انكار البعث الجسمانى ، فمن انكر الحشر والبعث الجسمانى فقد أنكر صريح القرآن ، ولما كان اليهود والنصارى منكرين لهذا المعنى ثبت كونهم منكرين لليوم الآخر .
- (٢) أستدل بعض أعداء الاسلام من المنصرين وغيرهم بأن هاتين الآيتين تدلان على استحالة وقوع التحريف فى التوراة والأنجيل ، لأنه لambدل لكلمات الله ، أنظر : القرآن والمبشرون : ص (٤٦) .
- (٣) يوضح ذلك سبب النزول حيث روى الترمذى فى كتاب التفسير عن ابن عباس أن حبيبي بن أخطب اليهودى قال : فى كتابكم " ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا " ثم تقرأون " وما أوتيتم من العلم الا قليلا " .

ومراداه الاعتراض بأنه وقع فى كتابكم تناقض بناء على أن الحكمة هى العلم وأن الخير الكثير هو عين الحكمة لآثارها وما يترتب عليها لأن الشيء الواحد لا يكون قليلا وكثيرا فى حالة واحدة ، فالآية جواب عن ذلك بالارشاد الى ان القلة والكثرة من الأمور الاضافية فيجوز أن يكون الشيء كثيرا فى نفسه وهو قليل بالنسبة الى شيء آخر فان البحر مع عظمتيه وكثرته خصوصا اذا ضم اليه أمثاله قليل بالنسبة الى كلمات الله عز وجل .

وإذا لاحظنا سياق قوله تعالى : (ولابد لكلمات الله ...)

فهنا معناها ،

يقول تعالى : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا

حتى أتاهم نصرنا ولابد لكلمات الله .)

فالآية تتكلم عما قضاه الله وقدره في علمه من نصر عباده

المرسلين الصابرين فلابد لذلك وهو كما قال في موضع آخر : (ولقد

سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم

الغالبون) - الصافات / ١٧٢

فهذا قضاء الله وحكمه في نصر المرسلين والمؤمنين لا يتغير ولا يتبدل لأنها

من سنن الله فقله في الآية (ولابد لكلمات الله) .

مقرر لمضمون ما قبله من إتيان نصره سبحانه للرسول وحكمه بذلك ،

أمّا قوله : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لابد لكلماته ..)

فقد قال قتادة : صدقا فيما قال وعدلا فيما حكم .

ثم قال : لابد لكلماته : أي لامعقب لحكمه ولإراد لقضائه الذي قاله

وحكم به ومن ضمن ما قضاه وحكم به حفظ القرآن من التغير والتبديل

والزيادة والنقص : كما قال : (أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون)

وهذا بخلاف التوراة والإنجيل ، فإن الله لم يتكفل بحفظهما (١) بل وكّل

حفظهما للأخبار والرهبان كما قال :-

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين

هادوا والرّبانىون والأخبار بما أّستحفّظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء

.....) المائدة / ٤٤ .

فهذا مدح للتوراة التي أنزلها الله على عبده ورسوله موسى بن عمران عليه

السلام ويّسّ فيه أن العلماء والأخبار يحكمون بالتوراة والإنجيل كالأنبياء وأنهم

أمروا بحفظ التوراة والإنجيل وأن يكونوا عليها شهداء (٢) ، فحفظ الكتاب

موكل لهم ولكن هل راعوا ما أوّتمنوا عليه ؟ انهم قد فرطوا وضيعوا الأمانة

وحرفوا كتاب الله وبدلوا فيه ثم كتموا وجحدوا إلا من رحم الله ممن اتبع

الحق منهم وأسلم لله وانساق للهدى بمتابعة سيد المرسلين - صلى الله

عليه وسلم - .

(١) ابن كثير (٢/٢٦٩) ، طبري (١٢/٦٣) ، زاد المسير (٣/٣١) ، روح المعاني (٧/١٣٦) .

(٢) ابن كثير (٢/٩٥) المائدة / ٤٤ روح المعاني ج ٦ / ١٤٢ - ١٤٤ .

زاد المسير (٢/٣٦٣)

القرآن والمبشرون / ٤٦ .

الفصل الخامس

موهم آيات المشركين

جاءت آيات في القرآن الكريم تتحدث عن الكفار وبيان ضلالهم وخسارتهم في الدنيا والآخرة ، وتحدد علاقة المؤمنين بهم ، وبعض هذه الآيات قد يتوهم منها الاختلاف والتعارض اسوقها في هذا الفصل مبيناً توافقها وانسجامها ودافعاً لتوهم اختلافها .

١- قوله تعالى (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) (الرعد / ١٤) .
اي في ضياع وخسارة وباطل ،

وهذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على ان دعاء الكافر غير مستجاب بل هو في ضلال ، وقد دلت آيات أخرى ان الله تعالى يستجيب دعاء الكافر في بعض الاحوال ، كحال المضطر وهو قوله تعالى :

(امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض االه مع الله ، قليلاً ما تذكرون) (النمل / ٦٢) .

فهذه الآية تبين لنا أن الله تعالى يستجيب دعاء الكافر المضطر الذي يلجأ اليه حين الشدة . وعندما يفقد وسائل النصرة واسباب الخلاص فتستيقظ فطرته فتلجأ الى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة .

وهذه الآية كقوله تعالى في موضع آخر:

(واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم من البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً) (الاسراء / ٦٧) .

وهذه الآيات لاتنافي بينها بحمد الله حيث إن قوله تعالى :

" وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) يحتمل وجهين : (١)

- الوجه الاول : ان معنى الآية : وما عبادة الكافرين ودعائهم للانصمام الا في خسران وباطل لانها لاتضر ولا تنفع ولا تستطيع اجابتهم لافى الدنيا ولا في الآخرة كما قال تعالى (اين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً) (غافر / ٢٤) .

(١) زاد المسمير لابن الجوزي ٣١٨/٤ / تفسير الرازي ٣٠/١٨ ، تفسير القرطبي ٣٠١/٩ ، تفسير ابن كثير ٧٨٥/٢ - الرعد / ١٤ ، روح المعاني للالوسي : ١٢٦/١٣ ، الدر المنثور للسيوطي ٠٦٢٨/٤

وعلى هذا الوجه يندفع توهم التعارض والاختلاف مع الايات الاخرى لان الدعاء المردود والخاسر هو دعاء الاصنام والدعاء المستجاب هو دعاء الله تعالى ، ويؤيد هذا الوجه سياق الآية حيث جاء قبلها : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال) .

والوجه الآخر : هو ما رواه الضحاك عن ابن عباس :
« وما دعاء الكافرين ربهم الا في ضلال لان اصواتهم محجوبة عن الله فلا يستجيب لدعائهم » .

وعلى هذا الوجه يكون دعاء الكافر المضطر مخصص بالاجابة ،
فدعاء الكافرين عموماً في ضلال لا يستجاب لان من شروط الاستجابة ان يكون الداعي موحداً لله عابداً له لا يشرك به شيئاً ،
ولكن الله سبحانه استثنى من ذلك الكافر المضطر الذي يلجأ الى الله ساعة كربته وشدته وانقطاع اسباب نجاته فتستيقظ فطرته وتلجأ الى الباري ،
دون الشركاء والاصنام لانهم يعلمون ان النافع والضار هو الله وحده .

قال القرطبي (١) : « ضمن الله تعالى اجابة المضطر اذا دعاه واخبر بذلك عن نفسه والسبب في ذلك ان الضرورة اليه بالاجاء ينشأ عن الاخلاص وقطع القلب عما سواه والاخلاص عنده سبحانه موقع وذمة وجد من مؤمن او كافر طائع او فاجر . كما قال تعالى :

" حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتهم ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن اُنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين " .
وقوله (فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) .

(١) تفسير القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) ج ١٣ / ٢٢٣ .

فاجابهم عند ضرورتهم ووقوع اخلاصهم مع علمه انهم يعودون الى شركهم
وكفرهم (اهـ)

وقال الماوردي (١) عند تفسير الآية (امن يجيب المضطر) : وانما
خصّ إجابة المضطر لأمرين : أحدهما : لان رغبته اقوى وسؤاله اخضع ،
الثانى : لان اجابته أعم وأعظم لانها تتضمن كشف بلوى وإسداء نعممة (اهـ)
(والناس يغفلون عن هذه الحقيقة فى ساعات الرخاء وفترات الغفلة)
يففلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية فى قوة من قوى الارض الهزيلة
فاما حين تلجئهم الشدة ويضطرهم الكرب فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة
ويرجعون الى ربهم منيبين مهما يكونوا من قبل غافلين او مكابرين (٢)

والقرآن عندما نبّه الى انه تعالى يجيب دعوة الكافر المضطر
دون غيره من الكفار غير المضطرين انما يريد أن يرد المكابرين الجاحدين
الى الحقيقة الكامنة فى فطرتهم وهى حقيقة التوحيد ، فاذا كان الله وحده
هو القادر على كشف الضر فى وقت الاضطرار وان الكافر المضطر لا يلجأ الا اليه
ولا يعول فى وقت الاضطرار على سواه وانه سبحانه هو المتصرف والنافع والضرار
وبيده كل شيء اذا كان الله كذلك فانه وحده هو المستحق للعبادة والطاعة
والدعاء فى اوقات الرخاء والشدة فالذى يلزم الكافر هو ان لا يحيد عن
التوحيد والطاعة لله فى وقت الرخاء والامن .

ولا بد من التنبيه ان استجابة الله لدعاء المضطر مقيد بالمشيئة
وهو تعالى لا يشاء الا ما تقتضيه الحكمة قال تعالى : (بل إياه تدعون فيكشف
ما تدعون اليه ان شاء) (الانعام : ٤١) .

(١) تفسير الماوردي " النكت والعيون " ج ٢٠٨/٣

(٢) فى ظلال القرآن ج ٢٦٥٨/٥

٢- قوله تعالى : " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليه ———
اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة
الا النار . وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون " .
(هود / ١٥) .

قوله تعالى : " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها " .
المراد به كل من ينوى بعمله غير الله تعالى سواء كان معه أصل
إيمان أو لم يكن (١) وهم الكفار الذين ليس لهم سوى الدنيا فهي
أكبر همهم ويبلغ علمهم وكذلك المراءون الذين يعملون الاعمال الصالحة
طلباً للدنيا .

وادخال " كان " للدلالة على الاستمرار اى من يريد ذلك بحيث لا يكاد
يريد الآخرة اصلاً وعلى ذلك فان هذه الآية لاتتناول المؤمن الذى يريد الحياة
الدنيا ولا يدخل فى هذا الوعيد الشديد .

حيث إن المؤمنين فريقان: فريق يريد الحياة مقتصرين عليها ———
واتخذوها غاية لا وسيلة لنيل درجات الآخرة وانغروا بزخارفها ولذاتها ———
العاجلة فنسوا يوم الحساب .

وكذلك المراءون الذين يعملون الاعمال الصالحة لا لوجه الله بل طلباً
للسمعة والرياء فهذا الفريق بنوعيه هم الداخلون فى عموم الآية مع الكفار
وهم الذين ينالهم هذا الوعيد الشديد .
أما الفريق الآخر فهم المؤمنون الذين يريدون الحياة الدنيا ليس
لذاتها وانما من أجل الآخرة .

وعلى هذا فان الآية المتقدمة لاتعارض ما جاء فى آيات اخرى ———
ان المؤمنين قد يريدون الحياة الدنيا وزينتها .

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٦٨١ ، هود / ١٥ .

وهو قوله تعالى : " قل من حَرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة " (الأعراف / ٣٢) .

وقوله تعالى : " ولاتنس نصيبك من الدنيا " (القصص / ٧٧)
وذلك ان المؤمن لاتنحصر همته ورغبته في زينة الحياة الدنيا بل انه يعتقد انها وسيلة ومطية للآخرة ويعلم انها زينة مؤقتة وزائلة ينبغي ان لاتلهي عن طاعة الله وذكره وأن الآخرة خير وأبقى .

وهو مهما أُوتى منها إنما هي في يده وليس في قلبه ، يؤدي حق الله فيها وينفق مما جعله الله مستخلفا فيه لمنفعة عباده لان المال مال الله والعباد عيال الله .

" فالسعى للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة انما يمد بالبصر الى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية ، ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الانسان نفسه فلا يكون عبدا لهذا المتاع " (١)

ومما يدل على ان المراد بقوله تعالى : " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها " الآية .

الكفار والمراثون الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا دون الآخرة قوله تعالى في نفس الآية : " اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون " .

وكذلك انه تعالى جعل هذه الإرادة مقابل إرادة الآخرة في عـدة آيات أخرى كقوله تعالى : " من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا .

ومن أراد الآخرة وسعي لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا " . (الآيات

/الاسراء ١٨/ ١٩ .

وقوله تعالى ايضا : من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه وممن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب " (الشورى/٢٠) .
فمقابلة يريد الآخرة بالذى يريد الحياة الدنيا تدل على ان المراد
بمريد الحياة الدنيا من تنحصر همته فيها بحيث لا يريد الآخرة اصلا .

وهذه صفة الكافر وحاله وكذلك من اراد بعمله وطاعته الحياة الدنيا
وهم المراءون .

قال ابن كثير : " قال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته
جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفيض الى الآخرة وليس له حسنة يعطى
بها جزاء واما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة " اهـ .
ولذلك اخرج مسلم (١) عن ابي هريرة رضى الله عنه : ان اول الناس يقضى يوم
القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت
فيها ؟ قال : قتلت فيك حتى استشهدت ، قال كذبت ولكنك قتلت لان يقال
فلان جرى فقد قيل ثم امر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل
تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت
فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت
ليقال (عالم) وقرأت القرآن ليقال (قارئ) فقد قيل ، ثم أمر به فسحب
على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال
فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل
تحب ان ينفق فيها الا انفقت فيها لك قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال
هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار " .

وفي رواية الترمذى (٢) وابن حبان (٣) ان رجلا دخل على معاوية بن
ابى سفيان فحدثه بهذا الحديث فبكى معاوية بكاء شديدا ثم أفاق وقال :

-
- (١) مسلم/ في الامارة باب قاتل للرياء (شرح النووى ج١٣/٥٠) والنسائي
١٣/٦ فى الجهاد باب من قاتل ليقال فلان جرى .
(٢) فى الزهد رقم ٢٣٨٢ باب ماجاء فى الرياء والسمعة ج٤/٥٩١
(٣) موارد الظمآن ٦١٨/ الزهد، باب ماجاء فى الرياء .

صدق الله ورسوله : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم
اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ..
الاية .

وأخرج الامام احمد وابن حبان والحاكم^(١) عن أبي بن كعب رضي الله
عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بشر هذه الامة بالسنة
والرفعة والنصر والتمكين فى الارض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا
لم يكن له فى الآخرة من نصيب " .

قال العز بن عبد السلام^(٢) : ان هذه الارادة العامة المراد بها ارادة
خاصة لان الاية نزلت فى المرائين ، وقيل فى الكفار والتقدير: من كان يريد
ذلك بطاعة الله ، فعبر بالعام عن الخاص " اهـ .

اذا علم ذلك من ان المراد بالاية هم الكفار والمراءون الذين تنحصر
همتهم فى الحياة الدنيا وزينتها وان الاية لاتعارض ان كل احد يريد الحياة
الدنيا وزينتها حيث انها مطية للآخرة عندما تكون فى يد المؤمن ،

اذا علم ذلك فان قوله تعالى فى الاية : " نوف اليهم أعمالهم فيها
وهم فيها لا يبخسون " .

فيها التصريح بان الكافر يجازى بحسناته وطاعاته التى يصح صدورها منه
مثل البر وملة الرحم والصدقة وبناء الجسور وقرى الضيف ودفع الشرور والتنفيس
عن المكروب وصدق المعاملة وما الى ذلك ،
لانه تعالى قال: " نوف اليهم أعمالهم فيها " يعنى الحياة الدنيا

(١) مسند احمد ١٣٤/٥ ، موارد الزمان : ٦١٨ فى الزهد ، والحاكم فى

الرقائق ٣١٨/٤ وقال صحيح الاسناد وتعقبه الذهبى وذكره الالبانى فى
صحيح الترغيب ج١/١٥ .

(٢) فوائد فى مشكل القرآن/ ١٣٨ وانظر اباكثير ٦٨٠/٢ - هود/ ١٥

روح المعانى ٢٣/١٢

وتوفية أعمالهم في الدنيا هو ان الكافر يعجل له ثواب اعماله
في الدنيا بتوسعة الرزق له وصحة البدن وكثرة الولد ونحو ذلك وليس له في
الآخرة من نصيب كما قال تعالى مخاطبا الكفار :

" اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم
تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم
تفسقون" (الاحقاف / ٢٠)

ومجازاة الكافر بحسناته في الدنيا يوهم ظاهره معارضته قوله تعالى:
(والذين كفروا أعمالهم كسراب^{بقية} يذهب^{الظمان} ماء^{٠٠٠}) (الاية (النور/)
وقوله تعالى : " مثل الذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم
عاصف " (ابراهيم / ١٨)

فهاتان الايتان تدلان على أن أعمال الكافر محبطة من أصلها ،
وهناك ايضا تدل على بطلان عملهم في الدنيا والآخرة
كقوله تعالى : في حق المرتد : (فأولئك حبّطت أعمالهم في الدنيا
والآخرة) (البقرة : ٢١٧)

وقوله تعالى في الكفار : (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون
النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب
اليم . أولئك الذين حبّطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين " .
(آل عمران - ٢١ - ٢٢)

فحبوطها من أصلها وكونها كالسراب وكذلك الاخبار أنها محبطة في
الدنيا والآخرة قد يوهم ظاهره معارضة ما دلت عليه الاية الاولى من ان الله
يوف الكافر أعماله الحسنة في الدنيا ويجازيه عليها .

(١) والجواب : أن الايات التي تدل على ان الله تعالى يوفى الكفار
أعمالهم في الدنيا ويجازيهم عليها وان من اراد منهم الدنيا اتاه الله
منها ليس على إطلاقها لأنه قد جاءت اية أخرى تخصها وهو قوله تعالى

(١) زاد المسير ٨٤/٤ ، الرازي ٢٠٧/١٧ ، ابن كثير ٥٦/٣ ، ٦٨٠/٢ ، احكام القرآن
لابن العربي ١٠٥٦/٣ ، البرهان للزركشي ١٦/٢ ، روح المعاني ٢٣/١٢ ، في ظلال
القران ٢٠١٨/٤ ، ١٨٦٢/٤ ، اضواء لبيان ١٠١/١٠

فى الاسراء : " من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد .. " فبين سبحانه أن تعجيل ثواب الدنيا ليس لكل من أرادها انما ذلك مربـوط بحكم المشيئة والارادة ..

فالكفار منهم من يشبه الله بعمله فى الدنيا كما دلت عليه الايات وصحت به الاثار ومنهم من لا يشبهه فى الدنيا كما دلت عليه ايات اخر . فمنهم من هو فى عيش رغد ومنهم من هو فى بؤس وضيق مع طلبه للدنيا طلبا حثيثا . فقوله تعالى عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد مخصص لعموم قوله تعالى " نوف إليهم أعمالهم فيها " وعموم قوله : " من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها " .

ومخصص لعموم قوله تعالى :

(مثل الذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح (٥٠٠٠))

وقوله : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة (٥٠٠٠)) الآية .

واما على ان هاتين الايتين فى الآخرة فلا اشكال فيهما .

ويدل لهذا التخصيص قوله تعالى فى بعض الكفار: " ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين " (الحج/١١) .

نقل الرازى عن القفال فى تفسير قوله تعالى : (عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) قال: يدل على انه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد بل كثير من الكفار والضالين يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم يبقون محرومين من الدنيا ومن الدين ،

وهذا ايضا فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضالين الذين يتركون الدين لطلب الدنيا فانه ربما فاتتهم الدنيا فهم الاخسرون اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ويحسبون انهم يحسنون صنعا " اهـ .

وعلى ذلك فان الايات التى تدل على بطلان عمل الكافر فى الدنيا والآخرة ، انما هو فى حق بعضهم وليس كلهم اما بطلانها فى الآخرة فهو فى حق الجميع كما قال تعالى : " وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلنا هباء منثورا " (الفرقان/٢٣) .

وهناك وجه آخر هو ان مطلق الانتفاع الدنيوي لا ينافي بطلان اعمالهم
شرعا في الدنيا لان منافع الدنيا لاتساوى شيئا عند الله " وما الحياة
الدنيا الا متاع الفرور .

والمراد ببطلانها : ان اعمالهم في الدنيا لا يعتد بها شرعا في عصمة
دم ولا ميراث ولا نكاح ولا غير ذلك ولا تفتح لهم ابواب السماء ولا تصعد الى الله
تعالى بدليل قوله تعالى : " اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح
يرفعه " - فاطر / ١٠ -

ولا تدخر لهم في الاعمال النافعة ولا تكون في كتاب الابرار في اعليين
وكفى بذلك بطلانا (١) .

اضافة الى ان تمتع الكافر بحياته الدنيا وزينتها لا يخلو من تشويش
وضنك وتنغيص كما قال تعالى : " ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره
يوم القيامة اعمى . . . " فهو وان كان ظاهراً متنعماً وله من الدنيا ماله
فلا طمأنينة لقلبه ولا انشراح ل صدره فهو في حيرة وقلق وهم واضطراب .

كذلك فان الله يعطيهم في الدنيا ويمد لهم استدراجا كقوله تعالى :
" سنستدرجهم من حيث لا يعلمون واملي لهم ان كيدى متين " . القلم / ٤٤
وكقوله : " ولا يحسب الذين كفروا اننا نملي لهم خيرا لانفسهم
انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين " ال عمران / ١٧٨

ومما يوضح هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم :
" لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة
ماء " (٢) .

-
- (١) اضواء البيان للشنقيطي ج ١٠ / ١٥٤ .
(٢) اخرجه الترمذي رقم ٢٣٢١ وقال حديث صحيح ج ٤ / ٥٦١ كتاب للزهد / ١٣ ،
وابن ماجه ٤١١٠ / ١١٠ في الزهد ج ٢ / ١٣٧٧ عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله
عنه .

- ٣- قوله تعالى فحق الوالدين : " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة
وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا " (الاسراء ٢٤/)
- وظاهر الآية العموم في جميع الوالدين مؤمنهم وكافرهم
- وقال في حق الوالدين الكافرين " وصاحبهما في الدنيا معروفا " وهذا
- أمر ببر الوالدين الكافرين كما هو سياق الآية •
- هذا وقد وردت آيات تنهى عن الدعاء للوالدين المشركين كقوله
تعالى: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا
أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) وما كان استغفار
ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعده إياها فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه . . .
- (التوبة / ١١٣) •
- وجاءت آية أخرى قد يفهم منها النهي عن بر الوالدين الكافرين
او مصاحبتهم في الدنيا معروفا وهي قوله تعالى: " لاتجد قوما يؤمنون
بالله يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم " .
- واليوم الآخر
فهذه الايات قد يتوهم انها تنافي بعضها •
- والجواب : أن قولوا تعالى / (وقل رب ارحمهما كما ربياني
صغيرا) لا يعارض النهي عن الاستغفار للمشركين •
- وذلك من وجهين: الاول : ان قوله (وقع رب ارحمهما . . .) مخصص
بغير المشرك • فلا يجوز للمسلم ان يدعو لوالديه المشركين بالرحمة للنهي
الوارد عن الدعاء والاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى (١) • قال
الالوسي (٢) " فهذه الرحمة التي في الدعاء قيل انها مخصوصة بالابويين
المسلمين وقيل انها عامة منسوخة بآية النهي عن الاستغفار •
- قال ابن الجوزي (٣) بعد أن نقل القول بالنسخ : ولا أرى هذا نسخا
عند الفقهاء لانه عام دخله التخصيص " •

(١) الرازي : ١٩٣/٢٠ •

(٢) روح المعاني ٥٧/١٥ •

(٣) زاد المسير ٢٩/٥ •

الوجه الثانى: قال العز بن عبد السلام رحمه الله (١):

" الاية يتعين حملها على رحمة الدنيا لوجهين :

الاول : لان الوالد الكافر لا يرحم فى الآخرة فلا يؤمر بالدعاء بالرحمة له فيها . وقوله : " وبوالدين " يقتضى العموم . واذا حملناه على رحمة الدنيا بقى على عمومته لان الكل مرحومون فى الدنيا .

الثانى : ان المشبه لابد ان يكون اقل رتبة من المشبه به ، فلو حملناه على رحمة الآخرة او عليها وعلى رحمة الدنيا وقد شبهت بالتربية وهى اخفض رتبة من كليتهما فيلزم خلل القاعدة فى التشبيه " اه .
ويقصد رحمه الله انه حتى تصح القاعدة فى التشبيه لابد ان يكون المراد " وقل رب ارحمهما فى الدنيا كما ربيانى صغيرا فيها " .

ونقل الالوسى هذا الوجه فقال (٢) " وقيل لاعامة ولانسخ لان تلك الاية - أى النهى عن الاستغفار - بعد الموت وهذه قبله . ومن رحمة الله تعالى لهما أن يهديهما للإيمان فالدعاء بهما مستلزم للدعاء به ولا ضرر فيه " .
قلت : أى إن قول المسلم رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا " فى حال حياتهما لا محذور فيه لان من رحمة الله بهما أن يمن عليهما بالهداية والاسلام فالرحمة عامة يحتاجها المسلم والكافر ولولا رحمة الله لهلك الناس ورحمته تعالى تسبق غضبه . نسأل الله ان يرحمنا فى الدنيا والآخرة .
اما المحذور فهو الدعاء لهما بالمغفرة سواء كان فى الدنيا او الآخرة ، لان الله تعالى لا يغفر للمشرك مادام على شركه لقوله تعالى : (ان الله لا يغفر أن يشرك به) . ولقوله تعالى : " ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا " .
لذلك فانه اذا كان الوالدان مشركين فان المطلوب هو الدعاء لهما بالرحمة اذا كانا أحياء وأن يمن الله عليهما بالهداية .

(١) فوائد فى مشكل القرآن / ١٦٤ .

(٢) روح المعانى ج ٥ / ١٥٧ .

اما قوله تعالى : " وصاحبهما في الدنيا معروفا ... "

فانه ايضا لا ينافي النهى عن مودة المشركين والكفار الواردة في قوله تعالى : " لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم (١٠٠٠) "

وذلك لان المصاحبة بالمعروف اعم من المودة لان الانسان يمكنه اسداء المعروف لمن يوده ومن لا يوده والنهى عن الاخص لا يستلزم النهى عن الاعم ، فالله تعالى حذر من المودة المشعرة بالمحبة والمواالة بالباطن لجميع الكفار يدخل في ذلك الاءاء وغيرهم .

وفعل المعروف للوالدين لا يستلزم المودة والمواالة لان ذلك ممن افعال القلوب والمعروف من افعال الجوارح (١) .

ويدل على ذلك ان الرسول صلى الله عليه وسلم اذن لاءماء بنت ابي بكر الصديق ان تصل امها وهى كافرة .

لذلك فالولاء لله ودينه والءؤمنين شىء . . . لاطاعة لمخلوق فـي مخالفتـه وبر القريب المشرك شىء آخر قد يكون من باب تاليفه وترغيبه في الاسلام .

وقد فرق الله سبحانه في كتابه بين الولاء والمواالة . وبين المعاملة بالحسن والاصل في هذا قوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان توليهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون) . (الممتحنة / ٨-٩) .

قال ابن جرير (٢) ان اولى الاقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عني بذلك : لا ينهاكم عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع اصناف الملل والاديان ان تبروهم وتملوهم وتقسطوا اليهم لان الله عز وجل عـمـم

(١) اءواء البيان للشنقيطى ج١/ ٢٣٤ . (٢) ساءتي تخريجه قريبا

(٣) تفسير الطبرى ٦٦/ ٢٨ .

بقوله " الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم " جميع من كان ذلك صفته فلم يخصص به بعضا دون بعض ولا معنى لقول من قال ذلك منسوخ لان بر المؤمن احدا من اهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب او ممن لا قرابة بينهما ولا نسب غير محرم ولا منهى عنه اذا لم يكن فى ذلك دلالة لهداؤهم لاهل الحرب على عورة اهل الاسلام او تقوية لهم بكراع او سلاح ويبين ذلك الخبر المروى عن ابن الزبير فى قصة اسماء مع أمها *

قلت : روى البخارى ومسلم (١) عن أسماء رضى الله عنها قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة فى عهد (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: ان أمي قدمت على وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال نعم صلى أمك *

قال ابن حجر (٣) العسقلانى قال الخطابى : " فيه - اى الحديث - ان الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة * ويستنبط منه وجوب نفقة الاب الكافر والام الكافرة وإن كان الولد مسلما " اهـ

وقال ابن حجر (٤) : البر والصلة والاحسان لا يستلزم التحاب والتواد المنهي منه فى قوله تعالى :

" لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله " (المجادلة : ٢٢)

فانها عامة فى حق من قاتل ومن لم يقاتل *

(١) صحيح البخارى كتاب الهبة باب الهدية للمشركين ج ١٣/١٤٢ واللفظ له وفى الادب باب صلة الوالد المشرك ج ٧/٧٧ بلفظ : " فى عهد قريش ومدتهم " ، وصحيح مسلم كتاب الزكاة / باب الصدقة على الاقربين ولو كانوا مشركين ولفظه : " فى عهد قريش " *

(٢) المراد بالعهد هنا مدة صلح الحديبية حيث عاهدهم الرسول على الهدنة ووضع الحرب * شرح النووى ج ٧/٨٩ ، جامع الاصول ج ١/٤٠٦ ويدل عليه الرواية الاخرى : " فى عهد قريش ومدتهم

اذا عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم " *

(٣) فتح البارى ج ٥/٢٣٤

(٤) فتح البارى ج ٥/٢٣٣

وقال ابن القيم رحمه الله (١) : " وليس من الاحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه فى غاية الضرورة والفاقة وهو فى غاية الغنى وقد ذم الله قاطعى الرحم وعظم قطيعتها ووجب حقها وان كانت كافرة لقوله تعالى :
"واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام " - النساء / ١ -
وفى الحديث : " لا يدخل الجنة قاطع رحم " (٢) .

وصلة الرحم واجبة وان كانت لكافر فله دينه وللواصل دينه وقياس النفقة على الميراث قياس فاسد فان الميراث مبناه على النصرة والموالة بخلاف النفقة فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة " اهـ . يعنى ان صلة الرحم وبرها لا تستلزم الموالة والنصرة والموادة .

قلت: والذى يتلخص من مفهوم الايات واقوال العلماء ان صلة الوالدين المشركين والاقارب المشركين عموما مشروعة لان البر الاحسان لا يستلزم الموادة والموالة المنهي عنها . كما ان صلة الرحم الكافرة بالمعروف قد تكون سببا فى هدايتها ودخولها الاسلام وهذا هو المطلوب .

ولابد ان نفرق بين الرحم المحاربة والمعادية فهذه التى لاتجوز صلتها حتى لا يتقوى بذلك العدو وبين الرحم غير المحاربة كما اذا كان هناك هدنة او ذمة كما فى حديث اسماء السابق وكذلك من ليست من اهل الحرب كالنساء والضعفة فهذه تشرع صلتها وبرها على كل حال . والله اعلم

...

(١) أحكام أهل الذمة ج٢ / ٤١٧ ، وانظر : الولاء والبراء د . محمد القحطاني

(٢) صحيح البخارى كتاب الادب / باب ١١ اثم القاطع ج٧ / ٧٢ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ومسلم فى كتاب البر والصلة / صلة الرحم وتحريم قطيعتها (شرح النووى ١٦ / ١١٣) .

٤ - قوله تعالى :

" ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون "
(المؤمنون / ٧٦) .

وقوله تعالى : " ولقد أرسلنا الى امم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيين لهم الشيطان ما كانوا يعملون " (الانعام / ٤٣) .

هذه الايات جاءت فى معرض ذم الكفار والمشركين الذين أعرضوا عن هدى الانبياء وكذبوا وركنوا للحياة الدنيا يبين الله كيف انهم عند حلول المصائب بهم والشدائد تقسوا قلوبهم ويزين لهم الشيطان ضلالتهم فيصرون عليها ولا يرجعون الى الله ولا يتوبون اليه مع وجود مقتضيات ذلك وانتفاء الموانع ،

وقد جاءت آيات أخرى فيها التصريح بأن الكفار عند حلول الشدائد والكروب يتضرعون الى الله ،

وهو قوله تعالى : " واذا مسَّ الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعاً أو قاعدا فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا الى ضره كذاك زِين للمسرفين ماكانوا يعملون " (يونس / ١٢) .

وقوله تعالى : " قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لكن أنجانا من هذه لنعونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها وممن كل كرب ثم أنتم تشركون " (الأنعام / ٦٣) .

والجواب :

ان الكفار والمشركين الذين لم يذوقوا حلاوة الايمان متفاوتون فى تعاملهم مع المصائب والشدائد والكروب التى تحل بهم ، فذكر القرآن منهم قسمين كليهما مذموم ، القسم الاول : وهم الأمم الذين اذا حلت بهم الشدائد والكروب تقسوا قلوبهم ويزين لهم الشيطان ضلالهم ويتمادوا فى غيهم وهم الذين قال الله فيهم :

" فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون " .

وقال فيهم : " ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون " . وقال فيهم : " أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون " (التوبة / ١٢٦) .
وقال فيهم ايضا : " ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون " (السجدة / ٢١) .

فهؤلاء أخبر الله عنهم أنهم لا يتوبون اليه ولا يتضرعون ولا يخشعون مع وجود مقتضيات ذلك بل يبيّسون ويقنطون من فضل الله وعنايته لجهلهم وقساوة قلوبهم كما قال الله عنهم " لا يستم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط " وهذه صفة الكافر بشكل عام (فصلت / ٤٩) .

والقسم الآخر من الكفار وهم الأفراد الذين يشرفون على الهلاك ذكر الله أنهم في حال الضراء والبأساء يتضرعون ويتوبون اليه ويخلصون فاذا كشف عنهم اعرضوا عنه ونسوا ما كانوا يدعون .
وهو قوله تعالى : " واذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه " (يونس / ١٢) .

وقال : (واذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) وقال : (واذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أي دعاء كثير لاستكانته وجزعه (١) فهوؤلاء ضرب آخر من الكفار عند اجتماع الأسباب الموجبة للخوف الشديد وعند حلول الشدائد كالتى ذكر الله مثل حصول الضر في البحر وعندما يأتهم الموج من كل مكان ويظنون أنهم أشرفوا على الهلاك فهناك يرجعون إلى الله ويتقربون اليه حيث ان هذه الحالة تستدعى الاخلاص وينقطع الرجاء عن كل ما سوى الله تعالى وهو المراد بقوله تعالى : " تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين "

وبعد ذلك ينجيهم الله ثم يقدمون على الشرك وينسون فضل الله وعنايته . قال الرازي (١) وبالجمله فعاده اكثر الخلق ذلك اذا شاهدوا الامر الهائل اخلصوا واذا انتقلوا الى الامن والرفاهية اشركوا به .

وهناك وجه آخر وهو ان التضرع والدعاء والاخلاص والانابه من الكافر هو عندما يجد نفسه قد اشرف على الهلاك وراى الموت بعينه فصالك يعلم بحكم فطرته التى فطر عليها انه ليس هناك من ينجي الا الله .

وهو قوله تعالى : " قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونهم تضرعا وخفيه لئن انجانا من هذه لنكونن من الشاكرين " .

فقولهم لئن انجانا من هذه يدل على انهم شعروا بقرب النهايه والهلاك المحقق فلذلك وعدوا بالتوبه والشكر فى حال النجاه .

وقد وصف الله لهم مشهدا اخر يتضرعون فيه عند رؤيه اسباب الموت والهلاك وهو قوله تعالى :

" حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتهم ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما انجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق " الاية (يونس / ٢٢) .

اما الآيات الاخرى والتى فيها أنهم عندما ياتيهم العذاب لا يستكينون ولا يتضرعون فتحمل على حال ما اذا لم يكن العذاب يهبط لى للهلاك والاستئصال لقوله تعالى : " ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون " فالعذاب هنا محمول على المصائب والشدائد التى تحل بهم (٢) ولا يرونها مهلكة والدليل عليه انهم بعد هذا العذاب لم يتوبوا ولم يتضرعوا

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ج٤/ ٣٧٠ ، تفسير الرازي ٢٢/ ١٣ .

(٢) راجع ابن كثير ٤٠٣/ ٣ ، المؤمنون / ٧٦ ، روح المعاني ٥٠٤/ ٢٥ ، ٥٥/ ١٨ ، الرازي ٢٣٥/ ١٢ ، القرطبي ٤٢٥/ ٦ ، فى ظلال القرآن ج٢/ ١٠٨٨ الانعام / ٤٣ .

وقد ذكر القرآن نموذجا من الذين أُصيبوا بذلك فلم يستكينوا ولم يتضرعوا
وهم فرعون وملئه : " ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات
لعلهم يذكرون... الى قوله فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل
والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين " - الأعراف / ١٣٣-
فهم مع هذه الايات التى يشيب لها الصغير استكبروا وتجبروا بـدل
أن يستكينوا ويرجعوا عن عنادهم وكفرهم ولم ترد الشدة إليهم وعيهم ولم تفتح
بصيرتهم ولم تليّن قلوبهم وكان الشيطان من وراءهم يزين لهم ما هم فيه
من الضلال والفساد،

" ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون " .

وهم وإن طلبوا من موسى عليه السلام - أن يدعو لهم برفع الضر إلا أنهم
لم يثوبوا الى الله ولم يتضرعوا اليه فحالهم كحال قريش لما أصابهم
الضر والجوع فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن يدعو لهم
برفع ذلك وهم مصرون على كفرهم وضلالهم .

...

هـ - قوله تعالى : " قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون
ما أعبد " سورة الكافرون ١-٢ .

هذه الآية تدل بظاهرها ان الكفار المخاطبين بها لا يعبدون الله ابدا
حيث قال " ولا أنتم عابدون ما أعبد " .
وقد جاءت آيات أخرى تدل على أن من الكفار من يُسلم ويعبد الله
كما قال تعالى :

" ومن هؤلاء من يؤمن به " (العنكبوت / ٤٧) .
اي : العرب من قريش وغيرهم الذين اسلموا بعد كتابي سفيان
وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنهم (١) .

والجواب : ان قوله تعالى : " قل يا أيها الكافرون " خطاب لجنس
الكفار ماداموا على كفرهم فاذا اسلموا لم يتناولهم ذلك لانهم حينئذ
مؤمنون لا كافرون (٢) .

فقوله : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " لايراد به أنهم لن يعبدوا الله
لأن المقصود هو الرد على كفار قريش الذين قالوا : يا محمد هلم فاتبع ديننا
ونتبع دينك تعبد آللهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم معاذ الله أن أشرك به غيره فأنزل الله تعالى : " قل يا أيها
الكافرون لا أعبد ماتعبدون " الى آخر السورة (٣) فجاءت هذه السورة لإعلان
البراءة من دينهم الباطل بالكلية وأنه لا مجال للمساومة على عقيدة التوحيد
فأكد لهم الأمر وحسم أطماعهم فيه .

(١) ابن كثير ٢٦٤/٣ ، العنكبوت / ٤٧ زاد المسير ٢٧٧/٦ البيضاوي / ٥٣١

روح المعاني ٣/٢١ .

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ج ١٠ / ٣٤٩

(٣) اسباب النزول للواقدي / ٥٠٥ لباب السقول للسيوطي / ٢٢٦ زاد المسير ،

قال الرازي (١) عند تفسير هذه الآية : قوله هنا : " قل يا أيها الكافرون " خطاب مع الكل او مع البعض ؟ الجواب : لا يجوز ان يكون قوله : " لا أعبد ماتعبدون " خطابا مع الكل لأن في الكفار من يعبد الله كاليهود والنصارى فلا يجوز ان يقول لهم : لا أعبد ماتعبدون " .

ولا يجوز ايضا ان يكون قوله : " ولا انتم عابدون ما أعبد " خطابا مع الكل ، لان في الكفار من آمن وصار بحيث يعبد الله فاذنوجب ان يقال : ان قوله : " قل يا أيها الكافرون " خطاب مشافهة مع اقوام مخصوصين وهم الذين قالوا : " نعبد الهك سنة وتعبد آلهتنا سنة " .

وهنا توجه آخر (٢) : هو ان الآية من العام المخصوص وعليه فهي في خصوص الاشقياء المشار اليهم بقوله تعالى : " ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم " . (يونس : ٩٦-٩٧) .

وكما قال تعالى : " ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون " - الأنعام / ١١١ -

ولذلك فان كثيرا من الكفار بسبب سوء استعدادهم وخبث نفوسهم وانغلاق عقولهم وماهم فيه من العتو والتكبر وحب الدنيا بسبب ذلك فان صدورهم ضيقة حرجة لاتشرح لدعوة الحق (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم) والله لا يهدي القوم الفاسقين (فهولاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، فهولاء هم الاشقياء الذين حقت عليهم كلمة الله وختم على قلوبهم وعلى سمعهم)

(١) تفسير الرازي ج٢٢/ ١٤٤

(٢) تفسير الطبري ٣٠/ ٣٣١ طبعة الحلبي .

أضواء البيان ١٠/ ٣٤٩ .

وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة . فهؤلاء الاشقياء الذين يموتون على الكفر والضلal ٦ نزل في حقهم قوله تعالى : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " حيث علم الله انهم لن يؤمنوا ومن هؤلاء ابولهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم الذى نزل في حقه سورة تبين مخازيه وخسارته وانه سيصلى نـارا ذات لهب وفعلنا فقد مات كافرا كما اخبر الله ومثله كثير من الذين قتلوا في بدر وغيرها من عتاة قريش .
فهؤلاء^{هم} الذين عناهم الله تعالى بقوله تعالى : " ولا أنتم عابدون ما أعبد " على هذا الوجه .

٦ - قوله تعالى فرحق كفار مكة :

" وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (١) ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ان أولياءه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون " (الانفال - ٣٣-٣٤) .

الاية الاولى تثبت ان الله لا يعذبهم ورسول الله بين أظهرهم حيث
ان الله تعالى لا يعذب أمة ونبيها بين أظهرها (٢)

وكذلك لا يعذبهم ماداموا يستغفرون (٣) اي يسلمون ويتوبون فيستغفرون .
وهذا قد يتوهم مخالفته للآية التي بعدها : " ومالهم ألا يعذبهم
الله وهم يصدون عن المسجد الحرام الآية " .

لان معناها : أنهم أهل لأن يعذبهم فأى شيء لهم في انتفاء العذاب
عنهم فلاحظ لهم في ذلك وهم معذبون لامحالة .

وكيف لا يعذبون " وهم يصدون عن المسجد الحرام " كما فعلوا قبل
الهجرة باضطهاد المسلمين ونهيبهم عن الصلاة في المسجد واذا هم عندما يصلون
فيه وبعد الهجرة بالمد عنه وكما فعلوا لما صدوا المسلمين عام الحديبية .

والجواب : ان الايتين لاتنافى بينهما (٤) لان العذاب المنفي في قوله
تعالى : " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم " غير العذاب المثبت في قوله
تعالى " ومالهم ألا يعذبهم الله " .

فالعذاب المنفي هو عذاب الاستئصال والهلاك التام وهذا هو الظاهر من
الآيات والسياق حيث ان الآية جاءت جوابا لقولهم : " واذا قالوا اللهم
ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا
بعذاب اليم " والقائل هو ابوجهل بن هشام فنزل قول الله تعالى " وما كان
الله ليعذبهم " اي هذا العقاب الذي طلبوه كما عذب الامم السابقة
روى ذلك البخارى ومسلم (١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١) البخارى ج٥/ ١٥٩ ، كتاب التفسير / الانفال . ومسلم في صفات المنافقين
باب قوله تعالى : ان الانسان ليطغى . شرح النووى ج١٧/ ١٣٩ .

قال ابن كثير (١) وقال على بن ابي طلحة عن ابن عباس : " وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم " يقول ما كان الله ليعذب قوما وانبياءهم بين اظهرهم حتى يخرجهم ثم قال: وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون " يقول وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الايمان وهو الاستغفار، ويستغفرون يعني يصلون يعني بهذا اهل مكة . وروى عن مجاهد وعكرمة وعطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي نحو ذلك " اهـ . فلم يقع الاستئصال لما قد علم من ايمان بعضهم واسلام بعض ذراريهم (٢) .

ومما يدل ان المراد بالعذاب المنفى عذاب الاستئصال ان الله قــــــد عذب بعض الامم العذاب الذي هو دون الاستئصال وانبياءها بين اظهرها، من ذلك قوم فرعون الذين ارسل لهم موسى عليه السلام فكذبوا وعصوا فارسل الله عليهم انواعاً من العذاب : (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) . (الاعراف/ ٣٣) وهذه سنة الله في كل من أعرض عن دعوة الانبياء وطفى واستكبر يذيقه الله من العذاب لعله يستكين او يرجع كما قال تعالى : " وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون " (الاعراف/ ٩٤) .

ولذلك فان من الواضح ان المراد بالعذاب المنفى هو عذاب الاستئصال اما العذاب الميثب في قوله : " وما لهم الا يعذبهم الله . . . " فهو عذاب الدنيا بالقتل بالسيف كما قال تعالى " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم " والاخذ بالبأساء والضراء كما هي سنة الله في الامم المكذبة حتى ترجع وتتضرع لله بالتوبة (٣) .

وهذا نوح عليه السلام يقول لقومه : " فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . . . " (نوح / ١٠-١٢) .

(١) ج ٤٧٩/٢ الانفال/ ٣٣ ، زاد المسير ٣/ ٣٥٠ .

(٢) زاد المسير ٣/ ٣٥٢ ، روح المعاني للقرطبي ٧/ ٣٩٩ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٤١/ ١٥ .

- وتفسير الرازي ١٥/ ١٦٣ ، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة / ٧٣ .

فهذا نوح عليه السلام يدعوهم للاستغفار أي التوبة والرجوع إلى الله
بترك الكفر والضلال والتضرع إلى الله حتى يرفع البأساء والضراء عنهم
ولكنهم طغوا وأبوا فاستاصلهم الله كما أخبر عنهم .

أما هذه الامة فان الله قد رفع عنها عذاب الاستئصال لما علمه الله
فيها من الخير ولانها آخر الامم واشرفها وأعظمها مسئولية .
فما زال في هذه الامة من يتوب إلى الله ويتضرع وهو أمان الاستغفار
الباقى إلى يوم القيامة .

أما قريشا فانهم لما لم يتوبوا ولم يتضرعوا فإن الله أصابهم
بالبأساء والضراء فما استكانوا .

وأصابهم العذاب والقتل والأسر في بدر كما قال " ولنذيقنهم من العذاب
الأدنى دون العذاب الأكبر لعلمهم يرجعون " (السجدة / ٢١) .
فهذا العذاب الأدنى هم أهل له ولين هناك شيء يدفعه أو يمنع
" فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " .

وهناك وجه آخر :

وهو ان المقصود بقوله : " وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم " .
عذاب القتل بالسيف وبالبأساء والضراء ولكن لما لم يتوفر الامان
وهو وجود الرسول فيهم واستغفارهم الذي هو توبتهم وتضرعهم لما لم يتوفر
احدهما لاجرم استحقوا العذاب بالقتل والأسر كما حصل يوم بدر وما أصابهم من
الضر والجوع .

وهذا العذاب هو المثبت في قوله تعالى : " وما لهم ألا يعذبهم الله " .
وهذا الوجه هو اختيار ابن جرير الطبري (١) .

قلت : وهذا القول وان كان يرتفع به التنافي بين الايتين إلا أن الذي
يتجه أنه لامانع من عذاب القوم عذابا ليس فيه استئصال كعقاب لهم والنبي
بين اظهرهم كما حصل مع قوم موسى لما عارضوا واستكبروا أرسل الله عليهم

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٣٨/٩ طبعة الحلبي ، تفسير ابن كثير ج ٢ / ٤٨٠ ،
زاد المسير ٣/ ٣٥١ .

انواعا من العذاب كالجراد والضفادع والقمل والدم حتى انهم اضطروا الي
سؤال موسى ان يدعوا لهم برفع الرجز عنهم " ولما وقع عليهم الرجز قالوا
يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك فلما
كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه إذا هم ينجثون " الأعراف / ١٣٥ .

وسنة الله انما هي مطرودة في جميع الامم (١) وقد اختص الله هــ
الامة بان رفع عنها عذاب الاستئصال لما علم الله فيها من الخير
ودوام وجود من يتوب إليه تعالى ويتضرع : " وما كان الله مُعذبهم وهــ
يستغفرون " .

.....

(١) وهناك أوجه أخرى أعرضت عن ذكرها لظهور ضعفها وكذلك من أجل
بيان عدم التنافي من أقصر الطرق .

٧ - قوله تعالى مخاطبا مشركي مكة وغيرهم ممن انكر ان يكون رسل الله
بشرا :

" وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا اهل الذكر ان كنتم
لاتعلمون . وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين " .
(الانبياء / ٧-٨) .

هذه الايات جاء الرد على المشركين الذين استبعدوا ان يكون رسل الله
بشرا في قولهم : " هل هذا الا بشر مثلكم " (الانبياء / ٣) .
وقولهم في سورة اخرى " ابعث الله بشرا رسولا ؟ " (الاسراء / ٩٤ -)
يحاكون في ذلك قول الذين كفروا من قبل حين قالوا لانبيائهم
" قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء " (يس / ١٥)

وقولهم : " أبشر يهودنا " . (التغابن / ٦) الى غير ذلك من
الايات فارشدهم الله الى سؤال اهل الكتاب حيث قال : (فاسألوا اهل الذكر
ان كنتم لاتعلمون) اى اسألوا اهل العلم من الامم كاليهود والنصارى وسائر
الطوائف هل كان الرسل الذين اتوا بشرا او ملائكة .
فان انتم لاتعلمون ماذكر فاسألوا اهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل
السالفة عليهم الصلاة والسلام - لتزول شبهتكم ،

لكن هذه الآية قد يتوهم معارضتها لآية أخرى وهي قوله تعالى فـي
حق الكفار : " وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بيـن
يديه " . (سبا / ٣١) .

والمراد بالذى بين يديه وجهان :

الاول : انه امر البعث والنشور حسب ما يقتضيه السياق لانه قال
قبلها : " ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ، قل لكم ميعاد يوم
لا تستأخرون عنه ساعة ولاتستقدمون " .
قال ابن كثير (١) عند تفسير الآية : يخبر تعالى عن تمام الكفار

في طفولتهم وعنادهم واصرارهم على عدم الايمان بالقران الكريم وبما اخبر به من أمر المعاد " اهـ .

وقال البيضاوى (١) : " قيل الذى بين يديه : يوم القيامة " .

كما أن التعبير بالذى بين يديه قد يراد به ماضى وقد يراد به ماسياتي (٢) :

وعلى هذا الوجه فليس هناك إشكال لأنه ليس فيه ان المشركين يكفرون بالتوراة والانجيل .

والوجه الاخر: ان المراد بالذى بين يديه هو التوراة والانجيل كما قال الحسن وقتادة والسدى وابن جريج وغيرهم (٣) .

وعلى هذا الوجه قد يقال: كيف امر المشركون بسؤال أهل الكتاب بشأن طبيعة الرسل مع انهم قالوا: " لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه " يعنى التوراة والانجيل (٤) .

والجواب : ان ارشاد المشركين الى سؤال أهل الكتاب عن طبيعة الرسل لا ينافي كون المشركين يكفرون بالكتب السابقة . وذلك من أوجه :

أولاً : ان المشركين كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم وذكر وكانوا يثقون بهم ولذلك كانوا يشايعون بعضهم على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم - وكان أهل الكتاب يؤمنون بالرسل فى الجملة وانهم بشراً وليسوا ملائكة فنقل الجمل الغفير من أهل الكتاب والذى يصل الى حد التواتر فى هذا الامر يفيد العلم لم يؤمن بكتابهم ولمن لا يؤمنون به (٥) وخاصة

(١) تفسير البيضاوى ص ٥٧٠ والزمخشري ٢٩٠/٣ ، ابوالسعود ١٣٤/٧ .

(٢) روح المعاني ١٤٤/١٧ .

(٣) تفسير الطبرى ج ٩٧/٢٢ ط الحلبي ، تفسير الماوردى ٣٨/٣ ، روح المعاني

١٤٤/١٧ الدر المنثور ج ٧٠٣/٦ زاد المسير ٤٥٧/٦ .

(٤) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن ص ٣٧٣ الشيخ زكريا الأنصارى .

(٥) فتح الرحمن : ٣٧٣ ، روح المعاني ١٤٤/١٧ ،

المشركين لان اهل الكتاب كانوا عندهم محل الثقة اضافة الى تناصرهم وتعاونهم في معاداة الاسلام واهله . قال الزمخشري (١) (وإنما أحالهم على أولئك لانهم كانوا يشايعون المشركين في معاداة الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى (ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا) فلا يكاذبونهم فيما هم فيه ردء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠٠ اهـ .

وكفر المشركين بالتوراة والانجيل انما كان لاجل كفرهم بالقران ومن جاء به وذلك لان المشركين علموا ان التوراة والانجيل فيهما صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به وهم قد علموا ذلك من اهل الكتاب (٢) ، فلذلك قالوا : " لن نؤمن بهذا القران ولا بالذى بين يديه " لان الايمان بالتوراة والانجيل ملزم لهم بالايمان بالقران حيث انهما يدلان على صدقه وبعثته وانه النبي الموعود . فلو امنوا بهما للزمهم الايمان بالقران وهذا ما لا يريدونه .

ثانيا : ان كفر المشركين بالتوراة والانجيل وما جاء فيهما ليس عن دليل أو برهان وانما لتاكيد كفرهم بالقران ومن جاء به ولذلك فانهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن القرآن حق وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل ولذلك قال الله تعالى فيهم : " فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " (الانعام / ٣٣) .

نعم انه الجحود والعناد والمكابرة كما قال الله تعالى : " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا " (النمل / ١٤) .

ولذلك فان قولهم : " لن نؤمن بهذا القران ولا بالذى بين يديه " ليس عن اعتقاد وبرهان وانما هو جحود ومكابرة لان القران و الكتاب السابقة تضمنت ما كفروا به من البعث وقيام الساعة وهم لا يريدون ذلك حفاظا على مكتسباتهم من المال والجاه والسلطان .

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٤٥٧/٦

ولذلك نجدهم قد اضطربوا غاية الاضطراب فى موقفهم امام الرسول ودعوته فمرة يقولون انه كاهن ومرة هو شاعر ومرة هو ساحر .

ومرة يعلمه بشر ، ومرة انه يفتقر الى الخوارق ومرة انما هو بشر ورسل الله انما هم ملائكة .

كما اخبر الله عنهم : " بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر " (الانبياء ٥ /) .

" وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون " (الحاقة ٤١ /) .

" وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون " (الحجر ٨ /) .

" ان هذا الاسحر يؤثر ان هذا الا قول البشر " (المدثر ٢٥ /) .

" وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " (الزخرف ٣١ /) .

" وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا " (الاسراء ٩٤ /) .

الى غير ذلك مما يدل على حيرتهم واضطرابهم وتخطبهم فى القاء الشبهات والشكوك مما يدل على انهم مكابرون جاحدون تصدر عنهم هذه الافتراءات ظلما وعلوا وحسدا لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

ولذلك فان عدم ايمانهم بالتوراة والانجيل انما هو كذلك ظلموا وعلوا وحسدا لصاحب الرسالة لان فيهما ما يفيد صدق نبوته والبشارة به وان رسل الله انما هم بشر وليسوا ملائكة ولذلك ارشدهم الله الى سؤال اهل الكتاب لانه تعالى يعلم انهم يؤمنون بكتبهم فى قرارة انفسهم ولثقة المشركين باهل الكتاب وموالاتهم لهم . والله اعلم .

٨ - قوله تعالى : " فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله
يجحدون " (الأنعام / ٣٣) •

هذا الآية يدل ظاهرها ان الكفار في عهد الرسول لا يكذبونه بينما
جاءت آيات اخرى تثبت تكذيبهم له كقوله تعالى :

" فإن كذبوك فقد كُذِّبَ رسل من قبلك " (ال عمران / ١٨٤) •
"وقال : الكافرون هذا ساحر كذاب " (ص / ٤)

" وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل " (الأنعام / ٦٦)
الغير ذلك من الآيات التي تدل على تكذيب الكفار برسالة الرسول واطهارهم
عدم التصديق له •

والجواب من اوجه :

الاول (١) : ان القوم ماكانوا يكذبونه بقلوبهم وسراثرهم
لعلمهم انه صادق ولوجود المعجزة القاطعة والتي تشهد بصدقه وهي
القران الذي عجزوا عن الاتيان بمثل اقصر سورة منه •

وهذا معنى قوله تعالى : " فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين
بآيات الله يجحدون " اي إن حقيقة حالهم هو مجرد الجحود والمكابرة
والعناد فلذلك اظهروا تكذيبك وحاربوك وصدوا عن دعوتك لماربهم وللمحافظة
على مكتسباتهم فقوله تعالى : " وقال الكافرون هذا ساحر كذاب " •
وقوله : " وكذب به قومك وهو الحق " •

انما اريد ما اظهره من التكذيب بالقول والفعل وان كانوا في
قرارة انفسهم يعلمون أنه نبي صادق •

(١) الرازي ٢١٥/١٢ ، القرطبي ٤١٦/٦ ، روح المعاني ١٧٥/٧
ابن كثير ٢٠٩/٢ ، الأنعام ٣٣ آمال المرتضى ٢٦٥/٢

فانهم فى تكذيبهم لا يكذبون الرسل فى الحقيقة ولكن الظالمين بآيات الله
يجحدون، ولكنهم بآياته تعالى يكذبون .

وإيراد الجحود فى مورد التكذيب للايدان بان آياته سبحانه من الوضوح بحيث
يشاهد صدقها كل أحد، وأن من ينكرها فلا ينكرها بطريق الجحود فكأنه تعالى
قال : إن القوم ما كذبوك وإنما كذبونى .

ونظيره قوله تعالى : " ان الذين يبائعونك انما يبائعون الله "
وعلى هذه فان الآية جاءت على سبيل التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم
والتعظيم والتغليظ لتكذيبه .

الوجه الثالث : انهم لا يقولون انك كذاب لأنهم جربوك الدهر
الطويل وملأ جوداً منك كذبا البتة وسموك الامين ولكن جحدوا صحة نبوتك
ورسالتك اما لانهم اعتقدوا ان محمداً عرض له نوع خيل ونقصان فلاجله تخيل من
نفسه كونه رسولا من عند الله وبهذا التقدير لا ينسبونه الى الكذب (١) ولهذا
قال تعالى: " وكذب به قومك وهو الحق " (الانعام / ٦٦) ولم يقل
كذبك قومك .

أو لأنهم قالوا : ما كذب فى سائر الامور بل هو امين فى كلها الا فى
هذا الامر .

ويتأيد ذلك بما اخرج الترمذى (٢) والحاكم (٣) وصحاه عن على رضي
الله عنه قال : قال ابو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم قد نعلم يا محمد

(١) الرازى ٢١٥/١٢ ، روح المعانى ١٣٥/٧ ، القرطبى ٤١٦/٦ امال المرتضى ٢٦٧/٢ .

(٢) الترمذى فى التفسير / باب من سورة الانعام جد/ ٢٦١ رقم ٣٦٠٤ وصححه
ارساله .

(٣) الحاكم فى التفسير ٣١٥/٢ (وقال صحيح على شرط الشيخين) واللفظ له
قال الذهبى : ناجية بن كعب الداودى عن على ليس من رجال الشيخين .
قلت : وهو ثقة روى له ابوداود والترمذى والنسائى (تقريب التهذيب ٥٥٧)

تحقيق : الشيخ محمد عوامة ط : اولى

انك تصل الرحم وتمصدق الحديث ولانكذبك ولكن نكذب الذى جئت به ، فأَنْـزل
الله عز وجل الآية •

الوجه الرابع : ان معنى قوله تعالى : " فانهم لا يكذبونك " اى لا يفعلون
ذلك بحجة ولا يتمكنون من ابطال ما جئت به ببرهان وانما يقتصرون على الدعوى
الباطلة وهذا فى الاستعمال معروف ، لان القائل يقول : " فلان لا يستطيع
أن يكذبنى ولا يدفع قولى وانما يريد انه لا يتمكن من اقامة دليل على كذبه
وحجته فى دفع قوله وان كان يتمكن من التكذيب بلسانه وقلبه فيصير ما يقع
من التكذيب من غير حجة ولا برهان غير معتد به (١) •

وعلى جميع هذه الواجه ينتفى توهم الاختلاف بين الايات ونرى كيف أن التوهم
انما يأتى عند الجهل بمعانى الايات واسباب نزولها وعدم تدبر سياقها (٢) •

...

(١) امال المرتضى ج٢/٢٦٥ •

(٢) سبق فى فصل القراءات الحديث عن قوله " فانهم لا يكذبونك " من جهة
القراءات فليراجع

٩ - قوله تعالى :

" ان الانسان لربه لكنود . وانه على ذلك لشهيد " (العاديات / ٦٥)
فى هذه الاية اثبات من الكافر يشهد بانه كفور وجود لنعم ربه وهذا قد
يتوهم منه منافاة قوله تعالى في حق الكفار : (وهم يحسبون أنهم يحسنون
معنا) - الكهف / ١٠٤ - ، وقوله : (ويحسبون أنهم مهتدون) - الاعراف / ٣٠ -
والجواب : ان المراد بالانسان فى قوله تعالى : " ان الانسان لربه
لكنود " هو جنس الانسان .

وكنود : اى كفور جود من كند النعمة اذا كفرها ولم يشكرها ، والحكم
على الانسان بذلك باعتبار بعض الافراد وهم الكفار ،
وقيل المراد به كل الناس على معنى ان طبع الانسان يحمله على ذلك
الا اذا عصمه الله تعالى بلطفه وتوفيقه من ذلك ، وفى هذا مدح للفـرزة
لسعيهم على خلاف طبيعتهم (١)

وقوله : " وانه على ذلك لشهيد "

اى الانسان (٢) على كفرانه وجوده لشهيد .

لانه قال بعدها : " وانه لحب الخير لشديد " وكذلك لما يقتضيه
اتساق الضمائر وعدم تنقيحها لان الضمير السابق واللاحق يعود للانسان كما هو
ظاهر .

واثبات ان الانسان الكفور لشهيد على كفرانه وجوده لا يتنافى مع ما ثبت
فى الايات الاخرى من ان الانسان الكافر يظن - أنه على صواب وأنه يحسن صنعا
وانه مهتد .

لانه ليس المراد بالاية اثبات شهادة الكافر على نفسه بالكفر
بلسان المقال اذ انه من المعلوم ان الكفر انما هو مجرد جود واستكبار
كما قال تعالى : " وجدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا " .

(١) روح المعانى ٢٢٩/٣ ، تفسير ابن كثير ٨٦/٤ ، العاديات

تفسير الماوردى ٥٠١/٤

(٢) كما قال ابن عباس والحسن ومحمد بن كعب القرظى . انظر المراجع السابقة
وفتح القدير للشوكاني ٤٧٠/٥ ، الرازى ٦٧/٣٢

ولذلك فان شهادة الكافر على نفسه المشبته فى الالية فيها وجهان
الوجه الاول : ان شهادة الانسان بانه كنود هى شهادة حاله بظهور
كفره وجوده ولسان الحال يغنى عن لسان المقال بل هو أفصح فشهادته على
حاله لظهور آثار كفران النعمة فى أعماله وسلوكه كما قال تعالى : " ماكان
للمشركين أن يعمرؤا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر "
(التوبة/١٧) .

فالانسان بجوده لنعم ربه وانكاره لجزيل فضله يتمثل كنوده ووجهه
فى مظاهر شتى تبدو منه افعالا واولا فتقوم عليه مقام الشاهد الذى
يقرر هذه الحقيقة وكأنه يشهد على نفسه بذلك . فمثلا نرى قريشا تحارب
الله ورسوله وتصد عن دينه وتكفر باياته ومع ذلك يدعون انهم سدة البيت
واهل الله فى حرمه وانهم عمار البيت بالسقاية والرفادة وخدمة الحجاج
وغى ذلك .

وهاهم يخرجون فى بدر بطرا وغرورا ليحاربوا العصبة المؤمنة ومع ذلك
يقولون : " اللهم انصر اُعلى الجندين وأكرم الحزبين وخير الفئتين "
يظنون انفسهم انهم يحسنون صنعا مع أن أعمالهم وصددهم عن دين الله شاهدة
عليهم بالكفر والعناد والغرور والمكابرة . قال الله " شاهدين على انفسهم
بالكفر "

وهذه سيرة أعداء الله والحق فى كل زمان ومكان يحاربون الاسلام وأهله
ويكيدون للمؤمنين وكل من يصبو لاعلاء كلمة الله وابطال الباطل ويواولون
اعداء الدين ويوادوهم .

ومع ذلك يدعون انهم يحسنون صنعا وانهم مهتدون وعلى طريق الحق
والعدالة سائرون ولسعادة الشعوب عاملون ،

مع أن أعمالهم شاهدة عليهم بالكفر والضلال والفساد والإفساد .

والوجه الآخر : ان شهادة الكافر على نفسه انما هى يوم القيامة يوم
تُبلى السرائر وتوضع موازين القسط ويُنبأ كل انسان بما قدم وأخبر
فهناك يظهر زيف أعمالهم وضلالهم ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ،

فيشهد الكفار والجاحدين هنالك على انفسهم في عدة مواقف، منها —
شهادة أعضائهم عليهم عندما ينكرون ويقولون : " والله ربنا ما كنا مشركين
(الانعام : ٢٣) • فهناك يختم الله على أفواههم كما قال تعالى :
" اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا
يكسبون " (يس / ٦٥) •

وفي موقف آخر لما يتيقنوا أن الله لم تخف عليه خافية وأن الكتاب
لم يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ،
هنالك يهتفون ويقررون ويندمون ولات حين مندم ، قال الله تعالى حكاية
عن الكفار في موقف القيامة : " وقالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم —
الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين " (الانعام / ١١٠) •
وقال : " كلما أُلقي فيهما فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا
بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ، إن أنتم إلا في ضلال
كبير ، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ، فاعترفوا
بذنوبهم فسحقا لأصحاب السعير " (الملك ٨-١١) •

١. - قوله تعالى :

"ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا " (الانعام / ٩٣)
" ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنها " (السجدة / ٢٢)
" ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فخرابها .."
(البقرة / ١١٤) •

والاستفهام في هذه الآيات بمعنى النفي فيؤول الى الخبر والمعنى:

لا أحد اظلم ممن افترى على الله
ولا أحد اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها
ولا أحد اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه
قال أبو حيان (١) : " فتوهم بعض الناس انه اذا اخذت هذه الايات على ظواهرها سبق ذهنه الى التناقض فيها لانه قال المتاول في هذا : لا أحد اظلم ممن منع مساجد الله • وقال في اخرى : لا أحد اظلم ممن افترى على الله كذبا وقال في اخرى : لا أحد اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنها • ثم نقل أبو حيان (٢) اوجه الاجابة عن هذا السؤال :

الوجه الأول: تخصيص كل واحد في هذه المواضع بمعنى صلته ، فكانه قال : لا أحد من المانعين اظلم ممن منع مساجد الله ، ولا أحد من المفتريين اظلم ممن افترى على الله كذبا ، وكذلك باقيها • فاذا تخصصت بالصلاات زال عنه التناقض •

الثاني : وقال غيره التخصيص يكون بالنسبة الى السبق ، لما لم يسبق أحد الى مثله ، حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم سالكا طريقهم وهذا يؤول معناه الى السبق في المانعية والافتراضية •

(١) في تفسيره البحر المحيط ج١/٣٥٧ •
(٢) المصدر السابق ج١/٣٥٧ ، وعنه نقل صاحب البرهان ج٤/٧٤ وصاحب الاتقان ج٢/٣٠ والالوسي في تفسيره ج١/٣٦٣ ، والقرطبي ج٢/٧٦ والشنقيطي في أضواء البيان ج١/٢٥ وغيرهم من المفسرين •

ثم قال أبو حيان (١) بعد أن نقل هذين الوجهين : " وهذا كله بعد
عن مدلول الكلام ووضعه العربى " .

ثم ذكر الوجه الثالث بأن هذه الآيات لاتدل على نفي التسوية فـي
الظلمية وقصارى ما يفهم منها اظلمية أولئك المذكورين فيها ممن عداهم .

" قال : " . فيهما اثبات التسوية فى الظلمية وإذا ثبتت التسوية
فى الظلمية لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر لانهم يتساوون فـي
الظلمية وصار المعنى لا أحد اظلم ممن منع وممن افترى وممن ذكر و لا اشكال
فى تساوى هؤلاء فى الظلمية ولا يدل على أن أحد هؤلاء اظلم من الآخر . كما
أنك إذا قلت : لا أحد أفقه من زيد وعمر وخالد ، لا يدل على أن أحدهم أفقه
من الآخر بل نفي أن يكون أحدهم أفقه منهم . وهذه الآيات كلها إنما هي
فى الكفار فهم متساوون فى الظلمية وان اختلفت طرق الظلمية فهي كلها صائرة
الى الكفر ، وهو شيء واحد . ولا يمكن فيه الزيادة بالنسبة لافراد من اتصف به
وانما تكمن الزيادة فى الظلم بالنسبة لهم وللعصاة المؤمنين بجامع ما
اشتركوا فيه من المخالفة فتقول : الكافر اظلم من المؤمن ونقول : لا أحد
اظلم من الكافر ، ومعناه أن ظلم الكافر يزيد على ظلم غيره " اهـ .

قلت : وحاصل هذا الوجه أن الآيات المتضمنة اثبات الظلمية لقسم من
الناس فى حكم آية واحدة أى لا أحد اظلم ممن اتصف بهذه الاوصاف وليس فيها
أن اصحاب هذه الاوصاف اظلم من بعضهم حتى يتوهم التناقض .

كما أن فى قول أبي حيان " وهذه الآيات كلها إنما هي فى الكفار فهم
متساوون فى الظلمية وان اختلفت طرق الظلمية فهي كلها صائرة الى الكفر وهو
شيء واحد " إنما ينبى على قوله تعالى : " ان الشرك لظلم عظيم " لقمان / ١٣

وقوله تعالى : " ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق " - الحج / ٣١ -

فلا شيء أعظم من الشرك وعنه تصدر كل الخطايا والمظالم فمنع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه والسعى في خرابها والافتراء على الله وتكذيب الرسل والاعراض عن آيات الله انما هي افرازات للشرك والكفر الذي هو راس كل خطيئة فلا جرم لم يكن هناك اظلم من المشرك والكافر . وانما ذكر الله بعض صفات الكفار والمشركين كما قال : " ومن اظلم ممن منع مساجد الله ونحوها ولم يرد حصر الاظلمية في صفة معينة انما اراد حصر هذه الصفة في هؤلاء المشركين الذين لا احد اظلم منهم ، والذين تصدر عنهم مثل هذه المساوئ والمخازي .

هذا ومع وجاهة هذا المسلك الا ان صاحب البرهان الامام الزركشي سلك طريق التخصيص بأن الايات مخصصة لبعضها* حيث قال (١) : " وقول الشيخ : ان المعنى " لا احد اظلم ممن منع ومن ذكر ... " صحيح ولكن لم يستفد ذلك الا من جهة التخصيص ، لأن الافراد المنفي عنها الاظلمية في آية اثبتت لبعضها الاظلمية في آية اخرى وهكذا بالنسبة الى بقية الايات الواردة فيها ذلك .

قلت : ومن المعلوم ان التخصيص هو قصر العام على بعض افراده (٢) . فلما قال : " ومن اظلم ممن افترى على الله " فهذه من صيغ العموم ففي ذلك نفى الاظلمية عن كل من لم يفترى على الله .

لكنه لما قال في آية اخرى : " ومن اظلم ممن منع مساجد الله " .. وكان المعنى : " لا احد اظلم ممن منع مساجد الله " وهو نفى للاظلمية

x

(١) البرهان ج٤/٧٦ .

(٢) راجع مبحث العام والخاص في الباب الاول فصل اسباب موهم الاختلاف ومبحث

تعارض العموميين في نفس الفصل .

* وقال بالتخصيص كثير من المفسرين : الرازي ج٤/٨ ، فوائد في مشكل القرآن ، العز ابن عبد السلام / ١٢٠ ، صفوة الاشار والمفاهيم للدوسري ٣١٤/٢ .

عن كل من لم يمنع مساجد الله ان يذكر فيها ، فهذا العموم مخصوص بمن افتري على الكذب ومخصوص بمن ذكر بايات ربه فاعرض عنها اى لايتناول هؤلاء عموم نفى الاظلمية فلا تعارض بين الايات لما تقدم فى اسباب موهم الاختلاف ان العام لا يتعارض مع مخصصه لانه بوجود المخصص يتبين لنا ان اللفظ لم يرد عمومه .

الوجه الرابع : ما ذكره صاحب البرهان (١) :

قال : وهناك معنى ثالث وهو امكن فى المعنى وسالم عن الاعتراض وهو الوقوف مع مدلول اللفظ من الاستفهام ، والمقصود به : ان هذا الامر عظيم فظيع قصدنا بالاستفهام عنه تخييل انه لاشئ فوقه لامتلاء قلب المستفهم عنه بعظمته امتلاء يمنعه من ترجيح غيره فكانه مضطر الى ان يقول : لا احد اظلم وتكون دلالة على ذلك استعارة لا حقيقة ، فلا يرد كون غيره اظلم منه ان فرض ، وكثيرا ما يستعمل هذا فى الكلام اذا قصد به التهويل ، فيقال : اى شئ اعظم من هذا ؟ اذا قصد افراط عظمته ، ولو قيل للمتكلم بذلك انت قلت انه اعظم الاشياء ، لأبى ذلك ، فليفهم هذا المعنى ، فان الكلام ينتظم معه والمعنى عليه " اهـ .

...

(١) ج٧٦/٤ ، ونقله صاحب الاتقان ج٣٠/٢ ،

وقد ضعفه الشيخ الشنقيطى فى اضاواء البيان ٢٦/١٠٥ بانه خلافاً لظاهر القرآن ، وليس كما قال فانه وجه قوى كما قرره الزركشى .

١١- قوله تعالى مخاطبا الكفار : " امن يبدأ الخلق ثم يعيده وممن يرزقكم من السماء والارض آله مع الله قلهاثوا برهانكم ان كنتم صادقين " (النمل / ٦٤)

والمراد بقوله : " ثم يُعيده " ما يكون من الاعادة بالبعث بعد الموت والكلام مع المشركين ، والاية تخاطبهم بذلك خطاب المعترف بالبعث ، فالآية فيها ثناء من الله على نفسه بأمر نازع فيه الكفار أشد النزاع مع أن ظاهر هذه الآية كأنه يفيد تسليمهم بالإعادة ، فكيف نوفق بين ظاهر ما يحتمله هذا النص وما ورد من آيات أخرى تدل على انكار الكفار للبعث والحساب كقوله تعالى : " وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم " (يس / ٧٨)

وقوله : " قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله " (يونس / ١٥) وقوله : " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت " (النحل / ٣٨) وقوله : " زعم الذين كفروا أن لن يُبعثوا " (التغابن / ٧) وقوله : " وقالوا إن هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين " (الانعام / ٢٩) الى غير ذلك من الايات التي تدل على إنكار الكفار للبعث والنشور .

والجواب : ان الاعادة والبعث لوضوح براهينها وأدلتها التي ساقها القرآن فجعلوا كأنهم معترفون بها لتمكنهم من معرفتها فلم يبق لهم عذر في الانكار فهم كانوا يقرون ان الله هو الخالق الرازق وانه هو الذى بدأ الخلق فالزمهم الاعادة اى اذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الاعادة وهو أهون عليه (١) .

قال الرازى (٢) : كانوا معترفين بالابتداء ودلالة الابتداء على الاعادة دلالة ظاهرة قوية ، فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر في الانكار " اهـ .

(١) القرطبي ٢٢٥/١٣ ، روح المعاني ج٢/ ٧-٨ ، فتح الرحمن ٢٤٧ .

(٢) تفسير الرازى ج٤/ ٢١١ ، النمل : ٦٤ .

وقال محي الدين شيخ زاده (١) :

" ولمّا ورد أنّ يقال كيف يمكن إلزام الكفرة بذكر نعمة الإعادة وما يترتب عليها وهم منكرون للإعادة أجاب عنه بانهم وان انكروا الا انهم للمّالم يكن لهم عذر في إنكارها من حيث قيام الأدلة القاطعة الدالة على إمكانهم وكونها مقدورة لله تعالى واقتضت الحكمة وقوعها ، نُزّلوا منزلة من أقرّ بها فتوجه إليهم الإلزام والتجهيل بذلك " اهـ .

قلت : ومن امثلة ما ساقه القرآن للدلالة بالابتداء على الاعادة قوله تعالى : " وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم " (الايات (يس ٧٧-٧٨) .

وقوله : " كما بدأنا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين " (الانبياء ١٠٤/٦)

وقوله : " فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم اول مرة ٠٠٠٠ " (الاسراء ٥١ / ٥١)

فهذه الايات وأمثالها ساقها الله تعالى لبيان ان الذي خلق الانسان اول مرة من العدم كما قال تعالى : " هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا " قادر على اعادته بعد موته بل هو اهون في نظر الانسان كما قال تعالى : " وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه " (الروم ٢٧/ ٢٧) .

فالخلق والاعادة كلاهما سواء بالنسبة الى قدرة الله وليس شئ اهون على الله ولا أصعب انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ولكن انما يخاطب الناس بحسب إدراكهم ففتقدير الناس أن بدء الخلق أصعب من إعادته فمابالهم يرون الاعادة عسيرة على الله وهي في طبيعتها أهون وأيسر (٢) .

(١) في حاشيته على تفسير البيضاوى ج٣/٤٩٤ .

(٢) في ظلال القرآن ج٥/٢٧٦٦ .

واما قوله تعالى فيحق الكفار :

" ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " (يونس / ١٨)

فلا يدل على ايمان الكفار بالبعث لانه ليس المقصود منها انهم يرجون شفاعه اصنامهم يوم القيامة .

بل المراد ان الاصنام شفعا لهم عند الله اى للتقرب الى الله كما قال فى حقهم : " وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى .. " - الزمر / ٣ - كما انهم كانوا يرجون شفاعه الاصنام لاصلاح معاشهم فى الدنيا كما قال الحسن البصرى رحمه الله (١) .

الا ان الكفار كانوا قوما خصمين يجادلون فى كل شئ ، فلذلك عندما كان الرسول يحذرهم من البعث والحساب كانوا يجيبون على سبيل الجدال والعناد بانهم لو كانت هناك بعث ونشور لشفعت لنا اصنامنا التى تقربنا الى الله . " اخرج ابن ابي حاتم عن عكرمة (٢) قال : كان النضر بن الحارث يقول اذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى وفيه نزلت الاية " .

قال الالوسى (٣) : ولعل ذلك منهم على سبيل الغرض والتقدير ، أى ان كان بعث كما تزعمون فهؤلاء يشفعون لنا (٤) .

ويدل على أن ذلك لمجرد الجدال والعناد قول ذلك الكافر وهو يحاور صاحبه : " وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها " - منقلب / ٣٦ -

...

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٢ ، الانعام / ٩٤ ، زاد المسير ٤/ ١٦ ، روح المعاني

٨٨/١١ .

(٢) الدر المنثور : ٤/ ٣٤٩ .

(٣) روح المعاني ١١/ ٨٨ .

١٢- قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله
ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام
يبتغون فضلا من الله ورضوانا ... " (المائدة / ٢) .

قوله : " ولا آمين البيت الحرام " يعنى القاصدين له ، والمعنى :
لاتمنعوا الكفار القاصدين البيت الحرام على جهة التعبد والقربة حيث كان
المشركون يعظمون البيت ويحجون له وقد ورثوا هذا عن دين ابراهيم عليه السلام .
فأمر الله تعالى بعدم التعرض لهم اذا هم قصدوا البيت لهذا الغرض .

والآية نزلت لما قدم كفار اليمامة قاصدين البيت معتمرين وقد كان
الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه فى الحديبية عندما صدهم المشركون عن
البيت فمر بهم الحطم بن هند البكرى واصحابه من أهل اليمامة قاصدين البيت
فهمَّ الصحابة أن يطلبوه حيث إنه كان قد ارتد واستاق سرح المدينة وهرب
فلما توجهوا فى طلبه أنزل الله الآية فانتهوا عن ذلك (١) .

فكيف نوفق بين هذه الآية التى تنهى عن التعرض لمن قصد البيت الحرام
من المشركين وبين قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا انما المشركون
نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " - التوبة / ٢٨ -

والجواب :

ان قوله تعالى : " ولا آمين البيت الحرام ... " كان قبل نزول الآية
التي تحرم قربان المشركين للبيت الحرام وهى قوله تعالى : " انما المشركون
نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " .

(١) اسباب النزول للواحدى : ص ١٨١ ، لباب النقول فى اسباب النزول
للسيوطى ٨٦/ الدر المنثور ٢/ ٢٥٤ ، تفسير ابن كثير ٨/ ٢ ، المائدة / ٢
وانظر : القرطبي ٤٢/ ٦ ، روح المعاني ٥٣/ ٦ ، زاد المسير ٢/ ٢٧٧ ، تفسير أبي السعود ٤/ ٣

فهذه الآية جاءت ناسخة للنهي عن التعرض لمن يقصد البيت من المشركين — ومعلوم ان تحريم المسجد الحرام على المشركين جاء بعد ان عم الاسلام الجزيرة وعلا سلطان المسلمين واستحكمت شوكتهم وبانت البراهين والحج لكل احد فلم يعد هناك عذر لاحد من المشركين في بقاءه على شركه . لذلك جاء الحكم في آخر الامر بمنع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام ماداموا على شركهم . وقد نقل ابن جرير (١) الاجماع على هذا وهو قول الاكثرية من المفسرين (٢) .

قال ابن كثير (٣) قال ابن عباس : في قوله " ولا آمين البيت الحرام " ، يعنى من توجه قبل البيت الحرام ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون فنهى الله المؤمنين ان يمنعوا احدا من مؤمن او كافر ثم انزل الله بعدها " انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " الآية .

وقال تعالى : " ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله ... " وقال : " انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ... " فنفي المشركين من المسجد الحرام (ونقل عن قتادة نحوه) اهـ

قلت : ولهذا امر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر في السنة التي كان فيها اميرا على الحج ان يؤذن في الناس يوم النحر : لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان " (٤) وكان ذلك في السنة التي قبل حجة الوداع ، ولذلك فلم يحج مشرك عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، قال النووي رحمه الله (٥) " قوله صلى الله عليه وسلم : لا يحج بعد العام مشرك " موافق لقوله تعالى : انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " والمراد بالمسجد الحرام هنا الحرم كله فلا يمكن مشرك من دخول الحرم بحال " اهـ .

-
- (١) تفسير ابن جرير ج٥/٦٠ ، ٦١ ، طبعة الحلبي .
(٢) انظر ابن كثير ٨/٢ ، القرطبي ٤٢/٦ ، الرازي ١٣٠/١١ ابن كثير ٨/٢ ، المائدة / ٢ .
(٣) ج٨/٢ المائدة / ٢ وانظر تفسير الطبري ٦١/٥ ط الحلبي .
(٤) البخاري ، كتاب الحج باب ٦٥ ، ج٢/١٦٤ ، ومسلم في كتاب الحج باب لا يحج البيت مشرك (شرح النووي ١١٦/٩) .
(٥) شرح النووي ١١٦/٩ .

١٣- قوله تعالى :

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى
ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب
قبلا) - الكهف / ٥٥ -

قوله : سنة الأولين : هو عذاب الأمم السابقة
وقوله : أو يأتيهم العذاب قبلا : أى عيانا قتلا بالسيف كما وقع في يوم بدر
هذه الآية ظاهرها يدل على حصر المانع للكفار من الإيمان في
هذين السببين وهو طلب إتيان عذاب الأمم السالفة من الخسف وغيره أو
القتل بالسيف^(١)، حيث إن الآية جاءت ردا على قولهم :
(وإن قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا
حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) الأنفال / ٣٢ -

وقد جاءت آية أخرى يدل ظاهرها أن المانع لهم من الإيمان
خلاف ذلك وهو قوله تعالى :
(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا
أبعث الله بشرا رسولا) - الأسراء / ٩٤ -

فهذا حصر للمانع في أمر ثالث وهو استغراب بعثة رسول من البشر
حيث أظهروا أن الله تعالى لو أرسل رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون
ذلك الرسول من الملائكة^(٢)
والجواب على ذلك من أوجه :

الوجه الأول : أن المانع الحقيقي لدخول الكفار في الإيمان ليس هو
ما نطق به أفواههم ، لأن كل ذلك إنما هو ادعاء وتعننت وتحكم

(١) زاد المسير : ج٥ / ١٥٨ تفسير ابن كثير : ج٢ / ١٤٨ الكهف / ٥٥
(٢) فوائد في مشكل القرآن للعز بن عبد السلام : ١٧٤ ، تفسير الرازي : ٥٩ / ٢١
قال الرازي : هذه الآية فيها إجابة على شبهة الكفار في استبعادهم
أن يبعث الله إلى الخلق رسولا من البشر بل اعتقدوا أن الله تعالى
لو أرسل رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة ،
وحاصل الإجابة : بتقدير أن يبعث الله ملكا رسولا إلى الخلق إنما يؤمنون
بكونه رسولا من عند الله لاجل قيام المعجز الدال على صدقه وذلك المعجز
هو الذى يهديهم إلى معرفة ذلك الملك في ادعاء الرسالة عن الله تعالى
فالمراد من قوله : (إذ جاءهم الهدى) هو المعجز فقط فهذا المعجز
سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الاقرار برسالته ،
فثبت أن يكون قولهم بأن الرسول لابد أن يكون ملكا تحكما فاسدا وتعنتا
باطلا (٠) اهـ تفسير الرازي : ٥٩ / ٢١

وتحكم فاسد ، انما المانع الحقيقي هو الجحود والعناد والمكابرة والامرار على الباطل منه وضوح الحق وسطوع البراهين وقيام المعجز فالحسد وحب الرياسة والعلو في الارض والاحتفاظ بزخارف الدنيا انما هو السبب الوحيد للإعراض عن الحق والشرع والخضوع لطاعة الله ،

أما تعلمهم بطلب إتيان العذاب ، أو استحالة بعث رسول من البشر أو غير ذلك من الموانع التي أظهروها وتعللوا بها انما هو لمجرد الجدل والخصام بالباطل

فطلبهم إتيان عذاب الامم السالفة من الخسف وغيره هو كما قال الاولون من الكفار لأبيائهم :

(فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين)

- الشعراء / ١٨٢ -

وقولهم : (اثتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) - العنكبوت / ٢٩ -

بدل أن يقولوا : ادع الله أن يهدنا إن كنت من الصادقين

فدل ذلك على مجرد الغرور والعناد وإظهار الشبهات مع انهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنه الحق كما قال تعالى :

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) - النمل / ١٤ -

وكما قال : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

- الانعام / ٣٣ -

ولذلك فان ادعاءهم استحالة بعث رسول من البشر هو ايضا مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصدق كما قال عنهم

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث

الله بشراً رسولا) فهذا مجرد شبهة كبقية الشبهات وغرضهم من ذلك

المد عن سبيل الله عنادا وحسدا وعلوا في الارض

فذكر الله سبحانه شبهاتهم هذه في عدة مواطن من القرآن ، وكيف

أنهم يدعون في كل مرة مانعا ثم ينتقلون الى غيره مما يدل على

اضطرابهم وحيرتهم وتخطبهم في القاء الشبهات التي ليس لها أساس من الصحة

لذلك فان حصر المانع لهم من الايمان في موطن في سبب معين انما هو حصر

اضافي وليس حقيقي وهو بيان المانع حسب ادعائهم وليس كما هو حقيقة

الامر ، لأن المانع الحقيقي هو الجحود والكبر والعناد كما تقدم .

الوجه الثاني :

ما أجاب به الامام العز بن عبد السلام - رحمه الله - من أن الحصر الاول في المانع الحقيقي ، فان إرادة الله تعالى هي المانعة على الحقيقة والثاني في المانع العادي وهو استبعاد بعث رسول من البشر قال رحمه الله - (١) : (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى - ويستغفروا ربهم الا أن تأتيتهم سنة الاولين أو يأتيتهم العذاب قبلا)

هذه الآية تدل على حصر المانع من الايمان في أحد هذين السببين لكن هذا يشكل بقوله عز وجل : (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا رسولا) فهذا حصر ثالث في غيرهما وهو ينافي الحصر فيهما

والجواب : ان معنى الآية الاولى : وما منع الناس ان يؤمنوا إلا بإرادة أن تأتيتهم سنة الاولين من الخسف وغيره أو يأتيتهم العذاب قبلا في الآخرة ، والدليل على هذا الإضمار أن المانع لا بُدَّ أن يكون موجودا حالة منعه ، وسنة الاولين معدومة ، وكذلك عذاب الآخرة ، فلا بد من تقدير أمر موجود يمنع فأخبر عز وجل أنه اراد أن يصيبهم احد الامرين ، ولا شك أن إرادة الله عز وجل مانعة من وقوع ما ينافي المراد فهذا حصر في السبب الحقيقي ، لأن الله عز وجل هو المانع في الحقيقة ،

ومعنى الآية الثانية : وما منع الناس ان يؤمنوا إلا باستغراب بعث بشر رسول ، لأن قولهم ليس مانعا من الايمان لأنه لا يطح لذلك ، وهو يدل على استغراب بالالتزام وهو الذي يناسب المانعة ، واستغرابهم ليس مانعا حقيقيا بل عاديا ، لجواز خلق الايمان معه ، بخلاف إرادة الله عز وجل ، فهذا حصر في المانع العادي ، ولا تنافي بين قولنا : ما منعهم حقيقة إلا كذا ، وما منعهم عادة إلا كذا ، فزالت المناقاة . اهـ

قلت : وحاصل هذا الوجه : ما منعهم من الايمان الا أني قدرت عليهم العذاب ، وهذه الآية نزلت فيمن قتل ببدر من المشركين كما قال الواحدى (٢) ، وتقدير الله العذاب عليهم انما هو لظلالهم وخبثهم وسوء استعدادهم وعلم الله فسي بعضهم انهم لن يؤمنوا ، ولذلك فان ابا لهب نزلت في حقه سورة تبشره بالنار وهو مازال حيا ، ومع ذلك فانه لم يدع الاسلام ولو ظاهرا ومات على كفره تصديقا لكلام الله تعالى (٦)

(١) فوائد في مشكل القرآن : : ١٧٤ ، وانظر : البرهان للزركشي : ٢ / ٦٦
واقترع على هذا الوجه الشيخ محمد الامين الشنقيطي ، أضواء البيان : ١٨٧ / ١٠

(٢) زاد المسير : ج٥ / ١٥٨

فالذين قتلوا بيدر أو ماتوا على كفرهم إنما جاءهم العذاب الذي
استحقوه ، ولهذا فإن قوله : (وما منع الناس ...) المراد به
بعض الناس

الوجه الثالث : ما قاله العلامة ابو السعود^(١) : (... وحصر المانع
فيما ذكر - أي استغراب بعث رسول من البشر - مع أنَّ لهم موانع شتى
لما أنه معظمها ، أولئك هو المانع بحسب الحال ، أعني عند سماع الجواب
بقوله : (هل كنت الا بشر رسولا) إذ هو الذي يتشبهون به حينئذ
من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبه الواهية ، وفيه إيدان
بكمال عنادهم ، حيث يشير إلى أن الجواب المذكور مع كونه حاسماً
لمواد شبهتهم مُلجئاً إلى الايمان ، يعكسون الأمر ويجعلونه مانعاً
منه .) اهـ

قلت : وعلى هذه الواجهة المتقدمة يتبين أن الايتين لا إشكال فيهما
وليس بينهما تنافي ،
والله ولي التوفيق

(١) تفسير ابي السعود المسمى : ارشاد العقل السليم ... ج ٥ / ١٩٥

الفصل السادس :

موهم آيات المنافقين

من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه أوصاف المنافقين ———
ومكايدهم وبيّن منكراتهم ودسائسهم وأوضح خطرهم على المجتمع وماهم فيه ———
شبهات وشهوات ، واساليبهم في المكر والإرجاف كما أوضح مصيرهم المحتوم وانهم
من اشد الناس عذابا يوم القيامة كما قال تعالى : " ان المنافقين في الدرك
الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا " - النساء / ١٤٥ - .

ذلك أنهم يُظهرون الايمان والعمل الصالح ويُبطنون الكفر والعداء للاسلام
وأهله ويحيكون المؤامرات للايقاع بالاسلام وأهله فهم أشد خطرا من الكفار الظاهر
كفرهم ،

وقد وردت آيات في حق المنافقين قد يُتوهم من ظاهرها أنها متنافية
أو متخالفة والأمر ليس كذلك ،

فمن هذه الآيات :

١- قوله تعالى : " وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ———
مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يُردون إلى ———
عذاب عظيم " - التوبة ١٠١ - .

الخطاب في هذه الآية موجه للرسول صلى الله عليه وسلم ،
وقد نفى الله فيه أن يكون الرسول يعلم المنافقين الذين عتوا في نفاقهم ———
وأقاموا عليه وأمعنوا فيه ولم يتوبوا منه حيث قال : " لاتعلمهم ———
نحن نعلمهم " .

فهم قد بلغوا من المهارة في النفاق والتحامي عن مواقع التهم بحيث
يخفى على الرسول حالهم مع كمال فطنته وصدق فراسته (١) .

وهذه الآية قد يُتوهم منافاتها لآية أخرى قوله تعالى في حق المنافقين ———
" ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله
يعلم أعمالكم " - سورة محمد - ٣٠ - .

(١) تفسير البيضاوى / ٢٢٦ ، زاد المسير ٤٩٢/٣ ، روح المعاني ١٠/١١ ،
تفسير الرازي ١٧٣/١٦ ، تفسير الماوردي ١٦١/٢ .

ولحن القول : هو فحوى الكلام ومعناه ومقصده والوجه الخفي منه فمعرفته للمنافقين في لحن القول يخالف في الظاهر ما أثبتته تعالى من عدم علمه بهم وهو ما دلت عليه الآية الأولى ، وكان المنافقون يمتلحون على ألفاظ يخاطبون بها الرسول صلى الله عليه وسلم مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح وكانوا أيضا يتكلمون بما يشعرون بالاتباع وهم بخلاف ذلك كقولهم إذا دعاهم المؤمنون إلى نصرهم: إنا معكم وبالجملّة فقد كانوا يتكلمون بكلام ذي دسائس وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرفهم بذلك ويفهم الخفي من قولهم ولا يفهمه غيره (١) ، والجواب أن الآيات لاتنافي بينها حيث إنّ الآية الأولى والتي اثبتت عدم معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم ببعض المنافقين كانت في أول الأمر ، والآية الأخرى التي فيها معرفة الرسول للمنافقين في لحن القول إنما نزلت بعدها ،

قال زكريا الانصاري (٢) : " آية النفي نزلت قبل آية الاثبات فلا تنافى " . وقال الماوردي (٣) : قال الكلبي : فلم يتكلم بعد نزولها منافق عند النبي صلى الله عليه وسلم الا عرفه " اهـ . وقال ابن جرير (٤) عند تفسير قوله تعالى " فلتعرفنهم بسيماهم " يقول: فلتعرفنهم بعلامات النفاق الظاهرة في فحوى كلامهم وظاهر أفعالهم ، ثم ان الله تعالى ذكره عرفه إياهم " اهـ . وقال القرطبي (٥) قال أنس : (فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم - عرفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه) .

-
- (١) روح المعاني ٧٧/٢٦ ، زاد المسير ٤١١/٧ ، تفسير الرازي ٧٠/٢٨ .
 (٢) فتح الرحمن / ٢٤٠ ، وكذا قال الجمل في حاشيته على الجلالين نقلا عن الكرخي ج ٣١٣/٢ .
 (٣) تفسير الماوردي: ج ٥٣/٤ ، ونقله القرطبي عن الكلبي أيضا ج ٦٠٧٣/٧ .
 (٤) تفسير ابن جرير : ج ٣٩/٢٦ .
 (٥) القرطبي : ١٥٤/٨ .

وقال ايضا عند تفسير قوله تعالى : " عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين
للع الذين صدقوا وتعلم الكاذبين " اى يتبين لك من صدق ممن نافق . قال
ابن عباس : وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف
المنافقين وانما عرفهم بعد سورة التوبة " اهـ .

ولقد كان المنافقون يعتمدون على اتقانهم فن النفاق وعلى خفاء امرهم
فى الغالب على المسلمين . فالقران يسفه ظنهم ان هذا الامر سيظل
خافيا ويهددهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين . ويبشر
الرسول بانه سوف يعرفهم من لحن القول (١) ٤

وهنا توجه آخر : وهو أن الآية الاولى : (لاتعلمهم نحن نعلمهم) لاتدل
على نفي معرفة الرسول بالمنافقين لان المنفى هو عدم الرسول بهم من تلقاء
نفسه لكن الآية لم تنف ان الله يعلمه بهم وبحالهم ،
(٢)
فيكون تقدير الآية " لاتعلمهم انت حتى نعلمك بهم " قال ابن الجوزى :
وهذا كسائر الامور المغيبة والتي يُطلع عليها رسول الله - صلى الله -
عليه وسلم - كما قالتعالى : " عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدا الا من
ارتضى من رسول " . الجن / ٢٦-٢٧ .

فهو سبحانه وحده الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور
ويعلم السر وأخفى ويعلم ما توسوس به الصدور وهو تعالى يطلع رسول الله
على ما شاء من ذلك ،

وعلى هذا فان الايتين لاتنافي بينهما : لأن الاولى تنفى علم الرسول بالمنافقين
من تلقاء نفسه حيث إن الله هو الذى يعلمه بذلك كيف يشاء ،
والأخرى دلت أن الله سبحانه وتعالى يطلع نبيه على فحوى كلامهم ومقاصده
من خلال أسلوبهم فى الكلام وطريقة حديثهم ،
فهى بيان للكيفية التى يُطلع الله بها رسوله على معرفة المنافقين .

(١) انظر فى ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٨ .

(٢) زاد المسير ج ٣ / ٤٩٢ التوبة ١٠١ .

هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اطلع على كثير من المنافقين باعيانهم واسمائهم .
(١)
روى مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: " قال النبي صلى الله عليه وسلم (في اصحابي اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة حتي يلج الجمل في سم الخياط ...) الحديث .

وروى مسلم (٢) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : عدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا موعوكا قال فوضعت يدي عليه فقلت والله مارايت اليوم اشد حرا فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم الا خبركم باشد حرا منه يوم القيامة هذينك الرجلين الراكبين المقفيين لرجلين حينئذ من أصحابه " ،
واخرج الامام احمد في مسنده (٣) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة فحمد الله واثنى عليه ثم قال " ان منكم منافقين فمن سميت فليقم ثم قال قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمي ستة وثلاثين رجلا ثم قال ان فيكم او منكم منافقين فاتقوا الله " ٦

قال ابن كثير ج٢/٥٩٨ (التوبة/١٠١) (لا ينافي قوله تعالى: (لا تعلمهم نحن نعلمهم) . قوله تعالى (ولو نشاء لاريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفهم في لحن القول) (

لان هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعرفون بها لا انه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين . وقد كان يعلم ان في بعض من يخالطه من أهـل المدينة نفاقا وإن كان يراه صباحا ومساء .

-
- (١) في كتاب صفات المنافقين (شرح النووى ١٢١/١٧) .
 - (٢) في كتاب صفات المنافقين (شرح النووى ١٢٧/١٢٨-١٢٧) .
 - (٣) مسند احمد ج٥/٢٧٣ وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ٢٧٤/٤ الى ابن مردويه بنحوه .

وشاهد هذا بالصحة ما رواه الامام احمد (١) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله : إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر — بمكة فقال لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر شعلب ، وأصغى إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال : إن في أصحابي (٢) منافقين) ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لاصحة له ومن مثلهم — صدر هذا الكلام)

وروى الحاكم وابن عساكر ان رجلا يقال له حرملة اتى النبي صلى الله عليه عليه وسلم فقال: يا رسول الله : انه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم أفلا آتيك بهم قال : من أتانا استغفرنا له ومن أصر على دينه فالله أولى به ولا تخرقن على أحد سترا) اهـ .

٢ - قوله تعالى : (ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء او يتوب عليهم ان الله كان عفورا رحيفا) - / الاحزاب ٢٤ - .
هذه الآية فيها أن الله خلق عذاب المنافقين بالمشيئة أو انه تعالى يتوب عليهم ،

وكذلك قوله تعالى في حق المنافقين : " لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعت عن طائفة نعت طائفة بأنهم كانوا مجرمين " .
(التوبة / ٦٦)

فهذه الآية ايضا فيها أن الله يعفو عن بعض المنافقين الذين كفروا بعد إيمانهم الذي أظهروه أو ظهر كفرهم بعد ان كانوا في الظاهر مسلمين ،
وهاتان الايتان قد يتوهم مخالفتهما للآيات التي جاءت توضح ان المنافقين الذين يموتون على نفاقهم إنما هم في النار (٣) .
وهي قوله تعالى : " وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم .. " .
(التوبة / ٦٨) .

(١) مسند الامام احمد ج٤/٨٢ .
(٢) والصحة باعتبار الظاهر وادعائهم انهم اصحابه فتسميتهم اصحاب من باب

المشكلة

(٣) روح المعاني للالوسي ١٧٢/٢١-١٧٣ ، فتح الرحمن / ٤٥٩

وقوله تعالى : " ان الله جامع للمنافقين والكافرين في جهنم جميعا ... " (النساء / ١٤٠) •

ونرى أن هذه الآيات تدل على أن عذاب المنافق أشد من عذاب الكافر وذلك لغلظ كفره وكثرة غوائله وتمكنه من أذى المؤمنين حيث لا يمكن التحرز منه وقد قدم المنافقون في الذكر في كثير من المواضع لهذه الأسباب وللتنبية على خطرهم وسوء عاقبتهم •

والجواب أن الآيات لا تنافي بينهما ، فالمنافقون الذين يموتون على كفرهم ونفاقهم مصيرهم المحتوم هو النار بل الدرك الأسفل منها لأن الله تعالى قد حكم بأنه لا يغفر لكافر أو مشرك لعظم جنايته قال تعالى : (ان الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " (النساء / ٤٨) •

وقوله تعالى : (ويعذب المنافقين ان شاء او يتوب عليهم) معناه أنهم في الدنيا تحت المشيئة فمن مات على كفره ونفاقه فقد شاء الله ان يعذبه ، ومن تاب ورجع عن كفره ونفاقه فهو الذي يتوب الله عليه ولا يشاء تعذيبه ،

وكذلك قوله تعالى : " إن نعت عن طائفة منكم نعت طائفة .. " أي ان نعت عن طائفة منكم : وهم الذين تابوا وأخلصوا .. نعت طائفة وهم الذين أصروا على كفرهم وداموا على نفاقهم وماتوا على ذلك •

فالعفو عن المنافق والتوبة عليه كما هو ظاهر هو توفيقه للتوبة وتصحيح الايمان وإخلاص العمل ، وعندها يدخل في معية المؤمنين كما قال الله تعالى " فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والاخرة ومالهم في الارض من ولي ولا نصير " (التوبة / ٧٤) •

وكما قال تعالى : (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله

فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين اجرا عظيما (النساء/١٤٥) .

قال الألوسي (١) : " المتحقق انه تبارك وتعالى شاء تعذيب المنافقين ولم يشأ رحمتهم فكانه قيل: ان شاء يعذب المنافقين في الآخرة لكنه سبحانه شاء تعذيبهم فيها او يتوب عليهم ان شاء لكنه جل وعلا لم يشأ . وقال بعض الاجلة : ان التوبة عليهم مشروطة بتوبتهم ومعنى توبته تعالى على العباد قبول توبتهم فكانه قيل :

" أو يقبل توبتهم إن تابوا وحذف الشرط لظهور استلزامه المذكور له ويجوز ان تفسر توبته تعالى عليهم بتوفيقه تعالى اياهم للتوبة اليه سبحانه ، والمراد من تعليق تعذيب المنافقين بالمشيئة انه تعالى ان شاء عذبهم بابقائهم منافقين وان شاء سبحانه لم يعذبهم بان يسلب عنهم وصف النفاق بالتوفيق الى الاخلاص في الايمان " اهـ .

قال الرازي : (٢) وقال القاضي : انه تعالى حكم على الطائفتين بالكفر وهو تعالى لا يعفو عن الكافر الا بعد التوبة ، والرجوع الى الاسلام ولا يعذب الكافر الا بعد إصراره على الكفر فلما ذكر الله تعالى انه يعفو عن طائفة ويعذب طائفة أخرى كان فيه إضمار أن الطائفة التي اخبر انه يعفو عنهم تابوا عن الكفر ورجعوا الى الاسلام وان الطائفة التي اخبر انه يعذبهم اصرأ على الكفر ولم يرجعوا الى الاسلام " اهـ .

اخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم (٣) عن كعب بن مالك من خبر فيه طول :

(١) روح المعاني ج١١/٢١٢ .

(٢) تفسر الرازي ١٦/١٢٢ .

(٣) الدر المنثور / تفسير ابن كثير ٢/٥٧٢ ، التوبة / ٦٦ .

وانظر: القرطبي ٥/٤٢٤/١٤/١٥٩

روح المعاني ٥/١٧٨ ج٤/١٣١ ، فتح الرحمن / ٤٥٩ ،

تفسير الرازي ٢٨/٨٣ .

كان الذى عُفي عنه فى هذه الآية فُخشي بن حمير الاشجعى فتسمى عبدالرحمن
وسأل الله تعالى أن يُقتل شهيدا لا يُعلم مقتله فقتل يوم اليمامة فلم يُعلم
مقتله ولا قاتله ولم يُر له عين ولا أثر .

٣ - قوله تعالى فى حق المنافقين :

(ضم بكم عمي فهم لا يرجعون) (البقرة / ١٨) .

هذه الآية يدل ظاهرها على أن المنافقين لا يسمعون ولا يتكلمون
ولا يبصرون ،

وجاءت آيات أخرى فى حقهم توضح أن لهم سمعا وأبصارا وكلاما فصيحاً
يستهلون السامع ، وهو قوله تعالى : (وإن يقولوا تسمع لقولهم)
(المنافقون / ٤) .

وقوله تعالى : (فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير
أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) (الاحزاب / ١٩) .
وقوله تعالى (ولو شاء الله لذهب سمعهم وأبصارهم) (البقرة / ٢٠) .
فدلتهذه الايات أن لهم سمعا وأبصارا وألسنة .

والجواب : ان وجه الجمع بين هذه الايات ظاهر ، وهو ان الله سبحانه
أطلق على المنافقين هذه الصفات لأنهم فى الحقيقة صم عن سماع الحق بكم عن التكلم
به وعمي عن الإبصار له قال الله تعالى : " إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى
القلوب التى فى الصدور " .

وقال : (انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) .
فهؤلاء الكفار والمنافقين حالهم فى عدم انتفاعهم بما يسمعون من آيات وبراهين
كحال الموتى الذين لا ينتفعون بما يسمعون لان مقصد السمع هو الانتفاع
بالمسموع وهم قد عُدوا ذلك ، قال تعالى (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة .
فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذا كانوا يجحدون بآيات
الله وحق بهم ما كانوا به يستهزئون " (الاحقاف / ٢٨) .

فالمنافقون وغيرهم من الكفار وإن كانوا مرهفي السمع أهدأ البصر حداد الألسنة إلا أنهم في الحقيقة صم بكم عمي حيث إنهم لم ينتفعوا بها ولم يستعملوها فيما خلقت له من استماع الحق وتدبره والتكلم به ولم يتلمسوا أدلة الهدى المنصوبة في الافاق والانفس ، قال الآلوسی : (١) وقد وصفهم الله سبحانه بقوفه (لا يشعرون) و (لا يبصرون) فعلم من ذلك أنهم صم وعمي ووصفهم بأنهم كاذبون لا ينطقون فعلم من ذلك أنهم كالكم () .

وليس الغرض نفي الإدراكات عن حواسهم جملة وإنما الغرض نفيها من جهة عدم الانتفاع بها فلذلك هم بمنزلة الأعمى والاصم والابكم وقد أشار إلى جزائهم الذي هو من جنس عملهم والذي يلحقونه في الآخرة كما قال تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) . فقد رتهم في الدنيا على بهرجة الكلام وزخرفته والخداع به لن تنفعهم يوم القيامة (٢) .

فالمنافقون لهم أجسام ومناظر تعجب الناظرين لحسنها وجمالها وهذا عبد الله بن أبي رأس المنافقين كان جسيما صبيحا فصيحاً وإذا قال سمع النبي صلى الله عليه وسلم قوله " وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون " (المنافقون / ٤) .

قال ابن الجوزي (٣) " والعرب تسمى المعرض عن الشيء : أعمى والمختلفة عن سماعه أعم " قال مسكين الدارمي :

-
- (١) روح المعاني ١٦٨/١
(٢) انظر القرطبي ٢١١/١ ، الرازي ٧٦/٢ ، ١٤/٣٠ .
روح المعاني ١٦٨/١
أضواء البيان للشنقيطي ١٢/١٠ ،
(٣) زاد المسير ٤١/١

ماضٍ جارا لى أُجاروه	ألا يكون لبابه ستر
أعمى اذا ما جارتى خرجت	حتى يوارى جارتى الخدر
وتصم عما بينهم أذني	حتى يكون كأنه وقـر

ومن الشواهد ايضا على ذلك قول الشاعر :

صم اذا سمعوا خيرا ذكرتُ به وإنْ ذُكرتُ بسوء عندهم أذنوا (١)

وقول الآخر :

أصم عن الأمر الذى لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد (٢)

...

/

(١) الشاعر قعنب بن أمّ صاحب (اضواء البيان ١٠/١٢) .

(٢) نفس المصدر السابق .

فصل

موهم الاختلاف في آيات الأحكام

والمراد بآيات الأحكام : هي الآيات التي تتضمن أحكاماً شرعية من حلال أو حرمة أو وجوب أو ندب أو كراهة أو صحة أو فساد في الأمور العملية كاحكام العبادات والنكاح والمعاملات والأطعمة ونحو ذلك .

وقد جاء في بعض هذه الآيات ما قد يتوهم أنه من الاختلاف وحقيقة الأمر أن مرد ذلك هو وجود نسخ أو تخصيص أو تقييد أو تغاير في موضوع الحكم ونحو ذلك من أسباب إيهام الاختلاف والتي تقدمت في الباب الأول من هذا البحث .

١- قوله تعالى : " اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم " (المائدة / ٥) .

والمراد بطعام أهل الكتاب / ذبائحهم وعليه أكثر المفسرين^(١) والعلماء لأن الذبائح هي التي تصير طعاماً بفعل الذابح وما سوى الذبائح محللة قبل أن تكون لأهل الكتاب وبعد أن صارت لهم فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة كما أن ما قبل هذه الآية في بيان الصيد والذبائح فحمل هذه الآية على الذبائح أولى^(٢) .

فهذه الآية الكريمة تدل بعمومها على إباحة ما ذبحه أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولو أهلوا بها لغير الله أو لم يذكروا اسم الله عليها

(١) تفسير الطبري ج ٩/ ٥٦٣ ، ٥٧٧ ، تحقيق محمود شaker ، تفسير ابن كثير

٣١/٣ ، المائدة : ٥ ، أحكام القرآن لابن العربي ٥٥٣/٢ ، روح المعاني

٦٤/٦ ، القرطبي ٧٩/٦ ، الرازي ١٤٩/١١ ، زاد المسير ٢٩٥/٢ ، المغني

لابن قدامة ٦٥٧/٨ ، الام للشافعي ج ٢/ ٢٣١ .

(٢) تفسير الرازي ١٤٩/١١ ، زاد المسير ٢٩٥/٢

وقد جاءت آيات أخرى تدل على منع أكل الذبيحة التي أهلَّ بها لغير الله
أي ذكر اسم غير الله عند ذبحها (١) .

وهي قوله تعالى في سياق ذكر المحرمات : " وما أهل لغير الله به "
(المائدة / ٣) .

وفي البقرة : " وما أهل به لغير الله " (١٧٣) .
وأما الآية التي تدل على منع أكل ما لم يذكر اسم الله عليه فهي قوله تعالى :
" ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وأنه لفسق " . الانعام / ١٢١ .

والجواب :

أن عموم قوله تعالى : " وطعام الذين أوتوا الكتاب لکم " مخصوص
بالأية الآخرة وهي قوله تعالى : " وما أهل لغير الله به ... "
فذبائح أهل الكتاب مباحة لنا لأن الأصل أنهم يذكرون الله فيحتمل
أمرهم على هذا فإن تيقنا أنهم ذكروا غير الله عند الذبح فلناكل لقول
تعالى : " وما أهل لغير الله به " .

فإذا كان المسلم أهلَّ لغير الله بذبيحته بأن ذبحها لوثن أو شخص
أو قبر لا تؤكل ذبيحته فذبحة الكتابي من باب أولى إذا كان ذبحها لوثن
أو صليب أو نحو ذلك (٢) .
وكذلك الميتة فقد حرمها الله على المسلمين بقوله : " حرمت عليكم
الميتة ... "

فهي تشمل ميتة المسلم وميتة الكتابي .

(١) كان يقول " باسم المسيح أو الصليب " ولذبح للآوثان أو القبيح —
يدخل في عموم الإهلال لغير الله وهو معنى قوله تعالى " وما ذبح علي

النصب " المائدة / ٣ .

(٢) انظر : القرطبي ٧٩/٦ ، روح المعاني ٦٥/٦ ، زاد المسير ٢٩٦/٢ ، المغني
لابن قدامة ٥٦٩/٨ ، الام للشافعي ٢٣١/٢ ، المجموع للنووي مع التكملة
ج ٨ : ٣٠٩ ، بداية المجتهد لابن رشد ج ١ : ٤٥١ .

وهو قول علي وعائشة وابن عمر وعبادة وأبي الدرداء والحسن وطاوس وربيعه
وهو مذهب الجمهور منهم الشافعي وأحمد ورواية عن مالك .

فاذا كانت ذبيحة الكتابي ميتة ولم يذكرها فهي حرام علينا بنــــــــــــــــص

الكتاب .

(١)

قال ابن العربي

فان قيل فما أكلوه على غير وجه الزكاة كالخق وحطم الراس فالجواب
ان هذه ميتة وهي حرام بالنص وان أكلوها فلا نأكلها نحن كالخنزير فانــــــــــــــــه
حلال لهم ومن طعامهم وهو حرام علينا .

وقال الشنقيطي^(٢) (فكما ان نساءهم يجوز نكاحهن ولا تجوز مجامعتهمـــــــــــــــــ
في الحيض فكذا طعامهم يجوز لنا من غير إباحة الميتة) .

فلما قال الله : "وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم " .

دل ان عموم هذه الآية مخصوص بغير الميتة وكذلك مخصوص بغير ما اهلوا

به لغير الله كما تقدم .

قال الامام الشافعي رحمه الله (٣) : " فان كانت ذبائحهم يسمونهاـــــــــــــــــ

لله تعالى فهي حلال وان كان لهم ذبح آخر يسمون عليه غير اسم الله تعالى
مثل اسم المسيح او يذبحونه باسم دون الله تعالى لم يحل هذا من ذبائحهمـــــــــــــــــ
ولا اثبت ان ذبائحهم هكذا ، فان قال قائل وكيف زعمت ان ذبائحهم صنفان
وقد أبيحت مطلقة ؟ قيل قد يباح الشيء مطلقا وانما يراد بعضه دون بعض
فاذا زعم زاعم ان المسلم إن نسي اسم الله تعالى أكلت ذبيحته وإن تركــــــــــــــــه
استخفافا لم تؤكل ذبيحته وهو لا يدعه للشرك كان من يدعه على الشرك أو لــــــــــــــــى
ان تترك ذبيحته . . . " اهـ .

ومما يدل على تقديم الايات التي فيها حظر اكل ما أهل به لغير الله

او ما كان ميتة على عموم قوله تعالى : " وطعام الذين اوتوا الكتاب حل
لكم " .

(١) احكام القرآن : ج٢ / ٥٥٥

(٢) اضواء البيان : ١٠ / ١٠١

(٣) الام : ج٢ / ٢٣١

ما ثبت في اصول الفقه من تقديم الحاضر على المبيح عند وجود التعارض
الظاهري (١) ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " دغ ما يريبك الـي
مالا يريبك " (٢) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه —
وعرضه " (٣) ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام (٤) .

ومنها ان درء المفساد مقدم على جلب المصالح كما تقرر في الاصول
وينبني على ذلك ان النهي اذا تعارض مع الاباحة كما هنا فالنهي اولي
بالتقديم والاعتبار لان ترك مباح اهن من ارتكاب حرام (٥) .

وذهب قوم الى ان قوله : " وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم " —
ناسخ للآيات التي فيها تحريم ما اهل لغير الله او لم يذكر اسم الله عليها .
لان الله تعالى قد اهل ذبائهم وهو يعلم ما يقولون (٥) .

قلت وليس هناك دليل على النسخ والجمع بين الآيات ممكن بالقول
بالتخصيص كما تقدم وللادلة التي ذكرتها والتي ترجح تقديم آيات الحظر .

(١) انظر : ص ١٤٣

(٢) سبق تخريجه ص : ١٤٣

(٣) البخاري كتاب الايمان باب فضل من استبرأ لدينه ج ١٩/١٠ .
واخرجه مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه في كتاب
المساقاة والمزارعة باب اخذ الحلال وترك الشبهات (شرح النووي
ج ٢٧/١١) واللفظ لمسلم .

(٤) أضواء البيان للشنقيطي ج ٩٤/١٠ .

(٥) تفسير ابن كثير : ٢/ ٣٠ ، زاد المير : ٢/ ٢٩٦
الدر المنثور : ج ٣/ ٣٥١ ، روح المعاني : ج ٦/ ٧٩
والقول بالنسخ مروى عن مكحول رحمه الله

قال ابن الجوزي (١) : " وقد زعم قوم ان هذه الآية اقتضت إباحت ذبائح
اهل الكتاب مطلقا وان ذكروا غير اسم الله عليها فكان هذا ناسخا لقوله تعالى :
" ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " (٢) والصحيح انها أُطلقت إباحت ذبائحهم
لان الاصل أنهم يذكرون الله فيحمل أمرهم على هذا فان تيقنا أنهم زكروا غيره
فلا تأكل ولا وجه للنسخ وإلى هذا الذي قلته ذهب علي وابن عمر وعبادة وابو الدرداء
والحسن في جماعة " اهـ .

وقال ابن كثير (٣) بعد أن ذكر قول مكحول بالنسخ .
وفى هذا الذي قاله مكحول نظر : فانه لا يلزم من اباحتهم طعام أهل الكتاب
إباحتهم كل ما لم يذكر اسم الله عليه ، لانهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم
وقرأ بينهم وهم متعبدون بذلك ولهذا لم يباح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن
شابههم لانهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم بل ولا يتوقفون فيما يأكلون من
اللحم على ذكاة بل يأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابيين . . . " اهـ .
واما قوله تعالى : " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق " .
فلها وجهان من التفسير :

الوجه الاول : ان المراد بما لم يذكر اسم الله عليه : الميتة او ما ذبح
لغير الله كقوله تعالى " او فسقا اهل لغير الله به " وهو مروى عن ابن عباس
وقتادة وعطاء وهو قول الشافعي (٤) ، قال ابن كثير (٥) وقال ابن جريج —
عطاء " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " قال ينهى عن ذبائح كانت تذبحها
قريش للأوثان وينهى عن ذبائح المجوس " .

-
- (١) زاد المسير ٢/٢٩٦ .
(٢) على اعتبار ان المراد بالآية هو ما اهل به لغير الله وهو مذهب الشافعي
وقواه ابن كثير في تفسيره . انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ ، الانعام ٢١/٢ ،
المجموع للنووي ٨/٣١٣ ، وسوف يأتي مزيد شرح للآية قريبا .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٠ ، المائدة / ٥
(٤) انظر : الام للشافعي ٢/٢٢٧ ، المجموع للنووي ٨/٣١٣ .
(٥) ابن كثير ٢/٢٧١ ، الانعام ١٢١/٣ ، الدر المنثور ٣/٣٤٩ ، ابن جرير ٢/٨٣ ،
محمود شاكر .

ثم قال : وهذا المسلك الذى طرقه الامام الشافعى قوى " اهـ .

قلت : وهذا مارجحه ابن جرير حيث قال: (١) " والصواب من القول فى ذلك أن يقال ان الله عنى بذلك ماذبح للانعام والالهة وما مات او ذبحه من لاتحــــل ذبيحته " .

وعلى هذا التفسير للاية يكون الكلام عليها مثلما تقدم فى المبحث الأول لأن المعنى واحد .

وعلى هذا الوجه فان التسمية عند الذبح ليست شرطا بل هي مستحبة فان تركت عمدا أو نسيانا لا يضر سواء من مسلم أو كتابى .

الوجه الثانى فى تفسير الاية : انها على ظاهرها : اى النهى عن أكــــل الذبيحة التى لم يذكر عليها اسم الله .

وهنا يأتى توهم التعارض مع قوله تعالى : " وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم " اذا لم يذكر الكتابى اسم الله عند ذبحه ، فعموم قوله تعالى : " وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم " ظاهره يُبيح ذلك وعموم قوله تعالى : " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " ينهى عن ذلك (٢) .

وهنا رجح جمهور العلماء عموم قوله تعالى : " وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم " .

قال النووى فى المجموع : (٣) ذبيحة أهل الكتاب حلال سواء ذكروا اسم الله تعالى عليها ام لا لظاهر القرآن العزيز هذا مذهبنا ومذهب الجمهور ، وحكاه ابن المنذر عن علي والنخعي وحماد بن سليمان وابى حنيفة واحمد واسحق وغيرهم ، فإن ذبحوا على صنم أو غيره لم يحل " اهـ .

(١) ابن جرير ٨٥/١٢ ، محمود شاكر .

(٢) أضواء البيان ، ج ٩٨/١٠ .

(٣) المجموع للنووى ج ٦٨/٩ وانظر المغنى لابن قدامة ج ٥٦٥/٨ .

وعلى هذا فإن الجمهور اعتبروا أنَّ عموم آية إباحة طعام أهل الكتاب مُخصَّص للنهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه فقالوا : ان ذبيحة الكتابي المذكاة والتي لم تهل لغير الله حلال سواء ذكر اسم الله عليها أم لا .
قال الشيخ الشنقيط رحمه الله : (١)

" اما آية التحليل فيرجح عمومها بأمرين :

الاول : انها اقل تخصيصا وآية التحريم اكثر تخصيصا لان الشافعي ومن وافقه خصصوها بما ذبح لغير الله ، وخصصها الجمهور بما تركت فيه التسمية عمدا . قائلين ان تركها نسيانا لا أثر له ، وآية التحليل^{ليس} فيها من التخصيص غير صورة النزاع الا تخصيص واحد وهو ما قدمنا من انها مخصصة بما لم يذكر عليه اسم غير الله على القول الصحيح .

وقد تقرر في الاصول ان الاقل تخصيصا مقدم على الاكثر تخصيصا كما ان ما لم يدخله التخصيص اصلا مقدم على ما دخله وعلى هذا جمهور^{ور} الاصوليين " اهـ .

وهو قول الجمهور مالك و احمد وابو حنيفة واسحق بن راهويه والحسن البصري وابن مالك وابن ابي ليلى وربيع بن ابي عبد الرحمن وهو محكي عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاووس وصوبه ابن جرير رحمه الله .
قال ابن كثير (٢) تعليقا على قول ابن جرير انه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه : { وهذا الذي قاله صحيح ٦

ومن أطلق من السلف النسخ هاهنا فانما أراد التخصيص [اهـ .
قلت : وهو الذي يظهر لأن قوله تعالى : " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " تعم ذبيحة المسلم والكتابي فلا يتصور نسخها في حق الكتابي من دون المسلم الا ان يكون تخصيصا كما تقدم (٣) .

(١) أضواء البيان ج ١٠ / ٩٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ / ٢٧٣ الانعام ١٢١ / وانظر ابن جرير ٨٨ / ١٢ محمود

شاكراً .

(٣) وان كان الاحناف يسمون التخصيص نسخا .

والحاصل أنه على الراى الراجح من عدم جواز اكل متروك التسمية
عمدا (١) فان ذبيحة الكتابى مخصوصة بالجواز ولو تركها عمدا لعموم
قول الله تعالى : " و طعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم " وانها مخصصة
لعموم النهى فى قوله تعالى : " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه "

...

-
- (١) هناك فريق من العلماء قالوا لاتحل الذبيحة التى لم يسم الله عليها
وان كان الذابح مسلما سواء سهوا او عمدا وهو مروي عن ابن عمر
ونافع وعامر الشعبى ومحمد بن سيرين وهو رواية عن الامام مالك
ورواية عن احمد بن حنبل نصرها طائفة من اصحابه المتقدمين
والمتأخرين وهو اختيار ابى ثور وداود الظاهري .
انظر تفسير ابن كثير ج ٢ / ٢٧٠ ، الانعام / ١٢١
المغنى لابن قدامة ٥٦٥ / ٨
بداية المجتهد ج ١ / ٤٨٨ .
أحكا القران لابن العربى ج ٢ / ٧٤٩ - ٧٥٠
تفسير ابن جرير ج ١٢ / ٨٥ ، محمود شاكر .

٢ - قوله تعالى : " ولاتَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَ وَلَئِمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ " البقرة / ٢٢١ •

هذه الآية تفيد النهي عن تزوج المشركات وظهارها العموم في جميع

المشركات سواء كن وثنيات أو مجوسيات أو كتابيات •

ويدل لذلك قوله تعالى : " ولاتُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ " الممتحنة / ١٠ •

وقد جاءت آية أخرى تدل على إباحة نكاح بعض الكافرات وهنَّ

العفائف (١) من اهل الكتاب •

وهي قوله تعالى في سياق ما أحله لنا : " والمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ

والمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ۚ " المائدة / ٥ •

والجواب من وجهين :

الوجه الاول : ان آية " والمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ "

مُخَصَّصة لقوله تعالى : " ولاتَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَ " •

وقوله : " ولاتُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ " لان آية " والمُحْصَنَاتُ

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ " من سورة المائدة وهي من آخر ما نزل بخلاف الايات

الآخري فان اية البقرة من أول ما نزل بالمدينة •

وآية الممتحنة نزلت عام الحديبية (٢) كما ان اية المائدة اخذ مطلقا

فلذلك فانه يجوز نكاح الكتابيات العفائف لان النص خصهن بذلك ممن دون

سائر المشركات وهذا قول عامة العلماء (٣) •

(١) تفسير المحصنات بالعفائف : هو الظاهر من الآية كما قال ابن كثير •
ويدل عليه قوله تعالى في الآية الأخرى : " محصنات غير مسافحات ولا متخذى

أخذان " (النساء / ٢٥) •

وقيل المحصنات : الحرائر دون الاماء • انظر تفسير ابن كثير ٣٢/٢ ،
المائدة / ٥ • وهو قول الامام مالك (الموطأ ج ٢ / ٥٤٠ تحقيق عبد الباقي) •

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ / ٥٤٨ الممتحنة / ١١

قال الرازي (٥٤/٦) وسورة المائدة ثابتة لم ينسخ منها شيء قط وهي
متأخرة بالاجماع •

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٩١/١٤ ، ٢١٣/٣٥ ، تفسير ابن كثير ٣٢/٢ ،

المائدة / ٥ ، تفسير القرطبي ٦٧/٣ ، ابن جرير ٥٨١/٩ ، ٣٦٢/٤ محمود

شاکر ، روح المعاني ٦٦/٦ ، الرازي ٥٤/٥ ، ١٥١/١١ ، زاد المسير

٢٩٦/٢ ، احكام القرآن لابن العربي ٥٥٧/٢ ، ج ١٥٧/١ ، الدر المنثور

ونقل ابن كثير (١) عن ابن ابي حاتم بسنده عن ابن عباس قال :
نزلت هذه الآية : " ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن " قال فحجز الناس
عنهن حتى نزلت الآية التي بعدها " ولمحصات من الذين أوتوا الكتاب ممن
قبلكم فنكح الناس نساء أهل الكتاب " .

قال ابن تيمية (٢) : " إذا قُدِّرَ أَنَّ لفظ المشركات و " الكوافر "
يعم الكتابيات فآية المائدة خاصة ، وهى متأخرة نزلت بعد سورة البقرة
والممتحنة باتفاق العلماء كما فى الحديث : " المائدة من آخر القرآن
نزلوا فاحلوا حلالها وحرموا حرامها * " والخاص المتأخر يقضى على العام
المتقدم باتفاق علماء المسلمين ، لكن الجمهور يقولون : انه مفسر له فتبين
ان صورة التخصيص لم تُرد باللفظ العام ، وطائفة يقولون إن ذلك نسخ
بعد أن شرع (٣) .

قال ابن كثير : وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا
بذلك بأسا أخذوا بهذه الآية الكريمة " والمحصات من الذين أوتوا
الكتاب من قبلكم " فجعلوا هذه مخصصة للتي فى سورة البقرة " ولاتنكحوا
المشركات حتى يؤمن " ان قيل بدخول الكتابيات فى عمومها " (٤) . . " اهـ .
قال السيوطى فى الاتقان (٥) : " ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن " قيل
إنه نسخ بقوله تعالى : " والمحصات من الذين أوتوا الكتاب . . . " وانما
هو مخصوص به (٦) .

-
- (١) ج٢/٣٢ المائدة/٥ وعزاه السيوطى للطبرانى ايضا ، الدر المنثور ١/٦١٤ .
 - (٢) مجموع الفتاوى ٣٥/٢١٥ .
 - (٣) قلت : والذى يقول ان الخاص بعد العام نسخ هم الحنفية كما تقدم .
وانظر روح المعانى للالوسى ج٢/١١٨ .
 - (٤) قلت : . . . يشير الى الوجه الاخر فى تفسير الآية وسوف يأتى قريبا .
 - (٥) الاتقان فى علوم القرآن ج٢/٢٢ .

(*) اخرجہ الحاکم فی المستدرک ، کتاب التفسیر ، سورة المائدة
ج٢ / ٣١١ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي
والحديث موقوف على ابن عمر وعائشة - رضي الله عنهم -

الوجه الثانى :

ان قوله تعالى : " ولاتنكحوا المشركات "

المقصود به اهل الاوثان والمجوس وغيرهم من المشركين ولا يدخل فيه
اهل الكتاب لانه اذا اطلق لفظ المشركين والمشركات فى القرآن لا يدخل
فيه اهل الكتاب فعلى هذا يجوز نكاح الكتابيات لعدم دخولهن فى مطلق
اللفظ . لان اللفظ عام اريد به الخصوص . فلا يدخل فيه نساء اهل الكتاب .

ورجع ذلك ابن جرير (١) واخرج (٢) عن قتادة : ان المراد بالشركات
مشركات العرب اللاتي ليس لهن كتاب يقرانه " وعن سعيد بن جبير قال :
مشركات اهل الاوثان .

وعن حماد (٣) قال : سألت ابراهيم - النخعى - عن تزوج النصرانية
واليهودية فقال لا بأس به فقلت أليس قد قال الله تعالى : " ولاتنكحوا
المشركات " فقال : انما ذلك المجوسيات وأهل الاوثان .

قلت : وسبب عدم دخول الكتابيات فى قوله : " ولاتنكحوا المشركات "
على هذا الوجه هو أن أهل الكتاب لا يدخلون فى الشرك المطلق فى القرآن ،
وانما يدخلون فى الشرك المقيد ، قال تعالى : " لم يكن الذين كفروا من
اهل الكتاب والمشركين الاية ١٠٠ " فجعل المشركين قسما غير اهل الكتاب .
وقال تعالى : " ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والمجوس
والذين اشركوا " فجعلهم قسما غيرهم .

فأما دخولهم فى الشرك المقيد ففى قوله تعالى : " اتخذوا آحبارهم
ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما امروا الا ليعبدوا

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ / ٣٦٤ ، الدر المنثور ١ / ٦١٥ .

(٢) ابن جرير ٤ / ٣٦٣ محمود شاكر .

(٣) الدر المنثور ١ / ٦١٥ .

روح المعانى ٢ / ١١٧ .

الهوا واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون " فوصفهم بانهم مشركون وشركهم هذا باعتبار ما بدلوا وابتدعوا لا باعتبار اصل دينهم فلا يدخلون فى مطلق لفظ المشركين .^(١) قال ابن العربي :
ان حملنا اللفظ على الحقيقة فهو عام خصته سورة النساء ولم تنسخه ، وان حملناه على العرف فالعرف انما ينطلق فيه لفظ المشركين على من ليس له كتاب من المجوس والوثنيين من العرب وقد قال الله تعالى " ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزل عليكم من خير من ربكم " وقال " لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين " فلفظ الكفر يعمهم ويخصهم ذلك التقسيم .^(٢)

قال ابن تيمية ^(٣) رحمه الله : (وسبب هذا اى عدم دخول اهل الكتاب فى مطلق لفظ الشرك - ان اصل دينهم الذى انزل الله به الكتب وارسل به الرسل ليس فيه شرك كما قال تعالى : " وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون " .

وقال تعالى : " واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا ممن دون الرحمن الهة يعبدون ، ، ، ولكنهم بدلوا وغيروا فابتدعوا ممن الشرك ما لم ينزل به الله سلطانا فصار فيهم شرك باعتبار ما ابتدعوا لا باعتبار أصل الدين)

وقال فى موضع آخر ^(٣) : وحين ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة التى جاءت بالتوحيد فاذا قيل اهل الكتاب لم يكونوا من هذه الجهة مشركين ، فان الكتاب الذى أضيفوا اليه لا شرك فيه كما اذا قيل

(١) احكام القرآن : ج١ / ١٥٢

(٢) الفتاوى ج٣ / ٢١٣ - ٢١٤ ، وانظر : القرطبي : ج٣ / ٦٧ ، روح المعاني : ١١٢ / ٣

(٣) نفس المصدر ج١٤ / ٩١

المسلمون واية محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فيهم من هذه الجهة
لا اتحاد ولا رفض ولا تكذيب بالقدر ولا غير ذلك من البدع وان كان بعض
الداخلين في الامة قد ابتدع هذه البدع لكن امة محمد صلى الله عليه وسلم
لا تجتمع على ضلال فلا يزال فيها من هو متبع لشريعة التوحيد بخلاف اهل
الكتاب ، ولم يخبر الله عز وجل عن اهل الكتاب انهم مشركون بالاسم
بل قال " عما يشركون " بالفعل .

وآية البقرة قال فيها " المشركين والمشركات بالاسم " والاسم اوكد
من الفعل (٠) اهـ

قلت : وقوله تعالى : " ولا تمسكوا بعصم الكوافر "
فان المراد به الكوافر اللاتي كن في عصم المسلمين وهن الكافرات
الوثنيات من اهل مكة ونحوها كما يشير اليه سبب النزول (١)
فلا يدخل فيها الكتابيات وعلى فرض عمومه فانه مخصوص بآية المائدة
كما تقدم في الوجه الأول.

واتماما للفائدة في حكم تزوج الكتابيات فان ابرعاس رضي الله
عنه قد استثنى الحربيات منهن اي الكتابيات اللواتي لسن من اهل الذمة
فقال انه يحرم التزوج بهن لقوله تعالى :
" لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله
... المجادلة / ٢٢ . والنكاح يوجب الود .

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٤/٥٤٨ - ٥٤٩ - الممتحنة / ١٠ - الدر المنثور
١٣٢/٨ حيث اخرج البخاري في صحيحه كتاب التفسير - سورة الممتحنة
ج٦/٦١ عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية - جاء نسائه
مؤمنات فأنزل الله : " يا أيها الذين امنوا اذا جاءكم المؤمنات
مهجرات " حتى بلغ " ولا تمسكوا بعصم الكوافر " فطلق عمر يومئذ
امراتين كانتا له في الشرك .

* () ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم
ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن (من ٠٠٠٠) - البقرة / ٢٢١ -

ولقوله تعالى : "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" -
فمن أعطى الجزية حل ومن لم يعط لم يحل . (١)

قلت: والذي يظهر لى وجاهة قول ابن عباس لما استدل به من آيات فالذى يظهر انه لا يجوز نكاح الحربية من اهل الكتاب مادام قومها فى حالة حرب مع المسلمين حتى لا تحصل المودة المنهى عنها فى نص الكتاب . كما ان مثل هذا الزواج قد يكون منفذا لاهل الحرب للتجسس على المسلمين ومعرفة اسرارهم ونحو ذلك . والله أعلم .

وأخرج البخارى^(٢) عن نافع مولى ابن عمر ان ابن عمر رضى الله عنهما كان اذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية او اليهودية قال ان الله حرم المشركات على المؤمنين ولا اعلم من الاشراك شيئا اكثر من ان تقول المرأة ربها عيسى وهو عبد من عباد الله .

قلت: ومعلوم حسب ما تقدم ان قول عامة العلماء على خلاف قول ابن عمر رضى الله عنهما (٣) .

...

-
- (١) ابن جرير ج٩/٥٨٨ تحقيق محمود شاكر . زاد المسير ج٢/٢٩٧ ، تفسير الماوردى ٤٤٩/١ الرازى ١٥١/١١ ، روح المعانى ٦٦/٦ ، احكام القرآن لابن العربى ٥٥٦/٢ .
- (٢) صحيح البخارى فى الطلاق باب قول الله تعالى : " ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن " ١٧٢/٦ .
- (٣) انظر ما نقله الحافظ ابن حجر من اقوال العلماء حول هذا الموضوع فى فتح البارى ج٩/٣٦٧-٣٦٨ . وانظر : تفسير الرازى ٥٨/٦ .

(٣) قوله تعالى : " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث وربــــــــــــــــاع
فان خفتم الا تعدلوا فواحدة " الآية (النساء / ٣) .

هذه الآية تدل على امكانية العدل من الرجل تجاه زوجاته اذا كان
عنده اكثر من زوجة لقوله في الآية : " فان خفتم ألا تعدلوا . . " مما يدل
ان العدل هو الاصل فاذا ظن الرجل عدم القدرة على ذلك لسبب من الاسباب
فالواجب عليه ان يقتصر على واحدة .

وقد جاءت آية اخرى يفهم من ظاهرها عدم امكانية العدل وهي قوله
تعالى : " ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا
كل الميل فتذروها كالمعلقة " (النساء / ١٢٩) .
فقد يتوهم ان بينهما اختلافا . .

والجواب : ان ما أثبتته الآية الأولى من إمكان العدل هو العــــــــــــــــدل
المادى فتوفية الحقوق الشرعية من القسَم والنفقة والمعاملة لان ذلك
بامكان كل احد ولايجوز فيه الا ظالم او جاهل .

وما نفته الآية الثانية هو العدل القلبي أى المساواة فى المحبة والجماع
والميل الطبيعى حيث ان مشاعر القلوب وأحاسيس النفوس خارج عن ارادة الانسان
فلا يطالب بالعدل به احد من بنى الانسان .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة الانام وسيد الاتقياء كان
يعدل بين نسائه فى القسم والنفقة وحسن العشرة لكنه كان يجد نفسه تميل
الى عائشة ويحبها اكثر من غيرها ويقول : " اللهم هذا قسمي فيما أملك
فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك " (١) . يعنى القلب ذلك ان القلوب ليست

(١) اخرجه احمد ج ٢ / ٣٤٧ . والترمذى / فى النكاح باب ما جاء فى التسوية
بين الزرائر رقم ١١٤٠ ج ٣ / ٤٤٦ والنسائى فى عشرة النساء باب ميل الرجل
الى بعض نسائه ٦٤ / ٧ وابوداود رقم ٢١٣٤ فى النكاح باب فى القسم بين
النساء واللفظ له قال ابن كثير : واسناده صحيح . وابن ماجه
فى النكاح باب القسمة بين النساء ج ١ / ٦٣٣ تحقيق عبد الباقي -
النساء (٢٩) .

ملكا لأصحابها إنما هي بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء (١)

هذا وإن العدل بين الزوجتين في المبيت والنفقة وحسن العشرة ونحو ذلك واجب باتفاق المسلمين . وقد أخرج أصحاب السنن (٢) عن أبي هريرة مرفوعا : " من كان له امرأتان يميل لأحدهما على الأخرى جاء يوم القيامة أحد شقيه مائل " (٣) أي يجيء يوم القيامة غير مستوئ الطرفين بالنظر إلى المرأتين اللتين كان يرجح إحداهن كـ فالجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدا .

٤ - قوله تعالى : " ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به " الآية البقرة / ٢٢٩ .

وقوله تعالى : " وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا كـ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا " (النساء / ٢٠-٢١) .

(١) انظر تفسير ابن كثير ج١/ ٥٨٧ ، النساء / ٢٩ ، البرهان للزركشي ٥٨/٢ ، القرطبي ٤٠٧/٥ ، مجموع الفتاوى ٢٦٩/٣٢ ، أحكام القرآن لابن العربي ٥٠٤/١ روح المعاني ١٦٢/٥ ، في ظلال القرآن ج١/ ٥٨٢ ، ابن جريـر ٢٨٥/٩ ، الدر المنثور ٧١٢/٢ .

(٢) أبوداود رقم ٢١٣٣ في النكاح باب التسويين بين النساء ، والترمذي ١١٤١/١ في النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر ، والنسائي في عشرة النساء باب ميل الرجل إلى بعض نسائه ج٢/ ٦٣ ، والفظ له . وهو حديث صحيح . انظر جامع الأصول ج١١/ ٥١٣ تحقيق الارناؤوط .

هاتان الايتان قد يُتوهم أن بينهما تعارضاً^(١) لانه في الآية الأولى
أباح للزوج أن يأخذ من مهر الزوجة التي تريد الخلع لسبب من الاسباب
كخوفها ان لا تستطيع اقامة حدود الله في البيت بطاعة زوجها ورعايته
لقوله في الآية " فان خفتم الا يقيموا حدود الله فلا جناح عليهما فيمما
افتدت به الآية " .

وأما الآية الثانية فظاهرها تحريم أخذ شيء من المهر المقدم للزوجة
عند إرادته طلاقها المعبر عنه في الآية بالاستبدال .

والجواب ظاهر : وهو أن آية البقرة تتحدث عن الخلع الناشئ بسبب
رغبة الزوجة التي تخاف عدم القدرة على اقامة حدود الله بطاعة زوجها
وإدائه حقوقه بسبب بغضها له فهنا أباح لها الشارع ان تفتدي ببعض المهر
أو كله حتى يطلقها الزوج .

كما يدل على ذلك سبب نزول الآية : حيث روى البخاري^(٢) وغيره
عن ابن عباس رضي الله عنهما : " ان امرأة ثابت بن قيس أتت النبي صلى
الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ، ثابت بن قيسها أعيب عليه فـي
خلقه ولادينه ولكني أكره الكفر في الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم - أتردين عليه حديقته ؟ قالت: نعم ، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم اقبل الحديقة وطلقها تطليقة " .

-
- (١) ومما يدل على حصول هذا التوهم انه قد روي عن بكر بن عبد الله المزني
ان آية النساء ناسخة لآية البقرة . وقال ابن زيد وغيره آية البقرة
ناسخة لآية النساء . تفسير الطبري ج٤/٣١٦ ، ٣١٧ ،
ابن كثير ٤٠٩/١ ، بقرة ٢٢٩/ ، القرطبي ١٠١/٥ ، اللوسى ٢٤٣/٤ .
- (٢) صحيح البخاري كتاب الطلاق باب الخلع وكيف الطلاق فيه ج١٧٠ والنسائي
ج١٦٨ في الطلاق: باب ما جاء في الخلع رقم ٣٤٦١ .

قال الحافظ ابن حجر (١) : " وفي الحديث من الفوائد - غير ماتقدم -
ان الشقاق اذا حصل من قبل المرأة فقط جاز الخلع والفدية ولا يتقيـــــــــــــــــــــــــــــــــد
ذلك بوجوده منهما جميعا وان ذلك يشرع اذا كرهت المرأة عشرة الرجل
ولم يكرهها ولم ير منها ما يقتضى فراقها " اهـ .

قلت : فظاهر من ذلك ان اخذ الرجل شيئا من المهر او كله كغدية من المرأة حتى يخلعها امر جائز لانه عن طيب نفس من المرأة وهذا يشمل عموم قوله تعالى :

"وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً ، فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ فَكُلُوهُ
هَنِيئًا مَرِيئًا .." النساء ٤/ ٥

وهناك حالة أخرى يحل فيها للزوج اخذ شيء من المهر وهي فيمــــــــــــا
إذا كانت المرأة ناشزا أو أتت بفاحشة وأراد الزوج فراقها فهنيئ لشرع له
ان يعضلها بمعنى ان يُضاجرهما وَيُضَيَّق عليها حتى تطلب منه الطلاق او المخالعة
مقابل أن تسامحه ببعض ما فرض لها من المهر وهو معنى قوله تعالى(ولا تعضلوهن
لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة) - النساء / ١٩ -

أما الآية الثانية فإنها حرمت أخذ شيء من المهر المدفوع للزوجة
عندما يكون هناك طلاق من قبل الزوج لاي سبب من الاسباب حيث قال: " وإن أردتم
استبدال زوج مكان زوج " يعنى أردتم الطلاق واستبدالها بغيرها فلا تأخذوا
من صدق المطلق شيئا ولو كان قنطارا من مال اى مهما بلغت كثرة الصداق ،
فإنها حرم الشارع أخذ شيء من المهر لانه من حق الزوجة فيكون أخذه بدون حق
ظلما وبهتاناً .

(١) فتح الباري ج ٩/ ٣٩٢ -

(٢) انظر : ابن كثير ٤٠٨/١-٤٠٩ ، البقرة ٢٢٩ ، زاد المسير ٢٦٤/١ ،

الرازي ١٤/١ ، روح المعاني / ج٤ / ٦١٩

ولهذا قال في الآية منكرًا: " وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض " والافضاء كناية عن الجماع أو الخلوة (١)
أي كيف تأخذون من صداقهن وقد استباحتهم فزوجهن واستمتعتم بهن (٢).

والحاصل: أن آية البقرة تتحدث عن أخذ الرجل شيئًا من المهر أو كله عند ارادة الزوجة الخلع فهذا حلال .

وآية النساء تتحدث عن أخذ الرجل شيئًا من المهر أو كله عنـــــــد اراد الزوج الطلاق بدون أن يكون هناك سبب من المرأة كنشوز ونحوه فلاتعارض بين الآيتين . والله الموفق .

...

(١) تفسير الافضاء: بالخلوة الصحيحة وان لم يجامع هو اختيار الفراء ،

(معاني القرآن ٢٥٩/١) وبه قال ابوحنيفة (روح المعاني ٢٤٣/٤) ،

والجمهور على انه الجماع .

(٢) ابن كثير ٧٠٤/١ ، النساء: ٢٠ ، الرازي ١٤/١٠ ، روح المعاني ٢٤٣/٤ ،

القرطبي ١٠١/٥ .

٥ - قوله تعالى :

" الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وامره الى الله وممن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون " (البقرة / ٢٧٥) .

وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلکم رؤوس اموالکم لاتظلمون ولاتظلمون " (البقرة ٢٧٨-٢٧٩) .

هاتان الايتين تدلان على ان الله قد حرم الربا تحريما قاطعا قليله وكثيره لقوله : " واحل الله البيع وحرم الربا " .
وقوله " وذروا ما بقى من الربا " .

فلم يستثن شيئا من الربا ويؤكد ذلك قوله بعدها " وان تبتم فلکم رؤوس اموالکم " (البقرة ٢٧٥) .

فأخذه الزيادة على رأس المال ولو كان درهما واحدا يعتبر من الربا المحرم .

وقد جاءت آية اخرى قد يتوهم منها عدم تحريم القدر الضئيل من الربا وهي قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلکم تفلحون " (العمران - ١٣٠) .

فقوله أضعافا مضاعفة " قد يتوهم منه جواز أكل الربا اذا لم يكن أضعافا مضاعفة وهو ما كان مقدارا قليلا فوق رأس المال .

والجواب :

ان قوله تعالى : " لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة " .

نهى لما كان أهل الجاهلية يفعلونه فهو وصف لواقع وليس شرطا يتعلق به الحكم ، فجاء النهى لنوع من أنواع الربا وهو أسوأها وأفحشها توبيخا لهم

على ما كانوا يفعلون وإبرازا لفعلم السوء وتشهيراً به (١)

روى الامام مالك في الموطأ (١) عن زيد بن اسلم (٢) انه قال :

" كان الربا في الجاهلية ان يكون للرجل على الرجل الحق الى أجل فاذا حلّ الأجل قال: أتقضي أم تُرَبِّي ؟ فان قضي اخذه والا زاده في حقه واخـــــر عنه الاجل " اهـ .

فهذا الأثر يبين معنى الآية وأن قوله " اضعافاً مضاعفة "

حال لمراعاة الواقع وليس لتقييد المنهى عنه ليكون اصل الربا غير منهى عنه (٣) .

أخرج مسلم (٤) عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس في عرفات وقال: "ربا الجاهلية مَوْضُوعٌ وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فانه موضوع كله .

وزاد ابوداود (٥) في روايته : " لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون " .

فهذا الرسول صلى الله عليه وسلم يبين ان الربا كله موضوع قليله وكثيره وان للناس رؤوس اموالها فقط .

(١) موطأ مالك - تحقيق عبد الباقي - ج٢/٦٧٢ كتاب البيوع ، باب ما جاء في الربا في الدين ونقله السيوطي عن مجاهد وعطاء وعزاه للفريابي (لباب النقول في اسباب النزول ص ٥٨) وانظر جامع الاصول لابن الاثير ج١/٥٧٣ تحقيق الارناؤوط .

(٢) زيد بن اسلم تابعي جليل مدني ثقة عالم ، وكان يرسل ، من الثالثة ، ت ٣٦ هـ روى له الستة ، ويروي عن أبيه أسلم العدوي مولى عمر بن الخطاب ، تقريب التهذيب ص ٢٢٢ ، تحقيق الشيخ محمد عوامة .

(٣) تفسير ابن كثير ج١/٦٠٤ ، زاد المسير ٤٥٨/١ ، الرازي ٢/٩ ، روح المعاني ٥٥/٤ ، في ظلال القرآن ج١/٤٧٣ .

(٤) مسلم في كتاب الحج باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم (شرح النووي ١٧٢/٨) .

(٥) ابوداود في سننه ج٢/٦٦٨ كتاب البيوع باب في وضع الربا .

قال الشيخ احمد شاكِر رحمه الله (١) تعليقا على هذه الآية :

" والمتلاعبون بالدين اهل عصرنا ، وأولياؤهم من عابدى التشريع
الوشنى الاجنبى بل التشريع اليهودى فى الربا يلعبون بالقران ويزعمون
ان هذه الآية تدل على أن الربا المحرم هو الاضعا ف المضاعفة ليجزوا مابقي
من أنواع الربا على ما ترضى اهلهم واهواء سادتهم ويتركوا الآية الصريحة :
" وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لاتظلمون ولا تظلمون " فكانوا فى تلاعبهم
بتأول هذه الآية اسوأ حالا ممن يتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء
تاويله " .

وقال الشيخ محمود شلتوت رحمه الله (٢) : " بقي علينا أن ننبه فى
هذا الشأن لامر خطير ، هو أن بعض الباحثين المولعين بتصحيح التصرفات
الحديثة وتخريجها على أساس فقهى اسلامي ، يُعرفوا بالتجديد ، وعمق التفكير ،
يحاولون أن يجدوا تخريجا للمعاملات الربوية التى يقع التعامل بها فى
المصارف او صناديق التوفير او السندات الحكومية او نحوها ويلتمسون
السبل الى ذلك ، فمنهم من يزعم أن القرآن انما حرم الربا الفاحش بدليل
قوله : " اضعافا مضاعفة فهذا قيد فى التحريم لابد ان يكون له فائدة
والا كان الاتيان به عبثا تعالى الله عن ذلك ، وما فائدته فى زعمهم
الا أن يؤخذ بمفهومه وهو اباحة ما لم يكن اضعافا مضاعفة من الربا .

وهذا قول باطل ، فان الله سبحانه وتعالى اتى بقوله : (اضعافا
مضاعفة) توبيخا لهم على ما كانوا يفعلون وابرارا لفعلهم السئ وتشهيرا
به وقد جاء مثل هذا الاسلوب فى قوله تعالى : " ولا تُكْرِهوا فتياتكم على البغاء
إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا " (النور/٣٣) فليس الغرض

(١) عمدة التفسير ج٣/٣٨ ، نقلا عن حاشية زاد السير ج١/٤٥٨ .

(٢) فى كتاب تفسير القرآن الكريم ص ١٥٠ .

أن يحرم عليهم اكراه الفتيات على البغاء فى حالة ارادتهن التحصن وان يبيحه
لهن اذا لم يردن التحصن ولكنه يبشع مايفعلونه ويشهر به ، ويقول لهم :
لقد بلغ بكم الامر انكم تكرهون فتياتكم على البغاء وهن يردن التحصن
وهذا افظع مايصل اليه مولى مع مولاته فكذا الامر فى آية الربا يقول لهم
الله : لقد بلغ بكم الامر فى استحلال أكل الربا أنكم تأكلونه أضعافاً مضاعفة فلا
تفعلوا ذلك . وقد جاء النهي فى غير هذه المواضع مطلقاً صريحاً ووعد الله
بمحق الربا قُلَّ او كثر ولعن آكله وموكله وكاتبه وشاهديه كما جـاء
فى الآشار (١) .

وآذن من لم يدعه بحرب الله وحرب رسوله واعتبره من الظلم الممقوت
وكل ذلك ذكر فى الربا على الاطلاق دون تقييد بقليل او كثير . . . وخلاصة
القول ان كل محاولة يراد بها اباحة ما حرم الله ، او تبرير ارتكابه
بأى نوع من أنواع التبرير بدافع المجازاة للاوضاع الحديثة او الغربية
والانخلاع عن الشخصية الاسلامية انما هى جرأة على الله تعالى وقول عليه بغير
علم وضعف الدين وتزلزل فى اليقين " اهـ .

قلت : ومقاله الشيخان فى غاية الوضوح لمن تدبره واضيف :

ان اكل الربا اضعافاً مضاعفة هو واقع المعاملات المصرفية وغيرهـا
والتي تتعامل بالربا حيث انهم يزيّدون المقترضين فى الاجل مقابل الزيادة
فى الربا وهكذا حتى يستوفون منهم اضعاف راس المال وهذا امر مشاهد
لملموس ويسمونه الربح المركب واغلب المعاملات قائمة عليه . وقد اشار الى ذلك

(١) حديث : " لعن الله اكل الربا موكله وكاتبه وشاهديه وقالهم سواء " .
اخرجه مسلم فى المساقاة باب الربا واللفظ له (شرح النووى ج ١١ / ٢٦)
واحمد ٣٠٤ / ٣ والبيهقى ٢٧٥ / ٥ عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه مرفوعاً
وابوداود فى كتاب البيوع / باب فى وضع الربا ج ٣ / ٦٦٨ والترمذى ٥١٢ / ٣
فى البيوع / باب ما جاء فى اكل الربا وقال حسن صحيح عن عبد الله بن
مسعود رضى الله عنه مرفوعاً .

الشهيد سيد قطب رحمه الله فقال (١) بعد كلام : " انه فى الحقيقة ليس وصفا تاريخيا فقط للعمليات الربوية التى كانت واقعة فى الجزيرة والتى قصد اليها النهى هنا بالذات ، انما هو وصف ملازم للنظام الربوى المقيست ايا كان سعر الفائدة .

ان النظام الربوى معناه اقامة دورة المالكها على هذه القاعدــــة ومعنى هذا ان العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة ، فهى عمليات متكررة من ناحية ومركبة من ناحية اخرى ، فهى تنشأ من الزمــــن والتكرار والتركيب اضعافا مضاعفة بلا جدال " اهـ .

قلت: والحاصل ان قوله تعالى : " واحل الله البيع وحرم الربا " .

وقوله تعالى : " وذروا ما بقى من الربا " .

وقوله " فان تبتم فلکم رؤوس اموالکم " .

والتي فيها تحريم كل زيادة على راس المال المستقرض مهما كانت بسيطة وان التوبة لا تحل الا بالاكْتفاء براس المال لا يتنافى مع قوله تعالى : " لاتاكلوا الربا اضعافا مضاعفة " لانها جاءت لبيان واقع الجاهلية وحالهم فى التعامل بالربا من أجل التشنيع عليهم وإبراز سوء فعلهم القائم على الجشع والاثرة وان هذا الوصف وان كان المراد به ماتقدم الا انه وصف ملازم للنظام الربوى لانه نظام قائم على الجشع والاستغلال وتكديس رؤوس الأموال .

وسبق أن مر بنا فى امثلة اسباب ايها الاختلاف فى الباب الاول بعض ما يختص بهذا الفصل مما يغنى عن اعادة ذكره هنا واكتفى بذكر الآيات مع الإحالة على . أمكنه وجودها .

(١) فى ظلال القرآن ج١/٤٧٣ .

٦- قوله تعالى : " وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف " (النساء/٢٣)
مع قوله تعالى : " والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم —
او ما ملكت ايماهم فانهم غير ملومين..... " المؤمنون / ٦ .

تقدم هذا المثال فى السبب الثامن من اسباب ايهام الاختلاف وهو —
تعارض العموميين ومحل توهم التعارض كما تقدم هو : فى الجمع بين —
الاختين فى ملك اليمين (١) .

٧- قوله تعالى : " والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء " (البقرة / ٢٢٨) وهذا فى عموم المطلقات .

مع قوله تعالى : " واللائى يئسن من نساكن ان ارتبتم فعدتهن —
ثلاثة اشهر واللائى لم يحضن واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن " (البلاق / ٤) فهذه الاية اثبتا حكما مغايرا لحكم الاية الاولى بالنسبة
لبعض المطلقات .

وتقدم هذا المثال فى للسبب الثانى من اسباب ايهام الاختلاف وهو العموم
والتخصيص (٢) .

٨- قوله تعالى : " كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا —
الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين " (البقرة / ١٨٠) مع
ايات المواريث التي اعطت كل ذى حقه ومنهم الوالدين .

كما قال تعالى : " يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين —
فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف
ولا بويه لكلواحدة منهما السدس مما ترك ان كان له ولد..... الايات
(من ١٠-١٤ سورة النساء) .

(١) راجع ص ١٤٢

(٢) راجع ص ١١٦

وتقدم هذا المثال في السبب الاول من اسباب الاختلاف وهو النسخ (١) .

٤ - قوله تعالى : " الذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بانفسهن — اربعة اشهر وعشرا فاذا بلغن اجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في انفسهن بالمعروف " (البقرة / ٢٣٤) .

مع قوله تعالى : " والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في انفسهن بالمعروف " (البقرة / ٢٤٠) .

الاية الاولى اوجبت على المتوفى عنها زوجها ان تعتد اربعة اشهر وعشرا .

والاية الثانية اوجبت عليها ان تعتد حولا كاملا .

وقد تقدم هذا المثال في الباب الاول في فصل موقف الباحث عن التعارض والاختلاف الظاهري في النصوص (٢) .

...

(١) راجع ص ١٤٩

(٢) راجع ص : ١٤٧

الفصل الثامن :

موهم الاختلاف فى الآيات الكونية

والمراد بالآيات الكونية ما جاء فى القرآن الكريم من آيات تدل على قدرة الله وابداعه فى خلق السموات والارض والنجوم والمشارق والمغارب وخلق الانسان وما اودعه الله تعالى من اسرار ومظاهر اتقان وصنع تدل على العليم الخبير " الذى احسن كل شيء خلقه وبدا خلق الانسان من طين "

وقد سبق فى الباب الاول عند تفسير قوله تعالى : " ولو كان مـــــــ
عندغير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (النساء / ٨٢) .
فى الوجه الرابع من اوجه سلامة القرآن من الاختلاف (١) سبق بيان ان كل
ما أخبر الله عنه من مظاهر هذا الكون ومشاهده وتفصيلاته نجده كما أخبر
الله عنه بدون اختلاف وان الآيات القرآنية والآيات الكونية فى غاية الانسجام
وذلك لان الكون هو آيات الله المنظورة والقرآن هو آياته المستورة فالقرآن
كلام الله العليم الحكيم والكون خلق الله الخبير .
فلا جرم ارشدنا الله الى النظر فى مظاهر هذا الكون فى قولـــــــه
" قل انظروا ماذا فى السموات والارض " (يونس / ١٠١) .
وقال : " سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق "
(فصلت / ٥٣) .

وسبق أن ذكرنا مثالا لبيان عدم الاختلاف بين قوله تعالى : " يكور الليل
على النهار ويكور النهار على الليل " (الزمر / ٥) . والتي تشيـــــر
الى كروية الارض صراحة .
وبين قوله تعالى : " وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا " ،
(الرعد / ٤٨) .

وقوله تعالى : " والارض فرشناها فنعم الماهدون " (الذاريات / ٤٨) .
وقد بسط القول فى ذلك فى موضعه فليراجع (٢) .
واذكر هنا بقية الآيات الكونية التى قد يتوهم فيها الاختلاف .

(١) انظر ص ٦٩

(٢) فى الباب الاول : ص ٧١

اولا: قوله تعالى: " رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا "

(المزمّل/٩)

وقوله: " رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان "

(الرحمن/١٧)

وقوله: " فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون " ..

(المعارج /٤٠) .

أفرد مرة ذكر المشرق والمغرب وشناهما مرة ثانية ، وجمع مرة ثالثة ،
وبما أن المعروف ان هناك شرق واحد وغرب واحد فقد يتوهم الاختلاف بين هـذه
الآيات لمن لا يعرف المراد بلفظ المشرقين أو المشارق .

ولدفع ما قد يتوهم من ذلك نقول :

إنّ القرآن نزل على المعهود من أساليب كلام العرب وفنونه ومنهـ
الاجمال والتفصيل ، والذكر والحقق ، والجمع والتثنية ، والافراد باعتبارات
مختلفة تناسب المعنى والسياق والغرض .

فأفرد واجمل فى المزمّل فى قوله : " رب المشرق والمغرب ... "

وأراد مشرق الشمس ومغربها بشكل عام على الكرة الأرضية ، فهناك جهة
تشرق منها الشمس وجهة مقابلة تغيب منها سواء كان صيفا او شتاء ، وقال
الامام احمد ابن حنبل (١) :

(اما قوله : " رب المشرق والمغرب " ، فهذا اليوم الذى يستوى فيه
الليل والنهار ، اقسم الله بمشرقه ومغربه ، اهـ .
قلت: وعند استواء الليل والنهار (٢) تخرج الشمس من منتصف جهـة
الشرق وتغرب فى منتصف جهة الغرب فهذه اشارة الى الجهة اجمالا .

(١) الرد على الزنادقة : ١٠ .

(٢) يستوى الليل والنهار فى ٢١ اذار و ٢١ ايلول

كل ستة اشهر .

وشنى وفصل فى سورة الرحمن بقوله : " رب المشرقين ورب المغربين "
 لانه اراد فيه مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما •
 اذ انه من المعلوم ان جهة الشرق لاتخرج منها الشمس من مكان واحد
 بل تخرج كل يوم من نقطة وتنتقل كل يوم فى شروقها حتى تبلغ اقصى جهة
 الشرق فادنى الشرق واقصاه سماه مشرقين •
 ويقابلهما كذلك المغربين •
 فالشمس تشرق من نقطتين نقطة نلاحظها فى الصيف ونقطة نلاحظها بعيـداً
 عنها فى الشتاء وكذلك الغروب •
 حيث إن الشمس تتعامد على مدار السرطان (١) فى نصف الكرة الشمالى صيفا
 وتتعامد على مدار الجدى (٢) فى نصف الكرة جنوباً فى الشتاء فالشمس تنتقل
 بين المدارين صيفا وشتاء فى شروقها وغروبها فأصبح لها مشرقين متباعدين
 فى جهة واحدة ،
 وكذلك مغربين متباعدين فى جهة واحدة من الارض ،
 هما أقصى مطلع تطلع منه الشمس فى الايام الطوال وأقصر يوم فى الايام
 القصار •
 أما المشارق والمغارب فهو مشارق السنة ومغاربها ،
 فالشمس اثناء تنقلها بين المدارين تمر بنقاط متسلسلة عديدة ولا تـمـر
 قفراً فكل نقطة اثناء التنقل بين المدارين فى الذهاب والاياب تعتبر مشرقاً
 يقابلها مغرب وبذلك تكون مشارق يقابلها مغارب •
 ومشارق الشمس بعدد ايام السنة اذ انها تشرق كل يوم من مكان من جهة
 الشرق وتغرب فى مكان من جهة الغرب (٣)

-
- (١) يقع فى نصف الكرة الشمالى على بعد ٢٣ درجة عرض شمالاً •
 (٢) يقع فى منتصف الكرة الجنوبى على بعد ٢٣ درجة عرض جنوباً •
 (٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤٥/٤٢٣ ، الرحمن ١٧ ، الرازى ٢٦/١٠٠ ، روح المعانى
 ٢٧/١٠٥/٢٣/٦٧ ، فتح الرحمن ٤٧٦ ، تنزيه القرآن عن المطاعن ٤٣٥/ ، الرد
 على الزنادقة / ص ١٠ ، الاسلام فى قفص الاتهام / شوقى ضيف / ص ٤٥ •

قال القرطبي (١) : قال ابن عباس : للشمس كل يوم مشرق ومغرب وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وخمسة وستين كوة في مطلعها ومثلها في مغربها على عدد أيام السنة الشمسية ، تطلع كل يوم في كوة منها ، وتغيب في كوة لا تطلع في تلك الكوة إلا في ذلك اليوم من العام المقبل ، " اهـ .

ونختم بكلام زكريا الانصارى عن سبب مجيء كل آية في موضعها حيث قال (٢) :
" ... ومافى الرحمن بالتثنية موافقة للتثنية في " يسجدان " وفي " فبأي آلاء ربكنا تكذبان " وبذكر المتقابلين موافقة لبسط انعاماته وصفاته ، ثم ، ومافى المعارج بالجمع موافقة للجمع قبله وبعده ، وبذكر المتقابلين موافقة لما قبله من أفراد صلى الله عليه وسلم - وما بعده من أفراد ذكر الله تعالى وبذكر المتقابلين موافقة للحرص في قوله " لا اله الا هو " وللبسط أوامر الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - " اهـ .

...

(١) القرطبي ١٥/٦٣ .

(٢) فتح الرحمن / ٤٧٦ .

٢ - قوله تعالى : " فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " (الواقعة / ٧٥-٧٦)

هذه الآية تبين لنا عظمة مواقع النجوم وذلك يدل على عظم النجوم

نفسها وكبر حجمها .

ويقول علماء الفلك : إن أصغر نجم في الكون هو أكبر من حجم الأرض التي نعيش عليها وانما نراها صغيرة للمسافات الشاسعة التي تفصلنا عنها (١) .

وقد جاء في آية أخرى ما قد يتوهم ان النجوم والكواكب صغيرة وهو قوله تعالى : " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين " (الملك / ٤) .

والضمير في قوله " وجعلناها ... " عائد على المصابيح التي هي النجوم وجعلها رجوما للشياطين قد يتوهم أنها بحجم الحجرة أو الشهب (٢) .

والجواب ان الضمير في قوله : " وجعلناها " عائد على جنس المصابيح لا على عينها لانه لا يرمى بالكواكب التي في السماء والتي هي زينة للناظرين بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها (٣)

(١) وجوه من الاعجاز القراني / مصطفى الدباغ / ص ١٤٤ ، المسلمون وعلم الفلك ٨٣ - ٨٧ ، ٩٧ ، وانظر اسرار الكون / النهاينك ٢١-٢٢ ، ٩٤-٩٥ ، والانسان في الكون بين القران والعلم د. عبد العليم خضر ص ١٤١-١٤٥ .

(٢) وقد توهم ذلك جهلا أو أوهم بعض النصارى الذين يبشون المطاعن ضد القران الكريم للصد عن الاسلام والقرآن لاتاحة المجال للتنصير . انظر كتاب رد مفتریات علی الاسلام د. عبد الجليل شلبی . طبع دار القلم - الكويت / ط ١ ، ص ١٣١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ / ٦١٩ / الملك / ٥٥ .

وقد ذكر القرآن طبيعة هذه الشهب في عدة آيات من القرآن منها قوله تعالى
 " ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان
 رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين " (الحجر/ ١٨) •

وقال : " فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا " (الجن/ ٩) •

وقال: " الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب " (الصافات/ ١٠) •

فنلاحظ من خلال هذه الايات ان الذى يتبع الشيطان انما هو الشهاب (١) وليس
 النجم او الكوكب والايات انما تفسر بعضها • فالنجوم والكواكب انما هي مصدر
 لهذه الشهب والنيازك التى ترمى بها الشياطين ، وليس بالضرورة ان يكون
 كل شهاب مرسل لرمي الشياطين والسبب فى رمي الشياطين ببعض هذه الشهب
 ان الشياطين مخلوقات نارية متمردة وهم كفار الجن ولهم قدرات فائقة في
 الحركة والصعود كما قال تعالى عنهم : " وانا لمسنا السماء فوجدناها
 ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد
 له شهابا رصدا " (الجن / ٩) •

وكان الجن يسترقون السمع اى يحاولون استماع ما تتكلم به الملائكة في
 السماء الدنيا من الامور التى تقضى ليخبروا بها الكهان ويتزيدوا فيهم
 فلما بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم منعوا من ذلك وكل من يحاول استراق
 السمع يرمى بشهاب من هذه الشهب فيحرقه كما قال تعالى : " الا من خطف
 الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (الصافات / ١٠) •

واستراقهم السمع انما هو فى غير الوحي • اما الوحي فهم معزولون
 عنه نهائيا (٢) كما قال الباري " انهم عن السمع لمعزولون " (الشعراة/ ٢١٢) •

والذى يتلخص ان هذه الشهب النارية التى ترى في السماء انما مصدرها
 الكواكب وهي من آيات الله الكونية وان النجوم والكواكب انما هي زينة للسماء

(١) شهاب يطلق عليه نيزك جمعها نيازك وهي اجسام مادية مختلفة الحجم
 والصفات يصل بعضها الى احجام هائلة وكثير منها يصل الى الارض •

انظر : المسلمون وعلم الفلك : ص ٨٢ •

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ / ٥٥٨ ، الشعراة / ٢١٢ •

الدنية وهى معالم للهداية كما قال البارى :

" وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر —————
(الانعام ٩٧)

وقال : " وعلامات وبالنجم هم يهتدون " (النحل / ١٦) .
وهي من آيات الله التى جعلها للتفكر والنظر فى خالقها ومدبرها —————
ومنظمها كما قال البارى :
" ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الالباب ،
الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات
والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار " (ال عمران / ١٩١) .

وتتلخص اهميتها فيما يلى :

- ١- زينة للسماء .
- ٢- معالم للاهتداء ومعرفة الجهات .
- ٣- للنظر والتفكر .
- ٤- مصدر لرجم الشياطين بالشهب والنيازك .

٣ - قوله تعالى :

" هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعها ثم استوى الى السماء فسواها —
سبع سموات وهو بكل شىء عليم " (البقرة / ٢٩) .

هذه الآية تدل على ان خلق الارض متقدم على خلق للسموات بدليل لفظه ثُمَّ

التي هى للترتيب والتراخى .

وهناك آية أخرى تدل على ذلك أيضا وهى قوله تعالى : " قل انكم
لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين —
وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة ايام
سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا
طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين "
(فصلت / ٩-١٢) .

وهذا فى الظاهر قد يتوهم منه مخالفته لاية النازعات التى قال فيها :
" انتم اشد خلقا ام السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، واغطش ليلها وأخرج
ضحاها والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها .. "
(النازعات ٢٧ - ٣٣) .

فذكر فيها دحو الارض بعد خلق السماء فتوهم المناقاة سببا :

انه قد يظن ان الدحو بمعنى الخلق

- والجواب ان خلق الارض متقدم على خلق السماء وليس هناك ما يعارض
ذلك لان قوله تعالى فى النازعات : " والارض بعد ذلك دحاها " منصوص على تفسيره
فى نفس الآية وهو قوله بعدها : " اخرج منها ماءها ومرعاها والجبال
أرساها " .

فهو سبحانه قد خلق الأرض أولا بدون نبات او جبال فى يومين ثم خلق
السموات فى يومين ثم دحا الارض بمعنى انه اخرج منها الماء والمرعى
وخلق الجبال والرمال فى يومين فتلك ستة ايام .

(1)

وهذا التفسير منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري
عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنه اني لاجد في القرآن
اشياء تختلف علي ... الى قوله "وقال تعالى : " أأنتم اشد خلقا ام السماء
بناها ... والارض بعد ذلك دحاها " فذكر خلق السماء قبل خلق الارض ثم قال
تعالى " قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين الى قوله طائعيــــــــــــــــن "
فذكر في هذه خلق الارض قبل السماء ... فقال ابن عباس .. وخلق الارض في يومين
ثم خلق السماء ثم استوى الى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحى الارض ودحوها أن
اخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والاكام وما بينهما
في يومين آخرين فذلك قوله تعالى " دحاها " وقوله خلق الارض في يومين
فجعلت الارض وما فيها من شيء في أربعة ايام وخلق السموات في يومين " اهـ .

قال ابن حجر (٢) رحمه الله : فهذا الذي جمع به ابن عباس بين قوليه

تعالى في هذه الآية وبين قوله " والارض بعد ذلك دحاها " هو المعتمد " اهـ .

قال الخفاجي (٣): (يعني ان قوله " اخرج منها ماءها ومرعاها بـدـل

او عطف بيان لدحاها بمعنى بسطها مبين للمراد منه ، فيكون تأخرها في هذه الآية ليس بمعنى تأخر ذاتها بل بمعنى تأخر خلق ما فيها وتكميله وترتيبها).

وقال العز بن عبد السلام : (٤) ان معنى دحاها انها كانت في أول خلقها كشيعة

التفريس فأزال تفريسها بعد بناء السماء وأما خلقها فكان قبل خلق

السماء " • اه •

قلت : وهذا كما قيل في قوله تعالى : " ثم استوى الى السماء وهى دخان

... الى قوله **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** (فصلت/ ١٢) **ان السماء خلقت**

مادتها أولا ثم سويت وأظهرت على صورتها اليوم سبع سموات (٥) .

(١) في كتاب التفسير / سورة حم السجدة ج٦/ ٣٥ وانظر الدر المنثور ٤١٢/ ٨ ، تفسير الطبري ج٣٠/ ٢٨ طبعة دار المعرفة

(٢) فتح الباری ج ٨/ ٥٥٨ طبعة دار المعرفة .

(٣) حاشية الشهاب علي البيضاوي ج ٢/ ١١٥.

(٤) فوائد في مشكل القرآن/٢٢٧

(۵) انظر روح المعاني ج ۳۰/ ۴۱

وقوله تعالى : " هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا . . . الية " يفيد ظاهر الية ان خلق ما فى الارض قبل خلق السماء . ومن المعلوم حسب ماتقدم ان خلق ما فى الارض انما هو بعد خلق الارض فكيف يكون الدحـو بعد خلق السموات ؟

والجواب: ان المراد بخلق ما فى الارض جميعا قبل خلق السمـاء الخلق اللغوى الذى هو التقدير لا الخلق بالفعل الذى هو الابرار من العدم الى الوجود ولا يمكن ان يراد به فى الية ضرورة ان جميع المنافع الارضية يتجدد ايجادها اولا فاولا .

ومما يدل على ذلك انه فى فصلت ذكر خلق الارض فى يومين ثم ذكر انه جعل فيها الرواسى وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى تتمة اربعة ايام اى فى يومين آخرين ثم ذكر الاستواء الى السماء وتسويتها سبع سموات .

فالاية وضحت انه قبل خلق السموات لم تخلق الاقوات وانما قدر فيها ذلك واية النازعات وضحت انه بعد خلق السماء دحا الارض بمعنى بسطها واوجد فيها اقواتها التى كان قدرها قبل خلق السماء من اخراج ماءها ومرعاها (١) وتسويتها .

ومعلوم ان العرب تسمى التقدير خلقا ومنه قول زهير :
ولانت تغرى ما خلقت
وبعض القوم يخلق ثم لا يغري (٢)
قال فى اللسان (٣) والخلق التقدير وخلق الاديم يخلق خلقا قدره لما يريد قبل القطع وقاسه ليقطع منه مزادة أو قربة أو خفا " اهـ .

(١) تفسير ابن كثير ج٤/١٤٠ ، فصلت ٩-١٢

روح المعانى ٣٠/٤٠-٤٢

تاويل مشكل القرآن : ٦٧-٦٨ ، ٥٠٦-٥٠٧

اضواء البيان ج١٠/١٤-١٥

(٢) ديوان زهير / ٩٤

(٣) اللسان ١١/٣٧٥ مادة خلق .

وكذلك فانه لما خلق الارض غير مدحوقهى أصل لكل مافيها كان كل مافيها
كانه خلق بالفعل لوجود اصله فعلا.

وهذا كقوله تعالى : " ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة

اسجدوا لآدم (٠٠٠) - الاعراف / ١١ -

فقوله خلقناكم ثم صورناكم اى بخلقنا وتصويرنا لابيكم ادم الذى هو
اصلكم (١) .

وهناك وجه آخر لتفسير قوله تعالى " والارض بعد ذلك دحاها " ان يكون
معنى قوله " والارض بعد ذلك دحاها " اى مع ذلك دحاها كقوله : " عـــــــل
بعد ذلك زعيم " اى مع ذلك . وقولك للرجل : انت كذا وكذا ثم انت بعدها
كذا لاتريد به الترتيب .

وقال تعالى : فك رقبة او اطعام في يوم ذى مسغبة ٠٠٠ الى قولـــــــه
ثم كان من الذين امنوا ٠٠٠٠٠

والمعنى : وكان مع هذا من اهل الايمان بالله وهو قول مجاهد (٢)
الا ان الوجه الاول هو الصحيح والظاهر لما تقدم شرحه .
فال ابن جرير رحمه الله (٣) :

والقول الذى ذكرناه عن ابرعباس ٠٠٠ اشبه بما نقل عليه ظاهر التنزيل
لانه جل ثناؤه قال والارض بعد ذلك دحاها . والمعروف من معنى بعد أنه خلاف معنى
قبل وليس فى دحو الارض بعد تسويته السموات السبع واغطاشه ليلها واخراجـه
ضحاها ما يوجب ان تكون الارض خلقت بعد خلق لسموات لان الدحو انما هو البسط
فى كلام العرب والمد ٠٠ " اهـ .

(١) تفسير الطبرى ٢٩/٣ طبعة دار المعرفة ، تفسير الرازى ٤٩/٣١

اضواء البيان للشيخ الشنقيطى ١٦/١٠

(٢) تفسير الطبرى ٢٩/٣٠

تأويل مشكل القرآن ٦٨/

اضواء البيان ١٦/١٠

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٣ .

سادسا :

قوله تعالى : " ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام " (الاعراف / ٧)

وقوله : " ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام " (ق : ٣٨)

الى غير ذلك من الايات التى تدل على ان خلق السموات والارض كان فى ستة ايام . وقد جاءت اية اخرى قد يتوهم منها منافاة مدلول الايات السابقة من ان الخلق كان فى ستة ايام .
وهى قوله تعالى :

" قل انكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى اربعة ايام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك لتقديروا العزيز العليم " (فصلت ٩-١٢)

فمدلول هذه الاية فى الظاهر ان السموات والارض وما بينهما خلقت فى ثمانية ايام : خلق الارض فى يومين وجعل الرواسى وتقدير الاقوات فى اربعة ايام فهذه ستة وقوله فقضاهن سبع سموات فى يومين " فهذه ثمانية .

والجواب : الذى اجمع عليه المفسرون : ان قوله بالنسبة لـ جـ الرواسى وتقدير الاقوات : " فى اربعة ايام : اى تنمى اربعة ايام ويكون لخلق الارض يومان و لخلق ما فيها من الجبال وتقدير الاقوات والمباركة فيها يومان فتكون الايام الاربعة المذكورة معها يوما خلق الارض .

قالوا : وهذا كما يقال : سرت من البصرة الى بغداد فى عشرة ايام وسرت الى الكوفة فى خمسة عشر يوما ، وهو يعنى خمسة عشر مع العشرة التى سار فيها من البصرة الى بغداد فيخبر عن جملة الايام التى وقع فيها السير .

وقد يقول المرء لولده أليس علمتك القرآن في سنة وفقهتك الديــــــــن
في سنتين ، يعنى مع السنة التى تقدمت .
فتقدير الآية كل ذلك من خلق الارض وما بعده كائن في أربعة أيام
فقوله : " وجعل فيها رواسى من فوقها ... الخ " كلام مستأنف ضم فيه تعالى
يومى خلق^{الأرض} إلى اليومين الذين بعدهما فاخبر تعالى عن جملة خلق الارض وخلق
ما فيها لاتصال خلق الأرض بخلق ما فيها (١) والله أعلم .

...

(١) درة التنزيل للخطيب الاسكاني/٤١٥ ، بصائر ذوى التمييز ١/٤١٤ ، فتح
الرحمن /٥٠٤ ، تنزيه القرآن عن المطاعن/٣٧٠ ، البرهان للزركشي
٢/٦٣ ، تفسير الرازى ٢٧/١٠٤

٧ - قوله تعالى : يصف خلق الانسان :

(١) " وُخِّلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا " (النساء/٢٨)

(٢) وقال / " نحن خلقناهم وشددنا أسرهم " (الانسان /٢٨)

هذه الآيات يجمعها انها تصف خلق الانسان وجبلته وما يعتريه في حياته ، وقد يتوهم ان بينها اختلافا وليس الأمر كذلك لانه اراد بكل صفة وصف الانسان بها وصف طور من أطواره أو وصف حالة تعتريه في وقت من الأوقات أو تلازمه دائما وكلها موجودة فيه ، فذكر في كل موضع صفة وحالة يمتاز الانسان بها اقتضاها سياق الآية .

فقوله تعالى : " وُخِّلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا "

جاءت هذه الآية في سياق آيات بينت ما أحله الله من النكاح وما حرّمه وواجب المسلم في تحصين نفسه واختيار العفائف المحصنات والابتعاد عن المسافحات الفاجرات والصبر عند عدم إمكان الزواج ،

ثم قال : " والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وُخِّلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا " .

فالانسان بحكم فطرته وغرائزه ضعيف أمام الشهوات خاصة شهوة

النساء ،

فمن أجل ذلك وللتخفيف عنه شرع الله ما شرعه من الزواج واحتكامه وضوابطه لتصريف طاقة الانسان في المجال الطيب المأمون المثمر وفي الجو الطاهر النظيف الرفيع ، دون أن يكلف الله عباده عنتا في كبته حتى المشقة والفتنة ودون أن يُطلقهم كذلك ينحدرون في الاستجابة لها بغير حدود ولا قيود كما هو واقع المجتمعات المتحررة من قيود الدين والاخلاق والحياء وما دب فيها من فوضى العلاقات الجنسية التي ادت وتؤدي الى تفكك الروابط الاجتماعية وانتشار الشذوذ والأمراض الفتاكة ، وكل ذلك بسبب أن ضعف الانسان أمام شهوته وعدم التزامه بالتشريعات الربانية يؤدي إلى الحاق العنت والمشقة والفساد بالافراد والمجتمعات (١) وهذا ما يريده

(١) انظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج٢/٦٣٢ ، تفسير ابن كثير ٧٢٢/١ ، النساء /٢٨ ، وراجع كتاب الحجاب للسيد ابي الاعلى المودودي ص ١١٣-١١٤ ، لمعرفة نتائج الاباحية وخطورها على المجتمعات الغربية الكافرة .

الذين يتبعون الشهوات من أهل الباطل أن يميل الناس عن الحق والظهور
والفضيلة باستغلال فتنة النساء ونشر الاباحية اعتمادا على ضعف البشر من هذه
الجهة من أجل تحطيم المجتمعات والقضاء على الرجولة والشرف وبالتالي السيطرة
على الامم .

في هذا إجمالا بيان وجه خلق الانسان ضعيف حسب سياق الآية . ويشبه هذا
قوله تعالى : " خلق الانسان من عجل " . الانبياء / ٣٧

اراد تعالى المبالغة في وصف الانسان بكثرة العجلة وأنه شديدا
الاستعجال لما يجب من الامور، قليل الصبر كأنه خلق من نفس العجل تنزيلا لما
طبع عليه من الاخلاق منزلة ما طبع منه من الاركان إيذانا بغاية لزومه لــــه
وعدم انفكاكه عنه .

واما قوله تعالى : " نحن خلقناهم وشددنا أسرهم " (الانسان / ٢٨)
فهى لاتنافى خلق الانسان ضعيفا ، لانها جاءت لبيان قدرة الله في
خلق الانسان وما أعطاه من قوة وبأس في جسده وعقله فالكلام خرج مخرج الامتنان
عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية وجاءت تذكر من يجب العاجلة وينسبي
اليوم الآخر ويعتز بقوته ، جاءت تذكره بمصدر هذه القوة بل مصدر وجودهم
ابتداءً وانه قادر على الذهاب بهم وخلق غيرهم ،

(إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ، نحن خلقناهم
وشددنا أسرهم واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) . وقد ضرب الله لنا في
القران أمثلة لاقوام أوتوا من القوة وضخامة الجسد مالم يؤت أحد فاغثروا
بقوتهم وتجبروا في الارض وكفروا فانتقم الله منهم (١) كما قال الله
" أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد
منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات
فماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون " (الروم / ٩) .

(١) القرطبي ١٥٢/١٩ ، ابن كثير ٧١٨/٤ ، فتح الرحمن / ١٩٣ .

وكما قال تعالى : " فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحسنى وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة ، أخزى وهم لا ينصرون " (فصلت/١٦) ومن أجل ذلك فإن الانسان يجتمع فيه قوة الجسد وإحكامه التى عبّر الله عنها بقوله : " نحن خلقناهم وشددنا أسرهم " . ويجتمع فيه ضعف النفس وميلها للشهوات وعدم قدرتها على الصمود أمام الفتن أو المغريات .

وجاءت آيات أخرى تصف خلق الانسان يحسن ذكرها هنا منها قوله تعالى : " لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم " (التين/٤) فالمراد به بيان كمال قدرة الله ونعمته على الانسان بشكل عام فى أنه خلقه فى أحسن صورة وشكل ، منتصب القامة ، سوي الاعضاء صاحب عقل وتمييز وكلام وسمع وبصر وتدبير وحكمة ، وهو تعالى قد أحسن كل شئ خلقه ،

وتخصيص الانسان هنا وفى مواضع أخرى بحسن التركيب وحسن التقويم والتعديل كما قال فى موضع آخر : " يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى اى صورة ما شاء ركبك " - الانفطار / ٨ -

تخصيص الانسان بذلك فيه بيان عناية الله بهذا المخلوق وماله من شأن عند الله ، وتتجلى هذه العناية فى خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق سواء فى تكوينه الجسمانى البالغ الدقة والتعقيد ام فى تكوينه العقلانى الفريد ام فى تكوينه الروحى العجيب (١) وذلك لانه خلق لمهمة عظيمة وهى الاستخلاف فى الارض وعبادة الله فجعل الله فى هذا الانسان دليلا على ان الله الذى خلقه كما قال تعالى : " وفى الارض آيات للموقنين " وفى أنفسكم أفلا تبصرون " - الذاريات / ٢٠ - ٢١ -

(١) القرطبي ١١٤/٢٠ ، ابن كثير ٨٢٥/٤ ، التين / ٤ ، روح المعانى ٢٢٤/٣٠ فى ظلال القرآن ج٦/ ٣٩٣٣ .

ومنها قوله تعالى :

" لقد خلقنا الانسان فى كبد "

فمعناه أنَّ الانسان فى هذه الحياة فى تعب وكفاح ومشقة • كما قال فى سورة أخرى : " يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاً قيسه " (الانشقاق / ٦)

فالانسان منذ ولادته مروراً برضاعه وفطامه وحبوه ومشيه وخروج أسنانه وتعلمه وتفكره وتجاربه وسعيه لرزقه فى مكابدة ومشقة وجهد وكد ، ثم إنه يُكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء وهذا يكدح للقيمة العيش وذاك يكدح لملك أو جاه وهذا يكدح فى سبيل الله وهذا يكدح لشهوة أو نزوة •• وهذا يكدح لعقيدة ودعوة ، وهذا يكدح الى النار وهذا يكدح الى الجنة فالكل يكدح والفوز والفلاح لمن يكدح ويكابد لأجل مرضاة ربه والخسارة والهلاك لمن كدح لأجل هواه • وكانت النار مثواه ، والحاصل أنَّ معنى خلق الانسان فى كبد هو ما يمر بالانسان من معاناة ومشقة لأجل بلوغ أهدافه ايا كان نوعها (١) •

والذى يتلخص ان الانسان خلق وفيه صفات وأحوال متميزة تدل على الذى خلقه وصوره فقد اجتمع فى لانسان أنه خلق متكامل الجسد أعطاه الله قوة وعقلاً وهذا بالقوة والعقل يستخدمهما الانسان فى اطوار حياته لانه يكابد مشاق الحياة ، وهذا الانسان تتجلى فيه عناية الله بان خلقه فى أحسن تقويم —————
سوي الخلقة جميل المنظر •

(١) القرطبي ٦٢/٢٠ ، ابن كثير ٨٠٨/٤ ، البلد/٤ ، زاد المسر ١٢٩/٩ ،
المفردات للراغب /٤٢٠ ، فى ظلال القرآن ٣٩٠٩/٦

وهو مع ذلك كله ضعيفاً أمام الشهوات ومغريات الحياة ومن أجل ذلك شرع الله له منهجاً ليسير عليه وليضبط شهواته وينظم سلوكه وأفعاله حتى لا يكون فريسة لضعفه ،

إضافة الى ما رُكِّب فيه من طبع العجلة وقلة الصبر كأنه خلق من عجل ، فكل هذه الامور اجتمعت في الانسان ذلك المخلوق الذي سُخِّرَ له جميع السموات والارض حتى يتعرف على ربه ويعبده حق عبادته .

- قوله تعالى في شان خلق لانسان :

(وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا)
(الفرقان / ٥٤)

وقال تعالى : " ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر — تنتشرون " (الروم / ٢٠) .
وقال : (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تخشرون) (الانعام / ٢)
وقال : " فاستفتهم أهم أشد خلقا أم مَن خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب " (الصافات / ١١)

وقال : " خلق الانسان من صلصال كالفخار " (الرحمن / ١٤)

وقال : " ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون " (الحجر / ٢٦) .

هذه الآيات المتقدمة بعضها تُثبت أنَّ الانسان خلق من ماء وبعضها — تثبت أنه خلق من تراب والبعض انه خلق من طين والبعض الاخر انه خلق من صلصال كالفخار ،

وقد يتوهم أن بينها اختلافاً او تناقضاً . .

والجواب : أن الآيات التى تثبت خلق الانسان من ماء تشير الى خلق ذرية آدم من الماء المهيّن الذى يتدفق من الرجل الى رحم المرأة فيخلق الله منه البشر بقدرته ،

كما قال : " فلينظر الانسان ممّ خلق • خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب " (الطارق /)

وهذا لا يعارض أنّ أصله وهو آدم أبو البشر مخلوق من التراب ، فنسبة خلقه الى التراب باعتبار الاصل الذى هو آدم ،

ونسبة خلقه الى الماء باعتبار الفرع وهو ذرية آدم ،

وقد جمع الله فى عدة ايات بيان خلق الأصل والفرع

قال تعالى : " الذى احسن كل شئ خلقه وبدا خلق الانسان من طين

ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين • " (السجدة ٨ /)

وقال : " يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من

تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مُخلّقة وغير مُخلّقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مُسمّى " (الحج / ٥) •

فلاحظ انه سبحانه أضاف الخلق الى آدم أبو البشر الذى خلق من تراب

باعتباره أصلهم وأضافه الى النطفة المائية التى يدفعها الرجل لانها

بداية تكون الجنين فى بطن أمه ، ثم أضاف الخلق الى العلقه والمضغة لانها

مراحل تكوينه فى بطن أمه وهو تعالى الذى يُحوّل النطفة الى المضغة الى آخر

الخلق ،

كما قال فى آية اخرى : " ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم

جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة

فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك

الله أحسن الخالقين " (المؤمنون : ١٢-١٤) •

أما بالنسبة للآيات التى تنسب خلق آدم للتراب وبعضها للطين

وبعضها للصلصال الذى هو الفخار اليابس

فهو إشارة للمراحل التى مرّ بها خلق آدم عليه السلام ،

فنسبه الى التراب لأنه أول مرحلة فى تكوينه ،

ثم خلط التراب بالماء فصار طينا فذلك قوله: " من طين " فجعل الطين على صورة الانسان فجفَّ فكانت الريح اذا مرت به سُمِعَ له صلصلة فلذلك سمّاه الله صلصلا .

وقوله من صلصال من حمأ مسنون : أن الصلصال من حمأ وهو الطين والمسنون : الرطب الاملس (١) ،

فكل الاطوار متصلة اتصالا وثيقا بالتراب وهي أطوار له ، وإنما أراد الله سبحانه أن يُذكر هذا الانسان الحي المتحرك الذى هو آية من آيات الله بصله الذى خلق منه ، وكل لفظ إنماجاء ليناسب السياق والغرض ،

انظر مثلا الى قوله تعالى :

"ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون " (الروم/٢٠)

(والتراب هيت ساكن ومنه نشا الانسان .. ويعقبه مباشرة بصورة البشر منتشرين متحركين للمقابلة فى المشهد والمعنى بين التراب الميـت الساكن والبشر الحي المتحرك وذلك بعد قوله : يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي " تنسيقا للعرض على طريقة القرآن ،

وهذه المعجزة الخارقة آية من آيات القدرة ، وإيحاء كذلك بالصلصة الوثيقة بين البشر وهذه الارض التى يعيشون عليها والتى يلتقون بها فى أصل تكوينهم ، وفى النواميس التى تحكمها وتحكمهم فى نطاق الوجود الكبير والنقلة الضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد الى صورة الانسان المتحرك الجليل القدر .. نقلة تثير التأمل فى صنع الله وتستحث الضمير للحمد والتسبيح لله .. (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج٢/١٩٨ ، الانعام/٢ ، ج١/٨٥٢ ، الحجر/٢٦ ، ج٣/٢٨٥ ، المؤمنون/١٢ ، الرازى/١٩٨٣ ، ج٢٩/٩٨ ، القرطبي/١٧/١٦١ ، فتح الرحمن/٥٤٥ ، البرهان/٢/٥٤ ، زاد المسير/٤/٣٩٧ ، القصص القرآني ٣٧٥ عبد الكريم الخطيب .

(٢) فى ظلال القرآن ، ج٥/٢٧٦٣ .

يقول الامام احمد فى الرد على الزنادقة (١) : "نقول: هذا بدءُ خلق آدم خلقه الله أول بدء من تراب ثم بلَّ ذلك التراب فصار طينا فذلـــــــك قوله (من طين) فلما لصق الطين بعضه ببعض فصار طينا لازبا بمعـــــــنى لاصقا ، ثم قال " من سلالة من طين " يقول مثل الطين اذا عُصر انسلَّ من بين الاصابع ثم نتن فصار حمأ مسنون فخلق من الحمأ ، فلما جفَّ صار صلصالا كالفخار يقول: صار له صلصلة كصلصلة الفخار ، له دوى كدوى الفخار فهذا بيان خـــــــلقة آدم ، واما قوله من سلالة من ماء مهين " (السجدة / ٨) فهذا بدءُ خلق ذريته من سلالة يعنى النطفة اذا انسلت من الرجل فذلك قوله " من ماء " يعنى النطفة " مهين " يعنى ضعيف ، فهذا ما شكت فيه الزنادقة " اهـ .

وللرازى نظر دقيق فى تفسير هذه الايات حيث ذكر وجهها آخر فى التوفيق بينها فقال (٢) :

" ويمكن أن يقال بأن الطين: ماء وتراب مجتمعان والادى أصله منى، والمنى أصله غذاء ، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية بالآخرة ترجع الى النباتية ، والنبات وجوده بالماء والتراب الذى هو الطين " اهـ .

قلت: وهو يريد أن قوله تعالى : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من تراب " . " ومن آياته أن خلقكم من تراب " .

كما أنها تدل على أصل الانسان وهو آدم الذى خلق من تراب فإنهم تدل بعموم لفظها أن تكوين البشر يرجع الى التراب حيث إنَّ غذاء الانسان يرجع الى عناصر التراب وذلك ان النطفة هي خلاصة الاغذية المأخوذة من الماء والتراب ، ومما يدل على ذلك أن الانسان عندما يموت ويمضى عليه زمن يتحلل التراب كما قال تعالى على لسان الكفار : اإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد " (ق / ٣) .

(١) الرد على الزنادقة ٩-١٠ ، وانظر : التنبيه والرد على اهل الاهواء والبدع لأبي الحسين الططبي ص ٦٨ ففيه نفس معنى كلام الامام احمد .

(٢) تفسير الرازى ج ٢٦ ص ١٧٣ عند آية " وبدأ خلق الانسان من طين " .

مفهوم الاختلاف في آيات الجهاد والدعوة (١)

وأعني بآيات الجهاد : الآيات التي تتناول موقف المسلمين جماعة وأفراداً من أهل الملل الأخرى سواء المشركين أو المنافقين أو أهل الكتاب في الحرب والسلام

ومعلوم أن الجهاد قد فُرض على المسلمين بالتدرج تمشياً مع حالهم وظروفهم وامكانياتهم والواقع الذي يعيشونه كما سيأتي توضيحه ومعلوم أن الجهاد فُرض لغايات سامية فيها سعادة البشر في الدارين

ذلك أن الدين الاسلامي خاتم الاديان، وهو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية وعليه يدور الحساب ((ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين))

ولذلك جاء فرض الجهاد من أجل حماية الدعوة الى الله ونشر الاسلام لإخراج الناس من عبادة الالوثان والطواغيت الى عبادة الله الواحد القهار حيث إنه من المعلوم أن الوقوف أمام الدعوة ونشر الاسلام هو ظلم في حق البشرية لما فيه من منع الخير عنهم فكان الجهاد لازالة العوائق القائمة والمحتملة في طريق الدعوة وفرض سلطان الاسلام في العالم ورفع الظلم عن عباد الله في الارض

كما قال تعالى : ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير)) الانفال / ٣٩ وقال : ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)) الصف / ٩

(١) الجهاد في اللغة :- مصدر من الجهد - بفتح الجيم - وهو التعب والمشقة أو من الجهد - بضم الجيم - وهو الطاقه لان المجاهد يبذل طاقته في دفع عدوة أو تحقيق مقصوده ، ومنه ((وأقسموا بالله جهد أيمانهم)) لسان العرب ج ٣ / ١٣٣ مادة جهد مفردات الراغب / ١٠١ واصطلاحاً :- استفراغ الوسع في نشر الدين و قتال العدد مفردات الراغب ص / ١٠١

وسميته آيات الجهاد والدعوة مع أن الجهاد يشمل الدعوه لظن الكثير أن كلمة الجهاد تعني فقط القتال

مع أنه لا يتصور جهاد للمسلمين لا يسبقه دعوة للاسلام .
كما أن الله سمى الدعوة الى دينه وقرانه جهاداً في قوله تعالى :- ((وجاهدوهم به جهاداً كبير)) أي بالقران والآية مكية من سورة الفرقان قبل نزول فرض القتال كما سيأتي تفصيله بمشيئة الله

(٢) الفتنة :- الشرك والكفر بالله وهو مصدر لكل فتنة وفساد وظلم

وبما أن هذه الشريعة هي الهدى وهي دين الحق الذي اراد الله ظهوره وهي المصلح الوحيد لحياة البشر والطريق الوحيد الى الله لأجل ذلك كان الوقوف في وجه هذه الدعوة صد عن سبيل الله وصد عن الحق والهدى واسباب الفلاح والسعادة في الدارين ((ومن ثم كان من حق البشرية أن تبلغ اليها الدعوة التي هذا المنهج الالهي الشامل ، وألا تقف عقبة أو سُلْمة في وجه التبليغ بأي حال من الاحوال، ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة اليهم أحرارا في اعتناق هذا الدين لا تصدمهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة ، فاذا أبى فريق منهم أن يعتنق بعد البيان ، لم يكن له أن يصدَّ الدعوة عن المضي في طريقها ، واذا اعتنقها من هداهم الله اليها كان من حقهم ألا يُفْتَنُوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة ، لا بأذى ولا باغراء ولا باقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة، وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة ضمانا لحرية العقيدة وكفالة لأمن الذين هداهم الله .

وينشأ عن تلك الحقوق واجب الجماعة المسلمة وهو مقاتلة كل قوة تعترض طريق الدعوة وابلاغها للناس في حرية ، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها ، وأن تظل تجاهد حتي يصبح الدين كله لله ، لا بمعنى اكراه الناس على الايمان ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب النور والهدى عن أهله ويضلهم عن سبيل الله .))^(١) ٥١ هـ

هذا وقد جاءت آيات قرآنيه تأمر بالعفو والمصفح والاعراض عن المشركين ونحو ذلك وهي قوله تعالى :-

(١) ((فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره)) البقرة / ١٠٩

(٢) وقوله : ((ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا

الصلاة)) الآية - النساء / ٧٧ -

(٣) وقوله : ((فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)) - الحجر / ٩٤

(٤) وقوله : ((فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون)) - الزخرف / ٨٩

(١) في ظلال القرآن ، بتصريف قليل ج ١ / ١٨٦ - ٧٨٧

(٥) وقوله : ((وأصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا)) المزمّل/١٠
هذه الآيات وما مثلها تتضمن اجمالا الأمر بالعفو والصفح
والصبر على أذى المشركين وكف الأيدي عنهم وعدم مصادمتهم

وقد جاءت آيات أخرى تأمر المؤمنين بقتال الكفار اما مطلقا
واما في حالات معينة كمقاتله من يقاتلهم وهي :-

(١) قوله تعالى : ((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا

تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)) - البقرة / ١٩٠ -

(٢) وقوله تعالى : ((كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن

تكرهوا شيئا وهو خير لكم)) - البقرة / ٢١٦ -

(٣) وقوله : ((فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم

واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد)) - التوبة / ٥ -

الى غير ذلك من الآيات التي تتضمن الأمر بقتال الكفار فقد

يتوهم أن بين هذه الآيات اختلافا أو تعارضا لأن بعضها يأمر

بالعفو والاعراض عن المشركين ، وبعضها يأمر بقتال من قاتلهم

والبعض الآخر يأمر بقتال المشركين مطلقا

والجواب :- أن الجهاد في الاسلام قد فرض بالتدرج بما يتلائم

مع واقع المسلمين وحالهم من الضعف أو القوة تمشيا مع استعدادهم

وظروفهم وواقعهم، وتمشيا مع مصلحة الدعوة وانتشار الدين من

أجل ذلك كانت المرحلة المكية وبداية العهد المدني مرحلة الجهاد

بالقلب واللسان والكف عن المشركين والصبر على أذاهم ودعوتهم

الى الاسلام وتحمل ما يقع من أذاهم والعفو عنهم وهذا ما توضحه

الآيات التي تقدم ذكرها من قوله ((فاصدع بما تؤمر وأعرض عن

المشركين))

وقوله : ((ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ...))

وقوله : ((فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ...))

وقد نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أصحابه عن قتال أهل

مكة في هذه الفترة وأمرهم بالصبر والثبات وقوة اليقين حتى

يأتي أمر الله

روى النسائي^(١) والبيهقي^(٢) والحاكم^(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : ((اني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم)) ومن المعلوم أن الرسول نفسه - صلى الله عليه وسلم - لقي من أذى المشركين واستهزائهم الشيء الكثير . وكذلك أصحابه وقد مرّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - على آل ياسر وهم يُعذبون فقال لهم : ((اصبروا آل ياسر فان موعدكم الجنة))^(٤)

وها هم الصحابة يأتونه يشكون اليه من أذى المشركين فقد روى البخاري^(٥) رحمه الله عن خباب بن الأرت قال : ((شكونا الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعوا الله لنا)) ، فذكرهم بما كان يلقي السابقون من الأذى والعذاب من أجل دينهم وهم صابرون ثم قال لهم : ((والله ليتمن هذا الامر حتي يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون)) هذا وقد قال صلى الله عليه وسلم لما استأذنه أهل يثرب ليلة العقبة أن يميلوا على أهل منى فيقتلهم قال : ((إني لم أؤمر بهذا))^(٦)

والملاحظ أن آيات الأمر بالعفو والمفح وكف الأيدي منها ما هو مكّي، ومنها ما هو مدني جاء في بداية العهد المدني حيث إن الصحابة رضي الله عنهم - لما استقر بهم الحال في المدينة وتشوقوا لنصرة الاسلام ورد كيد المعتدين وخاصة اليهود الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر ويكيدون للمسلمين ، فأمرهم الله بالعفو والمفح حتي يأتي الله بأمره وهو فرض الجهاد عليهم والجلاء والنفي أو

(١) النسائي في سننه / كتاب الجهاد ، باب وجوب الجهاد ج ٦ / ٢ - ٣

(٢) سنن البيهقي / كتاب السير / باب مبتدأ الاذن بالقتال ج ٩ / ١١

(٣) المستدرک ج ٢ / ٦٧ كتاب الجهاد و قال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي

(٤) مجمع الزوائد للهيتمي ٢٩٣ / ٩ سيرة ابن هشام ج ١ / ٢٧٩ عن عثمان بن عفان مرفوعاً ، قال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله الصحيح غير ابراهيم ابن عبد العزيز المقوم وهو ثقة

(٥) البخاري / كتاب الاكراه / باب ١ من اختار الغرب والقتل والهوان علي الكفر ج ٨ / ٥٦ والثاني ٢٠٤ / ٨ في الزينة ، باب لبس البرود ج ٨ / ٢٠٤

(٦) مسند أحمد ٤٦٢ / ٣ سيرة ابن هشام ج ٢ / ٦٨ وهو بعض حديث طويل رواه ابن اسحق بسنده عن كعب بن مالك رضي الله عنه .

القتل والسبي لأهل الكتاب

أخرج البخاري* ومسلم وغيرهم عن أسامة بن زيد قال ((كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله عز وجل (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا)

آل عمران / ١٨٦

وقال ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره)) وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتأول في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أذن له فيهم (٠٠٠)) وعلى هذا فإن الأمر بالعفو والصفح وتحمل الأذى في هذه المرحلة إنما أمر به إلى غاية لقوله : حتى يأتي الله بأمره (٠٠٠)) وما هذا سبيله لا يكون من باب المنسوخ إنما هو من التدرج في التشريع فلكل ظرف حكمه الخاص به (١)

والآيات والأحاديث السالفة الذكر تدلنا على طبيعة تلك المرحلة الأولى والتي كان المسلمون فيها في وضع لا يؤهلهم لمنازلة المشركين ويعود ذلك لأمر منها :-

١ - أن الإسلام دين دعوة والدعوة السلمية أشد أثرا و أنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية و الشرف و التي لا يزيدها القتال إلا عنادا فلذلك نجد أن الله تعالى قد أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - بجهادهم بالقرآن كما قال تعالى :

((وجاهدوهم به جهادا كبيرا)) الفرقان / ٥٢

فجهاد الدعوة باللسان ، و السلوك ، و المجادلة بالتي هي أحسن ، و بيان بطلان معتقداتهم هو جهاد كبير كما قال الله تعالى، كما أن المطلوب هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة فلا بد من إعطاء المشركين فرصة كافية للتفكير والتأمل وسماع القرآن الذي تحداهم الله بأقصر سورة منه فعجزوا مع توفرالهم والدواعي على معارضته .

(١) روح المعاني لللالوسي ج ١ / ٣٥٧ زاد المسير ١ / ١٣٢ القرطبي ج ٢ / ٧٠-٧١

الرازي ج ٤ / ٢٤٤ - ٢٤٥

وأنظر الدر المنثور ج ١ / ٢٦٠ - ٢٦١

حيث نقل عن قتادة والسدي أن الآية منسوخة بآيات القتال .

(*) البخاري في التفسير ج ٥ / ١٧٢

٢ - ومن الأمور المانعة من الأمر بالقتال في تلك الفترة :- أنها كانت فترة تربية وإعداد، وتحمل الصبر وضبط الأعصاب، وعدم الاندفاع لأول مؤثر، والتعود على اتباع الجماعة وقيادتها والرجوع إليها في كل أمر، وترك ما ألفوه من العصبية القبلية ونحوها

٣ - ومن الأسباب قلة المسلمين في تلك الفترة وضعف قوتهم بالنسبة إلى قريش ومن شايعها

٤ - ومن الأسباب أن أذى المؤمنين وفتنتهم كانت موكولة إلى أولياء كل فرد ولم يكن الأمر موكولا إلى سلطة نظامية عامة

فمعنى الأذن بالقتال في مثل هذه الحال أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت وبالتالي يكون ذلك من أسباب الصد عن دين الله

٥ - ومن الأسباب ما كان يعلمه الله عز وجل من أن كثيرا من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام بل من قاداته : ومن هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١)

هذا وقد انتهت هذه المرحلة من مراحل الدعوة والجهاد بأذن الله تعالى لرسوله - صلي الله عليه وسلم - وأصحابه رضوان الله عليهم بالهجرة للمدينة بعد أن بلغ أذى المشركين وصددهم عن دين الله مبلغا عظيما حتى أنهم تأمروا على قتل صاحب الدعوة وأعدوا لذلك مؤامرة تولى كبيرها أبو جهل - أخزاه الله - وفي هذا نزل قوله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) - الانفال / ٣٠ -

هذا بالنسبة لآيات الجهاد في المرحلة المكية أي ما قبل الهجرة

٢ - فلما أذن الله بالهجرة وأصبح المؤمنون على درجة من القوة تسمح لهم برد الظلم والاعتداء والدفاع عن أنفسهم أباح الله القتال من غير فرض وهو ما يدل عليه قوله تعالى :

(١) أنظر : سيرة ابن هشام ج ١ / ٢٩٤ - ٢٩٩
البرهان للزركشي ج ٢ / ٤٢ تفسير الرازي ج ٤ / ٢٤٤ - ٢٤٥
في ظلال القرآن ج ١ / ١٨٥ - ١٨٦ .

قوله تعالى :

((أُنْذِرَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا)، وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ)، وَلَوْلَا
دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمُجَادُّ
يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ)) الحج / ٣٨ - ٤٠

قال ابن كثير^(١) : فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي - صلى الله عليه وسلم - من بين أظهرهم وهَمُّوا بقتله وشردوا أصحابه شذراً مذنراً فذهب منهم طائفة إلى الجشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واجتمعوا عليه وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومقلاً يلجئون إليه ، شرع الله جهاد الأعداء فكانت هذه أول ما نزل في ذلك*) (١٠ هـ

فقد حكم الله لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم فهم مظلومون غير معتدين وأخرجوا من ديارهم بغير حق ، وصدوا عن الدعوة إلى الله ومن ذلك الوقت شرع القتال للتهيا للدفاع والتمكن من وسائل الجهاد لحماية الحق والخير ودعوة الله لأنه لا بد للحق من قوة تحميه والقوة المادية التي يملكها أهل الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وللمبر حد وللاحتمال أمد^(٢)

٣ - وبعد هذا الاذن بالقتال من غير فرض ، فرض القتال على المسلمين لمن يقاتلهم فقط ويدل على ذلك قوله تعالى :

((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)) البقرة / ١٩٠

قال أبو العالية والربيع وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد^(٣) في تفسير الآية : هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٣ / ٣٦٢ الحج / ٤٠ وأنظر زاد المسير ج ١ / ١٩٨

(٢) أنظر في غلال القرآن ج ٤ / ٢٤٢٤ نقض كتاب في الشعر الجاهل للعلامة محمد

الخصر حنين ص ١٤٤ - ١٤٥

* وأخرج الحاكم بسند على شرط الشيخين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : هي أول آية نزلت في القتال المستدرك ج ٢ / ٣١ كتاب التفسير سورة الحج وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٣) تفسير الطبري ج ٣ / ٥٦٢ تحقيق محمود شاكر

تفسير ابن كثير ج ١ / ٣٣٩ ، البقرة / ١٩٠

زاد المسير ج ١ / ١٩٧ ، القرطبي ج ٢ / ٣٤٧

روح المعاني ج ٢ / ٧٤

فلما نزلت كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقاتل من قاتله ويكف عمن كفَّ عنه حتى نزلت سورة براءة ،

قلت : وعلى هذا فان هذه الآية توضح طبيعة مرحلة من مراحل الجهاد وهي قتال من قاتل من المشركين دون من سواهم ملائمة مع ظروف المسلمين في ذلك الوقت وامكانياتهم وبذلك فان هذه الآية لا تعارض الآيات التي تأمر بمطلق مقاتلة المشركين اينما كانوا

وهناك وجه آخر في تفسير الآية قاله ابن عباس ومجاهد وعمر ابن عبدالعزيز وهو أن معنى الآية : قاتلوا الذين هم في حالة قتال لكم وهم الرجال المقاتلون من أهل الشرك دون النساء والصبيان والرهبان في الموامع ونحو ذلك فان هؤلاء لا يُقاتلون (١)

كما جاء في صحيح مسلم (٢) عن بريده رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول ((اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً))

روى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم ((نهى عن قتل النساء والصبيان)) (٣) وقد أيد ابن كثير هذا الوجه . فقال (٤) : ان معنى قوله ((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم)) انما هو تهيج واغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الاسلام وأهله أى كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم ، كما قال : ((وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة))

ولهذا قال في هذه الآية : ((واقتلوهم حيث ثقتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم)) أى لتكون همتهم منبثة على قتالهم كما همتهم منبثة على قتالكم . ((وعلي هذا الوجه وعلى هذا الوجه الثاني فالآيات متوافقة أيضا لأن المعنى حينئذ هو قتال عموم أهل

(١) تفسير الطبرى ٣ / ٥٦٢

ابن كثير ١ / ٢٤٠ روح المعاني ٢ / ٧٤ زاد المسير ١ / ١٩٧ / ١٩٨

(٢) مسلم في الجهاد والسير / باب تأمير الامام الأمراء علي البعوث (شرح النووى ١٢ / ٣٧) .

(٣) أخرجه البخارى في الجهاد باب قتل النساء في الحرب ج ٤ / ٢١ ومسلم في الجهاد / باب تحريم قتل النساء والصبيان (شرح النووى ١٢ / ٤٨)

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ / ٢٤٠ البقرة / ١٩٠ .

الشرك الذين همتهم قتال المسلمين دون النساء والذرية ونحوهم ممن لا همة له في القتال وهذا موافق للآيات التي عممت قتال المشركين في المرحلة الأخيرة من مراحل فرض الجهاد ، وهذا التوجيه للآية وان كان محتملا الا أن الوجه الأول هو الظاهر لما تقدم من أنها أول آية نزلت في القتال وأنها تمثل مرحلة من مراحل تشريع الجهاد بما يتلائم وظروف المسلمين وامكانياتهم فهذه الآية تبين لنا مرحلة من مراحل الجهاد وهي قتال من قاتل المسلمين لكن لما كان أهل الشرك والكفر مجتمعين على معاداة المسلمين والصد عن دين الله جاءت الآية لحفز الهم والاستعداد لمقاتلة من يقاتلهم وهم أهل الكفر والشرك المحيطين بالمدينة بحسب القدرة والاستعداد وظروف المرحلة مبتدئين بمن يليهم من الكفار ،

كما قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ)) التوبة / ١٢٣

فالامر بقتال من يليهم لا ينافي الأمر بقتال كافة المشركين المستحقين للقتال لأنه لا بد أن يبتدئوا بالاقرب ثم الأبعد حيث أنه لا يمكن قتال جميع الكفار وغزو جميع البلاد في زمان واحد فكان من قُرب أولى مِمَّنْ بَعُدَ، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من الهجوم على الذراري والضعفاء، والآية ليست واردة في بيان سبب القتال وانما جاءت ارشادا لخطة حربية يجب أن يترسمها المسلمون عند نشوب القتال المشروع فهي ترشدكم الي وجوب البدء عند تعدد الأعداء بقتال الأقرب فالأقرب عملا على اخلاء الطريق من الأعداء المناوئين وتسهيلا لسبل الانتصار (١) .

ولهذا أمر الرسول بتطهير الجزيرة من المشركين (٢) لأنها قاعدة الاسلام ومن هنا قاتل الرسول - صلى الله عليه وسلم - قومه ثم انتقل الي قتال سائر العرب ثم الي قتال قريضة والنضير وخيبر ثم الي قتال الروم ، وجرى أصحابه علي سنته حتى وصلوا السي مشارق الأرض ومغاربها (٣)

(١) تفسير شلتوت : ٥٣١

(٢) سيأتي قريبا تخريجه

(٣) تفسير الطبري ١٤ / ٥٧٤ تحقيق محمود شاكر

الرازي ١٦ / ٢٣٤ ، القرطبي ٨ / ٢٩٧ في روح المعاني ٤٩ / ١١

أحكام القرآن لابن العربي ج ١ / ١٠٢

أحكام القرآن للشافعي جمع البيهقي ج ٢ / ٢٩ - ٣٠ ج ٤ / ١٨١

وهذه المرحلة تهيئه للمرحلة التي بعدها

٤ - وهي مرحلة انتشار الدعوة ومقاتلة كل من يقف في طريقها من أهل الكفر والشرك داخل الجزيرة وخارجها وجاءت هذه المرحلة بعد أن استقر حال المسلمين وقويت شوكتهم ودانت أكثر العرب للإسلام .

وموقف المسلمين من الكفار والمشركين عامة في هذه المرحلة وما بعدها له ثلاثة أقسام :

القسم الأول : موقفهم من مشركي العرب أهل الأوثان داخل الجزيرة فهؤلاء كان حكمهم إما الإسلام وإما القتال لقوله تعالى : ((قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ٠٠٠٠)) الفتح / ١٦ والمراد بهم أهل الأوثان من العرب هوازن وثقيف وغطفان وبني حنيفة ، وقد قاتلهم أبو بكر حتى خضعت الجزيرة للإسلام ، قال ذلك مجاهد وسعيد بن جبير وقتاده والزهرى ومقاتل وغيرهم (١) قال ابن الجوزي (٢) : وقال بعض أهل العلم :- لا يجوز أن تكون هذه الآية إلا في العرب لقوله : ((تقاتلونهم أو يسلمون))

وفارس والروم إنما يقاتلون حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية)) ٥٠١ هـ

قلت : وفي مشركي الجزيرة الذين بلغتهم الدعوة وعرفوا الإسلام فلم يؤمنوا بل حاربوا الإسلام وقاتلوا أهله و يتربصون بالمسلمين الدوائر في هؤلاء نزل قوله تعالى :-

((فإذا انسلك الشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم)) التوبة / ٥

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ / ٢٩٢ الفتح / ١٦ ، تفسير ابن جرير ٥٢ / ٢٦ طبعة دار المعرفة زاد المسير / ج ٧ / ٤٣٠ - ٤٣٢ ، النكت والعيون : ٦١ / ٤ ، الدر المنثور : ٧٢٠ / ٧ روح المعاني ج ٢٦ / ١٠٤ - ١٠٥ ، ج ٢ / ٧٦ روى أن المراد فارس والروم وهو غير صحيح لأنهم إن دفعوا الجزية فلا يقاتلون (٢) زاد المسير ج ٧ / ٤٣٢ وأنظر روح المعاني للالوس ج ٢٦ / ١٠٥

لأن الذين أمهلوا هذه الأشهر الحرم إنما هم عرب الجزيرة .
وسبب تعيين الاسلام أو القتال بالنسبة لهؤلاء أمور منها :-
أن الله اختار العرب لحمل هذا الاسلام ونشره في ربوع الأرض
وليكونوا قادة الاسلام الأولي وخير أمة أخرجت للناس ، ومنها :
لتخلى الجزيرة للاسلام فلا يدع المسلمون وراءهم أعداء وهم
يواجهون الروم و الفرس خارج الجزيرة .
فكان تطهير الجزيرة من الشرك و المشركين ضرورة لتأمين
القاعدة الاسلاميه من المتربصين بالمسلمين من أعدائهم المعاشين
لهم من المشركين وأهل الكتاب الذين تكررت غدراتهم ونقضهم
للعهود فكانوا في حالة اعتداء دائم للمسلمين .
(*)
فكان لابد من تطهير القاعدة قبل الانطلاق للمعارك الخارجية المتوقعة
ومنها ، أن العرب كانوا على دين ابراهيم دين الحنيفية فأنحرفوا
وبدلوا فكان الاسلام قريبا من نفوسهم لولا العناد والعنجهية
والعصبية اضافة الى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نشأ بين
أطهرهم وهو من أنفسهم ونزل القرآن بلغتهم وذلك من أقوى البواعث
على ايمانهم ومن أجل ما تقدم أوصى الرسول - صلى الله عليه وسلم
عند موته ((باخراج المشركين من جزيرة العرب ^(١))) ، وأخرج
مسلم ^(٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة
العرب حتي لا أدع الا مسلما .
وفعلنا فقد أجلى عمر بن الخطاب في امارته اليهود والنصارى من
أرض الحجاز كما روى ذلك البخارى وغيره ^(٣) .

(١) البخارى: كتاب الجهاد والسير ، باب ١٧٦ هل يستشفع الى أهل الذمة ج ٤ / ٣١
وفي كتاب الجزية والموادعة باب ٦ اخراج اليهود من جزيرة العرب ج ٤ / ٦٥
(٢) صحيح مسلم كتاب الجهاد ، باب اجلاء اليهود من الحجاز ، (شرح النووي : ١٢ / ٩١)
(٣) البخارى : كتاب الحرب والمزارعة باب ١٧ ، ج ٣ / ٧١
وانظر: موطأ مالك ج ٢ / ٨٩٣ تحقيق عبد الباقي ، كتاب الجامع ، باب في اجلاء
اليهود من المدينة

(١) وما يشهد لما تقدم ما رواه أحمد عن ابن عباس أن النبي - صلى الله وسلم - قال لعمه أبي طالب : (يا عم اني انما أريدكم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية ، قالوا وما هي ؟ نعم وأبيك عشرا ، فقال : لا إله إلا الله ... الحديث)
(٢) فخص العجم بالجزية من دون العرب ، وأخرج أبو عبيد في كتاب الاموال عن الحسن البصري قال :

(أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يُقاتل العرب على الاسلام ولا يقبل منهم غيره ، وأمر أن يُقاتل أهل الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) اهـ

القسم الثاني : موقف المسلمين من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ويلحق بهم المجوس (٣) وهؤلاء نزل في حقهم قوله تعالى ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)) التوبة/٢٩ فيُدمون أولا للاسلام فان أبو تطلب منهم الجزية ، فان أبوا يُقاتلوا ،

أخرج مسلم (٤) عن بُريدة رضي الله عنه قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انا أمّر أميرا على جيش أو سرية أو صاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ،

ثم قال : اغزوا باسم الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تُمثلوا ولا تقتلوا وليدا وانا لقيت عدوك

(١) مسند أحمد : ج ٥ / ١٤١ رقم ٢٤١٩ تحقيق احمد شاكِر ، (٢) الاموال لابن عبيد : ٣٤

(٣) لأنه ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم - ((أخذ الجزية من مجوس هجر)) رواه البخاري في كتاب الجزية والمودعة مع أهل الذمة باب / ١ ج ٤ / ٦٢ وأبو داود في الخراج والامارة / باب في أخذ الجزية من المجوس ج ٤ / ١٤٦ والترمذي في السير / باب ما جاء في أخذ الجزية من المجوس ج ٤ / ١٤٦ كلهم عن بجاله بن عبده قال : لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذها من مجوس هجر))

قلت : ((هجر)) اسم بلد معروف في (البحرين)
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير / باب تأييد الامام الامراء على البعوث شرح النووي ١٢ / ٣٧ .

من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال أو (خلال) فأيتها
ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم الى الاسلام
فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فان هم أبوا ففسد هم
الجزية فان هم أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم
فان هم أبوا فاستعن بالله و قاتلهم (١)

والمراد بالمشركين في الحديث ، أهل الكتاب و المجوس
وهم نصارى العرب و الروم و فارس .

(١) قال النووي في شرح مسلم (١٢ / ٣٩) هذا ما يستدل به مالك والأوزاعي
و موافقهما في جواز أخذ الجزية من كل كافر عربيا كان أو عجميا كتابيا
أو مجوسيا أو غيرهما ، و قال أبو حنيفة رضي الله عنه تأخذ الجزية
من جميع الكفار الا مشركي العرب و مجوسهم ،
و قال الشافعي : لا يقبل الا من أهل الكتاب و المجوس عربا كانوا
أو عجميا و يحتج بمفهوم آية الجزية و حديث :
(سنوابهم سنة أهل الكتاب) (*)
ويتأول هذا الحديث على أن المراد بأخذ الجزية أهل الكتاب لأن اسم
المشرك يطلق على أهل الكتاب و غيرهم ، و كان تخصيصهم معلوما عند
الصحابة ((٠٠٠٠)) ٥٠١ هـ
أنظر : المغني لابن قدامة : ٨ / ٤٩٦ ، الأم للشافعي : ٤ / ١٧٤
٢٤٠ - ٢٤١ الأموال لأبي عبيد ٣٤ - ٤٥
تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٤٢ التوبة / ٢٩ ،
روح المعاني للألوسي ١٠ / ٧٩
* قلت : وهو ضعيف بهذا اللفظ ، و صح بلفظ آخر :
(أن الرسول أخذ الجزية من مجوس هجر) و تقدم قريبا
و أنظر : إرواء الغليل : ٥ / ٨٨

القسم الثالث : وهم الكفار من غير أهل الجزيرة وغير أهل الكتاب والمجوس فهؤلاء لا ينطبق عليهم حكم مشركي الجزيرة أو حكم أهل الكتاب.

لذا فانهم يُدعون للإسلام ويُرغبون فيه وتقام الحجة عليهم فان آمنوا واهتدوا وخضعوا للإسلام كان به ، وإلا فانهم يغيرون بين الإسلام أو القتال^(١) لقوله تعالى : ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)) المفا/١

وقوله تعالى : ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير)) الأنفال / ٣٩

ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ((لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ٠٠٠)) الآية البقرة / ٢٥٦

لأن القتال ليس موجهاً ضد الأفراد وإنما هو ضد الحكومات والعقبات المادية التي تقف في طريق الدعوة إلى الإسلام حيث أن الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه^(٢) كما هو نص الآية لذا فان الغاية من القتال في الإسلام كما تقدم هو إخضاع الناس لسلطان الدولة المسلمة حتى لا تكون فتنة ويكون الحكم لله وحتى يتاح للأفراد حرية اختيار الدين الحق

يقول ابن كثير^(٣) عند تفسير قوله تعالى : ((لا اكراه في الدين ٠٠٠)) أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام فانه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم سمعه وبصره فانه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً (١٠) د

(١) ذهب الامام مالك والارزاعي وأبو حنيفة رحمهم الله قال أن جميع الكفار سواء كانوا أهل كتاب أو مجوس أو عباد أوثان ونحو ذلك جميعهم تؤخذ منهم الجزية واستثنى أبو حنيفة مشركي العرب ومجوسهم ويرى الشافعي أن غير أهل الكتاب المجوس ليس لهم الإسلام أو المقاتلة حتى يسلموا فان ضعفنا عن ذلك فلا يسقط هذا الحكم ولكن نقوم به عند المقدرة أنظر : المغني ج ٨ / ٤٩٦ تفسير ابن كثير ٢ / ٥٤٢ التوبة / ٢ روح المعاني ١٠ / ٧٩

(٢) يستثنى من ذلك مشركي الجزيرة لما تقدم من اسباب تخصهم .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ / ٤٦٤ البقرة / ٢٥٦

قلت :- والآية أيضا يعم حكمها أهل الكتاب لأنهم لا يجبرون على الدخول في الاسلام بحال من الاحوال وانما يقاتلون على دفع الجزية عند رفضهم الدخول في الاسلام فان دفعوا الجزية تركوا دينهم^(١) وما يدل على عدم جواز اكراه أهل الكفر عموما على الايمان أن الايمان المبني على الاكراه لا عبرة به كما أن الكفر المبني على الإكراه لا عبرة به أيضا ، لأن الايمان والكفر من اختصاص القلوب قال الله تعالى : ((من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان)) ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) ، فالاسلام لا يعترف بمظهر الايمان الناشئ عن القهر والالغاء كما لا يعبأ بمظهر الكفر تحت الضغط والاكراه مع اطمئنان القلب بالايمان ، إضافة الى أن الدنيا دار ابتلاء ، ولا ابتلاء مع الاكراه قال تعالى : ((الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا)) الملك / ٢

فاكراه الكفار على الاسلام بالقوة يتناقض تماما مع هذا التصور^(٢) يقول الرازي^(٣) عند تفسير قوله : ((لا إكراه في الدين ...)) نقلا عن أبي مسلم والقفال : ((انه تعالى ما بني أمر الايمان على الاجبار والقسر وانما بناءه على التمكن والاختيار ، حيث أنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للعذر فلم يبق بعد إفصاحها للكافر عذري في الإقامة على الكفر ، إلا أن يُجبر على الايمان ويقصر عليه وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار ابتلاء وفي القهر والاكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان ، ونظير هذا قوله تعالى : ((فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)) وما يؤكد هذا القول أنه تعالى قال بعد هذه الآية : ((قد تبين الرشد من الغي)) يعني ظهرت الدلائل ولم يبق إلا طريق القسور والاكراه وذلك غير جائز يناقض التكليف)) ا

(١) الجزية في الاسلام لها أسباب و غايات ، فمن أسبابها أنها بدل الاحماية والمنع لأهل الذمة حيث إنهم يتمتعون بحماية دولة الاسلام و خدماتها وفيها دفع الاحراج عنهم حتى لا يلتزموا في معارك المسلمين مع غيرهم الى غير ذلك من الاسباب

أنظر : تاريخ الرسل والملوك للطبري ج ٣ / ٣٦٢

وراجع كتاب : افتراءات حول غايات الجهاد للدكتور محمد نعيم ياسين ، ١٠٥-١٠٩

(٢) تفسير الشيخ محمود شلتوت ٥٢٣ - ٥٣١ ، كتاب الجهاد المشروع في الاسلام : الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود ط ٢ ص / ٩ ، افتراءات حول غايات الجهاد ٢٤-٢٥

(٣) تفسير الرازي ج ٧ / ١٤ ، وأنظر روح المعاني ٣ / ١٢ القرطبي ٣ / ٢٣٠

قلت : لا ينافي قوله تعالى ((لا اكراه في الدين ...)) الآية ، ما جاء من آيات فيها اطلاق مقاتلة المشركين ووجوب ظهور الدين على كل الأديان ، كقوله تعالى :

((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)) الانفال
وقوله تعالى : ((هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)) التوبة / ٣٣

فقد قُصرت الفتنة في الآية الأولى بفتنة المسلمين عن دينهم
وصد الناس عن الدخول في الاسلام فانها أعظم فتنة وهذا مما يوجب
مقاتلة المشركين لدفع فتنهم للعباد باغوائهم وايقاعهم في
الشرك والفساد كما قال تعالى : ((وما لكم لا تقاتلون في سبيل
الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون
ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها .)) النساء / ٧٥

ولا شك أن استضعاف هؤلاء المسلمين من الفتنة ومعنى الآية : أنه لا عذر لكم في ترك المقاتلة وقد بلغ حال المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من المسلمين إلى ما بلغ في الضعف والقهر فهنا حث شديد على القتال وبيان العلة التي لها صار القتال واجبا وهو ما في القتال من تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدي الكفرة لأن هذا الجمع الي الجهاد يجرى مجرى فكك الأسير^(١) ونحن نرى اليوم كثيرا من الأقليات المسلمة في دول الكفر وقد استضعفوا وفتنوا عن دينهم حتى أنهم ليجبرون على تغيير اسمائهم الاسلامية ويجبرون على الانخراط في حياة الكفرة من الفساد والاختلاط وأكل المحرمات إلى غير ذلك .

فهؤلاء لهم على المسلمين واجب تخليصهم من الاستضعاف والفتنة ولا سبيل الي ذلك الا باحياء الجهاد في سبيل الله الذي يخاف منه أعداء الاسلام لما يعلمون من نتائجه وقوته في رفع الظلم عن عباد الله وتحريرهم من هيمنة أنظمة الكفر

وكما سبق فان قتال المشركين في الاسلام ليس موجبه ضد الافراد
بأعينهم ولا لإجبار أحد على اعتناق الاسلام، وانما هو قتال للأنظمة
السياسية والاجتماعية القائمة على الباطل والكفر والظلم والتي
تصد عن سبيل الله وتحول بين الاسلام وبين شعوبها قولاً وعملاً

(۱) الرازی ۱۰ / ۱۸۲

وهكذا كانت سيرة المسلمين في فتوحاتهم فانهم لم يقاتلوا الشعوب والأفراد بل الأنظمة وحكائهم عندما يصدون عن سبيل الله ويمنعون الشعوب من حرية اختيار الدين الذي يريدونه (١) .

ولهذا فان معنى قوله تعالى : ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون))

هو ظهور الدين بالحجج والبراهين على كل الأديان و المعتقدات الباطلة وانتشار حكم الاسلام في بقاع الأرض لتمكين الناس من معرفة الدين الحق ودفع الظلم والاستضعاف عنهم، وهذا بالطبع يكرهه المشركون لأنهم يريدون ظهور معتقداتهم والله غالب على أمره .

أخرج الامام أحمد (٢) عن ثميم الزاري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزا ويذل ذليلا عز الله به الاسلام و ذلا يذل به الكفر))

(١) راجع للتوسع : السياسة الشرعية لابن تيمية - ١٣٩ فما بعدها طبع دار الشعب بالقاهرة - تحقيق محمد البنا، محمد عاشور

في ظلال القرآن ج ٣ / ١٥٠٥ ، افتراءات حول غايات الجهاد ص ٢٩ - ٣٠

(٢) مسند أحمد ١٠٣ / ٤

وبهذا يتبين لنا أن كل أمر ورد في الشارع يجب امتثاله في وقته عند حصول علته ، ثم يُنتقل إلى حكم آخر بانتقال تلك العلة كما تقدم في الآيات التي تأمر بالصبر والعفو والصفح والاعراض عن المشركين وكف الأيدي عنهم ، فإنها كانت في مرحلة معينة كان وضع المسلمين فيها لا يسمح بالقتال ومصادمة المشركين للأسباب التي ذكرتها ،

فلما قويت شوكة المسلمين قليلا وأصبحوا قادرين على القتال زالت علة النهي عن مصادمة المشركين أنن لهم بالقتال من دون فرض ثم فُرض عليهم قتال من قاتلهم ، وأخيرا أمروا بمقاتلة المشركين مطلقا حسب ما فعلناه آنفا ،

وهذه الأحكام تنطبق على المسلمين في كل آن حسب وضعهم من ضعف أو قوة ، فليس بين الآيات ناسخ ومنسوخ إنما هو تدرج في التشريع بما يلائم ظروف المسلمين ، قال الزركشي^(١) يرحمه الله :-

(ويعود هذان الحكمان : أى المسالمة عند الضعف والمسايفة عند القوة يعود سببهما ، وليس حكم المسايفة ناسخا لحكم المسالمة بل كل منهما يجب امتثاله في وقته) ٥٠١ هـ

قلت : كما أن العفو والصفح والاعراض عن الجاهلين ، وما شابه ذلك أخلاق إسلامية ينبغي التحلي بها حتى في مرحلة جهاد الكفار ومقاتلتهم ، لأنه لا يمنع أن يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالاعراض مع الأمر بقتال المشركين ، فإنه ليس من المتناقض أن يقول الشارع : لا تقابل السفاهة بمثلهما ولكن قاتلهم ، كما أن الانقضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع^(٢) .

(١) البرهان : ج ٢ / ٤٢

(٢) أنظر : تفسير الرازي ١٥ / ١٠٠ ، ٢٣ / ١٠

روح المعاني : ١٤ / ٧٧

(٢) قوله تعالى :-

((وان جنجوا للسلّم فاجنح لها وتوكل علي الله انه هو

السميع العليم .)) الانفال / ٦١

هذه الآية فيها أنه اذا مال الكفار^(١) للملح والمهادنة وطلبوا ذلك فعلي المسلمين أن يجيبوهم الي ذلك ويسالوهم

وجاءت آيات أخرى قد يتوهم أنها تنافي هذه الآية وهو قوله تعالى :-

((فلا تهنوا وتدعوا الى السلّم وأنتم الأعلون والله معكم

ولن يترككم أعمالكم)) محمد / ٢٥

فهذه الآية تنهى عن الدعوة الى السلم والملح وذلك بخلاف الآية الأولى

ويؤيد هذه الآية : الآيات التي تأمر بقتال المشركين عموماً

كقوله تعالى :

((فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)) - التوبة / ٥ -

وقوله : ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)) - التوبة / ٢٩ -

والجواب :- أن معنى قوله تعالى «وان جنجوا للسلّم فاجنح لها» :- هو جواز مصالحه الكفار ومهادنتهم في حالة كون الملح فيه مصلحة للمسلمين لجلب منفعة أو دفع مضرة وعندما يكون المسلمون في ظروف لا تسمح لهم برفض السلم والملح، أما إذا كان المسلمون على عزة وقي قوة ومنعة فليس لهم أن يهنوا ويدعوا للملح والمهادنة مع الكفار الذين يصدون عن سبيل الله ويقفون في وجه انتشار الاسلام

(١) ذكر بعض المفسرين أن المراد بالآية قبول الجزية من أهل الجزية وهو قول مجاهد والسدي وعلی هذا فالآية خاصة بأهل الكتاب والآيات الأخرى لبقية الكفار فلا خلاف بين الآيات ولكن الظاهر هو عموم الآيات وعلى هذا الأساس تكلم العلماء في وجه الجمع بينهما وبين الآيات الأخرى .

أنظر : القرطبي ٨ / ٣٩ - ٤٠

روح المعاني : ١٠ / ٢٧ ، الدر المنثور : ٤ / ٩٨

وهذا ما يفيدُه قوله تعالى :

((فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم))

فان كون المسلمين هم الأعلون والله معهم و ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة لأن دعوة الاسلام ما وُجدت لتقف بل لتمتد وتنتشر في ربوع الأرض لتبلغ دين الله ونشر أحكامه وإزالة حكم الطاغوت وإنما ابيح للمسلمين مهاده المشركين للضرورة في حالة عجز المسلمين عن استمرار الاندفاع في أرض الله لنشر دينه، وكذلك اذا فتح الكفار ديارهم لدعوة الاسلام ولم يصدوا عن سبيل الله وسالموا المسلمين فالاسلام يأمر هنا بمسالمتهم وبرهم والاقساط اليهم وعموم آيات قتال المشركين انما يراد به من كان منهم في حالة اعتداء علي المسلمين أو صد عن سبيل الله أو فتنة عن دينه، والرسول - صلى الله عليه وسلم - صالح قريشا في الحديبية لما رأى المصلحة في هذا الملح وجعله محدودا بهمة وليس مطلقا لعلمه أن الملح مع الشرك وأهله مؤقت والملاح مع أهل الكتاب انما يكون بقبولهم الجزية ودخولهم في ذمة المسلمين

وما زالت الخلفاء والمحاباة علي هذا السبيل لذلك فان النصوص التي تأمر بالجنوح للسلم في حالة احتياج المسلمين له ، والتي تأمر بعدم الدعوة للسلم : ما دام المسلمون في عزة ومنعة هذه النصوص فيها متسع لمواجهة الظروف المشابهة تتصرف من خلالها القيادة المسلمة لتلبية لحاجات الواقع و ضروراته (١)

قال ابن كثير رحمه الله (٢) بعد أن نقل القول أن آية

((وإن جنحوا للسلم فاجنح لها))

منسوخة بآية السيف في براءة

((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر)) الآية

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٨٧٦

تفسير ابن كثير ٢ / ٥٠٦

القرطبي ٨ / ٣٩ الرازي ١٥ / ١٩٣ زاد المسير ج ٣ / ٣٧٦

روح المعاني ١٠ / ٢٧ في ظلال القرآن ٣ / ١٥٤٦

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٢ / ٥٠٦ الانفال ٦١

وأنظر ج ٤ / ٢٧٨ سورة محمد / ٣٥ من نفس المصدر

قال : ((وفيه نظر لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم اذا أمكن ذلك ، فأما إن كان العدو كثيفا فانه يجوز مهادنته كما دلت عليه هذه الآية الكريمة وكما فعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية فلا منافاه ولا نسخ ولا تخصيص)) ١٠٠ هـ

قوله تعالى :-

٣- ((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا علي إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)) الممتحنة / ٨ - ٩
هذه الآية فيها بيان جواز بر الكفار غير المحاربين والاقساط اليهم من المال علي وجه الصلة^(١)
مع أنه جاءت آيات أخرى يتوهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى :-

((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم)) الآية المجازلة
وهذه عامة في كل كافر سواء كان محاربا أو غير محارب لأن الكفر بحد ذاته هو محادة لله ورسوله ،
وقوله : ((فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)) الآية المجازلة
وهي أيضا عامة في كل مشرك سواء كان محاربا أو غير محارب فهاتان الآيتان نهتا النبي عن موادة الكفار عموما ووجوب قتلهم حيثما وجدوا فكيف التوفيق بين هذه الآيات ؟

الجواب : ان هناك فرق بين البر والصلة وبين المودة والموالة فالبر والصلة أعم من المودة والموالة ، فالإنسان يمكنه اسداء المعروف لمن يواليه ولمن لا يواليه
فالنهى عن المودة والموالة للكفار عموما لا يستلزم النهي عن برهم وصلتهم لأن البر والصلة من أفعال الجوارح والمودة والموالة من أفعال القلوب

(١) نبه ابن العربي في أحكام القرآن (ج ٤ / ١٧٨٥) أن معنى وتقسطوا اليهم : أى تعطوهم قسطا من أموالكم علي وجه الصلة وليس يريد به من العدل فان العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل كما قال تعالى : ((ولا يجرمكم شأن قوم علي ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى))

ویر الکفار وملتہم انما شرعت لتألیفہم و ترغیبہم فی الاسلام
حیت إن قوله تعالی :

((عسی اللہ أن یجعل بینکم و بین الذین عادیتم منهم مودة

واللہ قدير واللہ غفور رحیم ٠)) الممتحنة / ٧

فیہ دلالة علی أن العدو قد یصیر حبیباً بفضل اللہ و توفیقہ وما
جعل البر والملة الا لتحقيق ذلك

ولقد وقع بعد هذا بوقت قصیر أن فتحت مكة وأسلمت قریش

وعاد الجميع أخوة متحابین ،

ولذلك قال المفسرون : ان قوله تعالی :

((لا ینہاکم اللہ عن الذین لم یقاتلوکم فی الدین ولم یخرجوکم

من ديارکم أن تبزوہم ٠٠٠٠)) الآیة

رخصة فی صلة الذین لم ینصبوا الحرب للمسلمین أو كانوا معهم

فی هدنة ما وجواز برہم وإن كانت الموالاة منقطعة منهم (١)

ولهذا قال ابن جریر (٢) رحمہ اللہ : ولا معنی لقول من قال ذلك

منسوخ - یعنی بر الکفار و ملتہم - لأن بر المؤمن أحدًا من أهل

الحرب ممن بینہ و بینہ قرابة نسب أو ممن لا قرابة بینہما ولا

نسب : غیر مُحَرَّم ولا منہیّ عنہ اذا لم یکن فی ذلك دلالة لہ أو

لأهل الحرب علی عورة أهل الاسلام أو تقوية لہم بکراع أو سلاح

و یبین ذلك الخبر الذی ذکرناہ عن ابن الزبیر فی قصة أس-ماء مع

أهلها))

قلت : روى البخاری و مسلم (٣) عن أسماء رضي اللہ عنہا قالت :-

قدمت علی أُمی وهي مشرکة فی عهد رسول اللہ - صلی اللہ علیہ

و سلم -

- وفي رواية أخرى للبخاری فی عهد قریش و مدتہم ان عاہدوا النبی

صلی اللہ علیہ و سلم - فاستفتیت رسول اللہ - صلی اللہ علیہ و سلم -

قلت : إنَّ أُمی قدمت علی وهي راغبة أفأصل أُمی ؟

(١) أحكام القرآن لأبن العربي ٤ / ١٧٨٥

رازی ٢٩ / ٣٠٤ زاد المسیر ٨ / ٢٣٧ روح المعانی ٢٨ / ٧٤

(٢) تفسیر الطبری ٢٨ / ٤٣ طبعة دار المعرفة

(٣) البخاری کتاب الہبة / علی باب الہدیة للمشرکین ج ٣ / ١٤٢ و اللفظ لہ وفي الأدب

وفي الأدب / باب صلة الوالد المشرک ج ٧ / ٧١ و مسلم فی کتاب الزکاة / باب فضل

الصدقة علی الأقربیین ولو كانوا مشرکین (شرح النووی ج ٧ / ٨٩)

قال : نعم صلي أمك (٠)

قلت : وهذا الحديث يدل على أنه تجوز صلة المشركين كالنساء والصبيان وان كانوا تبعاً لأهل الحرب لعدم وجود محذور من ذلك .

وهذا يوضح لنا أن قوله تعالى "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم"

لا ينافي الأمر بصلة المشركين غير المحاربين

لأن المقصود بالأمر بقتل المشركين هم الذين في حالة حرب واعتداء أو إعاقة لنشر الدين

بخلاف المسالمين والنساء والصبيان الذين هم ليسوا من أهل الحرب فهؤلاء يجوز برهم وصلتهم على كل حال

أما المحاربين فلا تجوز صلتهم وبرهم لما فيه من تقوية العدو ويحسن أن نختتم بقول الشهيد سيد قطب^(١) حيث قال عند تفسير آية الممتحنة

((وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي

تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته الى الحياة الانسانية . . وهي أساس شريعته الدولية ، التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعاً هي الحالة الثابتة لا غيرها الا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده ، أو خوف خيانة بعد المعاهدة وهي تهديد بالاعتداء أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد وهو كذلك اعتداء ، وفيما عدا هذا فهي السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين)) ١٠ هـ

(٤) قوله تعالى :

((يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير)) البقرة/٢١٧

وقوله تعالى :

((إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم

خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم)) التوبة/٣٦

هاتان الآيتان فيهما النهي عن القتال في الأشهر الحرم والتي هي :

ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب فلا يجوز فيها ابتداء القتال

إلا على سبيل القصاص ورد الاعتداء ودفع الضرر بالمثل

وهذه الآيات يوهم ظاهرها منافاة قوله تعالى :

((فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)) - التوبة ٢٤

لأنه طلب قتلهم حيث وجدوا ولم يستثن زما دون زمان

وكذلك قوله :

((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر)) الآية،
التوبة ٢٩

والجواب : أن توهم التنافي بين الآيات مدفوع و ذلك من وجهين :-

الوجه الأول : القول بالنسخ

وهو أن تحريم الأشهر الحرم منسوخ بعموم آيات السيف التي
تأمر بقتال المشركين مطلقا وهو قول ابن جرير (١) و مروى عن سعيد بن
المسيب و سليمان بن يسار وابن زيد و عطاء بن فيسرة و الزهري

قال الرازي (٢) : قال أبو عبيد : والناس بالثغور اليوم جميعا على
هذا القول يرون الغزو مباحا في الشهور كلها ولم أر أحدا أعلماء
الشام والعراق ينكره عليهم، كذلك أحسب قول أهل الحجاز هـ

قلت : ونسب أكثر المفسرين القول بالنسخ للجمهور وفقهاء الأمصار
وصحح القرطبي وغيره (٣) هذا الوجه لأن النبي - صلى الله عليه وسلم -
غزا هوزان في شوال وثقيفا بالطائف وحاصرهم في شوال وبعض
ذي القعدة و معلوم أن ذي القعدة من الأشهر الحرم .
وعلى هذا الوجه وهو القول بالنسخ ينتفي توهم الاختلاف بين
الآيات لأن الناسخ والمنسوخ لا يتعارضان كما تقدم في فصل أسباب
موهم الاختلاف

(١) تفسير الطبري ٥٧٨ / ٣ - ٥٨١ / ٤ ج ٤ / ٣١٣ - ٤١٥ تحقيق محمود شاكر

تفسير ابن كثير ج ٢ / ٥٥٤ التوبة / ٣٦

زاد المسير ج ١ / ٢١٧

أحكام القرآن لابن العربي ١٤٧ / ١ القرطبي ١٣٥ / ٨ ٤٣ / ٣

الرازي ٣٠ / ٦ روح المعاني ١٠٨ / ٢

(٢) الرازي ٣٠ / ٦

(٣) تفسير القرطبي ١٣٥ / ٨ روح المعاني ج ١٠ / ٩٢

الوجه الثاني :-

ان حرمة القتال في الأشهر الحرم محكمة وليست منسوخة فلا يجوز الابتداء فيها بقتال أو غزو الا على سبيل المقاصعة ورد الاعتداء وذلك لقوله تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ...)) المائدة / ٢ وقوله ايضاً ((جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ...)) المائدة / ٩٧

وهاتان الآيتان من سورة المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن وفيهما النهى عن احلال الشهر الحرام بقتال ونحوه فلا يمكن أن يتوجه النسخ وكذلك لما روى الامام أحمد* باسناده عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - وابن جرير ايضاً :

قال : لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم يغزو في الشهر الحرام ألا أن يُغزى ، فاذا حضره أقام حتى ينسلخ ((قال ابن كثير^(١) : هذا إسناد صحيح

وروى الامام ومسلم^(٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أن الرسول خطب الناس يوم عرفه عام حجة الوداع وقال : ((ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ...)) الحديث

فهذان الحديثان يدلان على استمرار حرمة الأشهر الحرم ولا معارض لهما

وروى ابن جريح^(٣) أن عطاء بن رباح كان يحلف بالله : ((ما يحل للناس الآن ان يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يُقاتلوا فيه أو يُغزوا ، وما نُسخت))

أما قوله تعالى : ((فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ...)) وقوله : ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا اليوم الآخر ...)) ونحوها من الآيات التي فيها مطلق الأمر بقتال المشركين دون

(١) تفسير القرآن العظيم ج ١ / ٢٤٢ البقرة / ١٩٤

(٢) مسلم في الحج باب حجة النبي - صلى الله عليه وسلم - شرح النووي ج ٨ / ١٨٢ / وابو داود في المناسك / باب صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - رقم ١٩٠٥ ج ٢ / ٢٥٥

(٣) زاد المسير ج ١ / ٢٣٧ ، القرطبي ٨ / ١٣٥ ، الرازي ٦ / ٢٨ * مسند أحمد ٢ / ٣٣٤ ، ٣٤٥ تفسير ابن جرير ج ٤ / ٣٠٠ تحقيق محمود شاكر

استثناء زمان معين

فانها آيات عامة في الأشخاص والأماكن وهذا لا يستلزم العموم

في الأزمان، وان فلا تعارض ولا نسخ

فالآيات التي تأمر بقتل المشركين كافة وحيثما وجدوا لا تنافي حرمة القتال في الشهر الحرام لأن عموم الأشخاص والأمكنة يتحققان في بعض الأزمان الصادق بما عدا الأشهر الحرم^(١)

كما أنه على فرض استلزام عموم الأشخاص والأماكن لعموم الأزمان فهذا العموم مخصوص بآيات تحريم القتال في الأشهر الحرم ولا تعارض بين العام والخاص^(٢)

كما أن الذي يظهر أن الآيات التي فيها الحظ على مقاتلة عموم المشركين وحيثما وجدوا هي من باب التهيج والتحفيز أي كما يجتمعون لحربكم اذا حاربوكم فاجتمعوا انتم ايضا لهم اذا حاربتموهم وقتلوهم بنظير ما يفعلون^(٣) وكما يترصدون لحربكم ويدأبون على الصد عن سبيل الله في كل مكان فكذلك أنتم قاتلوهم حيث ثقتموهم ويدخل في ذلك ما لو اعتدوا على المسلمين في الشهر الحرام فلا حرج من قتالهم حينئذ

وأما حصار الرسول - صلى الله عليه وسلم - لشقيف في الطائف في ذي القعدة فان هذا الحصار كان من تنمة^{قتال} هوازن وأحلافهم من شقيف فإنهم هم الذين ابتدأوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا الى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في شوال وهو ليس من الأشهر الحرم فلما هُزم المشركون تحصنوا بالطائف فحاصره المسلمون وكان ابتداء الحصار في شوال ودخل الشهر الحرام فاستمر الرسول فيه أياما ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء^(٤)

(١) مناهل العرفان / الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ج ٢ / ١٥٦
والقول بعدم النسخ هو ما استقر عليه الشيخ الشنقيطي صاحب أضواء البيان
مستدلا بآيات المائدة السالفة الذكر أنظر أضواء البيان ج ١٠ / ١٤٥ الهامش

(٢) القرطبي ٤٣ / ٣

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ / ٥٥٥ التوبة / ٣٦

(٤) نفس المصدر ج ٢ / ٥٥٥

وأنظر سيرة ابن كثير ج ٣ / ص ٦٥٢ ، ٦٥٦ (غزوة الطائف) حيث ذكر أن الرسول حاصر الطائف في شوال سنة ثمان وأن الحصار استمر بضعة وعشرين ليلة .

وهذا مثل أن يكون المسلمون في حرب مع أهل الكفر ويدخل الشهر الحرام والمسلمون على وشك الانتصار فلهم حينئذ استدامة القتال حتى لا يفوتهم النصر وهذا بخلاف الابتداء في الشهر الحرام قلت : وعلى ما تقدم في هذا الوجه فإن القول بعدم النسخ هو الصحيح وهو الذي تؤيده الأدلة وإمكان الجمع بين الآيات كما تقدم إضافة إلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أثبت حرمة الأشهر الحرم في حجة الوداع في قوله (١) :-

((ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا)) وفي رواية ((إلى يوم تلقون ربكم))

ويضاف إلى ذلك أن الله سبحانه جعلها فترة يستريح فيها الناس ويراجعون أنفسهم ففيها مجال لأن يتفكر الكافرو يرى الصواب ودين الحق ولو كانت أشهر العام كلها قتال لما كان هناك مجال للتفكير ومراجعة النفس والنظر في الأدلة

فأيام السلم والهدنة ادعي لتقبل الدعوة والنظر في الأدلة بعكس أيام القتال التي تهيج النفوس، وكل ذلك ما لم يُقاتل في الأشهر الحرم

فإن قوتلنا فلا خلاف عند أحد في جواز القتال وأنه لا يعتبر انتهاكا لحرمتها لأنه حينئذ دفاع عن النفس

(٥)

قوله تعالى : ((ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم

فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين)) البقرة / ١٩١

هذه الآية فيها النهي عن القتال عند المسجد الحرام إلا إذا ابتدأ ذلك المشركون فيقاتلون مقامة ودفعاً للأعتداء، وهذه الآية تخالف في الظاهر الآيات التي تأمر بقتال المشركين كافة وحينما وجدوا .

(١) أخرجه :- البخاري في كتاب الحج باب / ١٣٢ الخطبة أيام منى ج ١٩١/٢ من حديث ابن عباس وأبي بكره رضي الله عنهم / واللفظه و مسلم ففي كتاب الحج / حجة النبي - صلى الله عليه وسلم - (شرح النووي ج ٨ / ١٨٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه

وهو قوله تعالى :

((وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)) - التوبة / ٣٦

وقوله تعالى :

((فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)) التوبة / ٥

ولم تستثنِ هذه الآيات ونحوها أى مكان بل هي عامة في كل المواضع

والجواب : أنه لا تعارض بين الآيات وذلك من وجهين

الوجه الأول :

أن النهي عن القتال عند المسجد الحرام منسوخ بالآيات الأخرى

التي تأمر بقتال كافة المشركين وحيثما وجدوا

وهو قول :- قتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد ومقاتل^(١)

فقال قتادة انه منسوخ بقوله تعالى :

((فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)) التوبة / ٥

فأمر بقتالهم في الحل والحرم وعلى كل حال ، وذهب الآخرون

من القائلين بالنسخ الى أنه منسوخ بقوله تعالى :

((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة .))

قلت : وعلى هذا الوجه فليس هناك تعارض بين الآيات

الوجه الثاني :

وهو قول مجاهد رحمه الله وإليه ذهب جمهور العلماء^(٢) أن

النهي عن القتال عند المسجد الحرام مُحْكَمٌ غير منسوخ وأنه لا

يجوز القتال عنده إِلَّا عَلَى وَجْهِ قِتَالٍ مَنْ قَاتَلَ وَاعْتَدَى، ولذلك فإن

تحريم القتال عند المسجد الحرام تخصيص للآيات التي فيها مقاتلة

المشركين كافة وأينما وجدوا

ولا تعارض بين العام والخاص

(١) تفسير الطبري ج ٣ / ٥٦٢ ، ٥٦٩ تحقيق محمود شاكر
زاد المسير ج ١ / ١٩٩ ، النكت والعيون للماوردي ج ١ / ٢١٠

(٢) تفسير ابن جرير ج ٣ / ٥٦٢ تحقيق محمود شاكر
تفسير ابن كثير ١ / ٣٤١ البقرة / ١٩١ القرطبي ٣ / ٣٥١
الرازي ٥ / ١٣١ زاد المسير ١ / ١٩٩
شرح النووي على مسلم ٩ / ١٢٤

قلت : ويدل على ذلك سياق الآية التي فيها عدم المقاتلة عند المسجد الحرام وهي كالتالي :

((واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتي يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم)) البقرة ١٩١ - ١٩٢

فهو سبحانه أمر بقتلهم حيثما ثقتوا ثم استثنى قتالهم عند المسجد الحرام الا اذا قاتلوا فيه وهذا التعميم والتخصيص في نفس الآية يدلنا على مراد الله في هذا الحكم ويؤيد ذلك ما ثبت عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من تحريم مكة فقد روى مسلم والبخاري^(١) عن جابر بن عبد الله وابن عباس رضي الله عنهم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خطب عام حجة الوداع في عرفات ومنى وقال :- ((إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا فـي بلدكم هذا الى أن تلقوا ربكم)) .

وأخرج مسلم^(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الفتح فتح مكة : لا هجرة ولكن جهاد ونية وقال يوم الفتح فتح مكة ان هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وانه لم يحل القتال فيه لاحد قبلي ولم يحل لي الا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ((الحديث وفي رواية أخرى لمسلم^(٣) عن أبي شريح العدوي مرفوعا :- ((إن مكة حرّمها الله ولم يُحرّمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة فان أحد ترخّص بقتال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها فقولوا له ان الله أنزّل رسوله ولم يأذن لكم فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب))

(١) سبق تخريجه قريبا في المبحث السابق

(٢) كتاب الحج / باب تحريم مكة (شرح النووي ج ٩ / ١٢٣)

(٣) كتاب الحج / باب تحريم مكة (شرح النووي ج ٩ / ١٢٧)

فهذه الاحاديث ظاهرة في تحريم القتال في الحرم ويُستثنى من ذلك ما اذا ابتدأ المشركون القتال فيه فيقاتلو كما نصت الآية أما حكم البغاة في الحرم فانهم يقاتلون على بغيتهم اذا لم يمكن يمكن ردهم عن البغي الا بالقتال نقل ذلك الماوردي عن جمهور الفقهاء (١) لأن قتال البغاة من حقوق الله التي لا يجوز اضاعتها فحفظها أولى في الحرم من اضاعتها وإخبار الرسول بتحريم القتال في الحرم الي يوم القيامة يدل على عدم إمكانية تطرق النسخ اليه لأنه خبر عن التحريم والخبر لا ينسخ

(٦

قوله تعالى :-

((وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)) التوبة / ١٢٢

هذه الآية فيها نهي للمؤمنين أن ينفروا كافة عندما يكون هناك نفيير وجهاد

بينما جاءت آيات أخرى تدل على أن النفيير واجب على الجميع وهو قوله تعالى :-

((انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون / التوبة / ٤١ وقوله تعالى :-

((وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)) التوبة/٣٦ وقبل الجواب لابد من بيان معنى قوله تعالى :- ((وما كان المؤمنون لينفروا كافة))

ففي تفسير هذه الآية قولان اجمالاً

القول الأول :- أن المؤمنين لا ينفرون كافة ولكن ينفرون من كل فرقة منهم طائفة - على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون - ليتفقهوا الخارجون مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما ينزل من الوحي عليه وما يروونه في الجهاد من أسرار ومعاني وآيات يستفيدونها من حركتهم في الجهاد، وبعد الرجوع يُنذرون أقوامهم بما رأوا وما شاهدوا وما تعلموا فالخروج بصفة عامة من أجل الجهاد أدنى الى الفهم والتفقه

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (ج ٩ / ١٢٤) وقال النووي هو الصواب

وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس :- في الآية
 ((ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبي - صلى الله
 عليه وسلم - وحده)) فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني
 عصبة يعني السرايا ولا يتسروا إلا بأذنه فإذا رجعت السرايا وقد
 نزل بعدهم قرانا تعلمه القاعدون من النبي - صلى الله عليه وسلم -
 فيمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث
 سرايا أخرى)) (١)

والقول الثاني :- أن المراد : النفير الى رسول الله - صلى
 الله عليه وسلم - لاقتباس العلم والتفقه وهذا الخطاب متوجه لأهل
 القبائل، فما يصح ولا يستقيم أن يأتوا كلهم الى المدينة للتفقه بل
 الواجب أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا عند رسول
 الله ويرجعوا الى قومهم يعلمونهم ما سمعوه ورأوه (٢)
 وعلى القول الثاني ليس هناك توهم تعارض في الآيات الأخرى أما
 على القول الاول وهو الراجح حسب ما يظهر فالجواب ما يلي، من
 وجهين :-

الوجه الأول :- أن قوله تعالى : انفروا خفافا وثقالا ...))

وما شابهها من الآيات التي تأمر بنفير الجميع
 منسوخة وهو قول مجاهد وابن زيد لأن وجوب النفير على الجميع
 انما كان في مرحلة زمنية معينة استدعى الامر فيها نفير الجميع
 لقلة المسلمين وتكالب الأعداء عليهم فلما تغير الحال وكثر المسلمون
 وأصبح فيهم كفاية أمروا بأن ينفر منهم ما يكفي للجهاد والغزو
 وهو ما يدل عليه قوله تعالى :-

((وما كان المؤمنون لينفروا كافة ...))

ولهذا فان النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يغزو في فُئام من
 الناس ولم يستوف قط جميع الناس إلا في غزوة العسرة (٣)

(١) الطبري ١٤ / ٥٦٦ محمود شاكر

تفسير ابن كثير ج ٢ / ٦٢٠ التوبة / ١٢٢

زاد المسير ٣ / ٥١٧ الرازي ١٦ / ٢٣٠ البرهان للزركشي ج ٢ / ٢٠٣ - ٢٠٤

في ظلال القرآن ٣ / ١٧٣٤

(٢) المراجع السابقة

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ / ٦٢١ التوبة / ١٢٢ قرطبي ٨ / ٢٩٣ رازي ١٦ / ٧٢

أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ١٠٣٢

في ظلال القرآن ٣ / ١٧٣٤

الوجه الثاني : - أن الآيات محكمة وليس فيها ناسخ ولا منسوخ

وقوله تعالى : - ((وما كان المؤمنون لينفروا كافة))

جاء لبيان المراد من قوله تعالى ((انفروا خفافا وثقالا))

وقوله : ((وقاتلوا المشركين كافة))

وهو التهيج والالهاب وجمع الكلمة وعدم التخلف لمن يتعين عليه
ومن يستنفره الامام

فكما أن الكفار يقاتلونكم كافة ويعدون لكم ما استطاعوا من
قوه فكذلك أنتم، وليس معنا هذا أن تنفر كل الأمة لأنه معلوم
من أنه لابد من وجود فرقة لحراسة المدينة وما فيها من نساء
وصبيان وقد يكون العدو قليلا فلا حاجة لنفر الجميع ،

وقد ذكر المفسرون أنه لما شدد سبحانه النكير على المتخلفين
قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبدا ففعلوا ذلك
فنزل ((وما كان المؤمنون لينفروا كافة))

أي ما صح وما استقام ذلك لما فيه من الاخلال بتوازن تواجد
المسلمين في ديارهم وفي الثغور ولما فيه من الاخلال بالتعليم
والتفقه^(١) فالآيات علي هذا محكمة ففي الوقت الذي يحتاج فيه
المسلمون إلى تعين الجهاد والنفير على الجميع كأن يداهم العدو
في بلادهم أو لأي سبب آخر

يجب النفير على كل قادر على حمل السلاح وهو معنى قوله تعالى
((انفروا خفافا وثقالا))

وعند الاكتفاء بطائفة من المجاهدين يتحقق بها غرض الجهاد
لا يصح نفير الجميع ولا يستقيم ذلك وهو معنى قوله تعالى :
((وما كان المؤمنون لينفروا كافة))

فلكل آية لها موضعها وظروفها حسب حاجة المسلمين فليس بين
الآيات تنافي أو تعارض

قال القرطبي^(٢) : عند تفسير قوله تعالى :

((وقاتلوا المشركين كافة)) التوبة / ٣٦

قال ابن عطية : - لم يُعلم قط من شرع النبي - صلى الله عليه وسلم -
أنه ألزم الأمة جميعا النفير ، وإنما معنى هذه الآية - وقاتلوا

(١) الطبري ١٤ / ٥٧٢ قرطبي ٨ / ٢٩٣ روح المعاني ١١ / ٤٨

رازي ١٦ / ٧٢ أحكام القرآن ٢ / ١٥٤ البرهان للزركشي ج ٢ / ٢٠٤

(٢) قرطبي ٨ / ١٣٦ وأنظر : ج ٥ / ٢٧٣

«وقاتلوا المشركين كافة...» الحظ على قتالهم والتحزب عليهم
وجمع الكلمة ، ثم قيدها بقوله : كما يقاتلوكم كافة)) فبحسب
قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم . ((٠ هـ
وقال الرازي : ((اتفقوا على أن هذه الآية - أنفروا خفافا وثقالا -
نزلت في غزوة تبوك واتفقوا على أنه عليه السلام خلف النساء
وخلف من الرجال أقواما وذلك يدل على أن هذا الوجوب ليس على
الأعيان لكنه من فروض الكفايات فمن أمره الرسول بأن يخرج لزمه
ذلك خفافا وثقالا ومن أمره بأن يبقى هناك لزمه أن يبقى ويترك
النفرة، وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى التزام النسخ . ((٠ هـ

قلت : وبهذا يتبين لنا توافق الآيات وانجامها وعدم تنافيها
بل كل آية لها مقصدها وغرضها بما يناسب واقع المسلمين وظروفهم
وحاجاتهم وما تقتضيه المصلحة فسبحان الذي أنزل الكتاب فيه
الهدى والنور وفيه الشفاء والصلاح لمن اتبعه وتدبره حق تدبره .

مبحث في الأمر بالمعروف

(٧)

قوله تعالى :- يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ((المائدة / ١٠٥

ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد عموما غير واجب لأنها تتضمن الكف عن الضالين

وهذا في الظاهر ينافي ما ثبت في الآيات الأخرى من وجوب جهاد الضالين ودعوتهم ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كقوله تعالى : ((كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف

وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)) - آل عمران / ١١٠ -

- وقوله : ((قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة أنا

ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين)) يوسف / ١٠٨

- وقوله : ((ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون

بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)) - آل عمران / ١٠٤ -

- وقوله تعالى : ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله

لله)) الأنفال / ٣٩

وغير ذلك من الآيات التي تأمر بدعوة الكفار والضالين وجهادهم

وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

والجواب :- أنه ليس هنالك اختلاف أو تنافي ويتضح ذلك من

الأوجه التالية

الوجه الاول : أن الآية لا تدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر والدعوة غير واجبه اذا كان ذلك ممكنا بل تدل على أن المطيع لربه

لا يكون مؤاخذا بذنوب العصاة والضالين، فذنوبهم انما تضرهم أنفسهم

لأنه لا تزر وازره وزر أخرى وكل انسان يُجازى بعمله ان خيرا فخير

وان شرا فشر (١)

قال ابن الجوزي (٢) : قال الزجاج : ومعنى الآية : إنما ألزمكم الله

أمر أنفسكم ولا يواخذكم بذنوب غيركم وهذه الآية لا توجب ترك

(١) الرازي ١٢ / ١١٩ فتح الرحمن / ١٥١ تنزيه القرآن عن المطاعن / ١٢٤

ابن كثير ج ٢ / ١٧٦ المائدة / ١٠٥

(٢) زاد المسير / ٤٤١ ، نواسخ القرآن لابن الجوزي ص / ٣١٦

الأمر بالمعروف لأن المؤمن إذا تركه وهو مستطيع له فهو ضال وليس بمهتد))

الوجه الثاني :- ما ذهب إليه عبد الله بن المبارك : فقال : هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فانه قال : ((عليكم أنفسكم)) يعني أهل دينكم ولا يضركم من ضل من الكفار ، فقلوه عليكم أنفسكم ، أى ليأمر بعضكم بعضا ولينه بعضكم بعضا عن القبائح والسيئات ولا يضركم ضلال المشركين الذين لم يستجيبوا للدعوة

فقلوه : عليكم أنفسكم ، معناه احفظوا أنفسكم فكان ذلك أمرا بأن تحفظ فان لم يكن ذلك الحفظ الا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان ذلك واجبا وانما يكون الانسان مهتديا اذا امتثل أمر الشرع^{رسول الله} الأمر بالمعروف^(١) ولهنا فان الصديق رضي الله عنه-فيما رواه أحمد^(٢) وأصحاب السنن^(٣) عن قيس ابن أبي حازم-حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس انكم تقرأون هذه الآية :

((يا أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم)) وانكم تضعونها على غير موضعها وإنني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ((ان الناس اذا رأوا المنكر ولا يغيرونه ، أوشك أن يعمهم الله بعقابه))

قال ابن تيمية^(٤) : وما ذكره الصديق ظاهر : فان الله قال عليكم أنفسكم ((أى الزموها وأقبلوا عليها ومن مصالح النفس فعل ما أمرت به من الأمر والنهي ، وقال : ((لا يضركم من ضل اذا اهتديتم)) وانما يتم الاهتداء اذا أطيع الله وأُديَّ الواجب من الأمر والنهي)) ٥٠١ هـ

(١) الرازي ١٢ / ١٢٩

قرطبي ٦ / ٢٤٣

نسخ القرآن لابن الجوزي ٢١٧ /

(٢) أحمد ج ١ / ٢ ، ١٧ ، ٥٢١٢٣

(٣) سند أبي داود في الملاحم / باب الأمر والنهي ج ٤ / ٥١٠

الترمذي / في تفسير القرآن / من سورة المائدة ج ٥ / ٢٥٧

ابن ماجه / في الفتن / باب الأمر بالمعروف وهو حديث صحيح

انظر جامع الأصول ١ / ٢٣١ تهذيب التهذيب ١ / ٢٦٧

(٤) الفتاوى ١٤ / ٤٧٩

وقد اختار ابن جرير (*) هذا الوجه وقال انه أولى الأقوال بالصواب ((لأن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين بأن يقوموا بالقسط ويتعاونوا على البر والتقوى ومن القيام بالقسط الأخذ على يدى الظالم ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولو كان للناس ترك ذلك لم يكن للأمر به معنى إلا في الحال التى رخص فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ترك ذلك ، وهى حال العجز عن القيام به بالجوارح الظاهرة فيكون مرخصاً له تركه اذا قام حينئذ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه) او

(١) الوجه الثالث : ان الآية مخصوصة بما اذا خاف الانسان على نفسه أو عرضه أو ماله عند الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر فهنا عليه نفسه ولا يضره ضلالة من ضل ولا جهالة من جهل فتكون الآية على هذا رخصة من الله للمؤمنين عند عدم القدرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال القرطبي (٢) :- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعين متى رجي القبول أو رجي رد الظالم ولو بعنف ، ما لم يخف الامر ضرراً يلحق في خاصته أو فتنة يدخلها على المسلمين اما بشق عصا واما بضرر يلحق طائفة من الناس فانما خيف هذا "فعليكم أنفسكم" مُحكم واجب أن يُوقف عنده . ((١٠ هـ

قلت : ويعضد ذلك الحديث الصحيح (٣)

((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه

فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان .))

فانما قوى أهل الفجور حتى لا يبقى لهم اصفاء الى البر والمعروف بل يؤنون الداعي لغلبة الشح والهوى والاعجاب بالرأى سقط التغيير باللسان في هذه الحال وبقي انكار القلب ، ولذلك أخرج

(١) الرازي ١١٩ / ١٢ روح المعاني ٤٥ / ٧ فتح الرحمن / ١٥١

أحكام القرآن لأبن العربي ٢ / ٧٠٦ مجموع الفتاوى ١٤ / ٤٧٩

(٢) قرطبي ٢٤٣ / ٦

(٣) أخرجه :- مسلم في كتاب الايمان / باب كون النهي عن المنكر من الايمان

(شرح النووي ٢ / ٢١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

* تفسير ابن جرير : ١١٢ / ١٥٢

عبد الرزاق وابن جرير^(١) عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن هذه الآية فقال : يا أيها الناس انه ليس بزمانها ولكنه قد أوشك أن يأتي زمان . تأمرون بالمعروف فيضع بكم كذا وكذا أو قال فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم .))

وأخرج الترمذى^(٢) وغيره عن أبي ثعلبة الخشني أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الآية فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصه نفسك ودع العوام فان من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم .))

الوجه الرابع : أن الآية مخصوصة بالكفار وأهل الضلال الذين علم أنه لا ينفعهم التذكير والدعوة والأمر بالمعروف بعد أن دعوا وأمروا وأمهروا على الكفر وعاندوا فهنا لا يجب على الانسان مواصلة أمرهم ونهيهم وتذكيرهم لأنه تضييع لوقت المسلم والمطلوب الدعوة والتذكير حيث تنفع الذكرى فعلى هذا تكون الآية تسلية لمن يأمر وينهى ويدعوا الى الله ولا يقبل منه عند غلبة الفسق وبعد الناس عن الشر ، كما فيها المنع عن إهلاك النفس حسرة وأسفا على ما فيه الكفار و الفساق من الضلال والفجور لأن المؤمن عادة يتمنى الهداية للناس ويتحسر على بعدهم عن الدين الحق فأخبر الله أن فجورهم ومعاصيهم لا تضر المؤمن والحزن على ما لا يضر عبث وهذا ما يدل عليه قوله تعالى :-

(١) ابن جرير ١٤١ / ١١ تحقيق محمود شاكر
الدر المنثور :- ج ٢ / ٢١٦ مجمع الزوائد للهيثي ١٩ / ٧ و قال
ابن كثير ج ٢ / ١٧٦ المائدة / ١٠٥ رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح
الا أن الحسن البصرى لم يسمع من ابن مسعود .
(٢) الترمذى / في كتاب تفسير القرآن / باب ومن سورة المائدة ج ٥ / ٢٥٧ و قال
حسن غريب و أبو داود في / الملاحم / باب الأمر بالمعروف ج ٤ / ٥١٢
والحاكم في المستدرک ومصححه
وابن جرير ج ١١ / ١٤٢ رقم ١٢٨٥٨ تحقيق محمود شاكر
أنظر الدر المنثور ج ٣ / ٢١٥

قوله تعالى :

((واصر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في

ضيق مما يمكرون))

ولهذا أخرج ابن جرير^(١) عن حذيفة بن اليمان وسعيد بن المسيب :
إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلا يضرك من ضل إذا اهتديت

والأوجه الأربعة كلها يحتملها لفظ الآية وعلي هذه الأوجه
فالآية محكمة ولا يصح القول أنها منسوخة أو الاحتجاج بها لترك
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الاستطاعة
فهذه الآية لا تنافي ما يثبت من وجوب الدعوة والأمر بالمعروف
بل أنها تدل علي ذلك وتوجه كما تقدم في الأوجه السابقة .

كما أن الآية فيها دعوة للمؤمنين بأن يكونوا أمة متميزة
متضامنة متكافلة وملزمة بأوامر الله ولا عليها إذا ضل غيرها
من الأمم مساندات هي قائمة على الهدى ولا بد أن يكون ولاء
المؤمنين لأنفسهم لا إلى غيرهم لأنهم حزب الله، ومن عداهم من
الأمم حزب الشيطان، فلا ولاء ولا تضامن مع غيرهم من أهل الضلال
لأنه لا اشتراك في عقيدة ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة
ولا اشتراك في تبعة أو جزاء

وليس معنى هذا أن تتخلي الأمة المسلمة عن تكاليفها في
دعوة الناس كلهم إلى الهدى وأن تعمل على مباشرة القوامة على
الناس لإقامة العدل بينهم وانقاذهم من كل أشكال الوثنية والطاغوت
فالأمة المسلمة محاسبة على تقصيرها في الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر فيما بينها وفي الأرض كلها لأن الأمة لا تحافظ على نفسها
ولا تكون مهتدية حق الهدى إلا بأن تكون كما قال الله :
((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن

المنكر وتؤمنون بالله .))

ومن أولى المعروف إقامة شرع الله وتطبيق حدوده .

(١) في تفسيره ١٤٨ / ١١ تحقيق محمود شاكر

وأنظر الدر المنثور للسيوطي ج ٢ / ٢١٩

وأنظر زاد المسير لابن الجوزي ج ٢ / ٤٤٣

وأشد المنكر اقصاء شرع الله وسلطانه واستبداله بحكم
الجاهلية والظاغوت فواجب الأمة اليوم كبير، فهذا الدين لا
يقوم الا بجهد وجهاد وعمل وكفاح حتي يملح أهله وبالتالي
نشر الدين كله في العالم كله لتقرير ألوهية الله في الارض
والله غالب على أمره و متم نوره ولو كره الكافرون (١)

الفصل العاشر

=====

موهم آيات البعث والحساب :

هذا الفصل يشتمل على ثلاثة مباحث

المبحث الأول : الآيات المتعلقة بالصعق والبعث

ويشمل هذا المبحث عدة أمثلة :-

١ - قوله تعالى : ((ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات
ومن في الأرض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين)) النمل / ٨٧
وقوله تعالى : ((ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن
في الأرض الا من شاء الله)) الزمر / ٦٨

هاتان الآيتان تدلان على أنه عند النفخ في الصور يصعق
جميع أهل السموات والأرض أى يموتون ، الا من شاء الله ،
وذلك يقتضي أن الداخلين في هذا الاستثناء لا يموتون عند النفخ
في الصور ،

وهم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (١)

وقيل : والصور والولدان غير داخلين أيضا في من يصعق
لأن الجنة فوق السموات وسقفها عرش الرحمن (٢) فلا
يتناول أهلها الصعق، وكذلك الملائكة الذين هم خارج السموات
كحاملة العرش ونحوهم لأن العرش فوق السموات والآية دللت على
أن الصعق يتناول من في السموات والأرض وليس من

(١) وهو قول أبو هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير

أخرج أبو يعلى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه (ابن كثير ٩٧ / ٤)
عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ((سألت جبريل عليه الصلاة
والسلام عن هذه الآية : ((ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن
في الأرض الا من شاء الله)) من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم ؟
قال هم الشهداء))

قال القرطبي (١٣ / ٢٤١) حديث أبي هريرة صححه القاضي أبو بكر بن
العربي فليعلم عليه وأنظر : ابن جرير ٢٤ / ٣٠ الطبري ، زاد المسير ١٩٥/٦
روح المعاني ٢٠ / ٣٣ الدر المنثور ٧ / ٢٠٥

(٢) أخرج الترمذى (في صفة الجنة / باب ما جاء في صفة درجات الجنة ج ٤ / ٢٧٥)
عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : في الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض و
الفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإنا
سألتم الله فاسأله الفردوس) وهو حديث صحيح أنظر : جامع الأصول ١٠ / ٥٠٠
مشكاة المصابيح ٣ / ١٥٦٣ .

هو في خارجها (١)

وهناك آية أخرى دلت على أن كل شيء هالك وهو قوله تعالى :
((كل شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم واليه ترجعون)) القصص/ ٨٨
وهذا يشمل كل من سبق ذكره من الشهداء والحرور وملائكة العرش
فكيف التوفيق بين مدلول هذه الآيات

والجواب من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن يحمل قوله ((كل شيء هالك إلا وجهه))
على الأكثر كقوله تعالى : ((وأوتيت من كل شيء)) - آل عمران / ٢٣ -
وهذا في حق بلقيس ملكة سبأ وهي في الحقيقة لم تُوتَ من
كل شيء بل أريد بيان كثرة ما أُوتيت مما يؤتاه الملوك (٢)
ودل على ذلك أنها كانت في زمان سليمان عليه السلام ولم تُوتَ
ما أُوتي سليمان من النعم والآيات فبهذه القرينة فسرنا ((وأوتيت
من كل شيء)) على ما تقدم
وكذلك قوله : ((كل شيء هالك إلا وجهه))

بقرينة ما ثبت من حياة الشهداء وعدم معقهم وكذلك بقاء
الجنة التي أعدت للمؤمنين وما فيها من حور وولدان ونحو ذلك
بهذه القرائن عرفنا أن هذه الآية مخصوصة بغير الشهداء
وأهل الجنان وملائكة العرش ونحوهم .
فمعني الآية على هذا أن المراد كل شيء مما كتب الله عليه
الفناء والهلاك : هالك .
والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء وكذلك العرش (٣)

(١) زاد المسير ١٩٥ / ٦ ، ابن كثير ٦٠٢ / ٣ ، الرازي ٢٤٠ / ٢٤

روح المعاني ٢٠ / ٣٣ - ٣٤ ، القرطبي ١٣ / ٢٤٠

(٢) روح المعاني ج ٢٠ / ١٣١ ، الرازي ٢٥ / ٢٥

(٣) أنظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٤٢٠
طبعة دار الفكر العربي

الوجه الثاني :-

أن المراد بالهلاك الموت

وأريد بعموم كلمة "شيء" في الآية الأحياء الموجودون في الدنيا وأُيِّد ذلك بما روى عن ابن عباس (١) أنه قال في تفسير الآية : « كل حيٍّ ميّت إلّا وجهه » .

وتخصيص : كل شيء هالك ...)) بالحي الموجود في الدنيا قرينته أن كل حيٍّ في الدنيا محكوم عليه بالهلاك حيث شاع استعمال الهلاك في الموت : فيقال : هلك يعني مات (٢)

قلت : ويدل لهذا الوجه ما رواه النسائي (٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ((لَقَنَّوْا هَلَاكَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ))

فقوله هلكاكم : يعني موتاكم كما دلت عليه الروايات الأخرى

فعلى هذا فإن المراد بالمحكوم عليهم بالهلاك هم المكلفون الحاضرون في دار التكليف وهذا نظير قوله تعالى : ((كل نفس ذائقة الموت)) آل عمران / ١٨٥

حيث أريد بهذه الآية المكلفون في الدنيا بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الآية :

((فمن زُحِرَ حَرُّ النَّارِ وأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ))

فإن هذا المعنى لا يتأتى إلّا في المكلفين وهم الانس والجن (٤)

(١) الدر المنثور ج ٦ / ٤٤٧

(٢) روح المعاني ٢٠ / ١٣١

(٣) في سننه ج ٤ / ٥ كتاب الجنائز باب تلقين الميت واسناده

حسن

(٤) أنظر : تفسير الرازي ج ٩ / ١٢٤

الوجه الثالث :-

ما رواه عطاء عن ابن عباس وبه قال سفيان الثوري ومجاهد رحمهم الله وحكاه البخاري (١) في صحيحه كالمقرر له :

أن معنى ((كل شيء هالك إلا وجهه))

أي كل شيء من أعمال العباد هالك وباطل إلا ما أُريد به

وجهه تعالى (أي مرضاة الله

قال ابن جرير (٢) ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر

استغفر الله ذنباً لستُ مُحصيه ربّ العباد إليه الوجه والعملُ

ووجه ذلك أن العمل الذي ابتغي به وجه الله وكان صواباً حسب

ما أمر الله عز وجل أبقاه جل شأنه له إلى أن يجازيه

عليه، أو أنه بقبوله تعالى لعمله فإن الجزاء عليه قام مقامه

وهو باق (٣)

وعلى هذه الأوجه ينتفي توهم التعارض بين مدلول هذه

الآيات لما تقدم من تفسير معنى ((كل شيء هالك إلا وجهه))

(١) البخاري كتاب التفسير / سورة القصص / ٨٨ ج ١٧ / ٦
وأنظر : فتح الباري ج ٨ / ٥٥٥ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي طبع
دار المعرفة - بيروت - الدر المنثور ج ٦ / ٤٤٧ وأُفاد أن رواية ابن
عباس أخرجه عبد بن حميد

ورواية مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم
ورواية سفيان أخرجه البيهقي في شعب الإيمان .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٢٠ / ١٢٧ طبعة الحلبي

(٣) زاد المسير ٢٥٢ / ٦

روح المعاني ١٣٢ / ٢٠

-٢-

قوله تعالى :

((ثُمَّ نُفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)) - الزمر/٦٨ -

هذه الآية ظاهرها أن الناس إذا بعثوا من قبورهم فإنهم يبعثون قِيَامًا وقد جاء آيات أخرى قد يتوهم منها منافاة ذلك وهي

قوله تعالى :

١ - ((وَنُفَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ))

يس / ٥١

والنسل : الإسراع في المشي (١)

٢ - وكذلك قوله تعالى :

(يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَّاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ) *
- معارج / ٤٣ -

فهاتان الآيتان تدلان على أن الناس يخرجون من القبور مسرعين منتشرين وليسوا قِيَامًا كما هو ظاهر الآية الأولى فكيف التوفيق بين الآيات ؟

والجواب :- من وجهين :-

الوجه الأول : أنه لم يُردِّ بقوله : ((فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)) ما يتبادر من القيام وهو الوقوف، بل أراد بالقيام الإحياء والإخراج بعد أن كانوا عظاما ورفاتا صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة (٢) كما قال تعالى :

(٣)

((فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)) - النازعات/١٤

وكما قال :

((ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)) - الروم/٢٥

وعلى هذا فليس هناك ما يوهم التنافي لأن الآية دلت على قيامهم من قبورهم عند النفخة الثانية وعبرت الآية الأخيرة عن

(١) المفردات تفسيرا ابن كثير ٣ / ٩١٥ يس / ٥١

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٩١

(٢) تفسيرا ابن كثير ٤ / ٩٦ الزمر / ٦٨ ،

روح المعاني ٢٤ / ٢٨ القرطبي ١٥ / ٢٨١

* الأجداث : القبور / يوفضون : يسرعون

والنصب : الالهة التي كانوا يعبدونها ، زاد المسير ٨ / ٣٦٦

(٣) الساهرة : وجه الأرض

كيفية هذا القيام وهو أنهم ينسلون أى يسرعون المشي
وكما قال :
((يخرجون من الأحداث سراعاً كأنهم الى نصب يُوفضون .))

الوجه الثاني : أن معنى قوله تعالى :
((فاذا هم قيام ينظرون)) : أنهم يخرجون واقفين فهذا
يكون عند خروجهم ، ثم يمشون مسرعين فيكون ذلك لتقارب زمان
القيام والاسراع في المشي
فعبر مرة عن القيام ومرة عن الاسراع في المشي ،
ولا تنافي أيضا بين قولك فلان قائم ، وماشي
لأن الماشي هو في الحقيقة قائم (١)
٣- قوله تعالى :

((يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً يتخافتون
بينهم إن لبثتم إلاّ عشراً ، نحن أعلم بما يقولون ان يقول
أمثلهم طريقة إن لبثتم إلاّ يوماً)) طه ١٠٣ - ١٠٤

و قوله :
((قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوماً
أو بعض يوم فاسأل العادين)) المؤمنون / ١١٣
وقوله :
((ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة
كذلك كانوا يُؤفكون)) الروم / ٥٥

(١) الرازي ٢٦ / ٢٨
روح المعاني ٢٣ / ٣٢

(٢) زرقاً : يعني :- زرق العيون من شدة العطش ، قاله الزهري :
والمراد أنهم يحشرون بأشع صورة حيث تسود وجوههم وتزرق عيونهم
وقيل معنى زرقاً : عميا عيونهم لانور لها قاله ابن قتيبة ، والراغب
أنظر : زاد المسير لابن الجوزي ٥ / ٣٢١
غريب القرآن لابن قتيبة / ٢٨٢
المفردات للراغب الأصفهاني ص / ١١٢

وقوله :

((ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا

الا ساعة من نهار)) الاحقاف / ٣٥

وقوله :

((كأنهم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها)) النازعات/ ٤٦

هذه الآيات فيها أن الكفار يوم القيامة يزعمون أنهم لم يلبثوا

الا عشرة أيام وبعضها أنهم زعموا أنهم لبثوا يوما أو

ساعة أو عشية أو ضحاها

فكيف التوفيق بين هذه الآيات

والجواب :

أن الكفار يوم القيامة من هول الموقف وشدة الحساب و

ما يرونه من أمور تشيب لها الولدان ينسون مدة بقائهم في

الدنيا ويذهلون غاية الذهول فيرون مدة الحياة الدنيا التي

فانيت أنها كانت قليلة جدا، ولما كان ذهولهم وادراكهم متفاوت

لا جرم أن كل فرقة منهم قالت غير ما قالت الأخرى وكلهم

يريد بيان قصر مدة الحياة الدنيا كما قال تعالى :

((يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا

قليلًا)) الاسراء / ٥٣

فالمراد من أقوالهم عموما تقليل المدة وليس تحديدها

ولهذا اختلفت أقوالهم وقد بين القرآن سبب اختلافهم في تقدير

مدة الحياة الدنيا في قوله تعالى :

((ان يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم الا يوما))

فأرشدهم وأصوبهم وأقواهم ادراكا هو من يقول ان مدة لبثهم

يوما فهذه الآية دلت على اختلاف أقوالهم وأن كل قول

هو قول مجموعة منهم بحسب ادراكهم وذهولهم

وانا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يوهم التنافي بين

الآيات

ومعلوم أن الله قد أخبر عن يوم الحساب أنه يوم كان مقداره

خمسین ألف سنة وأنه يوم عسير على الكافرين غير يسير ، وأنه

يجعل الولدان شيئا وأنه يوم الفزع الأكبر وانما كان الأمر كذلك

لاجرم أنهم استقصروا واستحقروا مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة لطول

الحساب والعذاب وشدته لأنهم لم ينتفعوا بعمرهم
وغرهم بالله الغرور فكان وجود ذلك العمر كالعدم وكذلك لمشاهدتهم
أهوال الآخرة فلخوفهم نسوا مدة دنياهم ولات حين مندم (١)

٤

قوله تعالى :

((وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُبْثًّا)) الواقعة / ٦

وَبُسَّتْ : يعني فتت

وهباء منبثا : يعني غبارا متطايرا

هذه الآية تبين ما تمير اليه الجبال يوم القيامة وأنها تتفتت
وتصير غبارا مبثوثا كالذي تذروه الرياح

وقد جاءت آيات أخرى في وصف حال الجبال يوم القيامة قد

يتوهم منافاتها لهذه الآية وهي قوله تعالى :-

((يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) المزمّل / ١٤

وكثيبا مهيلا : يعني تمير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة

صماء والكثيب : الشيء المجتمع اذا وطئته القدم زلّ من تحتها

واذا أخذت أسفلها انهال

وقوله تعالى :

((وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سُرَابًا)) النبأ / ٢٠

أى سُيرت عن أماكنها فكانت كالسراب لأنها تمير هباء منبثا

فيراها الناظر كالسراب* بعد شدتها وصلابتها

وقوله : ((وتكون الجبال كالعهن المنفوش))

أى كالصوف المندوف الذى قد شرع في الذهاب والتمزق (٢)

فهذه الآيات ذكرت أوصافا مختلفة لموصوف واحد وهو حالة

الجبال يوم القيامة فكيف التوفيق بينها ؟

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ / ٢٦٤ طه / ١٠٣ - ١٠٤ زاد المسير ٥ / ٣٢١

رازي ٢٣ / ١٢٧ ، ١٧ / ١٠٩ قرطبي ١٢ / ١٥٥ ١٩ / ٢٠٨

روح المعاني ١٨ / ٧٠ ، ٢١ / ٥٩

الرد على الزنادقة للإمام أحمد / ١٢ أضواء البيان للشنقيطي ١٠ / ٢١٥

(٢) زاد المسير ٩ / ٧ ، ٢١٤ ابن كثير ٤ / ٨٦٢ القارة ٥ / ٤ ، ٤٤١ الواقعة ٦ /

رازي ٣٠ / ١٨١ ، ١٢٤ روح المعاني ٢٩ / ١٣٥ ، ٢٩ / ٧٣ ، قرطبي ١٩ / ٤٦

* السراب : هو ما يخيّل للناظر أنه ماء يجري بسبب انعكاس أشعة الشمس

على الأرض المنبسطة فاذا جاءه لم يجده شيئا .

والجواب :

أن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة وذلك أن نسف الجبال يوم القيامة يمر بمراحل وأطوار ترجع كلها الى تفريغ الأرض منها وإبراز ما كانت تواريه كما قال تعالى :

((ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا)) (*) طه / ١٥٥ -

وقد رتب القرطبي وغيره أحوال الجبال كما ذكرت الآيات كالتالى قال (١) ((فأول الصفات الاندكاك (٢) وذلك قبل الزلزلة ثم تصير كالعن المنفوش وذلك اذا صارت السماء كالمهل (٣) ، وقد جمع الله بينهما فقال : يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن (٤)))

المعارج / ٩

وفي الحالة الثالثة : أن تمير كالهباء وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن

والحالة الرابعة : أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة قي مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتسف عنها لتبرز (٤) ((

والحالة الخامسة : ((أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتظهرها شعاعا في الهواء كأنها غبار ، فمن نظر اليها من بعد حسابها لتكاثفها أجساما جامدة (٥)

والحالة السادسة : ان تكون سرايا فمن نظر الى مواضعها لم يجد فيها شيئا منها كالسراب)) ١٠ هـ

قلت وهو كما قال تعالى : ((وسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا)) النبأ / ٢٠

(*) القاع من الأرض : المستوى الذى يعلوه الماء ، والصفص : المستوى أيضا ، يريد أنه لانيات فيها ، ((لا ترى فيها عوجا ولا أمتا)) لا ترى فيها اودية ولا روابي ولا ميلا ولا أثرا (زاد المسير ٥ / ٣٢٢)

(١) القرطبي ٣ / ٢٤٢ ، الرازي ٣٠ / ١٨١ ، زاد المسير ٥ / ٣٢٢

(٢) يشير الى قوله تعالى ((وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة)) الحاقة / ١٤

(٣) المهل : هو الزيت الغليظ أو الفضة والرصاص الذائبان وقيل غير ذلك ، زاد

المسير ٥ / ١٣٤ مفردات / ٤٧٦

(٤) يشير الى قوله تعالى : ((يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها

قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا)) طه / ١٥٥

(٥) يشير الى قوله تعالى : ((وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر السحاب ،

صنع الله الذى اتقن كل شيء ٠٠٠)) النمل / ٨٨

وبهذا يتبين لنا أن الآيات التي ذكرت أحوال الجبال يوم
القيامة لا تنافي بينها لأن الله سبحانه ذكر في كل موضع
حالة من حالات الجبال كما تقدم بما يناسب السياق والغرض

المبحث الثاني : الآيات المتعلقة بيوم الحساب والجزاء
وفيه عدة أمثلة

١- قوله تعالى :

((فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون))

المؤمنون / ١٠١

هذه الآية يدل ظاهرها على انقطاع الانساب يوم القيامة
مطلقا وكذلك انتفاء التساؤل بين الناس

وقد جاءت آيات أخرى تدل على ثبوت الأنساب بينهم ((

كقوله تعالى :

((والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم

.....)) الآيات الطور / ٢١ -

وجاءت آيات أخرى تدل على أنهم يتساءلون كقوله تعالى :-

((وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا

عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ...)) المافات/ ٢٧-٢٩

وهذا المثال تقدم الجواب عليه في الباب الأول / فصل اسباب

موهم الاختلاف السبب السادس (ص ١٣٥)

٢-

قوله تعالى :

((فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين)) الأعراف / ٦

وقوله : ((فوريك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)) الحجر / ٩٢

وقوله : ((وقفوهم إنهم مسئولون)) المافات / ٢٤

هذه الآيات من كتاب الله تدل على أن العباد يوم القيامة يُسألون

عن أعمالهم وأقوالهم من قبل الله تعالى وأن الكل مسئول بحسبه

حتى المرسلين

وقد جاءت آيات أخرى من كتاب الله تنفي مساءلة العباد عموما

والكفار خصوصا

وهو قوله تعالى : ((ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون)) القصص / ٧٨

وقوله : ((فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان))

الرحمن / ٣٩

فقد يتوهم أن بين هذه الآيات اختلاف أو تناقض وليس كذلك

والجواب عن هذا التوهم كالتالي وهو من ثلاثة أوجه :-

الوجه الأول :-

أن القيامة مواطن وهو يوم طويل على الكافرين غير يسير
وأخبر الله أن طوله «خمسين ألف سنة»
والكفار في هذا اليوم ينتقلون من شقاء الى شقاء ومن خزي
الى خزي

ففي بعض مواطن القيامة يُسألون عن أعمالهم وذنوبهم
كما قال : ((وقفوهم إنهم مسئولون ما لكم لا تناصرون))
فيُسأل الجميع في ذلك الموطن حتى الرسل يُسألون عن تبليغ ما
أُمرُوا به ، توبيخا لأقوامهم الذين كذبوهم
كما قال : ((فلنسألن الذين أُرسل اليهم ولنسألن المرسلين))
وتُسأل المؤودة وهي التي دُفنت صغيره توبيخا لمن قتلها
كما قال تعالى : ((وإنا المؤودة سُئلت بأي ذنب قُتلت)) التكوير / ٨
ومن مسألة الانبياء قوله تعالى مخاطبا نبيه عيسى عليه السلام
توبيخا للنصارى :

((اذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي
إلهين من دون الله ، قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس
لي بحق إن كنتُ قلتُهُ فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما
في نفسك أنك أنتَ علّام الغيوب)) - آل عمران / ١١٦ -

ومن مسألة الكفار قوله تعالى :

((ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاءكم
الذين كنتم تزعمون)) الانعام / ٢٢
وقد أخبر الله في كتابه أنه سوف يحاسب الجميع مؤمنهم
وكافرهم كما قال :
((إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)) الغاشية / ٢٥

وقال :

(فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) - الانشقاق
وقد أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يسر الحساب على^٨

المؤمن هو العرَض (١)

أما المناقشة فهي للكفار والعصاة لأن من نوقش الحساب عُدب
وهناك مواطن لا يُسأل الناس فيها

وهو ما أفاده قوله تعالى : ((فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنسى
ولا جان)) ونحوه من الآيات

لأن في هذا المواطن يكون الناس في أمر آخر غير السؤال كوزن
الصحف أو تطاير الكتب أو طلب الشفاعة ونحو ذلك من أمور يوم
القيامة التي تشيب لها الولدان (٢) ولهذا قال قتادة (٣) رحمه الله
في قوله : ((فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنسى ولا جان))

قال : قد كانت مسألة ثم خُتم على السنة القوم وتكلمت أيديهم
وأرجلهم بما كانوا يعملون .

وقال ابن قتيبة (٤) رحمه الله : ((فالجواب في ذلك أن يوم القيامة
يكون كما قال الله تعالى : ((مقداره خمسين ألف سنة)) ففي مثل
هذا اليوم يسألون وفيه لا يسألون ، لأنهم حين يعرضون يوقفون على
الذنوب ويحاسبون ، فإذا انتهت المسألة وجبت الحجة وانقطع الكلام
وزهد الخصام واسودت وجوه قوم وابيضت وجوه آخرين ، وعُرف الفريقان
بسيماهم ، وتطايرت الصحف من الأيدي فأخذت اليمين إلى الجنة
وأخذت الشمال إلى النار)) ٥١

(١) أخرجه البخاري في التفسير / سورة اذا السماء انشقت ج ٦ / ٨١
وفي السرقاه / باب من نوقش الحساب عُدب ج ٧ / ١٩٧ عن عائشة : أن الرسول
صلى الله عليه وسلم - قال ((من نوقش الحساب عُدب فقلت أليس يقول الله
تعالى ((فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا)) الانشاق
٧ - ٩ فقال : إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب لك
(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٢٩ (الرحمن / ٣٩) البرهان للزركشي ٢ / ٥٥
٢٦ / ١٤
وانظر : القرطبي ١٧ / ١٧٤ فتح الرحمن / ٥١ تفسير الرازي ١٧ / ٢٥
١١٨ / ٢٩

روح المعاني ٢٠ / ١٢١

(٣) تفسير ابن جرير طبعة الحلبي ٢٧ / ١٤٣ ابن كثير ٤ / ٤٢٩

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ٦٥

الوجه الثاني :

هو أن السؤال قسمان

سؤال توبيخ وتقريع ، وسؤال استخبار واستعلام

فالآيات التي فيها اثبات السؤال كقوله :

((وقفوهم انهم مسئولون))

يراد بهذا سؤال التوبيخ والتقريع لأنه قال بعدها :

((ما لكم لا تناصرون))

وكقوله لهم : ((أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون))

وكقوله لهم : ((كلما أُلقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم

نذير)) الملك ٨/

وكقوله : ((حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم

يأتكم برسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم...)) - الزمر / ٢١ -

ومن ذلك أيضا سؤال الرسل من أجل توبيخ أقوامهم وتقريعهم

ومن ذلك سؤال المؤونة بأى ذنب قتلت لتوبيخ من قتلها وتقريعه

وبيان فظاعة فعلته ، وفضيحته على رؤوس الأشهاد

أما السؤال المنفي فهو سؤال الاستعلام والاستخبار فان الله

سبحانه يعلم ما اقترف كل عبد وقد سجل عليه كل صغيرة وكبيرة

كما قال تعالى :

((ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا

أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا)) - الكهف / ٤٩ -

فمن هذا الباب لا يُسأل المجرمون عن ذنوبهم سؤال استعلام واستخبار

لأنها مُحصاة عليهم بل يوبخون عليها ويسألون عن الداعي والباعث

لهم على فعلها توبيخا وتقريعا (١)

وقريب من هذا الوجه ما نقله الرازي (٢) عن أبي مسلم الأصفهاني

وهو أن السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتقريع والتبكيك

وقد يكون للاستعتاب

وأن المراد بنفي سؤال المجرمين عن ذنوبهم هو سؤال الاستعتاب

لأن الكافر لا يُعاتب على ذنبه كما قال تعالى :

١٧ / ٢٥

(١) ابن كثير ٢ / ٨٦٦ الحجر / ٩٢ و ٤ / ٨ الصافات / ٢٤ رازي ٢٩ / ١١٨

٦٠ / ١٠

القرطبي ١٧ / ١٧٤

٣١٦ / ١٣

روح المعاني ٢٧ / ١١٤ ، ٢٠ / ١٢١

أضواء البيان للشنقيطي ج ١٠ / ١٣١

(٢) تفسير الرازي ج ٢٥ / ١٧ وأنظر القرطبي ١٣ / ٣١٦

((ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون)) - النحل / ٨٤ -
وقوله ((هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون)) - المرسلات / ٣٦ -
وعلى هذا الوجه فليس بين الآيات تنافي لأن السؤال المثبت غير
السؤال المنفي

الوجه الثالث :

أن معنى قوله تعالى :

((فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان))

وقوله : ((ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون))

معنى ذلك أنه لا يسأل يوم القيامة أحد عن ذنب غيره بل

كل انسان مسئول عن ذنبه^(١) كما قال تعالى :

((ولا تزر وازرة وزر أخرى)) وهذا المعنى مروى عن أبي

العالية^(٢) فيكون معنى الآية : - لا يُسأل إنس ولا جان عن ذنب

المذنب بل هو المسئول عن ذنب نفسه

وكذلك قوله تعالى : ((ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون))

يعني : لا يُسأل أحد عن ذنوب المجرمين بل هم المسئولون عنها

ولذلك فائدة وهي أن كون الانسان قد فسق أو أجرم بإضلال غيره

لا يعني أنه لا يُحاسب على ما اقترفه وأما الذي أضله وزيّن له

الفسق والاجرام فانه يحمل وزره ووزر الذي ضلّ باغوائه لأنه السبب

في ذلك كما قال تعالى : ((وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم))

وعلى هذا الوجه فليس هناك ما يوهم التنافي أو الاختلاف لأنه

تعالى لم ينفر أن أحدا يُسأل عن ذنب نفسه بل نفى أن يُسأل

إنس أو جان عن ذنب المذنب لأن الله تعالى لا يظلم أحدا شيئا

وكل أحد مسئول عن أعماله ((كل نفس بما كسبت رهينة))

والذى يتضح أن هذه الأوجه الثلاثة متفقة في معانيها اجمالاً
ويُجمع بينها كالتالى :- يوم القيامة مواطن يُسألون في
بعض هذه المواطن ولا يسألون في بعضها الآخر
وفى المواطن الذى يُسألون فيه يُسأل المجرمون والكفار سؤالاً
توبيخ وتقرير على ما بدر منهم والباعث لهم على جنائياتهم
ولا يُسألون سؤال استعلام واستخبار لأن ذنوبهم وأعمالهم
محصاة مكتوبة وسيماهم في وجوههم
وأما المؤمنون فيُسألون أيضاً إجمالاً عن أعمالهم سؤال عرض
وليس سؤال مناقشة وعذاب وأما العصاة منهم فيُسألون أيضاً
توبيخاً وتقريراً فمنهم من شمله رحمة الله أو شفاعة نبيه أو
المؤمنين
ومنهم من توبقه ذنوبه لكثرتها فيدخل النار ليتطهر منها
لكنه لا يخلد فيها كما ثبت بذلك الأخبار، بعكس الكافر والمشرک
الذى يخلد فيها، وفي ذلك اليوم انا سُئل أحد يُسأل عن نفسه
ولا يُسأل أحد عن ذنب غيره
((كل نفس بما كسبت رهينة))
وعلى هذا فالأوجه مؤلفة منسجمة مؤداها واحد
والله ولي التوفيق

قوله تعالى :-

((ان الذين يَكْتُمُونَ ما أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) البقرة / ١٧٤

وقوله :-

((ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا
خلاق لهم في الآخرة ولا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) آل عمران / ٧٧

هاتان الايتان تدلان على أن الله لا يُكَلِّمُ الْكُفَّارَ وَالْعَصَاةَ مِمَّنْ
يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَعَهْدِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

وقد جاءت آيات أخرى تدل على كلام الله لهم إجمالاً كقوله تعالى
((ولو ترى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا
بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)) - الانعام / ٣٠ -
وقوله :-

((قال اخسئوا فيها ولا تكلمون)) - المؤمنون / ١٠٨ -

وقوله :-

((ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاءكم
الذين كنتم تزعمون)) - الأنعام / ٢٢

فهذه الآيات تثبت كلام الله لهؤلاء الكفرة أصحاب الضلال إجمالاً
فكيف التوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات المتقدمة والتي ظاهرها
نفي كلام الله لهم .

والجواب :- انه لما كان الكلام ثابتاً إجمالاً في مناقشة الكفار
ومساءلتهم وتوبيخهم وإهانتهم ، وكان التكليم المنفي في معرض الوعيد
دل ذلك على ان المراد بنفي تكليم الكفار نفي الكلام الطيب النافع
كلام التحية والسلام واللفظ والاكرام

وانما يكلمهم بما ينمهم ويعظم حسرتهم من المناقشة والمساءلة
والتوبيخ والاهانة من مثل قوله : ((قال اخسئوا فيها ولا تكلمون))

وقوله : ((ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون))

وقال الرازي^(١) قال القفال : المقصود من كل هذه الكلمات بيان شدة
سخط الله تعالى عليهم لأن من منع غيره كلامه في الدنيا فانما ذلك
بسخطه عليه واذا سخط انسان على آخر قال له لا أكلمك ، وقد

يأمر بحجبه عنه ويقول لا أرى وجهه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل فثبت أن هذه الكلمات كنايات عن شدة الغضب نعوذ بالله منه))

وعلى هذا الوجه فليس المراد نفي كلامهم أصلاً وإنما هو كنايه عن غضبه تعالى عليهم لعظيم جرمهم حيث اشتروا بآيات الله وعهده ثمنا قليلاً .

وكذلك جاء نفي تكليمهم يوم القيامة في معرض التهديد والوعيد حيث أن يوم القيامة هو اليوم الذي يكلم الله تعالى فيه الخلائق فيظهر السرور في أولياء الله وضده في أعدائه، ويتميز أهل الجنة بذلك من أهل النار

فمن أجل ذلك كان نفي كلامهم بلطف وإكرام من أعظم الوعيد فجري ذلك مجرى العقوبة لهم^(١)

وفي صحيح مسلم^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر))

فهؤلاء لما قبحت منهم هذه الجرائم قبحاً مضاعفاً لاجرم توعّدوا بأن الله لا يكلمهم ولا ينظر إليهم، ولما كان هؤلاء كغيرهم لابد أن يسألوا ويُناقشوا دل ذلك على أن المراد نفي الكلام الطيب النافع كلام التحية والإكرام زيادة في عقوبتهم وتشديداً في وعيدهم .

(١) فتح الرحمن ٥١ ، الرازي ٢٥ / ٥ ، ١٠٥ / ٨ ، ١٢ / ٢٠٦

ابن كثير ١ / ٥٦١ آل عمران ٧٧ آلوسي ٤٤ / ٢ قرطبي ٢ / ٢٣٥

(٢) صحيح مسلم / كتاب الإيمان / باب بيان غلظ تحريم أسبال الأزار... وبيان

الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ، ج١ / ١٠٢ رقم : ١٠٧ تحقيق عبد الباقي ط الحلي

٤-

قوله تعالى :-

((يومئذ يودّ الذين كفروا وعصّوا الرسولَ لو تسوّى

بهم الأرضُ ولا يكتُمون الله حديثاً)) النساء / ٤٢

هذه الآية تدل على أن أهل القيامة من الكفار لا يكتُمون

شيئاً (أى يعترفون بذنوبهم

وهو كقوله تعالى :

((ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إننا موقنون))

وكقوله : ((فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير)) - الملأ / ١١

بينما جاءت آية أخرى تدل على جحود الكفار وكتمانهم وهي

قوله تعالى :

((ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤهم

الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلّا أن قالوا والله

ربنا ما كنا مشركين ، أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل

عنهم ما كانوا يفترون .)) الأنعام / ٢٢ - ٢٤

ومعنى فتنتهم : شركهم وتقدير الآية :- ثم لم تكن عاقبة

شركهم إلّا أن قالوا ((والله ربنا)) فان الله تعالى بين

كون المشركين مفتونين بشركهم متهاككين على حبه ، فاعلم في

هذه الآية أنه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلّا أن

تبرأوا منه وتباعدوا عنه فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين (١)

والجواب :-

هو ما أخرجه بن جرير^(٢) عن الضحاك : أن نافع بن الأزرق أتى

ابن عباس فقال : يا ابن عباس ، قول الله تعالى : يومئذ يودّ الذين

كفروا وعصّوا الرسولَ لو تسوّى بهم الأرضُ ولا يكتُمون الله حديثاً))

وقوله : ((والله ربنا ما كنا مشركين)

(١) رازى ١٢ / ١٩٢ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٥ / ٩٤ طبعة الحلبي ، الدر المنثور ٢ / ٥٤٤

وأخرج البخارى عن سعيد بن جبیر قال قال : رجل لابن عباس وذكر نحوه

ضمن كلام طويل في كتاب التفسير / تفسير سورة حم السجدة ج ٦ / ص ٣٥

وأنظر فتح البارى ج ٨ / ٥٥٥

وأثرت رواية ابن جرير للزيادة التي فيها

فقال ابن عباس اني أحسبك قمتَ من عند أصحابك فقلت :
ألقي على ابن عباس متشابه القرآن فاذا رجعت إليهم فأخبرهم أن
الله تعالى جامع الناس يوم القيامة في بقيع واحد فيقولون
المشركون : ان الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده
فيقولون : تعالوا نجحد ، فيسألهم فيقولون : ((والله ربنا
ما كنا مشركين))

قال : فيختم على أفواههم ويستنطق جوارحهم ، فتشهد عليهم
جوارحهم أنهم كانوا مشركين ، فعند ذلك تمنوا لو أن الأرض
سوّيت بهم ((ولا يكتُمون الله حديثاً ٠))
ونقل أبو الحسين الملقب (١) عن مقاتل بالسند الثابت أنه
قال : فأما تفسير قول المشركين حيث قالوا : ((والله
ربنا ما كنا مشركين
.....

ونذكر نحو قول ابن عباس

٢

قلت : فهذه الأسانيد الصحيحة الى ابن عباس ومقاتل فسرت لنا
الآيات وجمعت بينها بما فيه الشفاء ،
فالذي يتبين أن المشركين في أول الأمر يُنكرون و يجحدون لسخف
عقولهم ، فهم في ضلال وعمى في الدنيا والآخرة فيكذبون على أنفسهم
كما قال الله ((أنظر كيف كذبوا على أنفسهم و ضل عنهم ما كانوا
يفترون)) كما أنهم يحلفون على الكذب كما قال الله : (يوم يبعثهم

الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء الا أنهم هم الكاذبون)، ومما يقسمون عليه أنهم لم يكونوا مشركين وذلك لجهلهم بالله تعالى ((ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا))

وبعد أن يُختم على أفواههم وتشهد عليهم الجوارح ويروا أن الله لا يكتُم شيئا وأن كل صغيرة وكبيرة مسجلة عليهم هنالك يعترفون بذنوبهم ويتمنون الرجوع للدينا، ويتمنون لو تُسوى بهم الأرض ويتمنون أن يقدوا أنفسهم بملء الأرض ذهبا ولات حين مندم، فيعترفون على أنفسهم بالكفر ويسألون الرجعة وهو قولهم :

((ياليتنا نُرد ولا نُكذَّب بآيات ربنا))

فحلفوا كذبا أنهم لم يُشركوا ثم طلبوا الرجعة حتى يؤمنوا ومع ذلك هم كاذبون أيضا حيث قال تعالى :

((بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُتُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإِنَّهم لكاذبون)) الأنعام / ٢٨

(١) أنظر : الرد على الزنادقة للإمام أحمد / ١١ - ١٢

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع للملطي / ٥٧ - ٥٨

ابن كثير / ١ / ٧٥٥ النساء / ٤٢
الرازي / ٢٩ / ٢٧٥ قرطبي / ٦ / ٤١٠ روح المعاني / ٥ / ٣٥
١٩٢ / ١٢ ٢٣ / ٤١ - ٤٣

قوله تعالى :-

((هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون)) (المرسلات/ ٣٥)

((ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم غُمياً وبكماً وصماً))

الاسراء / ٩٧

هاتان الآيتان يدل ظاهرهما على أن أهل الموقف لا ينطقون يوم القيامة وأنهم يكونون بُكماً، وجاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك : وهو أن الكفار يتكلمون يوم القيامة و يجادلون عن أنفسهم و يطلبون الرجعة للدنيا قال تعالى :

((ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا

وسمعنا فارجعنا لعمل صالحا انا موقنون)) السجدة / ١٢

((ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)) الزمر / ٣١

((ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين))

((يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها)) النحل / ١٨٨

((و نادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء))
الاعراف/ ٥٠

((يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت

ترايا))- النبأ / ٤٠ -

فكيف التوفيق بين هذه الآيات

والجواب :-

ان المتدبر الكتاب الله يجد أن مواقف يوم القيامة كثيرة ومواطنه متعددة كما تقدم، والقران يذكر في كل موضع من المواضع حالة من حالات الكفار ليبدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ .

وفي ذلك اليوم يكون حال الكفار اجمالا الخصام فيما بينهم وكل واحد يجادل عن نفسه ويحلفون أنهم لم يكونوا مشركين ، ثم عندما يوقنون بسوء العاقبة والمصير ويرون أهوال القيامة ويسمعون ما يغيظهم ويُقرِّعهم ويُبطل حجتهم الداحضة يقولون :

((ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لعمل صالحا انا موقنون)) وهناك

يقول كل واحد منهم ((ياليتني كنت ترايا))

ثم يعاود الكفار الخصام والتجادل والقاء اللوم على بعضهم

البعض

((وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون))

ومن تالومهم ما حناه الله عنهم :

(وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص)
ابراهيم / ٢١ -

وقوله تعالى :

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين)
سبأ / ٢١ -
ثم يقال لهم بعد ذلك : (لا تختموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد)
وفي نهاية المطاف وبعد تلك الأهوال يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ويلقون في جهنم وبئس المصير ، فيعاودون فيها الخصام كما حكى الله عنهم :

(قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ -
نسويكم برب العالمين ، وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين
ولا صديق حميم) - الشعراء / ٩٦ - ١٠١ -

وهناك في النار يقال لهم : (ألم تكن آياتي تتلى عليكم
فكنتم بها تكذبون ، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين
ربنا أخرجنا منها فإنّ عدنا فإنا ظالمون ، قال : اخسئوا فيها ولا
تكلمون ٠٠٠) - المؤمنون / ١٠٥ - ١٠٨ -

فهذا الكلام منهم هو آخر ما ينطقون ويعتذرون ، فيقال لهم :
اخسئوا فيها ولا تكلمون) وعند ذلك يُحشرون في النار عمياً وبكماً
وصماً كما قال تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً
وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً) - الاسراء / ٩٧ -

فهذه الحالة الأخيرة لهم، وهي حالة عدم النطق ، ولا يتكلمون بعدها
أبداً ، بل يبقون بكماً عمياً صماً كما أخبر الله عنهم ، ومما يدل على
أن مرحلة عدم النطق تكون بعد دخولهم النار أن آية المرسلات وهي:
(هذا يوم لا ينطقون ٠٠٠) جاءت بعد قوله تعالى مخاطباً الكفار :

(انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث
شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ، إنها ترمي بشرر كالقصر
كأنه جمالت صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ، هذا يوم لا ينطقون
ولا يؤذن لهم فيعتذرون ٠٠٠)

و هناك موطن آخر في عروضات القيامة لا ينطقون فيه وهو موطن مؤقت وهو عندما يحلفون أنهم لم يكونوا مشركين ، فعند ذلك يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون فلما تمت عليهم الحجة و ظهرت مخازيهم وأكاذيبهم علموا أن الله لا تخفى عليه خافية فيعاودون الاعتذار و طلب الرجعة الى الدنيا حتي ينتهي بهم المطاف الى جهنم وبالتالي البكم النهائي كما تقدم (١)

و هناك وجه آخر :

وهو أن المراد بقوله تعالى : ((هذا يوم لا ينطقون)) أى لا ينطقون بحجة مسموعة مقبولة ، قال الشريف المرتضى (٢) و يجرى هذا مجرى قولهم : "خرس فلان عن حجته" ، وحضرنا فلانا يناظر فلانا فلم يقل شيئا وان كان الذى وُصف بالخرس عن الحجة والذى نُفي عنه القول قد تكلم بكلام كثير غزير الا أنه من حيث لم يكن فيه حجة ولا به منفعة جاز إطلاق القول الذى حكيناه عليه ومثل هذا قول الشاعر :

أعمى اذا ما جارتى خرجت حتى يُواري جارتى الخِدرُ
رِيمٌ عما كان بينهما سمعي وما بي غيره وقر*
وعلى هذا التأويل قد زال الاختلاف لأن التساؤل و التلاوم لا حجة فيه)))

(١) الرد على الذنادقة ٧ - ٨ التنبيه والرد للملطي / ٥٦

تأويل مشكل القرآن / ٦٦ رازى / ٣٠ / ٢٧٩

ابن كثير ٤ / ٧٢٢ رسائل / ٣٥ روح المعاني ٢٩ / ٢٢٤ قرطبي ١٩ / ١٦٤
١٧ / ١ ١٣٩ / ١٣

(٢) أمالي المرتضى ١ / ٤٣

٥٠١ هـ

* البيتان لمسكين الدارمي ربيعة بن عامر

: (معجم الأدباء ١١ / ١٣٢)

-٦-

قوله تعالى :

((يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أُجِبتُمْ ؟ قالوا : لا علم لنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)) المائدة / ١٠٩

هذه الآية يدل ظاهرها أن الرسل لا يجيبون عند سؤالهم ولا يشهدون على أممهم هل أجابوا دعوتهم أم لا .
وذلك أنهم قالوا ((لا علم لنا))

وجاءت آيات أخرى تدل على اجابة الرسل وشهادتهم على أقوامهم وهي قوله تعالى :-

((فكيف انا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا .)) النساء / ٤١

وقوله :

((ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم))

القصص / ٧٥

والشهيد : الرسول (١)

((ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة

الله على الظالمين .)) هود / ١٨

و الجواب من وجهين :

الوجه الأول : أن معنى قول الرسل :

((لا علم لنا انك أنت علام الغيوب))

أنهم انما قالوا لا علم لنا ، لأنك تعلم ما اظهروا وما أضمروا ونحن لا نعلم الا ما اظهروا فعلمك فيهم أنخذ من علمنا ، فلهذا المعنى نفوا العلم عن أنفسهم لأن علمهم عند الله كلا علم فكلامهم تضمن اظهار التشكي والالتجاء^{إلى} الله تعالى بتفويض الأمر اليه وهذا قول ابن عباس رواه عنه ابن جرير وصوبه (٢)

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ / ٦٣٥ القصص / ٧٥

(٢) تفسير ابن جرير ج ٧ / ١٢٦ طبعة الحلبي

الدر المنثور ٢٢٧ / ٣

وصححه الرازي (١)

وقال ابن كثير (٢) : ((ولا شك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب جلّ جلاله ، أى لا علم لنا بالنسبة الى علمك المحيط بكل شيء فنحن وان كنا أجبنّا وعرفنا من أجابنا ولكن منهم من كنا انما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه وأنت العليم بكل شيء المطلع على كل شيء فعلمنا بالنسبة الى علمك كلا علم فانك ((انت علام الغيوب))

الوجه الثاني :

أنهم قالوا " لا علم لنا " أى لم نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا وانما نعلم جوابهم لنا وقت حياتنا والجزاء والثواب انما يحصلان على الخاتمة وذلك غير معلوم لنا (٣) ومن ذلك ما قاله تعالى حكاية عن سؤاله ليعسى عليه السلام يوم القيامة :

((واذا قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلت له فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك أنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم ألا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد)) المائدة ١٠٦ - ١٢٧

فهذا عيسى عليه السلام يشهد على قومه حينما كان فيهم ويُحيل علم ما بعد رفعه الى علام الغيوب ، وهذا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يقول مخبرا عن يوم القيامة :

((ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال

(١) تفسير الرازي ١٢ / ١٢٩

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٢ / ١٨٥ المائدة / ١٠٩

(٣) ابن جرير ٧ / ١٢٦ حيث روى معنى هذا الوجه عن ابن جرير واستبعده

زاد المسير لابن الجوزي ٢ / ٤٥٤

الرازي ١٢ / ١٢٩

ابن كثير ج ٢ / ١٨٥ المائدة / ١٠٩

فأقول يارب أصحابي ، فيقول : انك لا تدري ما أحدثوا
بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح :
((و كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، الى قوله العزيز
الحكيم)) (المائدة ١١٧ - ١١٨)
قال فيقال لي انهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ
فارقتهم ((١)
فلكل نبي انما يشهد على قومه الذين عاصروهم وعاشروهم أما من
جاءوا بعده فان علمهم موكل الى علام الغيوب ،

والحاصل من هذه الأوجه أن الأنبياء عليهم السلام يشهدون
يوم القيامة على أمتهم في موطن دون موطن وعندما يشهدون فهم
بشهود على ظاهر ما كان الناس عليه أما علم باطنهم وسرائرهم
فهم يُحيلونه الى علام الغيوب، وكذلك حال أُممهم بعد وفاتهم
فهم شهداء على الناس ماداموا فيهم فلما توفاهم الله كان هو
الرقيب عليهم وهو على كل شيء شهيد
والله ولي التوفيق .

(١) أخرج الحديث البخاري في كتاب التفسير / سورة المائدة باب (و كنت عليهم
شهيدا ما دمت فيهم) ١٩١ / ٥
و في تفسير سورة الأنبياء ج ٢ / ٢٤٠
و مسلم في كتاب الجنة / باب فناء الدنيا و بيان الحشر يوم القيامة
(شرح النووي ١٧ / ١٩٤) و النسائي ١١٧ / ٤ في الجنائز / باب البعث
ذكر أول من يكسى ،

و المراد بهؤلاء المرتدين من ارتد بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم
من أصحاب مسيلمة الكذاب ونحوه ،
و كذلك من حاد عن طريق الاسلام و أخذ لنفسه منهجا و ضعيفا من مناهج
البشر و لم يرتضِ شرع الله

٧ - قوله تعالى إخباراً عن أهل الكفر والضلال وحالهم في المحشر :

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا)
الاسراء / ٧٢ -

وقوله : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ) - طه / ١٢٥ -

وقوله : (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيََا وَبِكُمَا وَصَّمَا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) - الاسراء / ٩٧ -

هذه الايات تدل على أن أهل الضلال يُحشرون يوم القيامة عمياً بينما جاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك في الظاهر وهي قوله تعالى : (إِنَّمَا يُؤْخِرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، مُهْطِعِينَ مَقْنَعِي)^(١) رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأُنْشِذْتُمْ هَؤُلَاءِ - ابراهيم / ٤٢-٤٣

وقوله تعالى : (وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) - الكهف / ٥٣ -

وقوله تعالى : (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا) - الانبياء / ٩٧

وقوله تعالى : (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِي) - الشورى / ٤٥ -

وقوله تعالى (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) - ق / ٢٢ -

وقوله تعالى : (وَنُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) - الزمر / ٦٨
وقوله تعالى : (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) - الاسراء / ١٤ -

هذه الايات تدل على اثبات الرؤية لأهل المحشر إضافة الى ما دلت عليه بعض الايات من أن الله تعالى يحشر الناس كما خلقهم ، وهذا يقتضي أن يُحشروا بدون آفة العمى ، كما قال تعالى :

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) الانبياء / ١٠٤

والجواب : ان الذي يتدبر كتاب الله يجد أن عامة مواقف القيامة منذ بعث الناس من قبورهم وحتى دخول الكفار النار يجد

(١) معنى مهطعين : مسرعين ، كقوله تعالى : (مهطعين الى الداع) ومعنى مقنعي رؤوسهم : رافعي رؤوسهم ، (مفردات الراغب : ٤١٣)

أنها تُثبت الرؤية والابصار للكفار ما عدا نهاية المطاف في جهنم وذلك على النحو التالي :

عندما يُبعث الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية يُبعثون قياما ينظرون ، ومنهم الكفار كما قال تعالى : (ونفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) ، وقوله : (واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) ، وقوله : (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأئندبتهم هواء)

وهذا الموقف هو الذي ينكشف فيه الغطاء عن أعين الكفرة الذين جحدوا آيات الله وكفروا ببلقائه ، فيُصبح بصرهم حديدا ، بمعنى أنهم يعرفون هنالك أن الله حق ، وأن البعث حق ، وأن الحساب حق ، معرفة ضرورية لاشبهة فيها (١) حيث يقولون كما حكن الله عنهم :

(مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ) - القمر / ٨ -
لأنهم رأوا ما كذَّبوا به رؤية لا غباش عليها وأيقنوا بسوء المصير هذا بالاضافة الى حجة بصرهم حتى يروا ما كذَّبوا به ويعلموا أنهم كانوا في ضلال فيزدادو غمّا وعذابا ، كما قال البار :
(أَبْصِرْ بِهِمْ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ نَسِي ضَلَال مَبِين) - مريم / ٢٨ -

ثم يُحشر أعداء الله في أرض الموقف ويعاينون أهوال القيامة وشدة الحساب ، وهنالك (ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) ، وكل انسان يُقرأ كتابه بنفسه كما قال تعالى :
(وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

والقراءة تدل على الرؤية وسلامة البصر في ذلك الموقف ، وعندما يُقرأ كتابه ويعلم أنّ الله لم يخادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ، هنالك يقول :
(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) - السجدة / ١٢
وهو ما عناه تعالى بقوله : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مَبِين)

(١) البرهان للزركشي : ٦١ / ٢ ، تنزيه القرآن عن المطاعن ٣٩٨ ، القاضي عبدالجبار التنبيه والرد للمطبي : ٦٧ ، الرد على الزنادقة للإمام احمد : ١٨ ، تفسير القرطبي : ١٧ / ١٥ ، روح المعاني : ٢٦ / ١٨٥

وبعد أن يلاقوا أهوال القيامة ، ويُوقَفُوا على عظيم جنائياتهم ومخازيهم أصغرها وكبيرها ، بعد ذلك يُؤْتَى بجَهَنَّمَ كما أخبر المصدق المصدق فيما رواه الإمام مسلم والترمذى^(١) عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً : (يُؤْتَى بجَهَنَّمَ يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها) ، وهناك يراها أهل الكفر والضلال كما حكى الله تعالى عنهم :

(ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً) ، وعندما يرونها وهي تكاد تتميز من الغيظ يُعرضون عليها ناكسي رؤوسهم خاشعةً أبصارهم ذلاً ومهانة وحسرة يُسارقون النظر من هول ما يرون ، كما حكى الله عنهم :

(وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي) وقال عنهم : (ولو ترى إنا المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) - السجدة / ١٢ -

^(٢) قال القرطبي : (ينظرون من طرف خفي : أي لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعا تاماً لأنهم ناكسوا الرؤوس ، والعرب تصف الذليل بغض الطرف كما يستعملون في ضده حديد البصر) ١٥

وبعد ذلك (يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) وتأخذ الملائكة بالقائم في جهنم جزاءً وفاقاً :

(كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير)

وبعد أن يُلْقُوا في جهنم ويصطرخوا فيها ويطلبوا الخروج ويأخذوا بالتلاوم والتحسر ويدعوا على أنفسهم بالهلاك ، ويأتيهم الموت من كل مكان وما هم بميتين ، بعد كل ذلك يُقال لهم :

(اخسأوا فيها ولا تكلمون) وهناك يُحشرون عمياً وصماً وبكمًا خالدين مخلدين كما قال تعالى :

(ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكمًا وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً)

(١) صحيح مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب جهنم أعاننا الله منها ،

(شرح النووي : ١٧ / ١٧٨) والترمذى في صفة جهنم ، ج٤ / ٧٠١ رقم : ٢٥٧٣

(٢) تفسير القرطبي : ج١٦ / ٤٥ ، وانظر ابن كثير : ٣ / ١٤٧ روح المعاني : ٥١ / ٢٥

فهذا هو آخر موطن لهم بعد تلك المواطن التي تشيب لها رؤوس
الولدان ، وهو الموطن الذي يستقرون فيه على صفة العمى الحقيقي
وهو عمى البصر ، قال مقاتل بن سليمان^(١) : (ثم يقول عز وجل
في آخر ذلك : (اخشوا فيها ولا تكلمون) فعند ذلك صاروا عميا
وبكما وصما لا يستطيعون الكلام ، ولا يسمعون ولا يبصرون -) اهـ
قلت : ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى في حق أهل النار من الكفار
: (لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) - الانبياء / ١٠٠ -
فهذه الآية تدل أنهم في النار لا يسمعون ، وهذا يؤيد كون الصم
والبكم يكون عند استقرارهم في النار، والعيان بالله تعالى

أما الآيات الأخرى والتي فيها إثبات أنهم يحشرون عميا ،
كقوله تعالى : (ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى
وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى)
فإنما يراد بها أنه أعمى عن حجته لما ينزل به من الحيرة والاهوال
فهو أعمى عما يُنجّيه من تلك الأهوال ، كما قال مجاهد والضحاك وابو
صالح ومقاتل ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس^(٢)

وقوله : وقد كنت بصيرا ، أى وقد كنت عالما بحجتي بصيرا بها
أحاجج عن نفسي في الدنيا ، وحاصل الجواب عليه : اني حشرتني أعمى
الله لا تهدي الى ما يُنجيك من الحجة لانك تركت في الدنيا آياتي
وحججي ، وكما تركت ذلك تُترك على هذا العمى أبدا^(٣) ،
قال الامام أحمد - رحمه الله - : (أما قوله (ونحشره يوم القيامة
أعمى) : عن حجته ، وقال : (رب لما حشرتني أعمى) : عن حجتي ، وقد كنت
بصيرا بها مُخامما بها ، فذلك قوله : (فعميت عليهم الأنباء يومئذ) القصص
٦٦
يقول : الحُجج (٠) اهـ

وكذلك قوله تعالى : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة
أعمى وأضل سبيلا) ، فمعناه : أعمى عن الحجة ، ويدل عليه
أنه قال : (وأضل سبيلا) أى أضل عن الحجة وأشد عمى ، ومن شدة
عماهم في الآخرة أنهم لما يروا أنه لا ينجو إلا أهل التوحيد والايان
يخفون كذبا أنهم ما كانوا مشركين مع أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية

(١) التنبيه والرد : للمطري : ٥٦ ، وانظر : تفسير القرطبي : ٢٣٣/١٠ الرازي : ٦١/٢١

(٢) تفسير ابن جرير : الدر المنثور : ٦٠٩/٥ ، الرازي : ١٣١/٢٢

أما لي المرتضي : ج١/ ٨٨ ، روح المعاني : ٢٧٨/١٦

(٣) روح المعاني : ٢٧٨/١٦ (٤) الرد على الزنادقة : ١٨

فذلك من شدة عماهم ، فمن ذهبل عن تمييز الخير والشر ففي الدنيا فهو بأن يذهل عن ذلك في الآخرة أولى وأحرى (١)

قال القرطبي (٢) : (قال عكرمة : جاء نفر من أهل اليمن الى ابن عباس - رضي الله عنهما - : فسألوه عن هذه الآية ، فقال : اقرأوا ما قبلها : (ربكم الذي يُمزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا ٠٠٠ الى قوله : تفضيلاً - الايات من ٦٦ - ٧٠ - قال ابن عباس : من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ٠) ١٥

قلت : تفسير العمى بمعنى الحجة هو قول مجاهد وقتادة وابن زيد والحسن إضافة الى ابن عباس كما تقدم (٣)

وقد جاء في القرآن إطلاق العمى على عمى البصيرة وعدم الاهتداء - للحجة ، كما قال تعالى :

(قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى

فعليها وما أنا عليكم بخفيظ) - الانعام / ١٠٤ -

فقوله : فمن أبصر فلنفسه : أى فمن استدل وتعرف وبغى الحق فغى نفسه ، ومن عمى : أى لم يستدل ولم يقصد الحق وصار بمنزلة الأعمى فعلى نفسه يعود ضرر عماه ،

القصص / ٦٦

وكما قال تعالى : (فعميت عليهم الأنبياء يومئذٍ فهم لا يتساءلون) أى خفيت عليهم الحجج ، لأن الله أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة ، إضافة الى ما هم فيه من شدة الهبول يومئذ (٤) ، ولهذا قال تعالى حكاية عن الكفار :

(ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ، قالوا ظلوا

عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين) - غافر / ٧٤

فهم في ضلال في الدنيا والآخرة ٦

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن : ٢٣٠

(٢) تفسير القرطبي : ٢٩٨ / ١٠

(٣) تفسير الطبرى : ابن كثير : ٨٧ / ٣ الرازي : ١٨ / ٢١

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة : ٣٣٤ زاد المسير : ٢٣٨ / ٦ القرطبي : ٣٠٤ / ١٣ ، ٥٧ / ٧

الرازي : ٢٩ / ٢٦ ، تفسير ابن كثير : ٢٦٠ / ٢ الانعام / ١٠٤ ، ١٢٣ / ٣ القصص / ٦٦

وقد علق الفخر الرازي^(١) عند قوله تعالى : (وهم يطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل) - فاطر / ٣٧ - علق بقوله : (واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة ضالاً ، كما قال تعالى : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) ثم إنهم لم يعلموا أن العود الى الدنيا بعيد محال بحكم الأخبار ، وعلى هذا قالوا : (نعمل صالحا) جازمين من غير استعانة بالله ولم يقولوا إن الأمر بيد الله ، وقولهم : (غير الذي كنا نعمل) إشارة الى ظهور فساد عملهم لهم ، وكأن الله تعالى كما لم يهدم في الدنيا لم يهدم في الآخرة فما قالوا : ربنا زدنا للمحسنين حسنات بفضلك لا بعملهم ، ونحن أحوج الى تخفيف العذاب منهم الى تخفيف الثواب ، فافعل بنا ما أنت أهله نظرا الى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظرا الى عدلك ، وانظر الى مغفرتك الهائلة ولا تنظر الى معذرتنا الباطلة ، وكما هدى الله المؤمن في الدنيا هداهم في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء الى الاجابة ، واثني عليه بأطيب ثناء عند الانابة ، فقالوا :

(الحمد لله) وقالوا : (ربنا غفور) اعترافا بتقصيرهم ، (شكور) إقرارا بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم ، وقالوا : (أخلصنا دار المقامة من فضله) أى لا عمل لنا بالنسبة الى نعم الله ، وهم قالوا : (أخرجنا نعمل صالحا) إغماضا في حق تعظيمه وإعراضا عن الاعتراف بعجزهم عن الاتيان بما يناسب عظمتهم . (١٠) هـ

وبهذا الترتيب المتقدم يتبين لنا تألف الايات وتوافقها وترباطها وكيف أن لكداية موضع تختص به يدل عليه معناها وسياقها ، ويتبين لنا أن الله تعالى يذكر في كل موضع من القرآن موقفا من مواقف القيامة يناسب الغرض الذى سيق له ، ومن ذلك آيات الرؤية والبصر والتي استعرضتها منذ بداية البعث وخروج الناس من قبورهم وحتى استقرار الكفار في جهنم أعاننا الله منها ، ويتبين لنا أنه ليس بينها اختلاف أو تناقض حسب ما يتوهم غير المتدبر في كتاب الله أو الطامع الجاهل ، والله الموفق

١- قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يُخلف الله وعده وإنَّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) - الحج / ٤٧ -

وقوله تعالى : (يُدبر الأمر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره أَلْف سنة مما تعدون) - السجدة / ٥ -

وقوله تعالى : (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) - المعارج / ٤ -

هذه الايات الثلاث من كتاب الله بعضها أثبت أن اليوم عند الله بألف سنة ، وبعضها أثبت أنه بخمسين ألف سنة ، وظاهر ذلك قد يكون محلاً لتوهم الاختلاف والتناقض بين هذه الايات بسبب الظن أنها تتحدث عن يوم واحد وهو يوم القيامة

والجواب : أنَّ آية المعارج والتي فيها : (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، المراد بها يوم القيامة لدلالة السياق القرآني لهذه الآية ، وكذلك لدلالة الأحاديث المحيطة المرفوعة والموقوفة

أما دلالة السياق القرآني : فهو أنه تعالى قال بعد الآية :
(... فاصبر عبداً جميلاً إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسئل حميم حميماً ٠٠) الآيات من سورة المعارج

أي ذلك اليوم يراه الكفار بعيد الوقوع مع أن كل آتٍ قريب ، فالآيات تشير الى ذلك اليوم الممتد من النفخ في الصور ثم البعث ثم مواطن الجزاء التي لا يسئل فيها حميم حميماً لهول الموقف وشدته حتى أن المجرم يود لو يغتدي من العذاب ببنيه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤيه. وذلك اليوم يمتد حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار^(١)

أما الأحاديث : فقد روى الامام مسلم - رحمه الله - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - :

(ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى

(١) انظر ملك التأويل : لابن الزبير الغرناطي ، ج٢ / ٢٢١ - ٢٢٢

(٢) صحيح مسلم : كتاب الزكاة ، باب إثم مانع الزكاة (شرح النووي : ج٢ / ٦٤)

ورواه الامام أحمد في مسنده : ج٢ / ٢٦٢ بنحوه

بها جنبه وظهره ، كُلَّما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله ، إِمَّا إلى الجنة وإِمَّا إلى النار الحديث)

وقد استدلل بهذا الحديث على أَنَّ المواد بالآية يوم القيامة كلٌّ من القرطبي والنحاس^(١) واستدلا به على صحة هذا القول وأنه أحسن ما قيل في الآية

ومن الاحاديث أيضا : ما رواه الامام أحمد^(٢) وابن جرير^(٣) وابن حبان^(٤) عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : (قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ما أطول هذا اليوم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة يُصلِّيها في الدنيا)

واخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما - بسند صحيح : (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال يوم القيامة) وكذلك اخرج ابن جرير^(٦) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - وكذا قال الحسن وقتادة والضحاك وابن زيد^(٧)

هذا بالنسبة للآية التي تدل على أن اليوم مقداره خمسين ألف سنة أما قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإنَّ يوما عند ربك كألف سنة ممَّا تعدون)

فقد أُريد بذلك أَنَّ اليوم في حساب الله وتقديره كألف سنة من سني الدنيا التي يعد بها البشر ، فالسنة من هذه السنين هي يوم واحد في حساب الله ، فهذه الآية لم يرد بها يوم القيامة كما هو الحال في الآية الأولى ، ولهذا قال هنا : (وإنَّ يوما عند ربك)

(١) تفسير القرطبي : ج١٨ / ٢٨١

(٢) المسند : ج٢ ٧٥ (٣) تفسير ابن جرير : ٢٩ / ٧٢

(٤) صحيح ابن حبان ، كتاب البعث ، باب في مقدار يوم القيامة (موارد الظمآن :

إلى زوائد ابن حبان رقم : ٢٥٧٧ ، ص : ٦٣٨)

وعزاه في مجمع الزوائد ج١٠ / ٣٤٠ لابي يعلى أيضا وقال : اسناده حسن على ضعف في راويه

(٥) تفسير ابن كثير : ج٤ / ٦٥٦ ، الدر المنثور : ج٨ / ٢٧٩

(٦) تفسير ابن جرير : ج٢٩ / ٧١ ، (٧) ابن جرير : ٢٩ / ٧١ ، الدر المنثور : ٨ / ٢٧٩ تفسير ابن كثير : ٤ / ٦٥٦ ، زاد المسير : ٨ / ٣٥٩

ثم إنَّ المقصود ببيان أن اليوم عند الله بألف سنة هو : أن الله تعالٰى إذا أراد شيئاً وقَدَّر إنفاذه كان وتحصل في الوقت الوجيز مع أنكم تُقدِّرون حصوله في ألف سنة من سني الدنيا التي تعدونها ، فأفعاله سبحانه لا تكلف فيها ولا معالجة (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) - يس / ٨٢ -

فإذا شاء الله عذابكم كان ووقع ، لأن أفعاله ليست كأعمال خلقه ، فلماذا تستعجلون ما لا تكلف في وقوعه وحلوله ، فانما يمنع استعجاله ربطه بأجل ، وذلك الأجل إنما هو يوم القيامة أو الأجل المسمى (١) ولهذا قال بعد الآية : (٠٠) وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير) - الحج / ٤٨ -

وقال في موضع آخر : (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) - الاعراف / ٣٤ -

وانما يُعَجَّل بالعذاب من يخاف الفوت ، أمّا إذا كان مرجع الكل ومصيرهم إليه سبحانه ، فيأخذ المكذَّب متى شاء وإن أخره ، كما قال الباري : (فأهلك للذين كفروا ثم أخذتهم) - الرعد / ٣٢ -

وهناك وجه آخر : هو أنهم استعجلوا العذاب جهلاً ، والعاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة ، فما ينالهم من عذاب النار وشدها اليوم منه بألف سنة مما يعدون ، فلو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه (٢)

قال الغراء (٣) : (تضمنت الآية عذاب الدنيا والآخرة ، وأريد بالعذاب المستعجل به عذاب الدنيا ، أي لن يظف الله تعالى وعده في انزال العذاب بكم في الدنيا ، وإنَّ يوماً من أيام عذابكم في الآخرة كالف سنة من سني الدنيا) اهـ

وعلى هذا فإن الله أعلمهم أنهم إذا استعجلوا العذاب في أيام قصيرة ، فإنه سيأتيهم في أيام طويلة مقدار اليوم منها ألف سنة مما يعدون ، وإلى هذا المعنى ذهب ابن جرير (٤) حيث قال :

(إنَّ الله تعالى ذكره أخبر عن استعجال المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم - بالعذاب ثم أخبر عن قدر اليوم عنده ، ثم اتبع ذلك

(١) ملاك التأويل : ٢ / ٧٢٠ ، الرازي : ٤٧ / ٢٣ ، ابن كثير : ٣ / ٢٦٥ الحج / ٤٧

(٢) تفسير ابن جرير : ١٨٤ / ١٧ ، زاد المسير : ٤٣٩ / ٥ ، درة التنزيل : ٣٨٨

الرازي : ٤٧ / ٢٣ ، روح المعاني : ١٧٠ / ١٧

(٣) معاني القرآن : ج / وانظر تفسير القرطبي : ٧٧ / ١٢

(٤) تفسير الطبري : ج ١٧ / ١٨٤

قوله : (وكأين من قرية أُميت لها وهي ظالمة ٠٠٠) ، فأخبر عن
إملاكه أهل القرية الظالمة وتركه معاجلتهم بالعذاب ، فبيّن أنه عنى بقوله
(وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) نفي العجلة عن نفسه ووصفها
بالأناة والانتظار ، وإذا كان كذلك كان تأويل الكلام : وإن يوما من الأيام
التي عند الله يوم القيامة يوم واحد كألف سنة من عددكم ، وليس ذلك
عنده ببسبب ، وهو عندكم بعيد ، فذلك لا يعجل بعقوبة من أراد عقوبته
حتى يبلغ غاية مدته ٠ اهـ

هذا وقد نحا الخطيب الاسكافي منحا آخر في تفسير الآية
(١) فقال : (وأما قوله في سورة الحج) (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما
تعدون) أى يقع في يوم من تنعيم المطيعين وتعذيب العاصين قدس
ما يناله المنعم في ألف سنة من أيام الدنيا ، ويعذب العصاة في
يوم مقدار ما يعذب به الانسان في ألف سنة لو بقي فيها ، فعذابه
في يوم واحد عذاب الف سنة ، وذلك لما يتضاعف عليهم من الآلام والملاذ ٠ اهـ

قلت : وهذا التفسير وإن كان وجها ، إلا أن ما تقدم في معنى
الآية من أن المراد أن اليوم عند الله بألف سنة مما نعد حقيقة هو
الظاهر ، ويدل على ذلك ما ثبت في الحديث الذى رواه الترمذى (٢) -
وابن ماجه (٣) واحمد (٤) عن ابي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم - : (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف
يوم وهو خمسمائة عام)

وقوله في الحديث : بنصف يوم أى من أيام القيامة التي هي خمسين
يوما كل يوم منها بألف سنة مما نعد
وقد روى ابن جرير (٥) عن ابي هريرة قال : (يدخل فقراء المسلمين الجنة
قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم ، قلت : وما مقدار نصف يوم ؟ قال أوما -
تقرأون القرآن ؟ قلت بلى ، قال : (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما
تعدون)

(١) برة التنزيل : ٣٨٧ ، وانظر : النكت والعيون للماوردي : ج٣ / ٨٥ حيث

ذكر ذلك وجها من الوجوه

(٢) سنن الترمذى : كتاب الزهد ، باب ٣٧ ، وقم : ٢٣٥١ / ٤٦ / ٥٧٨ وقال : حسن صحيح

(٣) سنن ابن ماجه : في الزهد باب منزلة الفقراء رقم : ٤١٢٢ ، ج٢ / ١٣٨١

(٤) مسند أحمد : ٣٠٤ / ١ ، ١٦٩ / ٢

(٥) تفسير ابن جرير : ١٧ / ١٨٣ طبعة الطبى

وأما قوله تعالى في سورة السجدة :
(يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان
مقداره ألف سنة مما تعدون)

فإن المراد بذلك أنَّ بُعد ما بين السماء والأرض لا يحول
دون استعجال نفوذ تدبيره ، وإمضاء تقديره ، وأنه سبحانه ليدبرها ثم
يرجع إليه في وقت لو وُكِّل ذلك إليكم وكان في مقدوركم لفعلتموه في
ألف سنة مما تعدون (١)

فالمراد بهذه الآية بيان قدرته تعالى وإحاطة علمه ورجوع الأمر
إليه ، وأنه مع استوائه على عرشه فوق سمواته فإنه يدبر أمرا لارض
وغيرها في فترة وجيزة ، وتعرج إليه أعمال العباد وأمورهم بأسرع مدة
ولو كان ذلك في مقدوركم ووُكِّل إليكم لاحتجتم الى ألف سنة ، وهذا كله
للدلالة على عظمة القدرة الالهية وبيان عجز البشر وضعف إمكانياتهم
وأنه سبحانه هو المتصرف القادر الذي لا يُعجزه شيء (٢)

وعلى هذا فإنَّ المراد بالآلف في هذه الآية : البرهة المتطاولة
من الزمان ، فليس المراد حقيقة العدد ، وعبر عن المدة المتطاولة بالآلف
لأنها مُنتهى المراتب وأقصى الغايات ، وليس مرتبة فوقها إلا ما يتفرع
منها من أعداد مراتبها (٣)

أما ما قيل من أن المراد أن الملك يسير مسافة ما بين السماء
والارض في خمسمائة عام ويصعد في نفس المدة فهذه ألف عام (٤) ، فإن ذلك
لم يرد فيه عن النبي المعصوم - صلى الله عليه وسلم - ما يُركن إليه في هذا

وكذلك ما قيل إن المراد : يدبر أمر الدنيا من السماء الى الارض
الأن تقوم الساعة ثم يعرج اليه ذلك الأمر كله ليحكم فيه في يوم كان
مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة (٥) ، فهذا أيضا لا يصح لما تقدم أولا
من أن يوم القيامة خمسين ألف سنة ، وكذلك لأن أعمال العباد تصعده في
كل وقت الى البارئ وتُسجل في الصحف ، فلامعنى للقول بصعودها يوم -
القيامة

(١) ملاك التأويل : لابن الزبير الخرناطي : ج٢ / ٧٢١

(٢) زاد المسير : ٦ / ٣٣٣ ، ابن كثير : ج٢ / ٧٢٨ روح المعاني : ج٢١ / ١٢٠

(٣) روح المعاني : ج٢١ / ١٢٠ السجدة / ٥

(٤) تأويل مشكل القرآن : ٣٥٣ ، درة التنزيل : ٣٨٧ ، تفسير الماوردي : ٣ / ٢٩٢

زاد المسير : ٦ / ٣٣٣ ، ابن كثير : ج٢ / ٧٢٨

(٥) زاد المسير : ٦ / ٣٣٣

والذى يتحصل بعد هذا كله : أنّ الآيات الثلاث تتحدث

كل واحدة عن أمر غير الأخرى ،

فآية الحج (وإنّ يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) :

تتحدث عن أيام الله ، سواء في الدنيا أو الآخرة ، كل ألف سنة
مما نعد هو يوم واحد عند الله تعالى وفي حسابه ،

وآية السجدة : (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) :

تتحدث عن مدة تدبير الأمر وعروجه الى البارئ عز وجل ، وأن ذلك
يتم في مدة وجيزة ، ولو كان ذلك في مقدور البشر لاحتاجوا الى ألف
سنة كناية عن المبالغة في عجزهم وإمكانياتهم مقابل قدرة الله تعالى
وعلمه المحيط ،

وآية المعارج : (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) :

إنما تتحدث عن يوم القيامة كما سبق وفصلته ، وهو بهذا الطول إنما
هو بحق الكفار وأهل الضلال ، وبما أن يوم القيامة خمسين ألف سنة
فهو يساوى خمسين يوما من أيام الله ، كل يوم بألف سنة

والله تعالى أعلم

١- قوله تعالى : (وأما من أوتي كتابه بعماله فيقول

يا ليتني لم أوت كتابه ٠٠٠٠) - الحاقة / ٢٥ -

دلت هذه الآية أن الكافر يعطى كتابه بيده الشمال ، وقد جاءت
آية أخرى تدل على أنه يعطى كتابه من وراء ظهره ، وهو قوله
تعالى :

(وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى

سعيًا) - الانشقاق / ١٠ - ١٢ -

والجواب : أنه لا منافاة بين أخذ الكتاب بشماله ومن وراء ظهره
لأن الكافر تغل يده اليمنى إلى عنقه ، وتجعل يده الشمال وراء
ظهره ، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ، جزاءا وعاقبا حيث
أنه نبذ كتاب الله وراء ظهره ، وهي هيئة الكاره المكره الخزيان
من المواجهة (١)

(١) زاد المسير : ج ٩ / ٦٤ ، تفسير الرازي : ١٠٧ / ٣١

تفسير القرطبي : ٢٧٢ / ١٩ ، تفسير ابن كثير : ٧٠٧ / ٤ الانشقاق / ١٠

فتح القدير للشوكاني : ج ٥ / ٣٩٥ ، روح المعاني : ١٠٣ / ٣٠ في ظلال القرآن ٣٨٢٧ / ٦

المبحث الثالث : الايات المتعلقة بالجنة والنار

١- قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ، ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا)
- مريم / ٧١ -

هذه الآية تدل على أن كل أحد من مسلم أو كافر سوف يَرِدُ النار لكن الله ينجي الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثا وقد جاءت آية أخرى تدل أن الله يُبعد المؤمنين عن النار فلا يسمعون صوتها وهي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ أُولَٰئِكَ فِيهَا مُبْعَدُونَ ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) - الانبياء / ٩٨ - ١٠٢ -

فهذه الآية دلت على أن أولياء الله مُبعدون عن النار وهذا في الظاهر قد يتوهم منه منافاة الورود المُثبت في الآية الأولى

والجواب : أن المراد بقوله : (أُولَٰئِكَ فِيهَا مُبْعَدُونَ) أي مبعدون عن دخولها ومعاناة آلامها وعذابها ، وهذا لا يُنافي المرور فوقها السعير عنه بقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) فكل إنسان يمرُّ عليها كما أخبر الله تعالى ، لكن المؤمن يمر ولا يسمع حسيها فينجو بقدرة الله ورحمته ، والكافر يقع فيها جاثيا ذليلا وبئس المصير ، ولما كان المرور مظنة التأذى بها أخبر سبحانه أنهم لا يسمعون حسيها ، وهذا قول ابن مسعود وقتادة والحسن والسدي وكعب الأحمار^(١) فالورود في قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) أريد به المرور فوقها ، والذي يدل على ذلك أن للورود معنيين :

الاول يطلق على الدخول ، كما في قوله تعالى : (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) - الانبياء / ٩٨ -

وقوله تعالى : (لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا) الانبياء / ٩٩ -
وقوله تعالى : (يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتُ الْأَوَّلِينَ) هود / ٩٨ -

والمعنى الثاني للورود يطلق على الملازمة من غير دخول ، قال في اللسان^(٢) : (ورد الماء وغيره وردا وورودا ، وَوَرَدَ عليه : أشرف عليه ، دخله أو لم يدخله ، قال زهير^(٣) :

(١) تفسير ابن جرير : ١١٠ / ١٦ ، فوائد في مشكل القرآن للعز بن عبد السلام : ١٧٧

فتح الرحمن لذكريا الانصاري : ٣٧٩ ، روح المعاني للالوسي : ١٧ / ٩٨

(٢) لسان العرب بن منظور : ج ٣ / ١٠٠ مادة ورد

(٣) ديوان زهير بن ابي سلمى ٧٨ ، والبيت من المعلقة ، وانظر القرطبي : ١١ / ٢٣٧
زاد المسير : ٢٥٦ / ٥

فلما وَرَدَّ الماءُ زُرْقاً جَمَامُهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخِيمِ

معناه لما بلغن الماء أقمن عليه ،

وقال ابن مسعود والحسن وقتادة : إنَّ ورودها ليس دخولها وحجتهم في ذلك قوية جدا ، لأنَّ العرب تقول : وردنا ماء كذا ولم يدخلوه ، قال الله عز وجل : (ولما ورد ماء مدين ٠٠) - القصص/ ٢٣ ويقال : اذا بلغت الى البلد ولم تدخله قد وردت بلد كذا وكذا ٠) اهـ وقال في القاموس^(١) : (الورد : الاشراف على الماء وغيره دخله او لم يدخله ٠) اهـ

قلت : فلما احتمل لفظ الورد معنى الدخول ومعنى القرب والملازمة جاءت السنة ففسرت لنا المراد بالورد المثبت في الآية بأنه المرور على الصراط المنسوب بين ظهري جهنم فقد اخرج الامام البخاري^(٢) ومسلم^(٣) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ ٠٠٠٠ وساق الحديث الى قوله : (٠٠٠ ويضرب الصراط بين ظهري جهنم^(٤) فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ٠٠٠ الحديث)

وأخرج مسلم أيضا^(٥) عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه : أن ناسا في زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ ٠٠٠٠ وساق الحديث الى قوله : ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة قولون اللهم سلم سلم ، قيل يا رسول الله وما الجسر قال : دحش مزلة فيه خطاطيف وكلايب وحسك^(٦) تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف الدين وكالبرق وكالريح - وكأجاويد الخيل والركاب ، فنادى مُسلم ومخدوش مُرسل ومكدوس في نار جهنم ٠٠٠ الحديث)

(١) القاموس للفيروزبادي : ج١/ ٣٥٧ مادة ورد

(٢) صحيح البخاري : كتاب التوحيد باب ٢٤ قول الله وجوه يومئذ ناضرة ٠٠ ج٨/ ١٧٩

(٣) صحيح مسلم : كتاب الايمان ، عفة الصراط (شرح النووي : ج٣/ ٢٠)

(٤) يعنى يمد الصراط عليها ، وهو جسر على متن جهنم يمر عليه الناس كلهم ، فالمؤمنون

ينجون على حسب حالهم ومنازلهم والآخرين يسقطون فيها

(٥) كتاب الايمان باب رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة (شرح النووي : ج٣/ ٢٩)

(٦) دحش مزلة : أى تزل فيه الاقدام ولا تستقر ، والخطاطيف : جمع خطاف بضم الخاء

والكلايب : جمع كلوب بفتح الكاف وضم اللام المشددة وهو حديدة معطوفة الرأس

يعلق فيها اللحم وترسل في الفرن ، والحسك : شوك صلب من حديد

والسعدان : نبت له شوكه عظيمة ٠٠٠ (شرح النووي : ج٣/ ٢١ ، ٢٩)

فهذان الحديثان فيهما تفسير معنى الورود الذي جاء في الآية :
 (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَأَآءًا وَآرِدَهُمَا) وَأَنَّ معنى ذلك هو العبور على الصراط كل
 بحسب أعماله فورود المؤمنين كطرف الحين وكالبريق وكالريح وبعضهم
 كأجاويد الخيل والركاب ومنهم من تخدشه الكلاب تطهيراً لسيئاته ولكنه
 ينجو ، ومنهم المكدوس في نار جهنم أي يسقط فيها وهم أهل
 الكفر وأهل الضلال والفسوق ، فثبت بذلك أن تفسير الورود في
 الآية بالدخول في نار جهنم وأنها تكون على المؤمنين برذا وسلاماً
 كما كانت على إبراهيم ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها
 جثياً ، تفسير الورود بذلك لا يصح^(١) لما ثبت في الحديث، إضافة
 إلى صريح قوله تعالى : (لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلَهِةَ مَا وَرَدُوهَا) أي
 لما دخلوها فاستثنى أهل الحسن من الورود الذي هو بمعنى الدخول
 فدل ذلك على أن الورود في قوله : (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَأَآءًا وَآرِدَهُمَا) لا يعني الدخول
 وإنما المعنى الآخر من معاني الورود وهو المرو على جسر جهنم
 كما تقدم

(٢)

قال القرطبي - رحمه الله - : (قال الحسن ليس الورود الدخول
 إنما تقول وردت البصرة ولم أدخلها ، قال : فالورود أن يمرؤا على
 الصراط ، قال أبو بكر ابن الأنباري : وقد بنى على مذهب الحسن قوم
 من أهل اللغة واحتجوا بقول الله تعالى : (إِنْ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ
 مِنَ الْحَسَنِ أَولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) قالوا : فلا يدخل النار من ضمن
 الله أن يبعده عنها (٠) اهـ

(٣)

هذا وقد روى الامام مسلم عن أم مبشر أنها سمعت النبي
 - صلى الله عليه وسلم - يقول عند حفصة : (لا يدخل النار - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -
 من أصحاب الشجرة أحد : الذين بايعوا تحتها ، قالت بلى يا رسول
 الله ، فانتهرها فقالت حفصة : (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَأَآءًا وَآرِدَهُمَا) فقال النبي
 - صلى الله عليه وسلم - : قد قال الله عز وجل ثم ننجي الذين اتقوا
 ونذر الظالمين فيها جثياً)

قلت : فهذه حفصة - رضي الله عنها - ظنت أنه لما أقسم الله تعالى

(١) تفسير الورود بالدخول ثم تكون عليهم برذا وسلاماً وينجيهم الله منها
 مروى عن ابن عباس وجابر بن عبد الله وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم
 انظر : تفسير ابن جرير : ١٦ / ١٠٨ طبعة الحلبي ، تفسير القرطبي : ١١ / ١٣٥
 تفسير ابن كثير : ٣ / ٢١٢ ، زاد المسير : ج ٥ / ٢٥٦
 (٢) تفسير القرطبي : ج ١١ / ١٣٥
 (٣) صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أصحاب الشجرة (شرح النووي
 ٥٧ / ١٦)

أن كل أحد يرد النار ظنّت أنّ معناه الدخول ، فلما أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن أهل بدر والحديبية لا يدخلونها مطلقا استشكلت ذلك فذكرت الآية ، فأخبرها الرسول بقوله تعالى : (ثم نُنجي الذين اتقوا...) أي ننجيهم من دخولها ، فدل ذلك أن الورود هو المرور من فوقها وليس الدخول

قال شارح العقيدة الطحاوية^(١) : (أشار النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد أسبابه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال : نجّاه الله منهم ، ولهذا قال تعالى : (ولما جاء أمرنا نجينا هودا) - هود/ ٥٨ - (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا) - هود/ ٥٩ - ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم ولولا ما خصّهم الله من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك ، وكذلك حال الوارد في النار يمرون فوقها على الصراط ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا .) اهـ

وما ورد في الصحيحين^(٢) عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : (قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلّا تحلّ القسم) معنى هذا الحديث : من مات له ثلاثة من الولد لا تمسه النار لكن تحلّ القسم وهو الورود الذي تقدم معناه ،

قال الامام النووي^(٣) : (قال العلماء : تحلّ القسم ما ينحل به القسم وهو اليمين ، وجاء مفسرا في الحديث أن المراد قوله تعالى (وإن منكم إلّا واردها) وبهذا قال ابو عبيدة وجمهور العلماء ، والقسم مُقدّر : أي والله إن منكم إلّا واردها ... والمراد بقوله (وإن منكم إلّا واردها) المرور على الصراط وهو جسر منصوب عليها .) اهـ

(١) ص : ٤١١ ، والشارح هو : العلامة ابن أبي العز الحنفى شارح العقيدة الطحاوية لصاحبها : أحمد بن محمد بن سلمة الأزدي الطحاوى ، وهو محدث فقيه حافظ

ت : ٣٢١ هـ

(٢) البخارى : كتاب الايمان ، باب قول الله تعالى واقسموا بالله جهد ايمانهم ٧ / ٢٢٤ ومسلم : في البر والملة ، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (شرح النووى ١٦ / ١٨٠)

(٣) شرح النووى على مسلم : ج ١٦ / ١٨٠

وبهذا يتبين لنا أنَّه لا تنافي ولا اختلاف بين مفهوم قوله تعالى :
(وإن منكم إلا واردها ٠٠) وبين قوله تعالى : (إن الذين سبقوا لهم
من الحسنى أولئك عنها مبعدون)
لأن معنى مبعدون : أي عن الدخول فيها ومعاناة آلامها وعذابها ، -
ومعنى الورود في الآية : المرور على الصراط فمن مرَّ على الصراط كالبرق
وكالريح ونحو ذلك صح أن نقول أنه قد أُبعد عن النار ،
كما أنَّ من معاني إبعاد المؤمنين عن النار نجاتهم منها إجمالاً ، لأنه
كما تقدم في حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أن بعض المؤمنين يُخدش
بالكلايب ثم يُرسل ، وكذلك فإن من الذين يسقطون في النار بعض عصاة
المؤمنين وهم أصحاب الكبائر الذين لم يتوبوا منها ، فهو لاء يعذبون
في النار ما شاء الله ثم تُدرِكهم الشفاعة كما في الحديث :
(فيشفع الملائكة ويشفع النبيون ويشفع المؤمنون ، فيخرجون باذن
الله من النار خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهي
مواضع السجود) (١)

وأخرجهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان حتى يُخرجون
من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ، ثم يخرج الله من النار من
قال يوماً من الدهر لا إله إلا الله ولم يعمل خيراً قط ، ولا يبقى
في النار إلا من وجب عليه الظود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - ولهذا قال تعالى :

(ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثا)
وقال : (فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا
إلا متاع الغرور) - آل عمران / ١٥٥ -

وعلى هذا فإن دخول بعض عصاة المؤمنين النار ثم خروجهم منها مستفاد من
الأحاديث الصحيحة وليس من لفظ الورود في قوله (وإن منكم إلا واردها)
والله أعلم

(١) (٢) صحيح البخارى : كتاب التوحيد باب ٢٤ ، ج ٨ / ١٨٢

صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب إخراج عصاة المؤمنين من النار

(شرح النووي على مسلم : ج ٣ / ٣٠ - ٣٧)

٢- قوله تعالى في حق من يدخل النار :

(فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض ^(١)) (١) ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) - هود / ١٠٧ -

وقوله تعالى : (... قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم) - الانعام / ١٢٨ -

هاتان الايتان قد يتوهم من ظاهرهما أن خلود أهل النار - ليس مؤبدا لقوله فيهما " ... الا ما شاء الله ... " وهو في الظاهر استثناء من الخلود وقد يتوهم ان هذا ينافي ما جاء في الايات الاخرى من اثبات الخلود المؤبد لأهل النار ، وهي قوله تعالى :

(ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) - النساء / ١٦٨ - ١٦٩ -
وقوله تعالى :

(ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون فيها وليا ولا نصيرا) - الاحزاب / ٦٥ -

وقوله : (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا) - الجن / ٢٣ -

وقوله : (كلما خبت زدناهم سعيرا) - الاسراء / ٩٧ -

وقوله : (هم لا يموت فيها ولا يحيى) - الاعلى / ١٣ -

وقوله : (وما هم بخارجين من النار) - البقرة / ١٦٧ -

وقوله : ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) - فاطر / ٣٦ -

(١) قوله تعالى : (ما دامت السموات والارض) : هو إخبار عن دوام الخلود ، أجرى ذلك على عادة العرب ومنهاجها في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ، كقولهم : لا آتيك ما جنّ ليل ، أو سال سيل وما اختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والارض ، وما لاح كوكب ، وما طمس البحر ، ونحو ذلك مما يريدون به طولاً من غير نهاية وأنهم لا يفعلونه أبدا ، لأن هذه المعاني عندهم لا تتغير أبداً ومنه قول الشاعر :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب
وقال زهير :

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالدا الا الجبال الرواسيا =

والجواب :

ان خلود الكفار في النار مؤبد أثبتته نصوص الكتاب والسنة
ولذلك فان الاستثناء في آيتي الانعام وهو لا ينفي التخليد

ونذلك من عدة أوجه :-

الوجه الاول : وهو ما اختاره ابن جرير وابن كثير وقوّاه -
الرازي وعليه كثير من العلماء ، ونقله ابن جرير^(١) عن خالد بن معدان
والضحاك وقتادة وابن سنان ، ورواه ابن أبي حاتم^(٢) عن ابن عباس والحسن

أن هذا الاستثناء وهو قوله تعالى :

(... الا ما شاء الله ..) يفيد إخراج أصحاب الكبائر من

أهل التوحيد من النار ، لأن قوله :

(فأما الذين شقوا ففي النار ..) يفيد أن جملة الاشقياء

محكوم عليهم بهذا الحكم ، ثم قوله : " إلا ما شاء الله " يوجب

لذلك فان خلود أهل النار ليس معلقا بدوام هذه السموات والارض
بل هو مطلوب جار على عرفهم يفيد الأبد الخالي عن الانقطاع

وهناك وجه ثاني : أن المراد التعليق لكن على سموات الآخرة وأرضها
لقوله تعالى : (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) - ابراهيم / ٢٨ -
وقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : (.. وأورثنا الارض نتبوا من الجنة حيث نشاء)
ومعلوم ان سموات الآخرة وأرضها أبديتان ، وعلى هذا فعذابهم أبدى ،

ووجه ثالث : قاله الرازي : (والجواب الحق عندي هو أن المعهود ممن
الاية أنه متى كانت السموات والارض دائمتين كان كونهم في النار باقيا
فهذا يقتضي أنه كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضي أنه اذا عدم
الشرط عدم المشروط ، ألا ترى أنا نقول : إن كان هذا انسان فهو حيوان
فان قلنا : لكنه ليس بانسان لم ينتج انه ليس بحيوان ، فاذا قلنا :
متى دامت السموات دام عقابهم ، فاذا قلنا لكن السموات دائمة لزم ان
يكون عقابهم حاصلا ، أما اذا قلنا لكنه ما بقيت السموات لم يلزم عدم
دوام عقابهم ، وفائدة التشبيه بدوام السموات والارض يدل على استمرار
ذلك العذاب زمانا لا يحيط العقل بطوله وامتداده ، أما أنه هل يحصل
له آخر أم لا فذلك يستفاد من دلائل أخر .) اهـ

انظر : تفسير ابن جرير : ١١٦ / ١٢ طبعة الطبعي ، تأويل مشكل القرآن : ٧٦

تفسير الزمخشري : ٢٣٤ / ٢ ، تنزيه القرآن عن المطاعن : ١٨٤

آمال المرتضى : ٩٠ / ٢ ، تفسير الرازي : ٦٤ / ١٨ ، تفسير القرطبي : ٩٩ / ٩

مجموع الفتاوى : ١٠٩ / ١٥ ، تفسير ابن كثير : ٧١٢ / ٢ ، روح المعاني : ١٤٢ / ١٢

(١) تفسير ابن جرير : ١١٧ / ١٢ ط الطبعي ، (٢) عزاه له ابن كثير ٧١٢ / ٢ هوذ / ١٠٧
وانظر : تأويل مشكل القرآن : ٧٦ ، البرهان للزركشي : ٤٩ / ٣ ، زاد المسير : ١٦٠ / ٤

أن لا يبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع ، ويكفي في زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم ، فوجب أن لا يبقى حكم الخلود لبعض الأشقياء ، ولما ثبت أن الخلود ثابت للكفار وجب أن يقال : الذين زال عنهم حكم الخلود هم الفساق من أهل التوحيد ، فهم يخرجون من النار بعد مدة (١) .

وعلى هذا يكون قوله : (فأما الذين شقوا ..) عاما فسي الكفرة والعامة ويكون الاستثناء من " خالدين " (٢) .

قال القرطبي (٣) : (وإنما لم يقل " مَنْ شاء الله " لأن المراد العدد لا الأشخاص ، كقوله : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) ١٠هـ

ونقل الالوسي عن الطيبي (٤) : (الحق الذي لا محيد عنه أن تحمل " ما " على " مَنْ " لإرادة الوعفة وهي المرحومية ، وخالدين حال مقدرة من ضمير الاستقرار ، أى في النار ، والمعنى : وأما الذين شقوا ففي النار مقدرين الخلود إلا المرحوم الذي شاء الله تعالى ان لا يستقر مخلدا ، فيفيد أن لا يستقر فيها مطلقا ، أو يستقر غير مخلد ، وأحوال العمادة على هذا النهج كما علم من النصوص) ١٠هـ

وقال الالوسي (٥) : (والمراد بمن شاء فساق الموحدين فانهم يخرجون منها كما نطقت به الأخبار وهم المراد بالاستثناء الثاني (٦) فانهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم ، والتأبيد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء) ١٠هـ

قلت : وأما النصوص التي تدل على إخراج العمادة من النار وتخليد الكفار فهي كثيرة متواترة (٧)

(١) تفسير الرازي : ج ١٨ / ٦٤

(٢) تفسير الطبري : ١٢ / ١١٨ ط الحلبي

(٣) تفسير القرطبي : ج ٩ / ٩٩

(٤) روح المعاني : ج ١٢ / ١٤٤ ، (٥) المصدر السابق : ١٢ / ١٤٣

(٦) يعني في قوله تعالى : وأما الذين ساعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ (هود / ١٠٨ -

(٧) تفسير الطبري : ج ١٢ / ١١٩ حيث نص على تواتر ذلك ، وانظر :

نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني : ١٥٤ ، فقد ذكر من نسي على تواتر الحديث من العلماء منهم ابن تيمية والعيني والسيوطي وهـ

منها ما رواه البخاري^(١) ومسلم^(٢) واللفظ لمسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه من حديث طويل

(... فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثير ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا ، وكان أبو سعيد يقول فاقروا إن شئتم : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) فيقول الله عز وجل : نفعنا الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقينهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة) الحديث

وفي رواية أخرى للبخاري ومسلم^(٣) عن أبي هريرة - رضي الله عنه (أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا ... وساق الحديث إلى قوله : (أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا اله الا الله ، فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أنثر السجود) الحديث

وروى البخاري ومسلم^(٥) أيضا من حديث أنس الطويل في شفاعته النبي - صلى الله عليه وسلم - وفيه : (فأخرجهم فأدخلهم الجنة فما يقف في النار الا من حسبه القرآن ، أي وجب عليه الخلود .) اهـ

فهذه الاحاديث دلت دلالة يقينية على أن من أهل التوحيد من يدخل النار ثم يخرج منها ، فلذلك فهم المستثنون من الخلود في النار باعتبار منتهائهم ، وهم أيضا المستثنون من الخلود في الجنة باعتبار المبدأ ، بالنسبة لمن دخلها قبلهم من أهل الايمان

(١) صحيح البخاري : كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة ١٨٢/٨
(٢) صحيح مسلم : كتاب الايمان ، باب رؤية الله سبحانه وتعالى (شرح النووي ٣/٢٥-٣٢)
(٣) كتاب التوحيد ج ٨ / ١٧٩ نفس الباب السابق
(٤) كتاب الايمان ، نفس الباب السابق (شرح النووي : ج ٣ / ٢٢)
(٥) صحيح البخاري : كتاب التوحيد باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة ١٨٤ / ٨
(٦) صحيح مسلم ، كتاب الايمان باب اثبات الشفاعة (شرح النووي : ٣ / ٥٨)
وفي رواية مسلم ان لفظة " أي وجب عليه الخلود " من قول قتادة أحد رواة الحديث

قال الرازي^(١) : (إنَّ قوله : (إن ربك فعّال لما يريد) يحسن انطباقه على الآية إذا حملنا الاستثناء على إخراج الفساق من النار ، كأنه تعالى يقول : أظهرتُ القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لأني فعّال لما أريد وليس عليَّ حكم البتة .) اهـ

الوجه الثاني في توجيه الاستثناء :

أن كلمة " إلّا " في الآية وردت بمعنى " سوى " ، والمعنى : انه تعالى لما قال : (خالدين فيها ما دامت السموات والارض) فهم منه أنهم يكونون في النار في جميع مدة بقاء السموات والارض المعهودتين في الدنيا ، ثم قال : سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم ، فذكر أولاً في خلود أهل النار ما ليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له بقوله : (إلّا ما شاء ربك) والمعنى : إلّا ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها والتي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ، فعلى هذا جاء الاستثناء لتأكيد معنى الخلود وثبितه ،

وهذا الوجه ذكره ابن قتيبة والفراء وغيرهم من المفسرين^(٢)

الوجه الثالث :

بما أن الآية جاءت جرياً على عادة العرب من إرادة التأييد في قوله : (ما دامت السموات والارض) لذلك جاء استثناء المشيئة من دوامهما لأن أهل الجنة والنار قد كانوا في وقت من أوقات دوام السموات في الدنيا وفي البرزخ وفي أرض الموقف للحساب فكأنه قال : خالدين فيها دوام السماء والارض إلّا ما شاء ربك من تعميرهم في الدنيا ولبثهم في موقف الحساب قبل ذلك^(٣)

فالاستثناء على هذا الوجه من دوام السموات والارض السابق على دخولهم النار ، وكذلك الامر بالنسبة لأهل الجنة^(٤)

(١) تفسير الرازي : ج ١٨ / ٢٨

(٢) معاني القرآن للفراء : ج ٢ / ٢٨ ، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ٧٧

تفسير الطبري : ١٢ / ١٢٠ ط الطبري ، زاد المسير : ٤ / ١٦٠

تفسير الرازي : ١٨ / ١٧ ، تفسير القرطبي : ٩ / ١٠٠ ، فتح الرحمن : ٢٧٢

آمال المرتضي : ٢ / ٨٧

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٧٧ ، تفسير ابن جرير : ١٢ / ١٢١ ، تنزيل القرآن : ١٨٤

آمال المرتضي : ٢ / ٨٧ ، الرازي : ١٨ / ٦٨ ، زاد المسير : ٤ / ١٦٠

تفسير القرطبي : ٧ / ٨٤ ، ج ٩ / ١٠٠

(٤) زاد المسير : ٤ / ١٦٠

وقد استبعد الرازي^(١) هذا الوجه على اعتبار : أن الاستثناء وقع عن الخلود في النار ، وإذا لم يحصل الخلود في النار لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء) ،

قلت : وبما أن هذا الوجه قائم على أساس أن الاستثناء من دوام السموات والأرض وليس من الخلود ، تبين ضعف هذا الاستبعاد ، أما أيضا الانعام : (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) فلم يذكر فيها دوام السموات والأرض ، ولذلك واعتمادا على هذا الوجه فإن الاستثناء فيها منقطع كما قال القرطبي والآلوسي^(٢) والتقدير : النار مثواكم أبدا إلا ما أمهلكم في الدنيا ونظير ذلك قوله تعالى في حق أهل الجنة :

(لا ينوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ٥٠) - الدخان / ٥٦ - وهذا الاستثناء منقطع ، ومعلوم أن الموت الذي ذاقوه متقدم على دخولهم الجنة وخلودهم فيها ، فهذا يؤيد أن المستثنى في الآية وهو مفارقتهم للنار يصح أن يكون متقدما على خلودهم فيها

الوجه الرابع :

أن الاستثناء من الخلود في عذاب النار ، لأن أهل جهنم لا يخلدون - في عذاب النار وحده بل يعذبون بالمزهرير وبأنواع أخرى من العذاب كما قال تعالى : (هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) - ص / ٥٧ -

وعلى هذا فإنه لم يُرد بقوله : (النار مثواكم ...) الآية وقوله : (وأما الذين شقوا ففي النار ...) الآية لم يُرد ما غلب إطلاقه على دار العقاب بل أراد نوع العذاب وهو النار المحرقة التي قال الله فيها :

(كلما خبت زدناهم سعيرا) ، والخبو نقصان اللهب ، ولا

يلزم من خبوها تفتير العذاب وتخفيفه عن الكفار لقوله تعالى : (لا يختر عنهم العذاب ...) وقوله : (لا يخفف عنهم العذاب ...) لأنه عند خبو اللهب يكونون في المزهرير وأنواع العذاب الأخرى ، فالعذاب الذي لا يُخفف ولا يُفتر هو جملة عذاب دار العقاب المتنوع^(٤)

(١) تفسير الرازي : ج ١ / ٦٨ (٢) تفسير القرطبي : ٨٤ / ٧ ، روح المعاني : ٢٦ / ٨

(٣) تفسير الزمخشري : ٢٣٥ / ٢ ، فتح الرحمن : ٢٧٢ ، روح المعاني : ٢٦ / ٨ ، ١٤٣ / ١٢

(٤) فوائد في مشكل القرآن : ٢٣٠ ، الرازي : ٦١ / ٢١ ، روح المعاني : ٦١ / ٢١

فعلى هذا يكون الاستثناء في الآية بمعنى : إلا الوقت الذي ينتقلون فيه الى الزمهرير ،

وقد دلت النصوص على إثبات وجود الزمهرير في دار العقاب وهو ما رواه البخاري (١) ومسلم (٢) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

(اشتكت النار الى ربها فقالت يا ربّ أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف ، فهو أشد منا تجدون من الحرّ وأشد ما تجدون من الزمهرير)

وفي رواية لمسلم (٣) : (فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نفس جهنم وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم) (٤)

فدلّ هذا الحديث على وجود عذاب آخر غير النار في دار العقاب ، ومعلوم أيضا أن النار فيها أصناف كثيرة من أنواع العذاب قال تعالى : (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ... فإنهم لاكلون منها فمائلون منها البطون ثم إنّ لهم عليها لشوبا من حميم ، ثم إنّ مرجعهم لالى الجحيم) - الصافات / ٦٢ - ٦٨ -

فقوله هنا : " ثم إنّ مرجعهم لالى الجحيم " يدل على أنهم ينتقلون في أصناف العذاب ، ومنه الزقوم والحميم ثم يُردون الى النار المتأججة كما قال تعالى : (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) -

قال مقاتل : الحميم خارج النار ، فهم يوردون الحميم لشربه ثم يُردّون الى الجحيم (٥)

-
- (١) صحيح البخاري : كتاب بدء الخلق باب ١٠ عفة النار وانها مخلوقة ج٤ / ٨٩
(٢) صحيح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، استحباب الابراد بالظهر في شدة الحر (شرح النووي : ج٥ / ١١٩)
(٣) نفس المصدر والكتاب والباب . (شرح النووي : ج٥ / ١٢٠)
(٤) قال النووي رحمه الله عند هذا الحديث : (قال العلماء : الزمهرير شدة البرد والحرور شدة الحر ، ثم ذكر اختلاف العلماء في معنى اشتكاء النار هل هو على ظاهره أم على وجه التشبيه والاستعارة والتقريب وتقديره : ان شدة الحر يشبه نار جهنم فاحذروه واجتنبوا حروره ، ثم استصوب انه على ظاهره ولا مانع من حمله على حقيقته)
(٥) زاد المسير : ٦٤ / ٧ ، تفسير الرازي : ١٤٣ / ٢٤
تفسير ابن كثير : ج٤ / ١٨ الصافات / ٦٨ ، تفسير القرطبي : ج٥ / ٨٨

(١)

وقد انتقد الرازي هذا الوجه قائلا : (وأما القول بأن المراد بالاستثناء نقلهم من النار الى الزمهرير ، لو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يحصل العذاب بالزمهرير إلا بعد انقضاء مدة السموات والارض ، والأخبار الصحيحة دلّت على أن النقل من النار الى الزمهرير وبالعكس يحصل في كل يوم مرارا ، فبطل هذا الوجه .) اهـ

قلت : ويمكن أن يُجاب بأن الاستثناء على هذا الوجه بمعنى :
إلا الوقت الذي ينقلون فيه الى الزمهرير وهذا يصدق على نقلهم اليه
كل يوم أو أكثر أو أقل ، فيكون التقدير :
خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا الأوقات التي يكونون

فيها في الزمهرير

هذا وقد ردّ الزركشي^(٢) رحمه الله - على من قال بهذا الوجه ومنهم
الزمخشري^(٣) فقال : (وجعل الزمخشري الاستثناء الاول لخروج أهل النار الى
الزمهرير أو الى نوع آخر من العذاب بناء على مذهبه من تخليد أهل
الكبائر في النار ، فكأنه تصوّر أن الاستثناء الثاني لما لم يُحمل على
انقطاع النعيم لقوله تعالى : (عطاء غير مجذوذ) فكذا الاستثناء
الاول لا يُحمل على انقطاع العذاب لتناسب أطراف الكلام ، وقال - معنى قوله
تعالى : (إن ربك فعال لما يريد) عقب الاستثناء الاول في مقابل :
(عطاء غير مجذوذ) عقب الثاني أن الله تعالى يفعل بأهل النار
ما يريد من العذاب كما يُعطي لأهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له ،

ثم قال الزركشي بعد أن عاب عليه هذا القول :

(ظاهر الاستثناء هو الإخراج عن حكم ما قبله ولا موجب للعدول عن
الظاهر في الاستثناء الاول ، فحمل على النجاة - أي نجاة عصاة المؤمنين -
ولما كان إنجاء المستحق للعذاب محل تعجب وانكار عقبه بقوله :
(إن ربك فعال لما يريد) أي من العذاب والانجاء منه بفضله)
ولا يتوجه عليه اعتراض أحد يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأما
الاستثناء الثاني فلما لم يكن على ظاهره عقب بقوله : (عطاء غير
مجذوذ) بيانا للمقصود .) اهـ

قلت : وكون الزمخشري يرى تخليد أهل الكبائر في النار لا يسوغ تضعيف
هذا الوجه الذي انتصر له ، وذلك لاحتمال الايات له ولما يؤيده
من نصوص الكتاب والسنة كما تقدم ، وكذلك قال بهذا الوجه غير الزمخشري
من أهل السنة كما تقدم ايضا ،

(١) تفسير الرازي: ج١٨ / ٦٨ (٢) البرهان في علوم القرآن: ج٣ / ٤٩ - ٥١

(٣) انوار تفسير الزمخشري: ج٢ / ٢٣٥ هود / ١٠٨

الوجه الخامس :

ان المراد البالغة في الخلود بمعنى : أنه لا ينتفي العذاب إلا وقت
 مشيئة الله تعالى وهو مما لا يكون ،
 أخرج البيهقي في البعث والنشور^(١) عن ابن عباس في قوله تعالى :
 (إلا ما شاء ربك) قال : فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء في النار وهؤلاء
 في الجنة (

^(٢) قال الفراء : (هذا استثناء استثناء الله سبحانه ولا
 يفعل كقولك : (والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك) وعزيمتك ضربه .)
 فالمعنى لو شاء لأخرجهم لكنه لا يشاء لأنه حكم عليهم بالخلود ،
 قال الزجاج : (وفائدة هذا أنه لو شاء أن يرحمهم لرحمهم ولكنه أعلمنا
 أنهم خالدون أبدا .)

قال الآلوسي^(٤) : (والأوجه أن يقال : إن الاستثناء في
 الموضعين مبني على الفرض والتقدير فمعنى " إلا ما شاء الله " ان شاء
 أى لو فرض أن الله تعالى شاء إخراجهم من النار أو الجنة في زمان
 لكان مستثنى من مدة خلودهم ، لكن ذلك لا يقع ليدلالة القواطع على عدم
 وقوعه ، وهذا كما قال الطيبي من أسلوب : (حتى يلج الجمل في سم الخياط)
 قلت : وهذا الوجه كغيره من الأوجه السابقة قوى معتبر لتفسير
 الآيتين الوارد فيهما الاستثناء ، وبعض هذه الأوجه أقوى من بعض ،
 لكن الذى يظهر منها هو الوجه الاول والذى فيه أن المستثنى هم
 عمارة الموحدين بعد أن يخرجوا من النار كما تقدم ، لدلالة السنة
 الصحيحة المتواترة على ذلك ،

وعلى كل هذه الوجوه فانه يتبين لنا أنه لا تنافي بين الايات
 التى تدل على الخلود المؤبد لأهل النار وبين الايات التى فيها استثناء
 وذلك لما تقدم من الوجوه في بيان معنى هذا الاستثناء^(٥)
 والله تعالى أعلم وهو ولي التوفيق

(١) البعث والنشور : للبيهقي : ٣٣٣ طاولى تحقيق عامر احمد حيدر

(٢) معاني القرآن : ج٢ / ٢٨

(٣) زاد المسير : ج٤ / ١٦٠

(٤) روح المعاني : ج١٢ / ١٤٤ وانظر : ج٨ / ٢٧ نفا المصدر ، وتفسير القرطبي ج٩ / ٩٩

٣- قوله تعالى في حق من يدخل النار :
(فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) - الحاقة/٣٦

هذه الآية تدل على حصر طعام أهل النار بالغسلين - وهو ما يسيل من صديد أهل النار (١) -

وجاءت آيات أخرى تدل على أن أهل النار لهم أشكال أخرى من الطعام قال الله تعالى : (ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يُسمن ولا يخبى من جوع) - الناشية/٦

والضريع : ما يابس من الشبرق وهو جنس من الشوك ترعاه الأبل ما دام (٢) رطباً فإذا يابس تحامته وهو سُمّ قاتل ، فيكون لأهل النار شوك على شاكلته وقال تعالى :

(إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ) - الدخان / ٤٣ -

وقال : (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم) - الواقعة/٥٢

والزقوم : طعام كريحه في النار ومنه استعير : زقم فلان وتزقم : إذا ابتلع شيئاً كريهاً ، ولذلك شبه تعالى طلع شجر الزقوم بروءوس الشياطين لما استقر في النفوس من بشاعتها (٣)

فكيف التوفيق بين هذه الآيات والتي في كل منها حصر طعام أهل النار بنوع معين ؟

والجواب من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن النار دركات والجنة درجات ، وعلى قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات والمثوبات ، فالعذاب ألوان والمعذبون طبقات ، فمن أهل النار من طعامه الزقوم ، ومنهم من طعامه غسلين ، ومنهم من طعامه الضريع وذلك كلّ بحسب موضعه في النار ، ويدل لهذا قوله تعالى :

(لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) - الحجر / ٤٤ -

وقوله تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) - النساء / ١٤٥ -

وقوله : (أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) - غافر / ٤٦ -

فالنار لها أبواب ولها دركات متفاوتة وشدة العذاب متفاوتة بحسب عتو الكافر وكثرة فجوره وظلمه ، فلا جرم تنوع عذاب أهل النار وتنوع طعامهم ، فنمّ في كل آية على طعام طبقة من المعذبين ، وعلى ذلك فلا مجال لتوهم التناقض بين الآيات لأن الحصر بالنسبة إلى اختلاف الآكلين وتفاوت دركاتهم (٤)

(١) المفردات للراغب : ٣٦٠ ، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : ٤٨٤ ، زاد المسير : ٣٥٤/٨

(٢) المفردات : ٢٩٥ ، تفسير غريب القرآن : ٥٢٥ ، تفسير الطبري : ٢٩ / ٦٥ زاد المسير ٦/٩

(٣) المفردات : ٢١٣ ، زاد المسير : ٦٢ / ٧ ، تفسير ابن كثير : ج٤ / ١٧ الصافات / ٦٢

(٤) تأويل مشكل القرآن : ٦٩ ، التنبيه والرد للملطي : ٦٣ ، زاد المسير : ٩٧/٩

فتوح الرحمن : ٥٧٩ ، تفسير القرطبي : ٢٧٣/١٨

تفسير الرازي :

الوجه الثاني : أن الله تعالى قد نص في كل موضع على شيء من طعام أهل النار ، فمرة نص على الضريع ومرة نص على الغسلين وهكذا وليس المراد حصر طعامهم في الضريع مثلاً بل أراد أنهم في بعض أوقاتهم ليس لهم إلا الضريع ، ولا ينافي ذلك أنهم في أوقات أخرى أو مواطن أخرى يكون طعامهم الزقوم أو الغسلين^(١)

وعلى ذلك فلا تنافي بين الآيات لأن الحصر بالنسبة لاختلاف الأوقات أو المواطن ، حيث إن أهل النار يتنقلون من عذاب إلى عذاب ومن موطن إلى موطن في الباب الواحد

الوجه الثالث :

أن المعنى في جميع الآيات بيان أن أهل النار لا طعام لهم أصلاً ، لأن الضريع لا يصدق عليه اسم الطعام ولا تأكله البهائم فأحرى الآدميون وكذلك الغسلين والزقوم ، فمن طعامه الضريع لا طعام له ، ومن طعامه الغسلين لا طعام له ، ومنه قولهم : فلان لا ظل له إلا الشمس ولا دابة له إلا دابة ثوبه يعنون القمل ، ومرادهم لا ظل له أصلاً ولا دابة له أصلاً^(٢)

ويدل على ذلك قوله تعالى في حق أصحاب النار :

(أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار) - البقرة / ١٧٤ -

فمن طعامه النار لا طعام له ، وعلى ذلك فإن الحصر في الآيات جاء لفائدة وهي بيان شدة جوع أهل النار وأنه لا طعام لهم يسد جوعهم إنما هو الشوك والصديد ونحوه

وهذه الأوجه المتقدمة ظاهرة في بيان توافق الآيات ، وكل وجه منها تحتمله الآيات ، والله أعلم بمراده

(١) الرد على الزنادقة للإمام أحمد : ٥ فتح الرحمن : ٥٧٩ - ٥٨٠

(٢) أضواء البيان للشيخ الشنقيطي : ٣٠٠ / ١٠

٤-

قوله تعالى حكاية عن أهل النار :

(ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) - المؤمن / ١٠ -

هذه الآية تدل على أن الناس لهم موتتين وحياتين

قال ابن مسعود وابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم (١) في قوله تعالى :

(ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) : كنتم ترابا قبل أن يخلقكم ،

فهذه ميتة ، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون إلى

القبور فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى

فهذه ميتتان وحياتان ، فهو كقوله تعالى :

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم)

- البقرة / ٢٨ -

(٢)

وقال السدي : (المعنى : أُميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للمسألة

ثم أُميتوا ثم أحيوا في الآخرة) (٣) اهـ

وأيا ما كان فإن الآية قد اثبتت حصول موتتين وحياتين بالنسبة للبشر

بينما جاءت آية أخرى يدل ظاهرها على خلاف ذلك وهي قوله تعالى في

حق أهل الجنة :

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب

الجحيم) - الدخان / ٥٦ -

فهذه الآية تدل بظاهرها على أنهم لم يذوقوا في الدنيا إلا موتة واحدة

وعلى هذا فقد يتوهم أن بين الآيتين اختلافا

والجواب من وجهين :

الوجه الأول : أن قوله تعالى : (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة

الأولى) وصف لأهل الجنة ، والضمير في قوله " فيها " للجنة ،

أي لا يذوق أهل الجنة في الجنة الموت فلا ينقطع نعيمهم ،

وقوله : إلا الموتة الأولى : للجنس لا للوحدة ، نحو قوله تعالى :

(والعصر إنَّ الإنسان لفي خسر...)

(١) تفسير ابن جرير : ٤٧ / ٢٤ زاد المسير : ج١ / ٥٨ تفسير القرطبي : ٢٩٧ / ١٥

تفسير ابن كثير : ج١ / ١٠٣ البقرة / ٢٨ ، روح المعاني : ٥١ / ٢٤ - ٥٣

(٢) تفسير الطبري : ٤٨ / ٢٤ ، تفسير القرطبي : ج١ / ٢٩٧

وأيد ذلك الرازي باعتبار أن لفظ الاماتة لا يصدق عليه إلا عند سبق حياة

فالموت الذي لم يسبق بحياة والذي افاده قوله تعالى : (كيف تكفرون بالله

وكنتم أمواتا فأحياكم...) لا يطلق عليه اماتة... تفسير الرازي : ٤١ / ٢٧

(١) وليس في الآية نفي تعدد الموت ، فقلوه : " إلا الموتة الاولى " استثناء منقطع لتأكيد نفي ذوقهم الموت الذي ذاقوه في الدنيا لأن من يدخل الجنة لا يموت أبدا كما ثبت في الحديث الذي رواه الشيخان (٢) عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - مرغوعا :
(يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ... فيؤمر به فيُذبح ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلاموت ويا أهل النار خلود فلا موت)

فالموتة الاولى في الآية تعني الموت السابق الذي ذاقوه سواء كان مرة أو مرتين ، ولذلك فإنه لم يُرد بالاولى مودة واحدة ونظير ذلك قوله تعالى : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) أراد الجاهلية السابقة للإسلام ، وليس هناك جاهلية اولى ولا ثانية وعلى هذا فإن قوله : " إلا الموتة الاولى " لا ينافي أنهم كانوا أمواتا مرتين

الوجه الثاني :

أن المراد بالموتة الاولى الموتة التي ذاقوها عند مجيء الاجل وقبض الروح ، أما الموتة التي كانت وهم في العدم قبل أن يخلقوا فذلك موت لا يوصف بأن أحدا قد ذاقه لأنه لم يُخلق ، وإنما سُمي موتا من حيث إن المعدوم بحكم الميت ، كما سَمَّى الله تعالى الكافر ميتا في قوله :

(أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس)
- الانعام / ١٢٢ -

وقال في حق الكفار وبيان أنهم بعدم انتفاعهم بالحق والهداية كحال الموتى : (انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) - النمل / ٣٠ -

وعلى ذلك فإن الموت الحقيقي الذي يذوقه الناس إنما هو الموت الذي يعقب الحياة فيقطع حياة الانسان ويوصله بالآخرة ، وهذا الموت أخبر

(١) الموافف في علم الكلام : ٣٨٢ ، للقاضي عبد الرحمن بن احمد الايجي (ت : ٦٨٠) طبعة عالم الكتب - بيروت

تفسير الرازي : ١٤٠ / ٢٦

(٢) صحيح البخاري : كتاب التفسير ، سورة مريم ، باب قوله (وانذرهم يوم الحسرة ٢٣٦/٥)
صحيح مسلم : في صفة القيامة والجنة والنار ، باب جهنم (شرح النووي : ١٧ / ١٨٤)

أخبر الشارع أن له مكرات ، وفطرة البشر تكره هذا الموت وان كان حقا ، ولذلك أخبر الله نبي عدة مواضع من كتابه ان الموت حق وانه لا مفر منه ، وان كل نفس ذائقة الموت ، والموت عرض لا يُذاق ولكن يُجعل كالطعام الذي يُكره ذوقه كما قال تعالى :

(كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة) - آل عمران / ١٥٨
ومن أجل أن الموت يقطع حياة الانسان وتكرهه النفوس ، طمأن الله أهل الجنة في سياق ذكر ما أنعم عليهم بأن هذا الموت الذي خبروه في الدنيا وذاقوا من سكراته ، وقطع عليهم حياتهم ، طمأنهم بأنهم لن يذوقوه في الجنة البتة ، لأن حياتهم في الجنة خالدة وكفى بذلك نعيما ، واليك سياق الآية :

(ان المتقين في جنات وعيون ، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم) - الايات ٥١ - ٥٧ الدخان

وحال هؤلاء المؤمنين بعكس حال الكفار ، قال تعالى يصف عذاب الكافر وما يعانيه من الشدة :

(ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) - ابراهيم / ١٧

وعلى هذا فانه لا مجال لتوهم التنافي بين قوله تعالى :

(قالوا ربنا أمتنا اثنتين واحيتنا اثنتين ..)

وبين قوله تعالى : (لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى)

وذلك لما تقدم بيانه في الوجهين السابقين^(٢)

(١) ذكر ابن قتيبة وجها آخر : وهو أن المؤمن حين يشرف على الموت في الدنيا تستقبله ملائكة الرحمة ، ويلقى الروح والريحان ويرى منزلته من الجنة فاذا مات في الدنيا فكأنه مات في الجنة لا تعاليه بأسبابها ومشاهدته إياها وأنسه بملائكتها وعلى هذا فان الاستثناء في الآية متصل وأراد به تلك الموتة التي ذاقوها وهم متصلون بأسباب الجنة ، وفي

هذا التوجيه نوع من التكليفينافي ظاهر الآية وسياقها ، والله أعلم

انظر : تأويل مشكل القرآن : ٢٢ ، ٥٥ - ٥٦ تفسير القرطبي : ١٦ / ١٥٤

زاد المسير لابن الجوزي : ٢٥٢ / ٧ ، حيث ذكرنا هذا الوجه عنه

وبانتهاء هذا الفصل انتهت مباحث هذه الرسالة ،
والحمد لله على ما وفق وهدي ، فإن أصبت فيما قدمت فتوفيق
من الله تعالى أكرمني به ، وإن أخفقت في بعض النواحي
فهذا شأني كإنسان ، ولا أدعي لنفسي كمالا ولا سبقا بريادة
وانما أنا باحث يضع قدمه على أول الطريق ويسأل الله
التسهيل والعون ، ويرجو من كل حق اطلع على هذه الرسالة
فوجد فيها قصورا فليدركه بلطف وحسن خلق فاني ما قصرت عن
عمد ولا أردت التقصير ،

والله حسي وعوني ونعم الوكيل
والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم

الخاتمة

نتائج البحث وأهم التوصايا والمقترحات

اولا : لقد تبين لي بعد تدبر آيات القرآن ودراستها أن إيماني و يقيني بهذا القرآن قد تعاظم لما رأيت من تصديق القرآن لبعضه وتوافق آياته وانسجامها مع بعضها وكذلك ما فيه من توافق مع الحقائق العلمية ، وما فيه من إخبار عن أمور غيبية في الماضي والحاضر والمستقبل ، فقد اطمأن القلب وانشرح الصدر ، وكل من يقرأ هذا البحث بروية وتدبر قاصدا معرفة الحق وجلالة الرب يجسد خالقه باذن الله تعالى ، وهذا كله تصديق لقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

وبحمد الله تعالى تدبرنا القرآن فوجدناه كما نغاه الله تعالى عنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

ثانيا :

إن توهم الاختلاف أو التناقض بين آيات القرآن الناتج عن الجهل أو عدم التدبر أو زيغ القلب قد ابتدأ منذ عصر الرسالة على لسان بعض اليهود والمشركين ، وكانت عبارة عن افتراءات في موضوع النسخ لظهور التعارض بين النسخ والمنسوخ عند من لا يفهمه أو لا يؤمن به ،

وقد أوضحت ذلك في الفصل الأول من الباب الأول

وكذلك كانت هناك بعض الشبهات التي أطلقها نصارى نجران حول قول

القرآن : (يا أخت هارون ...)

وقد أجبت عن هذه الشبهة في فصل موهم آيات القصص من الباب الثاني

وتوهم الاختلاف في عصر الرسالة لم يكن سببه الجهل باللغة

إنما هي بعض الشبهات والافتراءات ضمن حملة الكفار من جميع الفرق

على توهين أمر القرآن والاسلام

وقد ردّ الله تعالى عليهم في كتابه في قوله تعالى :

(وإذا بدّنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا

انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) - النحل / ١٠١ -

وبعد عصر الرسالة تعددت أسباب توهم الاختلاف فكان للجهل وعدم التدبر حظا كبيرا إضافة الى زيفان القلوب وكثرة أعداء الاسلام الذين يرومون النيل من عظمة القرآن لعلمهم أنه السبب الأكبر في وحدة المسلمين واندفاعهم في الأرض لتطمعها من الشرك والضلال والاستعباد وجور الأديان ،

ولهذا فقد بيّنت في الفصل الأول من الباب الأول عرضا جمليا لتاريخ توهم الاختلاف في القرآن فليراجع .

ثالثا :-

لقد تبين لي في هذا البحث أن هناك علاقة وطيدة بين المتشابه في القرآن وبين موهم الاختلاف بين الآيات ، ولذلك نجد كثيرا من العلماء يطلق المتشابه على موهم الاختلاف بين الآيات^(١) أو يدرج الآيات التي فيها توهم اختلاف في كتب المتشابه كما فعل الخطيب الاسكافي في كتابه : درة التنزيل وغيره

وقد رأيت أن الحكمة من وجود ما يتوهم منه الاختلاف في القرآن هي نفس الحكمة من وجود المتشابه ، وهي أن ذلك ادعى لإثارة العلم بدفع التوهم ، وتدبر كتاب الله للتوفيق بين الآيات ، فيطول بذلك فكر العلماء ويدأومون على البحث والاهتمام فيثابون على تعبهم وحسن عنايتهم مع فضيلة النظر وحسن الاستخراج .

ولو كان الأمر غير ذلك لاستوى فيه العالم والجاهل ولماتت الخواطر ، ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة ،

كما أن فيه اختبارا للعباد ليقف المؤمن عنده ويرده الى عالمه فيعظم بذلك ثوابه ، ويرتاب فيه المنافق فيدأخله الزيغ فيستحق بذلك العقوبة ،

(١) منهم ابن عباس - رضي الله عنهما - كما في سوء الات نافع بن الأزرق له والتي رواها البخاري وابن جرير وغيرهم (انظر : الفصل الأول من الباب الأول)

كما أن فيه ضربا من الالهجاز ، حيث جاء على ترتيب ونسق بحيث لو تدبره المؤمن والعالم ألفاه متناسقا منسجما ، وان قرأه الجاهل أو المنافق ظنه مختلفا ، فكأنه تعالى قال : عارضوه بمثله ان استطعتم

رابعاً :-

ان آيات القرآن مقترنة ببعضها ومفسرة لبعضها ، ولذلك لابد للعالم أو المجتهد أو من يفسر كتاب الله أن يكون على علم بجميع آيات القرآن في الموضوع الواحد ، لأنها بمجموعها يتضح مراد الله تعالى ، ولذلك فان العالم لا يقتصر على التمسك بالعام مثلاً حتى يبحث عن مخصصه ، وعلى المطلق حتى ينظر هل له مقيد أم لا ، فالعام مع مخصصه هو الدليل ، وعلى هذا فالبيان مقترن بالمبين فعند تدبر المجمل والمبين يتضح المراد ويفهم المقصد وتجتمع المعاني بدل أن يضرب كتاب الله بعضه ببعض بسبب الجهل أو التعصب لمنهج معين أو التأويلات البعيدة .

خامساً :-

ان أكثر المتحمسين في هذا العصر لاثارة الشبهات والاقتراءات حول القرآن هم النصارى ، وذلك لأسباب عديدة منها أن الاسلام دين قائم على الحجة والبرهان والاقناع :
(قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)
بعكس ما بأيدي النصارى ، فان ما عندهم لا يتعدى معتقدات تأباها العقول السليمة والفطر الصحيحة ،
لهذا فانهم يقومون بحملة محمومة يتولى كبرها القسيسون -
والرهبان المنصرون ضد القرآن والاسلام ، ومن ضمن هذه الحملة اطلاق الشبهات والاقتراءات حول آيات القرآن والادعاء بانها متناقضة
وسبب كل ذلك رغبتهم في تثبيت أهل دينهم ليس الا ، لأنهم لا يستطيعون ادخال أحد في دينهم ما خلا الحجة والمناظرة
بل يعتمدون اسلوب الاغراءات المادية للمكويين وأهل الغابات والمناطق النائية التي لا تعرف دين الاسلام ،
هذا مع ان ما بأيديهم من الاناجيل المحرفة مملوءة بالتناقضات -

والاقتراءات كما بينت بعض ذلك في الباب الاول

وأرى أن الامر يحتاج الى بحث مستوفى يتتبع فيه الباحث ما في الانجيل من تناقضات ويدرسها دراسة علمية ، مستوفاة ليبرهن أن ما بأيديهم ليس من عند الله وذلك لما فيه من الاختلاف الكثير .

سادسا :-

أقترح وأوصي أن يتوجه اهتمام الباحثين وطلبة العلم لاعطاء دلائل النبوة في القرآن حظها من الدراسة والبحث ، وإظهارها واضحة مستوعبة ، ومنها الاخبار عن المغيبات الحاضرة والماضية والمستقبلية ، والتد تعرضت لها إجمالاً في فصل تفسير الآية :

(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

ومنها ما أخبر القرآن ولغت الانظار اليه من الاشارات العلمية والحقائق الكونية التي لم تكن معروفة في عصر نزول القرآن الكريم ، مع ترجمته هذه الابحاث ونشرها في أقطار الارض من باب الدعوة الى الله والى دينه الذي هو خاتم الاديان ومن يبتغي غيره فهو من الخاسرين .

سابعا :-

لقد سبق وأن قام احد الباحثين من طلبة العلم في هذه الجامعة بدراسة موهم الاختلاف في الحديث النبوي ، فبقي أن يُهتم بموهم الاختلاف بين الكتاب والسنة ، لبيان عدم التعارض بين آيات القرآن وحديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - لأن الكل من عند الله تبارك وتعالى وبيان توافقهما وعلاقتهما ببعضهما ، وأرى أن هذه الدراسة بحاجة الى عدة أبحاث ، حيث ان الباحث سوف يلجأ الى كتب التفسير وشروح الحديث المطولة ليستخلص منها ما قيل في التوفيق بين ما ظاهره التعارض في الكتاب والسنة المطهرة ، وتكون دراسة شاملة مستوعبة ولا يُقتصر فيها على على الأمثلة والنماذج ،

والله ولي التوفيق

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات :

٦ - ١	:	المقدمة
٤	:	منهج البحث
٦	:	خطة البحث
١٦٥ - ٧	:	الباب الاول
٣٤ - ٨	:	الفصل الاول عرض اجمالي :
		معنى موهم الاختلاف والتناقض
٤١ - ٣٥	:	في اللغة والاصطلاح :
٤٥ - ٤٢	:	معنى العنوان كمصطلح مركب :
		امثلة توضح المقصود من
٥٠ - ٤٦	:	موهم الاختلاف والتناقض :
		تفسير قوله تعالى :
٨١ - ٥١	:	(افلا يتدبرون القرآن ١٠٠٠ الاية
٥٨	:	المراد باختلاف المنفي :
٦٩ - ٦٢	:	الاخبار عن المنفيات :
٧٤ - ٧٠	:	الايات الكونية والنفسية :
٨١ - ٧٥	:	الفوائد المستنبطة من الاية :
		الفصل الرابع : سلامة
٩١ - ٨٢	:	القران من الاختلاف من ادلة النبوة :
٩٢	:	تناقض العهد القديم والجديد :
٩٩ - ٩٤	:	ادلة أخرى على النبوة :
		اسباب وجود موهم الاختلاف والتناقض
١٠٠	:	في القرآن
١٠١	:	النسخ
١٠٩	:	مثال على النسخ
١١٢	:	العموم والتخصيص
١١٩	:	الاطلاق والتقييد
١٢٤	:	البيان والاجمال
١٣٣	:	اختلاف الحال
١٣٥	:	اختلاف المحل
١٤٠	:	تعارض العموميين

موقف الباحث عند التعارض والاختلاف

- ١٤٤ : الظاهري في النصوص
١٤٥ : مسلك الجمع
١٤٧ : مسلك النسخ
١٥٢ : مسلك الترجيح
١٥٦ : الترجيح في السنة
١٦٤ : منهج الحنفية

الباب الثاني : موهم الاختلاف

- ٣٧٨ - ١٦٦ : في النص القرآني
١٧٩ - ١٦٧ : فصل موهم الاختلاف في القراءات
١٨٠ : امثلة تطبيقية لاختلاف القراءات
١٨٧ : الاختلاف القراء في البسملة
١٩١ : فائدة اختلاف القراءات
١٩٣ : فصل الايات المختصة بالكتاب
٢٠١ : توهم وجود الشعر في القرآن
٢٠٩ : آيات النسخ وايات حفظ القرآن من التبديل
٢١٤ : توهم وجود الفاظ غير عربية في القرآن
٢٢٧ : الفصل الثالث : المباحث اللغوية
٢٢٧ : مبحث في القسم وما فيه من موهم الانتلاف
٢٣٧ : القواعد النحوية
مبحث في التقديم والتأخير والزيادة والنقص
٢٦٣ - ٢٨٨ : وابدال كلمة بأخرى
٢٨٩ : الفصل الرابع : قصص القرآن
٢٩٢ : تكرار القصص القرآني
٣٠٣ : اختلاف حكاية القصة
الفصل الخامس : موهم الاختلاف
٣١٧ - ٣٧٨ : في مضمون القصص حسب التسلسل التاريخي
٣١٩ : ما ورد في حق ابليس اللعين
٣٢٥ : نصرة الرسل
٣٢٨ : قصة نوح

٣٣٠ :	قصة صالح
٣٣٣ :	قصة اراهيم
٣٣٨ :	قصة شعيب
٣٤١ :	قصة يوسف
٣٤٤ :	قصة ايوب
٣٤٧ :	قصة يونس
٣٤٨ :	قصة موسى
٣٦٠ :	قصة سليمان
٣٦٢ :	قصة مريم
٣٦٤ :	قصة عيسى
٣٧١ :	قصة الفتية أصحاب الكهف
٣٧٣ :	امرأة نوح وامرأة لوط

الباب الثالث : - ٣٧٩ -

٤٠١ - ٣٨٠ :	الفصل الاول : موهم آيات العقيدة
٤١١ :	الفصل الثاني : موهم آيات النبوة
٤٣٠ :	الفصل الثالث : موهم آيات المؤمنين
٤٦٤ :	الفصل الرابع : موهم آيات أهل الكتاب
٤٩٢ :	الفصل الخامس آيات المشركين
٥٤٢ :	الفصل السادس آيات المنافقين
٥٥٢ :	الفصل السابع آيات الاحكام
٥٧٧ :	الفصل الثامن : الآيات الكونية
٦٣٧ - ٥٩٩ :	الفصل التاسع : آيات الجهاد والدعوة
٦٩٨ - ٦٣٨ :	الفصل العاشر : آيات القيامة
٦٤٧ - ٦٣٨ :	المبحث الاول : آيات الصعق والبعث
٦٧٨ - ٦٤٨ :	المبحث الثاني آيات الحساب والموقف
٦٩٨ - ٦٧٩ :	المبحث الثالث : آيات الجنة والنار
٧٠٢ - ٦٩٩ :	الخاتمة :
- ٧٠٣ :	الفهارس

فهرس المراجع

اولا : كتب التفسير وعلوم القرآن (مرتبة ابجديا)

- ١- الابانة عن معاني القراءات / مكى بن ابى طالب القيسي ت ٤٣٧ هـ تحقيق : د . محيى الدين رمضان ، مجمع اللغة العربية ، دمشق
- ٢- الاتقان في علوم القرآن / السيوطي ت : ٩١١ هـ ط ٢ دار احياء العلوم / بيروت
- ٣- احكام القرآن / الامام الشافعي ت ٢٠٤ هـ (جمع البيهقي) تحقيق : عبد الغني عبد الخالك ، دار الكتبة العلمية - بيروت
- ٤- احكام القرآن / ابن العربي ت ٥٤٣ هـ ، تحقيق علي محمد البجاوى ط ٣ دار المعرفة - بيروت
- ٥- ارشاد العقل السليم / ابو السعود ت ٩٨٢ هـ تحقيق عبد القادر احمد عطا مكتبة الرياض الحديثة - الرياض
- ٦- اسباب نزول القرآن / الواحدى (علي بن احمد) ت ٤٦٨ هـ تحقيق سيد صقر - دار القبلة - جدة ط ٢
- ٧- استخراج الجدل من القرآن / عبد الرحمن بن نجم بن الحنبلي ت ٦٣٤ هـ ، ط ٢ تحقيق د . زاهر بن عواض الالمعي ، الناشر غير مذكور
- ٨- أضواء البيان / محمد الامين الشنقيطي ت ١٣٩٣ هـ ، طبعة الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والاقتاء - الرياض
- ٩- الاعجاز والقراءات / فتحي عبد القادر - دار العلوم للطباعة ط ١
- ١٠- الاقناع في القراءات السبع / ابن الباز (احمد بن علي) ت ٥٤٠ هـ ط ١ تحقيق : د . عبد المجيد قطامش - مركز البحث العلمي - ام القرى
- ١١- آيات عتاب المصطفى في ضوء العصمة والاجتهاد / د . عويد بن عياد المطرفي دار الفكر العربي - القاهرة
- ١٢- البحر المحيط / ابو حيان الاندلسي ت ٧٥٤ هـ ط ٢ دار الفكر بيروت
- ١٣- بحوث في قصص القرآن / السيد عبد الحافظ عبد ربه - دار الكتاب اللبناني بيروت - طبعة اولى
- ١٤- البرهان في علوم القرآن / بدر الدين الزركشي ت ٧٩٤ ط ٢ تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم
- ١٥- بمائز ذوالتمييز / الفيروزباده (محمد بن يعقوب) ت ٨١٧ هـ تحقيق محمد علي الخجار - بيروت
- ١٦- تحبير التيسير / ابن الجزرى ت ٨٣٣ هـ تحقيق عبد الفتاح القاضي دار الوصي طب - طبعة اولى
- ١٦- تأويل مشكل القرآن / ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ تحقيق السيد مقرر طبعة ثانية - دار التراث - القاهرة
- ١٨- التموير الفني في القرآن / سيد قطب - الطبعة بدون ذكر وكذا الناشر

- ١٩ - تفسير التبيان / محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ تحقيق د ٠ محيي الدين
رمضان - مجمع اللغة العربية - دمشق
- ٢٠ - تفسير الجواهر / ططاوى جوهرى ط ١٢ البابي الحلبي - مصر
- ٢١ - تفسير غريب القرآن / ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ تحقيق السيد صقر
دار الكتب العلمية
- ٢٢ - تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ت ٧٧٤ هـ طبعة الشعب تحقيق محمد عاشور
ومحمد البنا وعبد العزيز غنيم ، وطبعة دار الكتب العلمية
وهي المعتمدة في أكثر البحث
- ٢٣ - التفسير القرآني للقرآن / عبد الكريم الخطيب - دار الفكر العربي
بيروت - لبنان
- ٢٤ - تفسير القرآن الكريم / محمود شلتوت ط ٨ دار الشروق - بيروت
- ٢٥ - تفسير المراغي / احمد مصطفى المراغي البابي الحلبي - مصر
- ٢٦ - تفسير المنار / محمد رشيد رضا ط ٤ دار المنار - مصر
- ٢٧ - تنزيله القرآن عن المطاعن / القاضي عبد الجبار ت ٤١٥ هـ دار النهضة
بيروت
- ٢٨ - الجامع لاحكام القرآن / القرطبي ت ٦٣٠ هـ ط ٣ دار القلم - بيروت
- ٢٩ - جامع البيان / ابن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ تحقيق محمود شاكراً طبعة ٢
دار المعارف مصر
- ٣٠ - حاشية الشهاب الخفاجي / الشهاب الخفاجي (احمد بن محمد) ت ١٠٦٩ هـ
- ٣١ - حكم الاسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض ٠٠٠ / عبد العزيز بن باز ،
توزيع الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة - ١٤٠١ هـ
- ٣٢ - درة التنزيل وغرة التأويل / الخطيب الاسكافي ت ٤٢٠ هـ طبعة اولى
دار الافاق الجديدة - بيروت
- ٣٣ - الدر المنثور / السيوطي ت ٩١١ هـ ط ١ دار الفكر - بيروت
- ٣٤ - الرد على الزنادقة / احمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ تحقيق محمد راشد ،
المطبعة الميمنية - القاهرة
- ٣٥ - الرد القرآني على كتيب : هل يمكن الاعتقاد بالقرآن / عبد الله كنون
مطبوعات رابطة العالم الاسلامي ١٤٠١ هـ
- ٣٦ - رسم المصحف القرآني / د ٠ عبد الفتاح شلبي ط ٢ دار الشروق - جدة
- ٣٧ - روح المعاني / الالوسي ت ١٢٧٠ هـ دار الفكر بيروت ط ١٣٩٨ هـ
- ٣٨ - زاد المير / ابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ ط ٢ المكتب الاسلامي
- ٣٩ - سيكولوجية القصة في القرآن / التهامي نقرة - الشركة التونسية
للتوزيع
- ٤٠ - الصحيح المسند من أسباب النزول / مقبل بن هادي الوادعي ط ٢
- ٤١ - فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن / زكريا الانصاري ت ٩٢٦ هـ
تحقيق محمد علي المابوني - دار القرآن الكريم - بيروت
- ٤٢ - فتح القدير للشوكاني / ت ١٢٥٠ هـ طبعة اولى البابي الحلبي - مصر
- ٤٣ - فكرة إيجاز القرآن / نعيم الحمصي مؤسسة الرسالة بيروت ط ٢

- ٤٤ - فوائد في مشكل القرآن / عبد العزيز بن عبد السم ت ٦٦٠ هـ
تحقيق : د . سيد رضوان علي - دار الشروق جدة
- ٤٥ - في ظلال القرآن / سيد قطب - دار الشروق - بيروت ١٣٩٣ هـ
- ٤٦ - القراءات في نظر المستشرقين / عبد الفتاح القاضي - مكتبة الدار - المدينة المنورة
- ٤٧ - القرآن والمبشرون / محمد دروزة ط ٣ المكتب الاسلامي - بيروت
- ٤٨ - القصص القرآني في منطوقه ومفهومه / عبد الكريم الخطيب - دار الفكر - بيروت
- ٤٩ - كتاب المصاحف / عبد الله بن ابي داود ت ٢٩٠ هـ طبعة اولى -
دار الكتب العلمية بيروت
- ٥٠ - الكشف عن وجوه القراءات السبع / القيسي ت ٤٣٦ هـ تحقيق د . محي الدين
رمضان - مجمع اللغة العربية - دمشق
- ٥١ - لباب النقول في أسباب النزول / السيوطي ت ٩١١ هـ ط ٢ دار احياء العلوم
بيروت
- ٥٢ - متشابه القرآن / القاضي عبد الجبار ت ٤١٥ هـ تحقيق د . عدنان زرزور -
دار التراث - القاهرة
- ٥٣ - مجمع البيان / الطبرسي ت : - مكتبة الحياة - بيروت
- ٥٤ - المحرر الوجيز / ابن عطية (عبد الحق) ت ٥٤١ هـ - تحقيق : احمد
الملاح - القاهرة
- ٥٥ - محاسن التأويل / جمال الدين القاسمي - تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي
دار الفكر - بيروت
- ٥٦ - مذاهب الفسير الاسلامي / جولد سيهر - ترجمة د . عبد الحليم النجار -
مكتبة الخانجي - مصر
- ٥٧ - معاني القرآن / الفراء ت ٢٠٧ هـ عبد الفتاح ثلبي ط ١ الهيئة المصرية للكتب
- ٥٨ - ملك التأويل / ابن الزبير الخراطبي (احمد بن ابراهيم) ت ٧٠٨ هـ
تحقيق د . محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية - بيروت
- ٥٩ - مناهل العرفان / محمد عبد العظيم الزرقاني - البابي الحلبي - مصر
- ٦٠ - منجد المقرئين / ابن الجزري (محمد بن محمد) ت ٨٣٣ هـ طبعة اولى
تحقيق الدكتور عبد الحي الفرماوى - مكتبة جمهورية مصر - القاهرة
- ٦١ - النبأ العظيم / د . محمد عبدالله دراز ط ٢ - دار القلم - الكويت
- ٦٢ - النشر في القراءات العشر / ابن الجزري ت ٨٣٣ هـ تحقيق : علي محمد الضيام
دار الكتب العلمية بيروت
- ٦٣ - نظم الدرر في تناسب الايات والسور / ابراهيم بن عمر البقاعي ت ٨٨٥ هـ -
طبعة اولى - مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيد آباد
- ٦٤ - النكت والعيون / الماوردي ت ٤٥٠ هـ - تحقيق خضر محمد خضر طبعة اولى
وزارة الاوقاف الكويتية - الكويت
- ٦٥ - نواسخ القرآن / ابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ الطبعة الاولى - تحقيق :
محمد أشرف المليباري - الجامعة الاسلامية - المدينة المنورة
- ٦٦ - وجوه من الاعجاز القرآني / مصطفى الدباغ ط ٢ مكتبة المنار - الزرقاء الاردن
- ٦٧ - المرشد الوجيز / ابو شامة المقدسي ت ٦٦٥ هـ - تحقيق : طيار
التي قولا ج - دار صادر - بيروت

مراجع الحديث

(مرتبة على الحروف الابجدية)

- ٧٠ - ارواء الغليل في تخرج أحاديث منار السبيل / ناصر الدين الالباني
طاولي ، المكتب الاسلامي - بيروت - دمشق
- ٧١ - الاعتبار في بيان الناسخ من المنسوخ من الآثار / . ت ٥٨٤ ، طاولي
تحقيق راتب حكيم ، مطبعة الاندلس - حمص
- ٧٢ - تأويل مختلف الحديث / بن قتيبة الدينوري ت ٢٧٦ هـ ، دار الكتاب العربي بيروت
- ٧٣ - التصريح بما تواتر في نزول المسيح / محمد انور شاه الكشميري ت ١٣٥٢ هـ
تحقيق الشيخ عبد الفتاح ابو غدة ، ط ٣ ، مكتبة المطبوعات
ط ٢
- ٧٤ - جامع الاصول / ابن الاثير الجزري ت ٦٠٦ هـ ، ط ٢ تحقيق عبد القادر الارناؤوط
دار الفكر - بيروت
- ٧٥ - دلائل النبوة / ابو نعيم الاصبهاني ت ٤٣٠ ، تحقيق محمد رواح قلعبني ،
المكتبة العربية بحلب
- ٧٦ - دلائل النبوة للبيهقي ت ٤٥٨ ، المكتبة السلفية - المدينة
- ٧٧ - سلسلة الاحاديث الصحيحة / ناصر الدين الالباني ، المكتب الاسلامي - بيروت ط ٣
- ٧٨ - سنن الترمذي / محمد بن عيسى الترمذي ت ٢٩٧ ، تحقيق احمد شاکر وتكملة
عبد الباقي وابراهيم عطوة ، دار احياء التراث - بيروت
- ٧٩ - سنن ابي داود / سليمان بن الاشعث السجستاني ، ت ٢٧٥ ، اعداد وتعليق :
عزت عبید الدعاس ، دار الحديث - حمص سوريا
- ٨٠ - سنن ابن ماجه / محمد بن يزيد القزويني ت ٢٧٥ ، تحقيق محمد فواد عبد
الباقي ، ط البابي الحلبي ١٩٥٢ م
- ٨١ - سنن النسائي / بشرح الحافظ السيوطي وحاشية السندي ، عناية وترقيم :
عبد الفتاح ابو غدة - مكتبة المطبوعات الاسلامية - حلب
- ٨٢ - شرح السنة / البغوي : ت ٥١٦ تحقيق شعيب الاناؤوط وزهير الشاويش - المكتب
الاسلامي
- ٨٣ - سنن البيهقي / احمد بن الحسين البيهقي ، ت ٤٥٨ ، ط ١ حيدر اباد الدكن
- ٨٤ - صحيح البخاري / محمد بن اسماعيل البخاري ، ت ٢٥٦ ، المكتبة الاسلامية - استانبول
- ٨٥ - صحيح مسلم / (بشرح النووي) مسلم بن الحجاج ت ٢٦١ ، توزيع ادارات البحوث
العلمية والاقتناء بالرياض
- ٨٦ - صحيح الترغيب والترهيب للمنذري / اختيار وتحقيق الشيخ ناصر الدين الالباني
المكتب الاسلامي ط ١ - بيروت
- ٨٧ - فتح المهدى شرح مخير الزبيدي / عبد الله الشرقاوي ت ١٢٢٦ هـ ط ٤ الحلبي
- ٨٨ - لقط اللآلئ المتناثرة / محمد مرتضى الزبيدي ت ١٢٠٥ هـ ، تحقق : محمد
عبد القادر ، دار الكتب العلمية - بيروت
- ٨٩ - مجمع الزوائد / الهيثمي ت ٨٠٧ ، ط ٢ ، دار الكتاب العربي - بيروت
- ٩٠ - مسند الامام أحمد / طبعة المكتب الاسلامي ، ت ٢٤١ ،
- ٩١ - مسند الامام أحمد / بتحقيق احمد شاکر ، دار المعارف بمصر
- ٩٢ - المستدرک / الحاكم النيسابوري ، اشراف وفهرسة د . يوسف المرعشي ،
دار المعرفة بيروت
- ٩٣ - مشكاة المصابيح / الخطيب التبريزي ، ت بعد ٧٣٢ هـ ، ط ٢ المكتب الاسلامي

- ٩٤- المصنف / عبد الرزاق الصنعاني ت ٢١١ هـ تحقيق حبيب الرحمن الاعظمي ط ١
المكتب الاسلامي بيروت
- ٩٥ - المقصد العلي في زوائد ابي يعلى الموعلي / الهيثمي ت ٨٠٧ هـ ط ١
تحقيق د . نايف الدعيس ، تهامة - جدة
- ٩٦ - موارد الظمئان / الهيثمي ت ٨٠٧ هـ ، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ،
دار الكتب العلمية - بيروت
- ٩٧ - الموطأ / الامام مالك بن انس ت ١٧٩ هـ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
دار احياء التراث العربي - بيروت
- ٩٨ - نظم المتناثر من الحديث المتواتر / جعفر الكتاني ، نشر دار الكتب
العلمية - بيروت

(مرتبة على الحروف الابجدية) مراجع العقيدة

- ٩٩ - الابانة عن اصول الديانة / علي بن اسماعيل الاشعري ت ٣٢٤ هـ ط ١
تحقيق عبد القادر الارناؤوط ، مكتبة دار البيان - دمشق
- ١٠٠ - ابن حزم وموقفه من الالهيات / د. احمد الناصر ، طبعة اولى ،
مركز البحث العلمي بجامعة ام القرى
- ١٠١ - الارشاد / الجويني ، مكتبة الخانجي - مصر ١٣٦٩ هـ
- ١٠٢ - اظهار الحق / رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي ، تحقيق : عمر الدسوقي
مكتبة الوحدة العربية - الدار البيضاء
- ١٠٣ - الاعتقاد / البيهقي ت ٤٥٨ هـ ط ١ تحقيق كمال الحوت ، عالم الكتب
بيروت
- ١٠٤ - اقتضاء الصراط المستقيم / ابن تيمية ت ٧٢٨ هـ ، مطبعة الحكومة
مكة ١٣٨٩ هـ
- ١٠٥ - البعث والنشور / البيهقي ت ٤٥٨ هـ ط ١ تحقيق عامر حيدر
مركز الخدمات والابحاث الثقافية - بيروت
- ١٠٦ - تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد / ابراهيم البيجوري طبعة اولى ،
دار الكتب العلمية - بيروت
- ١٠٧ - التمهيد / للباقلاني ت المكتبة الشرقية - بيروت
- ١٠٨ - التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع / ابو الحسين الملقبي ت ٣٧٧ هـ
مكتبة المثنى بغداد - تحقيق محمد زاهد الكوثري
- ١٠٩ - التمديق بالنظر الى الله تعالى في الآخرة / ابو بكر الاجري ت ٣٦٠ هـ ،
تحقيق محمد غياث الجنابز ، دار عالم الكتب بيروت
- ١١٠ - شرح الاصول الخمسة / القاضي عبد الجبار ت ٤١٥ ط ١ ، تحقيق :
د. عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة - مصر
- ١١١ - شرح العقيدة الطحاوية / ابن ابي العز الحنفي ط ٤ المكتب الاسلامي
- ١١٢ - غاية المرام في علم الكلام / الامدي ت ٦٣١ هـ ، تحقيق حسن محمود عبد اللطيف
طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية - القاهرة
- ١١٣ - الغمل في الملل والاهواء والنحل / ابن حزم الظاهري ت
ط ١ ، عكاظ للنشر والتوزيع ،
- ١١٤ - لطوامع الانوار البهية / محمد بن احمد السفاريني ، ط ٢ المكتب الاسلامي
- ١١٥ - محاضرات في النصرانية / ابو زهرة ، ط ٤ دار الفكر العربي - القاهرة
- ١١٦ - مقالات الاسلاميين / ابو الحسن الاشعري ، تحقيق محمد مكي الدين ط ٢

- ١١٧ - المواقف في علم الكلام / القاضي عبد الرحمن الايجي ، عالم الكتب - بيروت
- ١١٨ - موافقة صحيح المنقول لصحيح المعقول / ابن تيمية ت ٧٢٨ هـ ، تحقيق : محمد محيي الدين ومحمد حامد النقي - مطابع السنة المحمدية ط ٢
- ١١٩ - موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين / مصطفى صبري ، دار احياء التراث بيروت ط ٢
- ١٢٠ - هداية الحيارت في أجوبة اليهود والنصارى / ابن القيم ت ٧٥١ هـ مكتبة المعارف - الرياض ، طبعة جديدة

مراجع الفقه والاصول (مرتبة على الحروف الابدجية)

- ١٢١ - الاجماع / ابن المنذر ت ٣٠٩ هـ تحقيق ابو حماد صغير ، ط ١ دار احياء التراث
- ١٢٢ - الاحكام في اصول الاحكام / الامدي ، تحقيق محمد احمد عبد العزيز ط ١ مكتبة عاطف - مصر
- ١٢٣ - ادلة التشريع المتعارضة / د. بدران ابو العينين ، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية
- ١٢٤ - ارشاد الفحول / الشوكاني ت ١٢٥٥ هـ ، ط ١ البابي الحلبي - مصر
- ١٢٥ - اصول السرخسي / محمد بن احمد السرخسي ت ٤٩٠ هـ ، تحقيق ابو الوفا الافغاني لجنة احياء المعارف العثمانية - الهند ، طبع دار المعرفة
- ١٢٦ - اصول الفقه / ابو زهرة وار الفكر العربي - القاهرة
- ١٢٧ - الاعتماد / الشاطبي ت ٧٩٠ هـ ، المكتبة التجارية - مصر
- ١٢٨ - الاموال / ابو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ ط ٢ تحقيق محمد خليل هراس
- ١٢٩ - الأم / الامام الشافعي ت ٢٠٤ هـ اشرف محمد وهري النجار ط ٢ دار المعرفة بيروت
- ١٣٠ - التمهيد في اصول الفقه / ابو الخطاب الحنبلي ت ٥١٠ هـ ، دراسة وتحقيق : د. مئيد أبو عمشة ط ١ مركز البحث العلمي - جامعة أم القرى
- ١٣١ - تيسير التحرير / امير باد شاه ، البابي الحلبي مصر
- ١٣٢ - حاشية التتارزاني على مختصر ابن الحاجب / سعد الدين التتارزاني ت ٧٩١ هـ مراجعة وتصحيح : شعبان محمد اسماعيل ، مكتبة الكليات الازهرية - مصر
- ١٣٣ - الرسالة / الامام الشافعي ت ٢٠٤ هـ تحقيق احمد شاکر
- ١٣٤ - روضة الناظر / ابن قدامة ت ٦٢٠ هـ ، دار الكتاب العربية - بيروت ط ١
- ١٣٥ - شرح الكوكب المنير / ابن النجار ت ٩٧٢ هـ ، تحقيق : د. محمد الزحيلي و د. نزيه حماد ، مركز البحث العلمي - بجامعة أم القرى - دار الفكر دمشق
- ١٣٦ - العدة في اصول الفقه / القاضي ابو يعلى الفراء ت ٤٥٨ هـ تحقيق د. احمد بن علي سير المباركي ، ط ١ أولى مؤسسة الرسالة - بيروت
- ١٣٧ - كشف الاضمار علاء الدين البخاري ت ٧٣٠ هـ ، دار الكتاب العربي - بيروت
- ١٣٨ - مجموع الفتاوى / ابن تيمية ت ٧٢٨ هـ جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النبدى ط ٢ توزيع ونشر دار الافتاء بالرياض
- ١٣٩ - مذكرة اصول الفقه على روضة الناظر / محمد الامين الشنقيطي ، المطبعة السنغية المدينة المنورة

- ١٤٠ - المستمضى / الغزالي ت ٥٠٥ هـ تحقيق محمد ابو العلا ، مكتبة الجندي مصر
- ١٤١ - المعتمد / ابو الحين البصرى تحقيق محمد حميد الله ، المعهد العلمي الفرنسي - دمشق
- ١٤٢ - المصنفى / ابن قدامة المقدسى ت ٦٢٠ هـ مكتبة الرياض الحديثة
- ١٤٣ - الموافقات في اصول الاحكام / الشاطبي ت ٧٩٠ هـ ، تحقيق محمد محيي الدين الناصر : محمد علي صبيح - ميدان الازهر بمصر
- ١٤٤ - موسوعة فقه عثمان بن عفان / د. محمد رواس قلعي ، جامعة ام القرى مركز البحث العلمي طبعة اولى
- ١٤٥ - نهاية السؤل / عبد الرحيم الاسنوى ت ٧٧٢ هـ ، مطبعة محمد علي صبيح مصر

مراجع اللغة (مرتبة على الحروف الابدية)

- ١٤٦ - اساس البلاغة / الزمخشري ت ٥٣٨ طبعة دار صادر دار بيروت
- ١٤٧ - اعجاز القرآن / الباقلاني ت ٤٠٣ هـ تحقيق السيد عقر ط ٢ دار المعارف مصر
- ١٤٨ - اعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي
- ١٤٩ - آمال المرتضى / الشريف المرتضى علي بن الحسين ت ٤٣٦ هـ تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الكتاب العربي - بيروت
- ١٥٠ - الايضاح في علو البلاغة / الخطيب القزويني ، مكتبة محمد علي صبيح مصر
- ١٥١ - البيان والتبيين / الجاحظ ت تحقيق عبد السلام هارون ط ٣ ، مكتبة الخانجي - القاهرة - ومكتبة الهلال بيروت
- ١٥٢ - تاج العروس / الزبيدي ت ١٢٠٥ هـ ط ١ المطبعة المنيرية - مصر
- ١٥٣ - تشهيل الفوائد / ابن مالك ت تحقيق محمد كامل بركات ، دار الكتاب العربي مصر
- ١٥٤ - الخصائص / ابن جني ط ٢ تحقيق محمد علي النجار
- ١٥٥ - ديوان زهير ابن ابي سلمى ، طبعة دار صادر دار بيروت
- ١٥٦ - شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٢٠ دار احياء التراث - القاهرة
- ١٥٧ - صاحب في فقه اللغة / احمد بن فارس ت ٣٩٥ هـ تحقيق د. مصطفى الشويبي ، مؤسسة بدان للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٣ م
- ١٥٨ - الصحاح / الجوهري / تحقيق : احمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين بيروت ط ٣
- ١٥٩ - العروض تهذيبه واعادة تدوينه / جلال الحنفي ، مطبعة العاني وزارة الاوقاف العراقية
- ١٦٠ - الفروق اللغوية / ابو الهلال العسكري ، تحقيق حسام الدين المقدسي ط ١ دار الكتف الحمية / بيروت
- ١٦١ - في اصول النحو / سعيد الافغاني ، مطبعة جامعة دمشق ط ٣
- ١٦٢ - الكامل / المبرد ط ١ البابي الحلبي ، تحقيق د. زكي مبارك
- ١٦٣ - لسان العرب / ابن منظور الافرقي ، دار صادر ، دار بيروت

- ١٦٤- المحكم / ابن سيده ت ٤٥٨ هـ تحقيق عبد الستار احمد نرج ط١ الحلبي
- ١٦٥- معجم مقاييس اللغة / ابن فارس ت ٣٩٥ هـ تحقيق عبد السلام هارون ط١ الحلبي
- ١٦٦- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب / ابن هشام الانصاري ت ٧٦١ هـ تحقيق :
د . مازن المبارك ، دار الفكر
- ١٦٧- المفصل في الالفاظ الفارسية / د . علاء الدين المنجد ط١ ايران
- ١٦٨- النهاية في غريب الحديث / ابن الاثير ت ٦٠٦ هـ تحقيق محمود الطناحي
البابي الحلبي وشركاه مصر
- ١٦٩- معجم الهوامع في شرح جمع الجوامع / السيوطي ت ٩١١ هـ ، تحقيق :
عبد السلام هارون ، د . عبد العال مكرم

كتب التراجم والتاريخ (مرتبة على الحروف الابجدية)

- ١٧٠- الامابة في تمييز الصحابة / ابن حجر العسقلاني ت دار الكتاب العربي
- ١٧١- الاعلام / خير الدين الزركلي ، ط٥ دار العلم للملايين - بيروت
- ١٧٢- انباء الرواة عند انباء النحاة / علي بن يوسف القنطي
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الكتب المصرية
- ١٧٣- البداية والنهاية / ابن كثير ت ٧٧٤ هـ ط٢ مكتبة المعارف - بيروت
- ١٧٤- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع / الشوكاني ت ١٢٥٠ هـ مطبعة
السعادة
- ١٧٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة / السيوطي ، تحقيق : محمد ابو
الفضل ابراهيم ، ط١ البابي الحلبي - مصر
- ١٧٦- تاريخ بغداد : الخياط البغدادي ت ٤٦٣ هـ ، دار الكتاب العربي - بيروت
- ١٧٧- تاريخ الطبري / ابن جرير الطبري ، ت ٣١٠ هـ ، دار المعارف - مصر
- ١٧٨- تراجم الاعلام المعاصرين / أنور الجندى ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة
- ١٧٩- تقريب التهذيب / ابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ ، تحقيق الشيخ محمد عوامة
دار الرشيد حلب ط١
- ١٨٠- تهذيب التهذيب / ابن حجر طبعة دار صادر - بيروت
- ١٨١- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة / تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم
البابي الحلبي
- ١٨٢- الدرر الكامنة / ابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ محمد سيد جاد الحق ،
دار الكتب الحديثة
- ١٨٣- السيرة النبوية / ابن هشام ت ٢١٨ هـ تحقيق مصطفى السقا ، عبد الحفيظ شلبي
ط٢ البابي الحلبي
- ١٨٤- طبقات الشافعية الكبرى / تاج الدين السبكي ط١ البابي الحلبي مصر
- ١٨٥- طبقات المفسرين الداوودي (محمد بن علي) ت ٩٤٥ هـ تحقيق علي محمد عمر
مكتبة وهبة مصر ط١
- ١٨٦- طبقات المفسرين / السيوطي ت ٩١١ هـ دار الكتب العلمية بيروت

- ١٨٧ - غاية النهاية في طبقات القراء / ابن الجزري ت ٨٣٣ هـ عني بنشره :
ج ٠ برجستراس ١٣٥١ م
- ١٨٨ - الكامل في التاريخ / ابن الاثير ت ٦٣٠ هـ دار الكتاب العربي بيروت
- ١٨٩ - الكواكب السائرة / نجم الدين الغزي ، تحقيق : د. جبرائيل سليمان
الناشر : محمد امين دمج وشركاه - بيروت
- ١٩٠ - لسان الميزان / ابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ ط ٢ مؤسسة الاعلمي بيروت
- ١٩١ - معجم الادباء / ياقوت الحموي ت ٦٢٢ هـ ط ٢ البابي الحلبي مصر
- ١٩٢ - المنتظم في تاريخ الملوك والامم / (ابن الجوزي) (عبد الرحمن بن علي) ت ٥٩٧ ط ١ دائرة المعارف العثمانية - حيد اباد الدكن
- ١٩٣ - وفيات الاعيان / ابن ظلكان ت ٦٨١ هـ تحقيق : د. احسان عباس ،
دار صادر - بيروت

مراجع وكتب مختلفة

- ١٩٤ - اسرار الكون ألن هاينك ترجمة د. سيد رمضان هدارة ، مكتبة النهضة
المصرية / القاهرة
- ١٩٥ - الاسلام يتحدى : تأليف وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الاسلام خان ط ١
دار البحوث العلمية
- ١٩٦ - الاعجاز اللغوي في القمة محمود السيد حسن مصطفى ط ١ ، مؤسسة شباب
الجامعة - مصر
- ١٩٧ - اقتراءات حول غايات الجهاد / د. محمد نعيم ياسين ط ١ دار الارقم عمان
- ١٩٨ - تسلية اهل المصائب / محمد بن محمد النجفي الحنبلي / ت ٧٨٥ هـ ،
مكتبة دار البيان - دمشق
- ١٩٩ - التعريفات / علي بن محمد الجرجاني - ت ١٤١٣ هـ مكتبة لبنان بيروت
- ٢٠٠ - تلبيس ابليس / ابن الجوزي / ادارة الطبعة المنيرية ١٣٦٨ هـ
- ٢٠١ - الجهاد المشروع / عبد الله بن زيد آل محمود ط ٢ مؤسسة الرسالة بيروت
- ٢٠٢ - رد مفتريات على الاسلام / د. عبد الجليل شلبي ، ط ١ دار القلم الكويت
- ٢٠٣ - زاد المعاد / ابن القيم ت ٧٥١ هـ تحقيق شعيب الارناؤوط وعبد القادر
الارناؤوط ط ١٤ مؤسسة الرسالة بيروت
- ٢٠٤ - الظواهر الجغرافية بين العلم والقران / د. عبد العليم خضر ط ١ اولي
الدار السعودية للنشر والتوزيع
- ٢٠٥ - العهد الجديد (الانجيل) طبعة جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الانبي
بيروت ١٩٧٤ م
- ٢٠٦ - مجلة البحوث الاسلامية عدد ٨٤ ، ادارات البحوث العلمية والافتاء
الرياض
- ٢٠٧ - مجلة كلية الشريعة ، جامعة ام القرى عدد ٢ ١٣٩٦ هـ
- ٢٠٨ - المسلمون وعلم الفلك / محمود الصواف ، الدار السعودية - جدة
- ٢٠٩ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي / محمد الخضر حسين ، المكتبة العلمية بيروت